مكتبة | 269

المشروع القومي للترجمة

عين القطة

1067

تأليف: مارجريت آتوود
ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمّال

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

تابعوا صفحتنا على فيسبوك

أقرأناكموه

telegram @ktabpdf

عين القطة

(رواية)

أقرأناكموه

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٦٧
- عين القطة (رواية)
- مارجريت آتوود
- عبد الحميد فهمى الجمال
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب:

Cat's Eye
By: Margaret Atwood
© O.W. Toad Ltd 1988

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المشروع القومى للترجمة

عين القطة

(رواية)

بقلم : مارجريت آتوود

ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال

المجلس الأعلى للثقافة

أقرأناكموه

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

آتوود ، مارجريت ، ١٩٣٩

عين القطة، بقلم : مارجريت آتوود ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال

ط ١ – القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٥٧٢ ص ، ٢٤ سم المشروع القومى للترجمة ، العدد ١٠٦٧

١ – القصص الأمريكية

أ – الجمال ، عبد الحميد فهمى (مترجم)

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977-437-559 -x

رقم الإيداع ٢٥١٧٤ / ٢٠٠٧

الفهرس

الباب الأول : الرئة الحديدية 9

الباب الثانى : الورق الفضى 19

الباب الثالث : رجال الإمبراطورية الأكفاء 53

الباب الرابع : نبات البلادونة المميت 111

الباب الخامس : العصَّارة 147

الباب السادس : عين القطة 201

الباب السابع : سيدة المساعدات الدائمة الخاصة بنا 235

الباب الثامن : نصف وجه 263

الباب التاسع : مرض الجذام 303

الباب العاشر : رسم الحياة 355

الباب الحادى عشر : نساء ساقطات 421

الباب الثانى عشر : جناح واحد 489

الباب الثالث عشر : ثوانى البيكو 519

الباب الرابع عشر : نظرية المجال المتحد 541

الباب الخامس عشر : الكوبرى 563

أقرأناكموه

عندما قامت مجموعات نجوم التوكانا Tucana الجنوبية بقطع رأسها جمعت المرأة العجوز دماءها فى يديها ونفختها فى اتجاه الشمس.

وصاحت : "روحى تدخل فيك أيضًا".

ومنذ ذلك الوقت من يرتكب جريمة قتل يتلقى فى داخل جسده دون رغبة أو معرفة روح ضحيته.

إدواردو جالينو "ذكرى النيران" : التكوين .

لماذا نتذكر الماضى ولا نتذكر المستقبل؟

ستيفن و. هاوكينج : "تاريخ مختصر للزمن" .

الباب الأول

الرئة الحديدية

أقرأناكموه

(١)

الزمن ليس خطًّا، بل إنه بُعْد مثل أبعاد المكان، وإذا أصبح بمقدورك أن تلوى المكان، فيمكنك أيضًا أن تلوى الزمان، وإذا كانت لديك المعرفة الكافية، وبمقدورك أن تتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء، فإنه يمكنك أن تسافر عائدًا فى عمق الزمن بحيث توجد فى مكانين فى الوقت نفسه.

قال لى ذلك أخى ستيفن أيام كان يرتدى السويتر البالى الأحمر الداكن ليجلس للمذاكرة، ويقضى كثيرًا من الوقت واقفًا على رأسه، حتى يمكن للدماء أن تتدفق إلى مخه وتغذيه ، ولم أفهم ما كان يعنيه، ولعله لم يشرح ذلك على نحو جيد ؛ إذ كان بالفعل يبتعد عن غموض الكلمات.

عندئذ بدأت أنظر إلى الوقت على أنه شىء ما له شكل بحيث يمكن أن تراه مثل سلسلة من الرقائق الشفافة موضوعة واحدة فوق أخرى؛ فأنت لا تنظر إلى الوراء عبْر الزمن، لكنك تنظر فيه إلى أسفل كما تنظر فى الماء، وأحيانًا تطفو أشياء على السطح، وأحيانًا أخرى لا شىء يأتى، لا شىء ينقضى.

* * *

(٢)

أقول : "ستيفن ردد أن الزمن ليس خطـــــًا"، فتقلّب كورديليا عينيها على النحو الذى توقعته ، وتقول: "وماذا بعد؟"، وتدخل هذه الإجابة السرور على قلبنا ؛ إذ

أقرأناكموه

تضع طبيعة الزمن فى مكانه الصحيح ، كما تضع أيضًا ستيفن فى مكانه الصحيح، وهو الذى يطلق علينا اسم المراهقات، وكأنه هو نفسه ليس تحت سن العشرين.

أنا وكورديليا نتجه بالترام إلى وسط المدينة كعادتنا فى أيام السبت فى فصل الشتاء ، الترام رطب حار بسبب الهواء الذى تم استنشاقه مرتين بسبب رائحة الصوف ، وتجلس كورديليا فى لامبالاة، تلكزنى بمرفقها من وقت إلى آخر مع إلقاء نظرات شاغرة على الآخرين بعينيها الرماديتين المبهمتين اللامعتين مثل المعدن. وهى تستطيع الحملقة فى أى شخص لفترة طويلة للغاية إلى أن يغض بصره وينظر بعيدًا، وأكاد أكون فى براعتها نفسها فى هذا الشأن، نومض فى تألق ونحن نبلغ من العمر ١٣سنة.

نرتدى معاطف صوفية لها حزام للربط، ونرفع الياقة لأعلى لكى تبدو شبيهة بياقات نجمات السينما، كما نلبس الأحذية المطاطية ذوات الرقبة مع ثنى الأجزاء العلوية منها علاوة على ارتداء الجوارب الرجالى، وفى جيوبنا تحشى الأوشحة النسوية التى تُرغمنا أمَّانا على ارتدائها، ولكننا نخلعها بعيدًا عن مرمى بصرهما، ونحن نحتقر أغطـــــية الرأس، وفمَّانا لزجان وأحمران ولامعان مثل الأظافر، معتقدين أننا صديقتان.

وفى عربات الترام توجد دائمًا سيدات عجائز أو ننظر إليهن على أنهن عجائز، يرتدين معاطف التويد الأنيقة الخاصة بمحلات هاريس مع ارتداء قفازات تلائم لون المعاطف ، علاوة على ارتداء قبعات أنيقة بها ريش خفيف ضئيل أنيق عند جانب واحد، وتوجد أخريات أكثر فقرًا ولهن شكل أجنبى، ويضعن الشال الغامق حول رؤوسهن وأكتافهن، وأخريات قصيرات وبدينات ولهن شفاه مزمومات توحى بأنهن يعتقدن أنهن أقوم أخلاقًا من الأخريات، وقد تزينت أذرعهن بحقائب التسويق، وهؤلاء نربط ذهنيًا بينهن وبين المبيعات التى تتم وفق المساومات، وبمقدور كورديليا أن تعرف القماش الرخيص من أول نظرة، فتقول مثلاً: "هذا جبردين".

وهناك سيدات لم يروضن أنفسهن وفق الأوضاع الجديدة، اللائى ما زلن يحاولن اكتساب السحر والجاذبية، ولا يوجد عدد كبير من هذه النوعية من

السيدات، لكنهن يبرزن فى وضوح؛ إذ يرتدين ثيابًا قرمزية وقرطًا متدليًا وقبعات، وتظهر قمصان النوم أسفل جونلاتهن، وهى قمصان ذوات ألوان غير عادية؛ فأى لون بخلاف اللون الأبيض يعتبر غير محتشم، لقد صبغن شعورهن باللون الأشقر الفاتح أو بلون أزرق مبرقش بنقط داكنة، وبقع أحمر الشفاه كبيرة للغاية حول أفواههن، وأحمر الشفاه ملطخ على الوجنتين، والعيون مسحوبة فى التواء واهتزاز. هؤلاء هن السيدات اللائى يتحدثن عن أنفسهن؛ إذ تقول إحداهن: "لحوم الضأن، لحوم الضأن" فى تكرار مثل أغنية، وتقوم أخرى بلكز سيقاننا بالمظلة وتقول : "عارية ومكشوفة".

هذه هى النوعية التى نفضلها، بهن نوع من البهجة كما توجد لديهن ملكة الابتكار ولا يعطين اهتمامًا بما يعتقده الناس، لقد هربن وإن كنا لا نعرف فى وضوح الشىء الذى هربن منه، ونحن نعتقد أن أثوابهن الشاذة وحركاتهن اختيرت بعناية، وأننا عندما يتقدم بنا السن ستصبح لنا أيضًا حرية الاختيار.

تردد كورديليا: "هذا ما سأكون عليه، سيكون لدى فقط كلب بكينى كثير النباح، وأطارد الأولاد بعيدًا عن مروجى الخضراء، ولسوف يكون لدى عصا من النوع الذى يستخدمه راعى الأغنام".

وأقول: "سيكون لدى عظاية أليفة أمريكية آكلة للأعشاب" وأضيف: "ولا أرتدى سوى اللون الأحمر الزاهى"، وهذه كلمة قد تعلمتها مؤخرًا.

* * *

والآن أفكر: ماذا لو أنهم لم يعد بمقدورهم مشاهدة ما يبدون عليه؟ ربما كان الأمر فى مثل بساطة مشكلات العين؛ فأنا أعانى من تلك المشكلة الآن، إذا اقتربت من المرآة أكثر من اللازم أصبح ضبابية، وإذا ابتعدت كثيرًا لا أتمكن من مشاهدة التفاصيل، ومَنْ يعرف تعبيرات الوجه التى أقوم بها؟ ومنْ يعرف تلك النوعية من الفن الحديث التى أرسم بها نفسى؟ وعندما أتمكن من مواءمة المسافة، فإننى أكون مختلفة، فأنا انتقالية؛ ففى بعض الأحيان أشبه امرأة مُستهلَكة فى سن الخامسة

أقرأناكموه

والثلاثين، وفى أحيان أخرى أشبه امرأة مرحة مفعمة بالنشاط فى سن الخمسين؛ فالكثير يتوقف على الضوء وعلى الطريقة التى تحدق بها بعينيك.

أتناول الطعام فى مطاعم وردية اللون؛ حيث تكون أفضل بالنسبة للبشرة، فالمطاعم ذات اللون الأصفر تحول بشرتك إلى اللون الأصفر، وأنا أمضى الوقت فى التفكير فى هذا الشأن، بمقدورى أن أدرك السبب فى أن النساء يقلعن عن الغرور فى نهاية الأمر، ولكننى لم أصل بعد إلى حالة الاستعداد للتخلى عن الغرور.

فى الآونة الأخيرةُ ضبطتُ نفسى مُتلبسة بالترنّم بصوت مرتفع أو سائرة فى الشارع وقد انفرج فمى قليلاً، بينما يتساقط قدْر ضئيل من اللُعاب، بكمية ضئيلة فقط، ولكن ربما يكون هذا هو شفرة الأسفين أو الخطوة الأولى التى من المرجح أن تكون لها نتائج خطيرة أو الشرخ بالحائط الذى سيفتح فيما بعد.. على ماذا؟ ما هى مشاهد وآفاق وغرابة الأطوار المتألقة أو الجنون؟

لا أحد يمكننى أن أقول له هذا باستثناء كورديليا، ولكن أى كورديليا؟ هل هى كورديليا التى استحضرتُ فى ذهنى صورتها، والتى ترتدى الحذاء ذا الرقبة المطوية من أعلى وترتدى الياقة المرفوعة لأعلى، هل كورديليا السابقة على ذلك أم كورديليا اللاحقة عقب ذلك؟ إذ لا يوجد أبدًا كيان وحيد لأى شخص.

* * *

لو قُدِّر لى أن أتقابل مع كورديليا مرة أخرى؛ فماذا سأقول لها عن نفسى؟ هل سأقول الحقيقة، أم أى كلام من شأنه أن يجعلنى أبدو على ما يُرام أمامها؟

ربما الاختيار الثانى؛ فما زال لدىَّ ذلك الاحتياج، لم أشاهدها منذ فترة طويلة، ولم أكن أتوقع مشاهدتها، لكن نظرًا لأننى رجعتُ إلى هنا فإننى لا أكاد أمشى فى شارع دون أن ألمحها وهى تستدير عند ناصية أو تدخل من خلال باب، ومما لا شك فيه أن أجزاءها المتناثرة (كتف + نسيج صوف طبيعى غير مصبوغ +

نسيج من وبر الجمال + بروفيل الوجه + الجزء الخلفى من الساق) تنتمى لنساء إذا شوهدن بطريقة كلية متكاملة لا يكنّ كورديليا.

ليست لدى فكرة عن الشكل الذى تبدو عليه الآن، هل هى ممتلئة؟ هل ارتخى ثدياها؟ هل لديها الشعر الرمادى الخفيف على زاويتى فمها؟ من غير المحتمل، لأنها ستبادر إلى اقتلاع ذلك الشعر، هل ترتدى نظارة لها إطار حديث؟ هل حرصت على أن يتم رفع جفنى عينيها لأعلى؟ هل تصبغ شعرها بصبغة خفيفة؟ كل هـــذه الأشياء محتملة؛ فكل منا وصـــل إلى المرحلة الوسطى من العمر، حيث لا يزال يُعتقد أن هذه الحيل ستنجح فى حالة تجنب ضوء الشمس الساطع.

أفكر فى كورديليا وهى تتفحّص التجعدات المتزايدة تحت عينيها حيث تكون البشرة قد ترهلت وتجعَّدت مثل مرفق الذراعين، فهى تتنهد وتُربِّت بالكريم الذى هو من النوع الملائم، وهى تقيّم يديها اللتين تنكمشان قليلاً وتلتويان قليلاً مثل يدى. التشوه بدأ فى ذبول الفمّ وفى اللُّغد الذى أصبح مرئيًّا وظاهرًا أسفل الذقن وفوق الحنجرة ومن خلال الزجاج المعتم للقطارات النفقية الكهربائية، ولا يلحظ هذه الأشياء شخص ما آخر، اللهم إلا إذا نظر فى تحديق عن كثب، لكن كورديليا وأنا لدينا عادة النظر فى تحديق.

إنها تسقط فوطة الحمَّام الخضراء، وتنظر عبْر كتفها، وتشاهد فى المرآة تجاعيد خصرها، وترى الردفين المتهدّلين عند استدارتها تشاهد الشعر أشبه بنبات السَّرخس الجاف، وأتخيلها تعمل فى مبنى للألعاب الرياضية وقد تصبّب العرق منها مثل خنزيرة، وأعرف ما ستقوله، عن كل هذا، وكيف ضحكنا فى كراهية وابتهاج عندما عثرنا على الشمع الذى استخدمته أخواتها الكبيرات على سيقانهن وقد تجمد فى داخل إناء صغير وامتلأ بالشعر الغليظ الخشن؛ فالأشياء الغريبة على نحو بشع أو مضحك والتى تتعلق بالجسد كانت دائمًا تثير اهتمامها.

أتخيل نفسى وأنا أواجهها فجأة، مرتدية معطفًا باليًا قديمًا وقبعة مشدودة برباط وجالسة على حاجز حجرى عند حافة الطريق وقد وضعت إلى جوارها حقيبتين من البلاستيك تتضمنان كل ممتلكاتها مع التمتمة بكلام مع نفسها، وأقول لها:

أقرأناكموه

"كورديليا! ألا تعرفيننى؟" تتعرَّف على لكنها تتظاهر بأنها لا تعرفنى، تنهض واقفة وتمشى مبتعدةً فى تثاقل فوق قدمين متورمتين بينما جوربها القديم يطلّ من خلال الثقوب الموجودة فى حذائها المطاطى ذى الرقبة وتنظر إلى الوراء عبْر كتفها.

يوجد بعض الرضا فى مشاهدة ذلك ويوجد المزيد من الرضا لدى مشاهدة الأمور الأكثر سوءًا، أرقب من نافذة أو من بلكونة لكى أتمكن من الرؤية على نحو أفضل لدى قيام رجل بمطاردة كورديليا على طول رصيف المشاة الذى يقع أسفل بلكونتى ويلحق بها الرجل ويضربها على ضلوعها – لا أستطيع أن أتعامل مع موضوع الوجه – ويطرحها أرضًا، لكننى لا أستطيع الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك.

من الأفضل التحوُّل إلى خيمة أكسجين، كورديليا فاقدة الوعى، وقد تم استدعائى بعد فوات الأوان للوقوف إلى جوار سريرها بالمستشفى، توجد أزهار ذابلة فى داخل زهرية، وتوجد أنابيب متصلة بذراعيها وأنفها ويوجد صوت التنفس النهائى الذى يحدث فى نهاية العمر، أمسك يدها.. وجهها منتفخ وشاحب مثل بسكوتة غير مخبوزة، وجفنا عينيها لا يرمشان، لكن توجد ارتعاشة خفيفة فى أصابعها أو هل أتخيل أنا تلك الارتعاشة؟ وأجلس هنالك أسائل نفسى عما إذا كان ينبغى أن أنتزع تلك الأنابيب من ذراعيها والقابس الكهربائى من الحائط، يقول الأطباء إنه لا يوجد لديها نشاط فى المخ، هل أبكى؟ ومنْ الذى قام باستدعائى؟

الأفضل من ذلك، الرئة الحديدية الخاصة بالتنفس الاصطناعى، لم يسبق لى قط أن شاهدت رئة حديدية، ولكن الصحف كان بها صور لأطفال فى رئات حديدية عندما كان الناس لا يزالون يتعرضون للإصابة بمرض شلل الأطفال، وهذه الرئة الحديدية عبارة عن أسطوانة عملاقة مع وجود رأس ناتئة من أحد طرفيها هى رأس فتاة مع انسياب شعرها عبْر الوسادة، العينان كبيرتان ومفتوحتان فى الليل فقط ، بهرتنى أكثر من القصص التى تتعلق بأطفال تعرضوا للمخاطر وأخفقوا وغرقوا، أو أطفال لعبوا فوق قضبان السكك الحديدية مما ترتب عليه قطع أذرعهم وأرجلهم لدى مرور القطارات عليها، يمكنك أن تصاب بشلل الأطفال دون أن تعرف كيف أو أين، وينتهى بك المطاف فى داخل رئة حديدية، قد يكون هناك

شيء ما استنشقته أو أكلته أو التقطته من النقود القذرة التى لمسها آخرون، وأنت لم تعرف ذلك على الإطلاق، استُخدمتْ الرئات الحديدية من أجل بث الرعب فى نفوسنا.

كورديليا فى رئة حديدية، وبالتالى فالتنفس يتم فى داخلها مثلما يتم العزف على الأكورديون، صوت التنفس الصناعى يترامى من حولها، إنها فى حالة من الوعى الكامل، لكنها غير قادرة على التحرك، أدخل إلى الغرفة فى تحرك وفى كلام، وتتلاقى أعيننا.

* * *

من المؤكد أن كورديليا تعيش فى مكان ما، وربما تكون على مسافة ميل واحد منى، وربما تكون فى العمارة التالية المجاورة، ولكننى فى نهاية الأمر ليس لدى فكرة عما سأفعله إذا تقابلتُ معها بطريق الصدفة فى القطار الكهربائى النفقى على سبيل المثال، حيث أجدها جالسة أمامى أو منتظرة على الرصيف وقد استغرقت فى قراءة الإعلانات، ونحن قد نقف بجوار بعضنا البعض مع الانهماك فى النظر على فم أحمر كبير يمـدّ نفسه حول قطعـة شيكولاته وقد أستدير نحوها، وأقول لها: "يا كورديليا... إننى إيلين"؛ فهل تستدير نحوى وتطلق صرخة لها طابع مسرحى؟ أم ستتجاهلنى؟

أو هل سأتجاهلها إذا لاحت لى الفرصة؟ أو هل سأتجه إليها فى صمت وألفّ ذراعى حولها؟ أو أمسك بها من كتفيها وأهزها مرارًا وتكرارًا؟

* * *

ظللتُ منخرطة فى المشى على مدى ساعات هابطة من التلّ نحو وسط المدينة، حيث لم تعد عربات الترام موجودة، الوقتُ مساءً والطقس ما زال مألوفًا.

أقرأناكموه

وصلت إلى المكان الذى اعتدنا أن نخرج إليه من الترام، ودخلتُ إلى روابى الأفريز الخاصة بثلوج يناير ومنها إلى الرياح المزعجة القادمة من البحيرة بين المبانى العتيقة ذات الأسقف المسطحة والتى كانت بالنسبة لنا أقرب إلى التمدين، إلاَّ أن هذا الجزء من المدينة لم يعد مسطحًا وعتيقًا؛ فالنيون المكتوب بحروف متصلة يزين واجهات المبانى المجدَّدة، كما توجد كميات كبيرة من زركشات النحاس الأصفر وكميات كبيرة من العقارات والأملاك الثابتة والأموال، وإلى الأمام فى الأعالى توجد أبراج ضخمة مستطيلة الشكل مشيدة كلها من الزجاج ومضاءة مثل شواهد قبور هائلة لها لون أزرق فاتح.

أنظر كثيرًا إلى الأبراج أو إلى الناس الذين يتخطوننى فى سيرهم وقد ارتدوا ملابس مسايرة للموضة وملابس مستوردة وملابس جلدية مصنوعة يدويًّا، بل أنظر لأسفل نحو رصيف المشاة مثل شخص يقتفى آثار أقدام شخص آخر.

أشعر بالتوتر فى حلقى وبالآلام على طول خط الفكّ.. أبدأ فى قضم أظافرى مرة أخرى.. توجد دماء.. أتذكر مذاق الدماء.. الدماء لها مذاق البرتقال واللبان الرخيص والعرقسوس الأحمر والشَّعر المقضوم والثلج القذر.

الباب الثانى

الورق الفضى

أقرأناكموه

(٣)

إننى مستلقية على الأرضية ومغطاة بقطعة من القماش المخملى الناعم، هذا هو منتصف حياتى، أتخيله بمثابة مكان مثل منتصف نهر ومنتصف كوبرى ومنتصف المسافة وعبرها وفوقها. من المفترض أن أكون قد جمَّعت الأشياء فى وقت لا يتجاوز الآن، الممتلكات والمسئوليات والإنجازات والتجربة والحكمة، من المفترض أن أكون إنسانة ذات جوهر.

لكن منذ عودتى إلى هنا لا أشعر أننى أكثر ثقلاً، أشعر أننى أخف وزنًا، كأننى أُريق مادة وأفقد جُزيئات وأفقد كالسيوم من عظامى وأفقد كرات دموية من دمائى، أتعرض للتضاؤل والانكماش، وأمتلئ بهواء بارد أو مثلج يتساقط فى رفق.

ورغم كل هذه الخفة لا أصعد وإنما أهبط، أو بالأحرى يتم جذبى لأسفل نحو طبقات من هذا المكان كما لو كنت أُجذب إلى داخل طين مُذاب.

* * *

حقيقة الأمر إننى أكره هذه المدينة، كرهتها لفترة طويلة للغاية لا أكاد أتذكر أى اتجاه آخر يتعلق بها.

ذات يوم كان من المتلائم مع الموضة الحديثة أن تقول: "كمْ هى سخيفة ومثيرة للملل، فالجائزة الأولى قضاء أسبوع فى تورونتو والجائزة الثانية قضاء أسبوعين فى تورونتو.. تورونتو الفاضلة.. تورونتو المثيرة للكآبة، حيث لا يمكن لك الحصول على الخمور فى أيام الأحد"، فكل شخص عاش هنا قال تلك الأشياء، قال إنها ريفية وراضية عن نفسها ومثيرة للملل، فإذا قلت أنت ذلك، فإن هذا يبيّن أنك عرفت هذه الخصائص، لكنك لم تشارك فيها بنفسك.

أقرأناكموه

والآن يُفترض أن تقول إنها تغيرت كثيرًا، وفى المجلات يستخدمون كثيرًا عبارة: مدينة على المستوى العالمى؛ إذ توجد بها جميع المطاعم العرقية وكذلك المسرح والمحلات، ويُفترض لها أنها نيويورك لكن بدون زبالة ونفايات وأعمال السطو والسلب والنهب، اعتاد الأهالى الذهاب إلى بافالو لقضاء إجازات نهاية الأسبوع؛ فالرجال منهم يذهبون لمشاهدة الاستعراضات الراقصة للفتيات واحتساء البيرة، بينما النساء يذهبن من أجل التسوّق ويعدن عقب القفز عليهن والممارسة معهن مرتديات طبقات عديدة من الملابس من أجل تهريبها عبْر منافذ الجمرك، والآن نجد أن حركة المرور فى نهاية الأسبوع تسير فى الاتجاه العكسى.

لم أصدق أبدًا أنها مدينة مملَّة أو على المستوى العالمى، فتورونتو لم تكن أبدًا مملة من وجهة نظرى؛ فكلمة "مُملة" ليست لوصف مثل هذا البؤس والسّحر.

لا أستطيع أن أصدق أنها تغيرت، إذ أدركت أنها ما زالت على ما هى عليه أثناء انطلاقى بالسيارة الأجرة بالأمس من المطار ومرورى بجوار مصانع ومحلات أنيقة كانت ذات يوم مزارع شاسعة، عَبَرْت قلْب المدينة بما فيها من المظلات التى تحمى النوافذ من الشمس وأحجار الرصف ذات الطابع الأوروبى، فتحت الازدهار والتفاخر تقبع المدينة القديمة ببيوتها المصنوعة من الطوب اللَّبن الأحمر السميك والأعمدة الأمامية شبيهة بجذوع نباتات الغاريقون البيضاء، إنها مدينة ماكرة مليئة بالضغينة ومحبة للانتقام وعنيدة ولا سبيل إلى تغييرها.

وفى أحلامى عن هذه المدينة أشعر بالضياع دائمًا.

* * *

وبصرف النظر عن كل هذا، فأنا لدى بالطبع حياة حقيقية، فى بعض الأحيان أجد مشقة فى الإيمان بها، لأنها لا تبدو شبيهة بنوعية الحياة التى أستحقها، وهذا يتماشى مع اعتقاد آخر لى، وهو أن أى شخص آخر من عمرى نفسه هو إنسان بالغ سن الرشد بينما أنا فقط فى حالة تنكّر وإخفاء.

أعيش فى منزل له ستائر بالنوافذ وبه مساحة من المروج الخضراء... ويقع فى كولومبيا البريطانية التى تبعد عن تورونتو بمسافة يمكننى قطعها دون أن أغرق فى الماء، وزيف المناظر هناك يشجعنى، جبال بطاقات الترحيب الخاصة بتنوّع غروب الشمس، والمنازل الشبيهة بالأكواخ والتى تبدو وكأنها شُيدت بمعرفة الأقزام السبعة فى الثلاثينيات، والعربات البطيئة العملاقة التى تبدو أكبر حجمًا مما ينبغى أن تكون عليه العربة، وحتى المطر يكون مبالغًا فيه، لا أستطيع أن آخذ هذه الأشياء مأخذ الجدّ، وأفترض أنها حقيقية وثقيلة الوطأة على الناس الذين نشأوا هناك، مثلما هذا المكان ثقيل الوطـــأة بالنســبة لى، لكن فى الأيام المشرقة فالأمر لا يزال يبدو شبيهًا بإجازة وشبيهًا بمراوغة وتملّص، وفى الأيام الرديئة لا ألحظ المكان.

وأنا لى زوج – وهو ليس زوجى الأول – يسمى "بين"، ليس فنانًا من أى نوع مما يجعلنى أشكر الله على ذلك، يدير شركة سياحية متخصصة فى تنظيم رحلات إلى المكسيك، ومن بين مميزاته الممتازة الأخرى تذاكر السفر الرخيصة إلى "يوكاتان"، والشركة السياحية هى السبب الذى جعلته لا يجىء معى فى هذه الرحلة، فالشهور السابقة على الكريسماس تعتبر فترة محمومة فى شركات السياحة والأسفار.

ولدىَّ أيضًا ابنتان... أصبحتا كبيرتان الآن، الأولى "سارة" الثانية "آن"، إحداهما طبيبة والأخرى محاسبة، هذان اختياران معقولان، إننى مؤمنة بالاختيارات المعقولة التى تكون مختلفة تمامًا عن الكثير من اختياراتى، وأنا مؤمنة أيضًا بالاختيارات المعقولة بالنسبة للأطفال... لأنه يكفى أن تنظر لما حدث لكورديليا.

وجنبًا إلى جنب مع حياتى الحقيقية أمامى مستقبل مهنى قد لا يوصف بأنه مستقبل حقيقى على وجه الدقة، فأنا رسَّامة، بل أضع ذلك فى جواز السفر فى لحظة من التَبجح، نظرًا لأن البديل الآخر كان سيصبح ربة بيت، وإنه لشىء بغيض بالنسبة لى أن أصبح رسامة، فذلك ما زال يجعلنى أنكمش خوفًا، فالناس

أقرأناكموه

المحترمون لا يصبحون رسامين، الذين يصبحون رسامين هم فقط الناس المفرطون فى التفتّح والمغرورون والمدَّعون والمتكلفون والزائفون، وكلمة فنانة تسبب لى الخجل؛ ولذلك أفضل كلمة رسامة لأنها تشير إلى مهنة شرعية ومعظم الناس فى هذه الدولة سيقولون لك إن الفنان شخص كسول ومبهرج، وإذا قلت إنك رسام سيتم النظر إليك بطريقة غريبة، اللهم إلاَّ إذا كنت ترسم الحياة البرية أو تكسب قدرًا كبيرًا من الأموال من وراء الرسم بالطبع، ولكننى أكسب قدرًا من النقود يكفى لتوليد الحقد بين رسامين آخرين وليست نقودًا تكفى لأن أقول لكل شخص آخر أن يبتلعها.

ومع ذلك فإننى فى معظم الأوقات، أبتهج كثيرًا وأظن أننى نجوتُ بمشقَّة، ومستقبلى الفنّى هو السبب فى وجودى هنا،إنه أول معرض لى، المعرض يسمى: "التعديلات الجزئية" وهى إحدى التلاعبات اللفظية التى اعتادت أن تدخل السرور على قبل أن تصبح ذات طراز حديث للغاية، وكان ينبغى أن أكون مسرورة من هذا المعرض، ولكن مشاعرى مختلطة؛ فأنا لا أحب الاعتراف بأننى عجوز بالقدر الكافى وراسخة للغاية بحيث يكون لى شىء كهذا، حتى ولو كان فى معرض اختيارى يدار بمعرفة مجموعة من النساء؛ إذ أجد ذلك غير محتمل ومنذرًا بالشؤم، حيث يتمثل ذلك أولاً فى المعرض وبعدئذ يتمثل فى معرض للجثث، لكننى أيضًا أشعر بالبهجة لأن معرض أونتاريو للفنون غير مستعد لأن يعرض لوحاتى، حيث يميل إلى عرض اللوحات الخاصة بالفنانين الأجانب الذين انتقلوا إلى العالم الآخر.

* * *

ربما تكون الإقامة هنا شيئًا سخيفًا متسمًا باستعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها مع زوجى الأول جون، لكننا دائمًا على اتصال مع بعضنا البعض بسبب سارة التى هى ابنته أيضًا، وبعد أن وصلنا إلى مرحلة الصراخ والزجاج المكسور استقر بنا المطاف بحيث نصبح صديقين من نوع ما من على مسافة بعيدة وهو شىء

أسهل من أن نكون قريبين فى نزاع دائم. عندما سمع عن المعرض عرض على خدماته وقال إن الأسعار بفندق بتورونتو – حتى ولو كان فندقاً من الدرجة الثانية – قد أصبحت رهيبة للغاية، وكان المعرض على استعداد لتحمل جميع نفقات إقامتى فى فندق ولكننى لم أذكر له ذلك، فأنا لا أحب أناقة الفنادق ونظافة البانيوهات الشديدة، كما لا أحب سماع صدى صوتى هناك وخاصة فى الليل، فأنا أفضل الإراقة والتناثر والفوضى وقذارة الناس الذين هم مثلى ومثل جون، وأفضل الناس المرتحلين البدو.

يقع استوديو جون فى شارع كينج ستريت بالقرب من الواجهة المائية، وقد اعتاد شارع كينج أن يكون أحد الأماكن التى لم يذهبوا إليها على الإطلاق، فهو مكان يضم مستودعات حقيرة للبضائع القذرة والشاحنات التى تدمدم فى قعقعة والأزقة المريبة. الآن بزغ الشارع إلى العالم، غزوه بأعداد كبيرة، وحقيقة الأمر أن الموجة الأولى من الفنانين جاءت وذهبت، وهذا المكان تسوده الآن الكتابات المحفورة على النحاس الأصفر وأنابيب التسخين المدهونة باللون الأحمر ومكاتب المحامين، واستوديو جون الذى يقع فى الدور الخامس بأحد المستودعات ليس من المتوقع أن يبقى لفترة طويلة على الشكل الذى هو عليه حاليًا؛ فالطوابق السفلية يتقشر مشمّع الأرضية بها، كما أن الألواح الخشبية العريضة الموجودة بالطوابق السفلية يتم تنظيفها.

ترك لى جون المفتاح فى مظروف تحت الحصيرة كما ترك رسالة موجزة يقول فيها: بركات من عند الله، كان يدلل على أنه أصبح رقيق المشاعر لين العريكة؛ فكلمة (بركات) لم تكن من مفرداته، وهو حاليًا فى لوس انجيلوس بصفة مؤقتة ينجز عملاً صعبًا للغاية هناك، ولكنه سوف يرجع قبل افتتاح المعرض.

آخر مرة شاهدته فيها كانت أثناء تخرج سارة من الكلية منذ أربع سنوات، جاء دون أن تكون معه زوجته، على الرغم من أننى لم أقابلها أبدًا، فإننى أعرف عنها أنها غير معجبة بى، وأثناء إجراء الطقوس الدينية وتناول الشاى والفطائر رضينا أن نتصرف مثل أبوين وقورين كبيرين فى السن، واصطحبنا البنتين إلى الخارج

لتناول طعام العشاء وحرصنا على أن نكون لطيفين ومهذبين، بل وارتدينا الملابس التى نعرف أن سارة تريد لنا ارتداءها، ارتديت فستانًا خاصًا يتلاءم مع حفل التخرج وحذاءً يتماشى مع لون الفستان، وارتدى جون بذلة ورباط عنق حقيقيًا فقلتُ له إنه يشبه حانوتى.

لكننا فى اليوم التالى خرجنا بمفردنا لتناول الغذاء معًا، وأصبحنا فى حالة من السكْر والثَّمل وتلك الكلمة التى بطل استخدامها وأصبحت مهجورة تعنى بالنسبة لى نوعية ذلك الحدث، وقال "بين" فى حيرة: "كنت تقولين دائمًا إن ذلك كان بمثابة كارثة".

قلت: "كانت كارثة، كان أمرًا رهيبًا".

"إذن، لماذا ترغبين فى تناول الغذاء معه؟"

قلتُ: "من الصعب توضيح ذلك" رغم أنه ربما لا يكون صعبًا، فلعلى أشارك فيه، أنا وجون أشبه ما يكون بحادثة مرور ، لكننا نشارك فى تلك الحادثة بالفعل، لقد بقينا على قيد الحياة عقب الاصطدام مع بعضنا البعض، كنا بمثابة سمكة قرش مفترسة كل منا للآخر، لكننا أيضًا كنا بمثابة زورق نجاة بالنسبة لبعضنا البعض، وذلك يستحق شيئًا ما.

فى الأيام الخوالى كان جون يقوم بتشييد بعض الإنشاءات؛ حيث كان يصنعها من خلال استخدام قطع من الأخشاب والجلود التى يلتقطها من نفايات الناس، وإذا لم تكن هناك نفايات يقوم بتحطيم الأشياء – مثل آلات الكمان والآنية الزجاجية – ويغرّى الأجزاء المحطمة ويسمى ذلك: نماذج الإغلاق، ففى إحدى المرات قام بربط قطع من شريط ملون حول جذوع أشجار والتقط لها صورًا فوتوغرافية، وفى مرة أخرى عمل نسخة مطابقة لرغيف من الخبز مغطى بحليات بارزة وبحيث يتم التنفس فى داخل الرغيف فى شهيق وزفير بواسطة موتور كهربائى صغير، وكانت الحليات البارزة مصنوعة من قصاصات الشعر المأخوذة من شعره وشعر أصدقائه وأعتقد أنه توجد خصلة من شعرى فى ذلك الرغيف، فقد ضبطته متلبسًا وهو ينتش كمية منه عالقة بفرشاة شعرى، إنه يقوم حاليًا بعمل تأثيرات معينة تتعلق بالأفلام

السينمائية من أجل تدعيم شغفه بالفن، والاستوديو ملىء بأشياء مبعثرة من أشيائه غير المكتملة، وعلى منضدته؛ حيث يحتفظ بالدهانات ومواد الغراء والسكاكين والكماشات الصغيرة توجد ذراع مصنعة من مادة الراتينج البلاستيك، بينما تبدو الشرايين ملتوية من الطرف المقطوع مع وجود الشرائط اللازمة للربط.

* * *

أنهض وأنا أشعر كأننى لم أحصل على قسط من النوم على الإطلاق. أُقلِّب بين أكياس الشاى فى المطبخ الصغير وبين سديم الليمون وأفضل القهوة الثقيلة، وأجد نفسى واقفة فى منتصف الغرفة الرئيسية دون أن أعرف على وجه الدقة كيفية وصولى إلى هنا قادمة من المطبخ الصغير، قفزة زمنية قصيرة وتشوش ضئيل على الشاشة، وربما ضعف فى الانبثاق والتدفق، فأنا أظل مستيقظة إلى وقت متأخر بالليل، وأكون فى حالة من التخدير فى الصباح لعلها حالة من مرض الزهايمر المبكرة.

أجلس عند النافذة، وأحتسى القهوة، وأقضم أظافرى وأنظر لأسفل على طول الطوابق الخمسة، يبدو المشاة من أعلى كأطفال مشوهين، وفيما حولى توجد مبانى لها أسقف مسطحة وشبيهة بالصناديق، وإلى ما وراءها توجد أراضى السكة الحديد المنبسطة حيث اعتادت القطارات أن تنتقل جيئةً وذهابًا، وحيث كان ذلك – ذات يوم – التسلية الوحيدة المتاحة هنا فى أيام الأحد، وإلى ما وراء ذلك توجد بحيرة أونتاريو التى تبلغ درجة حرارتها صفرًا عند بدايتها وصفرًا عند نهايتها وتبدو رمادية ضاربة إلى الأرجوانى وتطفح بالسموم، وحتى المطر الناجم عنها يكون محتويًا على مواد مسببة لأمراض السرطان.

أغتسل فى غرفة الحمام الصغيرة الزلقة الخاصة بجون وأقاوم استخدام خزانة الأدوية، وغرفة الحمام باللون الأبيض الداكن لأن جون لن يشعر بأنه فنان بدون أن توجد حوله كمية معينة من القذارة، أحدّق النظر فى المرآة وأقوم بإعداد وجهى، ومع ارتداء العدسات اللاصقة أصبح قريبة للغاية من المرآة وبدون ارتدائها أصبح

بعيدة للغاية عن المرآة، اعتدت أن أنجز هذه الأمور المتعلقة بالمرآة مع وضع عدسة واحدة فى فمى بحيث تكون كامدة ورفيعة مثل نهاية قطرة ليمون، ويمكننى أن أختنق بسببها بطريق الخطأ فتصبح هذه طريقة غير مبجّلة للموت. ينبغى على الحصول علىّ نظارة ثنائية البؤرة، ولكننى عندئذ سأبدو أشبه بامرأة عجوز.

* * *

أرتدى بذلة العرق التى تجعلنى أبدو غير فنانة، وأهبط نازلة السلالم، أحاول أن أبدو رشيقة ومليئة بالعزم والتصميم، أبدو مثل سيدة أعمال تُسرع فى مشيتها بعض الشىء، أو مثل مديرة بنك تنطلق فى يوم إجازتها، وأتجه إلى الشمال ثم إلى الشرق على طول شارع كوين ستريت الذى يعتبر مكانًا آخر لم يسبق لنا الذهاب إليه، أُشيع عنه أنه شارع السكارى الأقذار الحقراء الذين نطلق عليهم اسم: الأجلاف، قيل عن هؤلاء الناس إنهم يتناولون الكحوليات الرديئة وينامون فى كبائن التليفونات ويتقيأون على حذائك فى الترام، لكن حاليًا يوجد فى هذا الشارع معارض فنية ومحلات لبيع الكتب وبوتيكات مليئة بملابس سوداء اللون وأحذية غريبة الشكل.

أقرر أن أذهب كى ألقى نظرة على المعرض الذى لم يسبق مشاهدته على الإطلاق، كل هذا تمَّ الإعداد له من خلال البريد والتليفون، لا أنوى الدخول وإتاحة الفرصة للناس كى يتعرفوا على، لم يحن بعد الوقت الملائم لذلك، أريد فقط إلقاء نظرة على المعرض من الخارج، سوف أسير بجواره وألقى نظرات عابرة وأتظاهر بأننى ربة بيت أو سائحة تنظر على ڤاترينات المحلات بهدف التسوّق. المعارض هى أماكن مثيرة للخوف، وهى أماكن للتقييم، وهى أماكن لإصدار الحكم، وبذلك ينبغى على أن أتقدم تدريجيًا نحوها.

قبل أن أصل إلى المعرض وجدت نفسى عند حائط من الخشب الرقائقى يخفى وراءه مساحة دُمرت بالقنابل فى زمن الحرب، وعلى الحائط كُتبت فى طلاء رذاذى وفى تحدٍّ للنظافة الشديدة التى تتميز بها تورونتو عبارة: "إنها لحوم الخنزير أو أنا أيها الطفل"، وتحتها كُتبتْ عبارة: "ما هى لحوم الخنزير هذه وأين يمكن

الحصول على بعضها؟" وإلى جوار هذا يوجد مُلْصق أشبه بنشرة إعلانية مكتوب بدرجة عنيفة من اللون الأرجوانى بها علامات خضراء وكتابات سوداء، تقول: "ريسلى فى معرض" والاسم هو اسمى والوجه وجهى إلى حدّ ما، صورة فوتوغرافية أرسلتها للمعرض، باستثناء أننى لدّى الآن شارب.

وأى شخص رسم هذا الشارب كان يعرف ما يفعله، أو هى ؛ فلا شيء يعوق ذلك، إنه شارب مفتول ومتدلٍ مثل شارب فارس، مع وجود لحية صغيرة جميلة ومتلائمة مع الشارب.

أفترض أنه ينبغى على أن أشعر بالانزعاج إزاء هذا الشارب، هل هو مجرد رسم عابث؟ أو تعقيب سياسى؟ أم عمل عــدوانى؟ أستطيع أن أتذكر قيامى شخصيًا برسم مثل هذه الشوارب وأتذكر النكاية المتضمنة فى الرسم، الرغبة فى أن أسخر وأقلل من قيمة الأشياء علاوة على الشعور بالقوة والنفوذ. كان رسم الشارب بمثابة تشويه وإقصاء وجه شخص ما، ولو كنت أصغر سنًا لشعرتُ بالاستياء.

وفى الحقيقة أقوم بدراسة الشارب وأفكر: ذلك يبدو جيدًا إلى حدٍّ ما، فالشارب يشبه الزى، وأقوم بفحص الشارب من زوايا مختلفة، كما لو كنت أفكر فى شراء شارب من أجلى، وأفكر فى الرجال وفى فرص التنكر والتخفى التى تكون تحت تصرفهم دائمًا، وفى الرجال الذين يطلقون شاربهم، كيف أنهم يشعرون بالعرى إذا تمت حلاقة شاربهم، وكيف تنخفض هيبتهم فى حالة حلاقة شاربهم، وفى أن عددًا كبيرًا من الناس يبدون على شكل أفضل عندما يكون لهم شارب.

وفجأة أصاب بالدهشة والتعجب، فقد اكتسبتُ أخيرًا وجهًا يمكن أن يرسم شارب عليه، وجهًا شعبيًا يستحق التشويه، وهذا إنجاز؛ فأنا قد صنعتُ من نفسى شيئًا ما على الرغم من كل شيء.

وأسأل نفسى فى تعجّب عما إذا كانت كورديليا سترى هذا الملصق، عما إذا كانت ستتعرف علىَّ رغم الشارب، ربما تحضر افتتاح المعرض، وستمشى من فتحة الباب وأنا سوف أستدير وقد ارتديتُ ثيابًا سوداء مثلما ينبغى أن تفعل

الرسامة بينما وجهى ينمُّ على النجاح مع الإمساك بكأس من الخمور الرديئة نسبيًا، ولن أسكب قطرة واحدة من هذه الخمور.

* * *

(٤)

كنتُ سعيدة إلى أن انتقلنا إلى تورونتو.

قبل الإقامة فى تورونتو لم نكن نعيش فى أى مكان أو لعلنا عشنا فى أماكن عديدة يصعب تذكرها، قضينا وقتًا طويلاً فى الانطلاق بالسيارة الاستوديو بيكر على طرق خلفية أو طرق رئيسية لها حارتان متجهة نحو الشمال ومع الدوران حول بحيرة وراء بحيرة ومع الصعود على تل وراء تل بينما الخطوط البيضاء تجرى وسط الطريق وأعمدة التليفونات تجرى على طول الجوانب بعضها أعمدة طويلة والأخرى أقصر نسبيًا وتبدو أسلاك أعمدة التليفونات وكأنها تتحرك فى صعود وهبوط.

أجلس بمفردى فى المقعد الخلفى للسيارة بين حقائب السفر والصناديق المصنوعة من الورق المقوى المليئة بالطعام وبين المعاطف والرائحة الغازية لمواد تنظيف تنجيد السيارة، وأخى ستيفن يجلس فى المقعد الأمامى بجوار النافذة المفتوحة تفوح منه رائحة عطر النعناع، وتحت تلك الرائحة توجد رائحته العادية التى تشبه رائحة الرمل المبلّل وأقلام الرصاص المصنوعة من خشب الأرز، ويتقيأ أحيانًا داخل حقائب ورقية أو بجوار الطريق إذا كان بمقدور والدى التوقف بالسيارة فى الوقت الملائم، فهو يتعرض للدوّار إذا استقل السيارات؛ ولذا فهو يضطر للجلوس فى المقعد الأمامى للسيارة، وهذه هى نقطة الضعف الوحيدة التى أعرفها عنه.

ومن مكانى فى المقعد الخلفى بالسيارة تتاح لى فرصة لتفحص آذان أسرتى، فأذنا والدى اللتان تبرزان من تحت حافة القبعة اللباد القديمة التى يرتديها لكى يبعد الأغصان وسوائل النباتات وبرقات الفراشات عن شعره تبدوان شبيهتين بآذان الأقزام الخرافيين الذين يحرسون كنوز باطن الأرض... أو بآذان الشخصيات الثانوية الشبيهة بالكلاب فى الكتب الكوميدية الخاصة بميكى ماوس، ووالدتى تشبك شعرها عند الجانبين بدبابيس شعر مسطحة محكمة الإغلاق وبذلك تكون أذناها مرئيتين من الخلف، وأذناها ضيقتان ولهما حافتان علويتان هشّتان مثل مقابض الأطباق الصينى، رغم أنها هى نفسها ليست هشّة، وأذنا أخى مستديرتان مثل حبات المشمش المجففة، أو مثل أذنى الأشخاص ذوى الرؤوس البيضاوية القادمين من الفضاء الخارجى الذين يرسمهم بأقلامه الملونة وحول أذنيه المستديرتين وفوقهما وأسفل قفاه ينمو شعره الأشقر الداكن غير المجعّد فى خصلات كثيفة، فهو يقاوم قص الشعر.

من الصعب أن أهمس فى أذنى أخى المستديرتين عندما نكون فى السيارة، وعلى كل حال فهو لا يستطيع أن يرد على هامسًا؛ لأنه ينبغى أن ينظر أمامه فى خط مستقيم نحو الأفق أو نحو خطوط الطريق البيضاء التى تندفع نحونا موجةً وراء موجة فى بطء.

الطرق شاغرة فى أغلب الأحيان لأن الحرب مشتعلة، وإن كان من وقت إلى آخر توجد عربة نقل محملة بجذوع أشجار مقطوعة، وفى وقت الغذاء نتوقف بجوار الطريق ونفرش كليمًا ونتناول طعام الغذاء الذى تعده لنا أُمُّنا والذى يتكون من الخبز والسردين أو الخبز والجبنة أو الخبز ودبس السكر أو الخبز والمربة إذا لم نستطع الحصول على أى شىء آخر.

ويقوم والدنا بإشعال نيران صغيرة لكى يغلى ماء فى غلاية من الصفيح، وعقب الانتهاء من تناول الغذاء نختفى بين الشجيرات الواحد تلو الآخر مع وضع قطع من ورق التواليت فى جيوبنا، وفى بعض الأحيان توجد بالفعل هناك قطع أخرى من ورق التواليت مذابة بين نباتات السرخس، لكنها فى معظم الأحيان لا تكون موجودة.

أقرأناكموه

أجلس القرفصاء مصغية لأصوات الدببة التى تترامى من ورائى وأشعر بخشونة أوراق نبات زهرة النجمة فوق الأجزاء العلوية من ساقى، ثم أدفن ورق التواليت تحت الأعواد وقشور اللحاء، ويقول والدى إنه ينبغى عليك أن تجعل المكان يبدو وكأنك لم تكن موجودًا به على الإطلاق.

يمشى والدنا إلى داخل الغابة حاملاً الفأس وحقيبة الظهر وصندوقًا خشبيًا كبيرًا وينظر لأعلى وينتقل ببصره من شجرة لأخرى، ثم ينشر قماشًا مشمعًا تحت الشجرة التى يختارها ويربطه حول جذع الشجرة، ويفتح الصندوق الخشبى الملىء بزجاجات صغيرة، ثم يضرب جذع الشجرة بظهر فأسه، فتهتز الشجرة، فتتساقط فى طقطقة الأوراق والأغصان ويرقات الفراشات قافزة من فوق قبعة اللباد الرمادية مرتطمة على القماش، فأجثم أنا وستيفن على الأرض ونقوم بالتقاط يرقات الفراشات ونضعها فى زجاجات التجميع المليئة بالكحول ونرقبها وهى تتلوى وتغوص.

ينظر والدى إلى محصول اليرقات كأنه قام بتربيتها بنفسه، ويتفحص الأوراق الممضوغة، ويقول: "غزو جميل"، إنه مبتهج، إنه أصغر من عمرى حاليًا.

تنتشر رائحة الكحول على أصابعى، رائحة باردة وضئيلة وعندما أنظر إلى أعلى نحو نجوم الليل، أدرك أن النجوم باردة بيضاء وحادة، وأعتقد أنها لها رائحة مماثلة بكل تأكيد.

وعندما يبلغ الوقت نهاية النهار نتوقف بالسيارة مرة أخرى ونشيد الخيمة وتحتها نضع المُلاءات والمراتب التى يمكن نفخها التى تجعلك تشعر بالدَّوار عندما تنفخ فيها وتملأ أنفك وفمك بطعم أحذية المطر ذات الرقبة الكريهة الرائحة أو إطارات السيارات المكومة فى الجراج، ونتناول الطعام حول النيران التى تصبح أكثر إشراقًا لدى بزوغ الظلال من بين الأشجار مثل أغصان أشدّ إظلامًا، ونزحف على داخل الخيمة ونخلع ملابسنا فى داخل حقائب النوم بينما ضوء المشعل الكهربائى يرسم دائرة على الخيمة، والخيمة تفوح منها رائحة القطران، ورائحة العشب المسحوق، وفى أوقات الصباح تكون الأعشاب بالخارج مليئة بالندى.

فى بعض الأحيان نقيم فى الموتيلات، ولكن ذلك لا يحدث إلاَّ إذا كنا فى وقت متأخر للغاية ليلاً، بحيث لا نستطيع العثور على مكان ملائم يصلح لنصب الخيمة، ودائمًا ما تكون الموتيلات بعيدة بحيث تكون أضواؤها متلألئة فى الظلام الغامض للّيل مثل أضواء السفن أو الواحات، والموتيلات بها مضخات بنزين بالخارج فى حجم الإنسان مع وجود أقراص فى قمتها مضاءة مثل الأقمار الشاحبة، وكثيرًا ما تكون الموتيلات ومضخات البنزين شاغرة؛ فالبنزين يوزَّع وفق حصص محدودة؛ ولذلك فالناس لا يسافرون إلا عند الضرورة.

أو نقيم فى الكبائن الخاصة بأناس آخرين أو الخاصة بالحكومة أو فى معسكرات خشبية مهجورة أو نقوم بنصب خيمتين: إحداهما للنوم والأخرى للمؤن.

وأخى لديه مطرقة وبعض الأخشاب ومدية الجيب الخاصة به، وهو يبرى ويطرق، يقوم بتصنيع بندقية، وبتسمير قطعتين من الخشب على زوايا قائمة مع مسمار آخر ليكون بمثابة زند البندقية، وهو لديه العديد من هذه البنادق الخشبية والخناجر والسيوف ويغنّى:

قادمون على جناح فى تضرع وصلوات

قادمون على جناح فى تضرع وصلوات

ورغم تعطل موتور واحد

سنواصل التقدم رغم العقبات

قادمون على جناح فى تضرع وصلوات.

يغنى هذه الأغنية فى ابتهاج، لكنى أعتقد أن هذه الأغنية حزينة، لأنه على الرغم من أننى شاهدتُ صور الطائرات على بطاقات السجائر، فإننى لا أعرف الكيفية التى تطير بها، والطائر لا يستطيع الطيران بجناح واحد، وهذا هو ما يقوله والدى فى الشتاء قبل تناول وجبة العشاء رافعًا كأسه عندما يكون هناك رجال آخرون عند المنضدة، "لا يمكنك أن تواصل الطيران بجناح واحد"، وبالتالى فإن الصلوات الواردة فى الأغنية تعتبر فى الواقع عديمة الجدوى.

أقرأناكموه

ويقدم لى ستيفن بندقية وسكينًا ونلعب معًا لعبة الحرب، وهذه هى لعبته المفضلة، وعندما يقوم والدانا بنصب الخيمة أو إشعال النيران أو الطهى، ننسل وراء الأشجار ونشق طريقنا بين الأوراق، وأقوم بدور كتيبة المشاة بما يعنى أننى ينبغى على أن أنفذ الأوامر التى يصدرها إلىَّ، وهو يلوّح لى لكى أواصل التقدم للأمام ويشير لى لكى أتقهقر إلى الوراء وينبهنى إلى خفض رأسى لأسفل باستمرار لكى لا يقوم العدو بنسف رأسى.

ويقول: "أنت قد أصبحت ميتة"

"لا، أنا لست ميتة"

"نعم، أنت ميتة، لقد تمكنوا من إصابتك، استلقى على الأرض"

ولا مجال للمناقشة معه ما دام يستطيع مشاهدة العدو بينما أنا لا أستطيع، وأضطر للاستلقاء على الأرض السبخة مع الاستناد على جذع لكى لا أُبلل للغاية على أن يجىء الوقت المناسب كى أعود على قيد الحياة مرة أخرى.

وفى بعض الأحيان نترك لعبة الحرب ونقوم بأعمال التفتيش فى أرجاء الغابة؛ حيث نقلب الكتب الخشبية والصخرية لنرى ما هو موجود تحتها، فنشاهد النمل واليرقات الدودية والضفادع والثعابين الأمريكية غير السامة، بل ولا نتخذ أى إجراء مع هذه الأشياء التى نعثر عليها، ونحن نعرف أنها ستموت إذا وضعناها فى الزجاجات وتركناها معرضة للشمس عند النافذة الخلفية للسيارة مثلما فعلنا من قبل؛ ولذلك فنحن نكتفى بالنظر إليها ومشاهدة النمل وهو يخفى بيضه الشبيه بالحبوب فى هلع ومشاهدة الثعابين وهى تصب نفسها نحو الظلام، وبعدئذ نعيد الكتل على الوضع الذى كانت عليه، اللهم إلا إذا كنا بحاجة لبعض من هذه الأشياء من أجل استخدامها فى أعمال الصيد.

نادرًا ما نتشاجر، ولا أنتصر فى هذه المشاجرات؛ لأن ستيفن أكبر حجمًا وأشدّ قوة منى، وعلاوة على ذلك فإننى ألعب معه أكثر مما يلعب هو معى، نتشاجر فى همس أو فى مكان بعيد عن الأعين لأننا إذا ضبطنا متلبسين بالتشاجر نتعرض معا للعقاب، ولهذا لو تشاجرنا لا نقوم بالإبلاغ عن بعضنا البعض، فنحن

نعرف من التجربة أن المكاسب الناجمة عن الخيانة ضئيلة ولا تشجع على ارتكاب الخيانة، ولأن هذه المشاجرات تتسم بالطابع السّرى، فإنها تكون ذات جاذبية.. جاذبية الكلمات القذرة التى لا يفترض لنا أن نقولها مثل كلمة "بوم" ندوس على أقدام بعضنا، ونقرص ذراع بعضنا حريصين على عدم إطلاق صرخة ألم، وعلى الإخلاص حتى فى حالات الغضب الشديد.

* * *

اليوم انطلقنا بالسيارة لفترة طويلة، ونحن ننصب خيمتنا فى وقت متأخر، ونحن بالقرب من الطريق وبجوار بحيرة مهملة ومهلهلة ولا اسم لها، والأشجار حول الشاطئ منحنية فى الماء، وأوراق نباتات الحور تتهيأ للتساقط بعد أن اكتسبت اللون الأصفر، والشمس تغرب فى غروب طويل وبطىء ومثير للقشعريرة وفى لون وردى شبيه بلون طائر البشروس، ثم فى لون قرنفلى سلمونى، ثم فى اللون الأحمر الفاقع البعيد الاحتمال للمكروكروم، ويستقر الضوء الوردى على السطح مرتعشًا، ثم يذبل ويتلاشى، إنها ليلة صافية غير قمرية ومليئة بنجوم مُطهَّرة، يوجد درب اللبانة **Miky Way** على نحو واضح مما يوحى بمجىء طقس ردىء.

ما نهتم بأى شىء من هذا لأن ستيفن يعلمنى كيف أرى فى الظلام مثلما يفعل الكوماندوز، وهو يقول إنك لا تعرف أبدًا عندما قد تكون بحاجة لأن تفعل هذا، ولا يمكن لك أن تستخدم مصباحًا ضوئيًّا كهربائيًّا وإنما ينبغى عليك أن تمكث بدون حركة فى الظلام إلى أن تصبح عيناك معتادتين على الظلام، وبعدئذ تبدأ هياكل الأشياء فى البزوغ والظهور؛ حيث تكون رمادية ولامعة وضعيفة كما لو كانت تتكثف من الهواء، ويقول لى ستيفن أن أحرّك قدمى فى بطء مع الوقوف فى توازن على قدم واحدة فى كل مرة، ومع الحرص على ألاَّ أدوس بقدمى على الأغصان، ويقول لى إنه ينبغى على أن أتنفس فى هدوء، ويهمس لى قائلاً: "إذا سمعوك سيلقون القبض عليك".

أقرأناكموه

ويجثم إلى جوارى فى تشكّل فى مواجهة البحيرة ويكون بمثابة رقعة من الماء أكثر سوادًا، وأرى ومضة عين، وبعدئذ يختفى، وهذه إحدى الحيل الخادعة التى يقوم بها.

أعرف أنه ينسلّ متخفيًا عند النيران وعند والدىّ اللذين يرفرفان فى تظليل بينما وجهاهما غير واضحين، إننى بمفردى مع دقات قلبى ومع أنفاسى العالية اللاهثة للغاية، ولكنه على صواب، فالآن أستطيع الرؤية فى الظلام.

وتلك هى لوحاتى عن الموتى.

* * *

(٥)

يتم الاحتفال بعيد ميلادى الثامن فى موتيل، وهديتى كاميرا براونى صندوقية مستطيلة وسوداء ولها مقبض فى أعلاها وثقب مستدير فى ظهرها لكى يتم النظر من خلاله.

وأول صورة تُلتقط بها صورة لى، إننى مستندة على إطار باب كابينة الموتيل، والباب خلفى أبيض اللون ومُغلق مع ظهور الرقم المعدنى "٩" على الباب، وأنا مرتدية بنطلونًا منتفخًا عند الركبتين علاوة على جاكيت له كُمَّان قصيران للغاية، وتحت الجاكيت – وإن كنت أدرك أنك لا يمكن لك أن ترى ما هو تحت الجاكيت – يوجد قميص صوفى مخطط باللون البنى واللون الأصفر يخص أخى، فالكثير من ملابسى كانت ذات يوم ملابسه، وبشرتى ناصعة البياض بسبب تعرض الفيلم للعوامل الجوية أكثر من اللازم ورأسى مائلة على جانب واحد ومعصما يدى غير المكسوتين بالقفاز يتدليان، إننى أشبه الصور الفوتوغرافية

القديمة الخاصة بالمهاجرين، وأبدو كما لو كنتُ قد وُضعت هناك أمام الباب وطُلب منى أن أقف فى ثبات وبدون الإتيان بأى حركة.

على أى نحو كنت أبدو وماذا كنت أريد؟ من الصعب أن أتذكر ذلك، أكنت أريد كاميرا هدية فى عيد ميلادى؟ ربما لا، على الرغم من أننى سررتُ كثيرًا عندما حصلتُ على كاميرا.

إننى أريد المزيد من البطاقات من صناديق نابسكو شريديد هويت وهى البطاقات الرمادية التى عليها صور، والتى تقوم بتلوينها وقصها وطيها لكى تصنع المنازل فى مدينة، وأريد أيضًا بعض أدوات تنظيف باطن الأنابيب، ونحن لدينا كتاب يسمى: هوايات اليوم الممطر، يوضح كيفية تصنيع جهاز راديو مرسل ومستقبل من خلال الاستعانة بعلبتين وقطعة من الخيط أو كيفية تصنيع زورق يتجه للأمام إذا قمت بإسقاط زيت التشحيم فى ثقب موجود فى داخله أو كيفية تصنيع خزانة ملابس خاصة بدمية من خلال الاستعانة بصناديق كبريت صغيرة للغاية وكيفية تصنيع حيوانات عديدة مختلفة – مثل كلب أو خروف أو جمل – من خلال الاستعانة بأدوات تنظيف باطن الأنابيب، والزورق وخزانة الملابس لا يروقان لى ولا يعجبانى، ولا يعجبنى سوى أدوات تنظيف باطن الأنابيب، إننى لن أشاهد على الإطلاق إحدى أدوات تنظيف باطن الأنابيب.

إننى أريد بعض الورق الفضى المأخوذ من علب السجائر ولدىّ قطع عديدة بالفعل ولكننى أريد المزيد، ووالداى لا يدخنان السجائر؛ ولذلك أضطر لأن أجمع هذا الورق من أى مكان أعثر فيه عليه عند حواف محطات البنزين أو فى المساحات العشبية القريبة من الموتيلات؛ فأنا لدى عادة التنظيف على طول الأرض بهذه الطريقة، وإذا عثرت على بعض من هذا الورق الفضى أقوم بتنظيفه وتسويته وإزالة الكرمشة عنه وتخزينه بين صفحات كتاب تعليم القراءة المدرسى الخاص بى، ولا أعرف ما الذى سأفعله بهذه الأوراق عندما يصبح لدى كميات كافية منها، ولكنه سيكون شيئًا ما مذهلاً.

أريد منطادًا أو بالونًا، فالبالونات بدأت تعود نظرًا لأن الحرب قد انتهت. عندما كنت مريضة بالتهاب فى الغدة النكفية ذات يوم فى الشتاء عثرت أمى على

أقرأناكموه

بالون أسفل المبخرة الخاصة بها، والمؤكد أنها قد ربطته هناك قبل الحرب نظرًا لأنها ربما كانت تظن أنه لن يكون هناك أية بالونات أخرى لبعض الوقت وقامت بإطلاقه لأعلى فى الهواء من أجلى، وكان أزرق اللون وشبه شفاف ومستديرًا مثل قمر خصوصى، وكان المطاط قديمًا ومتآكلاً فانفجر البالون على الفور، فانسحق قلبى من شدة الحزن ، ولكننى أريد بالونًا آخر من نوع لا يتحطم.

وأريد أن يكون لى بعض الصديقات من الفتيات، صديقات فتيات **girl friends**، وأعرف أن الفتيات الصديقات يوجدن حيث قرأت عنهن فى الكتب ، ولكن لم يكن لى أبدًا فتيات صديقات لأننى لم أوجد أبدًا فى مكان واحد لفترة كافية.

فى كثير من الأوقات يكون الجو باردًا إلى درجة الإزعاج وملبدًا بالغيوم حيث تظهر السماء المعدنية المنخفضة التى يتميز بها أواخر الخريف، أو تمطر السماء فنضطر إلى البقاء فى داخل الموتيل، الموتيل هو النوع الذى اعتدنا عليه، صف من الأكواخ مهلهلة البناء ومربوطة مع بعضها بأنوار شجرة الكريسماس الصفراء أو الزرقاء أو الخضراء، وهذه الأكواخ تسمى "أكواخ شئون المنزل" بما يعنى أن بها موقد من نوع ما وإناء أو اثنان وبرّاد شاى ومنضدة مغطاة بقماش مشمّع، وأرضية كوخ شئون المنزل الخاص بنا مغطاة بالمشمع، والفوط هزيلة ورفيعة والملاءات بها مساحات بالية فى منتصفها بعد أن احتكت بها أجساد أناس آخرين، وتوجد صورة مطبوعة لها إطار تعبّر عن الغابات فى الشتاء وصورة أخرى لمجموعة من البط تلوذ بالفرار، وبعض الموتيلات تكون لها مراحيض خارجية ولكن هذا الموتيل به بانيو ومرحاض مزود بسيفون، وإن كانت رائحته كريهة.

نحن مستمرون فى الإقامة فى هذا الموتيل على مدى أسابيع وهو أمر غير عادى؛ فنحن لا نقيم أبدًا فى موتيلات أكثر من ليلة واحدة فى كل مرة، ونحن نتناول حساء معلبات البازلاء التى يتم تسخينها على الموقد ذى الشعلتين فى وعاء معدنى بالإضافة إلى شرائح الخبز المليئة بدبس السكر علاوة على قطع ضخمة من الجبنة؛ إذ يوجد المزيد من الجبنة ما دامت الحرب قد انتهت، ونحن نرتدى ملابس الخروج فى داخل الكابينة بالموتيل ونرتدى الجوارب ليلاً، لأن هذه الأكواخ

أو الكبائن التى لها حوائط تتكون من طبقة واحدة من المفترض أنها من أجل السياح الوافدين فى فصل الصيف، والمياه الساخنة لا تزيد أبدًا عن كونها مياها فاترة، فتقوم أُمنا بتسخين الماء فى برّاد الشاى وتصبه فى حوض الاستحمام من أجل أن نستحمّ، وتقول: "لمجرد إزالة القشرة الخارجية".

وفى أوقات الصباح يوميًا نلف البطاطين حول أكتافنا أثناء تناول طعام الإفطار، وفى بعض الأحيان يكون بمقدورنا مشاهدة الأنفاس الخاصة بنا حتى فى داخل الأكواخ، وكل هذا يعتبر شيئًا شاذًا وبهيجًا بعض الشىء، وليس الأمر مجرد أننا لا نذهب إلى المدرسة، فنحن لم نذهب أبدًا إلى مدرسة لفترة تزيد على ثلاثة شهور أو أربعة شهور فى كل مرة بأى حال، وأنا كنت فى مدرسة فى آخر مرة منذ ثمانية شهور وليس لدى سوى أفكار غامضة ومبهمة ومؤقتة عن الشكل الذى كانت عليه.

فى الفترات الصباحية من كل يوم ننجز العمل المدرسى الخاص بنا فى دفاترنا المدرسية، وتحدد لنا أُمنا الصفحات التى ننجزها، وبعدئذ نقرأ فى كتب المطالعة المدرسية الخاصة بنا، وكتاب المطالعة المدرسى الخاص بى يتناول طفلين يعيشان فى منزل أبيض له ستائر مكشكشة ومساحة من المروج الخضراء الأمامية وسور من الأوتاد والخوازيق، والأب يذهب للعمل والأم ترتدى فستانًا ومريلة والأطفال يلعبون الكرة على المساحة العشبية مع كلبهم وقطتهم، ولا شىء فى هذه القصص يشبه حياتى؛ إذ لا توجد خيام ولا طرق برية رئيسية ولا تبول أو تبرز بين الشجيرات ولا بحيرات ولا موتيلات، ولا توجد حرب، والأطفال دائمًا ما يكونون فى حالة من النظافة التامة والبنت الصغيرة التى تسمى جين **Jane** ترتدى ملابس جميلة وأحذية مصنوعة من جلد لامع مصقول ولها أربطة.

وهذه الكتب تروق لى لأنها من طراز غريب، عندما أرسم أنا وستيفن بأقلامنا الملونة، فإنه يرسم الحروب... حروبًا عادية وحروبًا فى الفضاء، وأقلامه الحمراء والصفراء والبرتقالية تُستهلك وتصبح أعقاب أقلام بسبب كثرة استخدامها فى التعبير عن الانفجارات، كما أن ألوانه الذهبية والفضية تُستهلك أيضًا فى رسم

أقرأناكموه

الدروع المعدنية اللامعة للدبابات وسفن الفضاء وفى رسم الخوذات والمدافع المعقدة المتطورة، ولكنى أرسم الفتيات، أرسمهن فى ملابس من طراز حديث ولهن جونلات طويلة ومآزر للأطفال بدون كُمين أو مرتديات فساتين مثل فساتين جين مع وجود أقواس للشعر كبيرة فوق رؤوسهن، وهذه هى الصورة الأنيقة الرقيقة التى أحتفظ بها فى داخل ذهنى عن فتيات صغيرات أخريات، ولا أفكر فيما يمكن لى أن أقوله لهن إذا تقابلتُ مع بعضهن بالفعل، فأنا لم يصل بى الخيال إلى ذلك الحدّ.

ومن المفترض لنا أن نقوم بغسل الأطباق فى الفترات المسائية، وتسمى أمى هذه العملية بـــ"قعقعة الأطباق" فنتشاجر فى همس مستخدمين كلمات ذات مقطع واحد بشأن من الذى عليه الدور لكى يغسل الأطباق؛ فالتجفيف بفوطة شاى مبللة لا يكون بجودة الغسيل نفسها الـــذى يدفئ يديك، ونقوم بتعويم الأطباق المسطحة والأكواب فى حوض الصحون ونقذف بها فى انقضاض على الهدف مع الملاعق والسكاكين ونهمس قائلين: "التدمير بالقنابل" ونحاول التصويب نحو أقرب مكان ممكن بدون أن نضربها بالفعل، إنها ليست أطباقنا، وهذا يسبب لوالدتنا الإزعاج، وإذا تسبب هذا فى إزعاجها بالقدر الكافى، فإنها تضطر إلى غسل الأطباق بنفسها بما يعنى توجيه التوبيخ والتعنيف لنا.

* * *

فى الليل ننام فى السرير المرتخى فى وضع عكسى بحيث تكون قدماه عند رأسى وقدماى عند رأسه، حيث يفترض أن ذلك الوضع يجعلنا نخلد إلى النوم بسرعة، فنقوم بركل بعضنا البعض فى صمت تحت الأغطية، أو بدلاً من ذلك نحاول أن نعرف إلى أى مدى يمكن أن تصل أقدامنا على ساقى بيجامة بعضنا البعض، ونادرًا جدًا ما تظهر الأضواء الأمامية لسيارة مارة من خلال النافذة حيث تتحرك الأضواء أولاً على طول حائط واحد، ثم على طول الحائط التالى، ثم

تتلاشى، يوجد صوت موتور، ثم أزيز إطارات على الطريق المبلل، وبعدئذ يسود الصمت.

* * *

(٦)

لا أعرف منْ الذى التقط تلك الصورة الخاصة بى، من المؤكد أنه أخى لأن والدتى موجودة فى داخل الكوخ خلف الباب الأبيض ومرتدية بنطلونًا فضفاضًا رماديًّا وقميصًا به نقوش مربعة زرقاء غامقة ومنهمكة فى تعبئة طعامنا فى صناديق من الورق المقوى وتعبئة ملابسنا فى حقائب السفر، وهى لها أسلوب ونظام خاص بها فى التعبئة، وتتكلم مع نفسها أثناء قيامها بالتعبئة مذكرة نفسها بالتفاصيل، وتحب أن نكون بعيدين عنها أثناء إنجازها هذا العمل.

وعقب التقاط الصورة مباشرة تبدأ الثلوج فى التساقط، رقائق متجمدة صغيرة تتساقط بمفردها من السماء الشمالية الغزيرة الأمطار لشهر نوفمبر، يوجد نوع من الصمت والكسل على أن يتساقط ذلك الثلج الأول من شحوب الضوء، ومع تدلى أوراق نباتات القيقب من الأغصان مثل العشب البحرى، وكنا نشعر بالرغبة فى النوم إلى أن بدأ الثلج فى التساقط، والآن نشعر بالبهجة والانتعاش.

نجرى فى الخارج حول الموتيل ونحن لا نرتدى سوى أحذية الصيف البالية الخاصة بنا مع مدّ أيدينا العارية نحو الكتل الرقيقة من الثلجِ المتساقط ومع الإلقاء بالرأس إلى الوراء وفتح الفم وأكل الثلج، ولو كان الثلج سميكًا على الأرض لكنا قد تدحرجنا عليه مثلما تتدحرج الكلاب على القاذورات، الثلج بالنوعية نفسها من الغبطة والنشوة، ولكن أمنا تنظر من النافذة وتشاهدنا وترى الثلج المتساقط وتجعلنا نجىء إلى الداخل ونجفف أقدامنا بالفوط الهزيلة، ليس لدينا أحذية شتوية لها رقبة

أقرأناكموه

من النوع الذى يتلاءم مع جوّ الشتاء، وأثناء وجودنا فى الداخل يتحول الثلج إلى طبقة جليدية رقيقة متجمدة.

والدنا يذرع المكان جيئةً وذهابًا ومخشخشًا بمفاتيحه الموجودة فى جيبه، إنه دائمًا يريد للأشياء أن تُنجز بأسرع مما تتمّ، وهو الآن يريد مغادرة المكان على الفور، ولكن أمى تقول إنه ينبغى عليه أن يتحلّى بالصبر ويكبح جماح نفسه، ونذهب إلى الخارج ونساعده فى كشط طبقة الثلج من نوافذ السيارة، وبعدئذ نقوم بحمل الصناديق وأخيرًا نحشر أنفسنا فى داخل السيارة وننطلق بها فى اتجاه الجنوب، وأدرك أننا نتجه جنوبًا بسبب اتجاه ضوء الشمس الذى يترامى الآن فى ضعف من بين السحب ويتلامس مع الأشجار الثلجية فى تألق ويسطع فى إبهار على الرقعات الثلجية الموجودة على جانبى الطريق مما يبهر الأبصار ويجعل من الصعب رؤية الأشياء.

ويقول والدانا إننا ذاهبون إلى منزلنا الجديد، وفى هذه المرة سيكون المنزل مملوكًا لنا بالفعل وليس مستأجرًا، ومنزلنا الجديد يقع فى مدينة كبيرة تسمى تورونتو، وهذا الاسم لا يعنى أى شىء بالنسبة لى، وأفكر فى المنزل الوارد فى كتاب المطالعة المدرسى الخاص بى والذى له لون أبيض وسور مصنوع من الأوتاد ومساحة من المروج الخضراء وستائر للنوافذ، أريد أن أرى الشكل الذى ستبدو عليه غرفة النوم الخاصة بى.

وعندما نصل إلى المنزل يكون الوقت متأخرًا فى فترة ما بعد الظهر، وفى بادئ الأمر أعتقد أنه توجد هناك غلطة ما بكل تأكيد، ولكن لا توجد هناك غلطة، فهذا هو المنزل بالفعل، لأن والدى يقوم بفتح الباب مستخدمًا مفتاحًا، ومن الصعب أن نقول إن المنزل يقع فى شارع، وإنما هو موجود فى مكان أشبه بحقل، وهو مربع الشكل وعبارة عن شاليه مُشيد بالطوب الأصفر اللون ومحاط بالأوحال، وعند جانب واحد منه توجد حفرة هائلة فى الأرض وحولها أكوام هائلة من الطين، وتوجد بعض الكتب الصلبة الإسمنتية الغائصة فى الطين والتى على شكل أحجار متدرجة حتى يمكن لنا الوصول إلى الباب.

وفى الداخل تكون الأشياء أكثر ترويعًا وإحباطًا، وصحيح أنه توجد أبواب ونوافذ وحوائط كما أن الفرن فى حالة تشغيل جيدة، وتوجد لوحة فى غرفة المعيشة وإن كان المنظر يعبّر عن مساحة شاسعة من الطين المتموج، وسيفون التواليت فى حالة تشغيل جيدة، ولكن التواليت به دائرة بنية/ صفراء حول الجوانب الداخلية للسلطانية علاوة على وجود العديد من أعقاب السجائر الطافية، وعندما أفتح حنفية المياه الساخنة تجيء مياه دافئة بها مسحة من اللون الأحمر، ولكن الأرضيات ليست من الخشب المصقول اللامع وليست مفروشة بالمشمّع الأرضى، وإنما يوجد بها ألواح خشبية عريضة وخشنة مع وجود شقوق بينها ورمادية بسبب تراب الجصّ وملطخة بالبقع البيضاء الشبيهة بروث الطيور، وعدد قليل من الغرف هى التى يوجد بها التجهيزات الخاصة بالضوء الكهربائى أماً الغرف الباقية فيها أسلاك متدلية من منتصف السقف، ولا يوجد أى كاونتر فى المطبخ، بل لا يوجد به سوى حوض عادى، كما لا يوجد موقد فى المطبخ، ولا شىء مدهون بالطلاء، وطبقات التراب موجودة فوق كل شىء، النوافذ وإفريز النوافذ والتجهيزات المثبتة والأرضية، كما توجد كمية كبيرة من الذباب الميت المتناثر هنا وهناك.

وتقول أمُّنا: "ينبغى علينا جميعًا أن نبدأ فى العمل ونسهم فى جُهْد مشترك" بما يعنى أنه يجب علينا ألا نتذمر ونشتكى، وتقول إننا سنضطر لأن نبذل كل ما فى جهدنا، فنحن سيكون علينا أن نستكمل المنزل بأنفسنا لأن الرجل الذى كان ينبغى عليه أن يفعل ذلك قد أعلن إفلاسه، أو قد أفلت من السجن **flew the coop** على حدّ تعبيرها، ووالدنا ليس مبتهجًا للغاية، إنه يمشى الهوينى حول المنزل ويحدّق النظر فى المنزل ويتفحّصه ويتمتم بكلام لنفسه ويصدر ضجيجًا ضئيلاً مليئًا بالتصفير قائلاً: "أين البندقية، البندقية ؟".

ومن مكان ما فى أعماق السيارة تستخرج أُمُّنا وابور بريموس وتضعه على أرضية المطبخ حيث لا توجد منضدة، وتبدأ فى تسخين حساء البازلاء، ويخرج أخى من المنزل، وأعرف أنه يتسلق فوق جبل القاذورات المجاور للمنزل أو يقوم بتقييم إمكانيات الحفرة الهائلة الموجودة فى الأرض، ولكنى لا أشعر بالرغبة فى اللحاق به.

أغسل يدى فى المياه الضاربة إلى اللون الأحمر فى غرفة الحمام، يوجد شرخ فى الحوض الذى يبدو فى هذه اللحظة بمثابة كارثة أشد سوءًا من أى من العيوب والنقائص الأخرى، أنظر إلى وجهى فى المرآة الملطخة بالتراب، لا توجد كُمَّة على الضوء وإنما مجرد لمبة كهربائية عارية فى السقف تجعل وجهى يبدو شاحبًا ومريضًا مع وجود دوائر تحت العينين، أدعك عينى، أدرك أنه من الخطأ أن أُشاهد وأنا فى حالة من البكاء، وعلى الرغم من عدم استكمال تجهـيزات المنزل، فإنه يبدو حارًّا للغاية وربما السبب فى ذلك هو أننى ما زلتُ مرتدية ملابس الخروج الخاصة بى، أشعر أننى وقعتُ فى مصيدة، أرغب فى العودة إلى الموتيل والعودة إلى الحياة بجوار الطرق والعودة إلى حياتى القديمة عديمة الجذور المتسمة بالطابع المؤقت والأمن والأمان.

فى الليالى الأولى ننام على الأرضية فى داخل حقائب النوم فوق قمة مراتب الهواء الخاصة بنا، وبعدئذ تظهر بعض أسِرة الجيش النقّالى الخفيفة التى لها قطعة من القماش المتين عبر إطار معدنى يكون أصغر عند القاعدة مما هو عليه عند القمة، حتى إنك إذا تقلّبت فى تدحرج ليلاً تنقلب على الأرض ويسقط السرير فوقك، وليلةً وراء ليلة أسقط من السرير وأستيقظ من النوم لأجد نفسى مستلقيةً على الأرضية الناشفة المتربة، ومسائلة نفسى فى تعجب عن المكان الذى أكون فيه بينما أخى غير موجود هناك، وبالتالى لا تتاح له الفرصة لكى يسخر منّى فى ضحكات مكتومة أو يأمرنى بالتزام الصمت والهدوء نظرًا لأننى موجودة فى غرفة بمفردى. فى بادئ الأمر انبهرتُ من فكرة وجودى فى غرفة خاصة بى بمفردى وشعرت بالإثارة – مساحة شاغرة أرتّبها على النحو الذى أريده بدون اهتمام بستيفن وملابسه المبعثرة وبنادقه الخشبية – ولكننى الآن أشعر أننى وحيدة، لم يسبق لى أبدًا أن كنت فى الليل فى غرفة بمفردى.

وفى كل يوم تظهر أشياء جديدة فى المنزل أثناء وجودنا فى المدرسة: موقد وثلاجة ومنضدة خاصة بلعبة الكوتشينة والتى لها أرجل قابلة للطى وأربعة كراسى حتى يمكن لنا أن نأكل بالطريقة العادية بحيث نجلس إلى منضدة بدلاً من الجلوس على ملاءة موضوعة أمام المستوقد.

والمستوقد يعمل فى حالة جيدة، وهذا هو أحد أجزاء المنزل التى تمَّ تجهيزها، وفى هذا المكان نقوم بحرق قطع من الأخشاب المتخلفة عن أعمال التشييد، وفى أوقات الفراغ يقوم والدنا باستخدام مطرقته بعيدًا فى الأجزاء الداخلية من المنزل، وتنتشر المفارش عبْر الأرضيات، ألواح خشبية ضيقة تظهر فى غرفة المعيشة كما تظهر الرقائق الأسفلتية فى غرف نومنا الخاصة بنا ويتم إحراز التقدّم تدريجيًّا، ويصبح المنزل شبيهًا بمنزل أكثر من ذى قبل، ولكن هذا يستغرق وقتًا أطول مما أرغب فيه: لقد أصبحنا على مسافة بعيدة من الأسوار المصنوعة من الأوتاد والخوازيق وعلى مسافة بعيدة من الستائر البيضاء... هنا فى اللاجون الخاص بنا المنتمى لطين ما بعد الحرب.

* * *

(٧)

نحن معتادون على مشاهدة والدنا مرتديًا سترات قصيرة جلدية وقبعات منسحقة رمادية لبادية وقمصانًا صوفية ناعمة مع غلق طرفى الكُمّيْن فى إحكام من أجل منع البعوض من الزحف على زراعيه وبنطلونًا ثقيلاً مع إدخال أطرافه تحت قمة الجورب الصوفى الثقيل، وما كانت ترتديه أمُّنا لم يختلف عن تلك الأشياء باستثناء القبعات اللبادية.

ولكن والدنا الآن يرتدى جاكتات وأربطة عنق وقمصانًا بيضاء علاوة على معطف مصنوع من قماش التويد ووشاح، وهو لديه حذاء الكلوش المطاطى الذى يثبت بإبزيم فوق حذائه العادى بدلاً من الحذاء الجلدى ذى الرقبة المحصّن ضد الماء من خلال شحوم الخنزير، ولقد ظهرت ساقا أمنا مغلفتين فى جورب نيلون مع وجود تجعدات وكرمشات فى الأجزاء العلوية الخلفية للجورب، إنها ترسم أحمر الشفاه على فمـــها عندما تنوى الخروج من المنزل، ولديها معطف به ياقة

أقرأناكموه

من الفراء الرمادى اللون، ولديها قبعة مزودة بريشة مما يجعل أنفها يبدو طويلاً للغاية، وفى كل مرة ترتدى فيها هذه القبعة تنظر فى المرآة وتقول: "إننى أشبه الساحرة الخاصة بإندور **Witch of Endor**".

لقد غير والدى وظيفته، وهذا يفسّر ويوضح الأمور، فبدلاً من أن يكون باحثًا ميدانيًا فى مجال حشرات الغابات أصبح الآن أستاذًا جامعيًا، وبذلك تناقصت أعداد برطمانات وزجاجات التجميع ذات الروائح الكريهة والتى كانت ذات يوم موجودة فى كل مكان، وبدلاً منها وعلى نحو مبعثر فى أرجاء المنزل توجد كومات من الرسومات التى رسمها تلاميذه بالأقلام الملونة، وكلها رسومات تتعلق بالحشرات، إذ يوجد جراد الجندب الصغير والديدان الصغيرة الخاصة بالأشجار الراتينجية الصنوبرية ويرقات فراشات الغابة والخنافس الثاقبة للأخشاب وكل منها فى حجم صفحة مع وصف أجزائها فى دقة على ورقة ملصقة الفكّ + عضو اللمس فى فم الحشرة + قرون الاستشعار + الصدر + الجزء الأخير من جسم الحشرة، وبعضها تكون فى حالة شريحة مقطعية بمعنى أنها تكون مفتوحة، حتى يمكن لك أن تشاهد ما بداخلها: الأنابيب والتفرعات والبصيلات والشعيرات الدقيقة، وأنا أفضل هذه النوعية أكثر.

ووالدى يجلس على كرسى (فوتيه) فى الأمسيات مع وضع لوح خشبى عبْر ذراعى الكرسى بينما الرسومات تكون موجودة على هذا اللوح الخشبى، ويتفحص الرسومات فى دقة مع استخدام قلم أحمر، وفى بعض الأحيان يضحك مع نفسه أثناء قيامه بهذا العمل أو يهزّ رأسه أو يحدث أصواتًا كالتكتكة من خلال أسنانه. ويقول: "ساذج وعبيط" أو يقول: "أحمق وأبله"، فأقف خلف كرسيه وأرقب الرسومات، فيقول إن هذا الشخص قد وضع الفم عند الطرف الخاطئ وإن ذاك الشخص لم يخصص مكانًا لكى يوجد فيه القلب، وإن طالبًا آخر لا يستطيع التمييز بين الذكر والأنثى، وليست هذه هى الطريقة التى أحكمُ بها على الرسومات؛ فأنا أعتمد على الألوان عندما أحكم على الرسومات بأنها جيدة أو رديئة.

فى أيام السبت نستقلّ السيارة معه ونتجه إلى المكان الذى يعمل به، إنه "مبنى علْم الحيوان" ولكننا لا نسميه بذلك الاسم، ونكتفى بأن نسميه: المبنى.

والمبنى ضخم وهائل، وكلما تواجدنا هناك، فإنه يكاد يكون شاغرًا حيث يكون اليوم هو يوم السبت، بل وهذا يجعله يبدو أكبر حجمًا، وهو مشيد من الطوب البنى الغامق المتعرّض للعوامل الجوية وهو يعطى الانطباع بأن به أبراجًا رغم أنه لا توجد به أية أبراج، ونبات اللبلاب المعترش ينمو عليه، ونظرًا لأنه بدون أوراق الآن فى فصل الشتاء، فإنه يغطى المبنى بعروق هيكلية، وفى داخل هذا المبنى توجد أروقة طويلة لها أرضيات من الألواح الخشبية الملطخة والبالية بسبب أجيال من الطلبة المرتدين أحذية الشتاء الموحلة التى لها رقبة، ولكنها لا تزال تلقى العناية والتلميع، وتوجد سلالم من الخشب أيضًا تحدث صوتًا كالصرير عندما نصعد عليها ودرابزينات لا ينبغى علينا أن ننزلق عليها هابطين، كما توجد شبكة من أنابيب التدفئة الحديدية تحدث أصواتًا مدوية، وإما أن تكون باردة للغاية، أو شديدة السخونة.

وفى الطابق الثانى توجد أروقة تؤدى إلى أروقة أخرى تصطف على جانبيها برطمانات مليئة بالسحليات الميتة أو عيون الثور المعالجة بمحلول حمضى، وفى إحدى الغرف توجد أقفاص زجاجية بداخلها ثعابين أكبر حجمًا من جميع الثعابين التى سبق أن شاهدناها من قبل، وهناك حية واحدة تسمى الحية العاصرة البواء الأليفة، وإذا كان الرجل المسئول عنها موجودًا هناك، فإنه يخرجها من القفص الزجاجى ويلفّها حول ذراعه، حتى يمكن لنا أن نرى كيف أنها تسحق الأشياء حتى الموت لكى تأكلها، ويسمح لنا بالتربيت عليها، وجلدها بارد وجاف، وهناك أقفاص أخرى تحتوى على الحيات التى لها صوت كالجرس، والرجل يرينا كيف يحلب السمّ من أنيابها، ومن أجل هذا فإنه يرتدى قفازًا جلديًا، والأنياب مقوسة ومجوفة والسّم الذى يقطر منها له لون أصفر.

وفى الغرفة نفسها يوجد حوض أسمنتى مملوء بمياه تبدو غليظة القوام ومائلة إلى اللون الأخضر وتجلس فى الماء سلاحف كبيرة وتطرف بعينيها أو تتسلق فى جهد لأعلى على الصخور التى توضع لها مع إصدار صوت كالهسهسة إذا اقتربنا منها أكثر من اللازم، وهذه الحجرة أكثر بخارًا وحرارة من الغرف الأخرى، لأن الثعابين والسلاحف تحتاج لأن يكون الجوّ على ذلك النحو، وتفوح من هذه الغرفة رائحة تشبه رائحة المسك، وفى غرفة أخرى يوجد قفص مليء بالصراصير الأفريقية العملاقة ذات اللون الأبيض والتى تعتبر سامة للغاية، حتى إن الحارس

أقرأناكموه

الخاص بها يضطر إلى إطلاق الغازات عليها لكى تفقد الوعى فى كل مرة يفتح فيها القفص لإطعامها أو إخراج واحدة منها.

وفى البدروم توجد أرفف عديدة مليئة بالفئران البيضاء الكبيرة والفئران السوداء الصغيرة، وهى أنواع معينة غير متوحشة، وهذه الفئران تأكل كرات صغيرة من الطعام من أوعية قمعية الشكل موجودة فى داخل أقفاصها وتشرب من زجاجات مثبتة فى قطارة للمياه، وهى لها أعشاش ورقية مليئة بفئران رضيعة وردية اللون وخالية من الشعر، تجرى فوق وتحت بعضها البعض، وتنام فى مجموعات متكومة مع بعضها البعض وتتشمم بعضها البعض بأنوفها المرتعشة، ويقول لنا حارس الفئران إنك إذا وضعت فأرًا غريبًا فى أحد الأقفاص المخصصة للفئران، وبحيث يكون فأرًا له رائحة غريبة، فإن جميع الفئران تقوم بعضه حتى الموت.

والبدروم تنبعث منه رائحة روث الفئران القوية، وهى رائحة تتصاعد لتصل إلى جميع أرجاء المبنى وتخف تدريجيًا كلما صعدتَ لأعلى؛ حيث تختلط مع رائحة المنظفات التى تستخدم فى تنظيف الأرضيات ومع الروائح الأخرى مثل رائحة المواد التى تستخدم فى تلميع الأرضيات ورائحة الشمع الخاص بالأثاث ورائحة "الفورمالديهايد" ورائحة الثعابين.

ولا نجد أى شىء بالمبنى مثيرًا للاشمئزاز، والترتيبات العامة – وليست التفاصيل – مألوفة لنا وإن كنا لم نشاهد من قبل على الإطلاق مثل هذه الأعداد الهائلة من الفئران فى مكان واحد من قبل، وبالتالى فنحن نشعر بالخوف والرهبة بسبب أعدادها ونتانتها، ونودّ أن نستخرج السلاحف من الحوض الخاص بها واللعب معها، ولكن نظرًا لأنها شرسة وسيئة الخلق ويمكن لها أن تصيب أصابعنا فإننا ندرك أنه لا ينبغى علينا أن نلعب معها، وأخى يرغب فى الحصول على عين ثور من إحدى البرطمانات، فهى من نوعية الأشياء التى يجدها أولاد آخرون مثيرة للإعجاب.

بعض الغرف العلوية عبارة عن معامل، والمعامل لها أسقف شاسعة وسبورات عبْر الواجهة، وهى تحتوى على صفوف كثيرة من المكاتب الداكنة

الكبيرة، بل هى أشبه بالمناضد منها بالمكاتب ولها كراسى عالية بدون مسند للجلوس عليها، ولكل مكتب لمبتان لهما ظلّية زجاجية خضراء وميكروسكوبان قديمان مع وجود أنابيب اختبار رفيعة ثقيلة ولوازم وتجهيزات مصنوعة من النحاس الأصفر.

لقد شاهدنا ميكروسكوبات من قبل ولكن ليس بمثل هذا الطول، ويمكن لنا أن نقضى وقتًا طويلاً معها قبل أن نشعر بالسأم منها، وفى بعض الأحيان تعطى لنا سليدات لكى ننظر إليها: أجنحة فراشات + أجزاء مقطعية لديدان + الدودة الصغيرة المسطحة الشبيهة بورقة نبات والمصبوغة بصبغة وردية وأرجوانية حتى يمكن لك مشاهدة الأجزاء المختلفة، وفى أوقات أخرى نضع أيدينا تحت العدسات ونتفحص أظافرنا، حيث تكون الأجزاء الشاحبة مقوسة مثل التلال فى مواجهة السماء الوردية الغامقة الخاصة بها، بينما الجلد حولها مليء بالحبوب ومتغضن مثل الصحراء، أو ننتزع شعرًا من رؤوسنا لكى ننظر إليه تحت الميكروسكوب حيث يبدو ناشفًا ولامعًا مثل الشعر الذى ينمو على جلد بعض الحشرات بينما جذور الشعر تبدو شبيهة برأس البصل الصغير.

ونحن نحب الجَرَب الخاص بالنباتات، ونلتقط هذا الجرب ؛ إذ لا يوجد مكان يتسع لذراع أو ساق بأكملها تحت الميكروسكوب، ونزيد من أداة التضخيم إلى أقصى درجة، فيبدو الجرب شبيها بالصخور ومليئًا بالمطبات وله سطح لامع مثل السيليكا، أو يبدو مثل نوع من الفطريات، وإذا أمكن لنا انتزاع جَرَب من إصبع فإننا نضع الإصبع تحت الميكروسكوب ونشاهد المكان الذى يرشح منه الدّم حيث يكون هذا المكان له لون أحمر فاقع وعلى هيئة ثُرار مستدير وشبيهًا بثمرة التوت، وبعدئذ نقوم بلعق الدماء، كما ننظر إلى المادة الشمعية التى تفرزها الأذن أو ننظر إلى مخاط الأنف أو قاذورات مأخوذة من أصابع أقدامنا مع التأكد أولاً من أنه لا يوجد أحد بالقرب منا ؛ فنحن نعرف بكل تأكيد أن مثل هذه الأشياء لن يوافق عليها أحد، ومن المفترض أن تكون هناك حدود لحب الاستطلاع لدينا إلاّ أن هذه الحدود لم تُحدّد على وجه الدقة على الإطلاق.

أقرأناكموه

هذا ما نفعله فى الفترات الصباحية من أيام السبت بينما يكون والدنا منهمكًا فى إنجاز الأمور بمكتبه، وتكون والدتنا قد ذهبت لشراء مواد البقالة، وهى تقول إن هذا يبعدنا عنها ويجعلها تستريح من مضايقاتنا.

والمبنى يطل على شارع الجامعة الذى يوجد به مساحات من المروج الخضراء وبعض التماثيل الخضراء/ النحاسية لرجال فوق خيول، كما يوجد فى هذا الشارع مبنى برلمان أونتاريو وهو أيضًا مبنى قديم وداكن اللون، وأعتقد أنه بالتأكيد بمثابة مبنى آخر شبيه بالمبنى، وبحيث يكون مليئًا بالأروقة الطويلة التى تصدر أصواتًا كالصرير علاوة على أرفف بها سحليات محفوظة فى محلول حمضى وعيون الثور.

ومن المبنى نشاهد أول موكب لسانتا كلاوس خاص بنا، نحن لم يسبق لنا أن شاهدنا موكبًا من قبل، ويمكن لك أن تستمع لهذا الموكب من الراديو، ولكنك إذا كنت ترغب فى مشاهدته بالفعل، فإنه ينبغى عليك أن ترتدى ملابس شتوية ثقيلة وتقف على رصيف المشاة مع الضرب بقدميك على الأرض وحك يديك لكى تحافظ على دفء جسدك، وبعض الناس يتسلقون فوق تماثيل الخيول لكى يتمكنوا من الرؤية على نحو أفضل، ونحن لا نضطر لأن نفعل ذلك؛ حيث يمكن لنا أن نجلس على حافة النافذة لأحد المعامل الرئيسية بالمبنى ونكون فى حالة حماية من الطقس الردىء عن طريق لوح زجاجى مُتْرب مع تصاعد هبات من الهواء الساخن صادرة عن المواسير الحديدية لأعلى نحو سيقاننا.

ومن هنا نرقب بينما الناس المرتدون ثيابًا شبيهة بالكتل الثلجية الرقيقة وشبيهة بالأقزام وشبيهة بالأرانب يمرّون من أمامنا على نحو مقتضب بشكل غريب لأننا ننظر لأسفل نحوهم، وتوجد فرق العازفين على المزمار المرتدون التنورات وأشياء شبيهة بفطائر الكعك الكبيرة بينما يلوح لهم أناس يمرون بجوارهم فوق دراجات بخارية، لقد بدأت السماء تمطر رذاذًا، ويبدو على كل شخص موجود هناك بالشارع أنه يشعر بالبرد، وسانتا كلاوس يوجد فى النهاية وهو أصغر مما هو متوقع، وصوته المنبعث من مكبرات الصوت مكتوم من خلال الزجاج الملىء

بالتراب، وهو يتمايل جيئةً وذهابًا خلف حيوان الرنة الميكانيكى الخاص به ويبدو عليه التخنث والعاطفة المفرطة بينما ينثر قبلاته على الجمهور، وأنا أعرف أنه ليس هو سانتا كلاوس الحقيقى وإنما مجرد شخص ما يرتدى ملابس شبيهة بملابس سانتا كلاوس، ومع ذلك فإن فكرتى عن سانتا كلاوس قد تغيرَّت واكتسبت بُعدًا جديدًا، وبعد هذا يصبح من الصعب على أن أفكر فيه دون أن أفكر أيضًا فى الثعابين والسلاحف والعيون المحفوظة فى محلول حمضى والسحالى الطافية فى البرطمانات الصفراء الخاصة بها علاوة على التفكير فى الرائحة الهائلة التوابلية القديمة المهجورة – وإن كانت مريحة أيضًا – للخشب القديم ومواد تلميع الأثاث "والفورمالديهايد" والفئران البعيدة.

الباب الثالث

رجال الإمبراطورية الأكفاء

Empire Bloomers

أقرأناكموه

(٨)

توجد أيام لا أستطيع خلالها النهوض من السرير إلاَّ بصعوبة بالغة، بل وأجد أن الكلام يتطلب منّى مجهودًا، بل وأقيس التقدّم فى الخطوات، وأتطلع إلى الخطوة التالية ثم إلى الخطوة التالية وعلى مسافة تصل إلى غرفة الحمّام، وهذه الخطوات هى بمثابة إنجازات عظمى، أركّز على فك غطاء معجون الأسنان ورفع الفرشاة لأعلى نحو فمى، بل وأجد صعوبة فى رفع ذراعى لكى أنجز هذه المهمة، أشعر أننى بدون قيمة، ولا شىء يمكن لى أن أفعله يكون له أىّ قيمة على الأقل بالنسبة لنفسى.

لقد اعتادت كورديليا أن تسأل: "ما الذى ينبغى عليك أن تقوليه من أجل نفسك؟" فأردّ عليها قائلة: " لا شىء"، وكانت هذه كلمة قد بدأت أربطها مع نفسى كما لو كنت أنا بمثابة لا شىء، وكما لو كان لا يوجد هناك أىّ شىء على الإطلاق.

* * *

فى الليلة الماضية شعرتُ باقتراب اللاّشىء، ولم يكن قريبًا للغاية وإنما فى الطريق نحو الاقتراب مثل البرودة الخاصة بالرياح ومثل الجذب الخفيف الأولى لتيار قوى تحت الماء، أردتُ التكلم مع بين **Ben**، فاتصلتُ بالمنزل تليفونيًّا ولكنه كان بالخارج وسمعت جهاز التسجيل الصوتى، سمعتُ الصوت الخاص بى حيث ترامى مليئًا بالبهجة وفى حـــالة من التحكم والانضـــباط: "مرحبًا بين **Ben** وأنا لا أستطيع المجىء إلى التليفون فى هذه اللحظة، ولكن يمكن لك أن تترك رسالة ولسوف نتصل بك بأسرع ما يمكن"، وبعدئذ يترامى صوت: بيب **beep**.

إنه صوت متحرر من الجسد، إنه صوت ملاك ينطلق عبْر الهواء، وإذا انتقلتُ إلى رحمة الله فى هذه الدقيقة، فإن الصوت سيستمر على ذلك النحو هادئًا

أقرأناكموه

ونافعًا مثل حياة إليكترونية بعد الموت، وسماعى للتسجيل الصوتى الخاص بى جعلنى أرغب فى البكاء.

قلتُ فى الفضاء الشاغر: "معانقات حارة"، وأغمضتُ عينىّ، ورحتُ أفكر فى الجبال المطلة على الساحل، وقلتُ لنفسى إن ذلك وطن، ذلك هو المكان الذى تعيش فيه حقًا، بين كل ذلك المشهد المسرحى الفائق الجمال مثل ستارة خلفية لفيلم كرتونى، إنه ليس حقيقيًّا، يدخلون التعديلات عليه، أذهب لمسافة أميال قليلة هنا وهناك بعيدًا عن النوافذ الكبيرة الموجودة فى غرف المعيشة والتى تحدّد إطار المنظر الطبيعى الخارجى وعندئذ ستصل إلى أرض التحديات.

فانكوفر هى عاصمة الانتحار الخاصة بالدولة، فأنت تظل تتجه غربًا إلى أن تشعر بالإرهاق ونفاد الصبر، وتصل إلى الحافة وبعدئذ تسقط من فوق الحافة.

أزحف خارجة من تحت الدَّفْتين المخملى الناعم، إننى إنسانة مشغولة ومنهمكة من الناحية النظرية. هناك أشياء ينبغى إنجازها ولكن لا يوجد بينها أشياء أرغب فى إنجازها، وأبحث فى أرجاء الثلاجة الموجودة فى المطبخ الصغير وأستخرج بيضة وأسلقها وأسقطها فى فنجان شاى وأفتتها وأسحقها، ولا ألقى نظرة على أنواع الشاى العشبية، وإنما أتجه مباشرة نحو القهوة الحقيقية الكريهة، الاهتياج العصبى فى فنجان، يسعدنى أن أعرف أننى سرعان ما سأصبح متوترة.

أخطو بين الأذرع المفصولة والأقدام المجوفة، بينما أحتسى السَّواد، إننى أحبّ هذا الإستوديو ويمكن لى أن أعمل هنا؛ إذ توجد الكمية الملائمة لى من البدائل المتوقعة والقاذروات، والأشياء التى هى بصدد التفكك والانهيار تشجعنى، لأننى مهما كان الوضع أكون على نحو أفضل منها.

اليوم نعرض صورًا من المعرض **Today we hang** إنه تعبير غير ملائم.

* * *

أُدخل نفسى فى ملابسى مع التعامل مع ذراعى وساقى كما لو كانت أشياء تنتمى لشخص آخر... شخص ما ليس ضخمًا للغاية أو ليس متمتعًا بصحة جيدة للغاية، إنها بذلة العرق ذات اللون الأزرق الفاتح مرة أخرى اليوم، إننى لم أحضر معى ملابس كثيرة، وأنا لا أحبّ تفحّص الأشياء وعمل مراجعة عليها، وأحبّ أن أحشر كل ملابسى تحت المقعد الخاص بى بالطائرة؛ إذ توجد فى أعماق ذهنى الفكرة القائلة بأنه إذا حدث شىء ما خاطئ أثناء الوجود فى الأعالى بين الهواء فإنه يصبح بمقدورى انتزاع حقيبة ملابسى من تحت المقعد والقفز من النافذة فى رشاقة دون أن أُخلِّف ورائى أىّ شىء من ممتلكاتى.

أخرج إلى الهواء الطلق وأمشى بسرعة على طول الشارع مع فتح فمى قليلاً والاحتفاظ بإيقاع السرعة فى داخل رأسى، "الاحتفاظ بالسعادة مع الفرقة السعيدة". لقد اعتدتُ على المشى السريع نسبيًا، ولكن ذلك يسبب الأضرار للركبتين، الإفراط فى الجزرين البائى **beta carotene** يحوّلك إلى اللون البرتقالى والإكثار من الكالسيوم يكوّن عندك الحصوات فى الكلية، الصّحة تقتل **Health Kills**.

الانخفاض فى عدد السكان الذى اتسمت به تورونتو فى الماضى قد ذهب إلى غير رجعة، فهى الآن مكتظة إلى حدّ الاختناق، وهى تلوث نفسها بالدخان حتى الموت وهذا أمر واضح تمامًا، وحركة المرور مذهلة؛ حيث يوجد الصياح الشبيه بصوت الأوز كما توجد الاقتحامات فالناس يقودون سياراتهم نحو منتصف التقاطعات ويمكثون هناك عندما يتغيرّ ضوء إشارات المرور، إننى مسرورة لأننى أنتقل سيرًا على الأقدام، وكل مبنى أمرّ بجواره هنا بين مستودعات السلع يبدو وكأنه يصبح قائلاً: "أدخل علىّ الإصلاحات والترميمات!... **Renovate me**" أول مرّة شاهدت فيها كلمة **Reno** فى قطاع العقار الثابت ظننتُ أنها تعنى: منتجع القمار، اللغة تخلّفنى وراءها وتسبقنى.

أصل إلى ناصية شارعى: كينج **King** وسبادينا **Spadina** ، وأتجه فى سيرى شمالاً، وعادة كان هـذا هو المكان الذى تشترى منه ملابسك بسـعر الجُملة وهو ما زال كذلك، ولكن المحلات اليهودية القديمة بدأت تختفى وتحل محلها المراكز التجارية الصينية الضخمة التى تبيع جميع السلع والأثاث المصنوع من الأغصان المجدولة ومفارش المناضد الموشاة وجميع الأشياء المصنوعة من الخيرزان، بل

أقرأناكموه

وبعض لافتات الشوارع تكتب لها عناوين فرعية باللغة الصينية، بحيث تبدو التعددية الثقافية، وهناك شوارع أخرى تتضمن اللافتات الخاصة بأسمائها اسم الحىّ الحديث Fashion District الذى تتبعه؛ فكل شىء الآن يقع داخل نطاق حىّ، وفيما سبق لم يكن هناك تقسيم إلى أحياء مختلفة.

ويخطر على ذهنى أننى أحتاج إلى فستان جديد من أجل الافتتاح، لقد أحضرتُ معى فستانًا بالطبع، ولقد انتهيتُ من كيّه بالفعل بمكواة السفر الخاصة بى بعد أن استخدمتُ جزءًا من منضدة العمل الخاصة بجون ليكون بمثابة منضدة للكىّ مع طىّ فوطة عبْر ذلك الجزء، وهذا الفستان له لون أسود، لأن اللون الأسود هو أفضل شىء بالنسبة لهذه المناسبات: فستان بسيط أسود محتشم مثل فساتين أولئك السيدات اللائى يعزفن على الكمنجات الكبيرة فى الأوركسترا السيمفونى، فليس من اللائق أن تتفوق على الزبائن فى الملبس، ولكن الفكرة المتعلقة بهذا الفستان تسبب لى الاكتئاب الآن، فاللون الأسود يجتذب النُسالة وأنا قد نسيت أن أحضر معى فرشاة الملابس الخاصة بى، وهناك ألوان أخرى مثل اللون الوردى على سبيل المثال ؛ إذ يُفترض فى اللون الرمادى أنه يُصيب أعداءك بالضعف والوهن ويجعلهم يترفقون بك ويشعرون بالشفقة عليك، ومن المؤكد أن ذلك هو السبب فى أن ذلك اللون يُستخدم من أجل البنات الصغيرات للغاية، ومن العجيب أن القوات المسلحة لم تفهم هذا جيّدًا، خوذات لها لون وردى فاتح وبها حليات على شكل وردة، كتيبة بأكملها على رأس جسر ساحلى وقد ظهر اللون الوردى فوق رؤوس أفرادها، والآن جاء الوقت الملائم لى لأن أُقدم على التحوّل وبحيث أستخدم قدرًا قليلاً من اللون الوردى الآن وعلى الفور.

أطوف بڤاترينات العرض ذات السعر المخفّض، وكل واحدة منها تشبه ضريحًا مضاءً من الداخل يضم الآلهة الخاصة به الواقفة فى استعراض وقد وضعت يدًا على ردف أو دفعت بساقها للأمام بينما وجوه الآلهة قد اكتسبت اللون البيج وأصبحت بعيدة المنال، لقد رجعت فساتين الحفلات ورجعت الأقواس والكشكشات ورجعت الفساتين التى ليس لها شرائط للكتف ورجعت التنورات المثبتة بالأسلاك وكذلك الأساور المنتفخة، كل شىء ظننته قد اختفى للأبد رجع

مرة أخرى، بل ورجعت الچيبات القصيرة للغاية وظهرت فى نفسى رداءتها المعتادة، وأنا لا أحب هذه الچيبات على الإطلاق، كما أننى لا أستطيع ارتداء الملابس المكشكشة، لأننى إذا ارتديتها أبدو شبيهة بالكرنبة ولا أحبّ الفساتين الخالية من شرائط الكتف، فذلك لا يتماشى ولا ينسجم مع عظمة الترقوة الخاصة بى العالية الناشفة ولا مع مرفقىّ البارزين الشبيهين بقدم الدجاجة، فما أحتاجه هو شىء ما عمودى وربما يكون مزدانًا بثنيات متجعدة.

لافتة أوكازيون تغرينى بالدخول إلى دكان، وهو مكان يُسمى: (البوتيك الأنيق) رغم أنه فى حقيقة الأمر ليس بمثابة بوتيك، فهو محشوّ تمامًا بالأشياء المختلفة المتعددة، وهو مزدحم بالناس مما يجعلنى أشعر بالسرور، فالبائعات يسبّبن لى الإزعاج وأنا لا أحبّ أن أُضبط متلبسة فى حالة شراء، أمرٌ خلسة بين الأرفف والحوامل الخاصة بالأوكازيون وأسير بجوار الفساتين الموشاة بالترتر والقماش التركى المزخرف بالورود وبجوار الخيوط الذهبية اللون والمشغولات الجلدية البيضاء المتسخة باحثة عن شىء ما، ما أرغب فيه هو أن أتعرض للتحوّل والتغيّر وهو أمر يصبح محتملاً بنسبة قليلة، فالتنكر يكون أسهل عندما تكون صغيرًا فى السن.

وآخذ ثلاثة فساتين وأتجه بها إلى الكابينة التى يتم فيها تجربة الملابس لمعرفة مدى ملاءمتها من حيث المقاييس: فستان سيمونى اللون به مجموعات من نقط بيضاء فى حجم الدولار، وفستان آخر له لون أزرق كهربائى وبه تطريز من الساتان، ولكى أكون فى الجانب السليم آخذ فستانًا ثالثًا له لون أسود بحيث يؤدى الغرض المطلوب لو فشلت فى ذلك جميع الفساتين الأخرى، والفستان السيمون هو ما أفضله فى حقيقة الأمر، ولكن هل يمكن لى معالجة مسألة النقط البيضاء الموجودة به؟ أقوم بارتدائه وأغلق السوستة وأثبتها فى الكُلاَّب، وأستدير فى هذا الاتجاه وذلك أمام المرآة التى تكون رديئة الإضاءة كالمعتاد، لو قُدِّر لى أن أكون مديرة فى دكان كهذا سأقوم بطلاء جميع الكبائن الصغيرة المزودة بالمرايا باللون الوردى وأفرض رسومًا مالية على مَنْ يريد استخدام المرايا فى هذه الكبائن.

أمدّ رقبتى فى محاولة لمشاهدة منظرى من الخلف، ربما مع حذاء مختلف وقرْط مختلف؟ تتدلى بطاقة السعر مشيرة نحو ردفى، توجد مجموعات النقط

أقرأناكموه

البيضاء متدحرجة عبر امتداد عريض، من المذهل أن يبدو المرء دائمًا من الخلف أكثر ضخامة، ربما لأنه يوجد هناك عدد قليل من الملامح التى تحوّل الانتباه، وهى الملامح التى تحطم رتابة التلّ والسطح المستوى.

ولدى استدارتى للوراء ألمح كيس نقودى مُلقًى على الأرض فى المكان الذى وضعته فيه، وبعد كل هذه السنوات ينبغى علىّ أن أعرف الأمور على نحو أفضل. كيس نقودى مفتوح، وحائط الكابينة يرتفع عن الأرضية لمسافة قدم، وإلى الوراء من خلال الفتحة تتقهقر ذراع بينما اليد ممسكة بكيس نقودى. أظافر اليد مطلية باللون الأخضر.

أنزل بقدمى الحافية فى عُنف على معصم اليد. يتصاعد صراخ وبعض الضحكات الجماعية العالية، الشباب يرقبون الموقف وفتيات المدارس يطفن فى خلسة ابتغاء السلب والنهب، يتم إسقاط حافظة نقودى، واليد تتراجع للوراء بسرعة مثل مجسّ **tentacle**.

أفتح باب الكابينة فى عنف: "لعنة الله عليك يا كورديليا؟"، وأُمعن النظر فى تفكير، ولكن كورديليا مختفية منذ فترة طويلة.

* * *

(٩)

تقع المدرسة التى نُرسل إليها على مسافة فيما وراء جبَّانة وعبْر واد ضيق شديد الانحدار وعلى طول شارع منحنى توجد على جانبيه منازل أكثر قدمًا، والمدرسة تُسمى: مدرسة كوين مارى العمومية، فى كل صباح نمشى عبْر الطين الذى وصل إلى درجة التجمّد، وقد ارتدينا الحذاء الفوقى المطاطى الشتوى الجديد الذى يُرتدى فوق الحذاء العادى مع حمْل طعام الغذاء فى حقائب ورقية... ونهبط عبْر البقايا الخاصة ببستان فاكهة متجهين نحو أقرب طريق مرصوف؛ حيث ننتظر هناك لحين مجىء الأتوبيس المدرسى مترنحًا نحونا فوق التلّ وعلى حفر الطريق.

أرتدى بدلة الثلج الجديدة الخاصة بى، وقد التفت تنورتى حول ساقى مع حشوها لأسفل فى داخل الساقين المنتفخين لبنطلون الثلج اللذين يحتكان بخفة مع بعضهما البعض أثناء سيرى، لا يمكن الذهاب إلى المدرسة بالبنطلون، وينبغى ارتداء التنورات، وأنا غير معتادة على هذا، وأيضًا غير معتادة على الجلوس على مكتب دون أن تصدر منى أىّ حركة.

نتناول طعام الغداء فى القبو البارد ذى الإضاءة الضعيفة الخاص بمبنى المدرسة؛ حيث نجلس فى صفوف على مقاعد خشبية طويلة مليئة بالندبات الغائرة تحت فسطون من أنابيب التدفئة، ومعظم الأطفال يذهبون إلى منازلهم لتناول طعام الغداء هناك، ولا يضطر للبقاء سوى تلاميذ الأتوبيس المدرسى، وتُوزع علينا زجاجات صغيرة من اللبن الذى نشربه من خلال أنابيب ورقية مثبتة فى الزجاجات عن طريق ثقب موجود فى غطاء الزجاجة المصنوع من الورق المقوّى. إنها أول مرة أستخدم فيها أنابيب الشرب هذه؛ ولذلك فهى تشدّ انتباهى وتذهلنى، ومبنى المدرسة فى حدّ ذاته قديم ومرتفع ومُشيّد من طوب له لون الكبدة، وله أسقف عالية وبه أروقة طويلة ومشئومة وذات أرضيات خشبية، كما أن شبكة أنابيب التدفئة المركزية إماّ أن تكون ساخنة للغاية، أو غير ساخنة على الإطلاق وبذلك فنحن إمَّا أن نرتعد من البرد الشديد، أو نتصبّب عرقًا، والنوافذ عالية ورفيعة وكثيرة الألواح الزجاجية ومزدانة بقطيعات **cut-outs** مصنوعة من ورق التشييد، وفى هذه اللحظة توجد كتل من الثلج المتساقط بسبب الشتاء، ويوجد باب رئيسى أمامى لا يستخدمه الأطفال على الإطلاق، وفى الجزء الخلفى من المبنى يوجد مدخلان مهيبان مع وجود أشياء منحوتة حولهما، كما أن الصور المزخرفة الموجودة فوق البابين قد كتب عليها بحروف وقورة: البنات والأولاد، وعندما تقوم المُدرِّسة الموجودة بالفناء بدق الجرس اليدوى النحاسى الخاص بها ينبغى علينا أن نقف فى الطابور اثنين اثنين وفقًا للحجرات الدراسية وبحيث يكون البنات فى صف والأولاد فى صفّ آخر ونسير نحو البابين المستقلين، البنات يمسكن بأيدى بعضهن البعض بينما الأولاد لا يفعلون ذلك، وإذا دخلت من الباب الخاطئ تتعرّض للعقاب بالجلد بالسوط أو هكذا يقول كل شخص.

إننى فضولية للغاية بشأن الباب المكتوب عليه كلمة: الأولاد، وكيف يكون الدخول من خلال باب شيئًا مختلفًا إذا كنت ولدًا؟ وما هو الشىء الموجود هناك الذى يستوجب الضرب بالسياط لمجرد رؤيته؟ وتقول أمى إنه لا يوجد هناك أىّ شىء خصوصى يتعلق بالسلالم فى الداخل لأنها سلالم عادية تمامًا. الأولاد يدخلون من خلال الباب المكتوب عليه "الأولاد" ويصلون إلى المكان نفسه الذى نصل إليه. أستطيع أن أدرك السبب وراء تخصيص دورات مياه للأولاد لأنهم يتبولون على نحو مختلف، كما أدرك السبب أيضًا فى تخصيص فناء للأولاد، ألا وهو كل ذلك الرّكل والرفس والدفع الذى يدور بينهم، ولكن مسألة تخصيص باب للأولاد تحيّرنى؛ ولذلك فإنى أرغب فى إلقاء نظرة نحو الداخل.

ومثلما يوجد بابان مستقلان من أجل الأولاد والبنات يوجد أيضًا جزءان منفصلان بفناء المدرسة، فعند الواجهة الأمامية وخارج نطاق المدخل الخاص بالمدرسين والمدرسات يوجد حقل ترابى مغطى بالنفايات وهذا هو الملعب المخصص للأولاد، وعند جانب المدرسة البعيد عن الشارع يوجد تلّ له سلالم خشبية تؤدى إلى قمة التلّ وله مجارى مائية صغيرة متآكلة متجهة لأسفل على جانبه علاوة على وجود بعض النباتات القليلة الدائمة الخضرة المعوقة النموّ فوق قمة التلّ، وقد جرت العادة أن يتم تخصيص هذا المكان للبنات، وتقف البنات الأكبر سنًا فى الأعالى هناك فى مجموعات مكونة من ثلاث أو أربع بنات وقد انحنت رؤوسهن لأسفل مع الانخراط فى حديث هامس، رغم أن الأولاد أحيانًا يقومون بهجوم مفاجئ نحو أعلى التل مع الهتاف والصراخ والتلويح بأذرعهم، والمساحة المرصوفة بالأسمنت خارج حدود مدخلى "الأولاد" و"البنات" هى مساحة مشتركة بين الفئتين نظرًا لأن الأولاد يضطرون للعبور عليها، لكى يصلوا إلى الباب المخصص لهم.

والوقوف فى الطابور هو بمثابة الفترة الوحيدة التى أشاهد فيها أخى بالمدرسة، وفى منزلنا قمنا بتركيب جهاز إرسال واستقبال مكون من علبتين من الصفيح وقطعة من الخيط تمتد بين نوافذ غرفتى النوم الخاصة بنا ولا تعمل على نحو جيد للغاية، ونحن ندفع بالرسائل تحت باب غرفة بعضنا البعض وهى رسائل مكتوبة باللغة السرية الخاصة بالناس الغرباء والتى تكون مليئة بالعديد من حرف x

وحرف z وبالتالى ينبغى حلّ شفرتها، ونحن نلكز بعضنا البعض بالمرافق ونركل بعضنا البعض تحت المنضدة مع جعل الوجه معتدلاً فى خط مستقيم فوق مفرش المنضدة، وأحيانًا نربط شريط حذاءينا مع بعضها البعض من أجل التبليغ بالإشارة، وهذه هى وسائل الاتصال الرئيسية الخاصة بى مع أخى حاليًا والتى تتمثل فى هذه الكلمات الخشنة المثيرة للأعصاب المتناقلة عبْر علب الصفيح وفى العبارات الخالية من الحروف اللّينة وفى إشارات موريس Morse الصادرة عن الأقدام، ولكن فى فترة النهار لا أشاهده بمجرد أن نخرج من الباب، فهو يكون على مسافة بعيدة أمامى منخرطًا فى الإلقاء بكرات الثلج، وفى داخل الأتوبيس يكون هو جالسًا فى الجزء الخلفى فى دوامة صاخبة من الأولاد الأكبر سنًا، وعقب المدرسة وبعد أن ينتهى من المشاجرات التى تُفرض على أىّ ولد جديد فى أىّ مدرسة، فإنه ينطلق من أجل المشاركة فى شنّ حرب ضد الأولاد التابعين للمدرسة الكاثوليكية المجاورة، وهى تُسمى مدرسة سيدتنا الخاصة بالمساعدة الدائمة Our Lady of perpetual Help ولكن الأولاد التابعين لمدرستنا قد أطلقوا عليها اسم: مدرسة سيدتنا الخاصة بجهنّم الدائمة Our Lady of perpetual Hell ويقال إن الأولاد التابعين لهذه المدرسة الكاثوليكية يتّسمون بالعنف والخشونة الشديدة ويخفون قطعًا من الصخور داخل كرات الثلج الخاصة بهم.

إننى أعقل من أن أتكلم مع أخى أثناء هذه الأوقات وأعقل من أن أثير انتباهه أو انتباه أىّ ولد آخر نحوى، فالأولاد يتعرضون للمضايقات المليئة بالسخرية إذا كان لهم أخوات أصغر سنًا أو أخوات من أىّ نوع أو أمهات لأن هذا أشبه ما يكون بالحصول على ملابس جديدة، وعندما يحصل أخى على أية ملابس جديدة فإنه يبادر على توسيخها بأسرع ما يمكن لكى لا يلاحظ الأولاد أنه يرتدى ملابس جديدة، وهو إذا كان عليه أن يذهب إلى أى مكان معى أو مع والدتى، فإنه يسير على مسافة أمامنا أو يعبر إلى الجانب الآخر من الشارع، وإذا ضايقه الأولاد بكلام ساخر عنّى، فإنه يضطر للدخول فى المزيد من المشاجرات؛ ولذلك فأنا أصبح غير مخلصة له إذا حاولت إجراء اتصالات معه أو حتى مجرد المناداة عليه باسمه، وأنا أفهم هذه الأمور، وأبذل قصارى جهدى لكى لا أُسبب له المتاعب، لذلك يتم تركى

أقرأناكموه

لمواجهة الفتيات.. الفتيات الحقيقيات فى نهاية الأمر.. الفتيات الموجودات بالفعل لحمًا ودمًا على قيد الحياة، ولكننى لستُ معتادة على الفتيات ولست مطلعة جيدًا على عاداتهن وأعرافهن وتقاليدهن، وأشعر بالارتباك أثناء وجودى معهن؛ بحيث لا أعرف ما الذى أقوله لهن، وأنا أعرف القواعد والقوانين غير المعلنة الخاصة بالأولاد، ولكنى أثناء وجودى مع الفتيات أشعر دائمًا إننى على وشك الوقوع فى خطأ فاضح وفاجع وغير متوقع.

تتصادق معى فتاة تُسمى كارول كامبيل **Carol Campbell**، ومن ناحية ما كان عليها أن تصادقنى لأنها التلميذة الوحيدة فى الصف المدرسى الخاص بى التى تستقلّ أتوبيس المدرسة، والأطفال الذين يستقلون أتوبيس المدرسة ويتناولون غذاءهم فى القبو بدلاً من الذهاب إلى منازلهم يُعتبرون غرباء بعض الشىء، وبالتالى فهم يواجهون مخاطر أن يجدوا أنفسهم دون شريك عندما يدقّ الجرس ويحين الوقت للوقوف فى طابور؛ ولذلك فإن كارول تجلس إلى جوارى فى أتوبيس المدرسة وتمسك بيدى فى الطابور وتهمس فى أذنى وتتناول غذاءها بجوارى على المقعد الخشبى الطويل فى القبْو.

وتعيش كارول فى أحد المنازل الأكثر قدمًا الواقعة على الجانب الآخر من البستان المهجور، وهو منزل أكثر قربًا من المدرسة ومشيد من الطوب الأصفر وله طابقان وبه شيش مطلى باللون الأخضر ومحيط بإطار النوافذ، وهى فتاة قصيرة وممتلئة وميالّة إلى الأكثار من الضحك. وتقول لى إن شعرها له لون أشقر/ عسلى وأن تسريحة شعرها تُسمى بيجبوى **pageboy**(*) وأنها ينبغى عليها الذهاب إلى الكوافير مرة كل شهرين لكى يتم قصّ شعرها على ذلك النحو، وأنا لم أكن أعرف أنه توجد هناك أشياء مثل قصّ الشعر وفق تسريحة بيجبوى ومثل محلات الكوافير، فوالدتى لا تذهب إلى محلات الكوافير، وهى تثبت شعرها الطويل على الجانبين مثل صور النساء بملصقات فترة الحرب، كما أن شعرى لم يُقص من قبل على الإطلاق.

وكارول وأختها الأصغر لهما ملابس متلائمة من أجل أيام الأحد: معاطف تويد بنية لها ياقات مخملية ناعمة وقبعات بنية مخملية مستديرة لها شريط مطاطى

(*) قصّة شعر نسائية ، يُرسل فيها الشعر حتى الكتفين ، حيث يلتف نحو الداخل . (المترجم)

تحت الذقن لتثبيت القبعة، ولديهما قفازات بنية اللون وأكياس للنقود الصغيرة بنية اللون أيضًا، وهى تقول لى كل هذا، وهم من الأنجيليكان التابعين للكنيسة الإنجليزية **Anglicans** وتسألنى كارول عن نوعية الكنيسة التى أذهب إليها فأقول لها إننى لا أعرف، وحقيقة الأمر أننا لا نذهب على الإطلاق إلى أىّ كنيسة.

وعقب انتهاء اليوم المدرسى أعود أنا وكارول إلى المنزل سيرًا على الأقدام، ولا نسلك الطريق نفسه الذى يسلكه أتوبيس المدرسة فى الصباح، وإنما نسير فى طريق مختلف على طول شوارع خلفية وعبر كوبرى للمشاة خشبى متهالك فوق وادى صغير ضيق شديد الانحدار، ولقد قيل لنا ألاَّ نفعل هذا بمفردنا وألاَّ ننزل على الوادى الضيق بمفردنا، وتقول لى كارول إنه من المحتمل أن يوجد رجال فى أسفل الوادى الضيق، وهؤلاء ليسوا رجالاً عاديين وإنما هم من النوع الآخر... من النوع الغامض الشبحى الذى يتعقّب خلسة... من النوع الذى لا اسم له والذى يفعل لك أشياء، وهى تبتسم وتهمس عندما تذكر كلمة "رجال" كما لو كانوا بمثابة نكتة خاصة مثيرة للنشوة، نعبر الكوبرى فى خفة مع تجنب الأماكن المتآكلة بالألواح الخشبية ومع الانتباه والحذر من الرجال، وتدعونى كارول للذهب إلى منزلها عقب انتهاء اليوم المدرسى وترينى الدولاب الخاص بها والذى تتدلى منه جميع ملابسها، وهى لديها كمية كبيرة من الفساتين والتنورات، بل ولديها روب دى شامبر مع وجود شبشب زغبى متلائم فى اللون مع الروب دى شامبر، ولم يسبق لى أن شاهدت مثل هذه الكمية الهائلة من ملابس فتاة فى مكان واحد، وتسمح لى بأن ألقى نظرة على غرفة المعيشة الخاصة بها من خلال المدخل، على الرغم من أننا لا يُسمح لنا بالدخول إلى تلك الغرفة. يوجد بغرفة المعيشة أريكة وكرسيّان وستائر لها لون متماشى مع الغرفة، وجميع الأشياء من قماش بيج ووردى تقول عنه كارول إنه يُسمى شيت **chintz**، وهى تنطق هذه الكلمة فى ورع ورهبة كما لو كان اسمها لشىء ما مقدس، وأنا أكرّر فى نفسى هذه الكلمة فى صمت: **chintz**، إنها تشبه اسم نوع من سمك جراد البحر أو اسم واحد من الناس الغرباء الموجودين فى الكوكب البعيد الخاص بأخى.

وتقول لى كارول إن مدرس البيانو الخاص بها يضرب أصابعها بمسطرة إذا عزفت نغمة بطريقة خاطئة، وإن أمّها تصفعها على الكف بظهر فرشاة الشعر أو بفردة شبشب، وعندما تُسبب متاعب حقيقية يكون عليها أن تنتظر لحين عودة والدها إلى المنزل وضربها بشدة بحزامه على عجيزتها العارية، وكل هذه الأمور تعتبر أسرارًا، وهى تقول إن أمّها تغنى فى برنامج إذاعى تحت اسم مختلف، بل ونسمع بالفعل أمها وهى تتدرب على السّلم الموسيقى فى غرفة المعيشة بصوت مرتفع ومتهدّج، وهى تقول إن والدها يستخرج بعض أسنانه بالليل ويضعها فى كوب ماء بجوار سريره، وتريني الكوب بالفعل وإن كانت الأسنان غير موجودة به، ويبدو أنها لم تترك شيئًا إلاّ وقالته لى، وتحدثنى عن أولئك الأولاد بالمدرسة الذين هم فى حالة حبّ معها، وتأخذ منى وعدًا بألاّ أفشى ذلك السرّ، وتسألنى عن أولئك الأولاد الذين هم فى حالة حبّ معى. إننى لم أفكر فى هذا الأمر من قبل على الإطلاق، ولكنى أدرك أنها تتوقع منى أن أقول إجابة من نوع ما، فأقول إننى غير متأكدة.

وتجيء كارول إلى منزلى وتدرك وتستوعب كل شيء به، الحوائط غير المدهونة بالطلاء والأسلاك الكهربائية المتدلية من الأسقف والأرضيات غير المستكملة وأسرّة الجيش النقالى الخـــفيفة فى نشوة ومرح وعدم تصديق، وتقول: "أهذا هو المكان الذى تنامين فيه؟" وتضيف: "أهذا هو المكان الذى تأكلين فيه؟" وتستطرد: "وهل هذه هى ملابسك؟" ومعظم ملابسى التى ليست كثيرة العدد عبارة عن بنطلونات وقمصان جرسى صوفية أو قطنية، ولدىّ فستانان، أحدهما للصيف والآخر للشتاء ولدىّ تنورة فوقية قصيرة وتنورة صوفية من أجل المدرسة، وأبدأ أشك فى أن الأمر قد يستلزم وجود المزيد من الملابس.

وتخبر كارول كل شخص بالمدرسة بأن أسرتنا تنام على الأرض، وتعطى الانطباع بأننا نتعمّد أن نفعل ذلك لأننا قد جئنا من خارج المدينة، ولأن هذا هو أحد معتقداتنا، وتشعر كارول بالإحباط عندما تصل أسرتنا الحقيقية من المخزن وهى أسرّة لها أربع أرجل ولها مراتب مثل أسرّة أىّ شخص آخر، ثم تشيع بين الناس أننى لا أعرف نوعية الكنيسة التى أذهب إليها، وإننا نتناول الطعام على منضدة

خاصة بلعبة الكوتشينة، وهى لا تكرر هذا الكلام فى احتقار، ولكن من حيث هى خصوصيات بالغة الغرابة، فأنا على الرغم من كل شىء شريكتها فى الوقوف فى طابور المدرسة وتريد لى أن ينظر الناس إلىَّ فى إعجاب ودهشة من خلال الكشف عن مثل هذه الأعاجيب، ويبدو الأمر كما لو أنها تقدم تقريرًا عن العادات العجيبة لقبيلة ما بدائية، وهذا أمر حقيقى ولكنه لا يُصدَّق.

* * *

(١٠)

فى يوم السبت نصطحب كارول كامبيل إلى المبنى، وعندما نسير فى داخل المبنى تقول وهى تجعّد أنفها: "أهذا هو المكان الذى يعمل فيه والدك؟" ونريها الثعابين والسلاحف فتصدر صوتًا شبيهًا بـ"إوّ Ew"، وتقول إنها لن ترغب فى لمس هذه الكائنات، فأندهش من كلامها هذا لأن مثل هذه المشاعر قد أُحبطت لدىّ منذ فترة طويلة للغاية، حتى إننى لم يعد لدىّ هذه المشاعر، والوضع نفسه بالنسبة لستيفن، ولا يوجد الكثير الذى لا نرغب فى لمسه إذا أعطيت لنا الفرصة، وأعتقد أن كارول كامبيل فتاة جبانة، وفى الوقت نفسه أجد نفسى فخورة بعض الشىء برقتها ومراعاتها لأحاسيس الآخرين، وينظر أخى إليها بطريقة شاذة فى نوع من الاحتقار، وإذا قلتُ أنا نفسى شيئًا من هذا القبيل فإنه يهزأ بى ويسخر منّى، ولكن يوجد صوت منخفض مثل إيماءة غير مرئية كما لو أن شيئًا ما يرغب فى الشك فيه قد أصبح حقيقة على الرغم من كل شىء.

ومن حيث الحق والعدل، فإنه ينبغى عليه أن يتجاهلها عقب هذا، ولكنه يختبرها فيما يتعلق ببرطمانات السحالى وعيون الثور، فتقول: "إوّ Ew" وتضيف: "ماذا لو وضعوا واحدة من هذه الأشياء عند الجزء الأسفل من ظهرك؟" فيسألها

أقرأناكموه

أخى عن الكيفية التى تريد بها طهْى بعض هذه الأشياء من أجل إعداد وجبة الغداء، فتصدر أصوات مضغ وأكل.

وتقول كارول: "إوّ Ew" وتقطّب جبينها وتتلّوى فى تمعّج، ولا أستطيع الادعاء بأننى أيضًا شعرتُ بالصدمة والقرف؛ إذ لن يقتنع أخى بصحة ذلك، ولا يمكن لى أن أشارك فى لعبة إعداد أطعمة مقززة للنفس مثل ساندوتشات الضفادع أو مضغة العلقات، على الرغم من أننا إذا كنا بمفردنا أو مع أولاد آخرين، فإننى كنت سأفعل ذلك دون تردّد؛ لذلك ألتزم بالصمت ولا أقول أىّ كلام.

وبعد أن نرجع من المبنى أذهب إلى منزل كارول مرة أخرى، وتسألنى عمَّا إذا كنت أرغب فى مشاهدة الطقم المزدوج **twin set** الجديد الخاص بوالدتها، ولا أعرف معنى هذه الكلمة أو طبيعة ذلك الشىء، ولكنه يبدو شيئًا مثيرًا للفضول والاهتمام؛ لذلك أقول لها: "نعم"، فتأخذنى فى خلسة إلى غرفة نوم أمّها قائلة إنها ستتعرض للعقاب إذا تم ضبطنا متلبستين، وترينى الطقم المزدوج؛ حيث كان مطويًّا فوق رفّ، والطقم المزدوج عبارة عن عدد٢ سويتر أو سترة صوفية غليظة، وهما من اللون نفسه، وإحداهما بها زرايرٍ بالجزء الأمامى متجهة لأسفل فى خط طولى والأخرى دون زرايرٍ، وكنت قد شاهدت بالفعل المدام كامبيل وهى مرتدية طقمًا مزدوجًا آخر له لون بيج بينما ثدياها ناتئان فى بروز والسويتر المغلق بالزرايرٍ متدلٍّ فى تجعد على الكتفين مثل رداء خارجى بلا كُمّين يُطرح على الكتفين؛ إذن فهذه هى الأطقم المزدوجة، وأشعر بالإحباط لأننى كنت أتوقع مشاهدة شىء له علاقة بالقوائم.

والدة كارول ووالدها لا ينامان فى سرير واحد كبير مثلما يفعل أبى وأمى، وبدلاً من ذلك ينامان فى سريرين صغيرين متشابهين تمامًا مع وجود ملاءتين متماثلتين من القماش الشانيل الوردى اللون علاوة على وجود منضدتين صغيرتين متماثلتين، وهذان السريران يُسميان سريرين توأم وهو أمر معقول من وجهة نظرى أكثر من الطقم المزدوج (التوأم)، ومع ذلك فإنه من الغريب أن أتخيل السيد والسيدة كامبيل وهما نائمان فى هذين السريرين ليلاً مع وجود رأسين مختلفين،

رأسه بها شارب ورأسها دون شارب ، ولكنهما مع ذلك تشبيهان بالتوأم ومتلائمان تحت الملاءات والبطاطين، إنه التشابه بين الملاءتين والمنضدتين واللمبتين والمكتبين والتشابه بين كل شيء فى غرفتهما هو الذى يعطينى هذا الانطباع، أمَّا غرفة أمى وأبى فهى أقل سيمترية وأقل أناقة، وتقول كارول إن أمها ترتدى فى يديها قفازًا من المطاط أثناء قيامها بغسل الأطباق، وترينى القفاز المطاطى وأنبوبة رشّ مربوطين فى حنفية الماء، وتفتح الحنفية وترش جوانب الحوض وجزءًا من الأرضية إلى أن تجيء السيدة كامبيل وقد ارتدت الطقم البيج وظهر العبس على وجهها وتقول: "أليس من الأفضل لكما الصعود إلى الدور العلوى من أجل اللعب هناك؟" ويحتمل أن تكون غير متجهمة فى عبس، فهى لها فم يتجه لأسفل قليلاً حتى ولو كانت تبتسم، ولذلك فإن من الصعب أن تعرف ما إذا كانت مسرورة أم لا، وشعرها له لون شعر كارول نفسه ولكن شعرها يشبه الدمية؛ حيث يبدو أنيقًا ومرتَّبًا للغاية كما لو كان قد تمت خياطته فى أماكنه.

وتزداد بهجة كارول كلما ازدادت دهشتى وحيرتى، وتطوف بى فى أرجاء منزلها كما لو كان متحفًا وكما لو كانت هى شخصيًّا قد جمعت كل الأشياء الموجودة فى داخله، وتقف فى صالة الدور الأرضى وتقول لى إننى أعزّ صديقة لها.

* * *

ولدى كارول أعزّ صديقة لها أخرى وهى أحيانًا تكون أعزّ صديقة لها وأحيانًا أخرى لا تكون كذلك، وهى تسمى: جريس سميث **Grace Smith**، وكارول تلفت نظرى إليها ونحن فى الأتوبيس وبالطريقة نفسها التى لفتت نظرى بها إلى الطقم المزدوج **twin set**.

وجريس سميث أكبر بسنة؛ ولذلك فهى فى الصف المدرسى التالى ، وهى بالمدرسة تلعب مع بنات أخريات بالفصل الخاص بها، ولكن بعد المدرسة وفى أيام

السبت تلعب مع كارول، ولا توجد بنات فى فصلها يسكنَّ فى الجانب الخاص بنا من الوادى الضيق شديد الانحدار.

وجريس تعيش فى منزل مشيد من الطوب الأحمر مكون من طابقين وله شكل صندوق الأحذية وبه شرفة أمامية لها عمودان أبيضان مستديران سميكان كدعائم لها، وهى أطول من كارول ولها شعر أسود خشن كثيف ممشط فى ضفيرتين، وبشرتها شاحبة للغاية مثل جسد بذلة الاستحمام ولكن بشرتها مغطاة بالنمش، وهى ترتدى نظَّارة، وعادةً ما ترتدى تنورة رمادية لها شريطان فوق الكتفين وسويتر أحمر اللون مليئًا بكرات صوفية صغيرة، وملابسها بها مسحة خفيفة من رائحة منزل عائلة سميث وهى مزيج من رائحة مسحوق تنظيف ولفْت مطبوخ وملابس مغسولة ذات رائحة كريهة بعض الشىء علاوة على رائحة التراب الموجود تحت الشرفات، وأعتقد أنها جميلة.

لم أعد أذهب فى أيام السبت إلى المبنى، وبدلاً من ذلك ألعب مع كل من كارول وجريس، ولأن الوقت فى الشتاء فإننا نلعب فى معظم الأحيان داخل المنزل، واللعب مع البنات له طابع مختلف، وفى بادئ الأمر أشعر بالغربة أثناء قيامى باللعب، بل وأشعر بالخجل كما لو كنت أقوم فقط بتمثيل دور فتاة، ولكننى سرعان ما أعتاد على اللعب مع البنات، والأشياء التى نلعبها معظمها من أفكار جريس؛ لأننا إذا حاولنا أن نلعب أية لعبة لا تروق لها فإنها تقول إنها تعانى من الصداع وتذهب إلى منزلها أو تطلب منا الانصراف إذا كنا موجودات فى منزلها، وهى لا ترفع صوتها فى حدة أبدًا أو تغضب أو تبكى، ولكنها توجه التأنيب لنا فى هدوء كما لو كنا مسئولات عن الصداع الذى انتابها، وكما لو كانت الغلطة هى غلطتنا، ولأننا نرغب فى اللعب معها أكثر مما هى ترغب فى اللعب معنا فإنها تنال ما تريد بالنسبة لكل شىء.

نقوم بالتلوين فى كراسات تلوين النجمات السينمائيات الخاصة بجريس، والتى تعرض نجمات السينما فى أثواب نسائية مختلفة وهن يفعلن أشياء مختلفة، مثل اصطحاب كلابهن فى نزهة خلوية أو الإبحار فى ملابس البحارة أو الدوران

والالتفاف فى ملابس السهرة فى الحفلات، والنجمة السينمائية المفضلة لدى جريس هى إستر وليامز، وأنا ليس لى نجمة سينمائية مفضلة؛ إذ لم يسبق لى أن ذهبت إلى السينما على الإطلاق، ولكنى أقول إن نجمتى المفضلة هى فيرونيكا ليك **Veronica Lake** لأننى أحب هذا الاسم، وجريس تحب أن يتم تلوين جميع هذه الكراسات، وهى تحدّد لنا الألوان التى نستخدمها بالنسبة للأجزاء المختلفة، وأنا أعرف ما يمكن أن يفعله أخى، البشرة الخضراء بالنسبة لإستر وليامز مع قرون استشعار خنفسية وسيقان مليئة بالشعر بالنسبة لفيرونيكا، ولكننى أُحجم عن عمل ذلك، وعلى كل حال فأنا أحب الملابس، ونلعب لعبة المدْرسة، فجريس لديها كرسيان ومنضدة خشبية فى القبْو الخاص بها وكذلك سبورة صغيرة وطباشير، وهذه الأشياء توجد تحت حبْل الغسيل الداخلى؛ حيث يتم تعليق الملابس الداخلية لأسرة سميث لكى تجف عندما يتساقط المطر أو الثلج، وهذا القبْو ليس مستكملاً؛ فالأرضية مغطاة بالأسمنت والأعمدة التى يستند عليها المنزل مشيدة من الطوب وأنابيب المياه والأسلاك مكشوفة والهواء به رائحة تراب الفحم، لأن صندوق الفحم يوجد إلى جوار السبورة، ودائمًا ما تقوم جريس بدور المُدرِّسة بينما تقوم كارول وأنا بدور التلميذات، وينبغى علينا أن نؤدى اختبارات تهجئة حروف الكلمات ومسائل الجمْع الحسابية، ويبدو الأمر أشبه ما يكون بمدرْسة حقيقية، بل وأسوأ من المدرسة الحقيقية لأننا لا نقوم أبدًا برسم الصور، ولا يمكن لنا أن نتظاهر بالرداءة لأن جريس لا تحب الفوضى.

وقد نجلس على الأرضية فى حجرة جريس مع أكوام من كاتالوجات إيتون القديمة، لقد سبق لى أن شاهدت كميات كبيرة من كاتالوجات إيتون، فهى فى الشمال تكون معلقة فى المراحيض الخارجية من أجل استخدامها كورق تواليت ولذلك فإن كتالوجات إيتون تذكرنى بنتانة مثل هذه المراحيض الخارجية وتذكرنى بطنين الذباب حول الثقب الموجود فى الأرض، كما تذكرنى بصندوق الجير والجاروف الخشبى الذى يُستخدم فى إلقاء الجير على كومات البراز القديم

والحديث من جميع الأشكال ودرجات اللون البنّى، ولكننا هنا نتعامل مع هذه الكتالوجات فى توقير واحترام؛ إذ نقوم بقصّ الأشكال الصغيرة الملونة الموجودة بها ونلصقها فى دفتر القصاصات، وبعدئذ نقوم بقص الأشياء الأخرى – مثل أدوات الطهى والأثاث – ونلصقها حول الأشكال، والأشكال فى حدّ ذاتها دائمًا ما تكون نساءً، ونحن نسميهن "سيدتى"، فتقول مثلاً: "سيدتى سوف تحصل على هذه الثلاجة" أو: "سيدتى تحصل على هذه السجادة" أو: "هذه هى مظلة سيدتى".

وتنظر جريس وكارول إلى صفحات دفتر القصاصات الخاص ببعضهما البعض وتقولان: "أوه، دفتر القصاصات الخاص بك رائع للغاية"، أمَّا دفتر القصاصات الخاص بى فهو غير جيّد، بل هو شنيع وهما تقولان هذا الكلام فى كل مرة نلعب فيها لعبة دفتر القصاصات، وتكون أصواتهما متسمة بالزيف والتملّق، وباستطاعتى أن أدرك أنهما لا تعنيان ما تقولان فكل واحدة منهما تعتقد أن السيدة الخاصة بها الموجودة على الصفحة الخاصة بها ممتازة، ولكن هذا هو الشىء الذى ينبغى أن تقوله؛ لذلك أبدأ فى أن أقول هذا الكلام نفسه أيضًا.

وأجد هذه اللعبة مُتعبة – إنه الثقل وتكويم كل هذه الأشياء وجميع هذه الممتلكات التى ينبغى الاعتناء بها أثناء تعبئتها وحشرها فى السيارات، ثم إخراجها من عبواتها، فأنا أعرف الكثير عن مسألة الانتقال من منزل إلى آخر، ولكن كارول وجريس لم يسبق لهما الانتقال للعيش فى أىّ مكان آخر، فالسيدتان اللتان تخصاهما تعيش كل منهما فى منزل واحد وتظل دائمًا مقيمة فى المنزل نفسه، ويمكن لهما إضافة المزيد والمزيد وحشو صفحات دفترى القصاصات الخاصين بهما بأطقم أثاث غرفة الطعام والأسرة وكومات الفوط ومجموعات متلاحقة من الأطباق المختلفة، ويعتبران ذلك أمرًا سهلاً.

أبدأ فى الرغبة فى أشياء لم أكن أرغب فيها من قبل على الإطلاق، شرائط للزينة مجدولة + "روب دى شامبر" + كيس نقود خاص بى، شىء ما يأخذ فى التكشّف والتجلّى والظهور أمامى؛ إذ أدرك أنه يوجد عالم بأكمله خاص بالبنات وبأفعالهن كان غير معروف لى تمامًا، وأنه يمكن لى أن أصبح جزءًا من ذلك

العالم دون أن أبذل أىّ مجهود على الإطلاق، فأنا لست مضطرة لأن أجارى أىّ شخص أو أجرى بسرعته نفسها أو أصوّب على نحو جيّد مثله أو أحدث أصواتًا انفجارية عالية مثله أو أفك شفرات الرسائل مثله، وأنا لست مضطرة لأن أفكر فيما إذا كنت أديتُ هذه الأمور على نحو جيّد وبالجودة نفسها التى يؤدى بها ولد، كل ما علىَّ أن أفعله هو أن أجلس على الأرض وأقص أوعية القلْى من كتالوج إيتون باستخدام مقصّ تطريز، وأقول إننى فعلت ذلك على نحو ردىء، وهذا بمثابة ارتياح إلى حدّ ما.

* * *

(١١)

بمناسبة الكريسماس أحصل على بعض أملاح الحمام ماركة "حديقة الصداقة" من كارول، كما تعطينى جريس دفتر تلوين عن فرجينيا مايو، وأفتح هديتهما قبل أن أفتح هدية أىّ شخص آخر، وأحصل أيضًا على ألبوم للصور الفوتوغرافية لكى يتوافق مع الكاميرا الخاصة بى. الصفحات والغلاف لهما لون أسود ومربوطان مع بعضهما البعض بشىء ما يشبه شريط حذاء أسود كبير، وتوجد عبوّة من المثلثات السوداء المصمغة حتى يمكن استخدامها فى لصق الصور الفوتوغرافية، وحتى الآن لم ألتقط سوى لقطة واحدة من فيلم الكاميرا الخاصة بى. إننى أفكر فى الشكل الذى ستبدو عليه كل صورة لدى قيامى بالضغط على الزرّ، ولا أرغب فى إتلاف أىّ صورة، وعندما تعود إلىّ الصور عقب تحميضها يعود إلىَّ النيجاتيف أيضًا، أرفع الصور النيجاتيف لأعلى نحو الضوء: أىّ شىء له لون أبيض فى الصورة الحقيقية يكون له لون أسود فى النيجاتيف، فالثلج على سبيل المثال يكون له لون أسود وكذلك مقلة العين والأسنان لدى الناس.

أقرأناكموه

أقوم بتثبيت صورى فى الألبوم باستخدام المثلثات السوداء، وبعض الصور لأخى وهو يقوم بحركات تهديد مستخدمًا كرات الثلج، وبعض الصور لكارول والبعض الآخر لجريس، ولا توجد سوى تلك الصورة الوحيدة لى وأنا واقفة أمام باب الموتيل مع ظهور رقم٩ على الباب وهى صورة قد التقطت منذ شهر مضى، وتلك الطفلة تبدو بالفعل فى الصورة أصغر فى السن بكثير وأكثر فقرًا وفى مكان بعيد ومنكمشة فى ذعر... نسخة جاهلة لنفسى، وشىء آخر أحصل عليه بمناسبة الكريسماس، وهو كيس للنقود من البلاستيك الأحمر اللون وله شكل بيضاوى وبه مشبك ذهبى اللون ومقبض فى الطرف العلوى، وهو يكون ليّنا ومرنًا فى داخل المنزل ولكنه يصبح ناشفًا بالخارج فى البرد، حتى إن الأشياء تخشخش فى داخله، وأنا أحتفظ بمصروف الجيب فى داخل هذا الكيس، وهو خمسة سنتات أسبوعيًا.

بحلول هذا الوقت يصبح لدينا أرضية لغرفة المعيشة مكسوة بالخشب الناشف الذى تصقله أمى بالشمع وهى راكعة على ركبتيها وتلمعه باستخدام فرشاة لها مقبض طويل حيث تدفع بالفرشاة جيئةً وذهابًا مع إحداث صوت شبيه بصوت الأمواج، ولقد تمَّ طلاء حوائط غرفة المعيشة وتم تركيب الثوابت والتجهيزات كما أضيفت الأطواق الخشبية المحيطة بالجدران الداخلية، بل وتوجد الستائر **Curtains** أو الـ**drapes** كما يسمونها، وكان قد تمَّ الانتهاء من إنجاز الأجزاء العمومية المرئية للمنزل فى بادئ الأمر.

وتظل حجرات النوم الخاصة بنا خالية من التجهيزات؛ إذ لم يتم بعد تركيب الستائر لها، ويمكن لى أثناء استلقائى فى السرير ليلاً النظر إلى الخارج من نافذتى نحو الثلج المتساقط المضاء من خلال الضوء المترامى من نافذة غرفة نوم أخى المجاورة لغرفتى.

إنها أكثر فترات السنة إظلامًا، حتى فى وقت النهار يبدو الجوّ مظلمًا، وفى الليل عندما تضاءُ الأنوار، فإن الظلام يسود كل شىء مثل ضباب، وبالخارج لا يوجد سوى عدد قليل من أعمدة الإنارة بالشارع وهى متباعدة عن بعضها وأنوارها ليست ساطعة للغاية، والمصابيح الكهربائية بمنازل الناس تلقى بضوء يميل إلى

اللون الأصفر، وهو لون ليس ضاربًا إلى الخضرة وإنما أصفر غامق وشبيه بلون الزبدة مع مسحة من اللون البنّى، وألوان الأشياء بالمنازل بها ظلمة مختلطة معها، اللون الكستنائى واللون البيج الفُطْرى واللون الأخضر المخفف واللون الوردى الترابى، وهذه الألوان تبدو قذرة بعض الشىء مثل المربعات بصندوق الطلاء عندما تنسى أن تغسل الفرشاة بالماء.

نحن لدينا كنبة طويلة كستنائية اللون قد أُخرجتْ من المخزن، وتوجد أمامها سجادة كستنائية وأرجوانية من طراز شرقى، ولدينا مصباح أرضية به ثلاث شعب، والهواء فى ضوء المصباح المسائى يكون متجلّطًا مثل تكثيف القستر المصنوع من الحليب والبيض، وتتجمّع ترسبات ضوء أكثر ثقلاً فى أركان غرفة المعيشة، وتظل الستائر مُسدلة ليلاً طيات وطيات من القماش فى مواجهة الشتاء مع اختزان الضوء الثقيل الداكن والاحتفاظ به فى الداخل.

تحت هذا الضوء أنشر جريدة المساء على الأرضية الخشبية اللامعة، وأستند على ركبتىّ ومرفقىّ، وأنخرط فى قراءة تلك الأجزاء من الجريدة المخصصة للرسوم الهزلية، ففى الرسوم الهزلية يوجد ناس لهم ثقوب مستديرة بدلاً من العيون وأناس آخرون يمكن لهم أن ينوّموك مغناطيسيًا على الفور وآخرون لهم شخصيات سرية وآخرون يمكن لهم أن يمطّوا وجوههم بحيث تتخذ أىّ شكل؛ وفيما حولى توجد رائحة ورق الصحف ورائحة شمع الأرضية ورائحة جواربى المثيرة للأعصاب والمختلطة مع رائحة ركبتى المتسختين والمنبعثة من درج المكتب والرائحة الساخنة المثيرة للحكّ للنسيج الصوفى ورائحة الملابس الداخلية القطنية المنبعثة من صندوق القطة، ومن خلفى تنبعث من الراديو موسيقى راقصة استعدادًا لإذاعة نشرة أخبار الساعة السادسة، والراديو مصنوع من الخشب الأسود اللامع وبه عين خضراء واحدة تتحرك على طول قرص الراديو عندما تدير الزرّ، وما بين المحطات تحدث هذه العين أصواتًا غريبة قادمة من الفضاء الخارجى، ويقول ستيفن إن هذه الأصوات هى موجات لاسلكية.

* * *

أقرأناكموه

والآن فإن جريس سميث كثيرًا ما تطلب منى المجىء إلى منزلها عقب المدرسة ودون أن تطلب ذلك من كارول، وتقول لكارول إن هناك سببًا فى عدم توجيه الدعوة لها، وهذا السبب يتعلق بأمها؛ فأمها فى حالة من التعب والإرهاق؛ ولذلك فإن جريس يمكن لها أن تصطحب صديقة واحدة مفضلة فى ذلك اليوم.

ووالدة جريس تعانى مرض فى القلب، وجريس لا تعتبر هذا سرًّا مثلما قد تفعل كارول، فهى تذكر ذلك فى غير عاطفة وفى أدب كما لو كانت تطلب منك أن تمسح قدميك على الحصيرة، ولكن أيضًا فى اعتداد بالنفس كما لو كان لديها شىء ما أو امتياز ما أو تفوق أخلاقى لا نشارك فيه نحن الاثنتين، إنه الاتجاه الذى تتخذه نحو شجرة المطاط التى تقف على منبسط الدَّرج عند منتصف المسافة بالسلالم الخاصة بها، وهى النبات الوحيد الموجود فى منزل جريس ونحن غير مسموح لنا أن نلمسه، وهى شجرة عجوزة للغاية وينبغى مسح أوراقها كلها ورقة وراء ورقة باللبن، والقلب المريض للسيدة سميث يشبه تلك الشجرة، فبسبب هذا القلب المريض ينبغى علينا أن نمشى على أطراف أصابع أقدامنا ونسير فى هدوء ونكتم ضحكاتنا ونفعل ما تقوله لنا جريس، فالقلوب المريضة لها الاستخدامات الخاصة بها، بل وباستطاعتى أن أشاهد وأدرك ذلك.

فى كل فترة من فترات ما بعد الظهر ينبغى على السيدة سميث أن تخلد للراحة، وهى لا تستريح فى غرفة نومها وإنما على الكنبة الطويلة الموجودة فى غرفة المعيشة؛ حيث تتمدّد عليها عقب خلع حذائها وتغطى نفسها ببطانية ملونة ونحن نجدها على هذه الكيفية دائمًا عندما نذهب إلى هناك من أجل اللعب عقب انتهاء اليوم المدرسى، وندخل من خلال الباب الجانبى ونصعد على السلالم إلى المطبخ مع محاولة الالتزام بالهدوء الشديد بقدر الإمكان ومنه إلى غرفة الطعام وحتى الأبواب الفرنسية المزدوجة حيث نحملق من خلال الألواح الزجاجية محاولين معرفة ما إذا كانت عيناها مفتوحتين أو مغلقتين، وهى لا تكون مستغرقة فى النوم أبدًا، ولكن يوجد دائمًا الاحتمال الذى وضعته جريس فى رأسينا بأنها فى أىّ يوم قد تكون ميتة.

والسيدة سميث لا تشبه السيدة كامبيل، فهى على سبيل المثال لا يوجد لديها طقم مزدوج لأنها تنظر إلى الأطقم المزدوجة فى احتقار، وأنا أعرف هذا لأنه ذات مرة عندما كانت كارول تتفاخر بالأطقم المزدوجة الخاصة بوالدتها قالت السيدة سميث: "هل الأمر كذلك"، ليس على هيئة سؤال ولكن بطريقة تجعل كارول تكف عن الكلام، وهى لا تضع أحمر الشفاه على فمها ولا تستخدم بودرة الوجه حتى ولو كانت ستخرج من المنزل، وهى لها عظام ضخمة وأسنان عريضة مع وجود فجوات بينها مما يسمح لك بمشاهدة كل سنّة فى وضوح، وبشرتها مفروكة كما لو كانت قد دُعكت باستخدام فرشاة البطاطس، ووجهها مستدير وعليل ورقيق وله البشرة البيضاء نفسها الخاصة بوجه جريس وإن كان بلا نمش، وترتدى نظارة مثل جريس، ولكن نظارتها بها إطار من الصلب بدلاً من الإطار البنىّ اللون، وشعرها مفروق من المنتصف مع وجود بعض الشعر الأشيب عند صدغيها، ومُضفَّر وملفوف فوق رأسها على شكل تاج من الشعر المنبسط المشبوك بدبابيس الشعر.

وهى ترتدى ملابس منزلية مطبوعة ليس فى فترات الصباح فقط ولكن فى معظم الأوقات، وفوق هذه الملابس ترتدى مرايل تتدلى عند الصدر وتجعل الصدر يبدو وكأنها ليست لديها ثديان وإنما ثدى واحد... ثدى واحد يتدلى على صدرها ويستمر هابطًا لأسفل حتى ينضم إلى خصرها، وترتدى جوارب مصنوعة من خيوط قطنية ناعمة مبرومة، وبها خيوط التحام مما يجعل ساقيها تبدوان محشُوَّتين من الجزء الخلفى، وهى ترتدى حذاءً إكسفورديًا له لون بنّى، وبدلاً من الجوارب الحريمى فإنها ترتدى فى بعض الأحيان جوارب رجالى مصنوعة من القطن الرفيع مما يجعل ساقيها تبدوان فوق الجورب فى لون أبيض مع وجود شعر متناثر هنا وهناك مثل شارب امرأة، وهى لها شارب أيضًا، وإن كان لا يشبه الشارب دائمًا مجرد شعر متناثر حول زاويتى الفمّ، وهى تبتسم كثيرًا مع غلق شفتيها على أسنانها الكبيرة، ولكنها – شأنها شأن جريس – لا تضحك.

وهى لها يدان كبيرتان وأعجفتان وحمراوان بسبب الغسيل، ويوجد الكثير من الغسيل لأن جريس لها أختان أصغر منها تحصلان على تنوراتها وبلوزاتها، بل وملابسها الداخلية، وأنا معتادة على الحصول على القمصان الصوفية الخاصة بأخى، ولكنى لا أحصل على ملابسه الداخلية، إنها الملابس الداخلية المتهالكة الرمادية بسبب كثرة الاستعمال التى تتدلى بينما الماء يقطر منها على حبل الغسيل فوق رؤوسنا بينما نجلس فى قبْو جريس متظاهرات بأننا فتيات مدرسة.

* * *

قبل حلول عيد القديس فالنتين فى ١٤ فبراير ينبغى علينا أن نقص قلوبًا من ورق رسم أحمر اللون بالمدرسة وأن نزينها بقطع من مناديل المائدة الورقية من أجل أن نلصقها على النوافذ الطويلة الرفيعة، وبينما أقوم بقص القلب الخاص بى أفكر فى القلب المريض للسيدة سميث، تُرى ما هى نوعية الخطأ الموجود فى قلبها على وجه الدقة؟ إننى أتخيل قلبها متخفيًا تحت البطانية الصوفية الملونة الخاصة بها، وتحت الانتفاخ الموجود فى مريلتها ومنهمكًا فى ضخّ شىء ما نحو الظلام الجسدى الكثيف السائد فى جسدها، شىء ما مُحرَّم وخصوصى، وقد يكون ذلك الشىء له لون أحمر، ولكن به رقعة من السواد المائل للحمرة مثل تعفّن فى تفاحة أو مثل كدمة، وعندما أفكر فى ذلك أشعر بألم، وينتشر فى داخل كيانى إجفال حاد ضئيل مثلما حدث لى عندما شاهدت أخى وهو يجرح إصبعه ذات مرة على قطعة من الزجاج، ولكن القلب المريض يفرض نفسه أيضًا.

إنه تحفة أو شىء نادر وعجيب، إنه عاهة جسدية وتشوّه جسدى، إنه كنز رهيب.

ويومًا وراء يوم أضغط بأنفى على زجاج الأبواب الفرنسية لكى أعرف ما إذا كانت السيدة سميث ما زالت على قيْد الحياة، وهذه هى الكيفية التى سأشاهدها عليها للأبد، مستلقية دون حراك مثل شىء ما موجود فى متحف بينما رأسها الموجود

على غطاء الكنبة، قد تدبّس مع ذراع الكنبة، مع وجود وسادة رديئة تحت عنقها، ومع وجود شجرة المطاط على بسطة الدّرج المرئية خلفها، وتستدير برأسها لكى تنظر إلينا فيبدو وجهها بدون النظارة أبيض اللون ومضيئًا على نحو عجيب فى الفراغ المعتم مثل فطريات متألقة فى إشعاع فوسفورى، إنها أصغر من سنّى الحالى بعشر سنوات، لماذا أكرهها كُرْها شديدًا؟ ولماذا أهتم بما كان يدور داخل رأسها؟

* * *

(١٢)

يتآكل الثلج فتصبح الحفر بالطرق القريبة من منزلنا مليئة بالمياه الطينية، وتتشكل فقاعات رقيقة من الثلج عبْر هذه الحفر الصغيرة فى أثناء الليل، فنقوم بتحطيمها بكعوب أحذيتنا القوية التى لها رقبة، والكتل الثلجية المُدلاّة تسقط فى تحطم من افريز الأسقف فنلتقطها ونلعقها، ونرتدى القفازات الخاصة بنا فى تدل، وعلى مساحات المروج الخضراء وبينما نمشى عائدات من المدرسة إلى المنزل يمكن لنا أن نشاهد قطع ورق مبللة تحت سياج من الشجيرات وبراز كلاب قديمًا ونبات زعفران يبرز من بين الثلج المكتسب لون الهباب المليء بالحبيبات والبلّورات الصغيرة، وتتدفق المياه البنية اللون من المزاريب، بينما الكوبرى الخشبى الموجود فوق الوادى الصغير الضيّق يصبح زلقًا وليّنًا ومستعيدًا لرائحة العفن الخاصة بنا، ومنزلنا يشبه شيئًا ما قد خلفته الحرب، فجميع الأماكن المحيطة به مليئة بالدّبش وقطع الحجارة والدمار والخراب. والداى يقفان فى الفناء الخلفى الخاص بهما مع وضع الأيدى على الأفخاذ والنظر عبْر المساحة الشاسعة المليئة بالطين الخام ووضع التخطيط للحديقة الخاصة بهما، لقد بدأت تبزغ كتلات من النجيلة المعترشة، ويقول والدى إن النجيلة المعترشة يمكن لها أن تنمو فى أىّ

أقرأناكموه

شيء، ويقول أيضًا إن المقاول – وهو المقاول نفسه الذى هرب من السجن – نقل الصلصال الكثيف من القبْو الخاص بنا ونشره حول المنزل وفوق ما كان ينبغى أن يكون هو التربة الفوقية، ويقول والدى: "إنه عبيط علاوة على أنه محتال ولصّ".

يرقب أخى مستوى الماء فى الحفرة الهائلة المجاورة للمنزل وينتظر لحين أن تجف الحفرة لكى يستخدمها كغرفة محصنة تحت الأرض، ولكنه يدرك أن ذلك أمر غير ممكن لأن الحفرة ضخمة للغاية، وأيضًا لأنه لن يُسمح له بعمل ذلك، وبدلاً من هذا فإنه يخطط لحفر نفق فى جانب الحفرة وبحيث ينزل إلى هذا النفق ويصعد منه من خلال استخدام سلم مصنوع من الحبال، وهو ليس لديه سلم من الحبال ولكنه يقول إنه سيصنع سلَّمًا من ذلك النوع إذا استطاع الحصول على بعض الحبال.

وهو والأولاد الآخرون يجرون حول المنزل فى الطين فتلتصق أقدام إضافية ضخمة من الطين فى نعال أحذيتهم الخاصة بهم التى لها رقبة مخلفين وراءهم آثار أقدام تشبه آثار أقدام العمالقة، وهم يجثمون خلف الأشجار فى البستان القديم ويصطادون بعضهم البعض ويصيحون:

– "أنت ميّت!"

– "لستُ ميتًا!"

– "أنت ميِّت!"

وفى مرات أخرى يحتشدون فى غرفة أخى مع الاستلقاء على البطن على سريره أو على أرضية الغرفة ويقرءون كتبه الهزلية المتوفرة فى كومات هائلة، وأنا أفعل ذلك أيضًا فى بعض الأحيان؛ حيث أتمرَّغ بين صفحات الورق الملون وقد أحاكت بى الرائحة الخاصة بالأولاد، فرائحة الأولاد لا تشبه رائحة البنات، إذ إن لهم رائحة حرّيفه ولاذعة وجلدية وشبيهة برائحة الحبْل القديم والكلاب المبلّلة، ونحرص على غلْق الباب لأن أُمَّنا لا توافق على قراءة الكتب الهزلية، وتتم قراءة

الكتب الهزلية فى صمت مليء بالتبجيل والاحترام مع تبادل كلمات أُحادية المقطع من وقت إلى آخر عن القراءة بالتناوب.

وما يجمعه أخى حاليًا الكتب الهزلية، فهو دائمًا ما كان يجمع شيئًا ما، وذات مرة كان يجمع أغطية زجاجات اللبن من عشرات محلات بيع الألبان، وكان يحمل فى جيوبه حزمات منها مربوطة مع بعضها البعض بخيوط مطاطية، وبعدئذ بدأ يجمع أغطية زجاجات المشروبات الغازية، ثم بطاقات الإعلانات عن السجائر ثم أشكال لوحات الترخيص الخاصة بولايات ومقاطعات مختلفة، وكل ذلك من أجل الدخول فى المسابقات وتحقيق المكاسب، ولكن لا توجد وسيلة لكسب الكتب الهزلية بهذه الطريقة، وبدلاً من ذلك عليك أن تقايض عليها، كتاب واحد جيّد فى مقابل ثلاثة أو أربعة كتب أقلّ جودة.

وفى المدرسة نقوم بتصنيع البيض الخاص بعيد الفصح باستخدام الورق الوردى والأرجوانى والأزرق ونلصقه على النوافذ، وبعد ذلك نقوم بتصنيع نبات التوليب الزنبقى، وسرعان ما توجد نباتات التوليب الحقيقية، ويبدو أن الأشياء الورقية دائمًا ما تظهر أولاً قبل ظهور الأشياء الحقيقية.

تقوم جريس بتصنيع حبْل طويل من أجل القفز عليه، وتعلمنى هى وكارول كيف ألفّ الحبْل فى دوران، وأثناء القفز نغنى سويًا فى أصوات منطلقة على وتيرة واحدة.

كانت سالومى راقصة وكانت ترقص رقصة الهوشى كوتش وأثناء تأديتها لرقصة الهوشى كوتش لم تكن ترتدى سوى ملابس قليلة وخفيفة للغاية.

تضع جريس إحدى يديها على رأسها وتضع اليد الأخرى على فخذها، وتهزّ مؤخرتها فى لياقة بدنية تامة، إنها مرتدية تنورتها المليئة بالطيات والتى لها شريطان فوق الكتفين، أعرف أن سالومى أشبه ما تكون بممثلات السينما الموجودات فى كتب العرائس الورقية الخاصة بنا، وأفكر فى التنورات الشفافة والأحذية ذات الكعب العالى التى بها نجوم على أصابع القدم وأفكر فى القبعات

أقرأناكموه

المغطاة بالريش وفى حاجب العين المرتفع الرفيع مثل خطّ القلم الرصاص وأفكر فى المرح والتجاوزات، ولكن جريس فى تنورتها ذات الطيَّات وفى الكتفية الصوفية الخاصة بها يمكن لها أن تتفوق على كل ذلك.

والكرة هى لعبتنا الأخرى، ونحن نلعب بالكرة عند الحائط الجانبى لمنزل كارول؛ إذ نلقى بالكرات المطاطية لأعلى على الحائط ونلتقطها لدى هبوطها مع التصفيق والالتفاف مع إيقاع هذه الأغنية.

نتحرك ونضحك ونتكلم على النحو الاعتيادى المألوف: يد واحدة واليد الأخرى، قدم واحدة، والقدم الأخرى، التصفيق للأمام، والتصفيق للخلف إلى الوراء وإلى الأمام.. إلى الأمام وإلى الوراء، نلعب فى الإيقاع الموسيقى، ننحنى فى احترام ونلقى التحية، ثم نكرّر وابتداءً من كلمة "تكرّر" عليك بإلقاء الكرة ويَدور لفة كاملة قبل الإمساك بالكرة.

* * *

الشمس تستمر لفترة أطول ولفترة أطول وتغرب فى لون أحمر ذهبى، وتُسقط أشجار الصفصاف النّوارات الصفراء اللون على الكوبرى، وخوابير نبات القيقب تتساقط فى دوران على أرصفة المشاة فنقوم بفلق الجزء اللّزج الخاص بالبذرة ونضغط بالخوابير على أُنوفنا، والهواء دافئ ومليء بالرطوبة مثل ضباب غير مرئى، نرتدى فساتين قطنية من أجل الذهاب للمدرسة كما نرتدى السترات الصوفية المحبوكة التى نقوم بخلعها فى أثناء السيّر عائدات إلى المنزل، والأشجار القديمة الموجودة بالبستان فى حالة إزهار فى لون أبيض ووردى ونتسلق على هذه الأشجار ونشمّ روائحها الشبيهة بالمستحضرات الطبية السائلة الخاصة بغسل الأيدى، أو نجلس فى العشب ونصنع سلاسل من نباتات الهندباء البرية، ونقوم بفكّ جدائل شعر جريس التى تهبط على ظهرها فى موجات خشنة بنيّة اللون، ونربط ونلف السلاسل حول رأسها مثل التاج، وتقول كارول وهى تربّت على الشعر:

"أنت أميرة" وألتقط صورة لجريس، وألصق الصورة فى ألبوم الصور الخاص بى، وهناك بالصورة تجلس مبتسمة فى تكلّف وقد تزينت بالأزهار.

كارول لا ترغب فى الصعود إلى الطوابق العليا لأنها خائفة، وجريس لا ترغب فى الصعود ولكن ليس بسبب الخوف، فهى لا ترغب لأى ولد أن يشاهد ملابسها الداخلية، لا يمكن لأى فتاة ارتداء البنطلون الفضفاض بالمدرسة، ولكن جريس لا ترتدى هذه البنطلونات على الإطلاق فى أىّ وقت؛ لذلك تمكث كلتاهما فى الدور الأرضى بينما أصعد أنا لأعلى وعلى طول الدعامات الخشبية التى لا يوجد سقف يغطيها وإلى أعلى مرة أخرى حتى أصل إلى العلِّية، وأجلس على الطابق العلوى؛ حيث لا توجد أرضية بين الرافدات والعوارض الخشبية فى هذا المنزل القابع فى الهواء مستمتعة بالأشعة الذهبية/ الحمراء لغروب الشمس مع إلقاء نظرات لأسفل، ولا أفكر فى السقوط من الأعالى، فأنا لا أخاف حتى الآن من الارتفاعات.

* * *

ذات يوم يظهر فى فناء المدرسة شخص ما ومعه حقيبة مليئة بالكرات الرخامية، وفى اليوم أصبح لدى كل شخص كميات من هذه الكرات، ويهجر الأولاد الملعب المخصص للأولاد ويحتشدون فى الملعب المشترك الموجود أمام البابين المكتوب عليهما: الأولاد **Boys** والبنات **Girls**، فهم بحاجة للمجىء إلى هذا الجانب من الملعب لأن الكرات الرخامية ينبغى أن يتم اللعب بها على مسطح ناعم بينما الفناء المخصص للأولاد ملىء بالرماد والنفايات.

وبالنسبة للعبة الكرات الرخامية فأنت إماَّ أن تكون الشخص الذى يحدّد الهدف، أو الشخص الذى يقذف بالكرة نحو الهدف، ولكى تقذف بالكرة نحو الهدف ينبغى أن تركع وتصوّب وتدحرج الكرة الرخامية الخاصة بك نحو الهدف الرخامى وكأنها كرة فى لعبة البولينج التى تُمارس بالكرات الخشبية، فإذا أصبت الهدف تحتفظ بالكرة الرخامية الخاصة بك وكذلك برخامة الهدف، وإذا أخطأت فى إصابة

أقرأناكموه

الهدف تفقد الكرة الرخامية الخاصة بك، وإذا كنت الشخص الذى يحدّد الهدف ينبغى أن تجلس على الأسمنت مع فتح ساقيك فى تباعد ووضع رخامة على فتحة ضيقة موجودة أمامك، ويمكن أن تكون الرخامة من النوع العادى، ولكن الرخامات العادية لا تجتذب الكثير من الرماة، اللهم إلاّ إذا قدمت رخامتين عاديتين فى مقابل رخامة واحدة جيدة، وعادةً ما يكون الهدف الرخامى أكثر قيمة وأغلى ثمنًا؛ ولذلك فالهدف الرخامى يُسمى "عين القطة" وهو من الزجاج الصافى الذى به توهج من البتلات الملونة فى الوسط باللون الأحمر أو الأصفر أو الأخضر أو الأزرق، وهو فى غاية النقاوة وخالٍ من العيوب مثل الياقوت الأزرق أو الياقوت الأحمر، ومثل الأزهار المائية المزركشة، والتى لها شعيرات ملونة وعالقة بها تحت الماء، وهذه الأشياء البالغة الغرابة من حيث اللون والشكل تتناقل من فائز إلى آخر؛ ولذلك فاللجوء لشرائها يعتبر نوعًا من الغش والخداع والاحتيال؛ إذ ينبغى الفوز بها فى المسابقات.

وأولئك الذين لديهم الرخامات الهدفية ينادون بأسماء السلعة التى لديهم فيقولون: "بورى – بورى، باولى – باولى" مع سحب الكلمات ذات المقطعين فى نغمة رتيبة لدى هبوط السلّم الصوتى بالطريقة نفسها التى تنادى بها على الكلاب أو الأطفال عندما يكونون مفقودين، وهذه الندوات تكون متسمة بالحزن على الرغم من أنه لا يُراد لها أن تكون كذلك، وأنا نفسى أجلس على ذلك النحو، بينما الكرات الرخامية الباردة تتدحرج بين ساقىّ وتتجمّع فى تنورتى الممدودة مع قيامى بالمناداة قائلة: "عين القطة... عين القطة" فى نغمة مليئة بالأسف، بينما لا أشعر بشىء سوى الجشع وحب اكتساب المال واختزانه، علاوة على الشعور برعب ملىء بالغبطة.

وعيون القطة هى النوع المفضّل لدى؛ فإذا كسبت عين قطة جديدة أنتظر لحين أن أصبح بمفردى، ثم أستخرجها من جيبى وأتفحصها وأديرها مرارًا وتكرارًا تحت الضوء، وعيون القطة تشبه العيون بالفعل، ولكنها لا تشبه عيون القطط، إنها عيون شىء ما غير معروف، ولكنه موجود على كل حال... مثل العين الخضراء للراديو مثل عيون الناس الغرباء الوافدين من كوكب بعيد، والنوع المفضل لى هو

الذى له لون أزرق؛ ولذلك أضعه فى كيس النقود البلاستيك الأحمر الخاص بى لكى يظل فى حالة من الأمن والأمان، أخاطر بتقديم عيون القطة الأخرى الخاصة بى لكى يتم التصويب عليها، ولكنى لا أخاطر بعين القطة ذات اللون الأزرق.

ولا أتمكن من جمْع كمية كبيرة من الكرات الرخامية؛ لأننى لستُ ممتازة للغاية فى التصويب، ولكن أخى رائع تمامًا ومعصوم من الخطأ، وهو يأخذ معه خمس كرات عادية لدى ذهابه للمدرسة فى حقيبة زرقاء ويعود من المدرسة وقد امتلأت الحقيبة وجيوبه بالكرات، وهو يضع مكاسبه فى برطمانات للحفظ ماركة براون وذات غطاء برّيمة كان قد حصل عليها كهدية من والدتى وبحيث تكون البرطمانات مُرتَّبة فى صف على مكتبه، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لا يتحدث أبدًا عن مهارته، وإنما يكتفى بوضع البرطمانات فى صف منتظم.

وذات يوم من أيام السبت وفى فترة ما بعد الظهر يقوم أخى بوضع أفضل كراته الرخامية من نوع البورى **purie** وعين القطة والأحجار الكريمة شبه النفيسة والأشياء الرائعة البالغة الغرابة فى برطمان واحد، ثم يأخذ البرطمان معه ويهبط نازلاً إلى مكان ما بالوادى الضيق المنحدر تحت الكوبرى الخشبى، ويقوم بدفن البرطمان فى الأرض، ثم يرسم خريطة توضح المكان الذى دفن فيه الكنز ويضع هذه الخريطة فى برطمان آخر، ثم يقوم بدفن ذلك البرطمان أيضًا، ويقول لى إنه قد فعل هذه الإجراءات، ولكنه لا يذكر السبب الذى دعاه لأن يفعل ذلك ولا يحدثنى عن المكان الذى دفن فيه البرطمانين.

* * *

(١٣)

المنزل غير المكتمل ومساحة المروج الخضراء الخاصة به المليئة بالطين وجبل التراب المجاور للمنزل ينحسر خلفنا، أرقب هذه الأشياء من خلال النافذة الخلفية للسيارة، ومن المكان الذى أجلس فيه محشورة بين صناديق الطعام وحقائب النوم ومعاطف المطر، إننى أرتدى قميصًا صوفيًا مقلّما أزرق اللون خاصًّا بأخى علاوة على ارتداء بنطلون قديم مصنوع من القماش القطنى المتين المضلّع المخملى الزغب. تقف كل من جريس وكارول تحت أشجار التفاح وقد ارتدت كل منهما التنّورة الخاصة بها.. تلوّحان وتختفيان، ما زال عليهما أن يذهبا إلى المدرسة، أمّا أنا فلا يتعيّن علىّ الذهاب للمدرسة، أحسدهما، رائحة السفر التى تشبه رائحة المطّاط والقار تغلفنى بالفعل، ولكنى لا أرحب بالسفر، فأنا يتم انتزاعى بعيدًا عن حياتى الجديدة... عن حياتى مع البنات.

أستقرّ بالمقعد الخلفى للسيارة فى داخل المنظور المألوف المنظر الخلفى للرؤوس والآذان وإلى ما بعدها نحو الخطّ الأبيض للطريق الرئيسى، نحن ننطلق بالسيارة بين المزارع المليئة بالمروج الخضراء والتى توجد بها مبانٍ أسطوانية خشبية محكمة الإغلاق يحفظ فيها علف الدواب كما توجد بها أشجار الدّردار علاوة على وجود رائحة الحشيش المجفف المقطوع الذى يستخدم عَلَفًا للدواب، وتصبح الأشجار ذات الأوراق العريضة أصغر حجمًا وتظهر المزيد من أشجار الصنوبر وتدبّ البرودة فى الهواء وتتحول السماء إلى لون أزرق شديد البرودة، فنحن نبتعد تدريجيًا عن فصل الربيع، ونصل إلى سلاسل الجبال الجرانيتية الأولى كما نصل إلى البحيرات الأولى، ويوجد ثلج متساقط فى الأماكن المعتمة، أجلس متجهة بجسدى نحو الأمام مع الاستناد بذراعىّ على مسند المقعد الأمامى، أشعر أننى أشبه كلبًا قد انتصبتْ أذناه وانهمك فى التشمّم.

الشمال له رائحة مختلفة عن رائحة المدينة، وهو أكثر صفاءً وشفافية، ويمكن لك أن تشاهد لمسافة أبعد، ماكينة لنشر الأخشاب وتلاً من نشارة الأخشاب والهيكل المخروطى الشكل لموقد نشارة الخشب، ومداخن المصانع التى تقوم بصهْر النحاس الأحمر، والصخور المحدقة بها الخالية من الأشجار والتى تبدو محروقة وشبيهة بكومات من خَبَث البراكين المكتسب اللون الأسود، لقد نسيت كل هذه الأشياء

طوال فترة الشتاء، ولكن ها هى موجودة الآن مرة أخرى، وأنا عندما أشاهدها أتذكرها وأتعرّف عليها وألقى عليها التحية كما لو كانت وطناً.

الرجال يقفون على الناصية خارج الدكاكين والمحلات العمومية وخارج البنوك الصغيرة وخارج محلات البيرة والتى بها لافتات رمادية على الجدران، وهم يضعون أيديهم فى جيوب سترانهم الجلدية القصيرة، بعضهم لهم وجوه داكنة مثل وجوه الهنود الحمر، والبعض الآخر لهم وجوه مائلة للسُّمرة بسبب التعرّض كثيرًا لأشعة الشمس، وهم يمشون بطريقة تختلف عن مشية الرجال بالجنوب، حيث يسيرون فى مزيد من البطء والوقار، وكلامهم أقلّ ثرثرة وكلماتهم متباعدة عن بعضها البعض، ويقوم والدى بالخشخشة بمفاتيحه وبالعملات المعدنية، الموجودة فى جيبه أثناء تحدثه معهم، وهم يتحدثون عن منسوب الماء ومستوياته وعن جفاف الغابة وعن كيف أن السمك يقوم بالعضّ، ويسمى والدى ذلك "التحدّث فى دردشة"، ثم يرجع والدى إلى السيارة معه حقيبة ورقية بنية اللون مليئة بمواد البقالة ويحشرها خلف قدميّ.

* * *

أقف أنا وأخى عند نهاية رصيف تحميل السفن المتهالك الآيل للسقوط الموجود بجوار بحيرة زرقاء طويلة كثيرة الصخور الشديدة الانحدار، إنها فترة مسائية مع وجود غروب للشمس له لون البطيخ الأحمر، الطيور الغوّاصة آكلة السمك تصيح من على مسافة بتلك الصيحات ذات النغمة المسحوبة المتصاعدة التى تشبه أصوات الذئاب، نحن نقوم بالصيد، ويوجد باعوض ولكننى معتادة عليه، ونادرًا ما أهتم بصفع الباعوض، وتستمر عملية الصّيد بدون كلام أو إبداء ملاحظات. إلقاء الطُّعم فى صنارة، وصوت غطسٍ الطعم فى الماء ثم صوت سحب السمكة بالصنارة ذات الكرة، ونحن نرقب الطعم لنرى ما إذا كان هناك أىّ شىء يتبعه، فإذا كانت توجد سمكة فإننا نبذل كل ما فى جهدنا لإيقاعها فى الشرك وندوس عليها حتى يمكن شلّ حركتها ونضربها بشدة على رأسها ونغرز سكينة فى عينيها، وأنا أقوم بعملية الطرق عليها بقدمى بينما يقوم أخى بضربها وغرز السكينة فى عينيها، وعلى الرغم من التزامه بالصمت، فإنه يكون متوازناً ويقظًا

أقرأناكموه

وحذرًا، كما تكون زاويتا فمه مشدودتين، وأسائل نفسى فى تعجب عما إذا كانت عيناى لامعتين مثل عينيه ومثل عينى حيوان ما فى الشفق الأحمر الوردى.

نحن نعيش فى معسكر مهجور خاص بقطع الأخشاب، وننام على مراتب الهواء الخاصة بنا وفى داخل حقائب النوم الخاصة بنا فى الأسرة الخشبية المُبيَّتة فى الحائط والتى اعتاد أن ينام فيها قاطعو الأخشاب، وشكل هذا المعسكر يوحى أنه مهجور منذ فترة طويلة للغاية، رغم أنه قد ظل شاغرًا منذ عامين فقط، ولقد ترك بعض قاطعى الأخشاب كتابات منقوشة وأسماءهم والحروف الأولى من أسمائهم وقلوبًا مجدولة وكلمات بذيئة وصورًا عارية لنساء منحوتة أو مكتوبة بقلم رصاص على خشب الحوائط الذى تخانته بوصتان وعرضه أربع بوصات، وأعثر على علبة صفيح قديمة من النوع الخاص بعصير خشب القيقب، والغطاء مغلق ومليء بالصدأ، ولكن عندما أقوم أنا وستيفن بفتح هذه العلبة نجد العصير متعفنًا، وأنظر إلى العلبة الصفيح هذه على أنها بمثابة شيء من صُنع الإنسان القديم مثل شيء ما قديم يتم استخراجه من مقبرة قديمة.

نطوف خلسةً بين الأشجار للبحث عن العظام وعن النتوءات بالتربة التى قد تدلّ على وجود حفائر وعن الحدود الخارجية للمبانى كما نقوم بقلب الكتل الخشبية والصخور لنرى ما قد يكون موجودًا تحتها، نودُ أن نكتشف حضارة ما مفقودة، فنعثر على خُنفساء والكثير من الجذور البيضاء والصفراء الصغيرة علاوة على العثور على ضفدعة، ولم نتمكن من العثور على أىّ شيء له الطابع الإنسانى.

* * *

والدنا قد خلع ملابس المدينة الخاصة به وتحوّل إلى الشكل الأصلى الخاص به، فهو يرتدى الچاكيت القديم الخاص به مرة أخرى ويرتدى بنطلونه الفضفاض ويلبس قبعته اللّباد المنسحقة التى يلتصق بها الذباب، ويجوب بين الغابات فى حذائه الثقيل ذى الرقبة وقد وضع فأسه فى الغِمْد الجلدى بينما نحن نسير وراءه مباشرةً توجد كميات هائلة من يرقات الفراشات، وهى كمية هائلة لم تشهدها الغابات منذ سنوات، وهذا هو ما يجعل والدى يشعر بالغبطة الشديدة، ويجعل عينيه تلمعان فى

رأسه مثل لمعان زرارين لهما لون أزرق/ رمادى. يرقات الفراشات منتشرة فى كل مكان بالغابات وهى مخطّطة ومقلّمة وخشنة الشّعر، وتتدلى من الأغصان فوق خيوط من الحرير مُشكّلة ستارة متدلية مما يضطرك إلى إزاحتها عن طريقك، وهى تنتشر بكميات هائلة على الأرض مثل سجادة دبَّت فيها الحياة، وهى تعبر على الطرق وتتحول إلى عصيدة زلقة دهنية تحت إطارات لوريات نقل الأخشاب، والأشجار حولنا جرداء وعارية كما لو كانت قد تعرضتْ للحرق بينما نسيج العنكبوت يغلف جذوعها.

ويقول والدنا: "تذكروا هذا"، ويضيف: "هذا غزو كلاسيكى من الطراز الأول، وربما لن تشاهدوا غزوا كهذا مرة أخرى على مدى فترة زمنية طويلة" إنها الطريقة التى سمعت بها الناس يتحدثون عن حرائق الغابات أو عن الحرب، الاحترام والدهشة المختلطتين بالإحساس بالكارثة.

أخى يقف ثابتًا دون اتخاذ أىّ حركة ويدع يرقات الفراشات تتصاعد على قدميه وتهبط على الجانب الآخر منه مثل موجة، وتقول أُمُّنا: "عندما كنتِ طفلة رضيعة ضبطتك متلبسة بمحاولة أكل تلك اليرقات؛ إذ كانت يدك مليئة باليرقات. وكنت تسحقينها فيما حولك، وكنت على وشك أن تضعيها فى فمك عندما شاهدتك".

ويقول والدنا: "إنها من بعض النواحى تشبه حيوانًا واحدًا"، ويجلس إلى المنضدة المصنوعة من الألواح الخشبية المتخلفة عن قاطعى الأخشاب وينهمك فى تناول السبام **Spam** المقلية والبطاطس، وأثناء تناول طعامه يتكلم عن يرقات الفراشات، أعدادها وبراعتها الفائقة وعن الوسائل العديدة لإلحاق الهزيمة بها والانتصار عليها، من الخطأ رشها بالمبيد الحشرى "دى دى تى" **DDT** وغير ذلك من المبيدات الحشرية الأخرى وفقًا لما يقوله لنا، لأن ذلك لا يؤدى إلاّ إلى تسميم الطيور التى هى العدوّ الطبيعى لها بينما هى فى حدّ ذاتها، ومن حيث كونها حشرات وبالتالى فهى تفوق الإنسان من حيث الحيلة والدهاء تتأقلم وتقاوم الرش بالمبيدات وتصبح لديها حصانة ضد المبيدات فتكون النتيجة أننا نحصل على طيور ميتة وعلى المزيد من اليرقات فيما بعد؛ ولذلك فوالدنا يركز جهوده على شىء ما آخر، هرمون للنموّ يحدث اضطرابًا فى أسلوب حياتها ويجعل اليرقة تنتقل إلى

أقرأناكموه

دور الحشرة الكاملة قبل الموعد المحدّد لذلك، وذلك هو ما يُسمى بالوصول إلى سن الشيخوخة قبل الأوان.

ويقول: "ولكن فى النهاية وإذا ما قُدِّر له أن يكون رجل مراهنات، فإنه سيراهن بكل أمواله على الحشرات، فالحشرات أكثر قِدمًا من الإنسان؛ ولذلك فهى لديها المزيد من الخبرة فى مجال البقاء على قيْد الحياة كما توجد كميات هائلة من الحشرات تفوق أعداد الآدميين، وعلى كل حال، فإنه من المحتمل أن نفجر أنفسنا فى الأجواء العليا قبل نهاية القرن العشرين إذا وضعنا فى الاعتبار مسألة القنبلة الذرية والطريقة التى تسير عليها الأمور، فالمستقبل هو مستقبل الحشرات".

ويقول والدى: "الصراصير"، ويضيف: "وذلك هو كل ما سيتبقى إذا ما تمكنتْ من الإفلات"، ويقول هذا الكلام فى بهجة وهو يتناول قطعة من البطاطس.

أجلس وأتناول السّبام **Spam** المقْلى الخاص بى وأشرب اللبن المستحضر من بودرة اللبن، والكتل الطافية على السطح هى التى أستمتع بها أكثر، إننى أفكر فى كارول وجريس أفضل صديقتين لى، وفى الوقت نفسه لا أستطيع تذكر شكلهما على وجه الدقة، هل أنا جلستُ بالفعل على الأرض فى غرفة نوم جريس وعلى سجادتها الموشاة وقمتُ بقطع صور أوانى القلْى وصور ماكينات الغسيل من كاتالوج إيتون وإلصاق هذه الصور فى دفتر القصاصات؟ يبدو الأمر غير قابل للتصديق، ومع ذلك فأنا أدرك وأعرف أننى فعلتُ ذلك.

* * *

بالخارج وخلف معسكر الأخشاب توجد مساحة ضخمة شاغرة عقب قطع الأشجار التى كانت موجودة بها، ولا يتبقى سوى الجذور والجذوع، كما توجد كميات كبيرة من الرمال هناك، ولقد نمت شجيرات العنبية مثلما تنمو عقب حريق؛ إذ ظهرت أولاً الأعشاب الضارة المتخلفة عن الحرائق ثم ظهرت بعدئذ شجيرات العنبية، نلتقط ثمار التوت ونضعها فى فناجين من الصفيح، وتدفع أُمنا سنتًا واحدًا عن كل فنجان مليء بالتوت، وهى تقوم بتصنيع عصيدة (بودنج) التوت وصلصة

التوت علاوة على تصنيع التوت المُعلَّب، وتقوم بغلْى البرطمانات فى غلاّى ضخم فوق النيران الموجودة خارج المنزل.

الشمس تضرب بأشعتها لأسفل والحرارة تتراقص فى تصاعد فوق الرمال. أرتدى منديلاً قطنيًا للشعر على رأسى، والمنديل مطوى على شكل مثلث ومربوط خلف أذنىّ، الجزء الأمامى بالمنديل مبلل بالعرق، وفيما حولنا يوجد أزيز الذباب، أحاول الإصغاء من خلال الأزيز وخلف الأزيز فى محاولة لالتقاط صوت الدببة، لست متأكدة من نوعية الصوت الذى يصدر عن الدببة، ولكنى أعرف أن الدببة تحب التوت وأنه لا يمكن التنبؤ بما ستُقدم عليه من تصرفات، فهى قد تلوذ بالفرار أو ربما تتعقبك، فإذا حاولتْ أن تتعقبك ينبغى عليك أن تستلقى على الأرض وتتظاهر بأنك قد أصبحت ميتًا، وهذا هو ما يقوله لى أخى، ويقول أخى إن الدببة إذا اعتقدت أنك ميت فإنها ربما تنصرف أو بدلاً من ذلك ربما تقوم باستخراج أمعائك، لقد سبق لى أن شاهدت أمعاء السمك، وأستطيع أن أتخيل أمعاء الإنسان، ويعثر أخى على روث دبّ، الروث له لون أزرق ومرقّط وشبيه ببراز الإنسان. ويقوم أخى بلكز روث الدب مستخدمًا عصا لكى يعرف ما إذا كان الروث جديدًا أم قديمًا.

وفى فترات ما بعد الظهر عندما يكون الجو حارًّا للغاية بحيث يتعذر معه التقاط التوت نقوم بالاستحمام فى البحيرة، وفى الماء نفسه الذى يخرج منه السمك ليس من المفروض لى أن أتوغل نحو الأعماق، المياه باردة للغاية ومظلمة وضبابية، وفى الأعماق حيث لا توجد رمال بالقاع توجد صخور قديمة مغطاة بالطين علاوة على وجود كتل خشبية غارقة وجراد البحر وعلقات وأسماك الكراكى الضخمة التى لها فكّ بارز، ويقول لى ستيفن إن السمك يمكن له أن يشمّ، كما يقول إن الأسماك سوف تشم رائحتنا وتبتعد عن طريقنا.

نجلس على الشاطئ فوق الصخور الناتئة من البلاج الضيق، ونلقى بقطع من الخبز فى الماء ونشاهد الأشياء التى نغريها ونلفت نظرها، إنه سمك المنوّه، وقليل من سمك الفرخ، نبحث عن حجارة مسطحة ونقفز فوقها فى خفة ورشاقة أو نمارس التجشؤ بإرادتنا وفى الوقت الذى نريده أو نضع الفم تحت الإبط وننفخ لكى

أقرأناكموه

يصدر صوت شبيه بصوت الضُّراط أو نملأ الفم بالماء ونبصقه إلى أبعد مسافة ممكنة، وأنا لستُ الفائزة فى هذه المسابقات، وإنما أنا أقرب إلى أن أكون مستمعة أو مشاهدة، رغم أن أخى لا يتفاخر فى غرور، وهو ربما يفعل هذه الأشياء نفسها بمفرده إذا لم أكن موجودة معه.

وهو فى بعض الأحيان يكتب متبوّلاً على الحافة الرفيعة لرمال أو على سطح الماء، وهو يفعل ذلك بطريقة منهجية كما لو كان من المهم أن يؤدى ذلك على نحو جيّد، وينطلق بوله فى تقوس خارجًا فى رشاقة من الجزء الأمامى من البنطلون الشورت الخاص به ومن بين يده وتتم الكتابة بزوايا ملائمة مثل الكتابة الحقيقية وتنتهى دائمًا بالنقطة أو علامة الوقف، وهو لا يكتب اسمه بهذه الطريقة ولا يكتب كلمات بذيئة قذرة مثلما يفعل أولاد آخرون، وبدلاً من ذلك، فإنه يكتب المريخ **MARS**، أو إذا كان يشعر أنه لديه كمية البول تكفى لكتابة كلمة لها حروف أكثر فإنه يكتب كلمة: المشترى **JUPITER**، ومع انتهاء الصيف يكون قد كتب النظام الشمسى بأكمله مرات مستخدمًا بوله.

* * *

الوقت فى منتصف سبتمبر، الأوراق يتحول لونها بالفعل إلى الأحمر الداكن والأصفر الفاقع، وفى الليل عندما أسير إلى المرحاض الخارجى فى الظلام دون أن يكون معى بطارية للإنارة لأننى أرى على نحو أفضل دون إضاءة، تكون النجوم متألقة وبلّورية بينما أنفاسى تسبقنى، أشاهد والدىّ من خلال النافذة جالسين بجوار مصباح الكيروسين وقد ظهرا مثل صورة بعيدة لها إطار من السّواد. من المزعج أن أنظر إليهما من خلال النافذة وأنا أدرك أنهما لا يعرفان أننى بمقدورى مشاهدتهما، يبدو الأمر وكأننى لا أوجد أو كما لو أنهما لا يوجدان.

* * *

عندما نرجع من الشمال فإن الأمر يبدو مثل الرجوع من جبل؛ إذ نهبط عبْر طبقات من الوضوح والصفاء وطبقات من البرودة والضوء الخالى من الفوضى ونواصل الهبوط لأسفل متخطين الطبقة الجرانيتية البارزة الأخيرة والبحيرة الأخيرة الصغيرة ذات الحواف المتآكلة، وندخل إلى الهواء الأكثر كثافة وندخل إلى الرطوبة والثِّقل الدافئ وإلى أصوات الجُدْجُدْ وإلى المروج الخضراء العشبية التى لها رائحة الجنوب.

ونصل إلى منزلنا فى فترة ما بعد الظهر، المنزل يبدو غريبًا ومختلفًا وكما لو كان قد اكتسب نوعًا من السحر والافتتان، فالنباتات الشوكية ونباتات عصا الذهب قد نمت حول المنزل مثل سياج شوكى خارج من الطين، كما أن الحفرة الهائلة وجبل التراب المجاور قد اختفيا وظهر فى مكانهما منزل جديد، كيف حدث هذا؟ لم أكن أتوقع حدوث مثل هذه التغييرات.

جريس وكارول تقفان بين أشجار التفاح، تمامًا فى المكان نفسه الذى تركتهما فيه، ولكنهما لا تبدوان على النحو الذى كانتا عليه من قبل، فهما لا تشبهان على الإطلاق الصور التى انطبعت فى ذهنى عنهما على مدى الشهور الأربعة الماضية، إنها صور متغيرة لا تبرز منها سوى ملامح قليلة، وذلك لسبب واحد وهو أنهما أصبحتا أكبر حجمًا وأصبحتا ترتديان ملابس مختلفة.

إنهما لا تجريان فى لهفة نحوى، ولكنهما تتوقفان عن العمل الذى تقومان به وتحملقان كما لو كنا أُناسًا جُدُدًا وكأننى لم أعش هنا من قبل على الإطلاق، هناك فتاة ثالثة موجودة معهما، أنظر إليها وأنا خالية من أية هواجس أو حس داخلى مسبق، إننى لم أشاهدها من قبل على الإطلاق.

* * *

(١٤)

تلوّح جريس بيدها، وبعد لحظة تلوّح كارول أيضًا، والفتاة الثالثة لا تلوح بيدها، إنهن واقفات بين نبات زهرة النجمة ونباتات عصا الذهب فى حالة انتظار بينما أسير نحوهن، أشجار التفاح مغطاة بتفاح ملىء بالجرب الذى يصيب النباتات. وهناك تفاح له لون أحمر وتفاح آخر له لون أصفر، وكان بعض التفاح قد تساقط عن الأشجار وبدأ يتعرض للفساد على الأرض، وتنتشر الرائحة الحلوة للتفاح وأزيز الزنابير الصفراء المخمورة، التفاح يتفتت وينسحق تحت أقدامى.

جريس وكارول أكثر اكتسابًا للون البنى وأقل شحوبًا، وأصبحت ملامحهما متفردة أكثر من ذى قبل كما أصبح شعرهما فاتح اللون، والفتاة الثالثة هى الأطول، وعلى العكس من جريس وكارول اللتين ترتديان تنورات صيفية فإنها ترتدى بنطلونًا من قماش قطنى متين مضلّع مخملى الزغب علاوة على ارتداء بلوفر، وكارول وجريس قصيرتان وممتلئتان غير أن هذه الفتاة نحيلة ولكن دون أن تكون ضعيفة البنية، وهى طويلة وقوية، ولها شعر أشقر/ داكن له قَصّة البيجبوى **pageboy** مع وجود خصلة من الشعر متدلية نحو عينيها الخضراوين، ووجهها طويل وفمها مائل على جانب بعض الشىء، وهناك شىء ما مشوه إلى حدّ ما بالشّفة العليا كما لو كانت الشفة قد قطعت وتمت حياكتها بطريقة منحنية، ولكن فمها يصبح مستويًا ومستقيمًا عندما تبتسم، وهى لها ابتسامة شبيهة بابتسامة البالغات سن الرشد، كما لو كانت قد تعلمّت هذه الابتسامة وتقوم بالابتسام على ذلك النحو بدافع من الأدب، وتمدّ يدها وتقول: "هاى، أنا كورديليا، ومن المؤكد أنك..."

وأحملق فى وجهها، لو كانت قد بلغتْ سنّ الرشد لكنت قد أمسكتُ بيدها الممدودة وصافحتها، ولكنت قد عرفتُ الكلام الذى ينبغى أن أقوله لها، ولكن الأطفال لا يتصافحون بالأيدى على هذا النحو.

وتقول جريس: "إيلين **Elaine**"، أشعر بالخجل والارتباك بسبب وجودى مع كورديليا، فأنا قد ظللتُ راكبة فى المقعد الخلفى بالسيارة على مدى يومين مع النوم

فى خيمة؛ ولذلك فأنا أدرك أننى غريبة المظهر وأدرك أن شعرى غير ممشط، وتنظر كورديليا إلى ما ورائى نحو والدىّ اللذين يقومان بإخراج الحاجيات من السيارة، عيناها تتفحصان فى انتقاد مليء بالتسلية، بمقدورى أن أشاهد – دون أن أستدير فيما حولى – قبعة اللّباد القديمة الخاصة بوالدى وحذاءه [ذا الرقبة] ولحيته التى لم تُحلق منذ أيام، وشعر أخى غير المقصوص، والسويتر البالى القذر الخاص به وبنطلونه الفضفاض، والبنطلون الفضفاض الرمادى الخاص بوالدتى وقميصها الشبيه بقميص الرجال ووجهها الخالى من المكياج.

وتقول كورديليا: "يوجد براز كلب على حذائك" فأنظر لأسفل، وأقول: "هذا ليس سوى تفاحة فاسدة"، فتقول كورديليا: "ومع ذلك فهى لها اللون نفسه، أليس كذلك؟"، وتضيف: "ليس ذلك النوع الناشف من البراز وإنما ذلك النوع الليّن الشبيه بزبدة الفول السودانى"، وفى هذه المرة يكون صوتها متسمًا بحسن الظن فى الناس كما لو كانت تتحدث عن شيء ما خصوصى لا يعرفه أحد سواها وأنا، وبالتالى فأنا وهى نتفق فى الرأى بصدد ذلك الشيء، وتخلق شِلّة تتكون من شخصين وتدخلنى فى هذه الشِلّة.

* * *

كورديليا تعيش على مسافة أبعد شرقًا من المكان الذى أعيش فيه، فى حىّ سكنى أحدث من الحىّ السكنى الخاص بنا مع وجود البيئة الطينية نفسها، ولكن منزلها ليس على هيئة شاليه وإنما يتكون من طابقين، وبه غرفة طعام مستقلة من خلال ستارة يمكن لك أن تجذبها للوراء لكى تصبح غرفة المعيشة وغرفة الطعام مندمجتين فى غرفة واحدة كبيرة، وبه غرفة حمّام بالطابق الأرضى لا يوجد بها بانيو وهذه الغرفة تسمى حجرة التواليت، والألوان فى منزل كورديليا ليست داكنة مثل تلك الألوان الموجودة فى منازل أخرى، فهى ألوان رمادية فاتحة، وخضراء فاتحة، وبيضاء فاتحة، فالأريكة على سبيل المثال لها لون أخضر تفاحى، ولا يوجد شيء مزدان برسوم زهرية أو كستنائية أو مخملية، وتوجد لوحة لها إطار رمادى

أقرأناكموه

فاتح عن أختى كورديليا الأكبر سنًا، واللوحة مرسومة بألوان الباستيل عندما كانتا صغيرتين فى السن، وتبدوان فى اللوحة مرتديتين فستانًا مطرَّزًا ولهما شعر خفيف وعينان مثل الغشاوة الرقيقة.

وتوجد بالمنزل زهور حقيقية وبأنواع مختلفة وعديدة فى آن واحد وموجودة فى زهريات قصيرة مصنوعة من الزجاج السويدى، وهى تقول إن الزجاج السويدى هو أفضل أنواع الزجاج.

تقوم أمّ كورديليا بتنسيق الزهور بنفسها مع ارتداء القفاز الخاص بالبساتين، وأمى لا تقوم بتنسيق الزهور، وهى فى بعض الأحيان تقوم بوضع القليل من الأزهار فى وعاء وتضع الوعاء على منضدة الطعام، ولكن هذه الأزهار من النوع الذى تقطفه بنفسها أثناء تريّضها فى نزهة خلوية – وهى مرتدية بنطلونها الفضفاض – على طول الطريق أو فى الوادى الضيق الشديد الانحدار، وهذه الأزهار فى حقيقة الأمر أزهار أعشاب ضارة، وهى لا تفكر أبدًا فى إنفاق النقود على الأزهار الحقيقية، ويخطر فى ذهنى لأول مرة أننا لسنا أغنياء.

وأمّ كورديليا لديها سيدة تقوم بأعمال التنظيف، وهى الأم الوحيدة بين أمهاتنا التى لديها سيدة تنظيف، ولكن سيدة التنظيف لا تُسمى بذلك الاسم، إنها تُسمى: "المرأة"، وفى الأيام التى تجىء فيها المرأة ينبغى علينا أن نفسح لها المكان.

وتقول لنا كورديليا فى صوت هامس معبّر عن حدوث فضيحة أخلاقية: "المرأة السابقة على هذه المرأة قد ضُبطتْ متلبسة بسرقة البطاطس؛ إذ وضعت حقيبتها على الأرض وعندئذ تدحرجت البطاطس متبعثرة على الأرض، وكان الأمر مثيرًا للخجل والارتباك الشديدين" وهى تعنى الخجل والارتباك بالنسبة لهم وليس بالنسبة للمرأة، وتضيف: "وبالطبع اضطررنا لأن نسمح لها بالانصراف".

أسرة كورديليا لا تتناول البيض المسلوق مهروسًا فى سلطانية وإنما تستخرجه من كؤوس البيض، وكل كأس بيض عليه حرف استهلالى بحيث يكون هناك كأس بيض لكل فرد من أفراد الأسرة، إننى لم أسمع من قبل عن كأس البيضة، ويمكن

لى القول إن جريس لا يوجد لديها أيضًا كأس بيضة، وعلى فكرة، هى تلتزم بالصمت إزاء ذلك، وتقول كارول على نحو غير مؤكد إن لديها كؤوس بيض فى منزلها.

وتقول لنا كورديليا: "بعد أن تتناولى البيضة ينبغى أن تثقبى ثُقبًا فى قاع القشرة"

فنقول: "لماذا؟"

"لكى لا تتمكن الساحرات من الإبحار من الشاطئ إلى البحر"، وهى تقول هذه العبارة فى مرح، ولكن فى احتقار كما لو أن الشخص العبيط فقط هو الذى يكون بحاجة لأن يتساءل، ولكن هناك احتمال فى أنها تمزح فى مداعبة أو تثير المضايقات، فأختاها الأكبر سنًا لديهما هذه العادة أيضًا، ومن الصعب معرفة متى تهدفان لأن يؤخذان مأخذ الجدّ ؛ إذ توجد لديهما طريقة فى التحدث متقنة وساخرة وشبيهة بتقليد شىء ما وكل ما هنالك أن الشىء الذى يقلّدانه غير واضح.

فهما يقولان: "لقد أصبحتُ ميتة تقريبًا"، أو: "إننى أشبه العقاب الإلهى، إننى أشبه غضب الله"، وفى بعض الأحيان تقولان: "إننى أشبه شيطانة مطلقة" وأحيانًا: "إننى أشبه هاجس ماك باجيس"، وهذه امرأة عجوز شمطاء قبيحة الشكل من ابتكار خيالهما على ما يبدو، ولكنهما لا تعتقدان حقًا أنهما أصبحتا فى حالة موت تقريبًا أو أنهما قبيحتا الشكل، فهما الاثنتان جميلتان، إحداهما لها لون داكن وعاطفية فى انفعال، والأخرى شقراء وحنونة ومفعمة بالعاطفة، وكورديليا ليست جميلة بالطريقة نفسها.

وأختا كورديليا الأكبر سنًا تسميان: برديتا **Perdita** وميراندا **Miranda**، ولكن لا أحد يناديهما بهذين الاسمين، فهما تسميان: بردى **Perdie** وميرّى **Mirrie**، وبردى هى الفتاة الداكنة اللون وتتلقى دروسًا فى فن الباليه، وميرّى تعزف على الفيول الذى هو نوع من الكمان، والفيول محفوظ فى دولاب المعطف، فتقوم كورديليا باستخراجه وتريه لنا حيث كان مستلقيًا هناك فى صندوقه المخملى وقد اتسم

أقرأناكموه

بالغموض والأهمية، وبردى وميرى تتشدقان بكلام عن بعضهما البعض والدخول فى مزاح خفيف، ولكن كورديليا تقول عنهما إنهما موهوبتان، وتبدو كلمة موهوبتان شبيهة بكلمة مُلقّحتان ضد المرض أو شبيهة بشىء ما يُجرى عليك ويترك علامة.

وأسأل كورديليا عما إذا كانت هى موهوبة أيضًا، ولكنها تضع لسانها فى زاوية فمها وتلتفت بعيدًا كما لو كانت تركز ذهنها على شىء ما آخر.

كان ينبغى أن تحصل كورديليا على اسم آخر وهو كوردى **cordie**، ولكنها لا تحصل على ذلك الاسم المختصر، لأنها تصرّ دائمًا على أن يتم مناداتها باسمها الكامل: كورديليا، وهذه الأسماء الثلاثة تعتبر أسماء غريبة، فلا توجد فتيات بالمدرسة لهن أسماء على ذلك النحو، وتقول كورديليا إن هذه الأسماء مأخوذة عن شكسبير، ويبدو عليها أنها فخورة بهذا كما لو كان هذا شيئًا ما ينبغى علينا جميعًا أن ندركه، وهى تقول: "وكانت هذه هى فكرة أمّى... **Mummie**".

وهن الثلاثة ينادين على أُمّهن بكلمة **Mummie**، وتتحدثن عنها فى محبة وتدليل... كما لو كانت طفلة ذكية ولكنها عنيدة وبالتالى ينبغى مسايرتها والتأقلم معها، وهى ضئيلة الحجم ورقيقة شاردة الذهن، وترتدى نظارة على سلسلة فضية موجودة حول رقبتها، وتتلقّى دروسًا فى الرسم، وبعض لوحاتها معلقة فى صالة الدور العلوى وهى رسومات مائلة إلى اللون الأخضر عن أزهار ومروج خضراء وزجاجات وزهريات، والبنات قد وضعن شبكة من التآمر حول "مامى" **Mummie** ويتفقن فى الرأى على عدم إخبارها بأشياء معينة، ويذكرن بعضهن البعض: "ليس من المفروض أن تعرف "مامى" ذلك"، ولكنهن لا يرغبْن فى إحباطها وتخييب آمالها؛ ولذلك فإن بردى وميرى تحاولان أن تفعلا ما تريدانه بقدر المستطاع ولكن دون التسبب فى إحباط "مامى"، أمّا كورديليا فإنها أقل ذكاء فى هذا الشأن، فهى أقلّ مقدرة على أن تفعل ما تريده وأكثر تسببًا فى إحباط والدتها، وهذا هو ما تقوله "مامى" عندما تكون غاضبة: "أنت تخيبين ظنّى فيك"، وإذا أصبحت الأم فى حالة من الإحباط الشديد يتم عرض الأمر على والد كورديليا ويعتبر هذا أمرًا خطيرًا،

ولا واحدة من الفتيات تجرؤ على المزاح عندما يُذكر اسم الوالد، وهو رجل ضخم ووسيم ولكننا سمعناه يصيح فى الدور العلوى.

نجلس فى المطبخ مع تجنب ممسحة تنظيف التراب التى تستخدمها المرأة وننتظر نزول كورديليا من الطابق العلوى لكى تلعب معنا، لقد كانت مثيرة للإحباط مرة أخرى وكان عليها أن تنتهى من ترتيب غرفتها، وتجىء إلينا بردى وهى تسير الهوينى وقد ألقت معطفها المصنوع من وبر الجمل فى رشاقة على أحد كتفيها ووازنت كتبها المدرسية على مفصل وركها، وتقول لنا بصوتها المبحوح الساخر/ الجاد المتسم بالثقة فى الناس: "هل تعرفن ما تقوله كورديليا فيما يتعلق برغبتها عندما تكبر؟" وتضيف: "إنها ترغب فى أن تصبح حصاناً!" ولا نستطيع أن نعرف على الإطلاق ما إذا كانت قد قالت ذلك الكلام بالفعل أم لا.

* * *

كورديليا لديها دولاب بأكمله ملىء بأثواب نسائية مؤلفة من سترة وتنورة، فساتين قديمة تخص مامى وشالات وملاءات قديمة يمكن لك أن تقطعها وتلفها حول نفسك، وهذه الأشياء كانت فى مرحلة ما مملوكة لكل من بردى وميرى ولكنهما بعد أن كبرتا أصبحت هذه الملابس ضيقة عليهما، وكورديليا تريد لنا أن نقوم بالتمثيل فى مسرحيات، بحيث تكون غرفة الطعام الخاصة بها وستارة تلك الغرفة بمثابة المسرح، وترى أنه يمكن لنا عرض هذه المسرحيات وتحصيل رسوم من المشاهدين لها، وتطفئ الأنوار وتمسك بمشعل كهربائى يدوى تحت ذقنها وتضحك بطريقة غريبة، هذه هى الطريقة التى تتم بها مثل هذه الأمور. لقد سبق لكورديليا أن شاركت فى مسرحيات بل وشاركت فى الباليه ذات مرة، وتقول بطريقة مرتجلة إنه الباليه الذى يُسمى جيزيل **Giselle** كما لو كنا نعرف ذلك الباليه. ولكن هذه المسرحيات لا تتشكل أبدًا على النحو الذى تريده، تضحك كارول ولا تستطيع أن تتذكر الكلام الذى ينبغى عليها أن تقوله، وجريس لا تحب أن يُقال لها ما ينبغى عليها أن تفعله، وتقول إنها تعانى من الصداع، فالقصص الملفّقة لا تثير اهتمامها اللهم إلاّ إذا كانت تحتوى على الكثير من الأشياء الحقيقية، محمصات

أقرأناكموه

الخبز الكهربائية + المناضد الخاصة بكيّ الملابس + حجرات الملابس الخاصة بالممثلات السينمائيات، وهى لا تفهم الميلودرامات الخاصة بكورديليا.

تقول كورديليا: "والآن عليك أن تقومى بقتل نفسك".

فتقول جريس: "ولماذا؟".

فتقول كورديليا: "لأنك قد هُجرت وتخلى عنك الناس فى وقت الشدّة"، فتقول جريس: "إننى لا أريد أن أقتل نفسى"، وتبدأ كارول التى تقوم بدور الخادمة فى الانفجار فى الضحك؛ ولذلك فإننا نكتفى بارتداء الملابس المسرحية فى تثاقل على السلالم ونخرج عبْر مساحة المروج الخضراء الجديدة التى زُرعت بالأعشاب مؤخرًا وقد تدلّى الشّال خلف كل واحدة منا بينما نحن غير متأكدات من الأمور التى يُفترض أن تحدث بعد ذلك، ولا ترغب أية واحدة منا فى القيام بدور الأولاد، لأنه لا توجد هناك ملابس ملائمة للأولاد، وإن كانت كورديليا من وقت لآخر ترسم شاربًا فوق شفتها العليا باستخدام قلم الحاجب الخاص بأختها بردى، وتلف نفسها بستارة مخملية قديمة فى محاولة أخيرة لوضع حبكة مسرحية.

* * *

نمشى معًا عائدات من المدرسة إلى المنزل وقد أصبحنا أربع فتيات بدلاً من ثلاث، ويوجد دكان صغير فى شارع جانبى فى منتصف المسافة، وعنده نتوقف لكى ننفق مصروف الجيب الخاص بنا على شراء اللِّبان وعرق السوس الأحمر اللون وغير ذلك ونقتسم كل شىء مع بعضنا البعض بالتساوى، وتوجد كميات من قسطل الفرس عند البالوعات فى جانب الطريق وتبدو مبللة ولامعة، فنملأ جيوبنا بالقسطل ونحن لا نعرف فى أىّ مجال نستخدمها، فالأولاد من مدرستنا والأولاد الكاثوليك التابعون لمدرسة "سيدتنا للمساعدة الدائمة" يقذفون بالقسطل نحو بعضهم البعض، ولكننا لسنا على استعداد لأن نفعل لك، لأن القسطل يمكن أن يفقأ العين.

الممر الموحل المؤدى إلى كوبرى المشاة الخشبى جاف ومليء بالتراب، وأوراق الأشجار التى تتدلى فوق هذا الممر لها لون أخضر باهت ومتهالكة منذ الصيف، وعلى طول حافة الممر توجد أدغال من الأعشاب الضارة، نباتات عصا الذهب + نباتات الرّجيد + نباتات زهرة النجمة + نباتات الأرقطيون الشائكة + نباتات البلاّدونة المميتة التى لها ثمرات حمراء اللون مثل حلوى عيد فالنتين. وتقول كورديليا إنك إذا أردت أن تُسمّم أى شخص فإن هذه تكون وسيلة ملائمة، ونبات البلاّدونا السام له رائحة التراب والطين والرمل والرطوبة والأشياء الحرّيفة وبراز القطط، والقطط تطوف هناك فى خلسة ونحن نشاهدها فى كل يوم وهى تربض وتجلس القرفصاء وتنبش فى القاذورات وتحملق نحونا بعيونها الصفراء اللون كما لو كنا شيئًا ما تقوم باصطياده.

وتوجد زجاجات خمور شاغرة ملقاة فى هذه الغابة العشبية علاوة على وجود قطع من ورق الكلينكس **Kleenex**، وذات يوم نعثر على خزينة، وكورديليا تعرف أنها تُسمى خزينة؛ حيث أخبرتها بردى بذلك ذات مرة عندما كانت صغيرة واعتقدت بطريق الخطأ أنها بالون، وهى تعرف أن الخزينة هى شيء ما يستخدمه الرجال أو ذلك النوع من الرجال الذى ينبغى علينا أن نحترس منهم، رغم أنها لا تعرف السبب فى تسمية الخزينة بذلك الاسم، نقوم بالتقاطها على طرف عصا ونفحصها، إنها تميل إلى اللون الأبيض ولينة ومطاطية مثل شيء ما فى داخل سمكة، وتقول كارول: "إو **Ew**"، ونحملها فى اختلاس ونعود بها إلى أعلى التل وندفع بها من خلال الحاجز الشبكى للرصيف، فتهوى هابطة إلى هناك فوق سطح المياه الداكنة وتطفو هناك فى شحوب وفى اتجاه نحو الغوص، وحتى العثور على شيء كهذا يعتبر شيئًا مكتسبًا بطريقة غير شرعية، بل وإخفاء شيء كهذا يعتبر أمرًا غير قانونى.

الكوبرى الخشبى أكبر انحرافًا وتداعيًا وتهالكًا عن ذى قبل وفقًا لما تمليه علىّ ذاكرتى، إذ توجد المزيد من الأماكن التى سقطت منها الألواح الخشبية، ونحن عادةً نمشى فى منتصف الكوبرى، ولكن كورديليا اليوم تتجه إلى الدرابزين وتستند عليه

وتنظر من فوقه، فنتبعها الواحدة تلْو الأخرى فى نشاط وحيوية، الجدول المائى أسفل الكوبرى ضحل فى هذا الوقت من السنة، إذ نستطيع مشاهدة الخردة والنفايات التى ألقى بها الناس فى الماء مثل إطارات السيارات البالية والزجاجات المكسورة والقطع المعدنية الصدئة.

وتقول كورديليا إن الجدول المائى يتكون من أجساد الناس المتحلّلة لأنه ينساب مباشرة من الجبّانة، وتقول إنك إذا شربت من الجدول أو وضعت قدمك فيه أو حتى إذا اقتربت منه أكثر من اللازم، فإن الموتى سيخرجون من الماء وقد تغطوا تمامًا بالسديم الضبابى ويأخذونك معهم، وتقول إن السبب الوحيد فى أن هذا لم يحدث لنا هو أننا نوجد فوق الكوبرى بالإضافة إلى أن الكوبرى مصنوع من الخشب، فالكبارى تكون مأمونة فوق جداول الناس الموتى الشبيهة بهذا الجدول.

وتشعر كارول بالخوف أو تتظاهر بأنها خائفة، وتقول جريس إن كورديليا كثيرًا ما تكون متسمة بالسذاجة والبلاهة.

فتقول كورديليا: "جرّبى ذلك بنفسك وشاهدى ما سيحدث، واصلى السير لأسفل إلى هناك، إننى أتحداك"، ولكننا لا ننزل إلى الجدول، وأعرف أن هذا نوع من المزاح، لأن أمى تنزل لأسفل إلى هناك من أجل التنزه والتريُض، كما أن أخى يذهب أيضًا إلى هناك مع أولاد أكبر منه سنًا، ويخوضون عبر البرابخ وهم مرتدون أحذيتهم المطاطية التى لها رقبة ويتدلّون من الأشجار ومن الألواح الخشبية السفلية للكوبرى، والسبب فى تحريم هذا الوادى الضيق الشديد الانحدار علينا ليس الموتى وإنما الرجال الأحياء، ومع ذلك فأنا أسائل نفسى فى تعجّب عن الشكل الذى يمكن أن يبدو عليه الناس الموتى، إننى أؤمن بهم ولا أؤمن بهم فى الوقت نفسه.

نلتقط أزهارًا عشبية لها لون أزرق ولون أبيض كما نلتقط بعض ثمار حشائش البلادونة ونضعها فى ترتيب على أوراق من نبات الأرقطيون الشائك عند جانب الممرّ مع وضع قسطل الفرس على كل ورقة، إنها وجبات مزعومة، ولكن ليس من الواضح من أجل مَنْ هى، وعندما ننتهى من ذلك العمل نصعد على التلّ

تاركات هذه الترتيبات خلفنا وقد أصبحت شبه إكليل من الزهور وشبه وجبة غذاء، وتقول كورديليا إنه ينبغى علينا أن نغسل أيدينا غسلاً جيّدًا وذلك بسبب ثمار حشائش البلادونة، إذ ينبغى التخلص من العصير السّام، وتقول إن نقطة واحدة من هذا العصير يمكن أن تحولك إلى أفعى الزومبى **Zombie**.

وفى اليوم التالى عندما نمشى عائدات من المدرسة إلى المنزل يتلاحظ لنا أن هذه الوجبات الزهرية التى قمنا بإعدادها قد اختفت، ربما قام الأولاد بتدميرها، فهى من النوع الذى يقوم الأولاد بتدميره، أو ربما قام الرجال الكامنون فى ترصّد بتدميرها، ولكن كورديليا تفتح عينيها إلى أقصى مدى وتخفض من صوتها وتنظر عبر كتفها، وتقول: "إنهم الناس الموتى الذين قاموا بتدمير الزهور"، وتضيف: "وإلاّ فمن هم الآخرون الذين يمكن أن يفعلوا ذلك؟".

* * *

(١٥)

عندما يدق الجرس اليدوى نصطف أمام اللافتة المكتوب عليها "البنات" اثنتين اثنتين مع الإمساك بالأيدى، كارول وأنا ثم جريس وكورديليا وراءنا لأنهما فى صف مدرسى أعلى، وأخى يوجد هنالك أمام اللافتة المكتوب عليها "الأولاد"، وأثناء فترة الاستراحة "الفُسحة" يختفى أخى فى الملعب المليء بالرماد والنفايات، وهو المكان الذى تعرّض فيه فى الأسبوع الماضى لرفسة فتحت شفته أثناء اشتراكه فى لعبة كرة القدم مما أدى إلى تخييط شفته بالغرزات، ولقد شاهدتُ هذه الغرزات عن كثب، وهى خيط أسود اللون محاط بلون أرجوانى متورّم، وأشعر بالإعجاب بهذه لأننى أعرف المنزلة الرفيعة التى تضيفها الجروح، وما دامت قد تحولتُ مرة أخرى عن ارتداء البنطلونات إلى ارتداء التنورات ينبغى علىّ أن

أقرأناكموه

أتذكر الحركات التى أقوم بها، إذ لا يمكن لكِ أن تجلسى مع فتح ساقيك فى تباعد أو تقفزى لأعلى أكثر من اللازم، أو تتشقلبى رأسًا على عقب بدون أن تثيرى سخرية الناس، وكان علىّ أن أدرك مرة أخرى مدى أهمية الملابس الداخلية التى لها طقوس دينية مقدسة خاصة بها:

أنا أشاهد إنجلترا، أنا أشاهد فرنسا

باستطاعتى مشاهدة ملابسك الداخلية

أو أيضًا:

إننى لا أعرف، إننى لا أهتم

إننى لا أرتدى ملابس داخلية

وهذا يقوله الأولاد مع التكشير وتقطيب الجبين مثل القرود.

هناك قدر كبير من التأمل والتفكير فيما يتعلق بالملابس الداخلية للمدرسات، فالملابس الداخلية للمدرسين ليست لها أهمية، وعلى كل حال فلا يوجد عدد كبير من المدرسين، والعدد القليل منهم الموجود بالفعل بالمدرسة هم من الناس الكبار فى السن، إذ لا يوجد رجال من الشباب لأن الحرب قد أكلتهم وحصدتهم، فمعظم القائمين بالتدريس من النساء اللاتى يزيد عمرهن عن سنّ معينة... وهن نساء غير متزوجات، فالنساء المتزوجات لا يحصلْن على وظائف، ونحن نعرف هذه الحقيقة من أمّهاتنا، وهناك شىء ما غريب ومثير للضحك فيما يتعلق بالنساء الأكبر سنًّا غير المتزوجات، وفى فترة الاستراحة بالمدرسة تقوم كورديليا بتوزيع الملابس الداخلية وفق تصوراتها، الملابس المكشكشة ذات اللون الأرجوانى الفاتح تكون من أجل الآنسة بيجون الممتلئة البالغة الحلاوة والعذوبة، والملابس ذات النقوش المربعة الشكل تكون من أجل الآنسة ستيوارت لأن الأشياء المزركشة تتمشى مع شعوذتها، والملابس الساتان الحمراء تكون من نصيب الآنسة هاتشيت التى يزيد عمرها على الستين عامًا والتى ترتدى بروشًا من العقيق الأحمر، ونحن نعتقد أنه لا يوجد بالفعل أية ملابس من هذه الملابس الداخلية، ولكن التفكير فى هذا يثير

بهجة من النوع البذىء، والمُدرِّسة الخاصة بى هى الآنسة لاملى **Lumely**، ويُقال إنه فى كل صباح قبل دقّ الجرس وحتى فى أواخر الربيع عندما يكون الجو دافئًا تتجه الآنسة لاملى إلى الجزء الخلفى من حجرة الدراسة وتخلع سروالها التحتانى الذى أُشيع عنه أنه من الصوف الثقيل الأزرق الفاتح وله رائحة كرات النفتالين ورائحة أشياء أخرى يتعذر تحديدها بوضوح، وهذا الكلام لا يُقال مرارًا وتكرارًا من حيث هو تخمين أو جزء من الخيال المتعلق بالملابس الداخلية، وإنما يُقال من حيث هو حقيقة واقعة، إذ تدّعى الكثير من الفتيات أنهن قد شاهدن الآنسة لاملى وهى ترتدى سروالها التحتانى مرة أخرى عندما كان عليهن البقاء بالمدرسة عقب انتهاء اليوم المدرسى، كما تقول فتيات أخريات إنهن قد شاهدن سروالها التحتانى معلقًا فى المرحاض، ولذلك فإن رائحة هذا السروال القاتم الغامض المثير للاشمئزاز الخاص بالآنسة لاملى تتعلق فى الهواء حولها وتشوّه الهواء الذى تتحرك فى داخله، وهذا يجعلها مثيرة للمزيد من الخوف ولكنها مخيفة بما فيه الكفاية على كل حال.

والمدرِّسة التى قامت بالتدريس لى فى السنة الماضية كانت عطوفة، ولكنها كانت غير بارزة وغير متفردة، حتى إن كورديليا لا تذكرها على الإطلاق فى لعبة الملابس التحتانية، وكان لها وجه شبيه برغيف الخبز ولها بشرة شبيهة بلون المهلبية، وكانت تسيطر على التلميذات من خلال التملّق، أمَّا الآنسة لاملى فإنها تسيطر من خلال بثّ الرعب والخوف، وهى قصيرة ولها شكل مستطيل، حتى إن سترتها الصوفية المحبوكة الرمادية تهبط مباشرة من الكتف إلى الردف بدون التوقف عند الخصر، وهى دائمًا ما ترتدى هذه السترة الصوفية المحبوكة علاوة على ارتداء سلسلة متعاقبة من التنورات الداكنة التى لا يمكن أن تكون هى التنورة الواحدة نفسها، وهى لها نظّارة ذات إطار من الصلب ومن المتعذر رؤية عينيها الموجودتين خلف تلك النظارة، ولها حذاء أسود به كعب كوبى، ولها ابتسامة خفيفة لا تشارك فيها الشفتان، وهى لا ترسل البنات إلى ناظر المدرسة لكى يعاقبهن بضربهن بالشريط الجلدى، وإنما تفعل ذلك بنفسها أمام تلميذات الفصل كافة؛ حيث تمسك بيد البنت وتنزل بالشريط المطاطى الأسود فى ضربات سريعة

أقرأناكموه

قوية وقد ارتعد وجهها فى شحوب بينما نحن نرقب الموقف فى إجفال وقد امتلأت أعيننا بدموع لا إرادية، وتبكى بعض الفتيات وتسيل أنوفهن بالمخاط بصوت مسموع فى أثناء قيامها بهذا الإجراء، حتى ولو كان العقاب لا ينزل عليهن، ولكن هذا التصرف لا يتسم بالحكمة، لأن الآنسة لاملى تكره سماع التشمم بمخاط الأنف بصوت مرتفع ومن المحتمل أن تقول: "لسوف أقدم لكم شيئًا ما لكى يكون مبرّرًا كافيًا يدفعكن للبكاء"، ونحن نتعلم كيف نجلس فى اعتدال مع النظر إلى الأمام وجعل الوجه خاليًا من التعبير أو الانفعال، مع وضع كلا القدمين على الأرض والإصغاء لصوت الشـريط الجلدى وهو يهبط فى عنف على الجسـد المنكمش فى رعب.

وفى معظم الأحيان يكون الأولاد هم الذين يعاقبون بالضرب بالشريط الجلدى؛ إذ من المعتقد أنهم هم الذين بحاجة أكثر لمعاقبتهم على ذلك النحو، هذا بالإضافة إلى أنهم يتململون فى عصبية وخاصة فى أثناء ممارسة الخياطة، فنحن من المفترض لنا أن نحيك أداة للإمساك بالأوانى من أجل أمهاتنا، ويبدو أن الأولاد لا يستطيعون تأدية هذا العمل على نحو سليم حيث تكون الغُرزات الخاصة بهم واسعة وغير متقنة، وتسير الآنسة لاملى فى بطء بين الطرقات وتقوم بضرب مفاصل أصابعهم بالمسطرة.

* * *

حجرة الدراسة بها سقف عالٍ ولها لون بنّى/ أصفر وبها سبورات بالجهة الأمامية وعلى طول جانب واحد ولها نوافذ طويلة موجودة فوق أنابيب التدفئة عند الجانب الآخر، وفوق الباب المؤدى إلى غرفة إيداع المعاطف والقبعات – ولكى تشعر بأنه يتم مشاهدتك من الخلف – توجد صورة فوتوغرافية كبيرة للملك والملكة؛ الملك مزدان بالأنواط والأوسمة والملكة مرتدية ثوبًا للنزهة وعلى رأسها عصابة مُرصَّعة بالجواهر والماسات، وتوجد مكاتب خشبية عالية منتظمة فى صفَّين وتتَسع لشخصين ولها أسطح مائلة وتقوب من أجل المحبرة، وهى تشبه

حجرات الدراسة الأخرى الموجودة فى مدرسة كوين مارى، ولكنها تبدو داكنة أكثر وربما السبب فى ذلك أن الديكورات بها قليلة، ولقد كانت مُدرِّستنا القديمة تقوم بإحضار المناديل الورقية للمدرسة فى محاولاتها العديدة الرامية إلى الترضية كما كانت النوافذ تمتلئ دائمًا بأوراق الحياة النباتية، ولكن على الرغم من أن الآنسة لاملى تتقيّد بالفصول الموسمية بهذه الطريقة أيضًا ، فإن النباتات التى نحضرها تحت إشراف عينيها اللامعتين وراء نظاراتها ذات الإطار المصنوع من الصلب تكون أصغر حجمًا وذابلة، حتى إنه لا توجد أبدًا كميات منها تكفى لتغطية المساحات الشاغرة من الحوائط أو الزجاج، وأيضًا إذا كانت ورقة نبات الزينة أو ورقة اليقطين التى نحضرها غير سيميترية، فإن الآنسة لاملي ترفض استخدامها فى تزيين الفصل، لأن لديها معايير قياسية تلتزم بها.

الأشياء تتسم بالطابع البريطانى أكثر مما كانت عليه فى السنة الماضية، فنحن نتعلم كيف نرسم عَلَم المملكة المتحدة، مع استخدام مسطرة ومع الحفظ عن ظهر قلب للصلبان المختلفة التى تخص سانت جورج أوف إنجلترا وسانت باتريك أوف أيرلندا وسانت أندرو أوف اسكتلندا وسانت دافيد أوف ويلز، والعَلَم الخاص بنا له لون أحمر ويتواجد به عَلَم المملكة المتحدة فى أحد الأركان، رغم أنه لا يوجد قديس من أجل كندا، ونحن نتعلم أسماء كل الأجزاء الوردية اللون الموجودة بالخريطة.*مكتبة الرمحي أحمد*

وتقول الآنسة لاملى وهى تطرق على الخريطة التى تنساب فى انتشار لأسفل مستخدمة المؤشّر الخشبى الطويل الخاص بها: "الشمس لا تغرب أبدًا عن الإمبراطورية البريطانية"، ففى الدول التى ليست جزءًا من الإمبراطورية البريطانية يقوم الناس فيها بقطع ألسنة الصغار، وخاصة أولئك الذين يكونوا أولادًا، وقبل ظهور الإمبراطورية البريطانية لم تكن هناك سكك حديدية أو خدمات بريدية فى الهند، كما كانت أفريقيا مليئة بالحروب الأهلية مع استخدام الرماح بالإضافة إلى أن أفريقيًا لم يكن بها ملابس ملائمة، والهنود فى كندا لم يكن لديهم الدراجات الهوائية أو التليفونات، بل كانوا يأكلون قلوب أعدائهم وفقًا للاعتقاد الوثنى بأن ذلك من

أقرأناكموه

شأنه أن يمنحهم الشجاعة، ولقد قامت الإمبراطورية البريطانية بتغيير كل هذه الأمور، كما أدخلت الأنوار الكهربائية.

وفى كل صباح وبعد أن تعزف بالنفخ نغمة رفيعة رنَّانة على مزمار النغم الخاص بها نقف لكى نغنى أنشودة: "الله ينقذ الملك"، كما نتغنى أيضًا بأغنية:

بريطانيا تسيطر على البحار

لن يصبح البريطانيون عبيدًا فى أىّ وقت على الإطلاق.

ولأننا بريطانيون فإننا لن نصبح عبيدًا أبدًا.

ولكننا لسنا بريطانيين حقيقيين لأننا أيضًا كنديّون، وهذا الوضع ليس ممتازًا للغاية، وإن كان له الأغنية الخاصة به:

فى الأيام الخوالى... فى الأيام الماضية

جاء وولف من شاطئ بريطانيا

وغرس فى تثبيت علم بريطانيا

فوق أراضى كندا الجميلة،

وهذا قد يكبح تفاخرنا واعتزازنا

وقد يربط فى حب النباتات الشوكية مع نبات الشبندر

وقد يجعل الورود تضفّر ورقة نبات القيقب للأبد.

ويرتعد فكّ الآنسة لاملى فى ارتعاش على نحو مخيف عندما نتغنى بتلك الأنشودة، فكلمة وولف تبدو شبيهة بشىء ما يمكن أن تسميه كلبًا، ولكن وولف تمكَّن من إلحاق الهزيمة بالفرنسيين، وهذا شىء يدعو للحيرة، لأننى قد شاهدتُ أناسًا فرنسيين؛ حيث يوجد الكثيرون منهم فى الشمال، وبذلك فمن المؤكد أنه لم يتمكن من إلحاق الهزيمة بجميع الفرنسيين، أمَّا بالنسبة لأوراق نبات القيقب فإنها

بمثابة أصعب جزء يمكن لنا أن نرسم عليه العَلَم الأحمر الخاص بنا، فلا أحد يستطيع أن يرسم العلم بطريقة سليمة على ذلك الجزء.

وتحضر الآنسة لاملى قصاصات صحف عن العائلة الملكية وتلصقها إلى جانب السبورة، وبعضها قصاصات قديمة عن الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت روز وهما مرتديتان زىّ الكشافة ويلقيان بأحاديث إذاعية وغيرها من الخطب الأخرى فى أثناء الحملة العسكرية الخاطفة **Blitz**، وتشير الآنسة لاملى إلى أننا ينبغى علينا أن نكون على هذا النحو، أى نتّسم بالثبات والإخلاص والشجاعة والبطولة، كما توجد صور أخرى مأخوذة من الجرائد لأطفال فى حالة من الهزال والضعف والملابس البالية يقفون أمام أكوام من النفايات والقمامة، والهدف من هذه الصور هو أن نتذكر أن هناك الكثير من اليتامى الذين فقدوا آباءهم فى أثناء الحرب ويتعرضون للموت جوعًا فى أوربا؛ ولذلك ينبغى علينا أن نتذكر ذلك وأن نأكل قطع الخبز والبطاطس وكل شىء آخر يُقدم لنا فى أطباقنا، لأن التبذير والتبديد فى الطعام يعتبر خطيئة، وأيضًا ينبغى علينا ألاَّ نشتكى ونتذمر، وفى حقيقة الأمر لا يحقّ لنا أن نتذمّر لأننا أطفال سعداء الحظ، فالأطفال الإنجليز ضُربتْ منازلهم بالقنابل ونحن لم يحدث لنا ذلك، ونقوم بإحضار ملابسنا القديمة المستعملة من منازلنا فتقوم الآنسة لاملى بربطها فى طرود ورقية لها لون بنّى وترسلها إلى إنجلترا، ولا يوجد لدىّ الكثير من الملابس التى يمكن لى إحضارها لأن أمى تقوم بتمزيق ملابسنا البالية وتستخدمها كمنفضة لإزالة الغبار، ولكننى أتمكن من إنقاذ بنطلون قطنى كان مملوكًا لأخى ذات يوم، ثم أصبح مملوكًا لى وصار الآن صغيرًا للغاية بالنسبة لى، علاوة على إنقاذ قميص خاص بوالدى كان قد غُسل بطريقة غير سليمة فأصبح متقلّصا فى حجمه، إننى أشعر بإحساس عجيب فوق بشرتى عندما يخطر على ذهنى أن شخصًا ما آخر موجود بإنجلترا يسير هناك وهو مرتدى ملابسى؛ إذ إن ملابسى تبدو وكأنها جزء لا يتجزأ منّى... حتى تلك الملابس التى أصبحتْ ضيقة علىَّ بعد أن صرتُ أكبر حجمًا، وكل هذه الأشياء – الأعلام وأغانى المزمار والإمبراطورية البريطانية والأميرات ويتامى الحرب وحتى الضرب بالشرائط الجلدية – تُركّب فوق الخلفية الزرقاء الفاتحة المشئومة

أقرأناكموه

للسروال الداخلى غير المرئى للآنسة لاملى، إننى لا أستطيع أن أرسم العَلَم البريطانى أو أغنى أنشودة "فلينقذ الله الملك" دون أن يخطر على ذهنى هذا السروال الداخلى، فهل هو يوجد حقًا أم لا؟ وهل ستتاح لى الفرصة فى أىّ وقت لأن أكون موجودة فى حجرة الدراسة عندما تقوم هى بارتداء سروالها الداخلى أو- وهو أمر لا يصدقه العقل... عندما تقوم بخلع سروالها؟

إننى لست خائفة من الثعابين أو الديدان، ولكننى خائفة من هذا السروال التحتانى، وأدرك أن الأمور ستكون بالغة السوء بالنسبه لى لو وقع بصرى بالفعل على سروالها الداخلى فى أىّ وقت من الأوقات، إنه سروال مقدس للغاية ولكنه فى الوقت نفسه رهيب ومخجل وفاضح، فالشىء الخاطئ فى هذا السروال قد يكون هو الشىء نفسه الخاطئ بالنسبة لى، لأنه على الرغم من أن الآنسة لاملى لا ينظر إليها أىّ شخص على أنها فتاة، فإنها لا يُنظر إليها أيضًا على أنها ولد، فعندما يدق الجرس اليدوى المصنوع من النحاس الأصفر ونصطف بالخارج أمام الباب المكتوب عليه كلمة "البنات" الخاص بنا فإن أىّ فئة تنطبق علينا تشملها أيضًا.

الباب الرابع

نبات البلادونة المميت

Deadly Nightshade

أقرأناكموه

(١٦)

أسير فى شارع كوين ستريت وأمرّ بجوار محلات لبيع الكتب الكوميدية المستعملة وبجوار فاترينات مليئة بالبيض البلّورى والمحارات البحرية وكميات من الملابس السوداء المتجهمة، أتمنى لو كنت قد رجعتُ إلى المستوقد وجلست أمامه مع بين **Ben** مع النظر إلى الخارج نحو الميناء، بينما اليرقانات العملاقة تمضغ بصوت طاحن عند المساحات الخضراء بالحديقة الخلفية، المستوقدات والحدائق الخلفية، لم أكن أفكر فيهما عندما اعتدت المجيء إلى هنا لكى أزور جون **Jon** عند الجانب الآخر من محل البيع بالجملة لحقائب السفر، وعند الناصية كانت توجد حانة مابيل ليف، حيث احتسيتُ بيرة مسحوبة من وعاء في الظلام، وهى حانة تبعد مسافة إشـــارتى مرور ضوئيتين من مدرسة الفنـــون، حيث كنت أرسم النساء العاريات مع الشعور بالتعاسة والإحباط، وهزت عربات الترام النوافذ الأمامية فى خشخشة وقعقعة، ما زالت توجد عربات ترام.

قلتُ لبين **Ben**: "لا أريد أن أذهب"، فقال: "يمكن لك ألاَّ تذهبى، ويمكن لك أن تؤجلى ذلك، تعالى إلى المكسيك".

فقلت: "لقد تجشّموا كل هذا العناء"، وأضفتُ: "استمع إلىّ، هل تعرف كم هو من الصعب أن يكون لك معرض استعادى **retrospective** فى أىّ مكان إذا كنت أُنثى؟".

فقال: " وما أهمية هذا المعرض؟ فأنت تبيعين لوحاتك على كل حال".

فقلت: "ينبغى علىّ أن أذهب"، وأضفتُ: "إذا لم أذهب سيكون ذلك شىء غير ملائم فأنا قد تربيتُ على أن أقول لو سمحت، وشكرًا".

فقال: حسنًا، وهو كذلك"، وأضاف: "أنت تعرفين ماذا تفعلين"، ثم قام بمعانقتى.

أقرأناكموه

أتمنى لو كانت معانقة صادقة.

* * *

أفتح باب المعرض، وأدخل وأنا مليئة بمشاعر الاكتئاب على النحو الذى أكون عليه دائمًا عندما أدخل إلى المعارض، إنها السجاجيد التى تسبب لى الاكتئاب علاوة على الصمت الشديد ومظاهر النفاق والتظاهر بالتقوى، فالمعارض تشبه الكنائس إلى حدّ كبير، إذ يوجد قدْر كبير من التوقير والتبجيل والمهابة، بل وتشعر أنه توجد بعض الانحناءات على الركبة، كما لا أحب أيضًا أن يكون هذا هو المكان الذى تصل إليه اللوحات فى نهاية الأمر، وبحيث تُعرض على هذه الحوائط ذات الطابع المحايد مع خطوط الإضاءة لأن اللوحات عندئذ تبدو عقيمة، ويبدو الأمر كما لو أن شخصاً ما قد ظلّ يرش اللوحات بمواد لإنعاش الهواء وقتْل الرائحة، رائحة؛ الدماء الموجودة على الحائط، وهذا المعرض لا يتم تعقيمه بالكامل، فهناك لمسات من الحواف القاطعة؛ إذ تبدو أنبوبة تدفئة ظاهرة للعيان كما يوجد جدار واحد مطليّ باللون الأسود، لا ألقى نظرة على الأشياء التى ما زالت موجودة على الحوائط، فأنا أكره تلك اللوحات التى لها ألوان خضراء داكنة وألوان برتقالية متعفنة والتى تنتمى إلى المذهب التعبيرى الجديد، والتى هى إلى ما بعد **post** هذا وإلى ما بعد ذلك، فكل شىء فى هذه الأيام يكون إلى ما بعد **post** كما لو كنا جميعًا مجرد حاشية أو هامش لشىء ما سابق كان صادقًا وحقيقيًّا على نحو يكفى لأن يكون له اسم خاص به.

والعديد من اللوحات الخاصة بى قد أُخرجت من صناديق الشّحن الخاصة بها وأصبحت مستندة على الحائط، وكان قد تمَّ البحث عنها وطلبها وتجميعها من كل شخص يمتلكها، وكل شخص يمتلكها ليس أنا، وهذا حظ أكثر سوءًا لأنه كان سيتاح لى الحصول على سعر أعلى الآن، وأسماء مالكى اللوحات ستكون مكتوبة على بطاقات صغيرة بيضاء بجوار اللوحات بجوار اسمى كما لو كان مجرد الامتلاك يتساوى مع الإبداع والخلْق، فهم يعتقدون أن هناك تكافؤًا وتساويًا بين المالك والمبدع.

إذا قمتُ بقطع أذنى فهل هذا يؤدى إلى رفع قيمة اللوحات فى السوق؟ ربما يكون من الأفضل أن أدخل رأسى فى الفرن وأقوم بتفجير مُخّى، فالناس الأغنياء من جامعى اللوحات الفنية يرغبون في شراء بعض الجنون والتضحيات المنجزة نيابة عن الآخرين، وذلك ضمن الأشياء الأخرى التى يرغبون فى شرائها.

الوجه هى لوحة قمتُ برسمها منذ عشرين عامًا، السيدة سميث مرسومة فى جمال وبطريقة مزج الألوان بالبيض بدلاً من الزيت، وقد ظهر دبوس الشعر الرمادى الخاص بها الشبيه بالتاج وظهر وجهها الشبيه بثمرة البطاطس كما ظهرت نظارتها، ولكنها لا ترتدى أية ملابس بخلاف مريلتها الزهرية ذات الثدى الواحد، وهى تضطجع على أريكتها المخملية ذات اللون الأحمر الداكن المتصاعدة نحو السماوات المليئة بأشجار المطّاط بينما قمر يتشكل على هيئة منديل مائدة يسبح فى السماء، وهذه اللوحة تسمى: "شجرة المطاط الصعود"، والملائكة المحيطة بالسيدة سميث هن فتيات ملصقات الكريسماس لعام ١٩٤٠ المرتديات ثيابًا بيضاء واللائى لهن شعر مجعّد، وكلمة "السماوات **Heavens**" مطبوعة بالاستنسل فى أعلى اللوحة من خلال استخدام أداة استنسل مدرسية تخص أحد الأطفال، ولقد اعتقدتُ أن ذلك بمثابة شيء رائع أفعله فى ذلك الوقت.

وحصلتُ على ثمن تافه للغاية لتلك اللوحة وفقًا لما أتذكره، ولم يكن السبب فى ذلك هو استخدام الاستنسل.

لا أنظر إلى هذه اللوحة لفترة طويلة للغاية أو إلى أىّ لوحة من اللوحات الأخرى، فإذا فعلتُ ذلك سأبدأ فى العثور على أشياء خاطئة بها، وعندئذ ستكون لدىّ الرغبة فى تمزيقها بالسكين وإشعال النيران فيها وتنظيف الحوائط منها، الرغبة فى البدء من جديد.

* * *

أقرأناكموه

امرأة تمشى بخطوات واسعة نحوى من الخلف، لها تسريحة شعر شيهمية شقراء معدّلة وترتدى بذلة أرجوانية وحذاء جلديًا أخضر له رقبة، وأدرك على الفور أننى ما كان ينبغى علىَّ أن أرتدى هذا الثوب النسائى ذا اللون الأزرق الفاتح فاللون الأزرق الفاتح؛ لا ينفذ إليه الضوء، كان ينبغى على ارتداء ثوب له لون أسود فى مثل سواد زى الراهبات... أسود دراكولا مثلما تفعل الرسامات الحقيقيات كافة، ولكننى سأتظاهر بأننى قد تعمدتُ ارتداء هذا اللون، ويمكن أن يكون ذلك بمثابة مهاجمة للمعتقدات التقليدية.

تقول المرأة: "هاى، مرحبًا، أنتِ إيلين بالتأكيد، أنت لا تشبهين كثيراً صورتك"، وأسائل نفسى فى تفكير: ماذا تقصد بتلك العبارة: الأفضل أم الأسوأ؟، وتضيف: "لقد سبق أن تحدثنا معًا مرات كثيرة تليفونيًا، وأنا أسمى: شارنا **Charna**". عادةً لم يكن يوجد فى تورونتو أسماء مثل شارنا، وتنسحق يدى، فهذه المرأة ترتدى فى أصابعها حوالى عشرة خواتم فضية ثقيلة، وتضيف: "لقد كنا فقط نتساءل عن الأوضاع والترتيبات". توجد امرأتان أخريان أيضًا وكل واحدة منهما تبدو أكثر اتسامًا بالطابع الفنىّ منى بخمسة أضعاف؛ إذ ترتديان فى الأذنين قُرْط الفن التجريدى علاوة على تسريحة الشعر المتميزة، فأشعر أننى أفتقد الأناقة والذوق الرفيع.

إنهن قد حصلْن على ساندوتشات وقهوة باللبن فنتناول الطعام ونشرب القهوة مع التناقش فى الوقت نفسه فى مسألة ترتيب الصور واللوحات، وأقول إننى أفضل الترتيب وفقًا للتسلسل الزمنى، ولكن "شارنا" لها آراء أخرى، فهى تريد للأشياء أن تُعرض مع بعضها البعض وفقًا للنغمة وبحيث تحدث رنينًا وتكوّن عبارات تستكمل بعضها البعض، وأشعر بالمزيد من التوتر العصبى لأن هذا النوع من الكلام يجعلنى أنتفض فى ارتعاش، إننى أقاوم الرغبة فى أن أقول إننى أعانى من الصداع وأرغب فى العودة إلى المنزل؛ إذ ينبغى أن أكون ممتنّة وشاكرة لأن هؤلاء النساء يقفن إلى جوارى، وقد وضعن جميع الخطط لإنجاز كل هذه الأمور من أجلى، وهن يقدّمن لى الحفاوة والتكريم وهن معجبات بإنجازاتى الفنية، ولكنى أشعر أنهن متفوقات علىّ فى العَدَد وكما لو كُنَّ من نوع لستُ أنا عضوة فيه.

جون Jon يرجع غدًا من لوس أنجليوس ومن سلسلة أعماله الصعبة، باستطاعتى الانتظار بصعوبة، سوف نهرب من زوجته ونخرج معًا لتناول طعام الغداء بينما كل منا يشعر بأنه جبان وحقير وجدير بالازدراء، ولكن هذا ليس سوى شيء حضارى نفعله، مجرد تناول الغداء مع زوج سابق على طريقة رفقاء السلاح، تقفيلة موسيقية ختامية لجميع الآنية الفخارية المهشمة والأعضاء المبتورة أو المشوهة.

* * *

امرأة أخرى تدخل، فتقول "شارنا": "أندريا!" وتسير نحوها، وتضيف: "لقد جئت متأخرة عن الموعد"، وتطبع قبلة على خدّ أندريا وتسير بها نحوى وهى ممسكة بذراعها، وتقول: "أندريا تريد أن تعزف قطعة موسيقية تعبر عنك، وذلك من أجل الافتتاح".

فأقول: "لم يخبرنى أحدٌ بهذا".

فتقول شارنا: "لقد جاء هذا فى آخر لحظة"، وتضيف: "وهذا من حسن حظنا، ولسوف أضعكما أنتما الاثنان فى الغرفة الخلفية، أوكى؟ ولسوف أحضر لكما بعض القهوة"، وأسمح لنفسى بأن أُساق كالقطيع عبر الدهليز، ما زال بالإمكان إصدار الأوامر لى من خلال نساء مثل شارنا، وعندما نجلس تقول لى أندريا: "لقد اعتقدت أنك ستكونين مختلفة".

فأسألها: "مختلفة على أىّ نحو؟".

فتقول: "أكبر حجمًا".

فأبتسم فى وجهها وأقول: "إننى أكبر حجمًا".

* * *

أقرأناكموه

تتفحص أندريا فستانى الأزرق الفاتح الرجراج، وهى نفسها ترتدى فستاناً أسود اللون مصقولا ولامعًا وليس فستاناً يعود إلى موضة أوائل الستينيات على النحو الذى يبدو عليه فستانى، وهى لها شعر أحمر ناجم عن علبة رشّ الرذاذ ومقصوص على هيئة طاقية وشبيه بجوزة البلّوط، وهى شابة صغيرة فى السن، بل ويبدو لى أنها لا تزيد عن كونها تحت سنّ العشرين، رغم أننى أعرف أنها في العشرينات من عمرها بكل تأكيد، وربما هى تعتقد أننى امرأة غريبة الأطوار رثة الثياب ومحافظة وفى منتصف العمر وشبيهة بمُدرستها بالمدرسة الثانوية، وربما هى تودّ الاستيلاء على مشاعرى، وربما تنجح فى ذلك.

نجلس فى مواجهة بعضنا البعض إلى مكتب شارنا، وتضع أندريا الكاميرا الخاصة بها على المكتب، وتعبث فى جهاز التسجيل الخاص بها، وتقوم أندريا بالكتابة من أجل جريدة وتقول: "هذا التحقيق الصحفى من أجل قسم المعيشة **living section**" وأعرف معنى تلك العبارة؛ إذ جرت العادة أن يكون قسم المعيشة بمثابة صفحات المرأة **Women pages** بالجريدة، ومن الغريب أنهم يسمون الآن صفحة المرأة باسم المعيشة، كما لو كانت النساء فقط هن الموجودات على قيد الحياة بينما الأشياء الأخرى مثل الرياضة هى من أجل الموتى.

وأقول: "المعيشة، هيه؟"، وأضيف: "إننى أُم لطفلين، وأنا أخبز الكعك المحلّى بالسكر"، وكل هذا صحيح وصادق، تلقى أندريا علىّ نظرة غير مشوقة، وتضغط بإصبعها على الزرّ لكى تشغل جهاز التسجيل.

وتقول: "كيف تتعاملين مع مسألة الشهرة ؟" فأقول: "هذه ليست شهرة" وأضيف: "الشهرة هى الاختراق الذى تقوم به إليزابيث تيلور، أماَ هذا الشىء فهو مجرد فُقاعة متوسطة الحجم".

فتبتسم لدى سماع هذا الكلام، وتقول: "حسن، أيمكن لك أن تقولى شيئًا عن الجيل الخاص بك من الفنانات **woman artists** وآمالهن وأهدافهن؟".

فأقول: "أنت تقصدين الرسامات **painters**"، وأضيف: "وما هو ذلك الجيل؟".

فتقول: "أعتقد أنه جيل السبعينيات، وهى الفترة التى ابتدأ فيها جيل الرسامات... الفترة التى بدأت أنت فيها فى جذب الانتباه".

فأقول: "السبعينيات ليست هى الجيل الذى أنتمى إليه"، فتبتسم وتقول: "حسنًا، إذن ما هو الجيل الخاص بك؟".

- "الأربعينيات".

- "الأربعينيات؟" هذه آثار حضارة قديمة وفق اهتمـــاماتها، وتضيف : "ولكن لا يمكن لك أن تكونى...".

فأقول: "كان ذلك عندما شببتُ عن الطوق وأصبحت ناضجة".

فتقول: "وهو كذلك، أنت تقصدين أن الأربعينيات كانت هى فترة التكوين بالنسبة لك، هل يمكن لك أن تتحدثى عن الوسائل والطرق وكيف ينعكس هذا على إنتاجك الفنى؟".

فأقول: "الألوان، فالكثير من الألوان الخاصة بى هى ألوان الأربعينيات نفسها" وأضيف: "والحرب تعتبر حدًا فاصلاً، فهناك ناس يتذكرون الحرب وهناك آخرون لا يتذكرونها، وتوجد هناك نقطة فاصلة، ويوجد هناك اختلاف".

فتقول: "هل تقصدين حرب فيتنام؟".

فأقول فى برود: "لا، إننى أقصد الحرب العالمية الثانية"، فيبدو عليها الذعر والخوف كما لو أننى قد بُعثت توًّا من بين الموتى، وأن البعث لم يكن متكاملاً، لم تكن تعرف أننى طاعنة فى السن على هذه الدرجة، وتقول: "إذن ما الفرق؟".

فأقول: "نحن نستغرق فى التفكير على فترات طويلة، ونحن نأكل كل شىء موجود فى أطباقنا، ونحن نقتصد فى كل شىء، ونحن نصنع المعارك والخدعات".

فتبدو عليها الحيرة والدهشة، ذلك هو كل ما أريد أن أقوله عن الأربعينيات، يبدأ العرق فى التصبب من جسدى، أشعر كأننى موجودة عند طبيب الأسنان وقد انفتح فمى فى رشاقة، بينما يقوم شخص ما معه ضوء ومرآة بالحملقة لأسفل فى

أقرأناكموه

حلقى نحو شىء ما لا أستطيع مشاهدته، وفى لباقة تغير موضوع الحرب وتنتقل راجعة نحو موضوع النساء الذى يهمها بالدرجة الأولى، هل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة للمرأة؟ هل تعرضت لمعاملات غير عادلة؟ هل تعرضت للإجحاف من حيث تقييمى؟ وماذا عن أطفالى؟ فأردُّ بإجابات غير شافية وغير نافعة: "كل الرسامين يشعرون بالإجحاف من حيث تقييمهم، ويمكن للرسامة أن تنجز أعمال الرسم الخاصة بها أثناء وجود أطفالها بالمدرسة، وكان زوجى ولا يزال رائعًا، فهو يقدم لى قدْرًا كبيرًا من العون والمساعدة ومن بينها بعض المساعدات المالية"، ولا أحدّد أيًا من الزوجينْ لأننى قد تزوجت مرتين.

فتقول: " إذن، فأنت لا تشعرين بأن حصولك على المساعدة من رجل لا يحطّ من قدْرك؟".

فأقول: "النساء تساند الرجال فى كل الأوقات، فما هو الخطأ إذا كان هناك قَدْر ضئيل من المساعدات التى يقدمها الرجال للنساء؟".

ما أقوله ليس هو ما تريد أن تسمعه، فهى كانت تفضل سماع قصص عن الغضب والمشاجرات، وإن كانت هى من غير المتوقع لها أن تتحدث عْن مشاجرات حدثت لها مع زوجها لأنها صغيرة فى السن للغاية، فالناس الذين هم من سنّى نفسه يُفترض لهم أن يكون لديهم قصص تدور حول المشاجرات والغضب أو على الأقل قصص تدور حول الشتائم والإهانات أو على الأقل عن الإسكات والإذلال، مدرسو الفنون يقرصون عجيزتكِ ويقولون عنكِ إنك طفلة، ويسألونكِ عن السبب فى عدم وجود رسّامات عظيمات وغير ذلك من أمور؛ ولذلك فهى تودّ لى أن أكون غاضبة وطريفة وغريبة الأطوار.

وتسأل: "هل سبق أن كان لك معلمات خصوصيات **female mentors**؟".

- "ماذا تقصدين بـــ: **female mentors**؟".

- "مثل مُدرِّسات أو رسّامات أخريات شعرتِ بالإعجاب بهن".

فأقول فى بذاءة: "أما كان عليك أن تستخدمى كلمة: **mentresses** بدلاً من: **female mentors**؟" وأضيف: "لم يكن لدىّ أية مُدرِّسات خصوصيات، فالذى قام بالتدريس لى كان رجلاً".

فتتساءل: "منْ كان ذلك الرجل؟".

– "إنه جوزيف هربك" وأضيف على الفور: "وكان شغوفًا للغاية معى"، إنه قد يوفى بمتطلباتها، ولكنها لن تسمع ذلك منى، وأقول لها: "إنه قد علّمنى كيف أرسم النساء العاريات"، وذلك الكلام يُروّعها فجأة، فتقول: "حسنًا، ما هو رأيك فى نظرية المساواة بين الجنسين سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا **feminism**؟"، وتضيف: "فهناك عدد كبير من الناس يقولون عنك إنك رسّامة تؤمن بالمساواة بين الجنسين".

فأقول: "إننى فى حقيقة الأمر أكره الحدود الفاصلة، إننى أكره الجيتو، وعلى كل حال فأنا كبيرة فى السن للغاية؛ بحيث لا يمكن لى أن أكون قد ابتدعتُ تلك الحدود الفاصلة وأنت صغيرة فى السن للغاية بحيث يتعذر عليك فهْم ذلك، ولذلك فما الهدف من وراء مناقشة هذا الموضوع من حيث المبدأ؟"

فتقول: "إذن فهذا التصنيف ليس له معنى أو هدف من وجهة نظرك؟"

– "إننى يسعدنى أن تحب النساءُ إنتاجى الفنّى، فلماذا ينبغى ألا يسعدنى ذلك؟"

فتتساءل فى خجل: "هل الرجال يحبون إنتاجك الفنى؟"، لقد كانت تتصفح الملفات السابقة، وشاهدت بعض تلك اللوحات التى تتناول الساحرات والحيزبونات والسقوبات.

وأقول: "أىّ نوعية من الرجال؟"، وأضيف: "ليس كل رجل يحب إنتاجى الفنى، والسبب فى هذا لا يرجع إلى أننى امرأة، فهم إذا كانوا لا يحبون الإنتاج الفنى الذى ابتـــدعه رجل، فإن السبب فى ذلك لا يرجع إلى أنه رجل، ولكنهم فقط لا يحبون ذلك الإنتاج الفنى"، إننى أقف على أرض مهتزة ومثيرة للشكوك، وهذا يسبب لى الحُنْق والضيق، صوتى هادئ، والقهوة تهتاج فى غليان داخل كيانى.

تُقطّب جبينها فى عبس وتجهّم، وتحرّك فى ارتجاج جهاز التسجيل الخاص بها، ثم تتساءل: "إذن لماذا تقومين برسم كل هؤلاء النساء؟"

فأقول: "وما الذى ينبغى علىَّ أن أرسمه؟ الرجال؟"، وأضيف: "إننى رسّامة، إننى أرسم، والرسامون عادة يقومون برسم النساء، ونجد أن روبنز **Rubens** قد رسم النساء، ورينوار **Renoir** قد رسم النساء وبيكاسّو **Picasso** قد رسم النساء، وكل شخص قام بالرسم قد رسم النساء، فهل هناك شىء خاطئ يتعلق برسم النساء؟"

فتقول: "ولكن ليس على ذلك النحو، ليس مثل ذلك" وأقول: "مثل ماذا؟" وأضيف: "وعلى كل حال، لماذا ينبغى أن يكون النساء اللائى أرسمهن متشابهات ومتماثلات مع النساء اللاتى يقوم برسمهن كل رسّام آخر؟" وأكتشف أننى أقضم فى أصابعى، وأتوقف عن ذلك، فى خلال دقيقة سوف تصطك أسنانى مثل أسنان الفئران الواقعة فى مأزق، إننى لا أكاد أسمعها، ولكننى أشاهدها فى وضوح شديد التضليع موجود على رقبة السويتر الخاص بها والشعر الخفيف الموجود على خدّها وتألق زرار، وما أسمعه هو ما لا تقوله: "ملابسك سخيفة وغير ملائمة، والفن الخاص بك يؤدى إلى الخسران المبين، أنت تجلسين معتدلة القامة ولا تجيبين على أسئلتى".

وتقول: "لماذا تقومين برسم اللوحات؟" وأستطيع سماعها مرة أخرى فى الوضوح نفسه لأى شىء آخر، إننى أسمع سخطها وغضبها منّى ومن جموحى وعدم تقديمى إجابات شافية.

وأقول: "لماذا يفعل أىّ شخص أىّ شىء؟"

* * *

(١٧)

ضوء النهار يتلاشى فى وقت مبكر، فى طريق العودة من المدرسة إلى المنزل نمشى بين الدخان المتصاعد من أوراق مشتعلة، المطر يتساقط فنضطر لأن نلعب فى الداخل، نجلس على الأرض فى حجرة جريس مع الالتزام بالهدوء الشديد بسبب قلْب السيدة سميث المريض، ونقوم بقص شوابك العجين وأوانى القلْى ونلصقها حول سيداتنا الورقية، ولكن كورديليا تتخلّص من هذه اللعبة، إنها تدرك على نحو فورى على ما يبدو السبب فى أن منزل جريس به العديد من كتالوجات إيتون، فالسبب فى ذلك يرجع إلى أن أفراد أسرة سميث يحصلون على ملابسهم بتلك الطريقة، إذ يطلبونها من خلال كتالوج إيتون، فهناك فى قسم ملابس البنات الفساتين المصنوعة من نسيج به نقوش مربعة الشكل أو متصالبة، والتنورات التى لها شرائط والمعاطف الشتوية التى ترتديها جريس وأختاها، وهى معاطف لها ألوان ثلاثة ومصنوعة من الصوف الثقيل ولها غطاء للرأس والعنق معًا: أخضر كيلى **Kelly Green** + أزرق ملكى ضارب إلى اللون الأرجوانى **Royal Blue** + أحمر داكن **Maroon**، وتُلْمح كورديليا إلى أنها نفسها لن ترتدى معطفًا مُشترى من كاتالوج إيتون، ولكنها لا تقول ذلك صراحة، فهى ترغب مثلنا فى أن تكون على علاقة حميمية مع جريس.

وتتجنب أدوات المطبخ وتقلّب بين الصفحات وتتجه إلى الصفحات التى تتناول الصديرية الخاصة بالثديين والتى تتناول الكورسىْ أو المشدّ النسوى للخصر والردفين المزركش بشريط للزينة والذى به وصلة قماش من أجل تقويته – وهى الأشياء التى تُسمى المشدات أو الكورسيهات، وتقوم برسم شنب على وجه الموديلات التى تبدو بشرتها وكأنها قد طُليتْ بطبقة رفيعة من جصّ له لون بيج، وتقوم بالرسم بالقلم الرصاص، حيث ترسم الشعر تحت أذرع الموديلات وعلى صدورهن فى المساحة ما بين الثديين، وتقرأ الأوصاف بصوت مرتفع مع الشّخر فى ضحكات مكتومة: "مزركشة على نحو رائع بشريط أنيق مع وجود مزيد من

أقرأناكموه

الدعامات بالنسبة للهيكل الناضج وذلك يعنى: بالنسبة للثديين الكبيرين، انظرن إلى هذا الحجم... إنه حجم الفنجان، إنه يشبه فنجان الشاى!".

الصدر والثديان يثيران انبهار كورديليا علاوة على إثارة سخريتها، أختاها الأكبر منها لهما ثديان ناضجان حاليًا، وبردى وميرى تجلسان فى غرفتهما التى بها سريران متماثلان وحاشيات من نسيج الموسلين القطنى الرقيق المزدان بالأغصان، وتقومان بتنعيم أظافرهما بالمبرد مع الانخراط فى ضحكات خافتة، أو تقومان بتسخين الشمع البنىّ اللون فى أوانٍ صغيرة بالمطبخ وتذهبان به إلى الطابق العلوى لكى تنشرانه على سيقانهما، وهما تنظران فى المرايا الخاصة بهما ويظهر عليهما عدم الرضا : "إننى أشبه هاجس ماك باجيس! إنها اللعنة!"، وتفوح سلات المهملات الخاصة بهما برائحة تشبه الزهور الذابلة.

وتقولان لكورديليا إنها صغيرة للغاية فى السن بحيث لا يمكن لها أن تفهم بعض الأشياء، وبعدئذ تقولان لها هذه الأشياء على كل حال، وتقوم كورديليا – فى صوت هامس وفى عينين متسعتين – بنقل الخقائق إلينا: "اللعنة تظهر عندما ترشح الدماء من بين ساقيك"، ونحن لا نصدقها، فتقدّم لنا الدليل: "إنها فوطة صحية مسروقة من سلة المهملات الخاصة ببردى، وتوجد على هذه الفوطة قشرة جافة بنية اللون شبيهة بالصلصة الجافة"، فتقول جريس فى اشمئزاز: "هذه ليست دماء" وهى على حق فهذه الدماء لا تشبه الدماء التى تنبثق عندما تجرح إصبعك، وتشعر كورديليا بالسخط، ولكنها لا تستطيع تقديم البرهان الساطع والدليل القاطع.

لم أكن قد فكرت كثيرًا فى أجساد النساء الناضجات من قبل، ولكن هذه الأجساد تتكشف لى حاليًا فى مظهرها الحقيقى المزعج غريبة ومغايرة وشاذة ومليئة بالشعر وليّنة وشديدة البشاعة، ونتسكّع عند الباب المغلق لغرفة بردى وميرى؛ حيث تقومان فى داخل الغرفة بتقشير وانتزاع الشمع عن سيقانهما مع التأوه فى ألم، ونحاول أن ننظر من خلال ثقب مفتاح الباب مع الانخراط فى ضحكات مكتومة إنهما تسببان لنا الخجل والارتباك رغم أننا لا نعرف السبب فى ذلك، وهما تدركان أن ضحكاتنا بمثابة سخرية منهما، فتجيئان إلى الباب من أجل طردنا بعيدًا: "يا كورديليا، لماذا لا تكفّى أنت وصديقاتك عن إزعاجنا!"، ثم تبتسمان

ابتسامات مليئة بالإنذار بالسوء كما لو كانتا تعرفان بالفعل الأمور المخبأة لنا، وتقولان: "عليكن فقط بالانتظار وترقّب ما سيحدث لكنّ".

وهذا الكلام يخيفنا، فالذى حدث لهما وجعلهما تنتفخان فى تكوّر وليونة وتسيران فى مزيد من البطء كما لو كان يوجد مقود غير مرئى ملفوف حول رقبتهما يكبح جماح سيرهما قد يحدث لنا أيضًا، وننظر فى خلسة إلى صدور النساء بالشارع وإلى صدور مُدرِّساتنا، وإن كنا لا ننظر إلى صدور أمهاتنا القريبة للغاية منا على نحو يزودنا بالمواساة والارتياح، ونتفحص سيقاننا والمساحات تحت أذرعنا بحثًا عن الشعر؛ وذلك من أجل إزالته ونتفحص صدورنا بحثًا عن الانتفاخات والتكورات فى الثديين، ولكن لا يوجد أىّ شىء من هــذا القبيل، فنحن مازلنا فى حالة من الأمن والأمان حتى الآن.

وتقوم كورديليا بتصفح الصفحات الأخيرة من الكتالوج، حيث تكون الصور ذات لون رمادى وأسود، وحيث توجد العكازات والدعامات المتشعبة وأحزمة الفتْق وأدوات الجراحة الترقيعية، وتقول: "أدوات نفخ الصّدر"، وتضيف: "أتشاهدون هذه؟ إنها من أجل نفخ أخواتك لكى يصبحن أكبر حجمًا... مثل منفاخ الدراجة الهوائية"، فلا نعرف ما ينبغى علينا أن نصدقه.

ولا نستطيع أن نسأل أُمهاتنا، فمن الصعب أن نتخيلهن بدون ملابس ومن الصعب أن نفكر فيهن من حيث أنهن لديهن أجسام متوارية تحت فساتينهن، وهناك أمور كثيرة للغاية لا نتحدث عنها أمهاتنا، ويوجد بيننا وبينهن فجوة واسعة آخذة فى التعمق لأسفل باستمرار، وهذه الفجوة مليئة بالصمت وعدم التعبير بالكلمات. إنهن تقمن بتغليف القمامة فى طبقات عديدة من ورق الصحف وربطها بالخيط ورغم كل ذلك تسقط قطرات من القمامة على الأرضية التى صُقلت بالشمع مؤخرًا، وحبال الغسيل الخاصة بملابسهن تكون مليئة بالملابس الداخلية والجوارب الحريمى وقمصان النوم الداخلية التى قمن بغسلها وشطفها من خلال وضع أيديهن فى المياه الرمادية المتخثرة، وهن لديهن معلومات عن فرشاة التواليت وعن مقاعد التواليت وعن الجراثيم. العالم مليء بالقذارة باستمرار مهما بذلن جهودًا مضنية فى أعمال التنظيف، ونحن نعرف أنهن لن يرحبْن بأسئلتنا الصغيرة التى تتعلق بالأمور

القذرة، ومن هنا فإن همسًا مطولاً يدور بيننا متناقلاً من طفلة لطفلة مما يثير المزيد من الرعب.

وتقول كورديليا إن الرجال لديهم جزر موجود بين سيقانهم، وهو ليس جزرًا حقيقيًا، ولكنه شيء ما أسوأ من ذلك، وهو جزر مُغطًى بالشعر، ويخرج المنى من نهاية الجزر ويدخل إلى رحم النساء وينمو ويتحول إلى جنين سواء أرادت المرأة ذلك أم لم ترد، وكورديليا لا توضح كيفية خروج المنى ولا توضح الشكل الذى يكون عليه المنى، وهى تقول إن المنى غير مرئى، ولكنى أعتقد أن هذا لا يمكن أن يكون على ذلك النحو، فإذا كان هناك منى، فلابد أن يكون شبيهًا ببيض الطيور أو شبيهًا ببذور الجزر وبحيث يكون طويلاً وجميلاً، وهى أيضًا لا تستطيع أن تذكر الكيفية التى يدخل بها الجزر فى الرحم لكى يبذر البذور، وسُرَّة البطن هى الاختيار الواضح ولكن الأمر يتطلب أن يكون بالسُرة قطْع أو ثُقْب، والقصة كلها مشكوك فيها، وفكرة أننا أنفسنا قد تمَّ إنتاجنا من خلال عمل كهذا تعتبر بمثابة انتهاك لحرمة المرأة واحتشامها.

وأفكر فى الأسرَّة التى يُفترض أن يحدث عليها كل هذه الأمور: السريران المتماثلان بمنزل كارول واللذان يبدوان دائمًا فى حالة من النظام والترتيب الكامل، والسرير الذى له ظلّه فى منزل كورديليا، والسرير المصنوع من خشب الماهوجانى البنى الضارب إلى الحمرة الموجود بمنزل جريس والذى يبدو عليه الوقار الشديد من خلال مفرشه المحبوك وبطانياته الصوفية، فمثل هذه الأسرة فى حدّ ذاتها هى بمثابة رفض وإنكار لمثل هذه الأمور، وأفكر فى فم أمّ كارول الملتوى وأفكر فى السيدة سميث التى لها تاج من الضفائر المشبوكة بدبابيس الشعر والتى بدأ الشيب يدبّ فيها، إنهما ستقومان بزمّ الشفاه والانسحاب بطريقة مليئة بالوقار، لأنهما لن تسمحا بحدوث شيء من هذا القبيل لهما.

وتقول جريس: "الله هو الذى يخلق الأطفال الرضَّع" بتلك الطريقة الحاسمة الخاصة بها والتى تعنى أنه لا يوجد هناك أىّ شيء آخر يمكن مناقشته، وتبتسم بتلك الابتسامة الخاصة بها المزمومة المليئة بالازدراء، وتعود إلينا الطمأنينة، فمن الأفضل أن نرجع هذه الأمور إلى الله ولا نرجعها إلينا.

ولكن هناك شكوك، فأنا أعرف – على سبيل المثال – الكثير من الأشياء. أعرف أن كلمة الجزر ليست هى الكلمة الصحيحة، كما أننى سبق لى أن شاهدت اليعسوب والخنافس وهى تطير فيما حولها وتلتصق مع بعضها بحيث تكون إحداهما على ظهر الأخرى، وأعرف أن هذا الوضع يُسمى: التزاوج **mating**، ولدىّ معلومات عن الحشرات حاملات البيض والتي تضع بيضها على الأوراق أو على اليرقات أو على سطح الماء فذلك موجود بالفعل على الصفحة التي تتناول الرسومات التخطيطية للحشرات والتى يقوم والدى بتصحيحها فى المنزل، ولدى معلومات عن ملكات النحل وعن حشرات فرس النبى المتضرعة الأنثوية التى تقوم بأكل الذكور، ولا شيء من كل هذا يعطى توضيحًا كافيًا، أفكر فى السيد والسيدة سميث وقد أصبحا فى حالة من العرى التام مع التصاق السيد سميث بالجزء الخلفى من السيدة سميث، ومثل هذه الصورة الذهنية – حتى بدون إضافة الهروب – لن توضح الأمور.

وكان بمقدورى أن أسأل أخى، ولكن على الرغم من أننا قد تفحصنا سويًا جَرَب النبات ومربى أصابع القدم تحت الميكروسكوب، وعلى الرغم من أننا لا ننزعج من عيون الثور المحفوظة فى محلول حمضى أو من السمك الذى أُخرجت أحشاؤه، بل ولا ننزعج من كل الأشياء التى يمكن العثور عليها تحت الكتل الخشبية المتعفنة، فإن توجيه مثل هذا السؤال إليه سيكون أمرًا غير متسم بالاحتشام بل وقد يكون ضارًا ومؤلمًا، وأفكر فى كلمة "جوبتر **Jupiter**" التى كتبها على الرمال فى خط ذى زاوية مستخدمًا إصبعه الإضافى البارع، ووفقًا لما تقوله كورديليا، فإن ذلك الإصبع سيصبح فى نهاية الأمر مُغطًى بالشعر، وربما هو لا يعرف هذه الحقيقة.

وتقول كوردليليا إن الأولاد يضعون ألسنتهم في داخل فمك عندما يقبّلونك. ليس أىّ من الأولاد الذين نعرفهم ولكن أولاد أكبر سنًا، وتقول هذا بالطريقة نفسها التى يقول بها أخى كلمة"عصير مُسْكر"**slug juice**" أو كلمة "المخاط الأنفى **snot**" عندما تكون كارول موجودة عن كثب وتفعل كارول الشيء نفسه وتجعيدة الأنف ،

أقرأناكموه

نفسها والتلوى والتمعج نفسهما، وتقول جريس إن كورديليا تكون دائمًا مثيرة للقرف والاشمئزاز.

أفكر فى البصاق الذى تشاهده أحيانًا فى قلب المدينة فوق أرصفة المشاه بالشوارع، أو أفكر فى لسان البقر الموجود فى محلات الجزارة، لماذا يرغبون فى عمل شىء كهذا، وبحيث يضعون ألسنتهم فى داخل أفواه ناس آخرين؟ لمجرد أن يكونوا مثيرين للاشمئزاز بالطبع أو لمجرد أن يشاهدوا ما يمكن لك أن تفعله.

* * *

(١٨)

أصعد على سلالم القبو التى يلتصق بها مطّاط أسود اللون من خلال التثبيت بالمسامير، السيدة سميث واقفة عند حوض المطبخ مرتدية مريلتها التى تغطى صدرها، إنها قد حصلت على سِنة من النوم وهى الآن منتصبة القامة وتعدّ طعام العشاء، إنها تقوم بتقشير البطاطس وهى فى معظم الأحيان تقوم بتقشير الأشياء. القشر يتساقط من يديها الكبيرتين المليئتين بالمفاصل البارزة على شكل لولب حلزونى طويل شاحب، وسكينة التقشير التى تستخدمها بالية ورفيعة للغاية، حتى إن نصلها لا يكاد يزيد عن كونه شظية شبيهة بالهلال. المطبخ ملىء بالبخار وبرائحة نخاع العظام ورائحة العظام المطهية بالغلى على نيران هادئة.

تستدير السيدة سميث وتنظر إلىَّ بينما توجد فى يدها اليسرى ثمرة بطاطس تمَّ تقشيرها وفى يدها اليمنى سكينة، وتبتسم لى وتقــول: "جريس تقول لى إن أسرتك لا تذهب للكنيسة"، وتضيف: " وربما تكون لديك الرغبة فى المجىء معنا إلى الكنيسة الخاصة بنا".

وتقول جريس التى كانت قد صعدت على السلالم خلفى: "نعم"، والفطرة تدخل السرور على نفسى، فأنا سوف أستخوذ على جريس بمفردى في الأوقات الصباحية من أيام الأحد وبدون أن توجد معنا كارول أو كورديليا، فجريس ما زالت هى البنت المفضلة... البنت التى نريدها جميعًا.

عندما أتحدث مع والدىّ عن هذه الخطة يساورهما القلق والانزعاج، وتقول والدتى: "أأنت متأكدة من أنك ترغبين حقًا فى الذهاب؟"، وهى تقول لى إنها عندما كانت فتاة صغيرة كان عليها أن تذهب إلى الكنيسة سواء رغبت فى ذلك أم لا، إذ كان والدها صارمًا للغاية، ولم يكن بمقدورها أن تصفّر بفمها فى أيام الأحد. وتقول: "هل أنت متأكدة حقًا من أنك لديك الرغبة فى الذهاب للكنيسة؟".

ويقول والدى إنه لا يؤمن بعمل غسيل للمخ للأطفال، فالطفل عندما يشب عن الطوق ويصبح ناضجًا يمكن له أن يتخذ قرارًا بنفسه فيما يتعلق بالدين الذى كان مسئولاً عن حروب كثيرة ومذابح هائلة من وجهة نظره علاوة على تسببه فى التعصّب الأعمى وعدم التسامح، ويقول: "كل شخص متعلم ينبغى عليه أن يعرف الإنجيل" ويضيف: "ولكن عمرها ثمانى سنوات فقط".

فأقول: "عمرى تسع سنوات تقريبًا"، فيقول والدى: "حسنًا، لا تصدقى كل شىء تسمعينه".

فى يوم الأحد أرتدى الملابس التى تم اختيارها بمعرفتى وبمعرفة أمى: فستانًا من نسيج صوفى مربع النقش له لون أزرق داكن وأخضر علاوة على جورب طويل أبيض مضلّع يتثبت بأربطة على صُدْرتى القطنية البيضاء الناشفة، لدى المزيد من الفساتين أكثر مما كان لدىّ فى أىّ وقت مضى، ولكننى لا أذهب للتسوّق والشراء مع والدتى ومساعدتها فى اختيار الفساتين مثلما تفعل كارول؛ فأمى تكره الذهاب للتسوق وشراء الملابس كما أنها لا تمارس أعمال الخياطة؛ فملابس البنات الخاصة بى ملابس قديمة ومستعملة منحتها صديقة لأمى لديها ابنة أكبر حجمًا منى، ولا يتلاءم أىّ فستان من تلك الفساتين على مقاسى على نحو جيّد تمامًا، فالحواشى والأهداب تكون متدلية والأكمام تكون منتفخة تحت ذراعىّ.

أقرأناكموه

وأعتقد أن هذا هو النموذج المعيارى للفساتين، ولكن الجوارب البيضاء جديدة، بل ومثيرة للحك والأكلان أكثر من الجوارب البنية التى أرتديها لدى ذهابى للمدرسة.

أستخرج قطعة رخام عين القطة ذات اللون الأزرق من كيس النقود البلاستيك الأحمر الخاص بى وأضعها فى درج مكتبى وأضع بدلاً منها فى كيس النقود قطعة النيكل النقدية من فئة خمسة سنتات والتى أعطتها والدتى لى من أجل الطبق الذى يُدار به فى الكنيسة من أجل جمْع التبرعات، وأسير على طول الشوارع المليئة بالحفر فى اتجاه منزل جريس وأنا مرتدية حذائى العادى، حيث لم يحن الوقت الملائم لارتداء الحذاء ذى الرقبة، تفتح جريس بابها الرئيسى الأمامى عندما أدق الجرس، من المؤكد أنها كانت فى انتظارى، وهى مرتدية أيضًا فستانها وجوربها الأبيض بينما الأطواق ذات اللون الأزرق الفاتح موجودة فى نهايات ضفائرها، وتتفحصنى ثم تقول: "إنها لا ترتدى قبعة".

وتنظر السيدة سميث الواقفة فى الرواق إلىَّ كأننى فتاة يتيمة قد تُركت عند عتبة بابها الأمامى، وتبعث بجريس إلى الدور العلوى للبحث عن قبعة أخرى، وتعود جريس ومعها قبعة قديمة مصنوعة من المخمل الأزرق الداكن وبها شريط من المطاط أسفل الذقن، والقبعة صغيرة للغاية بالنسبة لرأسى ولكن السيدة سميث تقول إن هذه القبعة ستفى بالغرض المطلوب مؤقتًا، وتقول: "نحن لا نذهب إلى كنيستنا دون أن تكون رؤوسنا مغطاة" وتركز على كلمة "كنيستنا" كما لو كانت هناك كنائس أخرى أقل شأنًا تسمح لروادها بالمجىء إليها برؤوس عارية.

والسيدة سميث لها أخت ستجىء معنا إلى الكنيسة، وهى تُسمى: الخالة ميلدريد، وهى أكبر سنًا من السيدة سميث، وكانت تعمل مبشّرة فى الصين، وهى لها الأيدى نفسها ذات المفاصل البارزة الحمراء والنظّارة نفسها ذات الإطار المعدنى وتاج الشعر نفسه مثل السيدة سميث باستثناء أن شعرها كله قد أصبح أشيب، كما أن الشعر على وجهها أشيب أيضًا وأكثر وفرة، وهما لديهما قبعتان تشبهان عبوتين من اللباد تم حزمهما فى إهمال مع بزوغ نهايات عديدة على الخارج فى الهواء. لقد سبق لى مشاهدة قبعات مماثلة تنتمى لسنوات عديدة مضت فى كتالوجات إيتون وقد ارتدتها موديلات لهن شعر مُمشّط للخلف وعظام للوجنة

عالية ولهن أفواه حمراء داكنة لامعة، وهاتان القبعتان الموجودتان على رأس السيدة سميث وأختها لا يكون لهما التأثير نفسه.

وعندما ينتهى جميع أفراد أسرة سميث من ارتداء معاطفهم وقبعاتهم نستقل سيارتهم. السيدة سميث والخالة ميلدريد تجلسان فى المقعد الأمامى بينما أجلس أنا وجريس وأختاها الصغيرتان فى المقعد الخلفى بالسيارة، وعلى الرغم من أننى ما زلت أعبد جريس، فإن هذه العبادة ليست فيزيقية على الإطلاق، ونظرًا لأننى محشورة فى المقعد الخلفى وملتصقة للغاية بجريس، فإن ذلك يسبب لى الخجل والارتباك، وأمام وجهى مباشرة يقوم السيد سميث بقيادة السيارة، وهو رجل قصير وأصلع الرأس، وهو نادرًا ما يُشاهد، شأنه فى ذلك شأن والد كارول ووالد كورديليا، ففى الحياة اليومية بالمنازل يكون الآباء غير مرئيين إلى حدّ كبير.

ننطلق بالسيارة فى الشوارع شبه الشاغرة فى يوم الأحد متتبعين خطوط الترام المتجهة غربًا، الهواء فى داخل السيارة ملىء بأنفاس عائلة سميث والتى لها رائحة كريهة شبيهة برائحة اللعاب المجفف، والكنيسة كبيرة ومشيدة من الطوب الأحمر. وبدلاً من وجود صليب فوق قمتها يوجد شىء ما يشبه البصلة التى تتحرك فى استدارة، وأتساءل عن هذه البصلة التى قد ترمز إلى شىء ما له طابع دينى، ولكن جريس تقول لى إنها ليست سوى مروحة للتهوية.

ويوقف السيد سميث السيارة فى المكان المخصص لوقوف السيارات ونخرج من السيارة، وندخل إلى الكنيسة، ونجلس فى صف على مقعد طويل مصنوع من الخشب اللامع الداكن وتقول جريس عن ذلك المقعد إنه يسمى: مقعد كنيسى **pew**. هذه أول مرة أدخل فيها إلى كنيسة. يوجد سقف عالٍ، وتوجد أنوار لها شكل تألقات الصباح متدلية لأسفل على سلاسل، كما يوجد صليب من الذهب فى أعلى الجزء الأمامى مع وجود زهرية مليئة بالأزهار البيضاء، وخلف ذلك توجد ثلاث نوافذ لها زجاج مُلوَّن، والنافذة الكبيرة الموجودة فى الوسط بها لوحة للسيد المسيح المرتدى ثيابًا بيضاء وقد امتدت يداه على جانب مع وجود طائر يرفرف فوق رأسه، وتحت هذه اللوحة توجد عبارة "مملكة الرب موجودة فى داخل كيانك". وعلى الجانب الأيسر توجد لوحة للسيد المسيح جالسًا على جنب فى رداء أحمر/ وردى بينما

أقرأناكموه

طفلان يستندان على ركبتيه، وتحت هذه اللوحة توجد عبارة "معاناة الأطفال الصغار"، وتوجد هالة حول السيد المسيح فى هاتين اللوحتين، وعلى الجانب الآخر توجد لوحة لامرأة مرتدية ثوبًا أزرق دون هالة مع وجود منديل أبيض يغطى جانبًا من وجهها، وهى تحمل سلّة وتمدّ إحدى يديها لأسفل، ويوجد رجل جالس عند قدميها مع وجود ضمادة ملفوفة حول رأسه، وتحت هذه اللوحة عبارة "أعظم هذه الأمور هو الإحسان"، والنوافذ يدخل إليها الضوء من الخلف مما يؤدى إلى إنارتها ولا أستطيع أن أُحوّل بصرى عنها إلاّ بصعوبة، ثم تتصاعد موسيقى الأرغُن، فيقف كل شخص، وأصبح فى حالة من الارتباك، وأرقب ما تفعله جريس، فأقف عندما تقف وأجلس عندما تجلس، وأثناء الترنم بالأناشيد تمسك جريس بكتاب التراتيل وتتابع بإصبعها، ولكننى لا أعرف أىّ لحن من هذه الألحان، وبعد فترة وجيزة جاء الوقت لكى نذهب إلى "مدرسة الأحد"؛ ولذلك نخرج مع الأطفال الآخرين فى طابور ونهبط إلى البدروم بالكنيسة.

وعند المدخل المؤدى إلى مكان "مدرسة الأحد" توجد سبورة قد طبع عليها شخص ما بالطباشير الملون عبارة: كيلروى كان هنا **KILROY WAS HERE**. وبجوارها يوجد رسم لعينى وأنف رجل ينظر من فوق سور.

ومدرسة الأحد مكونة من حجرات دراسية شأنها شأن المدرسة العادية، ولكن المُدرِّسات أصغر سنًّا، ومدرِّستنا تحت سن العشرين وترتدى قبعة وخمارًا لهما لون أزرق فاتح، وفصلنا لا يضمّ سوى البنات، وتقرأ لنا المدرسة قصة إنجيلية عن يوسف ومعطفه المتعدّد الألوان، وبعدئذ تصغى بينما تقوم البنات بتلاوة أشياء من المفترض أن يكن قد حفظنها عن ظهر قلْب، أجلس على الكرسى الخاص بى وقد تدلت ساقاى، إننى لم أحفظ عن ظهر قلب أى شىء، فتبتسم المدرّسة لى وتقول إنها تأمل لى أن أجىء فى كل أسبوع.

وبعدئذ يذهب تلاميذ وتلميذات الفصول المختلفة كافة إلى غرفة كبيرة بها صفوف من المقاعد الخشبية الرمادية شبيهة بالمقاعد التى نجلس عليها بالمدرسة من أجل تناول طعام الغداء، وبعد أن نجلس على هذه المقاعد تُطفأ الأنوار، ويتم عرض سليدات ملونة على الحائط الشاغر عند الطرف البعيد للغرفة، والسليدات

ليست صورًا فوتوغرافية ولكنها عبارة عن لوحات ورسومات من طراز عتيق على ما يبدو. اللوحة الأولى تبيّن فارسًا ممتطيًا جوادًا ومتجولاً فى أرجاء الغابة ومحملقًا لأعلى إلى حيث يوجد بصيص من الشعاع المتغلغل لأسفل بين الأشجار، وبشرة هذا الفارس بيضاء للغاية وله عينان واسعتان تشبهان عينى فتاة، ويده موضوعه في انضغاط فى المكان الذى يوجد فيه قلبه تحت الدرع الحربى الخاص به والذى يشبه حاجز الاصطدام الخاص بالسيارات، وتحت وجهه الكبير المضىء أستطيع مشاهدة المفاتيح الكهربائية والألواح التى تُكسى بها الجدران الداخلية علاوة على مشاهدة الركن الخاص بالبيانو الصغير.

والصورة التالية بها الفارس نفسه ولكنه أصغر حجمًا، وتحته بعض الكلمات التى نتغنّى بها مع الأصوات المكتومة الثقيلة الوترية الصادرة عن البيانو غير المرئى:

سأكون صادقًا لأنه يوجد أولئك الذين يثقون فىَّ.

سأكون نقيًّا لأنه يوجد أولئك الذين يهتمون بى.

سأكون قويًّا لأنه توجد هناك الكثير من الأمور التى يعانى منها الإنسان.

سأكون شجاعًا لأنه توجد هناك الكثير من الأمور التى يخاف منها الإنسان.

وإلى جوارى فى الظلام أسمع صوت جريس مترنمًا فى صعود وهبوط ورفيعًا ومزماريًا مثل صوت طائر، إنها تعرف جميع الكلمات، حيث سبق أن حفظتها من الإنجيل عن ظهر قلب، وعندما نحنى رؤوسنا للصلاة أشعر أننى قد امتلأتُ بالطيبة والتقوى والصلاح وأننى مُقَرَّبة إلى الله، وأشعر أن الربّ يحبنى أيًّا كانت نوعية ذلك الربّ.

وعقب الانتهاء من "مدرسة الأحد" نرجع إلى الكنيسة من أجل إنجاز الجزء الأخير، فأقوم بوضع قطعة النيكل من فئة الخمسة سنتات الخاصة بى فى طبق الصدقات، وبعدئذ يوجد شىء ما يُسمى: تسبيحة شكر الله **Doxology**، وأخيرًا نمشى خارجين من الكنيسة وعائدين إلى سيارة عائلة سميث، وتقول جريس فى حرص

وحذر: "يا والدى، هل يمكن لنا الذهاب لمشاهدة القطارات؟"، ثم تقول الفتاتان الصغيرتان فى حماس: "نعم، نعم، نعم".

فيقول السيد سميث: "هل كنتما طيبتين؟" فتقول الفتاتان الصغيرتان مرة أخرى: "نعم، نعم، نعم"، فيصدر عن السيدة سميث صوت غامض غير محدّد المعانى، ولكن السيد سميث يقول للفتاتين الصغيرتين: "أوه، وهو كذلك"، ثم يتجه بالسيارة جنوبًا بين الشوارع الشاغرة وعلى طول قضبان الترام إلى أن نشاهد أخيرًا البحيرة الرمادية المنبسطة على مسافة، وتحتنا وفوق حافة صخرة منخفضة نشاهد سهلاً رماديًا منبسطًا ومغطى بقضبان القطارات، وعلى هذا السهل المغطى بالمعدن تسير قطارات عديدة فى بطء جيئةً وذهابًا، ولأن اليوم هو يوم الأحد ولأن هذا روتين يتكرر عقب انتهاء أسرة سميث من تأدية مراسم الكنيسة في كل يوم من أيام الأحد تتكون لدىَّ فكرة بأن قضبان القطارات وكذلك القطارات السباتية الكسولة الثقيلة الحركة لها علاقة من نو ع ما بالربّ، كما يتضح لى أيضًا أن الشخص الذى يرغب حقًا فى مشاهدة القطارات ليس جريس أو إحدى الفتاتين الصغيرتين وإنما هو السيد سميث نفسه.

نجلس فى داخل السيارة الواقفة ونرقب حركة القطارات إلى أن تقول السيدة سميث إن الغذاء سيعرَّض للتلف، وبعدئذ نتجه بالسيارة عائدين إلى منزل جريس.

تُوجه لى الدعوة بتناول طعام الغداء. هذه هى أول مرة أبقى فيها بمنزل جريس لكى أتناول طعام الغداء، وقبل تناول الطعام تصطحبنى جريس إلى الدور العلوى حتى يمكن لنا أن نغسل أيدينا، فأعرف شيئًا جديدًا يتعلق بمنزلها، فأنت لا يُسمح لك باستخدام أكثر من أربع أوراق تواليت مربعة الشكل، كما أن الصابون بالحمام له ملمس خشن ولون أسود، وتقول جريس إنه صابون القطران.

طعام الغداء يتكون من لحوم فخذ الخنزير المخبوزة والفاصوليا المخبوزة والبطاطس المخبوزة والهريسة المنسحقة، ويقوم السيد بتقطيع اللحوم إلى شرائح وتضيف السيدة سميث الخضروات، ثم توزع الأطباق على الحاضرين، وتنظر أختا جريس الصغيرتان إلىَّ من خلال نظارتيهما عندما أبدأ في تناول الطعام.

وتقول الخالة ميلدريد: "نحن نقول جريس grace[*] فى هذا المنزل" وهى تبتسم فى حزم ووقار، فلا أعرف الشىء الذى تتحدث عنه، وأنظر إلى جريس: لماذا يرغبون فى ذِكر اسمها؟ ولكنهم يقومون جميعًا بإحناء رؤوسهم ويضمون الأيدى وتقول جريس: "من أجل ما نحن بصدد تناوله من طعام، فليجعلنا الرب شاكرين له فى صدق، آمين" ويقول السيد سميث: "طعام طيّب وشراب طيّب، ورب طيّب، هيا نبدأ فى تناول الطعام" ثم يغمز لى بعينه، فتقول السيدة سميث: "يا لويد Lloyd" فتصدر عن السيد سميث ضحكة خفيفة تآمرية.

وعقب الانتهاء من تناول طعام الغذاء أجلس أنا وجريس فى غرفة المعيشة على الكنبة الطويلة المخملية وهى الكنبة نفسها التى تنام عليها السيدة سميث من أجل الحصول على سِنة من النوم أو إغفاءات خفيفة من النوم، لم يسبق لى أن جلستُ على تلك الكنبةَ من قبل فأشعر أننى جالسة على شىء ما مخصص لغرض معين مثل عرش أو نعش، ونقرأ الكتيّب الخاص بمدرسة الأحد والذى يضم قصة يوسف، علاوة على قصة حديثة عن ولد يسرق النقود من طبق التبرعات، ولكنه يتوب إلى الله، ويندم على ما فعل، والصور فى هذا الكتيب هى رسومات باللون الأبيض والأسود استخدم فيها القلم والحبر، ولكن على الغلاف توجد صورة ملونة للسيد المسيح فى رداء فاتح اللون وقد أحاط به أطفال لهم ألوان مختلفة بنية وصفراء وبيضاء وكلهم فى غاية النظافة والوسامة وقد أمسك بعضهم بيد السيد المسيح بينما راح الآخرون يحملقون لأعلى نحوه بعيون واسعة مليئة بالخشوع والتعبّد، وهذه الصورة للمسيح لا توجد بها هالة.

السيد سميث ينام نومًا خفيفًا فى الكرسى المريح ذى اللون الأحمر الداكن وقد تصاعد كرشه المستدير لأعلى فى انتفاخ، ومن المطبخ تترامى قعقعة الآنية الفضية؛ إذ تقوم السيدة سميث والخالة ميلدريد بغسل الأطباق.

أصل إلى منزلى فى وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر، ومعى كيس نقودى البلاستيك الأحمر وكتيّب مدرسة الأحد الخاص بى، وتتساءل أمى وهى ما زالت تموج بتلك المسحة من القلق نفسها: "هل أعجبك ذلك؟".

ويقول والدى: "هل تعلمتِ أىّ شىء؟"

(*) طقس دينى يُعرف بـــ "صلاة المائدة". (المترجم)

أقرأناكموه

فأقول فى اهتمام: "ينبغى علىّ أن أحفظ مزمورًا عن ظهْر قلْب"، وتبدو كلمة مزمور **psalm** شبيهة بكلمة السرّ المتعارف عليها، إننى أشعر بقدر قليل من الاستياء، فهناك أشياء ظل والدىّ يحجبانها عنى، وهى أشياء أنا بحاجة لأن أعرفها. ومن بين هذه الأشياء القبعات على سبيل المثال، فكيف أمكن لوالدتى أن تنسى مسألة القبعات؟ الله ليس بمثابة فكرة جديدة تمامًا بالنسبة لى، فالله موجود فى الصلاة الصباحية بالمدرسة، بل وموجود فى عبارة "فلينقذ الله الملك"، ولكن يبدو لى أن كلمة الله لها المزيد من الجوانب الأخرى وبذلك توجد هناك المزيد من الأشياء التى ينبغى حفظها عن ظهْر قلب، والمزيد من الأغانى التى ينبغى أن يتم التّرنم بها، والمزيد من قطع النيكل التى ينبغى وضعها فى وعاء التبرعات وذلك سعيًا للحصول على رضا الله، ولكنى أشعر بالقلق فيما يتعلق بالسماوات **Heaven**، فما العمر الذى سأكون عليه عندما أصل إلى السماوات؟ وماذا لو أننى أصبحتُ عجوزة للغاية عندما أموت؟ لدى وجودى فى السماوات أريد أن أكون فى عمرى الحالى نفسه.

لدىّ نسخة من الإنجيل قد استعرتها من جريس، وهى ثانى أفضل نسخة من الأناجيل الموجودة لديها، أذهب إلى غرفتى وأبدأ فى الحفظ عن ظهر قلْب: "السماوات تعلن عن مجد الله، والقبة السماوية الزرقاء تظهر إبداع الخلْق الإلهى، يومًا وراء يوم تنطق السماوات بالكلام وليلة وراء ليلة تكشف السماوات عن المعرفة".

حتى الآن ما زالت غرفة نومى خالية من الستائر، أنظر إلى الخارج من خلال النافذة وأنظر لأعلى، توجد هنالك السماوات وتوجد هنالك النجوم فى أماكنها المعتادة، ولكنها لم تعد تبدو باردة وشاحبة ونائية مثل الكحول والصوانى المطلية بالمينا، إنها تبدو الآن فى حالة من اليقظة والتيقظ.

***

(١٩)

البنات يقفن فى فناء المدرسة أو فوق قمة التل في مجموعات صغيرة مع الانخراط فى أحاديث هامسة علاوة على القيام بأعمال لف الخيوط على المكبّ، لقد أصبح من المألوف الآن أن يكون لديك مكبّ للخيوط به أربعة مسامير قد دُقّت فى طرف واحد كما يكون لديك كرة من الخيوط الصوفية، وأنت تقوم بعقد أنشوطة من الخيوط الصوفية فوق كل مسمار على التعاقب مع اللف مرتين وتستخدم مسمارًا خاصًا لكى تشبك الأنشوطات السفلية مع الأنشوطات العلوية، ومن عند الطرف الآخر للمكب يتدلى ذيل صوفى سميك مستدير، ومن المفروض أن تقوم بلف ذلك الذيل مثل محارة قوقعة منبسطة وتحيكه لكى يصبح قطعة قماش مخرمة توضع تحت إبريق الشاى، وأنا لدىّ مثل هذا المكبّ وهكذا تفعل أيضًا جريس وكارول، بل وكورديليا رغم أن الصوف الخاص بها عبارة عن حشد مختلط من الخيوط.

وهذه المجموعات من البنات الهامسات مع مكبات الخيوط الخاصة بهن ومع الأذيال الصوفية السميكة الملونة الخاصة بهن ينبغى عليهن إنجاز هذا العمل دون إشراك الأولاد وفى معزل عنهم، فكل مجموعة من البنات تُقصى بعض البنات ولكنها تبعد وتقصى جميع الأولاد، والأولاد يقومون بإقصائنا وإبعادنا أيضًا، ولكنهم يحرصون على أن يكون الإقصاء فعليًّا وصارمًا.

في بعض الأحيان لا أزال أدخل إلى غرفة أخى وأرقد على الأرض وأنهمك فى قراءة الكتب الهزلية الكوميدية، ولكنى لا أفعل ذلك أبدًا إذا كانت توجد أية فتاة أخرى، فأنا عندما أكون بمفردى يتم التسامح معى، ولكن لا يتم التساهل معى إذا كنت ضمن مجموعة من البنات، وهذا الوضع يعتبر من الأمور البديهية.

ذات يوم كنت أنظر إلى الأولاد على أنهم شىء مُسلَّم به، وبذلك كنت معتادة عليهم، ولكنى الآن أحترس أكثر من ذى قبل لأن الأولاد ليسوا الأولاد أنفسهم، فهم – على سبيل المثال – لا يأخذون حمامًا مرات كثيرة على النحو المتوقع لهم؛ ولذلك تفوح منهم رائحة اللحوم الفاسدة ورائحة فروة الرأس ورائحة الجلد؛ حيث تنبعث تلك الرائحة من منطقة الركبة فوق بنطلوناتهم وتنبعث من الصوف ومن

أقرأناكموه

البنطلونات نفسها التى تصل إلى تحت الركبة فقط وتُعقد برباط هناك مثل بنطلونات لاعبى كرة القدم، وعلى الأجزاء السفلية من سيقانهم يرتدون جوارب صوفية سميكة تكون عادة رطبة ومبللة ومتدلية لأسفل، وهم يرتدون على رؤوسهم – أثناء وجودهم خارج المنزل – خوذات جلدية لها شريط تحت الذقن، وملابسهم لها لون كاكى أو أزرق داكن أو رمادى أو أخضر داكن، وهى كلها ألوان لا تُظهر القاذورات، وكل هذا له طابع عسكرى، والأولاد يتفاخرون بملابسهم القذرة وجواربهم المتدلية وبشرتهم الملطخة المتسخة المليئة ببقع الحبر، فالقذارة بالنسبة لهم تعتبر فى مثل روعة الجراح تقريبًا، وهم يحرصون على التصرف بأسلوبٍ الأولاد، وينادون على بعضهم البعض بالأسماء الأخيرة الخاصة بهم، ويثيرون الانتباه نحو أىّ ابتعاد عن النظافة، فيقولون مثلاً: "هاى، روبنصون! امسحْ المخاط من أنفك!" أو يقولون: "مَنْ الذى صدر عنه الضُّراط؟"، وهم يقرصون ذراع بعضهم البعض ويقولون: "لقد فهمتُ ما تهدف إليه"، ودائمًا ما يبدو عددهم بالغرفة أكبر من عددهم الحقيقى.

وأخى يقرص الأذرع ويدلى بملاحظات تتعلق بالروائح مثل بقية الأولاد، ولكنه لديه سرّ خاص به، وهو ليس على استعداد على الإطلاق لأن يفشى هذا السرّ لهؤلاء الأولاد الآخرين ؛ وذلك بسبب الطريقة التى قد يضحكون بها، وهذا السرّ هو أنه لديه صديقة **girl friend**، وهذه الصديقة منعزلة للغاية، حتى إنها هى نفسها لا تعرف أىّ شىء عن ذلك السرّ، وأنا الوحيدة التى قال لها أخى ذلك السرّ، ولقد أقسمتُ له بألاّ أفشى ذلك السّر لأى شخص آخر، وحتى عندما أكون أنا وأخى بمفردنا، فإنه لا يُسمح لى بأن أشير إلى صديقته باسمها، ولكن يمكن لى الإشارة إلى الحروف الأولى من اسمها وهى: **B.W.** وأحيانًا يتمتم أخى بهذين الحرفين الاستهلاليين عندما يوجد أناس آخرون معنا مثل والدىّ على سبيل المثال، وعندما يذكر هذين الحرفين، فإنه يحملق فى وجهى وينتظر منى أن أومئ برأسى أو أعطى إشارة تفيد بأننى قد سمعت وفهمت، وهو يكتب لى رسائل شفرية ويتركها لى فى مكان واضح بحيث يسهل لى الحصول عليها، يتركها تحت وسادتى أو مشبوكة فى الدرج العلوى بمكتبى، وعندما أقوم بفك شفرة هذه الرسائل تبدو لى

غير معبّرة عن شخصيته؛ إذ تنقصها الخيال المبدع، بل وتتسم بالسخافة الشديدة حتى إننى لا أكاد أصدق ما أقرؤه: "لقد تحدثتُ مع ب.و..B.W" أو: "لقد شاهدتها اليوم"، وهو يكتب هذه الرسائل بالأقلام الملونة وبألوان مختلفة متباينة مع وضع علامات التعجب.

وباستطاعتى أن أدرك أن هذه الصديقة تسبب له بعض الكرب والآلام النفسية علاوة على شيء من الإثارة، ولكننى لا أستطيع فهْم السبب في ذلك، وأنا أعرف مَنْ تكون هى، فاسمها الحقيقى هو: بيرتا واتسون **Bertha Watson**، وهى تتسكّع مع فتيات أكبر منها سنًا على التل تحت أشجار التنوب المعوقة النمو، ولها شعر بنى غير مجعّد مع وجود خصلة من الشعر مقصوصة فوق جبينها، وهى لها حجم عادى، ولا أستطيع مشاهدة جاذبية معينة خاصة بها أو أىّ نوع من أنواع التفرّد الشديد، وأودّ أن أعرف كيف تمكنتْ من أن تخدع أخى وتحوله إلى شخص أكثر غباءً وأكثر اتسامًا بالقلق والتوتر.

ونظرًا لأننى الوحيدة التى اختيرت لكى تعرف هذا السرّ، فإن ذلك يجعلنى أشعر بأهمية على نحو ما، ولكنها أهمية سلبية، إنها أهمية قصاصة ورق شاغرة؛ فأنا باستطاعتى أن أعرف لأننى ليس لى اعتبار أو وزن أو أهمية كبيرة.

أشعر أننى قد تم اختيارى لكى أعرف ذلك السرّ، ولكننى أشعر أيضًا أننى قد تُركت حزينة ووحيدة، كما أشعر أيضًا أننى أوفر له الحماية لأننى لأول مرة فى حياتى أحس أننى مسئولة عنه، إنه فى خطر وأنا لدى نفوذ وسلطان عليه، ويخطر على ذهنى أن بمقدورى أن أفشى سره وأجعله عُرضةً للسخرية، فأنا لدىّ ذلك الاختيار، إنه واقع تحت رحمتى وأنا لا أريد إفشاء سره، كل ما أريده له أن يعود إلى الطريقة التى كان عليها ودون أن يحدث له أىّ تغيّر ودون أن يكون عرضة للقهر والانهزام.

وهذه الفتاة الصديقة لا تدوم لفترة طويلة، فبعد مرور بعض الوقت تختفى ولا تتوارد أية معلومات عنها، ويهزأ بى أخى مرة أخرى أو يتجاهلنى، فهو يتولى السلطة والمسئولية والإشراف مرة أخرى، ويحصل على جهاز كيميائى ويقوم

بإجراء التجارب فى البدروم، وتتسلّط على ذهنى فكرة، وهى أننى أفضل الجهاز الكيماوى على صديقته تلك، فهناك أشياء تغلى على نيران هادئة وهناك روائح كريهة للغاية وبعض الانفجارات الكبريتية، وبعض الأشياء الخادعة المذهلة، وهناك كتابات سرية غير مرئية تظهر إذا قرَّبت الورقة من شمعة، بل ويمكن لك أن تجعل بيضة مسلوقة تمامًا تتخذ الطابع المطاطى بحيث يمكن إدخالها فى زجاجة لبن وإن كان إخراجها مرة أخرى يعتبر أكثر صعوبة، والتعليمات تقول: "حوّل الماء إلى دماء واجعل أصدقاءك يصابون بالذهول الشديد".

وهو ما زال يقايض على الكتب الهزلية، ولكن مع بذل مجهود أقل من شرود الذهن، ولأن اهتمامه بالحصول على الكتب الهزلية أصبح أقل، فإنه يتمكن من المقايضة على نحو أفضل، وتتراكم الكتب الهزلية فى كومات عالية تحت سريره ولكنه نادرًا ما يقرؤها عندما لا يكون الأولاد الآخرون موجودين معه.

* * *

ويستهلك أخى جهاز الكيمياء ويتسبب فى إتلافه، وهو الآن لديه خريطة للنجوم مثبتة بدبابيس على حائط حجرته، وفى الليل يطفئ الأنوار ويجلس بجوار النافذة المظلمة المفتوحة بين طيات البرد وقد ارتدى السويتر الخاص به على بيجامته وينهمك فى الحملقة لأعلى نحو السماء، وهو لديه تلسكوب ثنائى العين خاص بوالدى؛ حيث يُسمح له باستخدامه ما دام سيحرص على لفّ الشريط حول عنقه لكى لا يسقط منه التلسكوب، إن الشىء التالى الذى يريد الحصول عليه هو تلسكوب خاص به.

عندما يسمح لى بالانضمام إليه وعندما يشعر بأن لديه الرغبة فى التكلم معى، فإنه يقوم بتعليمى أسماء جديدة ويحدّد على الخريطة النقاط المرجعية: الجوزاء **Orion** + الدبّ **Bear** + التنين **Dragon** + كوكبة الدجاجة **Swan**، وهذه مجموعات نجوم ثابتة، وكل مجموعة منها تتألف من عدد كبير من النجوم أكبر مئات المرات وأشد سخونة من الشمس الخاصة بنا، ويقول إن هذه النجوم تقع على مسافة سنوات

ضوئية، ونحن فى حقيقة الأمر لا نشاهدها على الإطلاق وإنما نشاهد فقط الضوء الذى صدر عنها منذ مئات وآلاف السنين الضوئية، فالنجوم تشبه أصداء الصوت، أجلسُ هناك مرتدية بيجامتى القطنية وأرتعد من البرد بينما الجزء الخلفى من رقبتى يؤلمنى بسبب الاتجاه برأسى لأعلى والحملقة فى الظلام البارد المتراجع إلى الوراء على نحو لا نهائى فى اتجاه المرجل الأسود الذى تغلى فى داخله النجوم الملتهبة بالنيران، والنجوم الخاصة بأخى مختلفة عن النجوم الواردة بالإنجيل، فهى صامتة وغير معبرة بالكلمات وهى تتوهج فى لهيب صامت. أشعر كأن جسدى يتحلّل فى تفكك وأننى يتم جذبى لأعلى تدريجيًّا مثل ضباب خفيف ينجذب نحو فضاء شاسع شاغر.

ويقول أخى: "السِّماك الرامح **Arcturus**" ، إنها كلمة أجنبية، إنها كلمة لا أعرفها، ولكننى أعرف نغمة صوته: التعرّف والإدراك والاكتمال وشىء ما مضاف إلى مجموعة، أفكر فى برطماناته المليئة بقطع الرخام والتى كانت لديه فى فصل الربيع وأفكر فى الطريقة التى أسقط بها قطع الرخام فى البرطمان الواحدة تلْو الأخرى مع القيام بالعدّ والإحصاء، أخى يقوم بالجمع مرة أخرى، إنه يجمع النجوم.

* * *

(٢٠)

فرْو القطط السوداء واليقطين المطبوع على ورق يتجمع على نوافذ المدرسة، وفى عشية عيد جميع القديسين ترتدى جريس فستانًا عاديًا وترتدى كارول ثوبًا له طابع الجنّ والعفاريت وترتدى كورديليا بذلة شبيهة ببذلة المهرّج، وأنا أرتدى ملاءة لأن ذلك هو الموجود، ونسير من باب وقد امتلأت حقائب البقالة الورقية البنية الخاصة بنا بالحلوى وكرات الفشار وحلوى الفول السودانى، مع التغنّى عند

أقرأناكموه

كل باب: "ادفعوا الأموال، ادفعوا الأموال، إن الساحرات قد خرجْن"، وفى النوافذ الأمامية وعلى الشرفات تطفو الرؤوس البرتقالية الكبيرة فى توهج وفى تحرّر من الجسد، وفى اليوم التالى نأخذ اليقطين الخاص بنا إلى الكوبرى الخشبى ونلقى به من فوق الحافة ونشهده وهو يتهشّم على الأرض أسفلنا، نحن الآن فى شهر نوفمبر.

كورديليا تقوم بحفر حفرة فى حديقتها الخلفية التى لا توجد بها مروج خضراء، لقد شرعتْ فى حفر العديد من الحفر من قبل، ولكن الحفر كان غير موفّق لأنه كان يصطدم بطبقة صخرية، أمّا هذه الحفرة الجديدة فهى تبشّر بالنجاح. وهى تستخدم جاروفًا فى عملية الحفر، ونحن نساعدها فى بعض الأحيان، والحفرة ليست صغيرة وإنما هى كبيرة ومربعة الشكل، وتصبح أكثر عمقًا لدى تصاعد الطين فى كومات عالية حولها، وتقول كورديليا إنه يمكن لنا استخدام الحفرة كمنتدى أو نادى، ويمكن لنا أن نضع الكراسى فى أسفل الحفرة ونجلس عليها، وعندما تصبح الحفرة عميقة بالقدر الكافى ترغب فى تغطيتها بألواح خشبية لكى تكون بمثابة سقف لها، وهى قد قامت بالفعل بالتقاط ألواح خشبية أو فضلات الأخشاب المتبقية عن المنزلين الجديدين اللذين يتم تشييدهما بالقرب من منزلها. وهذه الحفرة تستحوذ على كل اهتمامات كورديليا حتى إنه أصبح من الصعب إقناعها باللعب فى أية لعبة أخرى.

* * *

فى الشوارع المظلمة تتألق بطاقات الخشخاش ذات اللون الأحمر الفاتح من أجل ذكرى الهدنة، إنها مصنوعة من قماش مزخرف أحمر اللون وشبيهة بهدايا القديس فالنتين مع وجود نقطة سوداء ودبوس فى الوسط، ونحن نرتديها على معاطفنا ونحفظ عن ظهْر قلب قصيدة تتعلق بهذه المناسبة:

فى حقول فلاندرز يزهر الخشخاش
بين الصلبان صفًّا وراء صف

وذلك يحدّد المكان الخاص بنا.

* * *

فى الساعة الحادية عشرة نقف بجوار مكاتبنا وقد أحاطت بنا ذرات غبار أشعة شمس نوفمبر الضعيفة على مدى ثلاث دقائق من الصمت، الآنسة لاملى متجهمة عند الجزء الأمامى بالغرفة والرؤوس منحنية والعيون مغلقة مع الإصغاء لصمت وحفيف أجسادنا ودويّ المدافع المترامى من على مسافات بعيدة، "نحن الموتى"، أظل مغلقة عينىّ مع محاولة الشعور بالتقوى والورع والأسف والحزن على الجنـــود الموتى الذين ماتوا من أجلنا والذين لا أستطيع تخيّل وجوههم لأننى لم يسبق لى أن شاهدتُ أى أناس موتى.

* * *

تصطحبنى كورديليا وجريس وكارول إلى الحفرة العميقة الموجودة بفناء منزل كورديليا، إننى مرتدية فستانًا أسود اللون وعباءة سوداء مأخوذين من دولاب الملابس الرسمية، ومن المفترض لى أننى الملكة مارى ملكة اسكتلندا وقد قُطعت رأسى بالفعل، ويمسكن بى من تحت الإبط ومن القدمين وينزلننى إلى الحفرة، ثم يقمن بوضع الألواح الخشبية فوق الحفرة، ويختفى هواء ضوء النهار وأسمع صوت التراب لدى الإلقاء به فوق الألواح الخشبية من خلال استخدام الجاروف. فى داخل الحفرة الجو مظلم ورطب وبارد وتفوح منه رائحة تشبه رائحة جُحْر الضفادع.

وفوقى بالخارج أستطيع سماع أصواتهن، وبعدئذ لا أستطيع سماعهن على الإطلاق، وأستلقى هنالك وأسائل نفسى فى تعجب: تُرى متى سيجىء الوقت الملائم لإخراجى من هذه الحفرة؟ ولا يتم إخراجى، عندما وُضعتُ فى الحفرة كنت أدرك أنها مجرد لعبة للتسلية، ولكنى أدرك الآن أنها ليست لعبة، فأشعر بالاكتئاب

أقرأناكموه

والحزن وأشعر برائحة الخيانة، ثم أحس بطيّات الظلام وهى تضغط وتطبق علىّ، ثم يجتاحنى رعب هائل.

عندما أعود بذاكرتى للوراء بشأن هذا الوقت الذى أمضيته فى داخل الحفرة لا أستطيع تذكر ما الذى أمضيته فى داخل الحفرة لا أستطيع تذكر ما حدث لى، بل ولا أستطيع أن أتذكر الأحاسيس التى شعرتُ بها بالفعل، ربما لم يحدث أىّ شىء. وربما هذه الأحاسيس التى أتذكرها ليست هى الأحاسيس الحقيقية، وأعرف أن الناس الآخرين قد جاءوا وأخرجونى عقب مرور بعض الوقت وأن اللعبة أو لعبة ما أخرى استمرت، وليس لدىّ أىّ صورة ذهنية عن نفسى وأنا فى داخل الحفرة، ولا يوجد سوى مربّع أسود اللون غير مملوء بأىّ شىء، مجرد مربّع شبيه بالباب، وربما يكون المربع شاغرًا وربما هو ليس سوى مُسجِّل للوقت... بحيث يفصل الوقت السابق على النزول إلى الحفرة عن الوقت اللاحق للنزول إليها، وهى النقطة التى فقدتُ عندها قواى البدنية والعقلية، هل كنتُ منخرطة فى البكاء عندما أخرجونى من الحفرة؟ هذا أمر متوقع على ما يبدو، ومن ناحية أخرى فأنا أشك فى ذلك، ولكنى لا أستطيع التذكر على وجه الدقة.

عقب هذا بفترة قصيرة أصبحتُ فى سنّ التاسعة، باستطاعتى تذكر أعياد ميلادى الأخرى اللاحقة والسابقة، ولكنى لا أستطيع تذكر عيد ميلادى التاسع، من المؤكد أن عيد ميلادى التاسع كان بمثابة حفلة حقيقية أو أول حفلة حقيقية تُقام من أجلى، لأنه مَنْ همْ الذين يمكن لهم أن يكونوا قد جاءوا إلى حفلات أعياد ميلادى الأخرى؟ ومن المؤكد أنه كانت توجد هناك كعكة كبيرة مع وجود شموع وتمنيات علاوة على وجود ربع دولار ودايم **dime** ملفوفين فى ورقة شمعية مخبأة بين طبقات الكعكة من أجل شخص ما لكى تصطدم سنته بها بالإضافة إلى وجود بعض الهدايا، وربما كانت كورديليا موجودة فى الحفلة وكذلك جريس وكارول، فمن المؤكد أن هذه الأشياء قد حدثت، ولكن الأثر الوحيد الذى تركوه علىّ كان هو شعورى برعب غامض وخوف من حفلات عيد الميلاد الخاصة بى وليس حفلات عيد الميلاد الخاصة بالناس الآخرين، أفكر فى المأكولات المخبوزة المغلفة بطبقة من الألوان الفاتحة وأفكر فى الشموع الوردية التى تحترق تحت الضوء الشاحب لفترة ما بعد الظهر من شهر نوفمبر، وعندئذ يوجد إحساس بالخجل والفشل، أغلق

عينى، وأنتظر تجسّد الصور فى داخل ذهنى، إننى بحاجة الآن لأن أملأ المربع الأسود للزمن، وبحاجة لأن أرجع لكى أرى ما هو موجود به، ويبدو الأمر كما لو أننى أختفى فى تلك اللحظة، ثم أظهر من جديد فيما بعد ودون أن أعرف السبب فى أننى قد تغيّرتُ، لو كان بمقدورى مجرد مشاهدة الجوانب السفلية للألواح الخشبية الموجودة فوق رأسى لكان ذلك قد ساعدنى، أغلق عينى، وأنتظر تجسّد الصور.

فى بادئ الأمر لا يوجد أىّ شىء، لا يوجد سوى ظلامٍ متراجع للوراء مثل أنبوبة أو نفق، ولكن بعد برهة زمنية يبدأ شىء ما فى التشكّل: غابة من الأوراق الخضراء الداكنة مع أزهار أرجوانية داكنة علاوة على وجود عناقيد من التوت الأحمر الشبه شفاف مثل الماء، والنباتات المعترشة متداخلة ومتشابكة للغاية فوق النباتات الأخرى، حتى إنها تبدو شبيهة بسياج، وتتصاعد رائحة التربة الطفلية الرملية علاوة على رائحة أخرى حرّيفة ولاذعة من بين الأوراق وهى رائحة أشياء قديمة وكثيفة وثقيلة ومِنسية، ولا توجد رياح ولكن الأوراق فى حالة حركة؛ إذ يوجد تموّج بين الأوراق كما لو كان تموجًا خاصًّا بقطط غير مرئية أو كما لو كانت الأوراق تتحرك من تلقاء نفسها.

أعتقد أنه نبات البلادونة المميت **Night shade**، هذه كلمة كئيبة، لا يوجد أىّ نبات من نباتات البلادونة فى شهر نوفمبر، ونبات البلادونة هو عُشْب ضار وشائع ومألوف؛ ولذلك فأنت تقتلعه من الحديقة وتلقى به بعيدًا، ونبات البلادونة يمت بصلة قرابة إلى نبات البطاطس، وذلك هو السبب فى تشابه شكل الأزهار فى كل منهما، ويمكن للبطاطس أن تصبح سامة أيضًا إذا تركت تحت الشمس إلى أن تتحول إلى اللون الأخضر، ومن عادتى أن أعرف هذه النوعية من الأمور.

ويمكننى أن أقول إن ذلك ربما يرجع إلى الذاكرة المختلة، ولكن الأزهار والرائحة وحركة الأوراق تصر على أن تقدم تنويمـًا مغناطيسيًّا قويًّا ومثيرًا للكآبة ومليئًا بالحزن.

الباب الخامس

العصَّارة

Wringer

أقرأناكموه

(٢١)

أغادر المعرض، وأسير فى اتجاه الشرق، إننى بحاجة للتسوق وشراء بعض الطعام المقبول، إننى بحاجة لأن أُدخل نفسى فى بنية عضوية. عندما أكون بمفردى أرتدّ إلى الأوقات التى أنسى فيها تناول الطعام وأظل منهمكة فى العمل طول الليل إلى أن ينتابنى إحساس شاذ أدرك أنه الجوع، وعندئذ آتى على كل ما فى الثلاجة... آكل بقايا من الطعام.

وفى الصباح كان فى الثلاجة بيض، ولكن لم يعد هناك بيض أو خبز أو لبن، لماذا كان فيها بيض ولبن وخبز فى بادئ الأمر؟ لابد أنه خزين جون، لابد أنه يأكل هناك فى بعض الأحيان، أو هل وضع تلك الأطعمة من أجلى؟ من الصعب تصديق ذلك.

لسوف أشترى برتقالاً علاوة على شراء لبن مصفّى بدون مربى الفاكهة، لسوف يكون لدىّ اتجاه إيجابى بحيث أعتنى بنفسى، ولسوف أُغذّى نفسى بالأنزيمات والبكتريا المفيدة، وهذه الأفكار الحميدة تستحوذ على مشاعرى إلى أن أصل إلى قلب المدينة.

* * *

هذا هو المكان الذى كان يوجد به محلات إيتون، هنا على هذه الناحية؛ حيث كان أصفر اللون ومربع الشكل، ولكن يوجد الآن فى مكانه مبنى ضخم يسمونه: عُقْدة التسويق **Shopping Complex** كما لو كان التسويق بمثابة مرض نفسى سيكولوجى، وهو مبنى زجاجى وجميع أرضياته وحوائطه مكسوة برقائق الفلّين وله لون أخضر مثل الجبل الجليدى العائم.

أقرأناكموه

وأمامه عند الناصية الأخرى من الشارع يوجد متجر معروف لى، إنه متجر سمبصونز التنويعى، وأنا أعرف أن به صالة طعام فى مكان ما، وفى الڤاترينات الزجاجية توجد أكوام من فوط الحمام والأرائك والكراسى المنجدة والملاءات التى هى من قماش مطبوع مودرن، وأسائل نفسى فى تعجب عن المكان الذى يصل إليه كل هذا القماش فى نهاية الأمر، فالناس ينقلون هذا القماش فى عربات كارّو ويحشرونه فى داخل منازلهم، إنها غريزة بناء العُش أو وضع الأشياء فى عُشّ. إنها فكرة أقلّ جاذبية إذا أمكن لك مشاهدة عُشّ عن كثب، وينبغى أن يكون هناك حدّ معيّن بالنسبة لكميات الملابس التى يمكن لك أن تحشوها وتحشرها فى أىّ منزل واحد، ولكن هذا بالطبع يمكن التخلص منه، فأنت قد اعتدت أن تشترى من أجل الجودة بحيث تشترى أشياء تدوم لفترة طويلة، فأنت قد احتفظت بملابسك إلى أن أصبحت جزءًا من كيانك، وأنت قد تفحصت خطوط حاشية ثوبك وطريقة تخييط الأزرار كما قمت بحكّ القماش ما بين إصبع السبابة والإبهام.

والڤاترينات التالية تحتوى على تماثيل المانيكان الساخطة المستاءة بأحواضها النائئة وأكتافها المتهدلة فى هذا الاتجاه أو ذاك مما يجعلها تشبه سفّاحات مقوسات الظهر وممسكات بفأس، وأعتقد أن هذا هو المنظر الآن، فهو عدوان بكل تأكيد، فعلى أرصفة المشاه يوجد عدد كبير من منشّطات الذكورة المتمثلة فى كائنات بشرية من لحم ودمّ، الفتيات المرتديات جاكتات جلدية سوداء وأحذية برقبة خاصة بالأولاد ولهن تسريحة شعر البحارة وتسريحة ذيل البطة، كما يوجد أولاد لهم الشكل الملطخ المتجهم لتلك النساء الموجودات على الأغلفة الأمامية لمجلات الموضة الحديثة وقد تجعّد شعرهن، وأستطيع من على مسافة معرفة الفارق، رغم أنهم هم أنفسهم ربما يستطيعون معرفة الفارق، ويمكن لهم أن يجعلونى أشعر أننى عتيقة الزىّ.

ما الذى يهدفون إليه؟ هل كل نوع يقلّد النوع الآخر؟ أو أن الأمر يبدو لى أنا فقط على ذلك النحو لأنهم جميعًا يتفجرون بالشباب وفى سن صغيرة للغاية وعلى نحو مثير للإزعاج والمخاطر؟ إنهم على الرغم من اتخاذهم أوضاعًا متسمة

بالبرود، فإنهم يتخذون طابع التلهّف والشبق من الناحية الخارجية مثل أشخاص عاجزين عن مقاومة الإغراء أمام الطُعم، فهم يريدون ابتلاع الطُعم بأكمله.

ولكنى أفترض أن ذلك هو ما كنت أبدو عليه أنا وكورديليا فى تلك الأوقات من وجهة نظر الناس الأكبر سناً؛ حيث كنا نعبر الشارع فى هذا المكان نفسه وقد رفعنا الياقة لأعلى مع نتف حاجبى العينين لكى يبدوان مثل أقواس مثيرة للشكوك علاوة على الترنح فى أحذيتنا المطاطية ذات الرقبة وإظهار اللامبالاة أثناء السّير إلى "محطة الاتحاد" التى تصل إليها القطارات، وذلك من أجل أن نضع نقودنا فى ماكينة التصوير الفوتوغرافى ونحصل على أربع لقطات أُحادية اللون فى حجم محفظة الجيب. كورديليا مع وجود سيجارة فى زاوية فمها وقد أغلقت جفنى عينيها قليلاً فى محاولة منها لإثارة الشهوة الجنسية فى جموح شديد.

أدخل من بين الأبواب الدّوارة إلى محلات سمبصونز؛ حيث أتعرض للضياع على الفور، فهم قد أدخلوا تغييرات شاملة على كل شىء؛ إذ كانت توجد كاونترات زجاجية لها حواف خشبية قوية وبها قفازات ذات نماذج قياسية وساعات يد ملائمة وأوشحة من قماش مطبوع عليه أزهار، كان يوجد هناك ذوق سليم متسم بروح الوقار، ولكن المنظر الآن أصبح بمثابة أرض معارض لمستحضرات التجميل، الزخارف الفضية والأعمدة الذهبية والأنوار السرادقية وحروف العلامات التجارية التى هى فى حجم رأس الإنسان، والهواء ملىء بالروائح الكريهة التى كانت منتشرة أثناء الحرب، وتوجد شاشات ڤيديو تعرض التربيت على البشرة بينما الشفاه منفرجة قليلاً، وتعرض شاشات ڤيديو أخرى لقطات مكبرة من مسام البشرة قبل التدليك وبعده على اليدين والرقبة والفخذين، وعند المرفقين، بصفة خاصة، لأن الشيخوخة تدبّ فى بادئ الأمر عند المَرفقين، ثم تنتشر من هناك مثل السرطان إلى باقى أرجاء الجسم.

هذا دين، هذه تعويذة ورقية سحرية، أريد أن أؤمن بهذا الدين وبهذه التعويذة وبالكريمات والغسولات المجدّدة للشباب وبالمراهم الشفافة الموجودة فى قوارير والتى تصقل وتملّس مثل المادة الغرائية، لقد قال بين Ben ذات مرة: "ألا تعرفين

أقرأناكموه

المادة التى يُصنَّع منها ذلك الشىء التافه؟"، ويضيف: "إنه مصنوع من مسحوق عُرْف الديك"، ولكن هذا لا يخيفنى ولا يمنعنى، فأنا على استعداد لاستخدام أى شىء إذا كان سيأتى بالنتيجة المرجوة، عصير الحيوانات الرخوية أو بُصاق الضفدعة أو عين سمندل الماء أو أىّ شىء من شأنه أن يحفظ جسدى ويوقف زحف قطرات الزمن، بحيث أظل إلى حدّ ما على النحو الذى أنا عليه.

ولكنى أمتلك بالفعل كميات من هذه الغُسالة القذرة تكفى لتوفير الصيانة لكل الفتيات بفصل التخرج من المدرسة العليا الخاص بى واللائى هن بحاجة بكل تأكيد لهذا الغسول مثل احتياجى له تمامًا، وأتوقف لفترة تكفى للسماح لنفسى بأن يتم رشّى بالرذاذ بمعرفة فتاة تقدّم رشات رذاذية مجانية من عطر ما جديد وسام. من المؤكد أن المرأة المغوية **femme fatale** قد عادت، ومن المؤكد أن فيرونيكا ليك **Veronicas Lake** تنسلّ خلسةً مرة أخرى، المادة لها رائحة تشبه رائحة عنب كول – أيد **grape Kool-Aid**، ولا أستطيع أن أتخيل أن هذه المادة تغوى أىّ شىء باستثناء ذبابة الفاكهة.

وأقول للفتاة: "أتحبين هذا العمل الذى تقومين به؟"، من المؤكد أن الفتيات يشعرن بالوحدة والاكتئاب وهن واقفات طوال اليوم مع ارتداء أحذية لها كعب عالٍ من أجل أن يقمن برش الرذاذ على الغرباء.

فتقول فى مراوغة وتملّص: "ذلك يَلْقى إعجابًا جماهيريًا كبيرًا للغاية"، وألمح نفسى من خلال عَينـــيها أوج الازدهار والتفتّح يبتعد عن الوردة علاوة على التمايل والتأرجح نحو حافة امرأة كهلة متزوجة تحاول التوافق بقدر المستطاع، السوق يعتمد على النساء من أمثالى، أنا السوق.

أسألها عن المكان الذى توجد به صالة الطعام، فترشدنى: "الصالة فى الدور التحتانى"، أدخل إلى المصعد، ولكن على نحو فجائى أجد نفسى صاعدة لأعلى. اللخبطة وخلط الاتجاهات على هذا النحو يعتبر شيئًا رديئًا أو هل أنا أتخطى الزمن؟ هل أنا ذهبتُ إلى أسفل بالفعل؟ أخرج من الأسانسير وأجد نفسى أخوض بين رفوف وحوامل مليئة بملابس الأطفال المتعددة الألوان والتى لها ياقات ذات

شريط زينى ولهاً أكمام منتفخة ولها أحزمة وعلى النحو الذى أتذكره تمامًا، والكثير منها مصنوع من نَسْيج مربع النقش أو متصالبة وله ألوان حقيقية حمراء داكنة وألوان خضراء داكنة مع وجود خطوط مقلمة لها لون أحمر وأزرق غامق وأسود، الحرس الأسود **Black Watch** هل نسى هؤلاء الناس التاريخ، وهل هم لا يعرفون أى شىء عن الاسكتلنديين وهل هم لا يعرفون أىّ شىء أفضل من تغليف الفتيات الصغيرات فى ألوان اليأس والذبح والخيانة والاغتيال؟ أسلوبى الجديد فى الحياة هو التركيز على الورقة الصفراء الذابلة، ذات يوم كان علينا أن نستظهر الأشياء ونحفظها عن ظهْر قلب، والنسيج المربع الشكل أو المتصالب كان أيضًا هو الموضة فى أيامى، وكذلك الجوارب الحريمى البيضاء اللون وشباشب المارى جين الجلدية ذات الكعب المنخفض التى ترتديها الفتيات الصغيرات وهدية عيد الميلاد التى تكون غير كافية دائمًا والتى تكون مُغلَّفة فى منديل ورقى، والبنات الصغيرات بعيونهن التى تحدّد قيمة الأشياء وبابتساماتهن الغامضة المخادعة المضللة يكن مرتديات الثياب المقلّمة مثل ليدى ماكبيث.

* * *

فى الوقت اللانهائى عندما كانت كورديليا تمارس مثل هذا السلطان والنفوذ علىّ كنت أقوم بتقشير الجلد من قدمىّ، وكنت أفعل ذلك بالليل عندما يُفترض لى أن أكون نائمة، وتكون قدماى باردتين ورطبتين بعض الشىء وناعمتين مثل جلد نبات الفُطْر، وكنت أبدأ بتقشير الإصبعين الكبيرين؛ حيث كنت أرفع قدمى لأعلى وأعضُّ لكى أفتح فتحة صغيرة فى الجزء السميك للغاية من الجلد على الجزء السفلى وعلى طول الحافة الخارجية، وبعدئذ أستخدم أظافر أصابع يدى التى لا أقضمها أبدًا، لأنه لا داعى لأن أقضم شيئًا لا يسبب لى أىّ ألم – فى انتزاع الجلد فى قشور وشرائح ضيقة، وأفعل الشىء نفسه مع إصبع القدم الكبير الآخر، ثم مع النتوء المستدير عند قاعدة إبهام كل قدم، ثم كعب كل قدم ثم أتعمق حتى أصل إلى الدماء، لا أحد سواى قد نظر فى أىّ وقت من الأوقات إلى قدمىّ... وبالتالى لم

أقرأناكموه

يعرف أحد أننى كنت أفعل ذلك، وفى صباح كل يوم كنتِ أرتدى جوربى على قدميّ المقشورتين، وكان المشى يسبب لى بعض الآلام، ولكنه لم يكن أمرًا مستحيلاً، الألم كان يعطينى شيئًا محددًا وفوريًّا لكى أفكر فيه، لقد كان الألم بمثابة شىء ما أظل عالقة به أو مشدودة إليه.

كنت أمضغ نهايات شعرى لكى تكون هناك دائمًا خصلة شعر مدببة ومبللة، وكنت أقضم البشرة الميتة الموجودة حول أظافر يدىّ تاركة شريطًا من اللحم المكشوف الراشح الذى سرعان ما يتصلّب ويصبح له قشرة جافة، وفى البانيو أو فى الماء الذى تُغسل به الصحون تبدو أصابعى مقضومة كما لو كانت الفئران قد قضمتها، وأنا أفعل هذه الأشياء باستمرار دون أن أفكر فيها، ولكننى كنت أفعل هذه الأشياء مع أقدامى فى مزيد من التعمّد والتروّى والتفكير.

* * *

أتذكر عندما وُلدتْ البنتان، البنت الأولى وبعدئذ البنت الثانية، لقد كنت أفكر فى أنه كان ينبغى أن يكون لى ولدان وليس ابنتان، لم أكن أشعر أننى قادرة على تربية البنات، ولم أكن أعرف الكيفية التى تشقان بها طريقهما فى الحياة، ومن المؤكد أننى كنت خائفة من احتمال أن أشعر بالكراهية نحوهما، ولكن مع الأبناء كنت سأعرف ما ينبغى علىّ أن أفعله، صيْد الضفادع وصيْد الأسماك واستيراتيجيات الحرب والجرى هنا وهناك فى الطين، وكنت سأصبح قادرة على تعليمهم كيفية الدفاع عن أنفسهم وتعريفهم بالأمور التى تتهدّدهم، ولكن عالم الأولاد قد تغيَّر، فمن الأرجح أن الأولاد الآن هم الذين أصبح لديهم تلك النظرة المليئة بالحيْرة والتى تشبه نظرة إنسان يغرق فى بحر من ظلام الليل ويفقد بصره لدى التعرّض بشكل فجائى لضوء الشمس المبهر، عندئذ كنت سأقول: "عليك بالصمود مثل رجل".

أما بالنسبة للبنات أو بالنسبة لابنتيَّ على كل حال، فإنه يبدو لى أنهما قد وُلدتا وهما مزودتان بنوع ما من الغلاف الوقائى **protective coating**، أو نوع ما من الحصانة التى أفتقدها، فهما تنظران إليك فى حملقة جريئة نظرات مليئة بالتفحص والتقييم وتجلسان إلى منضدة المطبخ، بينما الهواء حولهما يشعّ بالاستبصار وبُعْد النظر الخاص بهما، فهما تتسمان بالحكمة والعقل السليم أو أننى أحبّ أن أعتقد أنهما على ذلك النحو، فضائلى المنقذة.

إنهما تصيبانى بالدهشة والذهول، ودائمًا ما تصيبانى بالدهشة والذهول، عندما كانتا صغيرتين شعرت أنه ينبغى علىّ أن أوفر لهما الحماية من أمور معينة تتعلق بى مثل الخوف والأشياء الأكثر قذارة المتعلقة بالزواج وأيام وقت الفراغ، ولم أرغب فى أن أمرّر لهما أىّ شىء... أىّ شىء يخصنى ويمكن لهما أن يكونا فى حالة أفضل بدونه، فى تلك الأوقات كنت أستلقى على أرضية الغرفة فى الظلام مع إسدال الستائر وغلْق الباب، وكنت أقول: "مامى **Mummy** تعانى من الصداع، مامى تنجز الأعمال"، ولم يكن يبدو عليهما أنهما بحاجة إلى تلك الحماية، وإنما كان يبدو عليهما أنهما تفهمان وتستوعبان كل شىء وتنظران إليه نظرة مباشرة وتتقبلانه، ولقد سمعت سارة تقول لآن **Anne** عندما كانت سارة فى العاشرة من عمرها بينما كانت الأخرى فى الرابعة من عمرها: "مامى مستلقية فى داخل الغرفة على الأرض، ولسوف تكون على ما يُرام غدًا"، وتتحسن حالتى بالفعل، فمثل هذا الإيمان الشبيه بالإيمان بشروق الشمس أو الإيمان بأوجه القمر هو الذى كان يساندنى ويشدّ من أزرى ويمدنى بأسباب الحياة، ومن المؤكد أن هذه النوعية من الأمور هى التى تجعل المفهوم الذهنى عن الله متواصلاً ومستمرًا.

ومن يدرى ما الذى ستقولانه عنى فيما بعد ومنْ يدرى ما هى الفكرة التى كوَّنتاها عنى بالفعل؟ إننى أودّ لهما أن تكونا بمثابة النهاية السعيدة لقصة حياتى، ولكنهما ليستا بالطبع بمثابة النهاية للقصة الخاصة بكل منهما.

* * *

أقرأناكموه

امرأة ما تقترب منى من الخلف وينتشر صوت فجائى بين الهواء الرقيق، إنها تسبب لى الترويع والإجفال وهى تقول لى: "أيمكن لى أن أساعدك؟"، إنها بائعة فى المحل، وهى امرأة أكبر سناً فى هذه المرة، وهى فى منتصف العمر، وأعتقد عندئذ فى شىء من الإحباط أنها فى مثل سنّى، من سنى ومن سن كورديليا نفسه.

إننى واقفة بين الفساتين المصنوعة من نسيج مربع النقش وأقوم بتفحص كُمّ بأصابعى، والله وحده هو الذى يعرف الفترة الزمنية التى استغرقتُها فى ذلك التفحّص، أكنتُ أتحدث بصوت مرتفع للغاية؟ إننى أشعر بالتوتر فى حلقى وبالآلام فى قدمىّ، ولكن مهما كانت الأمور الأخرى المخبأة لى، فإننى لا أنوى الانزلاق فى خلسة مبتعدة عن خط التروللى الموجود فى منتصف "محلات سمبصون لملابس البنات **Simpsons Girlswear**".

أقول: "صالة الطعام".

فتبتسم فى رفق، إنها فى حالة من الإرهاق وأنا سببتُ لها بعض الإحباط لأننى لا أريد شراء أية فساتين مصنوعة من قماش مربع النقش، وتقول لى: "ينبغى عليك النزول إلى الدور التحتانى... إلى البدروم" وفى عطف ترشدنى.

* * *

(٢٢)

ينفتح الباب الأسود، إننى جالسة بين رائحة روث الفئران ورائحة الفورمالديهايد المنتشرة بالمبنى... فوق إفريز النافذة بينما الدفء الصادر عن شبكة أنابيب التدفئة يتصاعد لأعلى بين ساقىّ، حيث أنظر من النافذة نحو الجنيات والأقزام الخرافيين وكرات الثلج التى تخوّض أسفلى بين رذاذ المطر فى إيقاع مع

لحن "أجراس جينجل Jingle Beels"، الذى تعزفه فرقة نحاسية، الجنيات تبدو مُقصَّرة ومحطمة ومخططة من خلال المطر والتراب الموجودين على زجاج النافذة، كما أن أنفاسى تخلق دائرة ضبابية، وأخى غير موجود هنا، فهو قد أصبح كبيرًا فى السن بحيث لم يعد يهتم بمشاهدة مثل هذه الأمور، وهذا هو ما قاله بالفعل، وبذلك فإنه استحوذ على إفريز النافذة كله.

وعلى إفريز النافذة المجاور لنافذتى تجلس كل من كورديليا وجريس وكارول محشورات مع بعضهن البعض ومستغرقات فى همس وضحكات، أضطر لأن أجلس على إفريز نافذة بمفردى لأنهن لا تتحدثن معى، إنه شىء ما قد أخطأتُ فى قوله، ولكنى لا أعرف ذلك الشىء، لأنهن لا يذكرن لى الخطأ الذى وقعتُ فيه، وتقول كورديليا إنه سيكون من الأفضل لى أن أسترجع كلّ الكلام الذى قلتُ اليوم وأحاول التقاط الأشياء الخاطئة التى قلتُها، وبتلك الطريقة سأتعلّم كيف لا أقول مثل هذا الكلام الخاطئ مرة أخرى، وإذا توصلتُ إلى معرفة الأخطاء فإنهن سيبادرن إلى التحدث معى مرة أخرى، وكل هذا من أجل مصلحتى الخاصة بى لأنهن بمثابة أفضل صديقات لى ويرغبن فى مساعدتى على تحسين سلوكى؛ ولذلك فهذا هو ما أفكر فيه بينما تمرّ فرقة المزمار التى يرتدى أفرادها قبعات فرائية مشبعة بالماء وتمر الفتيات الضاربات على الطبول بسيقانهن العارية المبللة وابتساماتهن وشعرهن الذى يقطر بالماء، ما هو الكلام الخاطئ الذى قلته؟ لا أستطيع تذكر أى كلام قلته مختلف عن الكلام الذى أقوله عادةً.

يدخل والدى إلى الغرفة مرتديًا معطف المعمل الأبيض الخاص به، إنه يعمل فى جزء آخر بالمبنى، ولكنه قد جاء لكى يطمئن علينا، ويقول: "هل تستمتعن بالموكب أيتها الفتيات؟".

فتقول كارول ضاحكة: "أوه، نعم، شكرًا جزيلاً" وتقول جريس: "نعم، شكرًا جزيلاً"، وأنا لا أردّ عليه بأىّ كلام، وتنزل كورديليا من فوق إفريز نافذتها وتنسل صاعدة إلى إفريز نافذتى والجلوس عن كثب إلى جوارى وتقول بصوتها الناضج: "نحن نستمتع بذلك للغاية، ونقدم لك جزيل الشكر"، ووالداى يعتقدان أن كورديليا

أقرأناكموه

تتسم بالسلوك الحسن والأخلاق الحميدة، وتلف كورديليا ذراعها حولى وتعتصرنى قليلاً... اعتصارة التآمر واعتصارة التعليم، كل شيء سيسير على ما يرام ما دمت أجلس فى هدوء ولا أقول أىّ كلام ولا أكشف عن أىّ شيء؛ إذن سيتم إنقاذى، وسأصبح مقبولة لديهن مرة أخرى، أبتسم وأرتجف مع الشعور بالارتياح والامتنان الشديد.

ولكن بمجرد أن يخرج والدى من الغرفة تستدير كورديليا لكى تواجهنى، بينما التعبيرات على وجهها تنم عن الحزن أكثر مما تدلّ على الغضب، وتقوم بهزّ رأسى وتقول: "كيف أمكن لك؟.. كيف أمكن لك أن تكونى غير مهذبة إلى هذه الدرجة؟ بل إنك لم تردّى على سؤاله، ألا تدركين معنى هذا؟ أخشى أن الأمر سيتطلب معاقبتك، ما الذى ستقولينه دفاعًا عن نفسك؟"، وأنا ليس لدىّ أىّ شيء أقوله.

* * *

إننى أقف خارج الباب المغلق الخاص بغرفة كورديليا، كورديليا وجريس وكارول موجودات فى داخل الغرفة، إنهن يعقدن اجتماعًا، وهذا الاجتماع يتعلق بى؛ فأنا لا أبدو على المستوى المطلوب من وجهة نظرهن رغم أنهن يقدّمن لى كل فرصة متاحة، وينبغى علىّ أن أتصرف على نحو أفضل، ولكن على نحو أفضل إزاء ماذا؟

بردى وميرّى تصعدان على السلالم وتسيران على طول الصالة وهما محصنتان بدرع العمر؛ حيث إنهما أكبر منّا سنًّا، أتطلع لأن أكبر وأكون فى مثل عمرها، إنهما الوحيدتان اللتان لهما سلطة ونفوذ حقيقى على كورديليا، أنظر إليهما على أنهما حليفتان لى... أو أعتقد أنهما ستصبحان حليفتين لى لو فقط أُتيحت لهما الفرصة لأن تعرفا... تعرفا ماذا؟ إننى خرساء بكماء حتى أمام نفسى.

تقولان لى: "مرحبًا، يا إيلين" والآن تقولان: "ما هى اللعبة الصغيرة اليوم؟ هل هى لعبة الاستغماية؟"

أردّ قائلة: "لا أستطيع أن أعرف"، فتبتسمان فى وجهى فى تعطف وتلطف وتنازل وشفقة، ثم تتجهان إلى غرفتهما لكى تقوما بطلاء أظافر أقدامهما والتحدث معًا فى أمور تخص الفتيات الأكبر سنًا.

أستند على الحائط، ومن خلف الباب المغلق تترامى التمتمة غير الواضحة للأصوات والضحكات، وتمرّ والدة كورديليا فى خفة وهى تدندن لنفسها، إنها ترتدى الثوب الخارجى الفضفاض الخاص بها والذى ترتديه لدى ممارسة الرسم، وتوجد بقعة من اللون الأخضر على خدّها، تبتسم فى وجهى ابتسامة ملاك رقيق ولكنه بعيد، وتقول: "مرحبًا يا عزيزتى"، وتضيف: "قولى لكورديليا إنه توجد فطيرة من أجلكن أيتها البنات فى علبة الطعام".

ويترامى صوت كورديليا من داخل الغرفة: "يمكن لكِ أن تدخلى الآن"، فأنظر إلى الباب المغلق وإلى "أُكرة" الباب وإلى يدى وهى تتحرك لأعلى كما لو كانت يدى لم تعد جزءًا من كيانى.

* * *

وعلى هذا النحو تسير الأمور، إنه نوعية الشىء الذى تفعله البنات فى هذه السن إزاء بعضهن البعض أو الذى كن يفعلنه آنئذ، ولكننى لم يكن لى خبرة فى هذا الشأن، ولدى اقتراب ابنتاى من هذه السن وهو سن التاسعة رحت أرقبهما فى قلق، ورحت أتفحص أصابعهما بحثًا عن القضم علاوة على تفحص أقدامهما ونهايات شعرهما، وكنت أوجه إليهما أسئلة إيجابية مصاغة بألفاظ توحى بالجواب: "هل كل شىء على ما يرام؟ هل صديقاتكما على ما يرام؟" فكانتا تنظران إلىَّ كما لو لم يكن لديهما أدنى فكرة عما أتحدث عنه أو عن السبب الذى يدعونى للشعور بالقلق الشديد، واعتقدت أنهما ستزفّان إلى عريس على نحو ما أو ستسلمان نفسيهما على نحو ما كوابيس وأفكار كئيبة، ولكن لم يكن هناك شىء أستطيع مشاهدته بحيث يعنى أنهما كانتا ماهرتين فى الخداع على النحو الذى كنتُ ماهرة عليه،

أقرأناكموه

وعندما وصلت صديقاتهما إلى منزلنا من أجل اللعب رحت أتفحص وجوههن بحثًا عن دلائل الرياق والنفاق، كما رحت أصغى وأنا واقفة فى المطبخ إلى أصواتهن المترامية من الغرفة الأخرى، واعتقدتُ أن بمقدورى أن أعرف، أو ربما كان الأمر أشدّ سوءًا، ربما ابنتاى كانتا تفعلان هذه النوعية من الأشياء مع شخص ما آخر، فذلك من شأنه أن يقدم تفسيرًا لرقتهما وعدم قضم الأصابع والحملقة الهادئة بعيونهما الزرقاء.

معظم الأمهات يشعرن بالقلق عندما تصل بناتهن إلى سن المراهقة، ولكننى كنت على العكس من ذلك، ولكنى كنت أسترخى وأتنهد فى ارتياح، فالفتيات الصغيرات تكن جذابات وضعيفات من وجهة نظر اليافعين فقط، فهن أمام بعضهن البعض لا تكن فاتنات؛ إذ تكنَّ فى الحجم الطبيعى الخاص بهن.

* * *

تزداد برودة الجو،أرقد مع رفع ركبتىّ لأعلى وعلى نحو قريب من جسدى بقدر المستطاع، إننى أقوم بتقشير الجلد من قدمىّ، باستطاعتى أن أفعل ذلك من خلال اللمس وبدون حاجة لأن أنظر، أشعر بالقلق بشأن ما قلته اليوم وبشأن التعبيرات التى ظهرت على وجهى وبشأن الكيفية التى أمشى بها والملابس التى أرتديها، لأن هذه الأمور كافة بحاجة إلى إدخال التحسينات عليها، إننى لست سوية ولست طبيعية، إننى لا أشبه الفتيات الأخريات، وكورديليا تقول لى ذلك ولكنها تشير إلى أنها ستقدم لى يد العون والمساعدة، كما ستساعدنى جريس وكارول أيضًا، ولسوف يتطلب ذلك مجهودًا كبيرًا ووقتًا طويلاً.

فى أوقات الصباح أنهض من السرير وأرتدى ملابسى: الصّدرة القطنية الناشفة مع رباط للجورب والجورب الطويل المضلّع الصوفى المكون من قطعة واحدة والتنورة المصنوعة من قماش مربع النقش، وأتذكر هذه الملابس من حيث إنها كانت متسمة بالبرودة، وربما كانت مثيرة للشعور بالبرودة بالفعل.

وأرتدى حذائى على جوربى وقدمىَّ المقشورتين.

وأخرج على المطبخ حيث تقوم أمى بطهى طعام الإفطار وإعداده؛ يوجد إناء به عصيدة، كما يوجد جهاز راووق القهوة الزجاجى، أستند بذراعى على حافة الموقد الأبيض وأرقب العصيدة وهى تغلى وتتخذ قوامًا غليظًا بينما الفقاقيع الرخوة تخرج منها وتطلق هبات صغيرة من البخار. العصيدة تشبه الطين المضطرم فى غليان، وأدرك أنه عندما يحين وقت تناول العصيدة سأتعرض للمتاعب؛ حيث ستتقلص معدتى وتبرد يداى ويصبح من الصعب علىّ أن أبتلع، شىء ما مشدود يقبع تحت عظم صدرى، ولكننى سأتمكن من إنزال العصيدة فى داخل جوفى على نحو ما لأنها مطلوبة.

أو أرقب جهاز راووق القهوة بينما الفقاقيع الصغيرة للغاية تتجمع تحت المظلة الزجاجية المقلوبة رأسًا على عقب، ثم تفأفئ ثم يندفع عامود الماء لأعلى من خلال الساق ويسقط فوق البنّ الموجود فى السلة المعدنية الخاصة به فتتساقط قطرات القهوة لأسفل نحو الماء الصافى مما يجعل الماء يتخذ اللون البنىّ.

أو أقوم بتحميص الخبز حيث أجلس إلى المنضدة التى توجد عليها محمصة الخبز الكهربائية، وكل ملعقة من ملاعقنا توجد بها كبسولة صغيرة للغاية من زيت كبد السمك الهلبوت الأصفر الغامق والتى تشبه كرة قدم صغيرة، كما توجد الأطباق اللامعة باللون الأبيض علاوة على وجود أكواب العصير، ومحمصة الخبز الكهربائية موجودة فوق وسادة تسخين فضية ولها بابان مع وجود "أكرة" عند أسفل كل باب ولها شبكة قضبان متصالبة عند الجزء الأوسط المتوهج بالحرارة، وعندما يتم التحميص على جانب واحد أدير "الأكرتين" فينفتح البابان وينزلق الخبز المحمّص لأسفل وينقلب تلقائيًا، وأفكر فى وضع إصبعى هناك على شبكة القضبان المتصالبة المتوهجة بالحرارة.

كل هذه بمثابة وسائل لاستنزاف الوقت وذلك لكى لا أضطر إلى الخروج من خلال باب المطبخ، ولكن بغض النظر عما أفعله وعلى الرغم منى، فإننى أقوم بارتداء بنطلوب الثلج الخاص بى وأحشو تنورتى بين ساقىّ وأرتدى جوربى

أقرأناكموه

الصوفى السميك على حذائى وأحشر قدمىّ فى حذائى ذى الرقبة، وبعد ارتداء المعطف والوشاح والقفاز والقبعة التى تُشد برباط يتم تقبيلى، وينفتح الباب ثم يُغلق عقب خروجى إلى الهواء الثلجى الذى يهجم على أنفى فى ترويع شديد، أسير الهوينى بين بستان أشجار التفاح المتساقطة الأوراق متجهة إلى محطة الأتوبيس بينما ساقا بنطلون الثلج الخاص بى تتلاطمان مع بعضهما البعض.

جريس منتظرة هناك وكارول وكذلك كورديليا بصفة خاصة، ما إن أصبح خارج منزلى فلا سبيل للابتعاد عنهن، فهن من البنات اللائى يستخدمن الأتوبيس المدرسى؛ حيث تقف كورديليا فى التصاق بجوارى وتهمس فى أذنى: "ينبغى أن تقفى فى اعتدال، فالناس ينظرون!" وكارول هى زميلتى فى حجرة الدراسة الخاصة بى، وهى تقوم بمهمة تقديم تقرير لكورديليا عما أفعله وأقوله طوال اليوم، وهن موجودات هناك فى المختلى وفى البدروم فى وقت تناول طعام الغداء، وهن يعلقن على نوعية طعام الغداء الذى أتناوله وكيفية إمساكى بالساندويتش وكيفية مضغى للطعام، وفى طريق العودة من المدرسة أضطر لأن أسير أمامهن أو خلفهن، والأمر يكون أشدّ سوءًا إذا سرتُ أمامهن لأنهن يتحدثن عن الطريقة التى أمشى بها، وعن الكيفية التى أبدو عليها من الخلف، وتقول كورديليا: "لا تُحنى ظهرك للأمام، ولا تحركى ذراعيك على ذلك النحو".

ولا يقلن أىّ شىء من الأشياء التى يقلنها لى أمام الآخرين وخاصةً أمام الأطفال الآخرين؛ فأىّ كلام يُقال عنى يُقال فى سرية بيننا نحن الأربعة فقط، وأنا أدرك أن التكتم والسرية أمر مهم للغاية، حتى إن إفشاء السر يعتبر أكبر خطيئة، بل وهى خطيئة يتعذر إصلاحها، فإذا أفشيتُ سرًّا يتم نبذى وإبعادى للأبد.

ولكن كورديليا لا تفعل معى هذه الأشياء أو تمارس هذا النفوذ علىَّ لأنها عدوّة لى، فهى أبعد ما تكون عن ذلك، فأنا لدى معلومات عن الأعداء، فهناك أعداء موجودون فى فناء المدرسة وهم يصرخون فى وجوه بعضهم البعض وإذا كانوا من الأولاد فإنهم يتقاتلون فى شجار، وفى الحرب كان هناك أعداء، والأولاد التابعون لمدرستنا والأولاد التابعون لمدرسة "سيدتنا ذات المساعدات الدائمة" هم

أعداء لبعضهم البعض، وأنت تلقى كرات الثلج على الأعداء، وأنت تبتهج إذا أصابتهم كرات الثلج، وإزاء الأعداء يمكن لك أن تشعر بالكراهية والغضب، ولكن كورديليا صديقة لى، وهى تحبنى وهى ترغب فى تقديم المساعدة لى وكذلك الوضع بالنسبة لباقى البنات من شلّتى، فهن صديقاتى بل هن صديقاتى الحميمات، ولم يسبق لى من قبل أن كان لى صديقة حميمة؛ ولذلك فأنا أخشى من فقدانهن، إننى أريد إدخال السرور والبهجة عليهن.

الكراهية كانت ستصبح أكثر سهولة، فمع الكراهية كنت سأعرف ما ينبغى علىّ أن أفعله، فالكراهية واضحة المعالم ورنّانة ولها اتجاه واحد وغير متذبذبة وذلك بخلاف الحب.

* * *

(٢٣)

لا شىء من هذا يتّسم بالقسوة والصرامة.

ففى بعض الأيام ترى كورديليا أن الدور قد جاء على كارول لكى يتم تقويمها وإصلاحها، وتُوجه لى الدعوة لكى أنضم إلى جريس وكورديليا لدى سيرهما فى الأمام على طريق العودة من المدرسة للمنزل بينما تسير كارول خلفنا؛ وذلك لكى نفكر فى الأخطاء التى ارتكبتها كارول، وتقول كورديليا: "كارول إنسانة مغرورة إلى حدّ بغيض" فى هذه المرات لا أشعر بالشفقة على كارول، فهى تستحق ما يحدث لها لأنها سبق لها أن فعلت هذه الأمور نفسها معى، وأبتهج لأن الدور قد جاء عليها بدلاً منى.

أقرأناكموه

ولكن هذه المرات لا تدوم لفترة طويلة، لأن كارول سرعان ما تبكى بسهولة كبيرة فى صخب، هى بذلك تجذب الانتباه، ولا يمكن الاعتماد عليها من حيث عدم إخبار الآخرين وهى تتسم بالطيش والتهور والإهمال بحيث يمكن أن تتمادى أكثر من اللازم، كما أن روح الدعابة والفكاهة لديها ضعيفة، وهى لا يمكن الاعتماد عليها إلاَ من حيث إنها مخبرة وواشية، وإذا كان هذا واضحًا لى، فمن المؤكد أنه أكثر وضوحًا لدى كورديليا.

وتبدو أيام أخرى طبيعية؛ إذ تبدو كورديليا وكأنها نسيت موضوع تحسين وتهذيب أىّ شخص فأعتقد أنها ربما تكون قد أقلعت عن هذا الأمر، من المتوقع لى أن أتصرف كما لو أن شيئًا لم يحدث فى أىّ وقت على الإطلاق، ولكن من الصعب علىَّ أن أفعل هذا لأننى أشعر أنه تتم مراقبتى باستمرار، فأنا فى أىّ وقت قد أدوس على صنارة صيْد لا أعرف أنها قد نُصبت لى هنالك.

فى العام الماضى نادرًا ما كنت بمفردى فى منزلى عقب المدرسة أو خلال إجازات نهاية الأسبوع، والآن أريد أن أبقى بمفردى، فألتمس الأعذار لكى لا أضطر للخروج من أجل اللعب، مازلت أسمى ذلك لعبًا.

وأقول: "إننى مضطرة لأن أساعد أمى"، وهذا القول به مسحة من الصدق، فالبنات ينبغى عليهن بالفعل مساعدة أمهاتهن فى بعض الأحيان، وجريس بصفة خاصة تضطر لمساعدة أمها، ولكن مساعدتى لوالدتى أمر لا يتسم بالصدق الكامل وعلى النحو الذى أريد له أن يكون عليه، فوالدتى لا تمضى وقتًا كثيرًا فى إنجاز الأعمال المنزلية، وهى دائمًا تفضل أن تكون بالخارج لكى تجمع الأوراق المتساقطة فى فصل الخريف، ولكى تزيح الثلوج فى الشتاء، ولكى تقتلع الأعشاب الضارة فى الربيع، وأنا عندما أقوم بمساعدتها فإننى أتسبب فى تعطيلها وإبطائها فى العمل، ولكننى أتسكع فى أرجاء المطبخ وأقول لها: "أيمكن لى أن أساعدك؟" إلى أن تقوم بإعطائى منفضة وتجعلنى أزيل الغبار عن سيقان منضدة الطعام أو عن حواف خزائن الكتب، أو تجعلنى أقوم بتقطيع البلح وفرم جوز الهند أو تجعلنى أشطف الملابس المغسولة.

إننى أحب شطف الملابس المغسولة، وغرفة الغسيل صغيرة ومطوقة وسرية وتحت سطح الأرض، وعلى الأرفف توجد عبوات من مواد غريبة: نشا الغسيل الذى هو على أشكال ملوية شبيهة بروث الطيور + مواد تجعل الملابس البيضاء تبدو أكثر بياضًا + قضبان من صابون صن لايت **Sunlight** + مواد جافيكس **Javex** للتبييض والتى يوجد عليها رسم جمجمة وعظمتان مُتصلبتان والتى تفوح منها رائحة الصحة والموت.

وماكينة الغسيل فى حدّ ذاتها عبارة عن وعاء أنبوبى من المينا البيضاء اللون، وهى هيكل ضخم يرتكز على أربع سيقان طويلة ونحيلة، وهى تتراقص فى بطء عبْر الأرضية محدثةً صوتًا: شاج – لاج **chug-lug** بينما الملابس والمياه المليئة بفقاقيع الصابون تتحرك كما لو كانت تغلى فى بطء مثل عصيدة قماشية، أرقب ماكينة الغسيل مع وضع يدىّ على حافة الحوض ووضع ذقنى على يدى وقد تدلّى جسدى لأسفل من هذه الحافة ودون أن أنخرط فى التفكير فى أىّ شىء، ويتحول الماء إلى اللون الرمادى فأشعر بالطهارة والنظافة بسبب كل هذه القاذورات التى تخرج من الملابس، ويبدو الأمر وكأننى أنا التى أخرج هذه القاذروات من الملابس من خلال النظر إليها.

ومهمتى هى أن أدخل الملابس المغسولة إلى العصَّارة التى تعصرها وتدفع بها إلى حوض الغسالة المليء بالماء النظيف، وبعدئذ إلى حوض الغسالة الثانى من أجل أن يتم الشطف الثانى وبعدئذ إلى سلّة الغسيل التى تصدر أصواتًا كالصرير، وبعد ذلك تأخذ والدتى الملابس إلى الخارج وتعلقها على حبل الغسيل مستخدمةً مشابك خشبية، وفى بعض الأحيان أقوم بتعليق الملابس على حبل الغسيل أيضًا، وفى الجو البارد تتجمد الملابس وتصبح متصلبة مثل الخشب الرقائقى.

والعصَّارة تتكون من أسطوانتين من المطاط لهما لون البشرة الشاحبة وتدوران حول بعضهما البعض وتنعصر الملابس بينهما فيخرج الماء ورغاوى الصابون وقد أصبحا شبيهين بالعصير، أُشمّر كُمىَّ وأقف على أطراف أصابعى وأبحث فى الحوض وأجذب لأعلى السراويل والقمصان الداخلية والبيجامات

أقرأناكموه

المشبعة بالماء والتى تشبه شيئًا ما ينبغى أن تلمسه قبل أن تعرف أنه بمثابة شخص ما غارق فى الماء، وأدفع بأركان الملابس بين أسطوانتى العصارة فيتم الإمساك بها وجذبها بينما أذرع القمصان تنتفخ مع الهواء المحبوس وفقاقيع الصابون تقطر من أساور الأكمام، ولقد قيل لى إنه ينبغى علىّ الالتزام بالحذر الشديد أثناء قيامى بهذا العمل، لأن المعصرة يمكن أن تمسك بأيدى النساء وبأجزاء أخرى من أجسامهن مثل الشعر على سبيل المثال، وأفكر فيما يمكن أن يحدث ليدى إذا أمسكت بها العصارة، الدماء واللحم تتعصر لأعلى على ذراعى فى انتفاخ بينما اليد تخرج من الناحية الأخرى مسطحة مثل قفاز وبيضاء مثل ورقة، وأنا أعرف أن ذلك من شأنه أن يسبب فى بادئ الأمر آلامًا كبيرة، ولكن هناك شىء ما يفرض نفسه بالقوة إزاء ذلك الأمر، شخص ما بأكمله يمكن له أن يدخل بين فكّى العصارة ويخرج من الناحية الأخرى وقد أصبح مسطحًا وناعمًا ومستكملاً مثل زهرة مضغوطة فى داخل كتاب.

* * *

تقول كورديليا أثناء سيرنا على الطريق من المدرسة إلى المنزل: "هل ستخرجين من أجل اللعب معنا؟"

فأقول: "ينبغى علىّ أن أساعد والدتى".

فتقول جريس: "مرة أخرى؟"، وتضيف: "كم عدد المرات التى تعتذر فيها عن اللعب معنا؟ إنها غير معتادة على الإطلاق على اللعب معنا"، لقد بدأت جريس تتحدث عنى مستخدمة صيغة الغائب.

وأفكر فى أن أقول إن أمى مريضة، ولكن أمى فى صحة جيدة للغاية لدرجة أننى لا يمكن لى الإفلات من العقاب إذا قلت ذلك.

وتقول كورديليا: "إنها تعتقد أنها ممتازة للغاية بحيث لا ينبغى عليها أن تلعب معنا"، ثم تقول لى": هل تظنين أنك ممتازة للغاية بحيث لا يصح لك أن تلعبى معنا؟"

فأقول: "لا، لأن اعتقاد المرء فى نفسه بأنه ممتاز للغاية يعتبر شيئًا رديئًا".

فتقول كورديليا عائدة إلى صوتها المتسم بالصداقة والاهتمام: "سوف نجىء ونسأل والدتك عما إذا كان يمكن لك أن تلعبى معنا، فهى لن تجعلك تعملين فىّ كل الأوقات، فهذا ليس عدلاً" .

وتبتسم والدتى وتقول: "نعم"، وتبدو وكأنها مسرورة لأننى مطلوبة للغاية من جانب زميلاتى، ولأننى يتم انتزاعى بعيدًا عن فناجين الفطائر وعن عصارة الغسالة، ولأنه يتم طردى إلى الهواء الطلق بالخارج.

فى أيام الأحد أذهب إلى الكنيسة التى توجد بصلة فى قمتها، حيث أجلس محشورة فى سيارة أسرة سميث مع كافة أفراد هذه الأسرة: السيد سميث والسيدة سميث والخالة ميلدريد وأختا جريس الصغيرتان اللتان تكون فتحتا أنفيهما فى موسم الشتاء مليئتين بمخاط له لون أصفر/ أخضر، ويبدو أن السيدة سميث مسرورة من هذه الترتيبات، ولكنها مسرورة أيضًا من نفسها لأنها تقدم الإحسان، وهى ليست مسرورة منّى بصفة خاصة لأننى أستطيع أن أدرك ذلك من خلال الخط الموجود بين حاجبى عينيها عندما تنظر إلىَّ على الرغم من أنها تبتسم بشفتيها المغلقتين، ومن خلال طريقة تساؤلها باستمرار عما إذا كنت أحب إحضار أخى فى المرة التالية أو إحضار والدىَّ، وأركز بصرى على ثديها الوحيد الذى يتجه على طول المسافة لأسفل نحو خصرها مع وجود قلبها الأحمر الغامق المنقط بنقط سوداء فى داخل صدرها فى حالة من النبض فى شهيق وزفير لاهث مثل سمكة ملقاة على الشاطئ، ثم أهزّ رأسى فى خجل، فشلى فى إحضار أعضاء أسرتى الآخرين يجعلنى أشعر بأنها توبخنى وتؤنبنى.

أقرأناكموه

لقد حفظتُ عن ظهر قلْب أسماء كتب الإنجيل كافة وفق ترتيبها والوصايا العشر والصلاة الربانية ومعظم مقاطع خطبة السيد المسيح على الجبل التى تبدأ بكلمة طوبى: Beautitudes، وبدأت أحصل على ١٠/١٠ فى الامتحانات التى تُعقد عن الإنجيل وفى الامتحانات التى تعتمد على الذاكرة.

ولكنى بدأت فى التداعى، فى مدرسة الأحد ينبغى علينا أن نقف ونتلو من الذاكرة بصوت مرتفع أمام الآخرين فترقبنى جريس، إنها ترقب كل شىء أفعله فى أيام الأحد وتقدّم لكورديليا تقريراً عنى.

"إنها لم تقف معتدلة القامة فى مدرسة الأحد بالأمس"، أو "لقد كانت فاضلة على نحو متكلَّف" وأنا أؤمن بصدق هذه التعليقات، فكتفاى متهدّلتان وعمودى الفقرى يتقوّس وأشاهد نفسى وأنا أمشى فى تثاقل وانحناء، وأبذل جهودًا لكى أقف معتدلة القامة وقد تخشب جسدى وتصلّب فى قلق، وصحيح أننى قد حصلت على ١٠/١٠ مرة أخرى فى حين أن جريس لم تحصل إلاّ على ١٠/٩، فهل من الخطأ أن أحصل على الدرجة النهائية؟ وما هى الدرجة الأقل التى ينبغى أن أحصل عليها لكى أبدو ممتازة من وجهة نظرهن؟ وفى خلال الأسبوع التالى أتعمد تقديم خمس إجابات خاطئة.

وتقول جريس فى يوم الاثنين: "لقد حصلتْ على خمسة من عشرة فى الامتحان الذى تناول الإنجيل" .

وتقول كورديليا: "إنها بدأت تصبح أكثر غباوة" وتضيف: "وأنت لست غبية فى حقيقة الأمر إلى هذه الدرجة، وينبغى عليك أن تبذلى مجهودًا أكبر من ذلك" .

* * *

اليوم هو يوم الأحد الخاص بالهدايا البيضاء، نحن جميعًا قد أحضرنا طعامًا محفوظًا فى علب من المنزل من أجل الفقراء، والمعلبات ملفوفة فى مناديل ورقية بيضاء اللون والمعلبات التى أحضرتُها هى معلبات حساء البازلاء ماركة هابيتانت

وماركة سبام، وأشك فى أنها أشياء خاطئة وغير ملائمة، ولكنها هى الأشياء التى توجد لدى والدتى فى الدولاب، وفكرة الهدايا البيضاء تزعجنى وتقلقنى، لأنها هدايا صارمة ومتماثلة ومحوّلة إلى اللون الأبيض عقب إزالة هويتها وألوانها؛ ولذلك فهى تبدو ميتة، وقد يكون هناك أىّ شىء فى داخل تلك الحزمات البيضاء المشئومة الملفوفة فى المناديل الورقية والمكتومة أمام الكنيسة.

أجلسُ أنا وجريس على المقاعد الخشبية الطويلة الموجودة فى بدروم الكنيسة ونرقب السلايدات المضاءة المعروضة على الحائط مع التغنّى مع كلمات الأغنيات بينما البيانو يواصل العزف فى تثاقل بين طيات الظلام:

السيد المسيح يدعونا لأن نسطع فى إشراق

فى ضوء صافٍ وواضح ونقى

مثل شمعة صغيرة

تشتعل فى الليل

فى هذا العالم يوجد ظلام

لذلك هيا بنا نسطع ونشرق

فأنت تسطع فى الركن الصغير الخاص بك

وأنا أسطع فى الركن الصغير الخاص بى

أريد أن أضىء فى تألق مثل شمعة، أريد أن أكون طيبة، أريد أن أتَّبع التعليمات وأنفذ الأوامر وأفعل ما يأمر به السيد المسيح، أريد أن أؤمن بأنه ينبغى عليك أن تحبّ جيرانك مثل حبك لنفسك، وأريد أن أؤمن بأن مملكة الربّ موجودة فى داخل كيانك، إلاَّ أن كل هذا يبدو أمرًا متعذّر الحدوث فى الحياة الواقعية.

فى الظلام أشاهد ومضة ضوء عند الطرف الجانبى، إنها ليست شمعة، وإنما هى ضوء ساقط على الحائط ومنعكس على نظارة جريس، إنها تحفظ الكلمات عن ظهر قلب وبذلك فهى ليست بحاجة لأن تنظر إلى الشاشة، إنها ترقبنى.

عقب الانتهاء من مراسم الكنيسة، أذهب مع أفراد أسرة سميث عبر الشوارع الشاغرة ليوم الأحد لكى نرقب القطارات التى تتهادى جيئةً وذهابًا على طول القضبان الحديدية الخاصة بها والموجودة فى السهل الرمادى بجوار البحيرة المنبسطة، ثم أذهب معهم إلى منزلهم من أجل تناول غداء يوم الأحد، وهذا يحدث الآن فى كل يوم من أيام الأحد فهو جزء من الذهاب للكنيسة، وإذا اعتذرت عن تناول الغداء معهم سيكون ذلك بمثابة تصرف ردىء للغاية.

ولقد تعلمت الطريقة التى يتم بها إنجاز الأمور هنا؛ إذ أصعد على السلالم متخطية شجرة المطاط ودون أن ألمسها وأذهب إلى حمام آل سميث وأستهلك أربع قطع من ورق التواليت المربع الشكل وأغسل يدىّ بعد ذلك باستخدام صابون سميث الذى له لون أسود وبه حبيبات خشنة، ولم أعد بحاجة لأن يذكرنى أحد بهذه الأمور، وأحنى رأسى تلقائيًا عندما تقول جريس: "من أجل ما نحن على وشك تناوله من طعام فليجعلنا الربُّ شاكرين له حقًا، آمين".

ويقول السيد سميث وهو يبتسم حول المائدة: "لحوم الخنزير والفاصوليا والفول هى الطعام الموسيقىّ، فكلما أكثرت من تناولها زادت الموسيقى الخاصة بك"، ولا تعتقد السيدة سميث والخالة ميلدريد أن هذا شىء فكاهى مثير للضحك، وتنظر الفتاتان الصغيرتان إليه فى وقار، وهما ترتديان نظارتين ولهما بشرة مليئة بالنمش ولهما أقواس الأحد على خصلات شعرهما البنى الشبيه بالأسلاك تمامًا مثل جريس.

وتقول السيدة سميث: "لويد **Lloyd**"، فيقول السيد سميث: "هذا لا ضرر منه"، ويحدق فى وجهى ويقول: "إيلين تعتقد أن هذا مثير للضحك، أليس كذلك يا إيلين؟".

وأشعر أننى وقعتُ فى ورطة، ماذا يمكن لى أن أقوله؟ إذا قلت: "لا"، فإن هذه الإجابة ستكون متسمة بالوقاحة، وإذا قلت: "نعم" فإننى بذلك أكون قد وقفتُ فى صفّه ضد السيدة سميث والخالة ميلدريد وضد بنات سميث الثلاثة بما فى ذلك جريس، وأشعر بجسدى يتفجر بالسخونة ثم يتحول إلى البرودة، بينما السيد سميث يبتسم لى ابتسامة شخص متآمر.

فأرد قائلة: "لستُ أدرى"، والإجابة الحقيقية هى: "لا، لأننى فى الواقع لا أعرف معنى هذه النكتة"، ولكننى لا أستطيع التخلى تمامًا عن السيد سميث، صحيح أنه رجل قصير بدين أصلع ومترهّل، ولكنه مع كل ذلك رجل، وهو لا يصدر آراء نقدية تتعلق بى.

وتحكى جريس هذه الواقعة لكورديليا فى صباح اليوم التالى داخل الأتوبيس المدرسى بصوتها القريب من الهمس، "لقد قالت إنها لا تعرف".

وتوجه كورديليا سؤالاً لى فى حدّة: "ما نوعية تلك الإجابة التى قلتيها؟ إمَّا أن تعتقدى أنها نكتة مثيرة للضحك أو لا، فلماذا قلت [لستُ أدرى؟]".

فأقول الحقيقة: "إننى لا أعرف معنى هذه النكتة" – "لا تعرفين معنى ماذا؟".

فأقول: "لا أعرف معنى كلمة: الطعام الموسيقى **Musical fruit**" وأضيف: "ولا أعرف معنى كلمة: كلما زادت الموسيقى الخاصة بك **the more you toot**" وأشعر الآن بالخجل والارتباك الشديدين لأننى لا أعرف معنى هذه التعبيرات، فعدم المعرفة هو أسوأ شىء فعلته.

فتنفجر كورديليا فى ضحكة مليئة بالاحتقار وتقول: "لا تعرفين معنى تلك العبارات؟ يا للغرابة! إن كلمة توت **toot** تعنى الضُّراط، فالبقول تجعلك تخرجين الضراط، وكل شخص يعرف هذه الحقيقة".

أشعّر بالمزيد من الحرج والاضطراب لأننى لم أكن أعرف ولأن السيد سميث قد قال كلمة: ضراط **fart** على مائدة طعام غداء الأحد وضمنى إلى قائمة من يناصرونه فلم أقل له: لا، كلمة **fart** فى حدّ ذاتها ليست هى التى تجعلنى أشعر

أقرأناكموه

بالخجل والارتباك؛ فأنا معتادة على هذه الكلمة لأن أخى وأصدقاءه يقولون هذه الكلمة فى كل وقت لا يكون فيه أناس يافعون منصتين، ولكن ما يجعلنى أشعر بالخجل هو أن هذه الكلمة قيلت على مائدة الغذاء الخاصة بآل سميث والتى تعتبر قلعة للصلاح وحصنًا للمبادئ الأخلاقية القويمة.

ولكن فيما بينى وبين نفسى لا أعترف بأخطائى، فولائى للسيد سميث شبيه بولائى لأخى، فكلاهما يقف فى صف عيون الثور وأوساخ أصابع القدم التى تُعرض تحت الميكروسكوب، فهما يخرجان وهما ينتهكان، ينتهكان من؟ ويخربان ماذا؟ إنهما ينتهكان جريس والسيدة سميث ويخربان السيدات الورقية الأنيقات اللائى يتم لصقهن فى دفاتر القصاصات، وكان ينبغى على كورديليا أن تقف مع هذا الجانب أيضًا، وهى أحيانًا تقف مع هذا الجانب وأحيانًا أخرى لا تقف معه، من الصعب أن تعرف على وجه الدقة.

* * *

(٢٤)

فى أوقات الصباح يكون اللبن متجمدًا وتكون القشدة بازغة فى أعمدة ثلجية حبيبية من أعناق الزجاجات، تنحنى الآنسة لاملى على مكتبى بينما سروالها الفضفاض المزموم عند الركبتين ذو اللون الأزرق الداكن غير المرئى يلقى بهالة كئيبة حولها، وعلى جانبى أنفها تتهدل البشرة لأسفل مثل فكّى كلب من نوع "البُلْدج"، كما توجد آثار بصاق جاف فى زاوية فمها، وتقول: "خط يدك فى الكتابة آخذ فى التدهور"، فأنظر إلى الصفحة الخاصة بى فى فزع، إنها على حقّ؛ فالحروف لم تعد مستديرة وجميلة وإنما أصبحت عنكبوتية ومسعورة ومشوهة ببقع من الحبر الأسود، الصدأ فى الأماكن التى ضغطت فيها بشدة على طرف السن المصنوع من

الصلب، وتقول: "ينبغى عليك أن تبذلى المزيد من الجهد لكى يتحسن خطك"، أقوّس أصابعى لأسفل، لأننى أعتقد أنها تنظر إلى الحواف الممزقة للجلد، وكل شىء تقوله وكل شىء أفعله تسمعه وتراه كارول وسوف تقدّم تقريرًا عنه فيما بعد.

* * *

كورديليا مشتركة فى تمثيل مسرحية، ونحن نذهب لكى نشاهدها، هذه هى أول مسرحية أذهب لمشاهدتها وبالتالى كان ينبغى أن أكون فى حالة من الإثارة، وبدلاً من ذلك فإننى مليئة بالرهبة والفزع لأننى لا أعرف أىّ شىء عن إتيكيت الذهاب لمشاهدة مسرحية، وبالتالى فأنا متأكدة من أننى سأفعل شيئًا ما خاطئًا المسرحية تُعرض فى قاعة إيتون للاجتماعات، والمسرح به ستائر زرقاء لها شرائط أفقية مخملية سوداء، وتتفرج الستائر لكى تكشف عن مسرحية "الرياح بين أشجار الصفصاف"، وجميع الممثلين من الأطفال، وكورديليا تقوم بدور حيوان يسمى: ابن عرس **weasel**، ولكن نظرًا لأنها ترتدى زىّ ابن عرس وهذا الزى له رأس ابن عرس، فإنه من المتعذر تمييزها من بين أبناء العرس الآخرين كافة. أجلس فى المقعد المخملى الوثير بالمسرح وأقضم أظافرى وأمدّ رقبتى باحثةً عن كورديليا، إدراكى بأنها موجودة على خشبة المسرح، ولكن دون أن أعرف مكانها يعتبر أسوأ الأمور، فهى يمكن أن تكون موجودة فى أىّ مكان.

الراديو يملأ الجو بموسيقى عاطفية خاصة بأغنية "إننى أحلم بكريسماس أبيض" وأغنية "رودولف حيوان الرّنة ذو الأنف الأحمر" اللتين يكون علينا أن نتغنى بهما بالمدرسة ونحن واقفات بجوار مكاتبنا بينما الآنسة لاملى تزمّر فى مزمار النغم الخاص بها لكى تؤكد على النغمة الموسيقية مع الحفاظ على الإيقاع من خلال استخدام مسطرتها الخشبية وهى المسطرة نفسها التى تضرب بها أيدى الأولاد بشدة عندما يتململون فى قلق، ورودولف يزعجنى لأنه يوجد هناك شىء خاطئ يتعلق به ولكنه فى الوقت نفسه يقدم لى الأمل لأنه أصبح فى النهاية

أقرأناكموه

محبوبًا، ويقول والدى إنه بمثابة تعبير تجارى جديد مثير للاشمئزاز والغثيان، ويقول: "سرعان ما ينفصل الشخص الأحمق عن نقوده".

نقوم بتصنيع أجراس حمراء من خلال استخدام ورق الرسم ومع الحرص على طىّ الورقة إلى نصفين قبل تصنيع الشكل، ونحن نقوم بتصنيع الإنسان الثلجى بالطريقة نفسها، إنها طريقة الآنسة لاملى من حيث الحرص على السيمترية، كل شىء ينبغى أن يُطوى وكل شىء ينبغى أن يتحوّل إلى نصفين نصف أيسر ونصف أيمن متماثلين.

أقوم بإنجاز هذه الأعمال المهرجانية البهيجة مثل الشخص الذى يسير وهو نائم، ولا أشعر بالاهتمام والولع إزاء الكرات أو الناس الثلجيين أو سانتا كلاوس **Santa Claus** الذى لم أعد أؤمن به منذ أن قالت لى كورديليا إن سانتا كلاوس ليس سوى والديك فى حقيقة الأمر.

توجد حفلة كريسماس فى الفصل المدرسى، وهى تتألف من فطائر أُحضرت من المنزل وأكلت فى صمت على مكاتبنا علاوة على حبوب جيلى متعددة الألوان أحضرتها الآنسة لاملى بحيث يأخذ كل طفل خمس حبات فقط، فالآنسة لاملى تعرف التقاليد والعادات المتبعة وتلتزم بها فى صرامة.

وفى الكريسماس أحصل على دمية بربارا آن سكوت التى قلت إننى أرغب فى الحصول عليها، وكان علىَّ أن أقول إننى أرغب فى شىء ما وأنا كنت أرغب على نحو ما فى هذه الدمية، فأنا لم يسبق لى أن حصلتُ على أىّ دميات لها شكل بنت على الإطلاق، وبربارا آن سكوت هى إنسانة مشهورة فى التزحلق على الجليد، بل وهى مشهورة للغاية؛ فلقد فازت بجائزتين، وسبق لى أن قمتُ بدراسة صورها التى نُشرت فى الجريدة.

والدمية التى تعبّر عنها لها مزالج صغيرة جلدية وزىّ موشّى بالفراء الذى له لون وردى ولون أبيض ولها عينان بهما أهداب تنفتح وتغلق، ولكنها لا تشبه على الإطلاق بربارا آن سكوت الحقيقية، فوفقًا للصور المنشورة بالجريدة نجد أنها تتسم

بالعضلات القوية ولها فخذان كبيران... ولكن الدمية عبارة عن عصا رفيعة، هذا بالإضافة إلى أن بربارا امرأة بينما الدمية فتاة صغيرة، والدمية لا تدب فيها الحياة، فهى عديمة الحياة مما يجعل الرعب يزحف متصاعدًا فى داخل كيانى، أعيد الدمية إلى صندوقها المصنوع من الورق المقوى وألف الورق الشفاف حولها وفوق وجهها، وأقول إننى أفعل ذلك لكى أجعلها فى أمن وأمان، ولكننى فى حقيقة الأمر لا أريد لها أن ترقبنى.

وفوق الأريكة الخاصة بنا توجد شبكة البُدمنتُن المزدانة بفساطين عبْر الحائط. وفى مربعات هذه الشبكة علّق والداى بطاقات الكريسماس الخاصة بهما، ولا يوجد شخص ما آخر أعرفه لديه شبكة البُدمنتُن مثل هذه على الحائط الخاص به، وشجرة الكريسماس الخاصة بكورديليا لا تشبه أشجار الآخرين، فهى مغطاة بشعر ملائكى شفاف وكل الأنوار والديكورات الموجودة بها لون أزرق، ولكنها يمكن أن تفلت من العواقب الوخيمة رغم وجود مثل هذه الاختلافات، أمَّا أنا فلا يمكن لى أن أفلت من العقاب، وأدرك أننى سأتعرض للعقاب إن عاجلاً أو آجلاً بسبب وجود شبكة البُدمنتُن لدينا.

* * *

نجلس حول المنضدة ونتناول معًا طعام الغداء بمناسبة الكريسماس، يوجد أحد تلاميذ والدى، إنه شاب من الهند، موجود هنا لكى يدرس الحشرات وهو لم يسبق له أن شاهد الثلج من قبل على الإطلاق، ولقد وجهنا الدعوة له لكى يتناول غذاء الكريسماس معنا نظرًا لأنه شخص أجنبى ونظرًا لأنه على مسافة بعيدة من وطنه وبالتالى سوف يكون وحيدًا بل وهم فى بلاده لا يكون لديهم كريسماس، وهو شاب مؤدب ومضطرب وقلق ويضحك كثيرًا وينظر فى رعب على ما أعتقد إلى الأصناف العديدة من الطعام المعروضة أمامه المتمثلة فى البطاطس المهروسة وصلصة مرق اللحم وأنواع السلاطة والديك الرومى الهائل، ولقد قالت أمى إن الطعام هناك من نوع مختلف، أعرف أنه بائس وأنه يخفى بؤسه تحت أدبه

أقرأناكموه

وابتساماته. لقد بدأت تتكوّن لديَّ مهارة بارعة فى هذا الشأن؛ إذ أصبح بمقدورى اكتشاف البؤس المخبأ فى داخل الآخرين دون أن أبذل أىّ مجهود على الإطلاق.

يتصدّر والدى المائدة ويشعّ فى إشراق مثل عملاق أخضر مبتهج ومخمور بعض الشىء، ويرفع كأسه إلى فمه بينما عيناه الشبيهتان بعينى القزم الخرافى الذى يحرس كنوز باطن الأرض تومضان فى تلألؤ، ويقول: "ياسيد بانيرجى **Banerji**. يا سيدى" وهو دائمًا يستخدم كلمة سيد .**Mr** وكلمة آنسة **Miss** عندما يتحدث مع طلابه وطالباته، ويضيف: "لا يمكن لك أن تطير على جناح واحد".

ويضحك السيد بانيرجى ويقول بصوته الذى يشبه صوت المذيع فى نشرة أخبار إذاعة بى بى سى **BBC** :"هذا صحيح تمامًا يا سيدى"، ويرفع الكأس الخاص به ويرتشف كأسه المليئة بالخمور، أمَّا كأسى وكأس أخى فيوجد بهما عصير التوت البرّى، فى السنة الماضية أو فى السنة قبل الماضية كنا نحرض على ربط شرائط حذاءينا مع بعضهما البعض تحت المنضدة، حتى يمكن لنا أن نصدر إشارات لبعضنا البعض من خلال إصدار حركات جذب سرية ولكننا تخطينا معًا هذه المرحلة الآن لأسباب مختلفة.

والدى يغرف بالكبشة حشوة الديك الرومى، ثم يقطّع الديك إلى شرائح ووالدتى تضيف البطاطس المهروسة وصلصة التوت البرى، وتسأل السيد بانيرجى – مع الحرص على النطق بالألفاظ فى وضوح شديد – عما إذا كان لديهم فى بلاده ديوك رومى، فيقول إنه لا يعتقد أن بلاده توجد بها ديوك رومى، أجلس على المنضدة فى مواجهته وقد تدلت قدماى مع الحملقة فى وجهه والإعجاب الشديد به. معصماه النحيلان يبرزان من أسورتى قميصه الواسعتين ويداه طويلتان ونحيلتان وممزقتان عند الأظافر مثلى، وأعتقد أنه وسيم وجميل للغاية ببشرته البنية اللون وبأسنانه الناصعة البياض وبعينيه السوداوين المروعتين، ويوجد أطفال لهم هذه الألوان نفسها فى حلقة الأطفال المطبوعة على صفحة الغلاف الأمامية لكتاب التبشير الخاص بمدرسة الأحد ؛ حيث يوجد أطفال لهم لون أصفر وآخرون لهم لون بنى ويرتدون أزياء مختلفة ويرقصون حول السيد المسيح، والسيد بانيرجى ليس لديه

زى قومى خاص به وليس لديه سوى چاكيت ورباط عنق مثل الرجال الآخرين. ومع ذلك فأنا لا أكاد أصدق أنه رجل، فهو يبدو غير شبيه للغاية برجل، وإنما هو مخلوق قريب الشبه بى، فهو غريب ومغاير وخائف، فهو خائف منّا، وليس لديه أدنى فكرة عما سنفعله فى الخطوة التالية أو عن الأمور المستحيلة التى سنتوقعها منه أو عن الأشياء التى سنجعله يتناولها، ولا عجب فى أنه يعض أصابعه.

ويوجـــه والدى سؤالاً للسيد بانيرجى: "على مسافة قليلة من العظم الصدرى؟". فيشرق وجه بانيرجى لدى سماع تلك الكلمة: **sternum**.

ويقول: "آه، العظم الصدرى" فأدرك أنهما قد دخلا معًا فى عالم البيولوجيا الخاص بهما والذى يعتبر مأوى يمكن اللجوء إليه لدى الهروب من العالم الحقيقى البشع الخاص بالسلوك الحسن وحالات الصمت التى نعايشها فى تلك اللحظة، ولدى قيام والدى بتقطيع لحوم الديك إلى شرائح مستخدمًا سكين تقطيع اللحوم فإنه يبيّن لنا جميعًا – وخاصةً السيد بانيرجى – الأماكن التى تتصل بها عضلات الطيران مستخدمًا الشوكة كمؤشّر، ويقول إن الديك الرومى الأليف الداجن قد فَقَد بالطبع القدرة على الطيران.

ويقول والدى: "**Meleagris gallopavo**" فينحنى السيد بانيرجى للأمام لأن اللغة اللاتينية تبث النشاط والبهجة فى كيانه، ويُضيف والدى: "ويمكن لك أن تقول عنه إنه حيوان عبيط وساذج، وتتم تربيته بسبب مقدرته على الامتلاء واكتساب الوزن وخاصةً فى منطقة الوصلات الفخذية الكاحلية، وبكل تأكيد لا تتم تربيته من أجل الاستخبارات، وقد استُؤنس فى بداية الأمر على أيدى شعب المايا **Mayans**" ويحكى قصة عن مزرعة ديوك رومى؛ حيث ماتت كل الديوك الرومى الموجودة بها؛ لأنها كانت غبية للغاية مما جعلها لا تدخل إلى حظائرها أثناء عاصفة رعدية، حيث ظلت واقفة بالخارج مع النظر لأعلى نحو السماء مع فتح مناقيرها فتدفق الماء إلى حلْقها فماتت غرقًا، وهو يقول إن هذه القصة قد رواها الفلاحون، ولكنها ربما لا تكون قصة صادقة رغم أن غباء هذا الطائر قد ورد فى الأساطير القديمة، ويقول إن الديك الرومى البرى الوحشى الذى كان موجودًا بوفرة ذات يوم فى

الغابات غير الدائمة بهذه المناطق يعتبر أكثر ذكاءً، بل ويمكن له أن يراوغ الصيادين المحترفين، كما يمكن له الطيران فى الهواء أيضًا.

أجلس متناولة الطعام فى تأنق وتكلّف مثلما يفعل السيد بانيرجى، وكل منا لم يأكل كثيرًا من البطاطس المهروسة الموجودة فى الطبق، الأشياء البرية المتوحشة أكثر جمالاً من الأشياء الأليفة، وهذا أمر واضح بما فيه الكفاية، والأشياء البرية المتوحشة تكون مراوغة وماكرة ومخادعة وملتزمة بشدة الحذر والتيقّظ، إننى أقسم الناس الذين أعرفهم إلى: برّى وأليف، فأمى برية ووالدى وأخى بريَّان، وكذلك السيد بانيرجى برىّ أيضًا، ولكن فى نوع من الخجل والفزع والجفول، أمَّا كارول فهى أليفة، وكذلك جريس أليفة أيضًا ولكن مع وجود الآثار البرية، ولكن كورديليا برية تمامًا.

ويقول والدى: "لا توجد حدود للشراهة البشرية" فيقول السيد بانيرجى: "أهذه حقيقة يا سيدى؟" بينما والدى يستطرد فى الكلام قائلاً إنه قد سمع أن شخصًا ما من رفقاء السلاح يجرى تجارب من أجل إنتاج ديك رومى له أربع وصلات فخذية كاحلية بدلاً من وصلتين وجناحين؛ لأنه توجد المزيد من اللحوم فى الوصلة الفخذية الكاحلية.

ويسأل السيد بانيرجى: "وكيف يمكن لمثل هذا المخلوق أن يمشى يا سيدى؟" فيقول والدى فى موافقة على التساؤل: "حسنًا، لك الحق فى توجيه هذا السؤال"، ثم يقول للسيد بانيرجى إن بعض العلماء المتسمين بالسخافة يجرون التجارب الآن من أجل إنتاج ثمرة طماطم مربعة الشكل بهدف تعبئة الطماطم فى كراتين بسهولة أكثر مما لو كانت الطماطم من النوعية المستديرة الشكل.

ويقول: "ولسوف يتم التضحية بالنكهة والطَّعم وبكل الصفات المميزة الخاصة بالطماطم بالطبع"، فهم لا يهتمون على الإطلاق بالنكهة، ولقد أنتجوا بالفعل كتكوتًا عاريًا من الريش على زعم أن الدواجن الخالية من الريش ستبيض المزيد من البيض من خلال الاستفادة من الطاقة التى تم توفيرها من إنتاج الريش، ولكن

الكتكوت الخالى من الريش أخذ يرتعد من البرد الشديد مما جعلهم يضاعفون التدفئة فى بيت الدجاج ومن هنا ارتفعت التكلفة أكثر فى نهاية الأمر".

فيقول السيد بانيرجى: "إنهم يعبثون ويتدخلون فى شئون الطبيعة، يا سيدى". وأعرف بالفعل أن هذه هى الاجابة الصحيحة، فتفحّص الطبيعة ودراستها وحماية الإنسان من مخاطر الطبيعة وفق حدود معينة هو شىء مفيد ومختلف تمامًا عن العبث بالطبيعة والتدخل فى شئونها.

ويقول السيد بانيرجى إنه قد سمع أن العلماء قد تمكنوا بالفعل من إنتاج قطة عارية من الشعر؛ حيث قرأ ذلك فى إحدى المجلات وإن كان هو نفسه لا يستطيع أن يدرك الهدف من وراء ذلك على الإطلاق، وهذا هو معظم ما قاله من كلام أثناء تناول الطعام.

ويتساءل أخى عما إذا كانت هناك أية ثعابين سامة فى الهند، فيبدأ السيد بانيرجى الذى أصبح الآن متحررًا أكثر من ذى قبل من الارتباك فى سرد أنواع الثعابين، وتبتسم والدتى لأن هذا الموضوع يسير على نحو أفضل مما كانت تظن، فهى ليس لديها مانع من التطرق إلى موضوع الثعابين السامة، حتى ولو كان ذلك على مائدة الغداء ما دام هذا الموضوع يجعل الناس سعداء.

لقد انتهى والدى من تناول كل الطعام الموجود فى الطبق الخاص به ويبحث عن المزيد من الحشو الموجود فى جوف الديك الرومى الذى يشبه طفلاً رضيعًا مُكتّفًا وخاليًا من الرأس، لقد أزاح تنكره من حيث هو وجبة طعام وكشف عن نفسه لى من حيث هو طائر كبير ميت. إننى أقوم بأكل جناح، إنه جناح ديك رومى أليف... إنه أغبى طائر فى العالم، فهو غبىّ للغاية، حتى إنه لم يعد بمقدوره أن يطير، إننى آكل الطيران المفقود.

* * *

(٢٥)

عقب الكريسماس تُعرض عليّ وظيفة، وهى أن أدفع بريان فاينشتاين حول العمارة السكنية فى عربة الطفل الرضيع الخاصة به عقب مجيئى من المدرسة لمدة ساعة أو لفترة أطول قليلاً إذا لم يكن الجو باردًا للغاية مرة واحدة أسبوعيًا، وفى نظير ذلك أحصل على ٢٥سنتًا وهو يعد ميلغًا كبيرًا من المال.

وآل فاينشتاين يعيشون فى منزل بجوار منزلنا، وهو المنزل الكبير الذى شُيد فجأة فى المكان نفسه الذى كان يوجد فيه جبل الطين، والسيدة فاينشتاين قصيرة من حيث هى امرأة وممتلئة ولها شعر متموج أسود اللون وأسنان جميلة بيضاء، وغالبًا ما تظهر أسنانها البيضاء نظرًا لأنها تضحك كثيرًا، وتجعد أنفها لأعلى مثلما يفعل كلب صغير، وتهزّ رأسها مما يجعل قُرطها الذهبى يتلألأ، وأنا لستُ متأكدة ولكننى أعتقد أن هذا القرط يدخل بالفعل فى ثقبين صغيرين موجودين فى أذنيها وذلك بخلاف أىّ قرط آخر سبق لى مشاهدته.

أدق جرس الباب وتقوم السيدة فاينشتاين بفتحه، وتقول لى: "يا منقذة حياتى الصغيرة". أنتظر فى الردهة بينما حذائى الشتوى ذو الرقبة يقطر ماء على الجرائد المنشورة المنبسطة، وتقوم السيدة فاينشتاين التى ترتدى معطفًا منزليًا وردى اللون وشبشبًا له كعب عالٍ وفراءً حقيقيًّا بالصعود على السلالم لكى تحضر بريان، والردهة تفوح منها رائحة أحفضة الطفل بريان المنقوعة فى النشادر والموجودة فى دلو فى انتظار أن تأخذها شركة الحفاض، تثيرنى فكرة أن يجىء شخص ما آخر ويأخذ الغسيل الخاص بك، والسيدة فاينشتاين لديها دائمًا سلطانية مليئة بالبرتقال فوق منضدة تقع على مسافة خطوات من الردهة، ولا أحد آخر يترك البرتقال فيما حوله على هذا النحو عندما لا يكون الوقت هو الكريسماس، وخلف السلطانية يوجد شمعدان له لون ذهبى وشبيه بشجرة، وهذه الأشياء لها

رائحة براز الطفل الرضيع الصادرة عن الأحفضة + سلطانية البرتقال + الشجرة الذهبية، تختلط داخل ذهنى وتكوّن صورة للثقافة الرفيعة للغاية.

وتنزل السيدة فاينشتاين على السلالم حاملة بريان الموجود داخل بدلة زرقاء أرنبية لها أذنان ومغلقة بالسوستة، وتعطيه قبلة كبيرة على خده وتهزه لأعلى ولأسفل ثم تضعه فى العربة، وتجذب لأعلى غطاء العربة الواقى من الأمطار، وتقول: "انطلق يا بريان"، وتضحك وتجعد أنفها وتهزّ قرطها الذهبى. بشرتها مصقولة وتفوح منها رائحة اللبن، إنها لا تشبه أىّ أمّ أخرى شاهدتها من قبل.

أقود بريان الجالس بالعربة إلى الهواء البارد، ونبدأ فى التجول حول البلوك وفوق الثلج المنسحق المنتشر مع رماد الأفران الناجم عن مواقد الناس والمنقط هنا وهناك بروث الخيول المتجمد المستدير الشبيه بالكعك، ولا أعرف كيف سيتمكن بريان من التداخل مع تفكير السيدة فاينشتاين لأنه لا يبكى على الإطلاق، ولأنه لا يضحك على الإطلاق، وإنما يكتفى بالاستلقاء هناك فى عربته محملقًا فى وقار لأعلى نحوى بعينيه المستديرتين الزرقاوين، بينما أنفه الشبيهة بزرار تزداد احمرارًا واحتقانًا، لا أبذل أية محاولات لإدخال التسلية عليه، ولكنى أشعر بالارتياح إليه؛ فهو صامت ولكنه أيضًا ضعيف التمييز.

وعندما أعتقد أن الوقت قد حان لكى أعود به بعربته تقول السيدة فاينشتاين: "لا تقولى لى إن الوقت قد أصبح فى الساعة الخامسة بالفعل؟" وأطلب منها أن تعطينى قطعًا نقدية من فئة الخمسة سنتات بدلاً من ربع الدولار، لأن النقود الفكّة تبدو كأنها مزيد من النقود، فتضحك كثيرًا عندما أقول ذلك ولكنها تنفذ لى رغبتى. أحتفظ بكل نقودى فى علبة صفيح قديمة للشاى عليها صورة للصحراء وأشجار النخيل والجمال، وأجد متعة فى استخراج نقودى ونشرها على سريرى، وبدلاً من القيام بالعدّ والإحصاء أقوم بترتيبها وفقًا للتاريخ المطبوع على كل قطعة نقدية: ١٩٣٥، ١٩٤٢، ١٩٤٥ وكل قطعة نقدية عليها رأس ملك مقطوعة عند الرقبة ولكن الملوك مختلفين، رؤوس الملوك المنتمين للفترة السابقة على ولادتى لديها لحيات، ولكن رأس الملك الحالى ليس لها لحية؛ لأنها رأس الملك جورج وهى

أقرأناكموه

صورته نفسها الموجودة فى الجزء الخلفى من حجرة الدراسة، وأشعر بارتياح من نوع عجيب عندما أقوم بتصنيف هذه النقود إلى كومات من الرؤوس المقطوعة.

* * *

أقوم أنا وبريان بالدوران بالعربة حول المبنى الضخم السكنى، ثم ندور حوله مرة أخرى، ومن الصعب علىّ أن أعرف عندما تنقضى ساعة زمنية، لأننى ليس لدىّ ساعة يد. كورديليا وجريس تظهران عند الناصية أمامى مع سيْر كارول خلفهما فى تثاقل، ويشاهدننى ويجئن نحوى.

وتوجه كورديليا سؤالاً لى: "ما هو الكلام السجع المُقَفَّى الذى تستخدمه إيلين؟" ولا تنتظر لحين أن أرد عليها، فتضيف: "إيلين تعانى من الآلام **Elaine is a pain**".

وتحملق كارول فى عربة الطفل الرضيع، ثم تقول: "انظرى إلى أذن الأرنب" وتضيف: "ما اسمه؟"، صوتها به مسحة من الحزن والكآبة والتشوق، أشاهد بريان فى ضوء جديد، ليس كل شخص مسموح له بأن يقود عربة طفل رضيع.

وأقول: "إنه يسمى بريان فاينشتاين" فتقول جريس: "فاينشتاين هو اسم يهودى **Jewish**".

ولا أعرف معنى كلمة **Jewish**، لقد سبق لى مشاهدة كلمة يهودى Jew، فالإنجيل مليء بتلك الكلمة، ولكننى لم أكن أعرف أنه يوجـد أفراد حقيقيون منهم ما زالوا على قيد الحياة وبصفة خاصة فى المسكن المَجاور لى.

وتقول كارول: "اليهود أناس منحطون وسوقيون وعدوانيون وجديرون بالازدراء **Kikes**" ، ثم تنظر إلى كورديليا لكى تحصل على موافقتها على هذا الرأى. فتقول كورديليا لها: "لا تكونى بذيئة، فنحن لا نستخدم كلمة مثل كلمة: **kike**".

* * *

أسأل والدتى عن معنى كلمة: يهودى **Jewish** ، فتقول إن هذا هو اسم نوع مختلف من الدين، وتشير إلى أن السيد بانيرجى ينتمى أيضًا لنوع مختلف من الدين ولكن ذلك الدين ليس هو الدين اليهودى؛ إذ توجد أنواع عديدة ومختلفة من الأديان، وبالنسبة لليهود نجد أن هتلر قد قام بقتل عدد كبير منهم أثناء الحرب.

فأقول: "ولماذا قتلهم؟".

فيقول والدى: "لأن هتلر كان مختلاً عقليًا ومعتوهًا... **demented**".

ويضيف: "لقد كان مصابًا بجنون العظمة **megalomaniac**"، ولا أستطيع فهْم كلامه لأننى لا أعرف معنى هاتين الكلمتين الإنجليزيتين.

فتوضح أمى الأمور وتقول لى: "قصارى القول إن هتلر إنسان شرير".

* * *

أدفع بعربة بريان فوق الثلج المليء برماد الأفران مع الحرص على الابتعاد عن الحفر بالطريق، وينظر لأعلى نحوى فى حملقة جاحظة وقد احمر أنفه بينما فمه الصغير مزموم فى غير ابتسام ، بريان لديه بُعْد جديد، إنه يهودى، وهو بذلك يوجّد لديه شيء ما إضافى ومتسم بمسحة من البطولة، ولا حتى الأذنان الزرقاوان لبدلته الأرنبية يمكن أن تنتقص من ذلك، وكلمة يهودى **Jewish** تتلاءم مع الحفاض والبرتقال الموجود فى السلطانية ومع القرط الذهبى للسيدة فاينشتاين ومع ثقبى أذنيها المحتمل أن يكونا حقيقيين، بل تتلاءم أيضًا مع مسائل قديمة ومهمة، وأنت لا يمكن لك أن تتوقع مشاهدة شخص يهودى فى كل يوم.

كورديليا وجريس وكارول موجودات إلى جوارى، وتتساءل كورديليا: "كيف حال الطفل الصغير الرضيع اليوم؟".

فأقول فى حرص وحذر: "إنه على ما يرام".

أقرأناكموه

فتقول كورديليا: "إننى لم أقصد السؤال عنه، وإنما قصدتُ السؤال عن حالك أنتِ".

وتسأل كارول: "أيمكن لى أن أقود عربته لبعض الوقت"؟ فأقول لها: "لا يمكن لى السماح لك بذلك"، فهى إذا أخطأت فى القيادة وتسببت فى وقوع بريان فاينشتاين على كومة جليدية ، فإن الغلطة ستكون غلطتى.

فتقول: "على كل حال لا أحد يرغب فى قيادة عربة طفل رضيع يهودى".

وتقول جريس فى تزمت: "اليهود قتلوا السيد المسيح، ولقد ورد ذلك فى الإنجيل".

ولكن اليهود لا يجذبون اهتمامات كورديليا كثيرًا، فهى تفكر فى أشياء أخرى. وتقول: "إذا قام رجل بصيد الأسماك، فإنه يسمى صياد أسماك **fisher**، فما الاسم الذى نطلقه على رجل يقوم بصيد البقّ **bugs**؟".

فأقول: "لستُ أدرى".

فتقول كورديليا: "أنتِ غبية للغاية، فتلك هى الوظيفة التى يقوم بها والدك، أليس كذلك؟ هيا فكرى، هيا خمّنى إنها كلمة بسيطة للغاية"

فأقول: "صيّاد للبقّ **bugger**(*)"

فتقول كورديليا: "وهل هذا هو رأيك فى والدك؟" وتضيف: "إنه أستاذ فى علم الحشرات، أيتها الفتاة الغبية، ينبغى أن تخجلى من نفسك، ينبغى أن تغسلى فمك بالصابون".

وأنا أعرف أن كلمة **bugger** كلمة قذرة، ولكننى لا أعرف السبب فى أنها قذرة، ولكننى تم التغرير بى وتضليلى، فأقول: "ينبغى علىَّ أن أذهب الآن"، وأبكى فى صمت أثناء قيادتى العربة والعودة ببريان إلى منزل السيدة فاينشتاين، بينما كان يرقبنى دون أن تظهر أية تعبيرات على وجهه، وأهمس له قائلة: "وداعًا يا بريان"

(*) كلمة "bugger" تعنى الشخص التافه أو اللوطى . (المترجم)

وأقول للسيدة فاينشتاين إننى لم أعد أستطيع القيام بهذه المهمة لأننى لدى كمية كبيرة من الأعمال المدرسية، ولا أستطيع أن أذكر لها السبب الحقيقى: وهو أنه على نحو ما غامض لا يكون بريان فى حالة من الأمن والأمان معى؛ إذ تكونت فى ذهنى صورة عن بريان وقد وضع رأسى داخل كومة ثلوج... وصورة أخرى عنه وهو يُقذف به فى عنف وهو فى داخل عربته إلى أسفل التل الثلجى بجوار جانب الكوبرى ونحو الممر الضيق المتعرج الملىء بمقابر الموتى.. وصورة أخرى عنه وهو يلقى به فى الهواء بينما أذناه الأرنبيتان تتطوحان لأعلى فى رعب هائل. لم يكن لدىَّ سوى مقدرة محدودة على أن أقول: "لا"، فتقول: "يا حبيبتى، هذا حسن، إننى موافقة على ذلك"، بينما تنظر إلى عينى المبللتين بالدموع، وتلف ذراعها حولى وتحتضننى وتعطينى قطعة نقدية أخرى من فئة الخمسة سنتات، لم يقل لى أىّ شخص من قبل عبارة "يا حبيبتى honey".

أذهب إلى منزلى وأنا أدرك أننى قد خذلتها وخذلتُ نفسى أيضًا، وأفكر كثيرًا فى كلمة: Bugger. وأكررها مرارًا وتكرارًا إلى أن تختفى فى داخل المقاطع اللفظية الخاصة بها: Erbug, erbug، إنها كلمة دون أىّ معنى مثل كلمة kike ولكنها تفوح منها رائحة البغض والحقد والضغينة، بالتالى فهى لديها نفوذ وقوة وسلطان، ما الذى فعلتُه بأبى؟

آخذ كل النقود التى حصلتُ عليها من السيدة فاينشتاين وأنفقها فى المتجر الذى يقع على الطريق الممتد من المدرسة إلى المنزل، فأشترى عرق السوس وحبوب الجيلى وعبوات من عصير الفواكه المثلجة التى يمتصها المرء من خلال أنبوبة رفيعة مصنوعة من القش، وأقتسم هذه الأشياء بالتساوى وأتصدق بها وأضعها فى الأيدى الممدودة لصديقاتى، وفى اللحظة السابقة نفسها على المنح والعطاء يغمرنى حبّ الأخريات.

* * *

(٢٦)

إنه يوم السبت، لم يحدث أى شىء طوال فترة الصباح، الكتل الجليدية المدلاة تتكون على النافذة الجنوبية وتقطر ماء تحت ضوء الشمس فى إيقاع ثابت مثل تقب راشح، وأمى تقوم بتحميص الخبز فى المطبخ، بينما والدى وأخى موجودان فى مكان ما آخر، أتناول طعام الغداء بمفردى وأرقب الكتل الجليدية المدلاة.

طعام الغداء يتكون من البسكويت الرقيق الهش الناشف وجبنة البرتقال وكوب من اللبن وسلطانية من الحساء الذى توجد به الحروف الهجائية، فوالدتى تعتقد أن حساء الحروف الأبجدية يعتبر متعة بهيجة بالنسبة للأطفال، فالحساء الأبجدى توجد به حروف طافية لها لون أبيض: الحرف الكبير A والحرف الكبير O والحرف الكبير S والحرف الكبير R والحروف التى تظهر من وقت لآخر مثل حرف X وحرف Z، وعندما كنت أصغر سناً كنت أصطاد هـذه الحروف وأستخرجها وأتهجى الأشياء باستخدام هذه الحروف ووضعها على حافة الطبق المسطح أو آكل اسمى حرفًا وراء حرف، أما الآن فإننى أكتفى بتناول الحساء بدون إبداء شغف خاص، الحساء له لون أحمر / برتقالى وله نكهة أو طعم مميز، أما الحروف فى حد ذاتها فليس لها مذاق معين.

جرس التليفون يدق، إنها جريس، إنها تقول : " أتريدين الخروج من أجل اللعب ؟ " بصوتها المحايد الذى هو فى الوقت نفسه خالٍ من الانفعال وغير رقيق مثل ورقة زلقة مصقولة، أدرك أن كورديليا واقفة بجوارها، إذا رفضت سيتم اتهامى بشىء ما، وإذا وافقت سأضطر إلى تنفيذ وعدى وأخرج بالفعل، فأقول : "نعم".

فتقول جريس: " لسوف نجىء إليك ونصطحبك ".

أشعر أن معدتى مرتبكة وثقيلة وكأنها مليئة بالتراب، أرتدى بذلة الثلج الخاصة بى وحذائى ذا الرقبة وقبعتى وقفازى، وأقول لوالدتى إننى خارجة لكى ألعب، فتقول: " احرصى على عدم التعرض للبرودة الشديدة ".

انعكاس الشمس على الثلج يخطف بالأبصار، توجد قشرة من الثلج فوق الرواسب المنجرفة حيث كانت الطبقة العلوية من الثلج قد ذابت ثم تجمدت مرة أخرى، حذائى ذو الرقبة يحدث انطباعات أقدام واضحة على قشرة الثلج، لا يوجد أى شخص في مكان قريب، أسير عبر التوهج الأبيض نحو منزل جريس، الهواء على عينى، أشعر أننى شبه شفافة... مثل يد ممدودة فوق ضوء مشعل كهربائى صغير أو مثل السمك الهلامى الذى سبق أن شاهدته فى المجلات طافيًا فى البحر مثل بالونات جسدية مائية، وفى نهاية الشارع أستطيع مشاهدتهن.... ثلاثة هياكل داكنة للغاية تتقدم فى السير نحوى، معاطفهن تكاد تبدو سوداء اللون، بل وحتى وجوههن عندما اقتربن منى كانت تبدو داكنة للغاية كما لو كن واقفات تحت ظلال.

وتقول كورديليا: " لقد قلنا إننا سنجيء إلى منزلك لكى نصطحبك، ولم نقل لك أن تجيئى إلى هنا " .

فلا أرد عليها بأى كلام.

فتقول جريس: " ينبغى عليها أن تجيب عندما نتحدث إليها "، وتقول كورديليا: " ماذا فى الأمر، هل أنت مصابة بالصمم ؟ ".

تبدو أصواتهن مترامية من بعيد، أستدير على جانب وأتقيأ على كومة ثلج، لم أكن أهدف إلى أن أتقيأ ولم أكن أعرف أننى بصدد أن أتقيأ، أشعر بالغثيان فى معدتى فى كل صباح وأنا معتادة على ذلك ولكن هذا هو الشيء الحقيقى ، الحساء الأبجدى المخلوط مع قطع من الجبنة الممضوغة والمكتسب لونًا أحمر / برتقاليًا على نحو مذهل فوق أرضية من الثلج الأبيض مع وجود حروف مدمرة ومبعثرة هنا وهناك.

أقرأناكموه

ولا تقول كورديليا أى تعليق، وتقول جريس : " يحسن بك أن ترجعى إلى منزلك ".

ويبدو على كارول الواقفة خلفهما وكأنها بصدد الصياح والبكاء، وتقول : "يبدو من وجهها أنها مريضة للغاية". أسير راجعة إلى منزلى بينما رائحة التقيؤ الموجودة على الجزء الأمامى من بذلتى تنفذ إلى أنفى علاوة على أن طعم القيء ينفذ إلى داخل أنفى وحلقى، أشعر بالقيء شبيهًا بقطع من الجزر.

أجلس فى سريرى مع وجود دلو التنظيف بجوارى بينما موجات الحمى تطفو فى خفة داخل كيانى، وأتقيأ مرات عديدة إلى أن لا يخرج من جوفى سوى عصير له لون أخضر فاتح، وتقول والدتى: "أعتقد أننا جميعًا سنصاب بالحمى من خلال العدوى "، وهى على حق فى قولها هذا، ففى أثناء الليل أستطيع سماع وقع أقدام سريعة وصوت تقيؤ وصوت جذب السيفون فى التواليت، أشعر بالأمن والأمان وبأننى صغيرة ومتدثرة وملفوفة فى داخل مرضى وكأننى ملفوفة فى صوف قطنى.

* * *

وأبدأ فى التعرض كثيرًا للمرض، فتقوم أمى فى بعض الأحيان بتفحص حلقى من خلال استخدام بطارية يد كهربائية ووضع يدها على جبهتى وأخذ حرارتى من خلال الترمومتر، ثم ترسلنى إلى المدرسة ولكن فى بعض الأحيان يسمح لى بالبقاء بالمنزل، وفى هذه الأيام التى أبقى فيها بالمنزل أشعر بالارتياح كما لو كنت قد ظللت أجرى لفترة طويلة ثم وصلت إلى مكان يمكن لى الارتياح فيه ليس للأبد ولكن لفترة محدودة من الوقت، فالإصابة بالحمى يعتبر أمرًا سارًّا وبهيجًا.. يعتبر إجازة، أستمتع ببرودة الأشياء وبيرة الزنجبيل الغازية التى تقدم لى لكى أتناولها.

أرقد فى السرير مستندة على الوسائد مع وجود كوب من الماء على كرسى بجوارى وأصغى للأصوات البعيدة المترامية من والدتى. صوت مضرب البيض

وصوت المكنسة الكهربائية وصوت الألحان الموسيقية الصادرة عن الراديو وصوت آلة تلميع الأرضية، ويتسلل ضوء شمس الشتاء فى ميل من خلال النافذة بين الستائر شبه المسدلة، لدى الآن ستائر، أنظر إلى الضوء الكهربائى بالسقف أو أنظر إلى أُكرة الباب.

وفى بعض الأحيان أقوم بقص الأشياء من المجلات وألصقها بمعجون فى دفتر القصاصات باستخدام صمغ لاباج من الزجاجة التى تشبه الفيل الخاص بلعبة الشطرنج، أقص صور نساء من مجلة " جود هاوسكيبنج " ومجلة " ليديز هوم " ومجلة " كاتلين "، وإذا كانت وجوههن لا تعجبنى، فإننى أقوم بقطع رؤوسهن ولصق رؤوس أخرى عليهن، وهؤلاء النساء لهن فساتين بها أكمام منتفخة ولهن تنورات كاملة ومرايل بيضاء تربط فى إحكام شديد حول الخصر، وهن تضعن مبيدات الجراثيم فى سلطانيات التواليت، أو تقمن بتلميع النوافذ أو تنظيف بشراتهن المنقطة باستخدام قضبان من الصابون أو تقمن بوضع الشامبو على شعورهن الدهنية ويقمن بالتخلص من روائحهن غير المرغوب فيها علاوة على حك لوسيون الأيدى على أيديهن المجعدة الخشنة ووضع لفائف من ورق التواليت على خدودهن.

وهناك صور أخرى لنساء يقمن بأعمال لا يفترض لهن القيام بها، فبعضهن ينهمكن فى القيل والقال ونشر الشائعات، وبعضهن يكن قاذورات والبعض الآخر متسلطات ولديهن ميل للسيطرة، وبعضهن ينخرطن أكثر من اللازم فى أشغال الحياكة " التريكو "؛ حيث تقول إحداهن : " إنها تقوم بأعمال التريكو أثناء سيرها أو ركوبها أو وقوفها أو جلوسها "، والصورة تبين امرأة منهمكة فى أعمال التريكو أثناء وجودها فى الترام بينما نهايات إبر الحياكة الخاصة بها تتداخل مع الناس الجالسين إلى جوارها علاوة على انتشار خيوط الكرة الصوفية لأسفل فى الممر.

وأرى أنه لن تكون هناك نهاية لعدم الإتقان أو لن تكون هناك نهاية لإنجاز الأمور بالطريقة الخاطئة، وحتى إذا كبرت وشببت عن الطوق وبغض النظر عما تبذله من جهود كبيرة فى أعمال الحك والتنظيف سيكون هناك دائمًا تلوث ما آخر أو بقعة على وجهك أو على تصرفك المتسم بالغباء مما يجعل شخصًا ما يتجهم

أقرأناكموه

لدى إلقاء نظرة عليك، ولكن يسرنى على نحو ما أن أقوم بقص صور هؤلاء السيدات المعيبات غير الملتزمات اللاتى لهن تلك التجاعيد فى جباههن والتى تبين مدى شعورهن بالقلق والتوتر وأثبتها فى دفتر القصاصات الخاص بى.

فى فترة الظهيرة ينطلق من الراديو صوت فرقة هابى جانج **Happy Gang** المترنم بأغنية الطرق على الأبواب :

طرق، طرق، طرق على الباب

من هناك ؟

إنها فرقة هابى جانج.

حسنًا، تفضلوا بالدخول.

احرص على أن تكون سعيدًا على طريقة هابى جانج.

واحرص على أن تكون فى صحة جيدة وعلى ما يرام.

لأنك إذا كنت فى صحة جيدة ،

فإن الروعة والإبهار تظهران مع الصحة الجيدة

إذن عليك أن تسعد مع هابى جانج.

الهابى جانج تملأنى بمشاعر القلق، فما الذى يحدث لك إذا لم تكن سعيدًا وبصحة جيدة ؟ إنهم لا يقدمون إجابة على ذلك التساؤل، إنهم أنفسهم سعداء دائمًا أو هم يقولون ذلك، ولكنى لا أستطيع أن أصدق أن أى شخص يمكن أن يكون سعيدًا دائمًا وفى جميع الأوقات؛ ولذلك فمن المؤكد أنهم يكذبون فى بعض الأوقات، ولكن متى يكذبون ؟ وإلى أى مدى تكون ضحكاتهم المصطنعة زائفة بالفعل ؟

وبعد فترة قصيرة تدق إشارة الوقت الرسمية لمرصد الدومنيون؛ إذ تصدر أولاً مجموعات من أصوات بيب **peeps** الخاصة بالفضاء الخارجى، ثم يعقبها الصمت، ثم يلى ذلك صوت شبيه بخط أفقى طويل **long dash**، وهذا الخط الأفقى

يعنى أن الوقت هو الساعة الواحدة ظهرًا، الوقت يمر، وفى فترة الصمت السابقة على الخط الأفقى الطويل يتشكل المستقبل، أدير رأسى فى عمق الوسادة، لا أريد سماع صوت الخط الأفقى الطويل.

* * *

(٢٧)

الشتاء يذوب مخلفًا وراءه نفايات قذرة من رماد الأفران والأوراق المبللة وأوراق النباتات القديمة المشبعة بالماء، وتظهر كومة هائلة من التربة الفوقية فى الفناء الخلفى الخاص بنا، ثم تظهر كومة من مكعبات العشب المتراكم؛ إذ يقوم والداى المرتديان حذاءين موصلين لهما رقبة وبنطلونين ملطخين بالتراب بإلقاء تلك الكومات على الطين الخاص بنا مثل القرميد الذى تكسى به غرفة الحمام، وهما يقومان بانتزاع النجيلة والنباتات المعترشة ونباتات الهندباء البرية، ثم يقومان بزرع البصل الأخضر والخس، والقطط تظهر من اللامكان وتقوم بالنبش والخربشة فى التربة اللينة المزروعة حديثًا، فيلقى والدى عليها كتلاً من نباتات الهندباء المقتلعة، ويقول: " قطط وضيعة تسلك مسلك الفئران ".

البراعم تتحول إلى اللون الأصفر، وحبال " النط على الحبل " تخرج، نقف فى الطريق الخاص الفرعى المؤدى إلى منزل جريس والموجود بجوار شجرة التفاح البرى الوردية الغامقة الخاصة بها، أحرك الحبل وتحرك كارول الحبل من الطرف الآخر وتقوم كل من جريس وكورديليا بالقفز على الحبل، نبدو مثل بنات منهمكات فى اللعب.

ونتغنى :

أقرأناكموه

ليس فى الليلة الماضية، ولكن فى الليلة قبل الماضية.

يجىء أربع وعشرون لصًا إلى بابى الخلفى.

وهذا هو ما قالوه.... لى.

أيتها السيدة : استديرى حولك، استديرى حولك.

أيتها السيدة : تلامسى مع الأرض، تلامسى مع الأرض.

أيتها السيدة : أظهرى حذاءك، أظهرى حذاءك.

أيتها السيدة، أيتها السيدة : اللصوص الأربعة والعشرون يهربون.

وتقفز جريس على الحبل فى المنتصف وتستدير وتلمس الطريق الفرعى وتركل بقدم واحدة لأعلى فى رزانة وتبتسم بابتسامتها الصغيرة، وهى نادرًا ما تتعثر.

هذه الأغنية تشكل تهديدًا بالنسبة لى، فهى تلمح إلى بذاءة غامضة، كما يوجد بها شىء ما غير مفهوم : اللصوص والأوامر الغريبة الخاصة بهم + السيدة ودورانها حول نفسها عدة مرات + الأعمال البارعة التى ترغم على القيام بها مثل كلبة مدربة، وعلاوة على ذلك ، فما معنى عبارة " أربعة وعشرون لصًا يهربون " الواردة فى نهاية الأغنية ؟ فهل هى خرجت بسرعة من باب منزلها بينما يظل اللصوص بالداخل لكى يسرقوا أى شىء ويحطموا أى شىء ويفعلوا كل ما يروق لهم؟ أو أكان هذا بمثابة قضاء تام عليها ؟ أشاهدها متدلية من شجرة التفاح البرى وقد التف الحبل الخاص بالقفز حول رقبتها، فلا أشعر بالأسف من أجلها.

الشمس تسطع وتعود قطع الرخام من كل الأماكن التى كانت قد حفظت بها أثناء موسم الشتاء وتتصاعد أصوات الأطفال فى فناء المدرسة : "بورى، بورى. باولى، باولى"، اثنتان فى مقابل واحدة، تبدو لى أصواتهم شبيهة بأصوات الأشباح والعفاريت أو شبيهة بأصوات حيوانات وقعت فى المصيدة : عويل رفيع ناجم عن آلام مضنية.

نعبر الكوبرى الخشبى فى طريق العودة من المدرسة إلى المنزل، إننى أسير خلف الأخريات، من خلال الألواح المكسورة أستطيع مشاهدة الأرض الموجودة تحتى. أتذكر أخى عندما قام بدفن برطمان ملىء بقطع رخامية من نوع : بيورى **puries** وووتربيبنى **waterbaby** وعين القطة **cats eye** منذ فترة زمنية طويلة... فى مكان ما هنالك تحت الكوبرى الخشبى، البرطمان مازال موجودًا هناك تحت الأرض ولامعًا فى الظلام ومتواريًا فى سرية بالغة، أتخيل نفسى وأنا أنزل لأسفل إلى هناك بمفردى، رغم وجود الرجال غير المرئيين الفاسدين أخلاقيًا هناك وأقوم بالحفر لاستخراج هذا الكنز وأمسك بكل هذا السر فى يدى، ومن المحتمل ألا أتمكن من العثور على هذا البرطمان على الإطلاق لأننى لا أمتلك الخريطة، ولكننى أحب أن أفكر فى أشياء لا يعرف عنها الآخرون أية معلومات.

وأستعيد رخامة عين القطة الزرقاء اللون الخاصة بى من المكان الذى ظلت محفوظة به طوال الشتاء فى ركن درج مكتبى، أتفحصها وأرفعها لأعلى لكى يتوهج ضوء الشمس من خلالها، وفى داخل إطارها البلورى توجد العين التى هى جزء منها وتبدو العين زرقاء وصافية للغاية، إنها تشبه شيئًا ما متجمدًا فى داخل الثلج. آخذها معى الى المدرسة؛ حيث أضعها فى جيبى، ولكنى لا أضعها على المنصة لكى يتم التصويب عليها، أحتجزها وأديرها بين أصابعى.

وتقول: " لا شىء، مجرد قطعة رخام ".

إنه موسم الرخام، فكل الناس لديهم قطع من الرخام فى جيوبهم، فتتغاضى كورديليا عن ذلك، فهى لا تعرف القوة الكامنة فى عين القطة هذه والتى توفر الحماية لى، فى بعض الأحيان عندما تكون عين القطة هذه معى يكون بمقدورى مشاهدة الأشياء بالطريقة التى تشاهد بها؛ إذ أستطيع مشاهدة الناس وهم يتحركون مثل دميات ناصعة مفعمة بالحياة تنفتح أفواهها وتنغلق، ولكن دون خروج كلمات حقيقية، أستطيع أن أنظر إلى أشكالهم وأحجامهم وألوانهم دون أن أشعر بأى شىء آخر نحوهم، إننى مفعمة بالحياة فى داخل عينى فقط .

* * *

أقرأناكموه

نبقى فى المدينة لفترة أطول مما مكثنا فيها فى أى وقت من قبل؛ إذ نمكث حتى تنتهى الدراسة بالمدارس بمناسبة حلول الصيف، ويستمر ضوء النهار إلى ما بعد حلول وقت الذهاب للنوم فى السرير، والحرارة المليئة بالرطوبة تهبط على الشوارع مثل بطانية تنفث بخارًا، أتناول مشروب العنب المثلج ماركة فريشى **Freshie** الذى ليس له مذاق العنب، وإنما يشبه شيئًا ما قد تستخدمه لقتل الحشرات، وأسائل نفسى فى تعجب : ترى متى نسافر الى الشمال، وأقول لنفسى إن ذلك لن يحدث أبدًا وذلك لكى لا أشعر بالإحباط فى حالة عدم السفر إلى الشمال، ولكن على الرغم من وجود عين القطة الخاصة بى معى، فإننى أدرك أننى لا أستطيع أن أطيق الوجود هنا فى هذا المكان لفترة طويلة، لأن ذلك سيجعلنى أتفجر من الداخل، فلقد سبق أن قرأت فى مجلة " الجغرافيا القومية " عن الغطس فى أعماق البحار وعن السبب فى أنه ينبغى عليك أن ترتدى بذلة معدنية سمكية، وإلا فإن الضغط غير المرئى للمياه الثقيلة فى أعماق البحار يسحقك مثلما يتم سحق الطين فى قبضة اليد إلى أن تنفجر من الداخل، وهذه هى الكلمة : ينفجر **implode**، إنها كلمة بها صوت نهائى كئيب مثل باب من الرصاص ينغلق.

* * *

أجلس فى السيارة مكومة فى المقعد الخلفى مثل طرد، تقف جريس وكورديليا وكارول بين أشجار التفاح، ويرقبن الموقف، أنحنى لأسفل لكى أتجنبهن، لا أريد أن أدخل فى المعاناة المتعلقة بالوداع، لدى تحرك السيارة أراهن يلوحن بأيديهن، نتجه بالسيارة شمالاً، تورنتو موجودة خلفنا، لطخة من الهواء البنى فوق الأفق مثل دخان متصاعد عن احتراق بعيد، الآن فقط أستدير وأنظر.

أوراق الأشجار تصبح أصغر حجمًا وأكثر اصفرارًا مع الانطواء للخلف نحو البرعم، والهواء يصبح أكثر إنعاشًا، أشاهد غرابا أسود اللون بجوار الطريق ينقر فى "شيهم"(*) ضخمة قد دهمته سيارة وقتلته أشواكه تبدو مثل ثمرة شائكة وأحشاؤه

(*) الشيهم : هو حيوان من القوارض له شوك طويل ، من فصيلة القنافذ . (المترجم)

وردية وممزوجة الصفار مع البياض مثل بيضة، وأشاهد الصخور الجرانيتية الشمالية وهى تتصاعد لأعلى خارجة من الأرض مع تقاطع الطريق معها، وأرى بحيرة متهالكة مهلهلة مع وجود أشجار ميتة مغروزة فى الأرض السبخة الموجودة حول حوافها، وأشاهد محرقة لحرق نشارة الخشب وبرجًا لمراقبة الحدائق.

يقف ثلاثة هنود بجوار الطريق، إنهم لا يقومون ببيع أى شىء ولا توجد معهم سلال، لم يحن بعد موسم التوت البرى، وهم يقفون فقط هنالك كما لو كانوا يقفون هكذا منذ فترة طويلة، إنهم مألوفون لى ولكن من حيث كونهم فقط بمثابة منظر طبيعى، هل هم يشاهدوننى بينما أنظر إليهم من نافذة السيارة ؟ ربما لا، إننى مجرد شىء ضبابى غير واضح بالنسبة لهم... مجرد وجه واحد آخر فى سيارة لا تتوقف، ليس لى حق المطالبة بأى شىء يتعلق بهم أو يتعلق بأى شىء من هذا.

* * *

أجلس فى المقعد الخلفى بالسيارة الذى تنبعث منه رائحة الجازولين والجبنة فى انتظار والدىَّ اللذين يقومان بشراء بعض مواد البقالة، السيارة بجوار متجر عمومى خشبى متهالك ورمادى بسبب العوامل الجوية ومتماسك مع بعضه من خلال اللافتات الخشبية المثبتة بالمسامير فى جميع أجزائه من الخارج : سجائر القط الأسود + سجائر بلايارز **players** + كوكاكولا، هذه ليست قرية، وإنما مكان متسع يطل على الطريق الرئيسى العمومى ويقع بجوار كوبرى وبجوار نهر. ذات مرة كنت أرغب فى أن أعرف اسم ذلك النهر، ستيفن يقف فوق الكوبرى ويسقط قطعًا من الخشب ضد التيار بالنهر ويحسب الفترة الزمنية التى تستغرقها لكى تخرج من الجانب الآخر؛ وذلك لكى يحصى معدل التدفق، البعوض موجود بالخارج، وبعض منه موجود داخل السيارة ويزحف على النافذة ويقفز ثم يزحف مرة أخرى، أراقبه وهو يفعل ذلك، باستطاعتى مشاهدة ظهره المقوس وبطنه التى يشبه لمبة كهربائية صغيرة لها لون أحمر / أسود، أقوم بسحقه على الزجاج مخلفة تلطخات حمراء من دمائى.

أقرأناكموه

لقد بدأت أشعر بالارتياح الهادئ الذى لا يصل إلى حد الغبطة، فحلقى لم يعد محتقناً ولقد توقفت عن إطباق أسنانى فى إحكام، والجلد فى قدمى بدأ ينمو مرة أخرى كما أن أصابعى التأمت بعض الشىء، ويمكن لى أن أسير دون سماع النغمة التى أبدو عليها، أستمر على مدى فترات طويلة دون التكلم بأى كلام على الإطلاق، يمكن لى الآن أن أتحرر من الكلمات، ويمكن لى الآن أن أرجع إلى عالم الصمت غير المعبر عنه بالكلمات، ويمكن لى أن أغوص مرة أخرى فى إيقاعات الزوال والتلاشى كما لو كنت فى سرير.

* * *

نحن فى هذا الصيف موجودون فى كابينة مستأجرة تقع على الشاطئ الشمالى لبحيرة سوبيريور **superior**، توجد أكواخ أخرى قليلة فى مكان قريب ومعظمها شاغرة، ولا يوجد أطفال آخرون، وهذه البحيرة ضخمة وباردة وزرقاء وغدارة وخائنة، فهى بمقدورها أن تغرق السفن والناس، ولدى هبوب الرياح تتلاطم الأمواج بها بضجيج المحيطات نفسه، العوم فى هذه البحيرة لا يخيفنى على الإطلاق، فأنا أغوص فى المياه القريبة من نقطة التجمد وأرقب قدمى ثم ساقى وهما يغوصان فى الماء ويبدوان أطول وأكثر نحافة وأكثر بياضًا مما لو كانا على الأرض.

يوجد بلاج متسع وعند طرف واحد منه توجد مجموعة من الصخور الجلمودية الضخمة المستديرة الشكل بفعل العوامل الجوية والمياه، وهى مستديرة مثل عجل البحر ولكنها صلبة وناشفة، وهى تشتد سخونتها تحت أشعة الشمس وتظل دافئة فى المساء عندما يبرد الهواء، أقوم بالتقاط صور لها بالكاميرا البراونى الخاصة بى.

وفى أعلى البلاج وفوق الكثبان الرملية توجد نباتات شاطئية ونباتات آذان الدب المزخرفة ونباتات البيقة التى لها أزهار أرجوانية وغلاف للحبوب ودقيق

علاوة على وجود حشائش مستعدة لإصابة ساقيك بالجراح، وخلف ذلك توجد الغابة المليئة بأشجار البلوط ونباتات القيقب وأشجار البتولا وأشجار الحور وأشجار البلسم والأشجار الصنوبرية، وفى بعض الأحيان توجد نباتات اللبلاب المعترشة السامة، إنها غابة كتومة ويقظة وإن كان من الصعب أن تضل فى داخلها لأنها قريبة للغاية من الشاطئ.

أتجول فى الغابة فأعثر على غراب ميت، إنه أكبر حجمًا مما تبدو الغربان وهى على قيد الحياة، ألكزه بعصا وأقلبه وأشاهد اليرقات والديدان، إن له رائحة العفن والصدأ، والأغرب من ذلك أن له رائحة نوع ما من الطعام أكلته ذات مرة ولكننى لا أستطيع تذكره، إنه له لونًا أسود، ولكن السواد لا يشبه اللون وإنما أشبه بحفرة، ومنقاره داكن اللون وشبيه بأظافر أصابع القدم القديمة، وعيناه متغضنتان وجاحظتان.

لقد سبق لى أن شاهدت حيوانات ميتة من قبل : ضفادع ميتة وأرانب ميتة ولكن هذا الغراب يبدو لى أكثر اتسامًا بطابع الموت، إنه ينظر إلى بعينه مهما فعلت فيه من أعمال، فإنه لن يشعر بأى شىء، فلا أحد يستطيع أن ينتقم منه أو يدركه ويصل إليه.

* * *

من الصعب اصطياد السمك من شاطئ هذه البحيرة؛ إذ لا يوجد مكان يمكن للمرء أن يقف فيه... لا يوجد رصيف، ولا يُسمح لنا بالخروج فى زورق بمفردنا بسبب التيارات المائية الشديدة، وعلى كل حال فنحن لا نمتلك زورقًا، ويقوم ستيفن بإنجاز أشياء أخرى؛ إذ يكون مجموعة من أقماع القوارب من شاحنات البحيرة ويتفحصها من خلال منظار ثنائى العين، أو يخلق مواقف صعبة فى لعبة الشطرنج ويسعى لإيجاد الحلول لها، أو يضرم النيران، أو يذهب للنزهة والتريض لمسافات بعيدة بمفرده وقد أخذ معه كتابًا عن الفراشات، وهو ليس شغوفًا بالإمساك

أقرأناكموه

بالفراشات وتثبيتها بالدبابيس على لوحة خشبية وإنما يرغب فقط فى مشاهدتها والتعرف على أنواعها وإحصائها، ويسجلها فى قائمة على ظهر الكتاب.

أحب النظر إلى صور الفراشات الموجودة فى كتابه، الفراشة المفضلة لدى هى فراشة القمر **luna moth** فهى ضخمة ولها لون أخضر فاتح وبها رسم للهلال على أجنحتها، ويعثر أخى على واحدة من فراشات القمر ويرينى إياها ويقول لى: "لا تلمسيها، وإلا فإن الرماد سيسقط من جناحيها مما يؤدى إلى عدم قدرتها على الطيران ".

ولكنى لا ألعب الشطرنج معه، ولا أبدأ فى جمع القائمة الخاصة بى من أقماع القوارب أو الفراشات، لأننى أخذت فى التوقف عن الاهتمام بالألعاب التى أستطيع الفوز فيها.

وعلى طول حواف الغابة وحيث يوجد ضوء الشمس المكشوف توجد أشجار الكرز، وعندما تنضج ثمارها الحمراء اللون فإنها تصبح شبه شفافة، وثمارها حمضية للغاية، حتى إنها تجف فى داخل فمك وتسبب لك الشرقان أو الاختناق، أقوم بالتقاط هذه الثمار وأضعها فى جردل وأعزل الأغصان والأوراق الميتة، وتقوم أمى بتصنيع الچيلى منها؛ حيث تقوم بغليها وتصفيتها من النواة من خلال استخدام حقيبة جيلى قماشية ثم تضيف السكر، وتصب الچيلى فى برطمانات ساخنة وتغطيها بشمع البارافين، وأحصى عدد البرطمانات الحمراء الجميلة، لقد ساعدت فى تصنيع الچيلى، الچيلى يبدو خطيرًا وسامًّا.

كما لو كنت قد منحت تصريحًا بالموافقة أبدأ فى الانخراط فى الأحلام، أحلامى مليئة بالألوان الناصعة وخالية من الأصوات.

أحلم بأن الغراب الميت أصبح مفعمًا بالحياة وكل ما هنالك أنه يبدو على النحو الذى كان عليه وهو ميت، أى يبدو وكأنه ما زال ميتًا، إنه يحجل فيما حوله ويضرب بجناحيه المتآكلين، ثم أستيقظ من النوم بينما قلبى يدق بسرعة كبيرة، وأحلم أننى أرتدى ملابسى الشتوية فى تورنتو ولكن فستانى لا يتلاءم مع مقاسى،

فأرفعه لأعلى فوق رأسى، إننى أسير فى الشارع بينما أجزاء من جسدى تبرز خارجة من الفستان... أجزاء من بشرتى العارية، فأشعر بالخجل.

وأحلم أن رخامة عين قطتى الزرقاء تتلألأ فى السماء مثل الشمس أو مثل صور الكواكب فى كتابنا الذى يتناول النظام الشمسى، ولكنها بدلاً من أن تكون دافئة كانت باردة، وتبدأ فى الاقتراب أكثر وأكثر، ولكنها مع ذلك لا تصبح أكبر حجمًا، إنها تسقط من السماء متجهة نحو رأسى مباشرة، إنها ساطعة ولامعة وزجاجية، وتصطدم بى وتخترق جسدى، ولكن دون أن تسبب لى أية آلام أو جراح باستثناء أنها باردة للغاية، ويوقظنى البرد، فأجد بطاطينى ملقاة على الأرض.

وأحلم بأن الكوبرى الخشبى الموجود فوق الوادى الصغير الضيق المنحدر يتعرض للسقوط والانهدام، إننى واقفة عليه بينما الألواح الخشبية تحدث صوتًا كالصرير وتنفصل عن بعضها البعض فيتمايل الكوبرى فى تأرجح، فأسير على الأخشاب المتبقية مع الإمساك بشدة بالدرابزين، ولكنى لا أستطيع الوصول إلى التل الذى يقف عليه الناس الآخرون، لأن الكوبرى غير متصل بأى شىء، والدتى موجودة فوق التل، ولكنها تتحدث مع الناس الآخرين.

أحلم بأننى ألتقط ثمار الكرز من شجرة الكرز، وأضع الثمار فى الجردل. ولكنها ليست ثمار الكرز، وإنما هى ثمار نبات البلادونة المميتة شبه الشفافة الحمراء الناصعة، وهى ثمار مليئة بالدماء مثل أجساد البعوض، وعندما ألمسها تنفجر وتجرى الدماء على يدى.

أحلامى كافة ليست لها علاقة بكورديليا.

* * *

والدنا يلعب معنا لعبة المطاردة على البلاج فى الأمسيات؛ حيث يجرى فى تثاقل مثل دب مع الانخراط فى الضحك فى الوقت نفسه، وتسقط البنات والدايمات

أقرأناكموه

من جيوبه وتتبعثر فى الرمال، وتتهادى الزوارق بالبحيرة فى بطء على مسافة بعيدة بينما الدخان الصادر عنها يتجرجر وراءها، والشمس تغرب فى اتجاه اليسار وردية وهادئة، أنظر فى المرآة الموجودة فوق حوض الغسيل، وجهى مكتسب اللون البنى وأكثر استدارة، والدتى تبتسم لى فى المطبخ الصغير الذى يوجد به موقد يشتعل باستخدام الأخشاب وتحتضننى بذارع واحدة، إنها تعتقد أننى سعيدة، فى بعض الليالى نتناول حلوى الخطمى كوجبة غذائية ممتعة.

* * *

telegram @ktabpdf

الباب السادس

عين القطـة

(٢٨)

لقد اعتاد الدور التحتانى من متجر سمبصونز أن يبيع الملابس والخردوات ومفاتيح الربط بأسعار مخفضة، ولكنه أصبح الآن متألقًا ولامعًا وفاخرًا؛ إذ توجد به أهرام من الشيكولاته المستوردة وكاونتر للآيس كريم وأجنحة وممرات مليئة بالفطائر الممتازة وأطعمة المعلبات الفاخرة مع الإشارة بوضوح إلى تواريخ انتهاء الصلاحية التى طبعت على عبوات الأطعمة، بل يوجد كاونتر للإسبرسو **espresso**. لقد أصبح كل شىء فى هذا الدور التحتانى على المستوى العالمى الراقى... وهو المكان نفسه الذى اعتدت أن أشترى منه قمصان النوم الرخيصة حيث أسدد الثمن من مصروف جيبى والمخصص لى فى أثناء وجودى فى المرحلة الثانوية التعليمية، إننى منبهرة بجميع أنواع الشيكولاته، ومجرد النظر إليها يذكرنى بالكريسماس وبالمشاعر المؤلمة التى تنتابنى عقب تناول كميات كبيرة منها؛ حيث أصاب بالتخمة.

أجلس إلى كاونتر الإسبريسو وأتناول فنجانًا من الكابوتشينو لكى أعالج مسألة الكسل الذى يجتاحنى لدى مشاهدة رغبتى الشديدة فى تناول الأشياء المغلفة بطبقة من السكر، وكاونتر الإسبريسو مصنوع من الرخام الأخضر الغامق الحقيقى أو الاصطناعى، وتوجد عليه ظلة جميلة على الطراز الإيطالى، كما توجد به كـــراسى صغـــيرة بلا ظهر أو ذراعين. المنظر من هنا يطل على كاونتر إصلاح الأحذية الذى ليس على المستوى العالمى الراقى ولكنه يعيد الطمأنينة إلى نفسى، فالناس مازالوا يلجأون إلى إصلاح أحذيتهم رغم كل هذه الأنواع من الشيكولاته، فهم لا يتخلصون من أحذيتهم لدى ظهور الدلائل الأولى التى تشير إلى أنها أصبحت بالية.

أفكر فى حذائى أثناء فترة طفولتى.. وهو حذاء أكسفورد بالى من عند أصابع القدم له نصف نعل وبه كعب جديد... وحذاء آخر من الكاوتش الأبيض المتداعى البالى المخصص للجرى والألعاب... والصندل البنى اللون الذى له إيزيمان والذى يتم ارتداؤه مع الجورب، ومعظم الأحذية كانت لها لون بنى؛ إذ كان لونها يتماشى ويتلاءم مع لون اللحوم البقرى المحمرة التى يتم طهيها فى حلة الضغط مع قطع من الجزر والبطاطس والبصل الذى له طبقات زلقة، وحلة الضغط بها شىء شبيه بصفارة فوق غطائها، وإذا غفلت عنها فى أثناء الطهى فإن الغطاء يتفجر مثل قنبلة وعندئذ يتم القذف بالجزر والبطاطس لأعلى نحو سقف الغرفة حيث يلتصقان هناك مثل العصيدة، وقد حدث ذلك لوالدتى ذات مرة، ومن حسن الحظ لم تكن موجودة بالمطبخ فى أثناء الانفجار وبالتالى لم تتعرض للحروق، وعندما شاهدت ما حدث لم تسب وتلعن، وإنما ضحكت وقالت: " ألم يتسبب هذا فى الإطاحة بالحلة المتبذلة المطلية بالذهب؟ ".

وكانت والدتى تقوم بمعظم أعمال الطهى، ولكن الطهى لم يكن العمل المفضل لديها، وهى لم تكن مغرمة بالأعمال المنزلية بوجه عام، ففى صندوق بالبدروم وإلى جوار روب دى شامبر مخملى يرجع إلى العشرينيات وبنطلون لركوب الخيل، كانت توجد أشياء عديدة مصنوعة من الفضة الحقيقية وأدوات مزخرفة لمزج الملح والفلفل وملعقة للسكر لها شكل قدمى دجاجة وزهريات ورد مليئة بالأزهار الفضية وكلها كانت موجودة هناك وملفوفة فى مناديل ورقية ومتحولة إلى اللون الأسود، ولو لم تكن موجودة بالبدروم لكان قد تم تلميعها، كما كان ينبغى تلميع السكاكين والملاعق والشوك الخاصة بنا، ولقد كانت السيقان اللولبية الزخرفية الموجودة تحت منضدة الطعام بمثابة صائدات للتراب والغبار وكذلك كانت الأشياء كافة التى يضعها الناس الآخرون على رف المستوقد الخاص بهم، ولكن والدتى كانت تحب تصنيع الفطائر، ولو أن هذا قد يكون فقط شيئًا ما أفضل التفكير فيه.

وما الذى كنت سأفعله لو قدر لى أن أكون فى مكان أمى ؟ لو كنت أنا أمى ؟ من المؤكد أن أمى أدركت ما كان يحدث لى، ومن المؤكد أنها لاحظت منذ البداية حالات الصمت التى أغرق فيها ولاحظت أصابعى المقضومة والقشور الداكنة

الموجودة على شفتى بالأماكن التى جذبت فيها مساحات من البشرة، ولو كان هذا يحدث الآن لطفل من أبنائى لكنت قد عرفت ما ينبغى على أن أفعله، ولكن ما الذى كنت سأفعله فى تلك الأوقات؟ فى تلك الأوقات كانت الاختيارات قليلة وكان الكلام الذى يقال أقل كثيرًا مما يقال الآن.

* * *

ذات يوم قمت برسم مجموعة من اللوحات لأمى، وهى مجموعة تضم ست صور أوست لوحات مرسومة على خشب رقيق مثل رسم على ثلاثة ألواح مزدوجة ممفصلة أو مثل كتاب فكاهى، وهو رسم منتظم فى مجموعتين؛ ثلاث منها بالجزء العلوى لوحات أخرى بالجزء السفلى، وكانت اللوحة الأولى لأمى مرسومة بأقلام ملونة، وقد وُجِدت فى مطبخ منزلها بالمدينة وارتدت فستانها المنتمى لأواخر الأربعينيات، وكانت اللوحة الثانية لأمى وهى فى الكلية وتتألف هذه اللوحة من الصور المأخوذة من مجلات " ليديز هوم " ومجلات " كاتلين " وهى ليست صورًا فوتوغرافية، وإنما أعمال فنية بها تلك الألوان الخضراء الداكنة والزرقاء الباهتة والوردية الداكنة، واللوحة الثالثة لأمى كان يسودها اللون الأبيض وتبدو فيها أجزاء أدوات تنظيف باطن الأنابيب المرفوعة لأعلى وكأنها تسير فى خط كونتورى بجوار بعضها البعض وتلتصق على خلفية مغطاة بقماش أبيض، وفى هذه اللوحة تبدو أمى وكأنها تتفكك فى بطء وتتحول من الحياة الحقيقية إلى خلال بابلية من النقش الضئيل البروز.

ومجموعة اللوحات السفلية تسير فى الاتجاه الآخر؛ إذ تبدو أولاً أدوات تنظيف الأنابيب وبعدئذ اللوحة نفسها التى تتناولها وهى فى الكلية، ثم اللوحة الأخيرة المتسمة بالتفاصيل الواقعية الكاملة الألوان، ولكن فى هذه المرة كانت أمى مرتدية بنطلونها الفضفاض وحذاءها ذا الرقبة وجاكتتها الرجالى وكانت تقوم بتصنيع مربة الكرز فوق النيران المقامة فى الخلاء خارج المنزل، ويمكن لك أن تقرأها كنوع من التجسد الذى يبزغ من ضباب أدوات تنظيف الأنابيب ويتجه نحو ضوء النهار المجسم الباهر.

أقرأناكموه

وأطلقت على هذه المجموعة من اللوحات اسم " وعاء الطهى بضغط البخار **pressure cooker** "، وبسبب الفترة الزمنية التى رسمت فيها هذه اللوحات وبسبب ما كان يحدث فى تلك السنوات، اعتقد بعض الناس أن هذه اللوحات تتناول إلهة الأرض **Earth Goddess** التى اعتقدت أنها مرحة وصاخبة فى الضوء ككراهية أمى للأعمال المتعلقة بالشئون المنزلية، وظن أناس آخرون أنها تتناول عبودية المرأة، كما اعتقد آخرون أنها بمثابة تكرار طبق الأصل لنساء يقمن بأدوار سلبية ومنزلية تافهة، ولكن هذه المجموعة من اللوحات ليست سوى تعبير عن أماكن ووسائل الطهى الذى اعتادت أن تقوم به أواخر الأربعينيات.

لقد أنجزت هذا العمل الفنى عقب وفاتها مباشرة، وأعتقد أننى أردت لها أن تكون خالدة وسرمدية رغم أنه لا يوجد شىء من هذا القبيل على سطح الكرة الأرضية، وهذه اللوحات التى رسمت لها - شأنها شأن أى شىء آخر- منقوعة وغارقة فى الزمن.

* * *

أنتهى من تناول الكابوتشينو وأسدد الثمن وأترك بقشيشًا للجرسونة التى تقلد الطابع الإيطالى والتى قدمت لى الكابوتشينو، وأعرف أننى لن أشترى أى طعام من " صالة الطعام " لأن هذه الصالة تدخل الرعب الشديد إلى قلبى، فى الأحوال العادية أو فى مدينة ما أخرى لن أشعر بذلك الرعب ، فأنا بالغة سن الرشد ومعتادة على التسوق، ولكن كيف يمكن لى أن أجد وأنا بالمنطقة السفلية هنا أى شىء أريده الآن وعلى الفور ؟ لسوف أتوقف عند متجر ما على الناصية فى طريق العودة... متجر ما من النوع الذى يبيعون فيه اللبن حتى حلول منتصف الليل، علاوة على بيع شرائح من الخبز الأبيض غير الطازجة والذى تغير مذاقه بعض الشىء، مثل هذه المتاجر تدار حاليًا بمعرفة أناس لهم لون بشرة السيد بانيرجى، أو بمعرفة أناس من الصين، وهم ليسوا بالضرورة متسمين بروح ودية أكثر من أى رجال لهم بشرة بيضاء شاحبة والذين اعتادوا أن يديروا مثل هذه المتاجر.

* * *

أصعد لأعلى من خلال استخدام السلم الميكانيكى المتحرك وأصل إلى الهواء المعطر للدور الأرضى، الهواء ردىء هنا، إذ توجد كميات كبيرة للغاية من رائحة المسك... وهى الرائحة الطاغية نفسها للنقود، فأضطر للخروج إلى الهواء وأسير فى اتجاه الغرب وأمر بجوار المانيكانات القاتلات الموجودات فى ڤاترينات العرض وأمر بجوار "قاعة المدينة **City Hall**".

أمامى يوجد جسد راقد على رصيف المشاة، الناس يسيرون حول هذا الجسد وينظرون لأسفل نحوه ثم يواصلون المسير، أشاهد ملامح وجوههم وكأنها تقول : "هذا ليس من شأنى".

وعندما أصل إلى جوار هذا الجسد أدرك أنه جسد امرأة، إنها مستلقية على ظهرها وتحملق فى وجهى مباشرة وتقول لى: "سيدتى، سيدتى، **Lady**". إذا كنت فى مسيس الحاجة للحصول على شىء ما من امرأة فأنت لا تقول لها: " أيتها المرأة، أيتها المرأة **woman, woman**" وإنما تقول لها: " سيدتى، سيدتى " على النحو الذى تقوله هذه المرأة الراقدة على الطريق الآن.

أقول لنفسى فى تفكير: " ماذا لو كانت مصابة بأزمة قلبية ؟ "، وأنظر إليها فى تفحص : توجد دماء على جبهتها، وهى دماء ليست كثيرة وإنما مجرد جرح، من المؤكد أنها سقطت على الأرض فارتطم رأسها، ولا أحد يتوقف من أجل إسعافها، وهى مستلقية هنالك على ظهرها وضخمة ومن الصعب نقلها ويزيد عمرها على خمسين عامًا ومرتدية معطف جبردين أخضر اللون من النوع الذى يرتديه الفقراء وفى قدميها حذاء ملىء بالشقوق ومثير للأسى والرثاء، وذراعاها ممدودتان والبشرة التى تبدو سمراء بسبب التعرض كثيرًا لأشعة الشمس والموجودة حول عينيها البنيتين قد أصبحت حمراء ومنتفخة بينما شعرها الطويل الأسود والرمادى منبسط عبر رصيف المشاة.

وتقول: " أيتها السيدة **Lady** " أو تقول كلمة من هذا القبيل فى غمغمة ولكنها قد استولت على مشاعرى الآن.

أنظر من فوق كتفى لأرى ما إذا كان هناك شخص ما آخر على استعداد لتقديم يد العون والمساعدة لها فلا أجد من يرغب فى ذلك، فأركع بجوارها وأقول

أقرأناكموه

لها: " هل أنت على ما يرام؟"، يا له من سؤال متسم بالغباء والسخافة، فمن الواضح تمامًا أنها ليست على ما يرام، القيء والكحول موجودان هنا فى مكان ما، أشاهد نفسى فى داخل عقلى وأنا آخذها وأصطحبها معى إلى مقهى لكى تحتسى القهوة، وبعدئذ إلى أين ؟ لن أتمكن من التخلص منها بعدئذ، فهى سوف تتبعنى لدى عودتى إلى الاستوديو وسوف تتقيأ فى البانيو ثم تنام على الفوتون **futon**، إنهم يثيرون عطفى فى كل مرة، وهم يستطيعون اكتشاف طيبة قلبى والتقاطى من بين الجمهور مهما حاولت التجهم بشدة، إنهم من الفنانين الفاشلين التافهين المنتشرين على أرصفة الشوارع، ومن الناس الشاردى الذهن ومن الشباب الذين يعزفون على الجيتار ويطلبون منى منحهم عملات ورقية أو معدنية صغيرة، عندما أقع فى قبضة العاجزين أكون عاجزة وبائسة.

يقول رجل فى أثناء مروره بجوارى: " إنها مخمورة فقط "، ما الذى يعنيه بكلمة: فقط **only**، إنها فى حالة من الجحيم بما فيه الكفاية.

أقول: " استمعى إلى، لسوف أساعدك على النهوض ". وأقول لنفسى : إنها ستطلب منى نقودًا ولسوف أعطيها نقودًا، ولسوف تنفق النقود فى شراء الخمور الرديئة الرخيصة، ولكنى أتمكن من إيقافها على قدميها الآن، وهى ملقية بجسدها على، لو أتمكن من جسدها وسحبها إلى أقرب حائط عندئذ يمكن لى أن أجعلها تقف معتدلة القامة وأقوم بإزالة الغبار عنها وتنظيفها بعض الشىء ثم أفكر فى كيفية الإفلات منها، وأقول: " إلى هنالك " ولكنها لا تبدى استعدادًا للاستناد على الحائط، فهى بدلاً من ذلك تستند علىّ، أنفاسها لها رائحة حادثة شنيعة، إنها تبكى الآن... بكاء طفلة مهجورة تخلى الناس عنها وقد تشبثت أصابعها بكمى.

وهى تقول: " لا تتركينى، أوه، يا إلهى، لا تتركينى بمفردى "، عيناها مغلقتان وصوتها مليء بالفقر والعوز والكرب الشديد، صوتها يحدث تأثيرات هائلة على أضعف جزء فى كيانى، ولكن لا يوجد هناك شىء أستطيع أن أفعله من أجلها.

فأقول: " استمعى إلىّ " وأبحث فى كيس نقودى فأعثر على ورقة من فئة العشرة دولارات، فأطويها وأضعها فى يدها وأكون بذلك قد أعطيتها حسابها

بالكامل وصرفتها من الخدمة، إننى إنسانة مغفلة ويسهل خداعها، إننى بمثابة قلب ينزف دمًا، يوجد جرح فى داخل قلبى ينزف نقودًا.

وتقول: "بارك الله فيك"، رأسها يتدحرج من جانب لآخر وإلى الوراء فى استناد على الحائط، وتقول مرة أخرى: "بارك الله فيك أيتها السيدة ... السيدة العذراء الخاصة بنا تباركك"، إنها عبارة قيلت فى غير وضوح؛ حيث تداخلت الحروف مع بعضها البعض ولكن من الذى ينبغى عليه أن يقول إننى لست بحاجة إلى هذه المباركة ؟ من المؤكد أنها كاثوليكية، يمكن لى أن أعثر على كنيسة وأدفع بها إلى داخلها لكى تتزلق من خلال الباب مثل عبوة، إنها تخصهم وينبغى على أن أدعهم يتصرفون معها.

أقول: " والآن ينبغى على أن أذهب " وأضيف: " ستكونين على ما يرام " إننى أكذب من خلال أسنانى، تفتح عينها فى اتساع وحجوظ وتحاول أن تركز عينيها على، يتسرب الهدوء إلى وجهها.

وتقول: " إننى أعرف معلومات سرية عنك " وتضيف: " فأنت السيدة العذراء الخاصة بنا وأنت لا تشعرين بالحب نحوى ".

إنه الجنون المتفجر تمامًا الناجم عن الإسراف الشديد فى تناول الخمور، وهى بالتالى ليست على الإطلاق الإنسانة الجديرة بالعطف عليها، أسحب يدى من يدها كما لو كانت هى بمثابة مقبس كهربائى مشحون بتيار كهربائى، وأقول لها: " لا " إنها على حق، فأنا لا أشعر بالحب نحوها، عيناها ليستا بنيّتين وإنما خضراوان، عينا كورديليا.

أسير مبتعدة عنها بينما الشعور بالذنب جاثم فوق يدى، فأحرر نفسى من الشعور بالذنب وأغفر لنفسى، إننى إنسانة طيبة، ربما كانت هى فى النزع الأخير ومع ذلك لم يتوقف أى شخص آخر سواى من أجل نجدتها.

إننى إنسانة مغفلة لأننى أخلط هذا مع الطيبة، فأنا لست إنسانة طيبة.

فأنا أعرف الكثير للغاية بحيث لا يمكن أن أكون طيبة، فأنا أعرف نفسى جيدًا.

وأعرف عن نفسى أننى حاقدة وتواقة إلى الانتقام، علاوة على أننى متسمة بالشراهة وكتومة وخبيثة.

* * *

(٢٩)

نعود فى سبتمبر، الليالى بالشمال باردة وأوراق الأشجار يبدأ لونها فى التغير ولكن المدينة مازالت تموج بالحرارة والرطوبة، وهى مليئة بالضجة والضوضاء على نحو مثير للدهشة وتنبعث منها رائحة الجازولين والقطران الخاص بالطرق المنصهرة، والهواء داخل منزلنا فاسد وراكد، هواء قد حبس فى داخل الحرارة طوال فترة الصيف، والماء الذى يتدفق من الحنفيات يكون مليئًا بالصدأ فى بادئ الأمر، آخذ حمامًا بالماء الفاتر المائل إلى اللون الأحمر، جسدى متيبس فى تصلب بالفعل مع تفريغ نفسه من المشاعر والأحاسيس، المستقبل آخذ فى الإطباق على مثل باب.

لقد ظلت كورديليا واقفة فى انتظارى، أدرك هذا بمجرد أن أشاهدها واقفة عند محطة الأتوبيس المدرسى، قبل حلول الصيف كانت تتأرجح ما بين الشفقة والخبث مع وجود فترات من اللامبالاة، أما الآن فهى أكثر قسوة وأكثر جفافًا، الأمر يبدو وكأنها منساقة وراء رغبة جامحة تدفعها لأن تعرف إلى أى مدى يمكن لها أن تتمادى فى هذا الاتجاه، إنها تدفعنى للوراء نحو حافة شبيهة بحافة منحدر صخرى شاهق ، خطوة واحدة للوراء ثم خطوة أخرى وبعدئذ أنقلب فى تشقلب وسقوط نحو الهاوية.

* * *

أنا وكارول فى الصف الخامس المدرسى الآن، نحن لدينا مدرسة جديدة تسمى آنسة ستورات **miss stuart**، إنها اسكتلندية ولها لهجة، وتقول: " والآن أيتها البنات **now girls** " وهى لديها باقة صغيرة من نبات الخلنج المجفف مثبتة فى برطمان چيلى على مكتبها ولديها نسخة مصغرة للغاية من بونى برينس تشارلى **Bonnie**

prince Charlie الذى دمره الإنجليز والذى اسمه الأخير مماثل تمامًا لاسمها، ولديها زجاجة من لوسيون (غسول) الأيدى موجودة فى درج مكتبها، وهى تقوم بنفسها بإعداد وتجهيز لوسيون الأيدى هذا، وفى فترات ما بعد الظهر تعد لنفسها فنجانًا من الشاى الذى ليس له رائحة الشاى على الإطلاق، وإنما له رائحة شىء ما أخر تضعه فى الشاى بعد أن تستخرجه من زجاجة فضية صغيرة، وهى لها شعر أبيض يميل إلى اللون الأزرق ومتموج بشكل جميل، وترتدى فساتين حريرية بنفسجية اللون تحدث صوتًا كالحفيف، وتضع منديلاً فى ثنية كمها، وهى فى كثير من الأحيان تضع قناع ممرضة أبيض اللون على أنفها وفمها لأن غبار الطباشير يسبب لها الحساسية، وهذا لا يمنعها من إلقاء فرشاة السبورة على الأولاد الذين لا يصغون إليها باهتمام، وعلى الرغم من أنها تلقى بالفرشاة بطريقة سرية مخادعة وفى غير عنف، فإنها لا تخطئ الهدف أبدًا، وعقب ضربها للولد بالفرشاة فإنه يتعين على الولد أن يعيد لها الفرشاة، ويبدو أن الأولاد لا يشعرون بالاستياء من هذه العادة التى دأبت عليها؛ إذ يشعرون أن ضربهم بفرشاة السبورة يعتبر دليلاً على التميز.

وكل شخص يحب الآنسة ستوارت، وتقول كارول إننا سعداء الحظ لأننا موجودات فى الفصل الخاص بها، وأنا أيضًا كنت سأشعر بالحب نحوها لو كانت لدى المقدرة التى تعيننى على ذلك، ولكننى متسمة باللامبالاة الشديدة ومستبعدة أكثر من اللازم.

* * *

أحتفظ بعين القطة الخاصة بى فى جيبى؛ حيث يمكن لى مواصلة وضع يدى عليها، إنها ترقد فى يدى، إنها غالية مثل الجوهرة، وهى تنظر وتطل من خلال العظام والقماش بحملقتها النزيهة غير المتحيزة، وبمساعدة من قوتها ونفوذها أتقهقر إلى الوراء إلى داخل عينى، على مسافة أمامى توجد كورديليا وجريس وكارول، أنظر إلى هياكلهن وأشكالهن لدى سيرهن وأنظر إلى الطريقة التى يتحرك بها الظل من ساق لأخرى، وأنظر إلى كتل اللون وإلى الشكل المربع

أقرأناكموه

الأحمر لسترة الصوف المحبوكة والشكل المثلث الأزرق للتنورة، إنهن يشبهن الدميات من على مسافة إلى الأمام حيث تكن صغيرات وواضحات، وكان بمقدورى أن أشاهدهن أم لا أشاهدهن وفقًا لما أريده ووفقًا لإراداتى الحرة.

أصل إلى الممر المؤدى إلى الكوبرى ثم أبدأ فى النزول وأمر بجوار نباتات البلادونة بما فيها من ثمار التوت الحمراء وبجوار الأوراق المتموجة وبجوار القطط المختبئة، ثلاثتهن موجودات بالفعل فوق الكوبرى ولكنهن قد توقفن عن السير، إنهن واقفات فى انتظارى، أنظر إلى الأشكال البيضاوية لوجوههن وإلى الخطوط الخارجية للشعر المحيطة بكل وجه، وجوههن شبيهة بالبيض الفاسد، قدماى تتحركان فى هبوط على التل.

أفكر فى أن أصبح غير مرئية، أفكر فى أن أتناول توت نباتات البلادونة المميت من الشجيرات الموجودة بجوار الممر، أفكر فى أن أشرب الجافيكس **Javex** من الزجاجة المرسوم عليها جمجمة وعظمتين متقاطعتين والموجودة فى غرفة الغسيل، وأفكر فى القفز من فوق الكوبرى وأهبط هنالك فى أسفل الكوبرى متحطمة مثل يقطينة تنفلق إلى شطرين؛ حيث يمكن لى أن أنشطر على ذلك النحو وأصبح ميتة مثل الناس الموتى.

إننى لا أرغب فى أن أفعل هذه الأشياء، إننى خائفة من هذه الأشياء، ولكننى أفكر فى أن كورديليا قد تطلب منى أن أفعل هذه الأشياء ليس بصوتها الملىء بالاحتقار ولكن بصوتها الشفوف، أسمع صوتها الشفوف يتردد فى داخل رأسى "افعلى ذلك، هيّا"، وأنا قد أقدم على فعل هذه الأشياء من أجل استرضائها وإدخال السرور عليها.

أفكر فى إبلاغ أخى مع طلب المساعدة منه، ولكن ماذا سأقول له على وجه الدقة ؟ فأنا ليس بى كدمة حول العين بسبب التعرض للطمة وليس لدى أنف ينزف بالدمـــاء؛ فكورديليا لا تفعل شيئًا له طابع جسمانى من هذا القبيل، ولو كان الأمر يتعلق بأولاد يطاردوننى ويضايقوننى لأصبح بإمكان أخى أن يعرف ماذا يفعل لحمايتى ولكننى لا أعانى من الأولاد بهذه الطريقة، ولكنه سيكون عاجزًا ولا حول له ولا قوة فى مواجهة البنات وخداعهن وهمسهن.

هذا بالإضافة إلى أننى أشعر بالخجل والارتباك وأخشى أن يسخر أخى منى ويحتقرنى؛ لأننى أبدو جبانة وخائفة من حفنة من البنات ولأننى أجعل من الحبة قبة.

* * *

إننى موجودة فى المطبخ، وأقوم بتزييت الصفائح الخاصة بالفطائر نيابة عن أمى، أشاهد النماذج التى تتركها المادة الزيتية على المعدن، وأدرى الأشكال الهلالية لأظافرى والبشرة الممزقة، أصابعى تتخذ الشكل الدائرى تدريجيًّا.

أمى تعد مخيض اللبن والبيض من أجل الفطائر وتحدد كمية الملح وتنخل الدقيق، المنخل له صوت جاف مثل ورق السنفرة، وتقول لى أمى: " لست بحاجة لأن تلعبى معهن، ومن المؤكد أنه توجد هناك فتيات صغيرات أخريات يمكن لك أن تلعبى معهن بدلاً من هذه المجموعة".

فأنظر إليها بينما البؤس يتسرب إلى مثل رياح بطيئة، ما الذى لاحظته وما الذى خمنته وما الذى هى بصدد أن تفعله ؟. ربما تقوم بإخبار أمهاتهن، وذلك سيكون أسوأ شىء تفعله، وأنا أيضًا لا أستطيع أن أتصور ذلك، فأمى لا تشبه الأمهات الأخريات، وهى لا تتلاءم مع الفكرة عنهن، وهى لا تقيم بالمنزل بالطريقة التى تقيم بها الأمهات الأخريات بمنازلهن، فهى هوائية ومن الصعب تثبيتها فى مكان واحد، والأمهات الأخريات لا يذهبن للتزحلق على الحلبة المكونة من الجليد الاصطناعى أو يسرن فى الوادى العميق بمفردهن، وهن منْ هذه الناحية يبدون لى أكثر نضجًا من والدتى، وأفكر فى أم كارول وهى مرتدية الفستان التوأمى **twin** الخاص بها وهى تبتسم ابتسامتها المليئة بالشكوك، وأفكر فى أم كورديليا وهى مرتدية نظارتها المربوطة فى سلسلة علاوة على اتسامها بالغموض، وأفكر فى أم جريس وفى دبابيس الشعر الخاصة بها وفى مريلتها المتهدلة، أمى ستذهب إلى عتبة أبوابهن الخارجية وقد ارتدت البنطلون الفضفاض وحملت فى يديها بوكيهًا من الأعشاب الضارة بطريقة غير لائقة وبالتالى فهن لن يصدقنها.

أقرأناكموه

وتقول أمى لى: " عندما كنت طفلة صغيرة اعتدنا أن نقول للأولاد الذين يسبوننا { العصى والحجارة ستكسر عظامى ولكن السباب والشتائم لن تسبب لى الأذى على الإطلاق } "، ويدور ذراعها فى قوة أثناء قيامها بأعمال المزج والخلط فى كفاءة.

فأقول: " إنهن لا يوجهن السباب والشتائم لى، فهن صديقاتى "، وأصدق هذا.

فتقول أمى: " ينبغى أن تتعلمى كيف تناصرى وتؤيدى نفسك، لا تجعليهن يضيقن الخناق عليك ويمارسن الضغط عليك، لا تكونى ضعيفة الشخصية، ينبغى أن تجعلى عمودك الفقرى **backbone** أكثر قوة بمعنى أنك يجب أن تزيدى من قوة شخصيتك " وتضع مخيض اللبن والبيض والدقيق فى الصفائح.

أفكر فى سمك السردين والعمود الفقرى الخاص به، يمكن لك أن تأكل العمود الفقرى الخاص به، فعظام عموده الفقرى تتقوس وتنسحق بين أسنانك ، لمسة واحدة ويحدث الانهيار، ما يحدث لى ناجم عن الغلطة التى وقعت فيها لأننى لم أحرص على أن يكون لدى المزيد من عظام العمود الفقرى القوية.

تضع والدتى السلطانية على المنضدة وتلف ذراعيها حولى وتقول: " أتمنى لو كنت أعرف ما ينبغى على أن أفعله ". هذا اعتراف، والآن أعرف ما كانت تساورنى بشأنه الشكوك : أعرف أنها عاجزة إزاء هذا الأمر.

أعرف أن عجائن الفطائر ينبغى أن تخبز على الفور عقب غرفها مباشرة وإلا فإنها تصبح مسطحة وتالفة، لا أستطيع الخلود إلى الراحة، لو استسلمت للراحة فإن ما تبقى لدى من كميات ضئيلة من عظام العمود الفقرى سوف يتفتت ويتلاشى نهائيًا.

* * *

(٣٠)

كورديليا تحضر مرآة إلى المدرسة، إنها مرآة جيب من ذلك النوع المستطيل الصغير الذى ليس له إطار، وتقول: " انظرى إلى نفسك! ألقى مجرد نظرة " صوتها ملىء بالاشمئزاز والضيق كما لو كان وجهى بمفرده كان منهمكًا فى شىء ما وتمادى فى ذلك أكثر من اللازم، فأنظر إلى المرآة ولا أشاهد أى شىء غير عادى، إنه ليس سوى وجهى الاعتيادى بما فيه من بقع داكنة على الشفتين بالأماكن التى قمت بعضٌ البشرة بها.

والداى يقيمان حفلات البريدج، إنهما يدفعان الأثاث بغرفة المعيشة نحو الحوائط وينشران منضدتى بريدج معدنيتين وثمانية كراسى بريدج، وفى منتصف كل منضدة يوجد طبقان من الخزف الصينى : أحدهما به جوز ولوز وبندق مملح والآخر به أنواع من الحلوى المختلطة. وهذه الحلوى تسمى " حلوى البريدج المختلطة **bridge mixture** " كما توجد أيضًا اثنتان من طفايات السجائر فوق كل منضدة.

وبعدئذ يبدأ جرس الباب فى الدق ويدخل الناس إلى المنزل، ويمتلئ بروائح السجائر الأجنبية والتى ستظل موجودة هناك فى الصباح مع بقايا الحلوى والمكسرات التى لم تؤكل ومع انفجار الضحكات التى تزداد ارتفاعًا بمرور الوقت. أرقد فى سريرى مصغية للضحكات العالية المتفجرة، فأشعر أننى معزولة ومهجورة، وأيضًا لا أفهم السبب الذى يجعل مثل هذا النشاط وهذه الأصوات والروائح تسمى " كوبرى **bridge** " فهذه الأمور لا تشبه الكوبرى.

وفى بعض الأحيان يجىء السيد بانيرجى إلى حفلات البريدج هذه، فأختبئ فى الركن بالرواق وأنا مرتدية بيجامتى على أمل أن ألقى نظرة سريعة عليه، إننى لست مولعة ومفتتنة به أو أى شىء من هذا القبيل، وإنما أريد فقط أن أعرف كيف ينجح فى تحقيق أهدافه وكيف يتوافق مع حياته ومع اضطراره لأن يتناول لحوم الديوك الرومى ومع أمور أخرى، إنه لا يتوافق على نحو جيد للغاية وهذا هو ما أدركه من خلال عينيه السوداويتن المنزعجتين وضحكاته المتسمة بمسحة من

أقرأناكموه

الهستيرية، ولكن إذا كان هو بمقدوره أن يتعامل ويتوافق مع هذه البيئة، فإننى أيضًا بمقدورى أن أتوافق، أو هذا هو ما أعتقده.

الأميرة إليزابيث تزور تورنتو، إنها تزور كندا مع زوجها الذى هو دوق، إنها زيارة ملكية، تترامى من الراديو أصوات هتافات الجماهير وأصوات وقورة تصف لون ملابسها؛ فهى ترتدى ملابس من لون مختلف فى كل يوم، أجثم رابضة على أرضية غرفة المعيشة بينما تنساب موسيقى آلة الكمان التابعة للسلاح البحرى **maritimes** فى الخلفية وقد نشرت مجلة " تورنتو ستار " تحت مرفقى وانهمكت فى دراسة صورتها الموجودة على الصفحة الأولى، إنها تبدو أكبر فى السن مما ينبغى أن تكون عليه بل وتبدو عادية، فهى لم تعد مرتدية زى الكشافة للبنات مثلما كانت تفعل ذلك فى أيام الهجوم الجوى المدمر الخاطف **Blitz**، بل لم تعد مرتدية ثوب السهرة النسائى وعصابة الرأس المرصعة بالجواهر مثل صورة الملكة الموجودة بالجزء الخلفى من حجرة الدراسة، وإنما ترتدى بدلة بسيطة غير مزخرفة وقفازًا وتحمل حقيبة يد مثل أى إنسانة وترتدى قبعة سيدة، ولكنها مع ذلك لها طابع الأميرة، وفى داخل المجلة توجد صفحة كاملة عنها مع نساء يقدمن لها الانحناء وفروض الولاء والاحترام ومع فتيات صغيرات يقدمن لها باقات الزهور، وهى تبتسم لهن بالابتسامة نفسها التى تبدو دائمًا متسمة بحب الخير والتى توصف بأنها ابتسامة مشرقة.

ويومًا وراء يوم أجثم رابضة على الأرضية وأقلب صفحات الجرائد والمجلات، وأشاهدها وهى تشق طريقها عبر الخريطة بالطائرة وبالقطار وبالسيارة من مدينة لأخرى، إننى أعرف جيداً خطوط سيرها فى أرجاء تورنتو، ولسوف تتاح لى الفرصة لمشاهدتها شخصيًّا؛ لأنه من المفترض لها أن تمر بجوار منزلنا وعلى طول الطريق المليء بالحفر الذى يخترق الجبانة والذى توجد به أشجار جديدة طويلة نحيلة وكومات من التراب الممهدة بالبلدوزر، علاوة على صف يضم خمسة جبال طينية جديدة.

الجبال الطينية تقع على الجانب الخاص بنا من الطريق، وهى قد ظهرت مؤخرًا بعد أن حلت محل شريط الحقل المليء بالأعشاب الضارة الذى اعتاد أن

يكون هناك من قبل، وكل جبل يقف إلى جوار الحفرة الخاصة به والحفرة لها شكل البدروم وبها مياه طينية فى القاع، ولقد ادعى أخى أنه يمتلك إحدى هذه الحفر، وهو يضع الخطط من أجل عمل حفريات بها وشق نفق بها من القمة إلى القاع، ثم يحفر فى الجنب لكى يعمل مدخلاً جانبيًا، وما يريد أن يفعله هناك هو أمر غير معروف.

ولا أعرف السبب فى أن موكب الأميرة سيمر بجوار هذه الجبال الطينية، وأعتقد أن هذه الجبال الطينية ليست شيئًا ترغب فى مشاهدته بالضرورة، ولكننى لست متأكدة لأنها تشاهد أشياء أخرى لا تبدو أكثر جذبًا للاهتمام، إذ توجد صورة لها وهى تقف خارج قاعة اجتماعات وصورة أخرى لها بجوار مصنع لتعليب الأسماك، ولكن سواء أكانت هى تريد مشاهدتها أم لا، فإن هذه الجبال الطينية تعتبر مكانًا ملائمًا للوقوف إلى جواره.

إننى أتطلع إلى هذه الزيارة، وأتوقع شيئًا ما من هذه الزيارة، وإن كنت لا أعرف طبيعة ذلك الشىء، هذه هى الأميرة نفسها التى تحدث القنابل فى لندن، وهى الأميرة الشجاعة المتسمة بالبطولة، أعتقد أن شيئًا ما سيحدث لى فى ذلك اليوم، شىء ما سوف يتغير.

تصل الزيارة الملكية إلى تورنتو فى نهاية الأمر، اليوم ملبد بالغيوم مع سقوط رذاذ خفيف للغاية من المطر، من النوع الذى يسمونه الرذاذ الثلجى الخفيف **spitting** أخرج مبكرة وأقف فوق قمة الجبل الطينى الأوسط، يوجد طابور من الناس منتشر فى غير نظام يضم يافعين وأطفالاً على طول جانب الطريق بين الأعشاب الضارة الموحلة، بعض الأطفال ممسكون بالأعلام البريطانية **Union Jacks**، وأنا أيضًا ممسكة بعلم؛ إذ تم تسليمنا تلك الأيام بالمدرسة، لا يوجد جمهور كبير من الناس لأنه لا يسكن هنا عدد كبير من الناس، كما أن بعضهم ربما يكونون قد ذهبوا إلى وسط المدينة، حيث توجد أرصفة المشاة، بمقدورى مشاهدة جريس وكارول وكورديليا على الطريق فى اتجاه منزل جريس، آمل ألا يشاهدننى، أقف على الجبل الطينى بينما العلم البريطانى الخاص بى يتدلى فى ارتخاء من العصا الخاصة به، يمضى الوقت فى تثاقل ونصبح فى فترة متأخرة ولا

يحدث أى شىء، أعتقد أنه ربما ينبغى على أن أرجع إلى منزلى وأصغى إلى الراديو لكى أعرف كم يتبقى للأميرة من مسافة كى تصل إلينا، ولكن تظهر فجأة سيارة شرطة فى جهة اليسار قادمة من خلال الجبانة، يتزايد الرذاذ، توجد هتافات مترامية من على مسافة.

تظهر بعض الموتوسيكلات ثم تجىء بعض السيارات، باستطاعتى مشاهدة أذرع الناس على طول الطريق وهى ترتفع لأعلى فى الهواء وأستطيع سماع هتافات الترحيب المتناثرة، السيارات تنطلق بسرعة كبيرة للغاية رغم وجود الحفر والمطبات فى الطريق، لا أستطيع أن أعرف السيارة التى تستقلها الأميرة.

وبعدئذ أستطيع أن أميزها، إنها السيارة التى يبرز من نافذتها القفاز الشاحب ملوحًا جيئةً وذهابًا، لقد أصبحت السيارة فى مواجهتى تمامًا وتمر من أمامى بالفعل، لا أقوم بالتلويح بالعلم البريطانى الخاص بى ولا أنخرط فى الهتافات لأن السيارات تمر بسرعة فأدرك أن الوقت الملائم قد انقضى، فلن يكون لدى الوقت من أجل ذلك الشىء الذى كنت فى انتظاره والذى لم يصبح محددًا وواضح المعالم أمامى إلا الآن، ما ينبغى على أن أفعله هو أن أجرى نازلة من فوق الجبل مع نشر ذراعى إلى الخارج على كلا الجانبين من أجل الحفاظ على التوازن وألقى بنفسى أمام سيارة الأميرة، أمامها أو فوقها أو نحوها، وعندئذ ستأمرهم الأميرة بإيقاف السيارة، فسوف تضطر إلى ذلك لكى تتجنب مداهمتى بالسيارة، ولا أتخيل نفسى وقد تم إدخالى فى السيارة الملكية التى تواصل انطلاقها، فأنا أكثر واقعية بحيث لا أتخيل ذلك، وعلى كل حال فأنا لا أرغب فى ترك والدى، ولكن الأمور سوف تتغير.... ستصبح الأمور مختلفة.. سيتم عمل شىء ما.

السيارة ذات القفاز تواصل الانطلاق مبتعدة.... لقد وصلت إلى ناصية الطريق... لقد اختفت تمامًا، وأنا لم أتحرك من مكانى.

* * *

الآنسة ستوارت تحب الفن، وتجعلنا نحضر قمصان آبائنا بالمزيد من القذارة دون أن نتسبب فى اتساخ ملابسنا، وبينما نقوم بأعمال القص والطلاء واللصق تسير هى فى الطرقات وقد ارتدت قناع الممرضة الخاص بها وتنظر من فوق كتفيها، ولكن لو قام أى ولد برسم صورة سخيفة فى تعمد فإنها ترفع الصفحة لأعلى فى غضب ملىء بالسخرية وتقول: "هذا الولد يعتقد أنه أنتج شيئًا بارعًا، وأنت لديك المزيد بين الأذنين أكثر من ذلك"، ثم تنقره على أذنه بظفر أصبع الإبهام الخاص بها.

ونحن نقوم بتصنيع الأشياء الورقية المألوفة واليقطينات وأجراس الكريسماس ولكنها تطلب منا إنجاز أشياء أخرى أيضًا، فنقوم بتصنيع نماذج معقدة خاصة بالأزهار باستخدام فرجار، ونقوم بتصميغ مواد غريبة على ظهر الورق الكرتونى المقوى : الريش + الترتر اللامع + قطع من المكرونة المصبوغة فى زخرفة + أطوال من أنبوبة القش الخاصة بالشرب من الزجاجات، ونرسم صورًا زيتية جدارية على سبورات أو على لفائف كبيرة من الورق البنى، ونرسم صورًا تعبر عن دول أجنبية : المكسيك مع نباتات الصبار ورجال لهم قبعات ضخمة.. الصين مع أشكال مخروطية فوق الرؤوس وزوارق العين المبصرة، والهند مع ما نهدف إليه لأن يكون نساء رشيقات مرتديات ثياباً حريرية مع وضع الجرات النحاسية فى توازن بينما الجواهر تتلألأ على جباههن.

إننى أحب هذه الصور الأجنبية لأننى يمكن لى تصديقها، وأنا فى مسيس الحاجة لأن أصدق بأنه فى مكان ما آخر يوجد هؤلاء الناس الأجانب الآخرون، وذلك على الرغم مما قيل لى فى " مدرسة الأحد **Sunday school** " بأن مثل هؤلاء الناس إما أن يكونوا متعرضين للموت جوعًا أو وثنيين أو كليهما.... وعلى الرغم من أن مجموعتى الفنية الأسبوعية تركز على هديهم إلى دين جديد وإطعامهم وهندمتهم فى تأنق، ولقد اعتقدت الآنسة لاملى أنهم أناس ماكرون ومخادعون ومُيالون إلى تناول الأطعمة الغريبة أو المثيرة للقرف والاشمئزاز وميالون إلى

أقرأناكموه

ممارسة أعمال الخيانة ضد البريطانيين، ولكننى أفضل ما تقوله الآنسة ستيورات عنهم حيث تشير إلى أن الشمس فوق رؤوسهم تكون صفراء وبهيجة وأن أشجار النخيل لديهم لها لون أخضر شديد الخضرة وأن ملابسهم مزركشة بالأزهار وأن أغانيهم الشعبية مرحة، والنساء ينهمكن معًا فى دردشة بلغات سريعة مبهمة وغامضة وينخرطن فى الضحكات ويظهرن أسنانهن الممتازة شديدة البياض، لو كان هؤلاء الناس يوجدون، فإنه يمكن لى الذهاب إلى هناك فى يوم ما، لست مضطرة لأن أبقى هنا.

* * *

تقول الآنسة ستوارت إننا سنقوم اليوم برسم ما نفعله عقب الانتهاء من المدرسة.

الآخرون ينحنون على مكاتبهم، أعرف ما سيقومون برسمه : النط على الحبل + رجال الثلج المبتهجون + الاستماع للراديو + اللعب مع كلب. أحملق فى الورقة الخاصة بى التى تظل شاغرة، وفى نهاية الأمر أقوم برسم سريرى ورسم نفسى فى داخله، سريرى به لوحة خشبية داكنة عند الرأس عليها أشكال لولبية زخرفية، وأرسم أيضًا النافذة وخزانة الملابس ذات الأدراج، وأقوم بتلوين الليل، وتقوم يدى الممسكة بالقلم الأسود بالضغط فى مزيد من القوة مرارًا وتكرارًا إلى أن تصبح الصورة كلها تقريبًا سوداء وبحيث لا يتبقى سوى ظل خفيف لسريرى ورأسى الموجودة على الوسادة على نحو يسمح برؤيتها.

أنظر إلى هذه الصورة فى رعب وفزع، إنها ليست ما كنت أريد أن أرسمه، وهى لا تشبه الصورة التى رسمها كل شخص آخر، إنها الصورة الخاطئة، لسوف تشعر الآنسة ستوارت بخيبة الأمل نحوى، أشعر بها الأن وهى واقفة ورائى وناظرة من فوق كتفى، أستطيع شم رائحة لوسيون الأيدى الخاص بها وشم الرائحة الأخرى التى ليست هى رائحة الشاى. تتحرك فيما حولها لكى أتمكن من مشاهدتها، عيناها المجعدتان الزرقاوان تنظران إلى من فوق قمة قناع الممرضة الخاص بها.

تلتزم بالصمت للحظات، ثم تقول فى غير خشونة: "ما السبب فى أن صورتك مظلمة dark للغاية يا عزيزتى ؟ "

فأقول: " لأن الوقت بالليل "، وهذه إجابة متسمة بالحماقة، وأدرك ذلك بمجرد خروجها من فمى، صوتى يكاد يكون غير مسموع حتى بالنسبة لى.

فتقول: " لقد فهمت " ولا تقول إننى قد رسمت الشىء الخاطئ، ولا تقول إنه يوجد بالتأكيد شىء ما آخر أفعله عقب المدرسة بخلاف الذهاب للنوم، وتلمسنى على كتفى لمسة سريعة قبل مواصلة سيرها فى الممر، لمستها تتوهج فى اقتضاب مثل عود ثقاب يتم إشعاله.

تصبح القلوب الورقية بنوافذ الحجرة المدرسية مزدهرة وجميلة، ونقوم بتصنيع صندوق بريد ضخم بمناسبة عيد القديس ڤالنتين عن طريق استخدام صندوق كرتونى مغطى بورق كريبى وردى وقلوب حمراء مغطاة بحافة من مناديل ورقية، وإلى داخل الشق الصغير الموجود فى أعلى صندوق البريد نسقط فى انزلاق بطاقات عيد ڤالنتين المقصوصة من الكتب التى نشتريها من محلات وولويرث مع توجيه بطاقات خاصة للناس الذين نحبهم بصفة خاصة.

وفى يوم العيد ذاته تصبح فترة ما بعد الظهر كلها بمثابة حفلة. الآنسة ستوارت تحب الحفلات، لقد أحضرت عشرات من كعكة الغريّبة التى لها شكل القلب والتى قامت بتصنيعها بنفسها مع وضع غطاء جليدى وردى وكرات فضية عليها، كما توجد قلوب صغيرة مصنوعة من القرفة وصور لقلوب رقيقة توجد بها رسائل تنتمى لحقبة زمنية سابقة ليست هى حقبتنا، وهذه الرسائل بها عبارات مثل " يا زوجى العزيز Hubba Hubba " ، " إنها طفلتى " ، " أوه : أيها الولد ! ".

تجلس الآنسة ستوارت إلى مكتبها وتراقب الموقف بينما تقوم فتيات عديدة بفتح الصندوق وتوزيع البطاقات الڤالنتينية، على مكتبى تتراكم البطاقات فى كومة عالية. معظمها مرسلة من أولاد، وأستطيع أن أعرف ذلك من خط اليد الردىء ولأن الكثير منها دون توقيع، وهناك بطاقات أخرى عليها الحروف الاستهلالية للاسم أو عليها عبارة " خمن من أكون أنا Guess Who "، وبعض البطاقات عليها حرف X أو حرف O، أما البطاقات المرسلة من البنات فكلها عليها التوقيع بالاسم

بالكامل بخط جميل لكى لا تكون هناك أى غلطة فيما يتعلق بالشخص الذى أرسل البطاقة.

فى أثناء العودة على الطريق من المدرسة إلى المنزل تضحك كارول وترينى البطاقات الواردة إليها من الأولاد، لدىّ بطاقات واردة من الأولاد أكثر مما لدى كارول، بل أكثر مما جمعته كورديليا وجريس فى الصف السادس المدرسى الخاص بهما، وأنا فقط التى تعرف هذه الحقيقة، فقد أخفيت البطاقات فى مكتبى لكى لا يراها أحد فى أثناء العودة على الطريق إلى المنزل، وعندما يوجه إلىّ سؤال فى هذا الشأن أقول إننى لم أحصل على عدد كبير، أعانق هذه المعلومة التى تعتبر جديدة، ولكنها لا تدهشنى، فالأولاد هم حلفائى السرّيون.

* * *

كارول تبلغ من العمر عشر سنوات وتسعة شهور فقط، ولكن ثدييها ينموان تدريجيًّا، ثدياها ليسا كبيرين للغاية، ولكن الحلمتين لم تعودا مفلطحتين، وإنما أصبحتا مبدبّبتين علاوة على وجود انتفاخ خلفهما، ومن السهل ملاحظة هذا؛ لأنها تدفع بصدرها للأمام، علاوة على أنها تجذب السويتر الخاص بها لأسفل فى إحكام من أجل أن يبرز ثدياها للأمام، وهى تشتكى من ثدييها وتقول إنهما يسببان لها بعض الآلام، كما تقول إنه يجب أن يكون لديها صديرية للثديين **bra**، فتقول كورديليا: " كفى عن الكلام عن حلمتيك السخيفتين "، إنها أكبر سنًّا ولكنها لا يظهر لديها أى نضوج فى الثديين حتى الآن.

وتقوم كارول بقرص شفتيها وخديها لكى يظهر اللون الأحمر فيهما، وتعثر على أنبوبة أحمر شفاه قديمة ومستنفدة فى سلة المهملات الخاصة بوالدتها، فتقوم بإخفائها وتأخذها معها إلى المدرسة داخل جيبها، ومع استخدام طرف إصبع الخنصر الخاص بها تقوم بحك بعض من أحمر الشفاه على شفتيها عقب الخروج من المدرسة، ثم تمسح شفتيتها بورق الكلينيكس **Kleenex** قبل أن تصل إلى منزلها ولكنها لا تفلح فى إزالته تمامًا.

نلعب بالدور العلوى فى غرفتها، وعندما نهبط إلى المطبخ من أجل أن نتناول كوبًا من اللبن تقول أمها: " ما هذا الذى على وجهك أيتها الليدى الصغيرة ؟ ". ثم تقوم أمامنا بحك وجه كارول بفوطة الأطباق القذرة وتقول: " لا تدعينى أضبطك متلبسة وأنت تفعلين مثل هذا الشىء المبتذل مرة أخرى ! إننى مندهشة من أن هذه الفكرة تخطر على ذهنك وأنت فى مثل هذه السن الصغيرة !! "، وتتملص كارول وتبكى وتصرخ، نرقب الموقف فى رعب وإثارة، وتقول أمها فى صوت ملىء بالغضب: " عليك بالانتظار لحين مجىء والـــدك إلى المنـــزل ! " وبعدئذ تتذكر أننا مازلنا موجودات فتقول: " اذهبن إلى بيوتكن ".

وبعد مرور يومين تقول كارول إن أباها قد أعطاها علقة ساخنة مستخدمًا حزامه والحلية المعدنية الموجودة فى طرف حزامه مع تركيز الضرب على عجيزتها العارية، وتقول إنها لا تستطيع الجلوس على عجيزتها إلا بصعوبة بالغة. ويبدو الافتخار على صوتها وهى تقول لنا ذلك، وترينا عقب المدرسة وفى داخل الغرفة الخاصة بها الآثار السيئة الناجمة عن ضربها، إذ تخلع ملابسها الداخلية فنشاهد العلامات الشبيهة بالخربشات، وهى ليست علامات حمراء للغاية ولكنها موجودة بالفعل.

ومن الصعب أن نصدق أن هذا العقاب الصارم يمارسه والد كارول وهو السيد كامبيل اللطيف الذى له شنب ناعم والذى يطلق على جريس اسم " العيون البنية الجميلة " ويطلق على كورديليا اسم " الآنسة لوبيليا **miss Lobelia** "؛ ولذلك فمن العجيب تخيله وهو يضرب أى شخص بالحزام، ولكن الآباء وطرائقهم لهم طابع متسم بالغموض، فأنا أعرف ودون أن يخبرنى أحد بأن السيد سميث – على سبيل المثال _ يعيش حياة سرية غامضة ويفكر دائمًا فى الهروب من الحياة الزوجية، كما أن والد كورديليا يكون مبهرًا وجذابًا من وجهة نظرنا خلال المرات القليلة للغاية التى نشاهده فيها حيث يطلق النكات الساخرة كما أن ابتسامته تكون شبيهة بلوحة إعلانات ولكن لماذا تكون كورديليا خائفة منه ؟ لأنها تشعر بالخوف منه، فجميع الآباء باستثناء أبى يكونون غير مرئيين فى أثناء فترة النهار والأمهات هن اللاتى يسيطرن فى هذه الفترة، ولكن الآباء يبزغون فى الليل، فالظلام يجذب الآباء إلى المنازل فيجيئون إلى المنازل ومعهم نفوذهم وسلطانهم الحقيقى الردىء

أقرأناكموه

للغاية، فهم لا يكتفون بتوجيه النظرات القاسية؛ ولذلك فنحن نصدق أن كارول قد ضُربت بالحزام.

* * *

وتقول كارول إنها قد شاهدت بقعة مبللة على ملاءة سرير أمها قبل أن يتم ترتيب السرير، فندخل على أطراف أصابع أقدامنا إلى غرفة والديها، السرير مرتب للغاية؛ الأغطية منتشرة عليه فى نظام شديد مما يجعلنا نخاف ولا نرفع الأغطية لكى نلقى نظرة على تلك البقعة، وتفتح كارول درج الكومودينو الخاص بوالدتها فتقوم بالحملقة فى الدرج، يوجد شىء مصنوع من المطاط مثل قمة يقطينة كما توجد أنبوبة معجون أسنان ولكنها ليست معجون أسنان، وتقول كارول إن هذه الأشياء تمنع الحبل بالأطفال، ولا نضحك ولا نهزأ فى سخرية لدى سماع كلامها وإنما نقرأ الكلام المطبوع على الأنبوبة، وعلى نحو ما فإن العلامات الحمراء الموجودة على عجيزة كارول قد أعطتها مصداقية كانت تنقصها من قبل.

ترقد كارول على سريرها الذى توجد عليه ملاءة بيضاء مكرمشة تتلاءم مع لون الستائر، إنها تتظاهر بأنها مريضة بمرض غير معروف وغير محدد، فقمنا بتبليل قطعة قماش ووضعها على جبهتها كما أحضرنا لها كوبًا من الماء، المرض هو لعبة نلعبها الآن.

تتأوه كارول: "أوه، إننى مريضة، إننى مريضة " وتتلوى بجسدها على السرير، وتضيف: " أيتها الممرضة، افعلى أى شىء من أجلى ".

فتقول كورديليا: " ينبغى أن نسمع ضربات قلبها "، ثم تخلع السويتر الخاص بكارول وتجذب لأعلى ملابسها الداخلية، لقد سبق لنا جميعًا أن ذهبنا الى الطبيب ولذلك فنحن نعرف حالات الخزى الشديد التى تشعر بها المريضة، " لن تشعرى بالآلام " يوجد أمامنا ثدياها فى حالة انتفاخ بينما الحلمتان تتخذان اللون الأزرق الفاتح مثل الشرايين الموجودة على الجبين، وتقول كورديليا: " تحسسى نبضات قلبها ".

لا أرغب فى القيام بهذا العمل، لا أريد أن ألمس ذلك اللحم المنتفخ غير الطبيعى، فتقول كورديليا فى لهجة آمرة: " هيا، افعلى ما أقوله لك ".

وتقول جريس: " إنها دائمًا ما تكون غير مطيعة "، أمد يدى وأضعها على الثدى الأيسر، إنه يشبه بالونًا مملوءًا بالماء أو مثل عصيدة شوفان دافئة، تضحك كارول وتقول: " أوه، يدك باردة للغاية!"، الغثيان يتصاعد فى داخلى.

تقول كورديليا: " افحصى قلبها أيتها الغبية، إننى لم أطلب منك أن تفحصى حلمة ثديها، ألا تعرفى الفارق ؟ "

* * *

تجىء عربة إسعاف ويتم نقل والدتى على نقالة إلى العربة، لا أشاهد هذا بنفسى ولكن ستيفن يخبرنى بذلك، لقد حدث ذلك فى منتصف الليل عندما كنت أنا مستغرقة فى النوم، ولكن ستيفن قد اعتاد على النهوض من النوم فى السر والنظر من نافذة حجرة نومه نحو النجوم، وهو يقول إنه يمكن لك أن تشاهد النجوم على نحو أفضل عندما تكون معظم الأنوار الكهربائية بالمدينة مطفأة، ويقول إن هناك طريقة للاستيقاظ من النوم دون استخدام المنبه؛ وهى أن تشرب كوبين من الماء قبل الذهاب للنوم، وبعدئذ ينبغى عليك أن تركز ذهنك على الوقت الذى تريد أن تستيقظ فيه، فهذا هو ما اعتاد الهنود أن يفعلوه؛ ولذلك فقد كان مستيقظًا وراح يصغى، ثم ذهب خلسة إلى الجانب الآخر من المنزل لكى ينظر من النافذة الموجودة هناك، حيث يمكن له مشاهدة ما يدور فى الخارج هناك بالشارع، ويقول إنه كانت هناك أنوار متوهجة فى وميض ولكن سيارة الإسعاف لم تطلق صفارة الإنذار (السرينة) الخاصة بها، وبالتالى فلا عجب من أننى لم أسمع أى شىء.

عندما أستيقظ فى الصباح أدرك أن والدى يقوم بقلى لحوم الخنزير فى المطبخ، وهو يعرف كيفية إنجاز ذلك رغم أنه لا يفعل ذلك أبدًا فى المدينة، وإنما فقط على نيران المعسكرات، فى غرفة النوم الخاصة بوالدى توجد كومة من الملاءات المكومة على الأرضية والبطاطين مطوية وموضوعة على كرسى، وعلى

أقرأناكموه

المرتبة توجد بقعة بيضاوية كبيرة من الدماء، ولكن عندما أرجع من المدرسة إلى المنزل أجد أن الملاءات قد اختفت، وأن السرير قد تم ترتيبه فى نظام ولم يعد يوجد هناك شىء يمكن لى أن أراه.

ويقول والدى إنه قد وقعت حادثة، ولكن كيف يمكن لك أن تتعرض لحادثة وأنت مستلقٍ فى السرير ونائم ؟، ويقول ستيفن إن الأمر كان يتعلق بطفل صغير للغاية جاء قبل الوقت المحدد، فلا أصدق كلامه ؛ فالنساء اللائى على وشك الولادة يكن لهن بطون ضخمة وممتلئة بينما والدتى لم يكن بطنها على ذلك النحو.

ترجع والدتى من المستشفى وقد ظهر عليها المزيد من الضعف، ينبغى عليها أن تستريح، لا أحد معتاد على هذا، وهى نفسها ليست معتادة على هذا، إنها تقاوم الراحة وتنهض كالمعتاد وتضع يدها على الحائط وعلى حواف الأثاث فى أثناء سيرها، وتقف فى انحناء على حوض المطبخ وقد وضعت سترة صوفية على كتفيها، وفى أثناء قيامها بإنجاز شىء ما تضطر للذهاب والاستلقاء فى السرير، بشرتها شاحبة وجافة، يبدو عليها وكأنها تصغى لصوت ربما يترامى من خارج المنزل ولكن لا يوجد هناك أى صوت، وأحيانًا أضطر لأن أكرر الكلام مرتين قبل أن تسمعنى. يبدو عليها وكأنها قد انطلقت إلى مكان ما آخر تاركة إياى أو يبدو عليها أنها نسيت أننى موجودة بجوارها.

كل هذا مخيف أكثر من بقعة الدماء، والدنا يطلب منا أن نقدم المزيد من العون والمساعدة لها مما يعنى بأنه خائف أيضًا.

بعد أن تتحسن صحة والدتى أعثر على فردة جورب مشغولة بالتريكو لها لون أخضر فاتح فى سلة حياكة التريكو الخاصة بوالدتى، وأتعجب من السبب الذى جعلها تحيك فردة واحدة فقط، إنها لا تحب أعمال التريكو؛ ولذلك فهى ربما أنجزت فردة واحدة ثم أصابها الملل والسأم.

أحلم أن السيدة فاينشتاين المقيمة بالمنزل المجاور لنا والسيد بانيرجى هما والداى الحقيقيان.

أحلم أن والدتى قد أصبح لها طفل رضيع... طفل توأم، طفل رمادى اللون، ولا أعرف مكان الطفل الآخر الذى هو توأم معه.

أحلم بأن منزلنا قد تقوض عقب اشتعال النيران فيه، ولا يتبقى منه أى شىء. توجد انطباعات سوداء توضح المكان الذى كان يوجد به، كما لو كانت هناك نيران غابة، وإلى جوار مكانه يوجد جبل ضخم من الطين.

والداى ميتان ولكنهما أيضًا على قيد الحياة، إنهما مستلقيان إلى جوار بعضهما البعض ومرتديان الملابس الصيفية الخاصة بهما، وهما يغوصان إلى باطن الأرض التى تكون صلبة ولكنها شفافة مثل الثلج، ينظران لأعلى نحوى فى حزن وأسى أثناء تراجعهما فى تقهقر.

(٣٢)

إنها فترة ما بعد الظهر فى يوم السبت، نحن ذاهبون إلى المبنى، وإلى شىء ما يسمى كونفيرسات **Conversat**، لا أعرف معنى الكونفيرسات، ولكنى أشعر بالارتياح لذهابى إلى المبنى؛ حيث توجد الفئران والثعابين والتجارب العلمية ولا توجد أية فتيات، سألنى والدى عما إذا كنت أرغب فى إحضار صديقة لى فقلت له إننى لا أرغب فى ذلك، وأخى يحضر معه صديقه دانى **Danny** الذى تسيل أنفه بالمخاط فى كل الأوقات، والذى يرتدى صدرة مشغولة بالتريكو فى نماذج ماسية والذى لديه مجموعة طوابع بريد، إنهما يجلسان فى المقعد الخلفى بالسيارة – إذ لم يعد أخى يتعرض للغثيان والتقيؤ أثناء ركوبه فى السيارة – ويتحدثان معًا بلغة كودية عابثة **pig Latin**(*) ومازحة، ولا أشارك معهما فى الكلام بهذه الطريقة لأننى قد فقدت الاهتمام بمثل هذه الأمور، أنظر إلى خارج نافذة السيارة مع التظاهر بأننى لا أسمع كلامهما.

(*) "Pig Latin" المقصود لغة قذرة ، عابثة ، ماجنة (المترجم)

أقرأناكموه

يتضح لى أن الكونفيرسات هو شيء أشبه بمتحف، فمصلحة علم الحيوان Zoology Department تفتح أبوابها للجماهير لكى تقدم للناس نبذة عن العلم بهدف تحسين عقولهم، وهذا هو ما قاله والدى وهو يبتسم بتلك الطريقة الخاصة به عندما يهدف إلى المزاح بعض الشيء، وقال والدى إن عقول الناس يمكن لها أن تستخدم بعض التحسينات، فقالت والدتى إنها تعتقد أن ذهنها قادر على استيعاب المزيد من التحسينات وبالتالى فهى ستذهب لشراء بعض مواد البقالة.

يوجد عدد كبير من الناس فى الكونفيرسات؛ إذ لا توجد مجالات كثيرة للتسلية فى إجازات نهاية الأسبوع فى تورونتو، المبنى به جو من البهجة والمرح.. أو جو مهرجان، بروائحه المعتادة الناجمة عن مواد تلميع الأثاث وروث الفئران والثعابين المختلطة مع روائح أخرى ناجمة عن الملابس الشتوية ودخان السجائر وعطور السيدات، قصاصات طويلة ضيقة ومتموجة كالأعلام الخفاقة من الورق الملون مثبتة على الحوائط مع وجود أسهم من الورق على مسافات محددة على طول القاعات وعلى السلالم وفى داخل الحجرات المختلفة لكى ترشد الزائر، وكل غرفة بها المعروضات الخاصة بها على نحو مجمع طبقًا لما هو مفترض فى الزائر أن يتعلمه ويعرفه.

فى الغرفة الأولى توجد كتاكيت فى المراحل المختلفة من النمو... ابتداءً بنقطة حمراء حتى الوصول إلى الكتكوت ذى الرأس الكبير والعين الجاحظة والريش الذى يشبه الدبابيس مما لا يجعله يبدو زغبيًّا وجميلاً على النحو الذى يبدو عليه على بطاقات عيد الفصح، وإنما يبدو لزجًا وقذرًا مع تجعيد مخالبه لأسفل وانفتاح جفنى عينيه قليلاً وإظهار عين هلالية لها لون أزرق عقيقى، وهذه الكتاكيت قد عولجت بمحلول حمضى؛ حيث إن رائحة الفورمالدهايد قوية للغاية، كما توجد لها مشيمة متصلة ولها بشرة رمادية وطافية فى شيء ما يشبه غسول الصحون، وقد حقنت شراييها وأوردتها بمادة مطاطية ملونة لها لون أزرق بالنسبة للأوردة ولون أرجوانى بالنسبة للشرايين، وذلك حتى يمكن لنا أن نشاهد وندرك أن الأنظمة الدموية الخاصة بها متصلة، كما يوجد مخ بشرى فى زجاجة شبيه بثمرة جوز عملاقة ورمادية ومترهلة ورخوة، ولا أستطيع أن أصدق أنه يوجد شيء كهذا فى داخل رأسى.

وفى غرفة أخرى توجد منضدة يمكن أن يتم أخذ بصمات أصابعك عليها حتى يمكن لك أن ترى بنفسك أن بصماتك لا تشبه بصمات أى شخص آخر، وتوجد لوحة كبيرة من البريستول مثبت عليها صور فوتوغرافية مكبرة لبصمات بعض الناس، أنا وأخى ودانى **Danny** عرضنا أيدينا فأخذت بصماتنا، حماس أخى ودانى لبصمات الأصابع شديد للغاية، إنهما يطبعان البصمات على جبهة بعضهما البعض بأصابعهما الملوثة بالحبر ويقولان بأصوات عالية مشئومة: " علامة اليد السوداء **the mark of Black Hand** " إلى أن يمر والدنا بجوارهما ويطلب منهما الكف عن الكلام والصياح، السيد بانيرجى الوسيم القادم من الهند يسير برفقة والدى، يبتسم لى فى عصبية ويقول: " كيف حالك يا آنسة ؟ "، إنه دائمًا ما ينادينى بكلمة " يا آنسه **miss**"، وهو يبدو ككل هذه الوجوه البيضاء / الشتوية داكنًا أكثر من المعتاد بينما أسنانه تسطع فى إشراق.

فى الغرفة نفسها التى توجد بها بصمات الأصابع يقدمون للزائرين قطعًا من الورق، من المفترض أن تتذوقها وتقول ما إذا كان طعمها مرًّا مثل قطع من الخوخ أو حمضيًا مثل الليمون، وهذا يبرهن على أن بعض الأشياء تنتقل بالوراثة، كما توجد أيضًا مرآة؛ حيث يمكن لك أن تعمل تمرينات خاصة بلسانك ولكى ترى ما إذا كان بمقدورك أن تدفع بلسانك إلى الجانبين أو تجعله يتخذ شكل ورقة البرسيم، وبعض الناس لا يستطيعون عمل هذا أو ذاك، يأخذ أخى ودانى المرآة وكل منهما يجعل وجهه يبدو شنيعًا بأن يدفع بإصبعى أبهامه على جانبى فمه، وبأن يجذب جفنى عينيه لأسفل لكى يظهر اللون الأحمر.

وبعض الأماكن بالكونفيرسات تكون أقل إمتاعًا وتسلية؛ حيث توجد بها الكثير من الكتابة، بل ولا يوجد فى بعضها سوى الخرائط والرسومات البيانية المعلقة على الحوائط أو النظر من خلال الميكروسكوبات وهو أمر يمكن لنا أن نفعله فى أى وقت كلما أردنا على كل حال.

المكان مزدحم ونحن ننتقل فى بطء بين القاعات مع تتبع الأسهم الإرشادية الورقية الزرقاء والصفراء وقد ارتدينا الأحذية الفوقية الشتوية، ونحن لم نكن قد

خلعنا معاطفنا، الجو دافئ للغاية، وأجهزة التدفئة تعمل بكامل طاقتها، والهواء ملىء بأنفاس الناس الآخرين.

ونصل إلى غرفة توجد بها سلحفاة مشقوقة، إنها موجودة فى صينية مصنوعة من المينا البيضاء، وهى تشبه السلاحف الموجودة فى محلات الجزارة، السلحفاة على قيد الحياة، أو هى ميتة ولكن قلبها ينبض بالحياة، وهذه السلحفاة هى بمثابة تجربة توضح لنا كيف أن قلب السلحفاة والزواحف يمكن أن يستمر فى الدق عقب موت باقى أعضاء الجسد.

الصَدَفة السفلية للسلحفاة بها ثقب قد فتح بالمنشار، وهى ملقاة على ظهرها حتى يمكن لك أن تشاهدها من الداخل وترى قلبها الذى يدق فى بطء ويتوهج باللونَ الأحمر الداكن هنالك فى التجويف الخاص به، ويجفل مثل طرف دودة مضرب يمتد ويجفل مرة أخرى، إنه يشبه يدًا تنقبض وتنبسط، إنه يشبه عينًا.

لقد أوصلوا سلكًا بالقلب، وهذا السلك متصل بمكبر للصوت وذلك حتى يمكن لك سماع ضربات القلب المنتشرة فى جميع أرجاء الغرفة والتى تتدفق فى كرب وحزن مثل رجل عجوز يصعد على السلالم، لا أستطيع أن أعرف ما إذا كان القلب سينجح فى دق الدقة التالية أم لا؛ إذ توجد ضربة قدم ثم فترة توقف ثم خشخشة شبيهة بالتشويش الذى يصدر عن الراديو والذى يقول عنه أخى إنه يجىء من الفضاء الخارجى، ثم تظهر نبضة أخرى وشهقة لدى استنشاق الهواء، الحياة تتدفق فى انسياب خارجة من السلحفاة، أستطيع سماعها عبر الميكروفون، سرعان ما ستصبح السلحفاة شاغرة ومفرغة من الحياة.

لا أحب البقاء فى هذه الغرفة ولكن يوجد صف من الناس أمامى وخلفى، جميع الناس القريبين منى من اليافعين الكبار، لم أعد أستطيع مشاهدة دانى وأخى بسبب الزحام، إننى مطوقة ومحاصرة بالمعاطف التويد **tweed** وعيناى فى مستوى الزرار الثانى بهذه المعاطف، أسمع صوتًا آخر يغطى على صوت نبضات قلب السلحفاة شبيهًا برياح آخذة فى الاقتراب ، إنه صوت خشخشة مثل صوت أوراق أشجار الحور وإن كان أقل حدة وأكثر جفافًا، يوجد سواد حول طرفى عينى، وهذا السواد ينفذ إليه الظلام، ما أشاهده يشبه مدخلاً مؤديًا إلى نفق مندفع بعيدًا عنى أو

أنا التى أندفع بعيدًا عنه... بعيدًا عن نقطة ضوء النهار، وعقب ذلك أنهمك فى النظر إلى كمية كبيرة من الأحذية الفوقية وأخشاب الأرضية الممتدة على مسافة عند مستوى العين، أشعر بآلام فى رأسى.

ويقول شخص ما: " لقد تعرضت للإغماء " وبعدئذ أعرف ما فعلته.

" من المؤكد أن السخونة هى السبب فى ذلك "، يتم حملى إلى الهواء الرمادى البارد، السيد بانيرجى هو الذى يحملنى بينما تصدر عنه أصوات تدل على القلق والانزعاج، ويسارع أبى إلى الخروج ويطلب منى أن أجلس مع وضع رأسى بين ركبتى، فأفعل ذلك مع النظر إلى الأجزاء العلوية من الحذاء الفوقى، ويسألنى عما إذا كنت أشعر بالرغبة فى التقيؤ فأقول له: " لا "، ويخرج أخى ودانى ويحملقان فىَّ دون أن يقولا أى كلام، وأخيرًا يقول أخى: " إنها غير مغمى عليها، إنها على ما يرام " ثم يرجعان إلى الداخل.

أظل واقفة بالخارج إلى أن يحضر والدى السيارة، ثم نتجه بالسيارة إلى منزلنا، أبدأ فى الشعور بأننى قد اكتشفت شيئًا ما مهمًّا وجديرًا بالمعرفة، اكتشفت أنه توجد هناك وسيلة للخروج من الأماكن التى ترغب فى مغادرتها، ولكنك لا تستطيع الخروج منها، الإغماء يشبه اتخاذ خطوة على جانب إلى خارج جسدك... إلى خارج الزمن أو إلى داخل زمن آخر، وعندما تستيقظ يكون السيف قد سبق العذل، يكون الزمن قد استمر فى تتابعه بدونك.

* * *

تقول كورديليا: " فكرى فى عشر مجموعات من الأطباق، تلك هى الفرص العشرة الخاصة بك "، فى كل مرة أرتكب فيها شيئًا خطأ تنهار مجموعة أطباق متهشمة على الأرض، أستطيع مشاهدة هذه الأطباق، كورديليا تستطيع مشاهدتها أيضًا لأنها هى الإنسانة التى تقول: " تحطيم **Crash** "، جريس لا تستطيع مشاهدتها أيضًا كثيرًا، ولكن تحطيماتها تكون غير مؤكدة فتنظر إلى كورديليا من أجل

الحصول منها على التأكيد وتجرب كارول التحطيم مرة واحدة أو مرتين، ولكنها تتعرض للسخرية ويقال لها: " ذلك لم يكن تحطيمًا ! ".

وتقول كورديليا: " لم يتبق سوى أربعة، من الأفضل أن تراقبى نفسك، أليس كذلك ؟ " فلا أرد بأى كلام، فتقول كورديليا: " أبعدى هذه البسمة المتكلفة عن وجهك"، فلا أرد بأى كلام، وتقول كورديليا: " تحطيم ! " وتضيف: " لم يتبق سوى ثلاثة ".

ولا أحد يقول أبدًا ما الذى سيحدث لو أن مجموعات الأطباق كافة تسقط محطّمة.

* * *

أقف مستندة على الحائط بالقرب من الباب المكتوب عليه كلمة " البنات "، بينما البرد يزحف لأعلى على ساقى وتحت حوافى كمى، ليس من المفترض لى أن أتحرك، لقد نسيت بالفعل السبب فى ذلك، لقد اكتشفت أنه يمكن لى أن أملأ رأسى بالموسيقى... موسيقى أغنية " أجيء بسرعة وفى ابتهال " وأغنية " أستمر فى السعادة مع الفرقة السعيدة " وأكاد أنسى أى شيء تقريبًا، إنها فترة الاستراحة بالمدرسة، الآنسة لاملى تسير جيئةً وذهابًا فى ملعب المدرسة ومعها جريس اليد النحاس الخاصة بها وقد أغلقت وجهها فى إحكام فى مواجهة البرد وانهمكت فى شئونها الخاصة، مازلت أشعر بالخوف منها رغم أنها لم تعد مدرستى، تمر مجموعات من البنات فى تمايل وهن ينشدن أغنية " نحن لا نتوقف من أجل أى شخص ". ينظرن إلى فى حب استطلاع، ثم يواصلن السير فى ابتعاد، الأمر أشبه بالناس الموجودين فى سيارات بالطريق السريع الرئيسى الذين يخفضون من سرعة السيارة وينظرون من النافذة عندما تكون هناك حادثة سيارة بجوار الطريق، إنهم يخفضون السرعة ولكنهم لا يتوقفون، إنهم يعرفون عندما تكون هناك متاعب ويعرفون متى يبتعدون عن تلك المتاعب.

إننى أقف مع الابتعاد قليلاً عن الحائط وألقى برأسى إلى الوراء وأحملق نحو السماء الرمادية وأحبس أنفاسى، إننى أدفع نفسى نحو الشعور بالدوخة والدوار، باستطاعتى مشاهدة مجموعة من الأطباق لدى تطوحها ولدى شروعها فى الانقلاب والسقوط فى انفجار صامت من شظايا الخزف الصينى، وتطبق السماء فى انغلاق وتصبح فى حجم رأس الدبوس، وتتلامس موجة من أوراق الشجر الجافة فوق رأسى فى اكتساح خفيف، وبعدئذ أتمكن من مشاهدة جسدى ملقى على الأرض... فى مجرد استلقاء هناك، أستطيع مشاهدة البنات وهن يشرن بأيديهن ويحتشدن وأتمكن من رؤية الآنسة لاملى وهى تمشى فى تثاقل وتنحنى فى صعوبة لكى تنظر إلىّ، ولكننى أشاهد كل هذا من أعلى كما لو كنت موجودة فى الهواء فى مكان بالقرب من لافتة " البنات " الموجودة فوق الباب مع النظر لأسفل مثل طائر.

أفيق من الإغماء فيلوح وجه الآنسة لاملى على مسافة بوصات قليلة منى وقد ظهر التجهم عليها أكثر من ذى قبل، كما كنت قد تسببت فى إثارة الفوضى وحولها كانت تقف حلقة من البنات المتدافعات من أجل إلقاء نظرة فى مزيد من الوضوح.

توجد دماء، لقد أصبت بجرح فى جبهتى، يتم نقلى إلى مكتب الممرضة، تقوم الممرضة بمسح الدماء وتضع ضمادة من الشاش، منظر دمائى على قماشة غسل الوجه البيضاء المبللة يدخل علىَّ الارتياح والرضا العميقين.

تتعرض كورديليا للإخضاع والقهر؛ فالدماء مثيرة للعاطفة بل وأكثر إثارة للعاطفة من التقيؤ، هى وجريس فى حالة من الجزع والقلق فى أثناء العودة إلى المنزل مع تشابك ذراعيها مع ذراعى وتوجيه أسئلة لى عن مدى شعورى بالتحسن، وهذا النوع من الاهتمام من جانبهما يجعلنى هيابة وخائفة ومرتعشة، أخشى من احتمال انفجارى فى البكاء بدموع استرضـــائية، من أجل المصالحة، ولكنى أحرص على ألا يحدث ذلك حالياً.

وفى المرة التالية التى تطلب فيها كورديليا منى أن أقف مستندة إلى الحائط أتعرض للإغماء مرة أخرى، والآن أستطيع أن أعرض نفسى للإغماء فى أى وقت أريده؛ إذ أكتم أنفاسى، ثم أسمع صوت الحفيف وأشاهد الظلام، ثم أنزلق على

أقرأناكموه

الجنب خارجة من جسدى، ثم أصبح موجودة فوق الناس مثلما حدث فى المرة الأولى، ففى بعض الأحيان لا يوجد سوى لطخة سوداء.

أبدأ فى أن أُعرف بأننى الفتاة التى تتعرض للإغماء، وتقول كورديليا: " إنها تتعمد أن تفعل ذلك " وتضيف: " هيا، دعينا نراك وأنت تتعرضين للإغماء، هيا، ادخلى فى حالة الإغماء "، ولكنها عندما تقول لى ذلك لا أستطيع الدخول فى حالة الإغماء.

أبدأ فى قضاء بعض الوقت خارج جسدى دون التعرض للسقوط على الأرض، فى هذه المرات أشعر بالضبابية والتشويش كما لو كانت هناك نسختان منى... نسخة مركبة فوق النسخة الأخرى ولكن فى غير إتقان؛ إذ توجد حافة من الشفافية وإلى جوارها توجد حافة من جسد جامد مجسم بدون إحساس مثل ندبة غائرة، ويمكن لى أن أشاهد ما يحدث من حولى ويمكن لى سماع ما يقال لى ولكننى لست بحاجة لأن أصغى أو أركز انتباهى على أى شىء، فأنا منحرفة نحو الجنب.

الباب السابع

سيدة المساعدات الدائمة الخاصة بنا :

Our Lady of Perpetual Help

أقرأناكموه

(٣٣)

أسير فى اتجاه الغرب مبتعدة عن سيمبصونز، مازلت أبحث عن طعام لكى أتناوله، أخيرًا أشترى شريحة من البيتزا **pizza** وألتهمها أثناء السير فى الطريق حيث تطويها أصابعى إلى جزءين وأنخرط فى القضم، عندما أكون موجودة مع بين **Ben** أتناول الطعام فى أوقات منتظمة لأنه يفعل ذلك وأتناول الأشياء المألوفة، ولكن عندما أكون بمفردى أنهمك فى تناول الطعام التافه وأعود إلى طرائقى القديمة الفردية الغريبة، هذا شىء ضار وردىء بالنسبة لى ولكننى أريد أن أتذكر الشكل الذى يكون عليه الضرر بالنسبة لى، كان بمقدورى أن أبدأ فى النظر إلى بين **Ben** على أنه أمر مسلم به بأربطة عنقه وتسريحات شعره وتناوله للجريب فروت كطعام فى وجبة الإفطار، فهذا يجعلنى أقدره وأعجب به أكثر.

لدى رجوعى إلى الاستوديو أتصل به تليفونيًا مع مراعاة الفارق الزمنى بين المكان الذى أوجد فيه وبين المنطقة الساحلية، ولكنى لا أسمع سوى صوتى أنا مسجلاً على الرسالة الصوتية ويتبع ذلك صوت بيب **beep** " إشارة الوقت الرسمية لمرصد الدومنيون " الذى يدخلك إلى المستقبل، فأقول: " إننى أحبك " حتى يمكن له أن يسمع هذه العبارة فيما بعد، وبعدئذ أتذكر، إنه حاليًا موجود فى المكسيك ولن يعود من هناك قبل رجوعى.

حاليًا أصبح الجو مظلمًا بالخارج، يمكن لى الخروج من أجل إنجاز شىء ما آخر مثل تناول طعام العشاء أو الذهاب إلى السينما، بدلاً من ذلك أزحف على الفوتون **futon** وتحت الدفتين المخملى **duvet** مع فنجان من القهوة ودليل تليفونات تورونتو، وأبدأ فى البحث عن أسماء، لم تعد توجد أسماء آل سميث **smeaths** ربما انتقلوا إلى مكان آخر أو ماتوا أو تزوجوا، توجد أسماء كامبيل **Campbells**، أبحث عن اسم جون Jon الذى كان اسمى منسوبًا إلى اسمه ذات يوم، لا يوجـد اسم

جوزيف هربك **Josef Hrbik** رغم وجود أسماء مثل : **Hriczust Hrastniks + Hrens + Herbeks Risleys** ولم تعد توجد أسماء آل ريسلاى ولا يوجد اسم كورديليا.

من العجيب أن أكون مستلقية على سرير جون **Jon** مرة أخرى، إننى لم أفكر فى هذا على أنه سرير جون لأننى لم يسبق لى أن شاهدته مستلقيًا فى هذا السرير من قبل على الإطلاق، ولكنه سريره بالطبع، إنه أكثر أناقة من الأسرَّة الأخرى التى اعتاد أن ينام عليها بل وأكثر نظافة، أول سرير له كان بمثابة مرتبة على الأرض مع وجود حقيبة نوم قديمة على تلك المرتبة، ولم أنزعج من ذلك وإنما أحببت تلك المرتبة فى حقيقة الأمر؛ إذ كانت تشبه التخييم فى الخلاء، وعادةً ما كان يوجد صف من الفناجين والأكواب والصحون الشاغرة علاوة على بقايا من الطعام حول المرتبة وهو وضع لم أحبه كثيرًا، كان هناك إتيكيت يتعلق بمثل هذه اللخبطة والفوضى فى تلك الأيام.

كنا نستلقى معًا على ذلك السرير فى فترة ما فى بداية الأمر قبل أن نبدأ فى التقاط الأطباق عندما فتح باب غرفة النوم وبزغت عند فتحة الباب امرأة لم أشاهدها من قبل على الإطلاق، كانت ترتدى بنطلون چينز قذرًا وقميصًا حرف **T** ورديًا فاتحًا وكان وجهها نحيلاً ومكتسبًا اللون الأبيض مع اتساع إنسان عينيها، وبدا عليها وكأنها قد تعاطت نوعًا من المخدرات وهو أمر كان يمكن أن يحدث فى تلك الأوقات، ووقفت هنالك دون أن تنطق بكلمة واحدة بينما كان وجهها ثملاً فقمت بجذب حقيبة النوم على جسدى.

وقال جون: " هاى، مرحبًا ".

فسحبت يدها الموجودة خلف ظهرها وألقت بشىء ما نحونا، لقد كانت حقيبة ورقية مليئة بمكرونة اسباجيتى دافئة ومزودة بالصلصة، وانفجرت الحقيبة لدى ارتطامها وملأتنا بحبال الزينة المزركشة، ثم انصرفت دون أن تقول أى كلام وصفقت الباب وراءها.

دب الخوف فى كيانى ولكن جون شرع فى الضحك فتساءلت: "ما هذا الذى حدث؟ وكيف تمكنت من الدخـــول إلى هنا بحق الجحيم؟".

فقال جون وهو مازال منفجرًا فى الضحك: " لقد دخلت من خلال الباب "، وقام بإزاحة قطعة مكرونة كانت متشابكة مع شعرى ثم انحنى لكى يقبلنى، أدركت أن هذه المرأة هى بكل تأكيد صديقة له **girlfriend** أو صديقة سابقة، فشعرت بالغضب منها، لم يخطر على بالى أنها ربما يكون لديها سبب يدعوها لأن تتصرف على ذلك النحو؛ إذ لم أكن قد شاهدت بطريق الصدفة دبابيس الشعر الغريبة التى تركت فى غرفة الحمام مثل غائط كلب محلى على خراطيم ثلجية وآثار أحمر الشفاه الموضوعة بطريقة استراتيجية على المخــدات؛ إذ كان جون يعرف جيدًا كيف يخفى آثاره، وهو عندما لا يخفى تلك الآثار فإن ذلك يرجع إلى سبب أو هدف معين، ولم يخطر على ذهنى أيضًا أنها كان لديها مفتاح بكل تأكيد.

وقلت: " إنها مخبولة وينبغى أن توضع فى مصحة " ولم أشعر بالشفقة عليها على الإطلاق، وعلى نحو ما شعرت بالإعجاب بها لأنها لا يوجد لديها ندم أو وخز للضمير وأعجبت بشجاعة أخلاقها السيئة وأعجبت بحدة غضبها المتسم بالبساطة؛ فإلقاء حقيبة الاسباجيتى هو إجراء متسم بالبساطة والطين والجلال الطائش ، فهذا الإلقاء قد جعلها تتغلب على المشاكل وتتعافى، وعندئذ أدركت أننى مازلت بعيدة للغاية عن مرحلة التمكن من أن أفعل بنفسى أى شىء من هذا القبيل.

* * *

(٣٤)

تترنم جريس بصلاة المائدة، ويقول السيد سميث: " أمتدح الرب وأقوم بتمرير الذخيرة" ويمد يده نحو البقوليات المخبوزة، وتقول السيدة سميث: " يا لويد **Lloyd** " فيقول السيد سميث: " إنها لا ضــرر منها "، ثم يلقى نظرة علىّ فى ابتسامة جانبية. وتقلص الخالة ميلدريد فمها الذى به شعر على الجانبين شبيه بشارب قطة.

أقرأناكموه

أمضغ طعام آل سميث الشبيه بالمطاط، وتحت مفرش المائدة أقوم بحركات الجذب العنيفة الرامية إلى تمزيق أصابعى، فترات يوم الأحد تتلاحق فى تتابع.

عقب الانتهاء من تناول الأناناس المطهى بالغلى البطىء تريد جريس منى أن أنزل إلى البدروم معها لكى نلعب لعبة " المدرسة "، فأفعل ذلك ولكنى أضطر للصعود على السلالم مرة أخرى لكى أذهب إلى الحمام، لقد أذنت جريس لى بالذهاب إلى الحمام بالطريقة نفسها التى يأذن بها المدرسون بالمدرسة لك بمغادرة الفصل من أجل الذهاب للحمام، ولدى صعودى على السلالم البدروم أستطيع سماع صوت الخالة ميلدريد والسيدة سميث الموجودتين فى المطبخ من أجل غسل الأطباق.

وتقول الخالة ميلدريد: " إنها تشبه الوثنيين غبر المتمدنين الهمجيين "، ولأنها كانت تعمل فى أعمال التبشير فى الصين فهى تعتبر خبيرة فى هذا المجال، وتضيف: " كل الإجراءات التى قمت بها لم تحدث أى تغير عليها".

فتقول السيدة سميث: " ولكن جريس تقول لى إنها تحفظ عن ظهر قلب أجزاء كثيرة من الإنجيل "، وعندئذ أدرك أنهما تتناقشان بشأنى وتتكلمان عنى، فأتوقف عند السلمة العلوية حتى يمكن لى إلقاء نظرة إلى داخل المطبخ، منضدة المطبخ التى تكومت عليها الأطباق المتسخة والحواف الخلفية للسيدة سميث والخالة ميلدريد، وتقول الخالة ميلدريد: " كل الناس يحفظون الإنجيل عن ظهر قلب على ذلك النحو، ولكنه استظهار من غير فهم، فلا يوجد فهم جيد، وفى اللحظة التى تديرى فيها ظهرك، فإنهم يعودون إلى الطريقة التى كانوا عليها ".

وعدم الإنصاف فى هذا القول يضربنى مثل ركلة عنيفة، كيف يمكن لهما أن يقولا هذا الكلام بينما أنا قد حصلت على تنويه وإشادة خاصة بالمقال الذى كتبته عن الاعتدال وضبط النفس **Temper ance** والامتناع عن تناول الخمور وعن الرجال المخمورين الذين يتسببون فى حوادث السيارات ويتعرضون للتجمد حتى الموت فى أثناء العواصف الثلجية لأن الكحول يوسع الأوعية الشعرية الخاصة بهم، بل إننى أعرف ما هى الأوعية الشعرية **capillaries**، كما أننى أستطيع تهجى

حروف هذه الكلمة على نحو سليم، كما أستطيع تلاوة كل المزامير وجميع الفصول الواردة فى الكتاب المقدس، بل أستطيع الترنم بكل أغانى الفارس الأبيض التى تعرض فى سليدات ملونة بمدرسة صنداى دون أن أنظر إلى السليدات.

وتقول السيدة سميث: " ما الذى يمكن لك أن تتوقعيه مع تلك العائلة ؟ " ولا تستطرد لكى تشير إلى الأمور الخاطئة التى تتسم بها عائلتى، وتضيف: " الأطفال الآخرون يشعرون بذلك، بل يعرفون ويدركون ذلك ".

فتقول الخالة ميلدريد: " ألا تعتقدين أنهم يمارسون القسوة عليها أكثر من اللازم ؟. "ويبدو صوتها متسمًا بالاستمتاع، إنها تريد أن تعرف درجة القسوة ومدى حدتها.

فتقول السيدة سميث: " ذلك عقاب من الله، وهى تستحق ذلك العقاب ".

تتحرك موجه ساخنة متصاعدة فى أرجاء جسدى، هذه الموجة هى الخجل الذى سبق أن شعرت به من قبل، ولكنها تشتمل أيضًا على الكراهية التى لم يسبق لى أن شعرت بها سابقًا، فى هذه الصورة النقية الخالصة، إنها كراهية لها شكل معين... شكل السيدة سميث التى ليس لها خصر ولها ثدى واحد، إنها كراهية تشبه عشبًا ضارًّا سميكًا وممتلئًا وله ساق بيضاء ومغروزًا فى صدرى، إنها كراهية تشبه سويقة نبات الأرقطيون التى لها أوراق نتنة وأغلفة شائكة والتى تنمو فى المساحة التى تتبرز فيها القطة بجوار الممر الهابط نحو الكوبرى، إنها كراهية سميكة وغليظة وثقيلة.

أقف هنالك عند درجة السلم العلوية وقد تجمدت بسبب ما يعتمل فى داخلى من كراهية، ما أكرهه ليس جريس ولا حتى كورديليا؛ إذ لا أستطيع التمادى إلى ذلك الحد، إننى أكره السيدة سميث لأن ما اعتقدت أنه كان سرًّا أو شيئًا ما يتداول بين البنات وبين الأطفال اتضح لى أنه ليس سرًا، فقد نوقش من قبل وتم إجازته، فالسيدة سميث قد عرفت ووافقت على ذلك، ولم تفعل أى شىء من أجل إيقاف ذلك ومنع حدوثه، لأنها تعتقد أننى أستحق ذلك العقاب.

أقرأناكموه

تبتعد عن الحوض وتسير إلى منضدة المطبخ من أجل كومة أخرى من الأطباق المتسخة وإلى داخل خط الرؤية الخاص بى، تتكون فى داخل ذهنى صورة خاطفة وحادة للسيدة سميث وهى تمر فى آلة عصر الملابس التى لها لون اللحم والخاصة بالغسالة الكهربائية التابعة لأمى؛ حيث تمر ساقاها فى بادئ الأمر وتتحطم عظامها وتتسطح وينعصر الجلد واللحم تدريجيًّا نحو الرأس الذى سينفجر فى فرقعة خلال دقيقة مثل بالون ضخم ملىء بالدماء، ولو كان بمقدور عينى إطلاق أشعة مميتة مثل تلك الأشعة الورادة فى الكتب الهزلية، لكنت قد حرقتها وحـــولتها إلى رماد على الفـــور، إنها على حـــق فى قولها عنى إننى وثنية، فأنا لا أستطيع أن أعفو وأغفر.

وكما لو كان بمقدورها أن تشعر بحملقتى تستدير وترانى، وتتقابل عينانا ، إنها تدرك أننى قد سمعت الكلام الذى قيل، ولكنها لا تجفل فى إحجام، ولا يظهر عليها الخجل أو الارتباك أو الرغبة فى الاعتذار، وإنما تبتسم لى بتلك الابتسامة المليئة بالاعتداد بالنفس مع زم شفتيها على أسنانها، وتقول كلامًا غير موجه لى وإنما موجه للخالة ميلدريد : " نبات السلوى الخطير المخادع له آذان كبيرة ".

قلبها الردىء يطفو فى داخل جسدها مثل عين شريرة تشاهدنى وترمقنى.

* * *

نجلس على مقعد خشبى طويل فى بدروم الكنيسة بين طيات الظلام وقد تركزت أعيننا على الحائط، يتلألأ ضوء منبعث من عينى جريس الزجاجيتين لدى إلقائها نظرة جانبية علىّ.

الله يشاهد العصفور الصغير وهو يسقط، يتقابل العصفور مع الرحمة الإلهية، فإذا كان الله يحب العصفور الصغير إلى هذه الدرجة الكبيرة ، فـــإننى أدرك أنـــه يحبنى أيضاً.

والصورة لطائر ميت داخل يد ضخمة هائلة مع سقوط شعاع من الضوء عليه.

إننى أحرك شفتى ولكننى غير منهمكة فى الغناء، تجتاحنى موجة من الشك إزاء الله، السيدة سميث قد استأثرت بحب الله، الله يقف فى صفها وإلى جوارها. الله يقف إلى جانبها، وهو جانب قد أبعدت عنه.

أفكر فى السيد المسيح الذى من المفترض أنه يحبنى، ولكنه لا يظهر أية دلائل تشير إلى أنه يحبنى وبالتالى لا أعتقد أنه سيقدم لى يد العون والمساعدة، فهو فى مواجهة السيدة سميث وفى مواجهة الله لا يستطيع أن يساعدنى، لأن الله أكبر من السيد المسيح، الله ليس هو أبانا على الإطلاق، صورتى الذهنية عن الله بدأت تتغير وتتشوش.

أقرر الامتناع عن الصلاة لله، عندما يحين موعد الصلاة أقف فى صمت وأكتفى بتحريك شفتى.

" يارب اغفر لنا خطايانا مثلما نغفر نحن لأولئك الذين ينتهكون حرماتنا ".

أرفض أن أقول هذه العبارة؛ إذ كانت هذه العبارة تعنى أننى إذا لم أغفر للسيدة سميث سيلقى بى فى الجحيم عندما أموت، فإننى على استعداد للذهاب إلى الجحيم، ومن المؤكد أن السيد المسيح قد أدرك كيف أنه من الصعب للغاية على المرء أن يغفر وذلك هو السبب فى أنه قد صاغ تلك العبارة، وهو دائمًا ما كان يذكر أموراً يتعذر تنفيذها فى الحياة الواقعية مثل التخلى عن جميع أموالك وممتلكاتك.

تقول جريس لى فى همس: " أنت كنت غير مؤدية للصلاة ".

فتتصاعد البرودة فى معدتى، أيهما أسوأ : أن أكذبها أو أعترف لها ؟ فى كلتا الحالتين ستكون هناك عقوبات.

فأقول: " نعم، كنت أؤدى الصلاة ".

أقرأناكموه

- " أنت كنت غير مؤدية للصلاة، فأنا سمعتك ".

فلا أرد عليها بأى كلام، فتقول جريس فى ابتهاج وقد نسيت أن تهمس: " أنت قد كذبت ".

فأواصل الالتزام بالصمت.

فتقول جريس: " ينبغى عليك أن تطلبى من الله أن يغفر لك، وذلك هو ما أفعله فى كل ليلة ".

أجلس فى الظلام مع شن هجوم على أصابعى، وأفكر فى جريس وأتخيلها وهى تطلب من الله أن يغفر لها، ولكن لماذا يغفر لها الله ؟ فالله لا يغفر للمرء إلا إذا كان يشعر بالأسف والندم، وجريس لا تقدم أية دلائل على الإطلاق تشير إلى أنها تشعر بالندم، فهى لا تعتقد فى أى وقت من الأوقات أنها قد ارتكبت شيئًا خاطئاً.

* * *

جريس وكورديليا وكارول يسرن أمامى على الطريق، إننى أمشى وراءهن على مسافة عمارة سكنية واحدة، إنهن لا يسمحن لى بالسير معهن اليوم لأننى كنت وقحة ومتغطرسة، ولكنهن مع ذلك لا يرغبن لى أن أسير على مسافة بعيدة للغاية خلفهن، إننى أسير بمفردى على إيقاع موسيقى أغنية " داوم على السعادة مع الفرقة السعيدة " بينما ذهنى شاغر ولا توجد به سوى كلمات هذه الأغنية، أسير منكسة الرأس مع إلقاء نظرات جانبية على رصيف المشاة والبالوعات بحثًا عن الأوراق الفضية الخاصة بالسجائر، رغم أننى لم أعد أجمع تلك الأوراق مثلما كنت أفعل ذلك منذ فترة طويلة، وأدرك أننى لا أستطيع أن أستغل هذه الأوراق فى عمل شىء له قيمة.

أشاهد قطعة من الورق عليها صورة ملونة، فألتقطها، أعرف هذه الصورة ، إنها مريم العذراء، هذه القطعة من الورق تنتمى لمدرسة " سيدتنا ذات المساعدات

الدائمة **Lady of Perpetual Help Our** " والتى نسميها " مدرسة سيدتنا لجنهم الدائمة **Our Lady of Perpetual Hell** "، السيدة مريم العذراء ترتدى رداءً طويلاً له لون أزرق ولا تشاهد قدميها على الإطلاق تحت حاشية الرداء، ويوجد على رأسها قماش أبيض اللون وفوق القماش يوجد تاج مع وجود هالة صفراء اللون تخرج منها أشعة ضوئية شبيهة بالمسامير، إنها تبتسم فى حزن على نحو ملىء بالإحباط، ويداها ممتدتان كما لو كانت فى حالة ترحيب بينما قلبها موجود على الجزء الخارجى من صدرها وقد انغرزت فيه سبعة سيوف، أو هى أشياء تشبه السيوف، القلب كبير وأحمر وجميل مثل بروسن على شكل قلب مصنوع من القماش الساتان أو مثل القلب فى بطاقة عيد القديس ڤالنتين، وتحت الصورة توجد كلمات مطبوعة: الأحزان السبعة **the seven sorrows**

العذراء مريم موجودة فى بعض أوراق مدرسة الصندای أو مدرسة الأحد الخاصة بنا، ولكنها بدون تاج على الإطلاق، كما أنها لا تظهر فى الصورة بمفردها، وهى إنما تكون فى خلفية الصورة إلى حد ما، ولا يوجد اهتمام شديد بها إلا فى أعياد الكريسماس بل وفى الكريسماس يكون الطفل الرضيع عيسى أكثر أهمية منها، وعندما تتحدث السيدة سميث والخالة ميلدريد عن الكاثوليك على مائدة الغداء فى يوم الأحد يكون حديثهما متسمًا دائمًا بالاحتقار، فالكاثوليك يصلون أمام التماثيل ويحتسون خمورًا حقيقية فى العشاء الربانى بدلاً من عصير العنب، ويقول آل سميث: " الكاثوليك يعبدون البابا " أو يقولون: " الكاثوليك يعبدون مريم العذراء" كما لو كان هذا العمل متسمًا بالخزى والعار والافتراء.

أتفحص الصورة فى مزيد من الدقة، ولكننى أدرك أنه من الخطر الاحتفاظ بها.. ألقى بها بعيدًا، هذا هو الإجراء الصحيح لأن ثلاثتهن قد توقفن عن السير الآن من أجل أن ألحق بهن، وأى شىء أفعله بخلاف الوقوف أو السير سوف يجذب انتباههن.

وتقول كورديليا: " ما ذلك الشىء الذى قمت بالتقاطه، فنحن قد شاهدناك أثناء التقاطه ؟ "

أقرأناكموه

- " ورقة "

- " ما نوع تلك الورقة "

- " مجرد ورقة، ورقة خاصة بمدرسة الصنداى "

- " ولماذا قمت بالتقاطها ؟ "

فأقول: " لست أدرى "، هذه هى الإجابة الوحيدة التى يمكن لى أن أقولها دون أن ينجم عنها سخرية أو استجواب.

- " وماذا فعلت بهذه الورقة ؟ "

- " ألقيت بها بعيدًا "

فتقول كـــورديليـــا: " لا تلتقطى الأشياء من الشارع " وتضيف: " لأن هذه الأشياء بها جراثيم "، وتكتفى بهذا القدر من التأنيب.

* * *

وأقرر أن أفعل شيئًا ما خطيرًا وثوريًّا بل ومتسمًا بالتجديف والكفر، إننى لم أعد أستطيع أن أصلى لله ؛ لذلك فأنا سوف أصلى للعذراء مريم بدلاً من الله، وهذا القرار يجعلنى أشعر بالتوتر والقلق الشديد كما لو كنت على وشك ارتكاب جريمة السرقة، فيدق قلبى فى مزيد من العنف وتدب البرودة فى يدى، أشعر أننى على وشك أن يتم ضبطى متلبسة باتخاذ هذا القرار.

يبدو أن الركوع والســجود شىء ضــرورى ومتطلب، فى كنيســة البصلة لا يؤدى الناس حركات الركوع والسجود، ولكن الكاثوليك يعرف عنهم أنهم يفعلون ذلك، أركع بجوار سريرى وأضم يدى مثلما يفعل الأطفال فى بطاقات الكريسماس باستثناء أننى أرتدى بيجامة قطنية بها خطوط زرقاء بينما يرتدى الأطفال ثوب النوم الفضفاض، أغلق عينى وأحاول أن أفكر فى مريم العذراء، أريد منها أن تساعدنى أو على الأقل تظهر لى أنها بمقدورها أن تسمعنى، ولكننى لا أعرف

الكلام الذى ينبغى على أن أقوله لها، فأنا لم أحفظ الكلام الذى ينبغى أن يوجه إليها.

وأحاول أن أتخيل فى ذهنى الشكل الذى قد تبدو عليه مريم العذراء إذا تقابلت معها فى الشارع على سبيل المثال، هل ستكون هى مرتدية ملابس شبيهة بملابس أمى أو ستكون مرتدية ذلك التاج وذلك الرداء الأزرق ؟ وإذا كانت هى مرتدية الرداء الأزرق هل سيحتشد الجمهور حولها ؟ ربما سيظن الناس أنها ليست سوى ممثلة انتهت من أداء دورها فى مسرحية مسيحية، ولكنهم لن يظنوا ذلك إذا كانت مريم العذراء قد وضعت قلبها على الجانب الخارجى من صدرها على ذلك النحو وقد امتلأ بالسيوف المغروزة فيه، أحاول أن أفكر فى الكلام الذى يمكن لى أن أقوله لها، ولكنها تعرف ذلك الكلام بالفعل، فهى تدرك كم أنا تعيسة للغاية.

أصلى فى مزيد من العمق والخشوع، صلواتى خالية من الكلمات ومتسمة بالتحدى والخلو من الدموع وخاليـــة من الأمل ومليئة باليـــأس، ولا شىء ينجم ولا شىء يحدث نتيجة لهذه الصلوات العميقة، أضغط بجماع يدى على عينى إلى أن تظهر الآلام بهما، وعلى مدى لحظة خاطفة أظن أننى شاهدت وجهًا ثم بقعة من اللون الأزرق ولكن كل ما أشاهده الآن هو القلب، فهاهو موجود وله لون أحمر ساطع وهو مستدير ويوجد ضوء داكن وسواد شبيه بصمام مضىء، الذهب يخرج من الجزء الأوسط المركزى ثم يذبل فى تلاشٍ، إنه القلب بكل تأكيد، إنه يشبه محفظة نقودى البلاستيكية الحمراء.

* * *

(٣٥)

الوقت هو منتصف شهر مارس، فى نوافذ حجرة الدراسة تبدأ نباتات التوليب الخاصة بعيد الفصح فى الإزهار، لا يزال يوجد ثلج على الأرض على هيئة زركشات قذرة، رغم أن الشتاء آخذ فى فقدان قسوته وتألقه، السماء تتلبّد بالضباب وتغوص لأسفل أكثر من ذى قبل.

نسير فى طريق العودة إلى المنزل تحت السماء الكثيفة الضباب المنخفضة الرمادية المنتفخة بالرطوبة، تتساقط كتل رقيقة من الثلج من السماء وتتجمع فوق أسطح المنازل وعلى أغصان الشجر، ثم تنزلق من وقت إلى آخر على الأرض فى صوت قطنى خفيف، لا توجد رياح والأصوات مكتومة من خلال الثلج.

الجو ليس باردًا، أقوم بفك الأربطة الخاصة بقبعتى التريكو الصوفية الزرقاء وأدع القبعة ترفرف فى غير إحكام على رأسى، وتخلع كورديليا قفازها وتتلقى فى راحة يدها كرات الثلج وتلقى بها على الأشجار وأعمدة التليفون وبطريقة عشوائية. هذا اليوم هو من بين أيامها المليئة بمشاعر الصداقة والحب، إنها تشابك ذراعها مع ذراعى وتشابك ذراعها الأخرى مع ذراع جريس ونجتاز الشارع ونحن نتغنى بأغنية: " نحن لا نتوقف من أجل أى شخص " وأنا أترنم بهذه الأغنية أيضًا، ونقفز وننزلق معًا.

شىء من ذلك النشاط والخفة الذى شعرت به ذات مرة لدى تساقط الثلوج يعود إلى، أريد أن أفتح فمى لكى أدع الثلج يسقط فيه، وأسمح لنفسى بالانخراط فى الضحك مثل الأخريات فى نوع من التجريب والتقييم واختبار المقدرة على التنافس فى هذا المجال، ضحكاتى بمثابة أداء... بمثابة شىء مأخوذ من الأمور الاعتيادية.

كورديليا تلقى بنفسها إلى الوراء فوق مساحة من المروج الخضراء الأمامية الشاغرة وتمد ذراعيها إلى الخارج فى الثلج وترفع ذراعيها لأعلى فوق رأسها ثم تنزل يديها إلى جانبيها مؤدية شكل ملاك ثلجى، تتساقط رقائق الثلج على وجهها

وإلى داخل فمها الضاحك مع الذوبان والتعلق بحاجب عينيها، فترمش وتغلق عينيها فى مواجهة الثلج، وعلى مدى لحظة خاطفة تبدو لى شبيهة بشخص ما لا أعرفه... شخص ما أجنبى وغريب يسطع بإمكانيات طيبة غير معروفة، أو- تشبه ضحية لحادثة سيارة قد ألقى بجسدها على الثلج، ثم تفتح عينيها وترفع يديها المبللتين الحمراوتين لأعلى فتقوم بجذبها لأعلى لكى لا تشوش الشكل الذى صنعته، الملاك الثلجى له أجنحة من الريش ورأس دبوس صغير، وفى الأماكن التى توقفت عندها يداها بالجزء السفلى بجوار جانبيها توجد بصمات أصابعها التى تبدو شبيهة بمخالب صغيرة.

لقد نسينا الوقت، بدأ الظلام يتسرب إلى الأماكن فيما حولنا، نجرى على طول الطريق المؤدى إلى كوبرى المشاة الخشبى، وحتى جريس كانت تجرى فى عرج وتنادى : " انتظرننى "، لأنها فى هذه المرة فقط هى الفتاة التى تترك خلفنا.

وتصل كورديليا إلى التل أولاً، ثم تجرى هابطة عليه، وتحاول أن تنزلق ولكن الثلج لين للغاية وليس متجمدًا بالقدر الكافى، كما توجد به بعض النفايات وقطع من الحصباء والحصى، وتسقط على الأرض متدحرجة، فنعتقد أنها قد تعمدت أن تفعل ذلك وبالطريقة نفسها التى نفذت بها الملاك الثلجى، ونندفع هابطين وراءها فى بهجة وضحكات وأنفاس متقطعة فى اللحظة نفسها التى فيها واقفة.

ونتوقف عن الضحك لأننا ندرك الآن أن سقوطها كان بمثابة حادثة لأنها لم تتعمد السقوط، وهى تحب لكل شىء تفعله أن يتم على نحو متعمد من جانبها ووفقًا لإرادتها الحرة.

وتقول كارول: " هل تسببت فى جرح نفسك ؟ " صوتها مرتعش فى تهدج لأنها خائفة ولأنها تدرك الآن أن ذلك السقوط شىء خطير، لا ترد كورديليا على السؤال، وجهها يتسم بالجمود مرة أخرى وعيناها مليئتان بالشؤم.

تتحرك جريس لكى تصبح واقفة إلى جوار كورديليا مع التراجع قليلاً خلفها، ومن هناك تبتسم لى بابتسامتها المزمومة.

وتقول كورديليا لى: " أكنت تضحكين ؟ " وأعتقد أنها تعنى أكنت أنا أضحك وأسخر منها وأهزأ بها لأنها وقعت ساقطة على الأرض.

فأقول: " لا ".

فتقول جريس فى حياد: " إنها كانت "، وتنتقل كارول إلى جانب الممر مبتعدة عنى.

وتقول كورديليا: " لسوف أعطيك فرصة واحدة أخرى " وتضيف: " أكنت تضحكين ؟ "

فأقول: " نعم " وأضيف: " ولكن..... " .

فتقول كورديليا: " أريد الإجابة بنعم أو لا فقط " .

فلا أرد عليها بأى كلام، وتنظر كورديليا عبر كتفها إلى جريس كما لو كانت تسعى للحصول على الموافقة، ثم تتنهد تنهيدة عميقة مبالغ فيها مثل تنهيدة الناس اليافعين الكبار، وتقول: " الكذب مرة أخرى " وتضيف: " ما الذى سنفعله معك ؟ ".

وبدا علينا كأننا ظللنا واقفات هناك لفترة طويلة، فالجو أصبح أكثر برودة الآن، وتمد كورديليا يدها وتنتزع قبعتى المشغولة بالتريكو، وتسير وتقطع المسافة المتبقية هابطة على التل ومنها إلى الكوبرى، ويصيبها التردد للحظات، ثم تسير على الكوبرى وتلقى بقبعتى إلى الوادى العميق الضيق، ثم يتجه وجهها البيضاوى الأبيض لأعلى نحوى وتقول لى: " تعالى إلى هنا ".

وعندئذ لم يتغير أى شىء، الزمن سوف يستمر فى إطراد إلى ما لا نهاية. ومع ذلك فكانت ضحكاتى غير حقيقية وإنما كانت مجرد شهقات من أجل استنشاق الهواء، أسير هابطة نحو المكان الذى تقف فيه كورديليا بجوار الدرابزين بينما الثلج لا ينسحق وإنما يتراجع تحت قدمى مثل حشوه من القطن الطبى، ويبدو ذلك شبيهًا بتجويف يتم ملؤه فى سنة داخل رأسى، إننى عادة أشعر بالخوف من

الاقتراب الشديد من حافة الكوبرى ولكننى فى هــذه المرة لا أشعر بالخوف، إننى لا أشعر بأى شيء له إيجابية الخوف نفسها.

وتقول كورديليا: " هنالك توجد قبعتك السخيفة "، وأشاهد قبعتى هنالك بعيدًا فى العمق بينما لونها الأزرق مازال واضحًا فوق الثلج الأبيض حتى تحت الضوء المتراجع نحو العتمة، وتضيف كورديليا: " ولماذا لا تنزلى إلى هناك لكى تحضرى القبعة ؟ ".

أنظر إلى كورديليا، إنها تريد لى النزول إلى الوادى الضيق الذى يوجد به الرجال الأشرار والذى لا يفترض لنا على الإطلاق الذهاب إليه، ويخطر على ذهنى أن أرفض النزول، فما الذى ستفعله هى عندئذ ؟

وأدرك أن هذه الفكرة نفسها تتكون فى ذهن كورديليا أيضًا، ربما هى قد تمادت واصطدمت فى نهاية الأمر بمركز ما للمقاومة فى داخلى، إذا رفضت تنفيذ ما تقوله لى فى هذه المرة فمن يعرف أين سينتهى التحدى الخاص بى ؟ الفتاتان الأخريان قد هبطتا من فوق التل وراحتا ترقبان الموقف وهما واقفتان _ فى أمن وأمان _ فى منتصف الكوبرى.

وتقول كورديليــا فى مزيــد من الرقة: " هيا إذن " كما لو كانت تشــجعنى ولا تأمرنى، وتضيف: " وبعدئذ سيتم العفو عنك ".

لا أرغب فى النزول إلى الوادى السحيق، فهو محظور وخطير، وهو أيضًا مظلم علاوة على أن جانب التل سيكون زلقًا، وربما أجد صعوبة بالغة فى التسلق صاعدة عليه مرة أخرى، ولكن هنالك توجد قبعتى، وإذا رفضت الذهاب فما الذى ستفعله كورديليا بعد ذلك ؟ إنها قد تنفجر فى غضب شــديد، بل ربما تخاصمنى ولا تتحدث معى مرة أخرى على الإطلاق، بل ربما تدفعنى بقوة من فوق حافة الكوبرى، وصحيح أنها لم تفعل أى شيء من هذا القبيل من قبل كما لم يسبق لها

أقرأناكموه

أن ضربتى أو لدغتنى، ولكن ما دامت قد ألقت بقبعتى إلى هناك فليس بالمستطاع تخمين ما ستفعله بعد ذلك.

أسير إلى أن أصل إلى نهاية الكوبرى، وتقول كورديليا: " بعد أن تحصلى على قبعتك، عليك بعدّ الأرقام حتى تصلى إلى الرقم مائة، وذلك قبل أن تبدئى فى الصعود فى رحلة العودة " ولم يعد يبدو أى غضب فى صوتها على الإطلاق، تبدو شبيهة بشخص ما يعطى أوامر وتعليمات تتعلق بلعبة معينة.

أبدأ فى النزول على سفح التل المنحدر ممسكة فى الأغصان وجذوع الأشجار، بل إن الممر لا يشبه ممرًّا حقيقيًّا وإنما هو مجرد مكان متهتك بسبب أولئك الذين يقومون بالصعود والنزول هنا أولاد ورجال وليس الفتيات.

عندما أصبح واقفة بين الأشجار العارية فى القاع أنظر لأعلى، درابزين الكوبرى يبدو مثل صورة ظلية فى مواجهة صفحة السماء، وباستطاعتى مشاهدة الخطوط الخارجية القائمة لثلاث رؤوس ترقبنى.

قبعتى الزرقاء موجودة فوق ثلوج جدول مائى، أقف على الثلج وأنظر إليها... كورديليا على حق.. فقبعتى هذه تعبير سخيف، أنظر إلى القبعة وأشعر بالاستياء لأن هذه القبعة ذات الشكل الردىء السخيف هى قبعتى وهى تستحق الاحتقار والسخرية، أشعر بأننى لا أرغب فى ارتدائها مرة أخرى.

أستطيع سماع صوت خرير الماء فى مكان ما أسفل طبقة الثلج الجامدة، أخطو فوق الجدول المائى المتجمد وأمد يدى وألتقط القبعة وأنجز هذه المهمة الصعبة، إننى غارقة حتى الخصر فى الجدول المائى بينما ألواح من الثلج المكسور تحدق بى.

البرد ينطلق بسرعة خاطفة فى جميع أرجاء جسدى، حذائى العلوى يمتلئ بالماء المثلج وكذلك حذائى الداخلى ويتشبع بنطلونى بالماء، وربما أكون قد أطلقت صرخة مدوية أو صدرت عنى ضوضاء من نوع ما ، ولكننى لا أستطيع تذكر سماع

أى شىء، أشدد من قبضة يدى على القبعة وأنظر لأعلى نحو الكوبرى، لا أحد موجود هناك، من المؤكد أنهن قد سرن فى ابتعاد أو لذن بالفرار، وذلك يفسر لى السبب فى العد حتى الرقم مائة، حتى يمكن لهن الجرى فى ابتعاد.

أحاول تحريك قدمى، قدماى ثقيلتان للغاية بسبب وجود الماء فى داخل حذائى ذى الرقبة، ولا أستطيع التحرك من مكانى، الشفق الأحمر الحقيقى منتشر الآن والثلج على الأرض يتخذ اللون الأبيض المشوب باللون الأزرق، الإطارات القديمة وقطع الخردة الصدأة بالجدول المائى أصبحت مغطاة الآن، لا يوجد حولى سوى أقواس زرقاء وكهوف زرقاء وصافية وصامته، ومياه الجدول المائى باردة وهادئة ومسالمة فهى تجىء مباشرة من الجبانة ومن المقابر وعظام المقابر، إنها مياه ناجمه عن الناس الموتى ومتحللة ونقية وصافية وأنا واقفة فيها، وإذا لم أتمكن من التحرك ومغادرة هذا المكان بسرعة سيتجمد جسدى فى هذا الجدول المائى وأصبح فتاة ميتة ومتسمة بالهدوء والسلام والنقاء مثل هذه المياه.

أتخبط متعثرة فى الماء بينما حواف الثلج تتكسر لدى اتخاذى خطوة، المشى فى حذاء ملىء بالماء أمر بالغ الصعوبة؛ إذ يمكن لى أن أتعرض للانزلاق والسقوط داخل الماء، أمسك بغصن شجرة وأرفع نفسى وألقى بنفسى على الجسر وأجلس على الثلج الأزرق وأخلع حذائى الفوقى وأفرغ الماء منه، ذراعا چاكتتى مبلّلتان حتى المرفقين وقفازى منقوع فى الماء، والآن تقطع سكاكين فى أرجاء ساقى ويدى، وتنهمر الدموع على عينى بسبب الألم.

أستطيع مشاهدة أضواء على طول حواف الوادى السحيق مترامية من منازل عالية للغاية، ولا أعرف كيف سأتمكن من الصعود على التل بينما يداى وقدماى يتفجران بالألم الشديد على ذلك النحو ولا أعرف الكيفية التى سأتمكن بها من العودة إلى منزلى.

رأسى يمتلئ تدريجيًا بنشارة خشب لها لون أسود، ذرات صغيرة من الظلام تتسلل إلى داخل عينى، وتبدو رقائق الثلج وكأنها قد اتخذت اللون الأسود مثلما يتخذ اللون الأبيض لونًا أسود فى النيجاتيف، لقد تحول الثلج إلى كرات صغيرة دقيقة أشبه بقطرات المطر المتجمدة، ويصدر صوت من الثلج أشبه بالحفيف الذى ينبعث من بين الأشجار والأغصان وأشبه بتحركات وهمس الناس الموجودين فى غرفة مكتظة والذين يدركون أنه ينبغى عليهم الالتزام بالهدوء، إنهم الناس الموتى غير المرئيين الذين يبزغون من الماء ويتجمعون حولى، إنهم ينطقون بكلمة " صه، اسكت **Hush** ".

إننى ملقاة على ظهرى بجوار الجدول المائى وأنظر لأعلى نحو السماء، لم أعد أشعر بأية آلام، السماء لها لون تحتانى يميل إلى الحمرة، والكوبرى له شكل مختلف؛ إذ يبدو أكثر ارتفاعًا فوقى ومصمتًا ومتينًا أكثر من ذى قبل وكان درابزينه قد اختفى أو أصبح محشوًا بمواد أخرى، وهو أيضًا يتوهج؛ إذ توجد بقع من الضوء عليه لها لون أصفر / أخضر لم يسبق لى أن شاهدت مثيلاً له من قبل على الإطلاق، أجلس فى اعتدال لكى أتمكن من إلقاء نظرة متفحصة عليه، أشعر بأن جسدى عديم الوزن وهو الإحساس نفسه الذى أشعر به عندما يكون جسدى فى الماء.

يوجد شخص ما فوق الكوبرى، باستطاعتى رؤية الخطوط الخارجية الداكنة الخاصة به، فى بادئ الأمر أظن أنها كورديليا وأنها قد رجعت من أجلى، وبعدئذ أدرك أنه ليس هيكل طفلة، فهو هيكل طويل للغاية بحيث لا يمكن أن يكون خاصًا بطفلة، لا أستطيع مشاهدة وجه ذلك الهيكل، لا يوجد سوى شكل، إحدى تلك الأضواء الخضراء / الصفراء موجودة خلف ذلك الهيكل ومنبثقة على هيئة أشعة خارجة من حول الرأس.

أدرك أنه ينبغى على أن أنهض واقفة وأشرع فى السير عائدة إلى منزلى ولكن يبدو لى أنه من الأيسر لى أن أبقى هنا مع الكرات الثلجية الدقيقة التى تربت

على وجهى فى رفق، هذا بالإضافة إلى أننى أشعر بالرغبة الشديدة فى النوم، فأغلق عينى.

أسمع شخصًا ما يتحدث معى، الصوت أشبه بصوت ينادى على، وكل ما هنالك أنه صوت خافت للغاية وكأنه مكتوم، لست متأكدة من أننى قد سمعت ذلك بالمرة، أفتح عينى فى مجهود كبير، الشخص الذى كان واقفًا يتحرك من خلال الدرابزين أو يذوب فى داخله، إنه هيكل امرأة، باستطاعتى مشاهدة التنورة الطويلة الآن، أو هل هى عباءة طويلة ؟ إنها ليست آخذة فى السقوط، إنها تهبط نحوى كما لو كانت تمشى، ولكن لا يوجد أمامها شىء تسير عليه، ليس لدى الطاقة التى تعيننى على أن أشعر بالخوف، أستلقى فى الثلج وأرقبها وأنا فى حالة من الثبات والبلادة واللامبالاة وفى حالة من الفضول المتسم بالبلادة والكسل، أود أن أكون قادرة على المشى فى الهواء على ذلك النحو.

لقد أصبحت المرأة الآن قريبة منى للغاية، باستطاعتى مشاهدة التألق الأبيض الصادر عن وجهها ومشاهدة الوشاح المظلم أو القلنسوة الموجودة حـــول رأسها، أو هل ذلك هو شعرها ؟ إنها تمد ذراعيها نحوى فأشعر بفيض من الغبطة الهائلة. فى داخل عباءتها شبه المفتوحة توجد ومضة من اللون الأحمر، أعتقد أن تلك الومضة هى قلبها النابض، من المؤكد أن ذلك هو قلبها... الموجود على الجانب الخارجى من جسدها والمتوهج مثل نيون أو مثل فحم متقد.

وبعدئذ لا أستطيع مشاهدتها على الإطلاق، ولكننى أحس بوجودها حولى، وهو وجود ليس على هيئة ذراعين وإنما شبيه برياح خفيفة لهواء أكثر دفئًا، إنها تقول لى شيئًا ما.

إنها تقـــول لى: " يمكن لك أن تذهبى للمنـــزل الآن، ستكون الأمـــور على ما يرام، اذهبى للمنزل

أقرأناكموه

لا أستطيع سماع الكلام كله حتى النهاية صادرًا بصوت مرتفع وفى وضوح ولكن هذا هو ما تقوله.

* * *

(٣٦)

الأنوار الموجودة فوق قمة الكوبرى أصبحت متلاشية، أشق طريقى فى الظلام صاعدة على التل بينما الطبقة الرقيقة الجليدية تخشخش من حولى، وأرفع نفسى لأعلى من خلال الإمساك بالأغصان وجذوع الأشجار بينما حذائى ينزلق على الثلج المتراكم المتجمد، ولا شىء يؤلمنى ولا حتى قدماى ولا حتى يداى، الوضع شبيه بالطيران، فالرياح الهادئة تتحرك معى وتتلامس مع وجهى فى دفء.

وأعرف هوية المرأة التى شاهدتها، إنها مريم العذراء، ولا يمكن أن يكون هناك أى شك فى ذلك، حتى عندما كنت أصلى لها لم أكن واثقة من أنها حقيقة، ولكنى أدرك الآن أنها حقيقية، فمن هو الشخص الآخر الذى كان بمقدوره المشى على الهواء على ذلك النحو ؟ ومن هو الشخص الآخر الذى كان له قلب متوهج ؟ وصحيح أنه لم يكن يوجد هناك رداء أزرق أو تاج؛ حيث كان رداؤها يبدو أسود اللون، ولكن الظلام كان سائدًا، وربما التاج كان موجودًا هناك ولكننى لم أستطع مشاهدته بسبب الظلام، وعلى كل حال فإنها يمكن أن يكون لديها ملابس وأردية مختلفة ومتنوعة، ولا شىء من هذه الألوان يشكل أهمية، الشىء المهم هو أنها جاءت لكى تنقذنى، فهى لم تكن تريد لى أن أتجمد فى الثلج، وهى مازالت معى بطريقة تجعلها غير مرئية وهى مازالت تغلفنى فى الدفء والآلام، فهى قد سمعت ندائى على الرغم من كل شىء.

إننى موجودة الآن على الممر الرئيسى، أصبحت الأضواء الصادرة عن المنازل أكثر قربًا من فوق وعلى كلا جانبى، أستطيع الاستمرار فى فتح عينى بصعوبة بالغة، بل إننى لا أسير فى خط مستقيم ولكن قدمى مستمرتان فى الحركة إحداهما أمام الأخرى.

وهنالك أمامى يوجد الشارع، لدى وصولى إليه أشاهد أمى وهى تمشى بسرعة كبيرة للغاية، معطفها غير مزرر، ولا يوجد وشاح على رأسها، وحذاؤها الفوقى يخفق فى رفرفة لأن شرائطه وإبزيماته غير مربوطة فى إحكام، وعندما تشاهدنى تشرع فى الجرى، أقف ساكنة وأرقب هيكلها المنهمك فى الجرى، بينما المعطف متطاير على كلا الجانبيين وحذاؤها الفوقى الضخم الثقيل يبدو غير متسم بالطابع العلمى، وتبدو كأنها مجرد شخص ما آخر أرقبه أثناء إحدى مسابقات الجرى، وتصل إلى تحت لمبة شارع فأشاهد عينيها اللتين تبدوان واسعتين ولامعتين ومخضلتين بالماء، كما أشاهد شعرها المتسخ بالرقائق الثلجية، ولا يوجد قفاز فى يديها، تلقى بذراعيها حولى وبينما هى تفعل ذلك، تختفى مريم العذراء على نحوٍ فجائى، فتنفجر موجة من الألم الشديد والبرودة داخل كيانى، فأبدأ فى الارتعاد فى عنف.

أقول: " لقد وقعت على الأرض، كنت أحضر قبعتى "، يبدو صوتى أجشًا وكلماتى متلعثمة، هناك متاعب من نوع ما فى لسانى.

أمى لا تقول : "أين كنت أو ما السبب فى أنك وصلت متأخرة للغاية"، ولكنها تقول: " أين حذاؤك الفوقى ؟ "، حذائى فى الوادى الضيق السحيق ويعلوه الثلج، لقد نسيت حذائى ونسيت قبعتى أيضًا.

أقول: " لقد طارت قبعتى وسقطت من فوق الكوبرى "، أحتاج لأن أنسى هذه الكذبة بأسرع ما يمكن، قول الصدق بشأن كورديليا مازال أمرًا لا يصدقه العقل من وجهة نظرى.

أقرأناكموه

تخلع أمى معطفها وتلفه حولى، فمها مزموم فى إحكام، وجهها ملىء بالخوف والغضب فى الوقت نفسه، إنها النظرة نفسها التى تبدو عليها عندما كنا نجرح أنفسنا منذ وقت طويل مضى عندما كنا فى الشمال، تضع ذراعها تحت إبطى وتحثنى على الإسراع فى السير، قدماى تؤلمانى مع كل خطوة، أسائل نفسى عما إذا كنت سأعاقب بسبب نزولى إلى الوادى السحيق الضيق.

وعندما نصل إلى المنزل تخلع لى أمى ملابسى المشبعة بالماء شبه المتجمد وتضعنى فى بانيو به مياه دافئة، وتنظر فى تدقيق إلى أصابع يدى وأصابع قدمى وإلى أنفى وحلمتى أذنى، وتسألنى: " أين كانت توجد كورديليا وجريس ؟ " وتضيف: " هل شاهداك وأنت تتعثرين وتسقطين ؟ ".

فأقول: " لا، لم تكونا هناك ".

وأستطيع أن أدرك أنها تفكر فى الاتصال تليفونيًا بأم كل منهما بغض النظر عن الكلام الذى قلته، ولكنى أشعر بالإرهاق الشديد لدرجة أننى لا أهتم بما إذا كانت ستتصل تليفونيًا أم لا، وأقول لهـــا: " سيدة ما ساعدتنى ".

فتقول والدتى: " من تلك السيدة ؟ " ولكننى أعقل من أن أقول لها، فإذا كشفت لها عن حقيقة أن السيدة العذراء هى التى أنقذتنى فلن تصدقنى؛ ولذلك أقول لها: " إنها مجرد سيدة ".

وتقول والدتى إننى سعيدة الحظ لأننى غير مصابة بقضمات الصقيع الحادة، وأنا لدى معلومات عن قضمة (عضة) الصقيع ؛ إذ تتساقط أصابعك وأصابع قدميك كعقاب لك على تناول الكثير من الخمور، وتسقينى كوبًا من الشاى باللبن وتضعنى فى السرير مع زجاجة مليئة بالماء الساخن ومع ملاءات قطنية ثم تغطينى ببطانيتين إضافيتين، إننى مازلت أرتعد فى ارتعاش، لقد رجع والدى إلى المنزل وأسمعهما يتكلمان فى الصالة بأصوات خافتة مليئة بالهم والقلق، ثم يدخل والدى إلى غرفتى ويضع يده على جبهتى ثم يخبو متلاشيًا ومتحولاً إلى ظلال.

* * *

أحلم أننى أجرى فى الشارع خارج المدرسة، لقد ارتكبت خطأ من نوع ما. الوقت فى الخريف، أوراق الشجرة محتدمة فى احتراق، عدد كبير من الناس يطاردوننى وهم يتصايحون.

يد غير مرئية تمسك بيدى وتجذبنى لأعلى، توجد هناك سلالم فى الهواء، فأصعد عليها، لا أحد غيرى يستطيع مشاهدة أماكن السلالم، وأنا الآن واقفة فى الهواء بعيدًا عن منال الوجوه المقلوبة لأعلى، وهم مازالوا يصرخون فى صياح، ولكننى لم أعد أستطيع سماع أصواتهم؛ إذ تنغلق أفواههم وتفتح فى صمت مثل أفواه الأسماك.

* * *

يتم إبقائى فى المنزل مع عدم الذهاب للمدرسة على مدى يومين، فى اليوم الأول أرقد فى السرير طافية فى الوضوح الرقيق الزجاجى للحمى، وبحلول اليوم الثانى أنخرط فى التفكير فيما حدث، بمقدورى أن أتذكر كورديليا وهى تلقى بقبعتى الزرقاء من فوق الكوبرى وأتذكر سقوطى بين الثلج وبعدئذ أتذكر جرى أمى نحوى بشعرها المليء بالرقائق الثلجية، كل هذه الأشياء توجد مساحة زمنية ضبابية، فالناس الموتى والمرأة المرتدية العباءة موجودون هناك ولكن على النحو الذى تبدو عليه الأحلام، وأنا الآن لست متأكدة تمامًا من أن مريم العذراء هى التى جاءت إلى بالفعل، إننى أصدق هذه الواقعة ولكننى لم أعد أعرفها على نحو دقيق.

تعطى لى بطاقة تمنيات بالشفاء العاجل عليها أزهار البنفسج ومرسلة من كارول، وفى عطلة نهاية الأسبوع تتصل كورديليا بى تليفونيًّا، وتقول: " لم نكن نعرف أنك وقعت على الأرض، ونحن نعتذر لك لأننا لم ننتظر؛ حيث اعتقدنا أنك موجودة وقادمة وراءنا على مسافة قصيرة ". صوتها مبتهج وخالٍ من الغم وحريص على عدم الوقوع فى الخطأ أثناء الكلام ومدرب على إلقاء تلك العبارات وخالٍ من الندم.

أقرأناكموه

وأدرك أنها قد كذبت وقالت للناس قصة ما أخرى لكى تخفى حقيقة ما حدث مثلما فعلت أنا، وأدرك أن هذا الاعتذار فيما بعد، ولكنها لم يسبق لها أن اعتذرت لى من قبل على الإطلاق، وهذا الاعتذار مهما كان زائفًا يجعلنى لا أشعر بأننى أقوى من ذى قبل وإنما أضعف ولا أعرف ماذا أقول لها، ثم أقول لها: " الأمور على ما يرام "، وأظن أننى أعنى ذلك.

عندما أرجع إلى المدرسة تكون كورديليا وجريس مهذبتين معى ولكن على نحو غير ودى وفى شىء من التشامخ، أما كارول فهى تبدو أكثر خوفًا أو أكثر اهتمامًا وتهمس فى أذنى بينما نقف معًا فى الطابور قائلة: " أمى تقول إنك كنت على وشك أن تتجمدى من البرد حتى الموت " وتضيف: " ولقد تم ضربى على الكف بفرشاة الشعر، أخذت علقة ساخنة بالفعل ".

* * *

الثلج آخذ فى الذوبان بالمساحات العشبية الخضراء، ويظهر الطين مرة أخرى بالمدرسة فوق أرضيات الغرف وفى المطبخ بالمنزل، كورديليا تدور من حولى فى حذر واحتراس، أضبط عينيها متلبستين بالنظر إلى فى تفكير أثناء السير فى طريق العودة من المدرسة، نتوقف عند المتجر من أجل تناول حلوى العرقسوس التى تشتريها لنا كارول، وأثناء السير وامتصاص العرقسوس تقول كورديليا: " أعتقد أن إيلين ينبغى أن تعاقب للوشاية بنا، ألم ترتكبى النميمة والوشاية ضدنا ؟ "

فأقول: " إننى لم أخبر أحدًا بحقيقة ما حدث "، لم أعد أشعر بذلك الانهيار الذى يصيب أمعائى ولا بتلك الدموع المحبوسة التى تنتابنى عند سماع مثل ذلك الاتهام الكاذب مثلما كان يحدث لى من قبل، وجاء صوتى هادئًا ومنخفضًا ومتزنًا ومعقولاً.

فتقول كورديليا: " لا تكذبيننى"، وتضيف: " وما الذى جعل أمك تتصل بأمهاتنا تليفونيًا ؟ " فأقول: " لست أدرى، كما أننى لا يهمنى ذلك "، ثم أندهش من نفسى.

فتقول كورديليا: " أنت وقحة "، وتضيف: " أبعدى تلك الابتسامة المتكلفة عن وجهك ".

إننى مازلت جبانة ورعديدة ومازلت خائفة، لا شيء من ذلك قد تغير، ولكننى أستدير وأمشى مبتعدة عنها، الوضع يبدو شبيهًا باتخاذك خطوة بعد نهاية منحدر صخرى شاهق على اعتقاد منك بأن الهواء سوف يساندك ويحملك، وهذا التصرف من جانبى يساندنى بالفعل، وأدرك أننى لست مضطرة لأن أفعل الأشياء التى تقولها، بل أدرك أننى لم يسبق لى أن اضطررت لتنفيذ الكلام الذى تقوله لى، فبمقدورى أن أفعل ما يروق لى، فيترامى صوت كورديليا من ورائى: " كيف تجرؤين على تركنـــا هكذا والابتعاد عنا "، وتضيف: "عليك بالرجوع إلى هنا على الفور ". أستطيع سماع هذا الكلام على حقيقته، فهو مجرد تقليد وهو مجرد تمثيل، إنه تقليد وتجسيد لشخص ما أكبر سنًا، إنها لعبة، لم يكن هناك أبدًا أى شيء يتعلق بى بحاجة إلى إصلاح وتهذيب، لقد كان كل شيء بمثابة لعبة، وكان يتم استغفالى وخداعى والاحتيال على، لقد كنت غبية، غضبى من نفسى يكاد يكون متساويًا مع غضبى منهن.

أستمر فى السير، أشعر أننى جسورة وشجاعة وطائشة، إنهن لسن أفضل صديقاتى، بل ولسن صديقاتى، لا شيء يربطنى بهن، إننى حرة ومتحررة من صداقتهن.

يسرن خلفى مع إطلاق التعليقات على الطريقة التى أمشى بها وعن الكيفية التى أبدو عليها من الخلف، لو قمت بالنظر إلى الوراء سأشاهدهن وهن يقمن بتقليد مشيتى، ويقلن فى صياح: " أنت مغرورة ومتكبرة ومتشامخة "، باستطاعتى سماع الكراهية ولكن بمقدورى أيضًا سماع الاحتياج، هن فى حاجة إلىَّ من أجل هذا، وأنا لم أعد بحاجة إليهن، إننى غير مبالية بهن، يوجد شيء ما صلب ومتبلور فى داخلى مثل نواة من الزجاج، أعبر الشارع وأستمر فى السير وأنا منهمكة فى تناول العرقسوس.

* * *

أتوقف عن الذهاب إلى مدرسة الصنداى { مدرسة الأحد } وأرفض اللعب مع جريس أو كورديليا أو حتى كارول عقب المدرسة، ولم أعد أمشى على الكوبرى فى أثناء عودتى من المدرسة وإنما أتخذ الطريق الدائرى الطويل الذى يمر بجوار الجبانة، وعندما يجئن معًا إلى الباب الخلفى لمنزلى لكى أخرج معهن من أجل اللعب، أقول لهن إننى منهمكة ومشغولة فى العمل، ويستخدمن معى اللطف والحنان من أجل إغرائى للعودة إليهن ولكننى لم أعد سريعة التأثر بذلك التملق، أستطيع مشاهدة الشراهة والجشع فى عيونهن، ويبدو الأمر وكأننى أستطيع مشاهدة حقيقة ما يدور فى أعماقهن، لماذا لم أكن قادرة على أن أفعل هذا من قبل ؟

أمضى الكثير من الوقت فى قراءة الكتب الهزلية الكوميدية الموجودة بغرفة أخى عندما لا يكون موجودًا بها، أريد أن أصعد إلى ناطحات السحاب، ثم أطير وأنا مرتدية ذلك الرداء الخارجى الذى يطرح على الكتفين والذى ليس له كمان وأريد أن أحرق المعدن وأحدث به ثقوبًا من خلال استخدام أطراف أصابعى وأريد أن أرتدى قناعًا وأتمكن من الرؤية من خلال الحوائط والجدران، أريد أن أضرب الناس المجرمين بجماع يدى وبحيث تحدث كل لكمة تفجرًا ضـــوئيًا له لون أحمر أو أصفر : "كابو. كراك. كابوم" **Kapow. Krac. Kaboom**. أدرك أننى لدى الإرادة التى تعيننى على أن أفعل هذه الأشياء، وأنوى تنفيذها على نحو ما.

بالمدرسة أعقد صداقة مع فتاة جديدة تسمى جيل **Jill**، إنها مهتمة بأنواع أخرى من اللعبات التى تتعلق بالورق والأخشاب، أذهب معها إلى منزلها ونلعب لعبة الخادمة العجوز **Old Maid**، ولعبة التحدث بكلمات سريعة عالية **snaps**، ولعبة التقاط العصى **pick up sticks**، جريس وكورديليا وكارول يصبحن فى هامش حياتى ويعملن على لفت انتباهى وإطلاق التعليقات الساخرة ويزددن شحوبًا وشحوبًا مع كل يوم وتتناقص أهميتهن تدريجيًّا، لم أعد أسمعهن إلا فيما ندر لأننى لا أكاد أصغى لهن .

الباب الثامن

نصف وجه

Half a Face

أقرأناكموه

(٣٧)

على مدى فترة طويلة أدخل إلى الكنائس، قلت لنفسى إننى أرغب فى مشاهدة الفن، لم أكن أعرف أننى أبحث عن شيء ما، لم أكن على استعداد للذهاب إلى هذه الكنائس، حتى ولو كانت بمثابة كتاب إرشادى له أهمية تاريخية ولم أكن على استعداد على الإطلاق للدخول إليها فى أثناء تأدية فرائض الصلاة؛ لأننى فى الحقيقة كنت أكره مجرد فكرة الدخول إلى كنيسة، ولكن ما جذبنى إلى الكنائس هو الأشياء الفنية الموجودة بها وليس ما يدور بها من صلوات، وفى معظم الأحيان كنت أشاهد الكنائس بطريق المصادفة وأدخلها بدافع من نزوة.

وبمجرد أن أصبح فى داخل كنيسة كنت لا أعطى اهتمامًا كبيرًا للفن المعمارى رغم أننى كنت أعرف المصطلحات الفنية الخاصة بالكنائس : فالمناور وصحون الكنائس كانت من الأشياء التى كتبت فيها رسائل علمية، وإنما كنت أنظر إلى النوافذ الزجاجية الملونة؛ إذ كانت توجد مثل هذه النوافذ، وكنت أفضل الكنائس الكاثوليكية على الكنائس البروتستانتية فكلما ازدادت الزخرفة كان ذلك أفضل، لأن ذلك يعنى أنه يوجد المزيد من الأشياء التى يمكن النظر إليها، وكنت أحب الأشياء الغريبة الفاضحة المثيرة للخزى والخجل ، فتجاوزات رقائق الذهب والطراز الباروكى لم تنفرنى.

وكنت أقرأ النقوش الموجودة على الحوائط والمحفورة فى الأرضيات وهذه نقطة ضعف خاصة لدى الإنجليكانيين الأغنياء الذين ظنوا أنهم سيحصلون على المزيد من التقرب إلى الله إذا حفرت أسماؤهم، كما كان الإنجيليكان مولعين بالرايات الحربية البالية والأشياء التذكارية الحربية من كل الأنواع.

ولكننى كنت أهتم بالتماثيل بصفة خاصة، تماثيل القديسين وتماثيل المشاركين فى الحروب الصليبية الموجودة فوق نعوشهم وتوابيتهم، أو تماثيل أولئك الذين

أقرأناكموه

ادعوا أنهم شاركوا فى الحروب الصليبية، تماثيل من الأنواع كافة، وكنت أهتم بتماثيل مريم؛ العذراء إلى أقصى درجة؛ حيث كنت أتعامل معها فى أمل ولكننى كنت دائمًا ما أصاب بالإحباط، لأن تماثيل العذراء لم تكن تعبر عن تلك العذراء التى تعرفت عليها، كانت تماثيل شبيهة بدميات مرتديات الملابس وغير جذابات فى اللون الأزرق والأبيض ومتسمات بالورع وغير مفعمات بالحياة، وبعدئذ لا أعرف السبب فى أننى كنت أتوقع مشاهدة شيء ما آخر.

* * *

ذهبت إلى المكسيك لأول مرة مع بين **Ben**، وكانت تلك أيضًا هى أول رحلة نقوم بها معًا وأول وقت نقضيه مع بعضنا البعض، وكنت أعتقد أن تلك الفترة ستكون مجرد فترة فاصلة بل لم أكن متأكدة من إننى أحتاج إلى رجل فى حياتى مرة أخرى، فبحلول ذلك الوقت كنت أصبحت فى حالة إرهاق ولاهثة ومتقطعة الأنفاس، ولكن كان من دواعى الارتياح أن أكون مع شخص ما غير معقد بحيث يمكن إدخال السرور عليه بكل سهولة.

كنا بمفردنا فى رحلة خلوية لمدة أسبوعين اتضح لى أنها تتعلق بالعمل الخاص ببين **Ben**، وكانت سارة تقيم مع أفضل صديق لها، وابتدأنا رحلتنا فى فيراكروز **Veracruz** بتناول أسماك الأربيان وتسديد الفواتير بالفنادق، ثم أخذنا سيارة وصعدنا بها إلى التلال مع البحث كالمعتاد دائمًا عن مكان ما به منظر طبيعى خلاب وغير معروف للزائرين.

وكانت توجد هناك مدينة صغيرة بجوار بحيرة، وقد أذهلنى هذا المكان المكسيكى من حيث اتسامه بالطابع الأحشائى الأمعائى؛ حيث كان شبيهًا بجسد قلبت جوانبه الداخلية إلى الخارج مما جعل الدماء موجودة على السطح الخارجى به، وربما البحيرة والبرودة هما اللذان أعطيا هذا الانطباع.

بينما كان بين Ben يتفحص السوق باحثًا عن أشياء لكى يلتقط لها صورًا، ذهبت أنا إلى الكنيسة، لم تكن كنيسة كبيرة وبدا عليها أنها متواضعة، ولم يكن يوجد بها أى شخص، وكانت تنبعث منها رائحة الأحجار القديمة والإهمال القديم والعفونة، ورحت أتجول حول الممرات الخارجية مع النظر إلى مراحل الصّلب Stations of the cross المنفذة بطريقة غير بارعة مع استخدام الزيوت القذرة وأغلب الظن أن أعضاء بهذه الكنيسة هم الذين قاموا بهذا الإنجاز بأنفسهم، كانت المراحل رديئة ولكنها صادقة وخالية من التكلف، ربما شخص ما أراد لها أن تبدو على ذلك النحو، ثم شاهدت مريم العذراء، فى بادئ الأمر لم أعرف أنها هى مريم العذراء، لأنها لم تكن مرتدية الألوان الاعتيـادية الخاصة بها وهى اللون الأزرق أو الأبيض والذهبى وإنما كانت باللون الأسود، ولا يوجد تاج على رأسها وكان رأسها منكسًا ومنحنيًا وكان وجهها محاطًا بالظلال وكانت يداها مفتوحتين عند جانبيها، وحول قدميها كانت أعقاب وبقايا الشموع، وعلى جميع أرجاء ثوبها الأسود كانت تدبس أشياء اعتقدت فى بادئ الأمر أنها نجوم، ولكن اتضح لى أنها عبارة عن أذرع وسيقان وأيدٍ وأغنام وحمير ودجاج وقلوب صغيرة للغاية ومصنوعة من النحاس الأصفر أو القصدير.

وعرفت السبب فى وجود هذه الأشياء ، فهى عذراء الأشياء المفقودة، فهى العذراء التى تعيد الأشياء الضائعة، إنها العذراء الوحيدة من بين كل تلك العذراوات المصنوعات من الخشب أو الرخام أو الجص التى بدت لى حقيقية من وجهة نظرى؛ حيث يوجد هدف ما من وراء الصلاة لها والركوع والسجود لها وإضاءة شمعة لها.

ولكننى لم أصلِّ لها لأننى لم أعرف الشىء المفقود لدى الذى ينبغى أن أصلى من أجل استعادته، فالشىء الذى فقد منى هو ما يمكن لى أن أدبسه على ردائها.

جاء بين **Ben** عقب فترة قصيرة وعثر علىَّ، فقال لى: " ماذا فى الأمر ؟ وما الذى تفعلينه وأنت هابطة على الأرض على هذا النحو ؟ أأنت على ما يرام ؟ ".

فقلت: " نعم "، وأضفت: " لا شىء، لا شىء سوى أننى أخلد إلى الراحة ".

كنت أرتجف فى قشعريرة بسبب البرد المتصاعد من الحجارة، وكانت عضلاتى مشدودة ومتقلصة وناشفة، لقد نسيت الكيفية التى ذهبت بها إلى هناك.

كانت ابنتاى الاثنتان تقولان عبارة كاملة لدى قولهما كلمة : "أهكذا ؟ ... **So?**، " فهذه الكلمة تعـــنى : وحتى لو كان الأمر كذلك فما الذى سيحدث **So what ?**.

لقد حدث ذلك عندما وصلت ابنتى الأولى إلى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، كانتا تطويان الذراعين وتحملقان فى أو فى صديقاتهما أو تحملقان فى بعضهما البعض وتقولان : "أهكذا **So** ".

وعنـــدئذ كنت أقول: " لا تفعلى ذلك... فهذا يثير أعصابى ويدفعنى إلى الجنون ".

فتصر على الرد نفسه: ".. أهكذا ؟... ? **So** "

كانت كورديليا تفعل ذلك وهى فى العمر نفسه، وكانت تطوى ذراعيها بالطريقة نفسها وكان لها الوجه نفسه الجامد الخالى من التعبيرات والحملقة نفسها بعينين شاغرتين، يا كورديليا ارتدِى قفازك فالجو بارد بالخارج فترد قائلة : "أهكذا **So**، " ثم أقول لكورديليا: " لا أستطيع المجىء؛ إذ ينبغى على أن أنجز الواجب المدرسى بالمنزل "، فترد : "أهكذا ? **So**. "

وأقول لنفسى فى تفكير: "يا كورديليا إنك جعلتينى أعتقـــد أننى إنسانة تافهة ولا قيمة لها على الإطلاق".

فترد فى تساؤل : "أهكذا ? **So**".

وهو سؤال لا توجد له إجابة.

* * *

(٣٨)

الصيف يجيء وينقضى ثم يجيء الخريف ومن بعده الشتاء ويموت الملك، أسمع نبأ الوفاة فى نشرة الأخبار فى وقت الغذاء، أسير إلى المدرسة على طول الشارع المكسو بالثلج وأنا غارقة فى التفكير : " الملك قد مات "، والآن فإن كل الأشياء التى حدثت عندما كان على قيــد الحياة تكون قد انتهت وتم التخلص منها؛ الحرب والطائرات التى ليس لها سوى جناح واحد والطين الموجود خارج منزلنا وعدد كبير من الأشياء الأخرى، وأفكر فى تلك الرؤوس الخاصة به والموجودة بالآلاف على قطع النقود والتى أصبحت الآن رؤوس شخص ميت بدلاً من شخص على قيد الحياة، لسوف يتطلب الأمر تغيير النقود وتغيير طوابع البريد، لسوف تظهر الملكة على النقود وطوابع البريد، ولقد اعتادت الملكة أن تكون هى الأميرة إليزابيث، أتذكر مشاهدتها فى الصور الفوتوجرافية عندما كانت أصغر كثيراً فى السن، ولدى تذكر ما آخر عنها ولكنه تذكر غير واضح ويسبب لى القلق بعض الشيء.

تخطت كل من كورديليا وجريس صفًّا دراسيًّا، أصبحنا الآن فى الصف الثامن رغم أن سنهما لم يبلغ سوى الحادية عشرة، فى حين أن الآخرين بالصف الثامن يصل عمرهم إلى الثالثة عشرة، وأنا وكارول كامبيل فى الصف السادس فقط، ونحن جميعًا أصبحنا الآن فى مدرسة مختلفة، وهى مدرسة قد شيدت أخيرًا على الجانب الخاص بنا من الوادى الضيق السحيق؛ ولذلك فنحن أصبحنا فى غير حاجة

أقرأناكموه

لأن نستقل أتوبيس المدرسة فى الصباح أو نتناول طعامنا فى البدروم أو نسير عائدات إلى المنزل على كوبرى المشاة المتهالك الآيل للسقوط عقب انتهاء اليوم المدرسى، مدرستنا الجديدة هى مدرسة من طراز حديث مكونة من طابق واحد مشيد من الطوب الأصفر وشبيهة بمكتب بريد، وبها سبورات خضراء مريحة للعين بدلاً من السبورات السوداء التى تحدث صوتًا صارخًا أثناء الكتابة عليها، كما توجد بها أرضيات مكسوة بالفلين بدلاً من الألواح الخشبية القديمة التى تحدث صوتًا كالصرير أثناء السير عليها والتى كانت موجودة فى كوين مارى، ولا توجد أبواب مكتوب عليها كلمة "الأولاد" أو كلمة "البنات"، ولا توجد ملاعب مخصصة للأولاد وأخرى مخصصة للبنات وإنما هى ملاعب مشتركة للجميع، بل إن المدرسين أيضًا مختلفون؛ فهم أصغر سنًا وأقل اتسامًا بالطابع الرسمى، بل وبعضهم فى سن الشباب.

لقد نسيت الأشياء، بل ونسيت أننى نسيت الأشياء، أتذكر مدرستى القديمة ولكن فى شىء من الغشاوة فقط وكما لو كنت قد وُجِدت بها منذ خمس سنوات بدلاً من خمسة شهور، أتذكر ذهابى إلى مدرسة الصندای، ولكنى لا أتذكر التفاصيل المتعلقة بتلك المدرسة، أدرك أننى لا أحب التفكير فى السيدة سميث ولكننى قد نسيت السبب فى ذلك، ونسيت حالات الإغماء ونسيت كومات الإطباق ونسيت سقوطى فى الجدول المائى الثلجى، بل ونسيت مشاهدتى للعذراء مريم ونسيت كل الأمور الرديئة التى حدثت، وعلى الرغم من أننى أرى كورديليا وجريس وكارول فى كل يوم، فإننى لا أتذكر أى شىء من تلك الأمور... ولا شىء سوى أنهن قد اعتدن أن يكن صديقات لى عندما كنت أصغر سنًا وقبل أن أحصل على صديقات أخريات، هناك شىء ما له علاقة بهن، ، شىء ما شبيه بتواريخ معارك قديمة، أسماؤهن تشبه أسماء مكتوبة فى حاشية، لا يوجد عاطفة متعلقة بهذه الأسماء، إنها تشبه أسماء بنات من ذوى القرابة البعيدة يعشْن فى أماكن نائية للغاية... أسماء بنات لا أكاد أعرفهن إلا بصعوبة، الوقت يتسرب فى ضياع.

لا أحد يذكر أى شىء عن هذا الوقت الضائع المفقود سوى والدتى، فهى من وقت إلى آخر تقول: " ذلك الزمن الردىء الذى كنت تشهدينه " فأشعر بالحيرة، الأوقات الرديئة تتسم على نحو غامض بالوعيد والانعزال، إننى لست فتاة من النوع الذى يشهد أوقاتًا عصيبة، فأنا لا يوجد لدىَّ سوى أوقات طيبة، فها أنا ذا أبدو فى صورة الصف السادس وأنا مبتسمة ابتسامة عريضة، " وسعيدة مثل سمكة البطلينوس الصدفية " على حد تعبير والدتى عن حالة السعادة، إننى سعيدة مثل بطلينوسة ، فأنا ذات قشرة صلبة ومغلقة فى أحكام.

* * *

والداى ينهمكان فى العمل فى منزلنا؛ إذ يتم تشييد غرف فى البدروم على نحو تدريجى مع القيام بالكثير من أعمال الطرق بالمطرقة والنشر بالمنشار وذلك أثناء وقت الفراغ الخاص بأبى، غرفة مظلمة من أجل تحميض الأفلام، وغرفة تخزين من أجل أنواع البرطمانات والچيلى والمربى، ومساحة المروج الخضراء أصبحت رائعة الآن، وفى الحديقة قاما بزراعة شجرة خوخ وشجرة كمثرى ومجموعة من نباتات الهليون الزنبقية وصفوف وصفوف من الخضراوات المختلفة الأنواع، وحواف الحديقة مزدانة بالأزهار، نباتات التوليب والنرجس البرى والسوش والفاوانيا والقرنفل والأقحوان وشىء ما من أجل كل فصل من فصول السنة، ومن وقت إلى آخر يكون على أن أقدم يد العون والمساعدة، ولكننى فى معظم الأحيان أكتفى بالمراقبة وهما يخوضان فى الطين وينهمكان فى أعمال الحفر واقتلاع الأعشاب الضارة وقد ظهرت تلوثات من الطين والصلصال على ركبتى البنطلونات الخاصة بهما، إنهما يشبهان أولادًا يلعبون فى كومة رمال، وأنا أحب الزهور، ولكننى أدرك أننى لا أحبها إلى الدرجة التى تجعلنى أبذل مثل هذه الجهود المضنية وأعرض نفسى للانتساخ الشديد لكى أنتجها وأخرجها إلى الحياة.

* * *

أقرأناكموه

كوبرى المشاة الخشبى متهالك للغاية، وكل واحد يقول إنه قد أصبح على وشك الانهيار التام وبالتالى أصبح خطيرًا للغاية وغير آمن، إنهم بصدد هدمه وبناء كوبرى جديد من الأسمنت المسلح فى مكانه نفسه، أذهب ذات يوم وأقف فوق قمة التل على الجانب الخاص بنا من الوادى السحيق الضيق وأرقب أثناء قيامهم بهدم الكوبرى، توجد كومة من الأخشاب المتآكلة بالجزء السفلى بجوار الجدول المائى، الكومات العمودية ما زالت واقفة مثل جذوع أشجار ميتة ويتصل بها جزء من الألوان الخشبية المتصالبة ولكن الدرابزينات قد اختفت، لدى إحساس غير مريح كما لو أن شـيئًا ما يدفن هنـالك، ، شيئًا ما عـديم الاسم وصليبى الشكل أو كما لو أن شخصًا ما مازال على الكوبرى؛ حيث إنه قد ترك هناك بطريق الخطأ معلقًا فى الهواء وغير قادر على الهبوط إلى الأرض، ولكن من الواضح أنه لا يوجد هناك أى شخص.

* * *

تتخرج كورديليا وجريس من المدرسة وتذهبان إلى مكان ما آخر، ويقال إن كورديليا ذهبت إلى مدرسة سانت سباستيان وهى مدرسة خاصة للبنات، بينما ذهبت جريس إلى مدرسة ثانوية تقع على مسافة أبعد شمالاً وتركز على العلوم الرياضية، وهى مازالت لها ضفائر الشعر الطويلة أثناء تخرجها، ويقال إن كارول تتسكع أثناء الاستراحة بالقرب من الأولاد وكثيرًا ما يطاردها اثنان أو ثلاثة أولاد، وهم يحبون أن يلقوها فى كومـات الثلج ويحكوا الثلج على وجههـا، أو عنـدما لا يكون هناك ثلج يقومون بربطها بالحبال التى تستخدم فى لعبة " النط على الحبل "، وعندما تجرى مبتعدة عنهم ترفرف بيديها حولها كثيرًا، وهى تجرى بطريقة هزلية متأرجحة وفى بطء يكفى لإتاحة الفرصة للأولاد للإمساك بها وتصرخ بصوت مرتفع لدى الإمساك بها، وترتدى صديرية للتدريب خاصة بالتدريب، والبنات الأخريات لا يشعرن نحوها بالارتياح.

من أجل الدراسات الاجتماعية أقوم بتنفيذ مشروع عن التبت Tibet ؛ حيث توجد هنـــاك عجلات الصـــلاة Prayer Wheels والتجسد من جديدReincarnation وحيث يكون للمرأة هناك زوجان ومن أجل الدراسات العلمية أقوم بإجراء تجارب على أنواع مختلفة من الحبوب، وأنا لدى عشيق boy friend وفقًا للموضة السائدة، وهو من وقت إلى آخر يبعث برسالة لى عبر الممر مكتوبة بقلم رصاص شديد السواد، وفى بعض الأحيان توجد حفلات تضم رقصًا مرتبكًا وضحكات عصبية ومزاحًا خشنًا من الأولاد علاوة على قبلات سريعة مبللة غير متقنة، يقوم صديقىboy friend بحفر الحروف الأولى لاسمى على قمة مكتبه الجديد بالمدرسة فيتم جلده بالحزام عقابًا له، كما يجلد بسبب ارتكابه أخطاء أخرى أيضًا، وهذا أمر مثير للإعجاب، أشاهد أول جهاز تلفزيون خاص بى الذى يشبه عرض دميات متحركة أبيض/ أسود غير مثير لمتعة كبيرة.

* * *

تنتقل كارول كامبيل إلى مكان آخر بعيد ولا أكاد ألحظ ذلك، وأنا أتخطى الصف السابع وأذهب مباشرة إلى الصف الثامن الدراسى مخلفة ورائى كرونولوجيا ملوك إنجلترا ونظام الدورة الدموية علاوة على ترك صديقى.

وأجعل شعرى يقص لكى يصبح قصيراً عن ذى قبل، فأنا أريد أن يتم ذلك، لأننى سئمت من أن يكون لى شعر طويل يتطلب الأمر كبح جماحه إلى الوراء من خلال استخدام مشابك الشعر وشرائط الشعر، إننى أشعر بالسأم من مرحلة الطفولة، وأرقب نفسى فى رضا وارتياح بينما شعرى ينساب منى مثل الضباب ورأسى تبزغ فى ملامح أكثر تحديدًا ووضوحًا، إننى مستعدة الآن من أجل مواجهة المدرسة الثانوية، وأريد الذهاب إليها على الفور.

أقرأناكموه

أعيد تنظيم حجرتى استعدادًا لذلك، فأزيل لعب الأطفال القديمة من دولابى وأتخلص من كل الأشياء الموجودة فى أدراج مكتبى، وأعثر على رخامة عين قطة واحدة تتدحرج فى الجزء الخلفى بالدرج كما أعثر على بعض الكستناء المجفف القديم، كما أعثر على كيس نقود من البلاستيك الأحمر كنت قد حصلت عليه فى عيد الكريسماس ذات يوم، إنه كيس نقود متسم بالطابع الطفولى، عندما ألتقطه تصدر عنه خشخشة، توجد فى داخله قطعة نقدية قيمتها خمسة سنتات، أستخرج هذه القطعة لكى أنفقها، ثم أضع رخامة عين القطة فى كيس النقود، وأتخلص من الكستناء.

وأعثر على ألبوم الصور الفوتوغرافية الخاص بى والذى به صفحات سوداء اللون، إننى ألتقط أية صور بالكاميرا البراونى الخاصة بى منذ فترة طويلة، وهذا هو السبب فى أن هذا الألبوم انزلق بعيدًا عن انتباهى، وتوجد داخله صور مثبتة من خلال المثلثات السوداء لا أستطيع تذكر قيامى بالتقاطها، فعلى سبيل المثال توجد العديد من الصور لأشياء تشبه الصخور الجلمودية الموجودة بجوار بحيرة، وقد كتب تحتها بقلم أبيض عبارة " شىء رائع يا إليزابيث **Daisy , Elsie** " وهذه العبارة مكتوبة بخطى ولكننى لا أتذكر أننى قد كتبتها.

أنقل جميع هذه الأشياء إلى البدروم وأضعها فى صندوق الثياب الذى توضع به الأشياء القديمة التى لا يتم التخلص منها نهائيًا، ففستان زفاف أمى موجود فى ذلك الصندوق، وكذلك العديد من القطع الفضية المزخرفة وبورتريهات لأناس لا أعرفهم ومجموعة من اللوحات التى يرون عليها النقاط المحرزة فى لعبة البريدج مع وجود شرابات حريرية فوقها ومتروكة منذ فترة ما قبل الحرب، وبعض رسوماتنا ولوحاتنا القديمة موجودة هناك أيضًا مثل سفن الفضاء والانفجارات الحمراء والذهبية الخاصة بأخى، ومثل فتياتى الصغيرات الرقيقات ذات الطراز القديم، أنظر إلى منظر هؤلاء الأطفال وإلى أقواس شعرهن وإلى وجوههن وأيديهن المرسومة بشكل بدائى فى كره ونفور، لا أحب النظر إلى أشياء لها علاقة وثيقة

مع حياتى كطفلة، أعتقد أن هذه الرسومات سخيفة وغير بارعة ؛ فأنا بمقدورى أن أرسم على نحو أفضل بكثير من ذلك حاليًا.

فى اليوم السابق على اليوم الأول بالمدرسة الثانوية يدق جرس التليفون، إنها والدة **mummie** كورديليا، ترغب فى التحدث مع والدتى، أفترض أن الأمر يتعلق بالشئون المملة للكبار وأعود إلى قراءة الجريدة على أرضية غرفة المعيشة، ولكن والدتى تجىء إلى عقب إعادة سماعة التليفون إلى مكانها.

وتقول: " يا إيلين "، وهذا شىء غير طبيعى لأنها عادة لا تستخدم اسمى أثناء التحدث معى، ويبدو عليها الوقار، فأنظر لأعلى تاركة ماندريك الساحر، وهى تنظر لأسفل نحوى.

وتقول: " لقد كانت المتحدثة أم كورديليا، وكورديليا ستذهب للمدرسة الثانوية الخاصة بك، وتتساءل أم كورديليا عما إذا كنت ترغبين فى الذهاب معها إلى المدرسة ".

فأقول: " كورديليا ؟ " إننى لم أشاهد كورديليا ولم أتحدث معها منذ سنة كاملة، فقد كانت مختفية تمامًا، ولقد اخترت تلك المدرسة لأن باستطاعتى الذهاب إليها سيرًا على الأقدام بدلاً من ركوب الأتوبيس، إذن لماذا لا أمشى مع كورديليا، فأقول: " حسنًا، وهو كذلك ".

فتقول أمى فى شىء من القلق: " أأنت متأكدة من أنك ترغبين فى ذلك ؟ " ولا تقول لى السبب الذى دفع كورديليا لأن تلتحق بالمدرسة نفسها التى التحقت بها، وأنا لا أسألها عن السبب فى ذلك، وأقول: " ولماذا لا أمشى معها ؟ "

إننى آخذة فى الانزلاق بالفعل نحو ذلاقة اللسان والوقاحة التى تتلاءم مع المدرسة الثانوية، ولكنى أيضًا لا أدرك ما تهدف إليه والدتى، فأنا يطلب منى أن

أقرأناكموه

أقدم خدمة بسيطة من نوع ما لكورديليا أو لأم كورديليا، ووالدتى البسيطة إذا طلبت منه، فلماذا لا ترغب هى فى تلبية هذا المطلب بالذات ؟

إنها لا تجيب على هذا التساؤل، وتتعرض للتأرجح والتردد، فأرجع إلى قراءة الكتب الهزلية، فتقول لى: " هل أرد على أمها تليفونيًّا أم أنك تودين الاتصال شخصيًّا بكورديليا ؟ ".

فأقول: "يمكن لك الاتصال بها تليفونيًّا"، وأضيف: " فأنا ليست لدى الرغبة فى التحدث مع كورديليا حاليًا ".

* * *

فى صباح اليوم التالى أذهب إلى منزل كورديليا الذى يقع على الطريق المؤدى إلى المدرسة لكى أصطحبها، يفتح الباب وكورديليا تكون موجودة بالداخل ولكنها لم يعد لها الشكل نفسه، فهى لم تعد شديدة النحالة وبارزة العظام، وإنما قد نضج ثدياها نضوجًا كاملاً كما ازداد امتلاء ردفيها ووجهها، كما أصبح شعرها أطول وليس به تسريحة البيجبوى **pageboy**، وإنما به تسريحة ذيل الحصان مع وجود أزهار زئبق الوادى القماشية المثبتة حول الشريط المطاطى، كما قامت بتبييضهن بالبروكسيد فى شعر مقدم رأسها المقصوص فوق الجبين، كما وضعت أحمر شفاه برتقاليًّا ودهان أظافر برتقالى لكى يتلاءم معه، أما أحمر الشفاه الخاص بى فهو وردى أحمر فاتح، ولدى مشاهدتى لكورديليا أدرك أننى لا أشبه فتاة تحت سن العشرين، وإنما أشبه طفلة ترتدى ملابس تحت سن العشرين، فأنا مازلت نحيلة ودون تكورات فى الردفين والثديين، لدى رغبة محمومة فى أن أصبح أكبر فى السن.

نسير إلى المدرسة معًا دون أن نقول كلامًا كثيرًا فى بادئ الأمر، ونمر بجوار محطة ميل تتخلله الدكاكين المكونة من مبانٍ لها سقف مسطح وطابقان

مشيدان بالطوب الأصفر مثل محلات وولويرث وصيدلية I, D, A ودكان للفواكه والخضروات ومحل للخردوات، نمسك بكتبنا المدرسية فى استناد على صدرينا، بينما تنورتانا القطنيتان تتلامسان فى خفة مع سيقاننا العارية، نحن حاليًا فى نهاية فصل الصيف حيث تكون المروج الخضـــراء كافة مكتسبة اللون الأخضر الغامق أو اللون الأصفر وفى حالة من الاستهلاك.

لقد افترضت أن كورديليا ستكون ملتحقة بصف دراسى أعلى منى، ولكننى اكتشفت أنها فى الصف نفسه حاليًا، حيث إنها قد طردت من مدرسة سانت سابستيان بسبب قيامها برسم العضـــو التناسلى للرجل على خفـــاش، أو هـــذا هو ما تقوله لى، فهى تقول إنه كان يوجد رسم كبير الحجم لخفاش على السبورة وقد انتشر جناحاه بينما لا يوجد سوى نتوء صغيرة أو ورم صغير للغاية بين ساقيه، لذلك ذهبت إلى السبورة أثناء خروج المدرس من الحجرة ومسحت الورم الصغير ورسمت ورمًا أضخم وأطول وعاد المدرس فجأة وضبطها متلبسة وهى تفعل ذلك فقال لها: " العضو ليس كبيرًا إلى هذه الدرجة ".

فأقول: " هل ذلك فقط هو كل ما حدث ؟ ".

ليس على وجه الدقة، فهى قد كتبت عبارة " السيد مالدار " بخط أنيق تحت الورم الناتئ، وكان السيد مالدار هو اسم المدرس.

وربما لا يكون هذا هو كل ما فعلته، ولكن هذا هو كل ما تقوله، وكفكرة تالية تشير إلى أنها قد رسبت فى الامتحان فى هذه السنة وتقول: " كنت صغيرة فى السن للغاية بحيث أصبح من المتعذر على فهم المواد " وهذا يبدو شبيهًا بكلام قاله لها أناس آخرون مثل والدتها على الأرجح، وتضيف: " كنت فى سن الثانية عشرة فقط، ما كان ينبغى عليهم أن يجعلونى أتخطى صفًا دراسيًا ".

وهى الآن تبلغ من العمر ١٣ عامًا بينما أنا فى الثانية عشرة من عمرى، وأنا أيضًا قد تخطيت صفًا دراسيًا، وأبدأ أسائل نفسى عن المصير الذى وصلت هى إليه

أقرأناكموه

بحيث أرسم الأعضاء التناسلية للرجل على الخفافيش وأفشل فى الامتحانات وأضيع عامًا دراسيًّا.

* * *

(٣٩)

المدرسة التى ذهبت إليها تسمى برنهام الثانوية، وهى مشيدة حديثًا ومستطيلة الشكل ولها سقف سطح وخالية من الديكورات وغير موحية بأنها مدرسة وشبيهة بمصنع، إنها أحدث صيحة فى فن المعمار الحديث، وفى الداخل توجد بها دهاليز طويلة لها أرضيات مزركشة بشىء ما شبيه بالجرانيت ولكنه ليس كذلك، والحوائط المائلة إلى اللون الأصفر مشيد على طولها حجرات صغيرة لها لون أخضر داكن كما توجد قاعة للاستماع وأجهزة تكبير الصوت : p, A, S.

وفى كل صباح تكون لدينا مواد مذاعة عبر أجهزة تكبير الصوت، فى بادئ الأمر يكون لدينا قراءة إنجيلية وصلوات، وأنا أحنى رأسى فى أثناء الصلاة ولكنى أرفض أن أصلى وإن كنت لا أعرف السبب الذى يجعلنى أفعل ذلك، وعقب الصلاة يبلغنا مدير المدرسة بالأحداث المقبلة، ويلفت نظرنا لكى نحرص على التقاط الأغلفة الورقية للبان الخاص بنا ولكى لا نضيع الوقت فى تكاسل فى القاعات مثل رجل وامرأة متزوجين منذ فترة طويلة، ومدير المدرسة يسمى : السيد ماك لويد، وإن كان كل شخص يطـلق عليه اسم : كروم دوم Chrome Dome من وراء ظهره لأن قمة رأسه صلعاء ولأنه اسكتلندى بالتبنى، ومدرسة برنهام الثانوية لها زى مدرسى من القماش المربع القش ولها خوذه مدرسية بها شوكة ولها اثنتان من تلك السكاكين الاسكتلندية التى تثبت فى الجورب ولها شعار غيلى

Gaelic motto، وهذا الزى والخوذة والشعار والألوان الخاصة بالمدرسة كافة تنتمى كلها للقبيلة الخاصة بالسيد ماك لويد.

وفى الصالة الأمامية وبجوار صورة الملكة تعلق صورة للسيدة الفاضلة فلورا ماك لويد مع حفيديها اللذين يعزفان على مزمار القربة خارج قلعة دونفيجان، ويتم حثنا لكى نعتبر هذه القلعة بمثابة موطن أجدادنا وننظر إلى السيدة فلورا على أنها زعيمتنا الروحية، وفى جوقة المرتلين نحفظ عن ظهر قلب " أنشودة الزورق الأسكاوى " وهى تدور عن بونى برينس تشارلى الذى يهرب من الإنجليز الذين يمارسون الإبادة الجماعية، كما نحفظ عن ظهر قلب أنشودة " مرحبًا بالاسكتلنديين " علاوة على حفظ قصيدة من الشعر عن فأر، وهى قصيدة تثير بعض الضحكات المكتومة لأنها تحتوى على كلمة " ثدى breast " وأعتقد أن الطابع الاسكتلندى هو شىء مألوف وطبيعى بالنسبة لجميع المدارس الثانوية، وحتى الطلبة من الأرمن واليونانيين والصينيين يفقدون حواشى الاختلافات بينهم المغمورة مثلنا جميعًا فى ضباب الملابس المصنوعة من نسيج مربع النقش.

لا أعرف أناسًا كثيرين فى هذه المدرسة وكذلك الحال بالنسبة لكورديليا، فى فصل التخرج من المدرسة العامة لم يكن يوجد سوى ثمانية أفراد وفى فصل كورديليا كان يوجد أربعة أفراد فقط؛ ولذلك فهى مدرسة مليئة بالأغراب، وعلاوة على ذلك فنحن موجـــودتان فى غرفتى مراجعـــة home room مختلفتين، وبالتالى لا تتاح الفرصة لأن نوجد معًا ونعتمد على بعضنا البعض.

كل فرد فى غرفة المراجعة الخاصة بى أكثر ضخامة منى، وهذا أمر متوقع لأن كل فرد أكبر منى فى السن أيضًا ، فالفتيات لهن ثديان ناضجان ورائحة يوم حار مساحيقه جالبة للنعاس، وبشرة وجوههن تبدو زلقة ولامعة بسبب الزيوت، إننى أحترس منهن وأكره غرفة تغيير الملابس؛ حيث يكون علينا أن نرتدى البذلات الرياضية القطنية الزرقاء التى لها سروال تحتانى مغلق بالزرايز والتى طرزت أسماؤنا على جيوبها، هنالك فى تلك الغرفة أشعر أننى أكثر نحافة،

أقرأناكموه

وعنـدما يقع بصرى على نفسى فى المرآة أستطيع مشاهدة الضلوع تحت عظمة الترقوة، وأثناء لعبة القولى بول تقوم هؤلاء الفتيات الأخريات بالوثب حولى فى هدير صاخب وقد ظهرت الخشونة فى أصواتهن بينما تكوراتهن الجديدة فى الأثداء والأرداف تتمايل فى ارتعاش، وأحرص على الابتعاد عن طريقهن لسبب بسيط وهو أنهن أكبر حجمًا ويمكن لهن أن تتسببن فى وقوعى على الأرض، إننى فى حقيقة الأمر لست خائفة منهن، ولكننى أشعر بالاحتقار نحوهن؛ لأنهن يشبهن كارول كامبل إلى حد كبير من حيث الانفجار فى الصراخ والإلقاء بأنفسهن فى اندفاع فيما حولهن والانغماس فى الملذات.

وهناك عدد قليل من الأولاد التافهين الذين لم تتغير أصواتهم بعد، ولكن معظم الأولاد عمالقة، بل لقد وصل بعضهم إلى سن الخامسة عشرة واقترب البعض الآخر من سن السادسة عشرة، ولهم شعر طويل على الجانبين مدهون بالزيوت وممشط إلى الوراء على شكل ذيل البطة ويقومون بحلق ذقونهم كثيرًا، وهم يجلسون فى مؤخرة الغرفة مع إبراز سيقانهم إلى الخارج فى الطرقة وهم قد رسبوا بالفعل مرة واحدة على الأقل، وقد نفضوا أيديهم من التعليم ويئس مدرسوهم منهم، ويستهلكون الوقت إلى أن يصبح بمقدرتهم مغادرة المدرسة وترك التعليم نهائيًا، وعلى الرغم من أنهم يحاولون دائمًا جذب انتباه الفتيات الأخريات فى القاعات والصالات ويلقون بقبلات لها صوت نحوهن فى الهواء، فإنهم لا يعرننى أدنى انتباه، فأنا من وجهة نظرهم مجرد طفلة.

ولكننى لا أشعر أننى أصغر سنًّا من هؤلاء الناس، بل إننى من بعض النواحى أشعر أننى أكبر سنًّا، ففى كتاب " الصحة " بمن هم تحت سن العشرين، وطبقًا لما هو وارد فى هذا الكتاب، فإنه من المتوقع لى أن أكون منغمسة فى عواطف ما قبل سن العشرين بحيث أنخرط فى الضحك للحظات، ثم أنخرط فى البكاء فى اللحظات التالية، علاوة على ركوب القطارات فى مدينة الملاهى والتزحلق على الجليد وركوب عجلات التزحلق، ولكن هذا الوصف لا ينطبق علىَّ على الإطلاق، فأنا

هادئة، وأنظر إلى أفعال زملائى من الطلبة والطالبات الذين يتصرفون على النحو الوارد فى الكتاب فى حب استطلاع علمى واهتمام أموى، وعندما تقول كورديليا لى: " ألا تعتقدين أن ذلك الولد رائع ووسيم للغاية ؟ " فإننى أجد صعوبة فى فهم ما تقصده، من وقت إلى آخر أبكى بالفعل دون أى سبب يدعو لذلك وفقًا لما هو وارد فى الكتاب، ولكننى لا أصدق الأحزان الخاصة بى ولا يمكن لى أن آخذ هذه الأحزان مأخذ الجد، أشاهد نفسى فى المرآة أثناء بكائى بينما منظر الدموع يثير فضولى واهتمامى.

فى وقت تناول طعام الغداء أجلس مع كورديليا فى الكافتيريا التى لها لون شاحب مع وجود مناضد طويلة تميل إلى اللون الأبيض، ونتناول الوجبات الخفيفة التى كانت تتصبب عرقًا فى داخل صناديقنا المدرسية المغلقة بالقفل **lockers** طوال فترة الصباح والتى بها مسحة من مذاق الأحذية الرياضية، ونشرب اللبن الممزوج بالشيكولاتة من خلال أنابيب القش، ونتبادل معًا تعليقات ساخرة عن الأولاد الآخرين بالمدرسة وعن المدرسين، وكورديليا كانت فى مدرسة ثانوية منذ عام مضى؛ ولذلك فهى تعرف كيف تصيغ تلك التعليقات الساخرة، وتجعل ياقة بلوزتها مقلوبة لأعلى وتطلق الضحكات الساخرة، وتقول: " إنه بمثابة شىء كريه يتعين على المرء قبوله أو احتماله **pills** " أو تقول: " يا له من شخص بغيض وتافه **creep** " وهذه كلمات لا تقال إلا للأولاد فقط، فالبنات يمكن أن يكن قاسيات وجلفات للغاية أو مروعات أو سافلات أو رعديدات، أو يمكن لهن أن يكن شديدات الذكاء مثل الأولاد ولهن أنف بنى اللون مثل الأولاد بسبب كثرة الانهماك فى الاستذكار، ولكن لا يمكن لهن أن يكن كريهات للغاية أو بغيضات للغاية **pills**، وأنا أحب كلمة **pill** وأعتقـد أنها تشير إلى كرات الصوف الصغيرة التى تتكون على السويتر، فالأولاد الذين يوصفون بأنهم **pills** يرتدون سويترًا على ذلك النحو، وأحرص على التقاط كل الكرات الصوفية الصغيرة الموجودة على السويتر الخاص بى وانتزاعها.

أقرأناكموه

وتحرص كورديليا على جمع صور فوتوجرافية لامعة لنجوم السينما والمغنيين وتلصقها على حوائط غرفتها، وفى كل مرة أدخل فيها إلى غرفتها أشعر كما لو كان يوجد حشد من الجماهير التى ترقبنى بعيونهم اللامعة السوداء/ البيضاء التى تتبعنى فى جميع أرجاء الغرفة، وبعض هذه الصور عليها توقيعات وإمضاءات، ونفحص التوقيعات تحت الضوء لنرى ما إذا كان القلم قد أحدث انبعاجًا على الورقة، فإذا لم يكن يوجد انبعاج، فإن ذلك يعنى أن التوقعات قد طبعت على الورقة فقط، وكورديليا تحب جين ألسيون، ولكنها تحب أيضًا فرانك سيناترا وبيتى هوتون، وتعتقد كورديليا أن برت لانكستر هو أكثر الممثلين إثارة للغريزة الجنسية.

فى طريق العودة من المدرسة إلى المنزل نذهب إلى دكان إسطوانات، ونضع إسطوانات حديثة صادرة فى عام ١٩٧٨ فى جهاز التشغيل لكى نجربها ونستمع إليها، وهى فى بعض الأحيان تشترى إسطوانة بنقود مصروف الجيب الخاص بها والذى هو أكبر كثيرًا من مصروف الجيب الخاص بى، ولكنها فى معظم المرات تجرب الإسطوانات لمجرد الاستماع إليها فقط، وهى تتوقع لى أن أدحرج عينى فى نشوة بالغة على النحو الذى تفعله هى، بل وتتوقع لى أن أتأوه، وهى تعرف الطقوس وتعرف الكيفية التى يفترض لنا أن نتصرف بها ما دمنا قد أصبحنا فى مرحلة المدرسة الثانوية، ولكننى أعتقد أن هذه الأشياء مستغلقة ومخادعة ولا سبيل إلى فهمها، وبالتالى فأنا لا أستطيع أن أفعل هذه الأشياء دون أن أشعر بأننى أقوم بالتمثيل والتظاهر فقط.

نأخذ الأسطوانات فى منزل كورديليا ونضعها فى جهاز التسجيل، ويظهر صوت فرانك سيناترا، صوته منطلق فى الآفاق ومتحرر من الجسد ومنزلق حول اللحن مثل شخص ما ينزلق على رصيف للمشاة مليء بالطين، وهو ينزلق إلى

نغمة وينجح فى السيطرة عليها ويجودها، ثم يتراجع عنها تدريجيًّا لكى يتسلل إلى نغمة أخرى.

وتقول كورديليا: " ألا تحبين هذه الطريقة التى يستخدمها ؟ "، ثم تلقى بنفسها على الكنبة الطويلة مع وضع ساقيها عبر ذراع الكنبة مع جعل رأسها يتدلى مقلوبًا رأسًا على عقب، إنها تأكل كعكة محلاة بالسكر ومقلية فى الدهن وعليها طبقة من بودرة السكر ويتساقط السكر على أنفها، وتقول: " أشعر أنه موجود بالفعل هنا ومنهمك فى اللمس بيده على عمودى الفقرى ".

فأقول: " نعم ".

وتدخل بردى **perdie** وميرى **mirrie**، وتقول بردى: " لا داعى لأن تحلمين به، وتحترقين شوقًا إليه مرة أخرى "، وتقول ميرى: " ياعزيزتى كورديليا، هل يمكن أن تتكرمى وتخفضى الصوت ؟ "، فى هذه الأيام تتحدث مع كورديليا فى مزيد من العذوبة وتكثر من قول كلمة " يا عزيزتى " لها.

بردى فى المرحلة الجامعية الآن، وهى تذهب إلى حفلات يقيمها زملاؤها بالجامعة، أما ميرى فهى بالسنة الأخيرة بالمدرسة الثانوية ولكنها ليست ملحقة بالمدرسة الثانوية الخاصة بنا، وكلتاهما أكثر جاذبية وجمالاً وتهذيبًا مما كانتا عليه فى أى وقت مضى، وهما ترتديان سويترًا من الكشمير وقرطًا به فص لؤلؤ ويدخنان السجائر، وهما تسميان السجائر : **ciggie - poos** وتسميان البيض: **eggie - poos** وتسميان وجبة الإفطار: **brekkers**، وتقولان عن المرأة الحامل إنها: **preggers**، ومازالتا تسميان أمهما: **mummie**، وتجلسان وتدخنان السجائر وتتحدثان فى غير مبالاة وفى تسلية وفى سخرية وفى شبه ازدراء عن أصدقائهما الذين لهم أسماء مثل : ميكى **mickie** وبوبى **Bobbie** وبوشى **poochie** وروبين **Robin**، ومن الصعب معرفة ما إذا كانت هذه هى أسماء أولاد أم فتيات، وتوجه بردى سؤالاً لكورديليا: " هل أنت سوفونسفايد **sophonsified** بما فيه الكفاية؟ "،

أقرأناكموه

وهذه كلمة جديدة قد دأبنا على استخدامها، وهى تعنى: هل حصلت على قدر كافٍ من الطعام، وتضيف: " فهذه قد قصد بها أن تحل محل وجبة الغداء "، وهى تعنى الكعكة المغلفة بطبقة من بودرة السكر.

فتقول كورديليا وهى تمسح أنفها بينما مازالت مقلوبة رأسًا على عقب: " لقد تبقى الكثير".

وتقول بردى: " يا كورديليا، لا تقلبى ياقتك لأعلى على ذلك النحو، فهذا شىء مبتذل **cheap** ".

فتقول كورديليا: " ليس هذا شيئًا مبتذلاً "، وتضيف : " وإنما هو شىء أنيق **sharp** ".

فتقول بردى: " أنيق "، وهى تدحرج عينيها وتنفث الدخان من أنفها، فمها صغير وممتلئ ومجعد عنـد الجانبين، وتضيف: " ذلك أشبه بإعلان عن زيت للشعر

تجلس كورديليا فى اعتدال عند الجانب الأيمن وتخرج لسانها فى زاوية فمها وتنظر إلى بردى، ثم تقول فى نهاية الأمر: " أهكذا ؟ " وتضيف: " ماذا تعرفين ؟ أنت فوق التل بالفعل ".

وبردى التى أصبحت كبيرة بما فيه الكفاية، بحيث تتناول خمور الكوكتيل مع الكبار قبل تناول طعام الغداء، رغم أنه ليس من المفترض لها أن تتناول الخمور فى البارات، تجعد فمها وتقول لميرى: " أعتقد أن المدرسة الثانوية مفسدة لها "، وتضيف: " إنها تصطدم بصخرة صلبة **hardrock** "، وتنطق هـذه الكلمة فى مدّ ملىء بالسخرية لكى تبين أنها كلمة لم يعد يصح بها استخدامها لأنها أصبحت كبيرة أو أنها قد تخطت المرحلة التى تعبر عنها تلك الكلمة، وتضيف: " يا كورديليا ارفعى جوربك لأعلى، وإلا فإنك سوف ترسبين هذا العام الدراسى مرة أخرى، وأنت تعرفين ما قاله أبى **Daddy** فى المرة الأخيرة ".

ويحمر وجه كورديليا فى خجل وارتباك، ولا تعرف ماذا تقول من كلام ردًا على أختها.

* * *

وتبدأ كورديليا فى الحصول **pinch** على الأشياء من المحلات والمخازن، وهى لا تسمى ذلك سرقة للأشياء، وإنما تسميه مجرد الحصول **pinching** على الأشياء؛ فهى تسرق أنابيب أحمر الشفاه من محلات وولويرث وتسرق عبوات من حلوى العرقسوس من الأجزخانة؛ فهى تدخل وتشترى شيئًا ما رخيصًا مثل دبابيس الشعر وعندما تستدير البائعة بظهرها من أجل استخراج النقود " الفكة " من درج النقود، تبادر إلى اختطاف شىء ما من على الكاونتر وتخفيه تحت معطفها أو فى جيب معطفها، وفى هذا الوقت الذى هو فصل الخريف تكون لنا معاطف طويلة ترتطم على الجزء الخلفى من سيقاننا وهى معاطف لها جيوب كبيرة الحجم ومتدلية كالكيس وصالحة تمامًا من أجل السرقة، وفى خارج المتجر ترينى الشىء الذى اقتنصته دون أن تتعرض لعواقب وخيمة، ويبدو عليها أنها تعتقد أنه يوجد شىء، ما خاطئ فى هذا الاقتناص الذى تقوم به؛ فهى تضحك فى متعة بينما عيناها تلمعان فى تلألؤ وخداها يتوهجان باللون الأحمر والاحتقان، ويبدو الأمر وكأنها قد فازت بجائزة.

ومحل وولويرث به أرضيات خشبية قديمة ومبقعة بسبب مرور سنوات من الأوحال الشتوية العالقة بأحذية الناس التى لها رقبة وبسبب الأضواء العلوية الخافتة التى تتدلى من السقف على الحواجز المعدنية، ولا يوجد فى ذلك المحل أى شىء نحن بحاجة إليه حقًا باستثناء أحمر الشفاة، ويوجد إطاران بهما صورتان لهما لون غريب خفيف لنجمين سينمائيين من أجل إظهار الشكل الذى يبدو عليه الإطار مع وجود صورة فوتوغرافية داخله، وهذان النجمان هما : رامون نوفارو **Ramon Novarro**، وليندا دارنيل **Linda Darnell**، وهما نجمان ينتميان لفترة ما ماضية ترجع

أقرأناكموه

إلى سنوات عديدة مضت، وتوجد قبعات شبيهة بالجبنة من حيث القوام والرائحة وهى قبعات نساء طاعنات فى السن مع وجود برقع أو نسيج شفاف حولها بينما أمشاط الشعر مثبتة بالماس الزائف المصنوع من الزجاج، وتقريبًا كل شىء موجود هنا هو بمثابة تقليد زائف لشىء آخر، نسير هنا وهناك فى الممرات ونرش أنفسنا برذاذ مختبرات الكولونيا، ونمسح عينات أحمر الشفاة على ظهر أيدينا، ونطرق بأصابعنا على السلع المختلفة ونذم فيها وننتقص من قدرها بأصوات عالية، بينما البائعات اللائى فى منتصف العمر يحملقن نحونا.

وتقوم كورديليا بسرقةPinch وشاح من النيلون الأحمر الوردى وتظن أن إحدى البائعات المحملقات قد شاهدتها بالفعل؛ ولذلك نمتنع عن الذهاب مرة أخرى لذلك المحل لبعض الوقت، وندخل إلى الأجزخانة ونشترى كريمسيكلز Creamsicles، وبينما أقوم أنا بدفع الثمن، تقوم كورديليا بسرقة كتابين عن كوميديا الرعب، وبينما نقطع الجزء المتبقى على الطريق من المدرسة إلى المنزل، نقرأ بالتبادل بصوت مرتفع مع إضفاء الطابع الدرامى مثلما يحدث فى التمثيليات المذاعة بالراديو، ونتوقف عن القراءة لكى نصرخ فى ضحكات مدوية، ونجلس على الحائط الحجرى المنخفض الموجود أمام دار المناسبات الجنائزية، حتى يمكن مشاهدة الصور والقراءة والضحك معًا .

والكتب الهزلية بها رسومات تفصيلية رائعة مبهرجة الألوان مع سيادة اللون الأخضر والأرجـــوانى والأصفر الكبريتى، وتقرأ كورديليا قصـــة عن أختين ، إحداهما جميلة والأخرى لديها حرق يغطى نصف وجهها، والحرق له لون أحمر داكن ومتجعد مثل تفاحة فاسدة، والأخت الجميلة لها صديق وتذهب للرقص معه والأخت المحروقة تكرهها وتحب الصديق، وتقوم الأخت المحروقة بشنق نفسها أمام مرآة بسبب الحقد والغيرة، ولكن روحها تتسلل إلى داخل المرآة وفى المرة التالية التى تقوم فيها الأخت الجميلة بتمشيط شعرها أمام تلك المرآة تنظر رافعة بصرها فتفاجأ بأن الأخت المحروقة تبادلها النظرات؛ فتصاب بصدمة عصبية

ويغمى عليها وعندئذ تخرج الأخت المحروقة من المرآة وتتسلل داخلة إلى جسد الأخت الجميلة، وتستولى على الجسد وتخدع الصديق، بل وتنجح فى أن تجعله يقبلها، ولكن على الرغم من أن وجهها أصبح سليمًا الآن، فإن انعكاس وجهها فى تلك المرآة مازال يظهر وجهها الحقيقى المحترق المدمَّر؛ فيشاهد الصديق الوجه المشوه فى المرآة، ولحسن الحظ فإنه يعرف ما ينبغى عليه أن يفعله، إنه يكسر المرآة وتعود إليه حبيبته.

وأقوم بقراءة قصة عن رجل وامرأة يغرقان فى البحر، ولكنهما يكتشفان أنهما ليسا فى حالة من الموت على وجه الدقة؛ فبدلاً من الموت أصبحا منتفخين وممتلئين لدرجة هائلة، ويعيشان فوق جزيرة صحراوية، وهما لم يعودا يحبان بعضهما البعض، بسبب أنهما أصبحا ممتلئين وسمينين للغاية، وتقترب منهما سفينة فيلوحان لهـــا: " إنهم لا يشاهدوننا ! إنهم يمرون من داخلنا مباشرة !! أوه لا... ذلك يعنى بالتأكيد أننا قد قدر لنا أن نصبح على هذا النحو للأبد، ألا توجد أية وسيلة للخروج من هذا المأزق الرهيب ؟ " .

وفى الصورة التالية نجد أنهما قاما بشنق أنفسهما؛ إذ يتدلى الجسدان الممتلئان السمينان من إحدى أشجار النخيل، بينما جسداهما السابقان النحيلان الرشيقان يسيران على مياه المحيط وقد تماسكت يداهما.

وتقرأ كورديليا قصة عن رجل ميت يعود خارجًا من أرض سبخة مليئة بالمستنقعات، وقد تغطى ببشرة تقطر ماءً وجلدًا متقشرًا من أجل أن يخنق أخـــاه الذى دفعه إلى المستنقع فى بادئ الأمر، وأقرأ قصة رجل يلتقط فتاة جملية تريد الركوب معه سيارته على طريق الأتوستوب **hitch hike** ، ولكن يتضح أنه رجل ميت منذ عشر سنوات، وتقرأ كورديليا قصة عن رجل يصاب باللعنة على أيدى طبيبة ساحرة فيظهر على يده مخلب كركند أحمر ضخم، ويقوم هذا المخلب بمهاجمته، وعندما نصل إلى منزل كورديليا لا ترغب كورديليا فى أخذ كتب الرعب الهزلية معها إلى منزلها، وتقول إن شخصًا قد يعثر عليها، ويتساءل عن

المكان الذى حصلت منه على هذه الكتب، وحتى إذا اعتقدوا أنها اشترت تلك الكتب، فإنها ستقع فى المتاعب؛ لذلك أضطر لأخذ هذه الكتب معى إلى منزلى، ولم يخطر على بال أى واحدة منا أن نتخلص من الكتب بإلقائها على جانب الطريق.

وما إن أحضر الكتب إلى منزلى، أدرك أننى لا أريد لها أن تكون معى فى غرفتى نفسها ليلاً، إنها بمثابة شىء يثير ضحكاتى فى وقت النهار ولكنى لا أرحب بفكرة وجودها معى فى غرفتى أثناء نومى، لأننى سأفكر فيها وهى تتوهج ليلاً فى الظلام فى ضوء أصفر كبريتى رهيب... وسأفكر فى سُحب الضباب المتجعدة التى تخرج منها وتتجسد فوق مكتبى، وأخشى أن أكتشف أن شخصًا ما آخر قد وقع فى المصيدة داخل جسدى، وقد أنظر إلى مرآة حجرة الحمام فأشاهد وجه فتاة أخرى تشبهنى، ولكن مع احتراق نصف وجهها فى سواد.

أدرك أن هذه الأمور لن تحدث فى حقيقة الأمر، ولكننى لا أحب فكرة الاحتفاظ بالكتب فى غرفة نومى، كما أننى لا أريد التخلص نهائيًا من هـذه الكتب لأن ذلك من شأنه أن يجعلها متحررة وسائبة وفى حالة من الجموح بحيث يتعذر السيطرة عليها ؛ لذلك أنقلها إلى غرفة ستيفن وأدفع بها بين الكتب الهزلية القديمة الخاصة به التى مازالت موجودة هناك فى حالة تكدس تحت سريره، إنه لم يعد يقرؤها على الإطلاق، ومن ثم فإنه لن يعثر على هذه الكتب الجديدة، وأى شىء قد يرتشح منها فى الليل فإنه لن يتأثر به لأنه محصن ومنيع، وفى رأيى أنه أهل وكفء وقادر على التعامل مع الأشياء، وخاصةً الأشياء التى من هذا النوع.

* * *

(٤٠)

الوقت هو مساء يوم الأحد، توجد نيران فى المستوقد، الستائر مسدلة فى مواجهة ظلام نوفمبر العميق، والدى يجلس فى الكرسى المريح ويقوم بتصحيح وإعطاء درجة للرسومات التى رسمها الطلبة للديدان الصغيرة التى شقت من أجل إظهار الجهاز الهضمى، بينما انتهت والدتى من تصنيع مربعات من الجبنة المشوية مع وجود لحوم الخنزير المملحة عليها، ونحن نستمع إلى " برنامج جاك بينى **Jack Benny show** " المذاع من الراديو والذى تقاطعه من وقت لآخر إعلانات تجارية غنائية عن سجائر لاكى سترايك، وفى هذا البرنامج يوجد رجل يتكلم بصوت خشن مثير للأعصـــاب ورجل آخر يقول: " الطرش فى المنتصف والخردل على القمة"، ليس لدى فكرة عن أن الشخص الأول يفترض له أنه زنجى، والثانى يفترض له أنه يهودى، وأعتقد أن لهما صوتين هزليين مضحكين.

الراديو القديم الخاص بنا والذى به عين خضراء قد اختفى وظهر راديو جديد أشقر اللون فى صندوق أملس غير مزخرف يضم أيضًا جهاز تسجيل، ونحن لدينا مناضد خشبية ذات أدراج متداخلة من أجل أطباقنا التى بها مربعات الجبنة، وهذه المناضد لها لون أشقر أيضًا ولها أرجل متسعة عند القمة ويتناقص اتساعها تدريجيًا لأسفل، وليس لها شكل لولبى على سبيل التزيين، وليس لها أداة لاصطياد الغبار، وهى تشبه أرجل النساء الممتلئات على النحو الذى تظهر عليه فى الكتب الهزلية الفكاهية ؛ إذ لا توجد ركبة أو رسغ قدم، وكل هذه الأخشاب الشقراء اللون مستوردة من إسكانديناڤيا، وآنية المائدة الفضية الخاصة بنا قد نزلت إلى صندوق التبخير وحل محلها الآن آنية فضية جديدة، ولكنها ليست مصنوعة من الفضة، وإنما مصنوعة من الصلب الذى لا يصدأ.

أقرأناكموه

وهذه الأشياء لم يتم اختيارها بمعرفة والدتى، وإنما بمعرفة والدى، وهو أيضًا الذى يختار الملابس الرسمية الخاصة بوالدتى، وتقول والدتى ضاحكة إن كل ذوقها متركز فى فمها؛ فكل ما يهمها أن يكون هنـــاك كرسى لكى تجلس عليه ولا يهمها ما إذا كان الكرسى له ألوان معينة ما دام لا يستطيع رؤية الأشياء إلا إذا كانت تلك الأشياء فى حالة حركة، بل ويتزايد عدم اهتمامها بالموضة الحديثة، وبالتالى فهى تخرج وتتجول بخطوات واسعة هنا وهناك وقد ارتدت زيًّا ارتجاليًّا وجاكيت خاصًّا بالتزحلق على الجليد ووشاحًا قديمًا وقفازًا دون أن يكون هناك تواؤم وتوافق فى الألوان، وهى تقول إنها لا يهمها شكل الملابس ما دامت تحميها من الرياح الشديدة.

والأسوأ من ذلك أنها قد اهتمت بالرقص على الجليد، وتذهب إلى المزلجة المحلية ذات الجليد الصناعى الموجودة فى صالة مغلقة وترقص رقصات التانجو والڤالس على الموسيقى الخفيفة مع الإمساك بأيدى نساء أخريات، وهذا أمر مخزٍ، ولكنها على الأقل تفعل ذلك فى صالة مغلقة، بحيث لا يمكن لأحد أن يشاهدها، وآمل ألا تحرص على ممارسة التزحلق فى المزلجة الخارجية المكشوفة أمام الجماهير فى وقت لاحق عقب حلول فصل الشتاء، ولكنها غير مدركة للغم والكدر الذى يمكن أن ينجم عن ذلك، فهى لا تقول لنفسها أبدًا: " ما الذى سيظنه الناس على النحو الذى تفعله الأمهات الأخريات أو يفترض لهن أن يفعلنه، وهى تقول إنها لا تعطى أدنى اهتمام **hoot** بآراء الناس.

وأعتقد أن هذا تصرف غير متسم بالشعور بالمسئولية من جانبها، وفى الوقت نفسه تدخل كلمة **hoot** السرور والبهجة على، فهى تحول والدتى إلى لا أم - **non mother** أو تحولها إلى بومة حدثت لها تغييرات وراثية مفاجئة من نوع ما، لقد أصبحت أنيقة وصعبة الإرضاء فيما يتعلق بالملابس الخاصة بى مع الحرص على النظر إلى نفسى من الخلف من خلال الاستعانة بمرآة يد ، فعلى الرغم من أننى قد أبدو على ما يرام من الأمام، فإن الغدر والخيانة قد يتسللان فى خفية نحو مظهرى

فى خيط سائب أو حاشية للثوب متدلية، وعدم إعطاء أدنى اهتمام برأى الناس هو نوع من الترف والرفاهية وهو يصف اللامبالاة الرائعة التى أنا نفسى أرغب فى اكتسابها فى هذه المسائل وغيرها من المسائل الأخرى.

* * *

يجلس أخى على أحد الكراسى الشقراء التى لها أرجل مستدقة الطرف والتى تتلاءم فى تناسب مع المناضد، لقد أصبح أضخم حجمًا وأكبر سنًّا على نحو فجائى، وهو لديه شفرة للحلاقة الآن، ولأن اليوم هو عطلة نهاية الأسبوع ولأنه لم يحلق شعره، فإنه يوجد خط من الشعر الغليظ المتصلب البازغ من البشرة حول فمه، وهو قد لبس حذاءه الجلدى الخفيف الذى لا كعب له، وهو حذاء قديم يلبسه أثناء تجوله فى أرجاء المنزل، ويوجد بهذا الحذاء ثقوب تدخل فيها إصبع القدم الكبير، كما ارتدى السويتر الكستنائى الذى له رقبة على شكل حرف **v** بينما نسالة النسيج تبزغ من المرفقين، وهو يقاوم جهود والدتى الرامية إلى إصلاح هذا السويتر أو استبداله بآخر جديد، ووالدتى كثيرًا ما تقول إنها لا تعطى أدنى اهتمام **hoot** بآراء الناس فى الملابس، إلا أن هذه اللامبالاة لا تصل إلى درجة عدم اهتمامها فى حالة ظهور ثقوب فى الملابس أو موضع فَسْل أو بالى فى الحاشية أو ظهور اتساخ وقاذورات. ***مكتبة الرمحي أحمد***

والسويتر البالى والحذاء الجلدى الخفيف الذى ليس له كعب هما الأشياء التى يرتديها أخى أثناء انهماكه فى الاستذكار والدراسة، أما فى أيام الأسبوع، فإنه يرتدى جاكيت ورباط عنق وبنطلونًا رماديًّا، وهى كلها أشياء مطلوبة فى مدرسته، ولا يمكن له أن يمشط شعره على شكل ذيل البطة مثل الأولاد الموجودين فى مدرستى أو حتى على شكل قصة البحارة ؛ فشعره محلوق عند أعلى القفا ومفروق على جانب مثل شعر أولاد جوقة المرتلين الإنجليز، وهذا أيضًا مطلب من مطالب المدرسة، ومع قص شعره على هذا النحو، فإنه يشبه صورة بكتاب مغامرات فى

أقرأناكموه

العشرينيات من عام ١٩٢٠ أو فى فترة أقدم، أو يشبه طيارًا تابعًا للسلاح الجوى للحلفاء فى كتاب كوميدى ؛ فهو له ذلك النوع من الأنف قريب الشكل مـــن الذقن، ويبدو وسيمًا ومن الطراز القديم، ويحتقر تمامًا الأولاد الذين يهتمون بالشكل الذى يدون عليه، ويسميهم : الخيول المجنونة بالملابس.

ومدرسته هى مدرسة خاصة لا تقبل سوى الأولاد الأذكياء المتفوقين، وإن كانت المصروفات بها ليست عالية، يتم إلحاق التلميذ بها عقب نجاحه فى الاختبارات الدقيقة الصعبة التى تعقد له، وسألنى والداى فى شىء من القلق عما إذا كنت أرغب أيضًا فى الالتحاق بمدرسة خاصة للبنات، إذ اعتقدا أننى ربما أشعر بأننى قد عوملت بإهمال؛ إذا لم يقوما ببذل جهود أيضًا من أجل إلحاقى بمدرسة خاصة، وأنا لدى معلومات عن هذه المدارس، حيث ينبغى عليك أن ترتدى الكلتية **Kilts** وتلعب الهوكى ، فقلت لهما إن هذه المدارس تضم النفّاجيين **snobs** (*) علاوة على أن بها مستويات أكاديمية منخفضة، وكانت هذه معلومات صحيحة وصادقة، ولكن حقيقـــة الأمر أننى لم أكن على استعداد لأن أقع فى شـــراك الموت داخل مدرسة للبنات ؛ فهذه الفكرة تملؤنى برهاب الاحتجاز والهلع المرضى من الأماكن المقفلة والضيقة ؛ فأى مدرسة لا يوجد بها أى شىء سوى البنات ستكون شبيهة بالمصيدة.

أخى يستمع لجاك بينى أيضًا ، وأثناء الاستماع يحشو مربعات الجبنة فى فمه مستخدمًا يده اليسرى، ولكن يده اليمنى تمسك بقـــلم رصاص وهـــذه اليـــد اليمنى لا تهدأ أبدًا، ونادرًا ما ينظر إلى ضمامة الورق التى تضم مجموعة من ورق الكتابة مغراة من أحد جوانبها، والتى ينهمك فى الكتابة عليها أثناء التفكير فى شىء عميق، ولكنه من وقت إلى آخر ينتزع ورقة، ويكرمشها، ويلقى بها على الأرضية التى تكثر بها هذه الأوراق المكرمشة، وعندما أجمع هذه الأوراق لكى أضعها فى سلة المهملات عقب انتهاء البرنامج **show** يتلاحظ لى أنها مليئة بأرقام وسطور

(*) النفاج : المقلد لمن يعتبرهم أرقى منه ، أو المعجب بهم بتملّق ، أو الساعى إلـــى صـــحبتهم. (المترجم)

طويلة من الأرقام والرموز التى تتواصل على نحو شبيه بالكتابة أو شبيه بخطاب مكتوب بشفرة سرية.

وأحيانًا يكون لدى أخى عدد كبير من الأصدقاء، ويجلسون فى غرفته حول منضدة الشطرنج دون إبداء أى حركة باستثناء تحرك أيديهم التى ترتفع فى بطء وترفرف فوق رقعة الشطرنج ثم تغوص هابطة لأسفل بسرعة، وأحيانًا يزمجرون أو يقولون: " آها **Aha** " أو يتبادلون شتائم جديدة وغامضة وودية وبهيجة مثل: "أنت أيها الصامت الأصم " أو: " أنت أيها الجذر التربيعى **sguare root** " أو: " أنت أيها المتأصل المرتد إلى صفات الأسلاف **throwback** "، وتصطف على مشارف رقعة الشطرنج القطع التى وقعت فى الأسر : البيادق والخيول والأفيال، ولكى أعرف الكيفية التى تسير عليها المباراة فإننى أحضر أكوابًا من اللبن وفطائر الشيكولاته / الفانيليا التى صنعتها وفقًا لما هو مبين فى كتاب " بيتى كروكر للطهى "، وهذه وسيلة للفت الأنظـــار إلى، ولكن لا ينجم عنهـــا قـــدر كبـــير من ردود الفعـــل أو الاستجابة؛ إذ يزمجرون ويشربون اللبن باستخدام اليد اليسرى ويتناولون الفطائر دون أن تترك عيونهم رقعة الشطرنج على الإطلاق، ويتم الإطاحة بالأفيال وتتساقط الملكات ويتم تطويق ومحاصرة الملك، ويقولون: " مات الملك "، ويهبط إصبع مطيحاً بالملك، ثم يبدأون فى اللعب مرة أخرى.

وفى الفترات المسائية ينهمك أخى فى الاستذكار والدراسة، وهو أحيانًا يفعل ذلك بطريقة غريبة؛ إذ يقف على رأسه لكى ينشط الدورة الدموية فى مخه، أو يلقى بكرات الورق الممضوغة إلى السقف، والمساحة المحيطة بلمبة السقف منقطة بلفائف صغيرة من الورق الممضوغ، وفى أوقات أخرى ينهمك فى نوبات جنونية من النشاط الجسمانى؛ إذ يقوم بشق كميات كبيرة من الأخشاب التى تضرم بها النيران ويصبح لديه كميات هائلة من الأكوام التى تزيد كثيرًا عن الكميات المحتاج إليها، أو يجرى هابطًا إلى الوادى الســـحيق الضـــيق وهو مرتدٍ بنطلونًا فضفاضًا

أقرأناكموه

له شكل مخزٍ وسويترًا له لون أخضر غامق وحذاء باليًا خاصًّا بالجرى ورمادى اللون، ويقول إنه يتدرب من أجل الدخول فى سباق الماراثون **marathon** للجرى.

وفى كثير من الأوقات يبدو على أخى أنه غير مدرك لوجودى معه بالمنزل ؛ فهو يفكر فى أشياء أخرى، أشياء جـادة ولها أهمية، ويجلس على مائدة الغداء بينما يده اليمنى تتحرك وتشكل من رغيف الخبز كرات صغيرة مع الحملقة فى الحائط الواقعة خلف رأس أمى والتى توجد عليها لوحة لثلاثة عيدان من نبات حشيشة اللبن فى زهرية، فى حين ينهمك والدى فى توضيح الأسباب التى تجعل الجنس البشرى محكومًا عليه بالإخفاق والهلاك، والسبب فى هذه المرة أننا قد اكتشفنا الأنسولين ؛ فجميع المصابين بمرض السكر لم يعودوا يموتون على النحو الذى اعتادوا أن يموتوا عليه، وإنما هم يعيشون لفترة طويلة مما يجعلهم ينقلون مرض السكر إلى أولادهم، وسرعان ما سنصبح جميعًا – وفقًا لقانون المتوالية الهندسية – مصابين بمرض السكر، ونظرًا لأن الأنسولين يصنع من معدة الأبقار، فإن العالم كله سيصبح مغطى بأبقار منتجة للأنسولين، والأبقار تتجشأ فيخرج من فمها غاز الميثان **methane** وهو غاز المستنقعات والمناجم، وكميات هائلة من غاز الميثان تنتشر فى الجو حاليًا بالفعل، وهى ستؤدى إلى خنق الأكسجين، وربما تتسبب فى جعل الكرة الأرضية كلها بمثابة صوبة **greenhouse** عملاقة، وعندئذ سيذوب الجليد بالبحار والمحيطات القطبية، وتصبح نيويورك مغمورة تحت الماء بمسافة ستة أقدام، ناهيك عن المدن العديدة الأخرى الساحلية، وأيضًا ينبغى علينا أن نشعر بالقلق إزاء الصحارى والتآكل والتعرية، ويقول والدى فى ابتهاج وهو ينتهى من تناول الرغيف المحشو باللحوم إننا إذا لم نتعرض جميعًا للموت بسبب غاز الميثان الناجم عن تجشؤ الأبقار، فإن نهايتنا ستكون شبيهة بالصحراء الكبرى **Sahara Desert** .

ووالدى لا يتخذ موقفًا عدائيًّا من المصابين بمرض السكر أو الأبقار، وإنما هو فقط يحب أن يتتبع تسلسل الفكر إلى أن يصل إلى النتائج المنطقية، وتقول

والداتى إن طبق الحلوى الختامى فى نهاية الوجبة هو النفيخة المخلوطة بالبن 'Coffee souffle'،

وكان أخى أكثر اهتمامًا بمصير الجنس البشرى، ويقول الآن إن الشمس إذا أصبحت مستعرة للغاية super nova، فإن الأمر سيتطلب مرور ثمانى دقائق قبل أن نتمكن من مشاهدتها، إنه يتخذ وجهة النظر البعيدة المدى، وإن عاجلاً أو آجلاً سوف نصبح جمرات حارة عديمة اللهب أو مثل رماد الفرن على حال، فلماذا – من وجهة نظره – نقلق بشأن تزايد أعداد الأبقار ؟ وعلى الرغم من أنه مازال يجمع الفراشات، فإنه بدأ فى الابتعاد كثيرًا عن البيولوجيا، ويقول أخى إننا فى الصورة الأكبر لسنا سوى سكوز scuzz أخضر ضئيل على السطح.

يتناول والدى نفيخة القهوة مع التجهم بعض الشىء، وتقوم والدتى فى لباقة وذوق بصب فنجان من الشاى من أجله، وأنظر إلى مسألة مستقبل الجنس البشرى على أنها بمثابة ساحة للقتال وأرى أن أخى قد كسب نقطة، بينما خسر والدى نقطة.

أعرف المزيد من المعلومات عن والدى ، أعرف أنه أراد أن يكون طيارا فى الحرب، ولكنه لم يتمكن من ذلك لأن العمل الذى يقوم به اعتبر ضروريًا من أجل المجهود الحربى، كيف يكون عمله فى مجال البيولوجيا مفيدًا فى مجال المجهود الحربى ؟ ذلك هو ما لم أستطع فهمه حتى الآن، وربما هذا هو السبب فى أنه يقود سيارته بسرعة هائلة متخيلاً أنه سيقلع بها فى الهواء.

وأعرف عنه أنه نشأ فى مزرعة فى منطقة نائية متخلفة بإقليم نوفا سكوتيا Nova Scotia ، حيث لم يكن لدى الناس هناك مياه جارية أو كهرباء، وذلك هو السبب فى أنه يستطيع بناء الأشياء وقطعها بالفأس وشقها بالمنشار ؛ فكل شخص هناك يكون بمقدوره استخدام الفأس والمنشار، وهو قد حصل على الشهادة الثانوية من خلال المراسلة؛ حيث كان يجلس إلى منضدة المطبخ ويستذكر تحت ضوء

أقرأناكموه

مصباح يضاء بالكيروسين، وألحق نفسه بالمرحلة الجامعية ودبر النقود اللازمة لذلك من خلال العمل فى معسكرات قطع الأخشاب وتنظيف أكواخ الأرانب، وكان فقيرًا للغاية مما كان يجعله يعيش فى خيمة فى مواسم لكى يوفر النقود، وقد اعتاد أن يعزف على الكمان فى الرقصات التربيعية، وكان يبلغ من العمر ٢٢ عامًا عندما سمع عن شيء اسمه الأوركسترا، كل هذا معروف ولكنه أمر لا يتخيله العقل.

أجعل قلبى قاسيًا فيما يتعلق بمصير الجنس البشرى، وأقوم بعملية حسابية فى ذهنى لكى أعرف كم من النقود ينبغى على توفيرها لكى أتمكن من شراء سويتر جديد مصنوع من صوف الحمل من مجلة اقتصاديات المُنزل **Home Economics** والتى تهتم أصلاً بالطهى والحياكة، تعلمت كيفية تركيب السوستة، وأنا الآن أقوم بحياكة الكثير من ملابسى بنفسى لأن ذلك أرخص.

وأسترشد برأى السيدة فاينشتاين المقيمة بالمنزل المجاور لنا والتى ظللت أعمل كحاضنة لطفلها على مدى فترة قصيرة فى أجازات نهاية الأسبوع، فتقول لى: " اللون الأزرق هو الذى يتناسب معك يا حبيبتى " وتضيف: " إنه رائع الجمال للغاية، وكذلك اللون الأحمر الزاهى، فأنت ستبدين مذهلة فى اللون الأحمر الزاهى "، وبعدئذ تخرج للسهرة مع السيد فاينشتاين وقد اتخذ شعرها التسريحة المصعدة، وأصبح فمها زاهيًا مع ارتداء حذائها الصغير ذى الكعب العالى ومع الخشخشة بأساورها وقرطها الذهبى المتدلى بينما أقوم بقراءة " الماكينة الصغيرة التى استطاعت إنجاز الأشياء " من أجل بريان فاينشتاين، ثم أضعه فى سريره وأضع الغطاء عليه.

أحيانًا أضطر أنا وستيفن لأن نقوم معًا بغسل الأطباق وعندئذ يتذكر ستيفن أنه أخى، أنا أغسل الأطباق وهو يقوم بتجفيفها، وهو يوجه إلى أسئلة لطيفة وودية ومخبلة كأن يسألنى عن الكيفية التى أحب بها الصف التاسع، إنه فى الصف

الحادى عشر ويسبقنى على سلم درجات التعلم، وهو لا يضطر لأن يواصل ذكر شىء غير مستحب.

ولكن فى بعض هــذه الليالى التى يتم فيها تجفيف الأطبــاق يرتد عائدًا إلى ما أعتبره ذاته الحقيقة؛ إذ يحدثنى عن كنيات **nicknames** المدرسين بمدرسته وهى كلها كنيات وقحة وبذيئــة مثــل : الإبط **Armpit** أو البراز الآدمى **Human stool**، أو نبتكر معًا بعض الشتائم الجديدة؛ بحيث نقول كلمات توحى بقذارة غير محددة المعالم فيقول على سبيل المثال : " غائط **Frut** "، فأرد عليه بكلمة : " الطعن والاختراق بشىء مستدق الطرف **Prong** "، وأوضح له أن هذه الكلمة الجديدة تستخدم كفعل بمعنى : يخترق، ونستند على كاونتر المطبخ مع الانحناء الشديد بسبب الانفجار فى الضحك إلى أن تجىء والدتنا إلى المطبخ وتقول : "ما الذى يسبب لكما الضحك على هذا النحو الانفجارى ؟ ".

وفى بعض الأحيان يعتقد أنه من الواجب عليه أن يقوم بتعليمى، ويبدو أنه لديه فكرة سيئة عن معظم البنات ولا يريد لى أن أتحول إلى فتاة من النوع العادى، لا يريد لى أن أكون مشوشة الذهن أو بلهاء ومغفلة، ويعتقد أننى عرضة للأخطار التى تجعل منى إنسانة تافهة، وفى الصباح من كل يوم يقف عند باب غرفة الحمام ويسألنى عما إذا كنت أستطيع أن أتحمل فصل نفسى عن المرآة.

وهو يعتقد أنه ينبغى على أن أنمى وأطور ذهنى، ولكى يساعدنى على عمل ذلك فإنه يصنع شريط موبيوس**Mobius Strip** من أجلى بأن يقطع شريطًا طويلاً من الورق ويلويه مرة واحدة ويصمغ طرفيه، وشريط موبيوس هذا يكون له جانب واحد؛ حيث يمكن لك أن تتأكد من ذلك بأن تمرر إصبعك على طول السطح، وطبقًا لما يقوله ستيفن فإن هذه طريقة تعيننا على أن نتخيل اللامحدودية واللانهائية، ويرسم لى زجاجة كلاين **Klein bottle** التى ليس لها سطح خارجى وسطح داخلى؛ أو بالأحرى يمكن القول إن السطح الخارجى والسطح الداخلى هما الشىء نفسه، وأجد مزيداً من المشقة مع زجاجة كلاين أكثر مما هو الحال مع

أقرأناكموه

شريط موبيوس، وربما السبب فى ذلك هو أنها زجاجة وأنا لا أستطيع أن أتخيل زجاجة لا يهدف من ورائها إلى احتواء شيء ما؛ حيث لا أستطيع عندئذ أن أفهم السبب الذى يدفعنا إلى تضييع زجاجة.

ويقول ستيفن إنه مهتم بمشاكل الأكوان والعوالم **universes** التى لها بعدان **two dimensional** ، وهو يريد لى أن أتخيل الشكل الذى يبدو عليه عالم ذو ثلاثة أبعاد أمام ناظرى شخص ما فى حالة تسطيح تام، إذا وقفت فى عالم له بعدان ستشاهد فقط عند نقطة التقاطع وستشاهد مثل قرصين **discs** لهما شكل مستطيل... مثل مقطعين مستعرضين لقدميك لهما بعدان، وبعدئذ هناك العوالم ذات الأبعاد الخمسة والعوالم ذات الأبعاد السبعة، وأبذل جهوداً خارقة لكى أتمكن من تخيل هذه النوعية من العوالم، ولكن يبدو لى أننى لا أستطيع أن أتخطى فى تخيلاتى العالم ذا الأبعاد الثلاثة.

ويقول ستيفن: " ولماذا العالم ذو الأبعاد الثلاثة ؟ "، وهذه هى الطريقة المفضلة لديه، حيث يوجه لى أسئلة يعرف الإجابات عليها أو يعرف إجابات أخرى لها.

فأقول: " لأنه توجد العديد من الأشياء التى لها ثلاثة أبعاد ".

فيقول: " أنت تقصدين أن هناك أشياء عديدة لها ثلاثة أبعاد يمكن أن ندركها **Perceive** ؛ فنحن مقيدون بسبب حواسنا المحدودة، المقدرة، على أى نحو تشاهد ذبابة العالم فيما تظنين ؟ " إننى أعرف الكيفية التى تدرك بها ذبابة العالم ؛ فقد سبق لى رؤية العديد من عيون الذباب من خلال الميكروسكوب، وأقول: " من خلال العدسات القرنية فى عين الذبابة، ولكن كل عدسة لا يوجد بها سوى ثلاثة أبعاد ".

فيقول: "هذه نقطة رئيسية رائعة"، مما يجعلنى أشعر أننى كبيرة وناضجة ذهنيًا وجديرة بهذا النقاش العلمى الذى يدور معه، ويضيف: " ولكننا فى حقيقة الأمر ندرك ونشاهد أربعة أبعاد".

فأقول: " أربعة أبعاد ؟ "

فيقول: " الزمن هو بعد " ويضيف: " ولا يمكن لك أن تفصلى الزمن عن المكان ؛ فنحن نعيش فى المكان/ الزمان **Space – Time** "، ويقول إنه لا توجد هناك أشياء عاقلة تظل على ما هى عليه دون أن يطرأ عليها تغير؛ بحيث تبعد عن تدفق الزمن، ويقول إن المكان/ الزمان مقوس **Curved**، وفى المكان/ الزمان المقوس تكون أقصر مسافة بين نقطتين ليست هى الخط المستقيم وإنما خط يتتبع منحنى القوس، ويقول إنه يمكن تمديده وتطويله أو تقصيره وتقليصه، وإن الزمن يجرى بسرعة فى أماكن تفوق سرعته فى أماكن أخرى، ويقول إنك إذا وضعت شخصاً واحداً له توأم فى صاروخ شديد السرعة لمدة أسبوع، فإنه يعود ليجد شقيقه أكبر منه بعشر سنوات، فأقول إننى أعتقد أن ذلك من شأنه أن يثير الحزن.

فيبتسم أخى، ويقول إن العالم مثل بالون مغطى بالنقاط يطلق فى الهواء العالى، والنقاط هى النجوم، وهى آخذة فى التحرك بعيدًا عن بعضها البعض طوال الوقت، ويقول إن من بين الأسئلة المثيرة حقًا هى ما إذا كان الكون لا نهائيًا **infinite** ومطلقًا **unbonded** أو لا نهائيًا ولكنه مقيد **bounded** مثل فكرة البالون، وكل ما يخطر على ذهنى فيما يتعلق بالبالون هو الانفجار الذى يحدث عندما يتحطم.

وهو يقول إن المكان معظمه شاغر، وإن المادة ليست صلبة فى حقيقة الأمر، والمادة هى مجرد حزمة من الذرات المتباعدة التى تتحرك بسرعات كبيرة أو بسرعة قليلة، وعلى كل حالٍ فالمادة والطاقة مظهران لبعضهما البعض، ويبدو الأمر وكأن كل شىء قد صنع من الضوء المجسم **Solid light**، ويقول إننا إذا تمكنا من معرفة قدر كاف من العلم والمعرفة، فإننا سنتمكن من المشى من خلال الحوائط والجدران وكأنها ليست سوى هواء، ويقول إننا إذا عرفنا قدرًا كافيًا من العلم، فإننا سنتمكن من الانطلاق بسرعة تزيد على سرعة الضوء، وفى هذه الحالة

أقرأناكموه

سيصبح المكان هو الزمان ويصبح الزمان هو المكان، وبذلك يصبح بمقدورنا أن نسافر عبر الزمن ونتوغل فى الماضى السحيق.

وهذه هى أولى أفكاره التى تشد انتباهى للغاية، فأنا أود مشاهدة الديناصورات والعديد من الأشياء الأخرى مثل قدماء المصريين، ومن ناحية أخرى يوجد شىء ما متسم بالتهديد والأخطار فى هذه الفكرة، فأنا لست متأكدة من أننى أريد أن أسافر إلى الوراء فى عمق الماضى السحيق، بل ولست متأكدة من أننى أرغب فى الانبهار بكل شىء وكل كلام يقوله لى، فهذا يعطيه الكثير من التفوق على، وعلى كل حال فهذه ليست طريقة معقولة فى التحدث ؛ فالكثير من هذا الكلام يبدو شبيهًا بما هو وارد فى الكتب الكوميدية، وخاصةً تلك التى تتناول البنادق التى تطلق أضواء وإشعاعًا.

لذلك أقول: " وما هى الفائدة التى تعود علينا من وراء ذلك؟"

فيبتسم ويقول: " إذا كان بمقدورك أن تفعلى ذلك، فإنك ستدركين أن باستطاعتك تنفيذه ".

وأقول لكورديليا إن ستيفن يشير إلى أنه يمكن لنا أن نمشى عبر الحوائط والجدران إذا تمكنا من معرفة قدرٍ كافٍ من العلم، هذه هى الفكرة الوحيدة من بين أفكاره الأخيرة التى أستطيع أن أتحدثَ عنها فى تلك اللحظة، لأن باقى الأفكار الأخرى معتمدة وصعبة للغاية أو شديدة الغرابة.

فتضحك كورديليا، وتقول إن ستيفن شديد الذكاء للغاية، وإنه إذا لم يكن حاد الذكاء على ذلك النحو لكان قد أصبح شخصًا بغيضًا ومزعجًا **a pill**.

* * *

يحصل ستيفن على وظيفة فى هذا الصيف؛ حيث يقوم بتعليم التجديف بالزوارق فى معسكر للأولاد، ولكننى لا أحصل على وظيفة كهذه لأننى لا أبلغ من

العمر سوى ١٣ سنة، أذهب مع والداى إلى الشمال بالقرب من سولت ستى مارى Sault Ste, Marie؛ حيث يقوم والدى هناك بالإشراف على مستعمرة تجريبية ليرقات الفراشات الموجودة فى أقفاص لها شاشات من الأسلاك المليئة بالثقوب.

ستيفن يكتب لى رسائل بالقلم الرصاص على صفحات مأخوذة من كراسة مسطرة ويشير فى خطاباته إلى أنه يسخر من كل شىء يمكن أن تقع يداه عليه بما فى ذلك زملاؤه من المدرسين بالمعسكر والفتيات اللائى يتصادق المدرسون معهن فى أيام الأجازات، ويقول عن هؤلاء المدرسين إن البثور والدمامل تبزغ من بشرتهم، وأنيابهم تطل من أفواههم، وألسنتهم تتدلى مثل ألسنة الكلاب وعيونهم زائغة دائمًا فى بلاهة ناجمة عن رغبتهم فى الفتيات، وهذا يجعلنى أعتقد أن لدىَّ نفوذًا وسلطانًا من نوع ما، أو سوف يكون لى مثل هذا النفوذ ؛ فأنا أيضًا بنت، إننى أذهب لصيد الأسماك بمفردى، ومن ثم سيكون لدى شىء ما أكتبه فى خطاباتى التى أرسلها إليه، وبخلاف هذا لا يكون لدى الكثير الذى يمكن أن أقول له.

خطابات كورديليا المرسلة لى مكتوبة بالحبر الأسود، إنها مليئة بصيغ التفضيل اللغوية العليا وبعلامات التعجب، وهى تضع النقطة على حرف i شبيهة بالدوائر المستديرة الشبيهة بعينى أورفان أنى Orphan Annie أو الشبيهة بالفقاعات، وهى توقع خطاباتها بأشياء مثل " صديقتك إلى أن يتم الوصول إلى شلالات نياجرا " أو "صديقتك حتى تتفتت الكعكة المحلاة" أو "صديقتك إلى أن يرتدى البحر بنطلونًا مطاطيًا لكى يجعل قاعه جافًا ".

وتكتب: " إننى أشعر بالسأم والملل للغاية " وتضع ثلاثة خطوط تحت تلك العبارة، يبدو عليها الحماس الشديد حتى ولو كان ذلك الحماس يتعلق بالملل والسأم، ومع ذلك لا تبزغ نغمة الصدق فى رسائلها، لقد شاهدتها فى بعض الأحيان عندما تظن أننى غير ناظرة إليها، وجهها يبدو ساكنًا ونائيًا وغير معبر عما يدور فى داخلها، ويبدو الأمر وكأنها غير موجودة فى ذلك الوجه، ولكنها بعدئذ تستدير

أقرأناكموه

وتضحك وتقول: " ألا تحبين المنظر عندما يقومون بتشمير أكمامهم ووضع علبة السجائر داخل ثنية الكم ؟ " وبعدئذ تعود إلى الوضع الطبيعى.

أشعر وكأننى أضع علامة على الوقت، أسبح فى البحيرة التى أتيحت لى، وآكل الزبيب والبسكويت الرقيق الهش المدهون بكميات كبيرة من زبدة الفول السودانى وعسل النحل أثناء قراءتى للقصص البوليسية، وأقطِّب جبينى فى عبوس لأنه لا يوجد حولى أحد من عمرى نفسه، ابتهاج والدىّ المتسم بالقسوة لا يسبب لى الارتياح، من الأفضل لو كانا فى فظاظتى نفسها أو أكثر فظاظة منى ؛ فهذا من شأنه أن يجعلنى أشعر أننى عادية أكثر .

telegram @ktabpdf

الباب التاسع

مرض الجذام

Leprosy

أقرأناكموه

(٤١)

فى وقت متأخر من الصباح يوقظنى جرس التليفون، إنها تشارنا **Charna**، وتقول: " هاى، نحن قد انتهينا من إعداد الصفحة الأمامية للإنترتينمينت **Entertainment** " علاوة على الانتهاء من ثلاث صور، هذا إطراء حقيقى! ".

أرتجف فى ترويع من فكرتها عن الإطراء، وما الذى تعنيه هى بكلمة " نحن "؟ ولكنها مسرورة ؛ فأنا قد تخرجت من " ليفينج **Living** " إلى " الإنترتينمينت "، وهذه دلائل طيبة، أتذكر عندما كانت لدى أفكار عن العظمة الخالدة؛ حيث أرغب فى أن أصبح مثل ليوناردو دافنشى، قال شخص ما إن الفن **art** هو ما يمكن أن تفعله دون أن تتعرض لعواقب وخيمة، مما يوحى بأنه شىء ما يشبه سرقة المعروضات من متجر من خلال التظاهر بالرغبة فى الشراء أو يشبه جريمة ما أخرى من النوع الصغير، وربما كان الفن على ذلك النحو دائمًا ومازال بمثابة نوع من السرقة أو اختطاف الصور المرئية والذهنية.

أعرف أن ذلك سيكون بمثابة أنباء سيئة، ومع ذلك فإننى لا أستطيع المقاومة، أرتدى ملابسى بسرعة وأنزل إلى الشارع للبحث عن أقرب كشك لبيع الجرائد، ولا أفتح الجريدة إلا بعد أن أصعد عائدة إلى مكانى.

الصحيفة الجريئة تقول: " فنانة ذات نزوات وأفكار غريبة مازالت لها المقدرة على إحداث القلق والإزعاج "، ويتلاحظ لى وجود كلمة فنانة **artist** بدلاً من كلمة رسامة **painter**، كما أن كلمة مازالت **still** المنذرة بالشرور تشير إلى الانحدار نحو الشيخوخة والتخريف، أندريا الساذجة تسترد قدرتها على تحمل الأعباء، إننى مندهشة من استخدامها كلمة عتيقة بطُل استخدامها وهى كلمة ذات نزوات غريبة **crotchety**، ولكن ربما هى لم تكتب المانشيت أو عنوان المقالة.

أقرأناكموه

توجد بالفعل ثلاث صور، إحداهما صورة لرأسى ملتقطة من أسفل بعض الشيء ولذلك أبدو فى هذه الصورة وكأن لغد تحت ذقنى، والصورتان الأخريان هما لوحتان: إحداهما لوحة للسيدة سميث وهى عارية ومحلقة فى تثاقل عبر الهواء بينما الكنيسة التى تعلوها بصلة موجودة على مسافة، والسيد سميث ملتصق فى ظهرها مثل خنفساء ومبتسم فى ابتسامة مليئة بالجنون، وكلاهما له أجنحة حشرات ذات لون بنى لامع وهذه اللوحة تسمى : بشارة الملك جبريل لمريم بحملها بالسيد المسيح **Erbug, The Annunciation**، " أما اللوحة الأخرى فهى عن السيدة سميث بمفردها ومعها سكينة وثمرة بطاطس مقشورة وهى عارية من عند الخصر فصاعدًا ومن عند الفخذين فنازلاً، وهذه اللوحة من ضمن سلسة " السروال التحتانى للإمبراطورية **Empire Bloomers** " والصور الفوتوغرافية بالجريدة لا تعطى هاتين اللوحتين حقهما اللائق لأنه لايوجد بهما ألوان؛ إذ تبدوان أشبه باللقطات الفوتوغرافية.

أتفحص فى دقة الفقرة الأولى : " الفنانة المشهورة إيلين ريسلى تعود إلى مدينتها تورونتو فى هذا الأسبوع من أجل معرض استعادى على مدى فترة طويلة منصرمة "، وكلمة المشهور **Eminent** هى الكلمة التى تتعلق بالضريح أو القبر، ويمكن لى أيضًا التسلق على البلاطة الرخامية الآن وأجذب ملاءة السرير على رأسى، توجد هناك دائمًا الاستشهادات والاقتباسات الخاطئة الاعتيادية، ولا حتى بذلتى الزرقاء تهرب من التعليقات " إيلين ريسلى تبدو مرعبة فى بذلتها الزرقاء الفاتحة التى سبق أن شوهدت أيامًا ببذلتها" ، و" لكنها يمكن أن تنشر بعض التعليقات القليلة اللاذعة المثيرة للغيظ عن النساء فى هذه الأيام أرتشف بعض القهوة وأقفز إلى الفقرة الأخيرة " المرأة الانتقائية **eclectic** على نحو محتوم؛ حيث إنها لا تتبع أسلوبًا واحدًا فى الرسم، وإنما تجمع بين أساليب متعددة، ، المرأة المنادية بمرحلة ما بعد المساواة بين الرجل والمرأة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا **post-feminist** إنها المرأة التى تؤمن باللجوء إلى أية وسيلة كيفما اتفق **however** وتؤمن

بالاستخفاف des pite"، إننى أفضل هذا الهجوم اللاذع الذى يجعلنى أدرك أننى مازالت على قيد الحياة.

أفكر فى ضراوة فى الافتتاح، ربما ينبغى أن أتعمد أن أكون استفزازية ومثيرة لغضب الناس، وربما ينبغى على أن أؤكد شكوكهم العميقة، بل يمكن لى أن ألجأ إلى التأثيرات الفنية المروعة التى يحدثها جون، وإلى الوجه المحروق الذى به عين واحدة مقشورة ومحتقنة بالدماء، وإلى الذراع البلاستيك التى تنبثق منها الدماء، أو يمكن لى أن أنزلق بقدمى إلى داخل الجبائر الجوفاء للأقدام وأترنح فى داخلها مثل شىء ما منتمٍ لشريط سينمائى علمى مجنون.

ولكننى لن أفعل هذه الأشياء، ولكن مجرد التفكير فيهما يعتبر مهدئًا ومخففًا للآلام، فهو يبعد المسألة بأكملها ويخفضها بحيث تصبح مجرد مسرحية هزلية ساخرة farce أو نكتة لا يكون لى تورط فيها علاوة على السخرية.

كورديليا سوف ترى هذه المقالة الواردة بالجريدة، وربما ستضحك، وعلى الرغم من أن اسمها غير مدرج فى دليل التليفونات، فمن المؤكد أنها مازالت موجودة هنا فى مكان ما، وربما تكون قد غيرت اسمها، أو ربما تكون قد تزوجت، وربما تكون قد تزوجت أكثر من مرة، من الصعب اقتفاء أثر معظم النساء ؛ فهن ينزلقن فى تسلل إلى أسماء أخرى ويغطسن دون أن يتركن وراءهن أى أثر.

وعلى كل حال فسترى هذا، ولسوف تدرك أن الصورة تعبر عن السيدة سميث، ولسوف تهتز فى حيوية وابتهاج وطرب، ولسوف تدرك أننى التى قمت برسم اللوحة، وهى سوف تجىء، إنها سوف تدخل من الباب وعندئذ ستشاهد نفسها فى داخل إطار له عنوان وتاريخ ومعلق على الحائط، وهى متميزة للغاية بحيث لا يمكن الظن فى الفك والشفة الملتوية قليلاً، وتبدو وكأنها موجودة فى غرفة بمفردها، غرفة بها حوائط لها لون أخضر فاتح.

أقرأناكموه

تلك هى اللوحة الوحيدة التى رسمتها لكورديليا، واللوحة لكورديليا بمفردها، وتسمى : نصف وجه، وهذا عنوان غريب وشاذ، لأن الوجه الكامل لكورديليا واضح فى الصورة، ولكن خلفها يوجد وجه آخر مغطى بقماش أبيض ومتدلٍ على الحائط مثل الرموز المستخدمة فى عصر النهضة أو مثل تلك الرؤوس للحيوانات.. حيوان الموظ أو الغزال التى اعتدت أن تجدها فى البارات الشمالية، والتأثير ربما له طابع القناع المسرحى.

ولقد صادفتنى المتاعب أثناء رسم تلك الصورة؛ إذ كان من الصعب على أن أثبت كورديليا فى زمن واحد وفى عمر واحد، وكنت أريد لها أن تبدو فى سن الثالثة عشرة تقريبًا مع النظر بتلك الحملقة الخاصة بها المتسمة بالتحدى، بل وتكاد تكون متسمة بالروح القتالية، "أهكذا ؟ so" فالعينان لا تتسمان بالقوة، والمظهر الذى تعطيانه للوجه هو مظهر متسم بالتردد، بل ومتسم بالخوف.

كورديليا خائفة منى فى هذه اللوحة، إننى خائفة من كورديليا؛ إننى لست خائفة من مشاهدة كورديليا، وإنما أنا خائفة من التحول بحيث أصبح كورديليا؛ لأننا على نحو ما تبادلنا المواقع والخصائص ونسيت متى حدث ذلك.

* * *

(٤٢)

عقب الصيف العاشر الدراسى، وعلى الرغم من أننى مازالت أكثر قصرًا وأصغر سنًا، فقد ظهر علىَّ بعض النضج وخاصة النضج فى الثديين، كما تظهر

لدى دورات الطمث الشهرية مثل البنات السويات الطبيعيات، أنا أيضًا أصبحت ضمن البنات المطلعات على بواطن الأمور وأصبح بإمكانى أيضًا عدم الاشتراك فى لعبة الڤولى بول والذهاب إلى الممرضة من أجل الحصول على الإسبرين والمشى شبيهة بذيل أرنب مسطح من أجل أن تمتص الدماء الشبيهة بلون الكبد، أشعر بالرضا والارتياح بسبب ظهور هذه التغيرات على جسدى، وأقوم بإزالة الشعر عن ساقى ليس بسبب أنه يوجد الكثير من الشعر، ولكن لأن ذلك يجعلنى أشعر أننى على ما يرام، أجلس فى البانيو مع الحك على ربلة ساقى مع التمنى لو كانت أكثر امتلاءً وانتفاخًا، بينما أخى يدمدم فى تذمر بالخارج.

ويقول: " المرأة، ، المرأة على الحائط، من هى أجمل الجميلات؟"، فأرد عليه فى هدوء: " ابتعد، ، انصرف بعيدًا " فأنا لدى الآن ذلك الحق وذلك الامتياز.

* * *

بالمدرسة ألتزم الصمت والحذر، وأنجز الواجب المدرسى الذى يعد فى المنزل، كورديليا تنتف حاجبى عينيها بحيث يصبحان مثل خطين رفيعين أكثر من حاجبى عينى، وهى أيضًا تطلى أظافر يديها بطلاء الأظافر، وتفقد الأشياء مثل أمشاط الشعر ومثل الواجب المدرسى الفرنسى الذى يعد بالمنزل، وهى تضحك بصوت أجش فى القاعات، وتنشر كلمات شتائم وسباب جديدة ومعقدة مثل : غائط الثور **bullshit**، وتعتاد على تدخين السجائر، ويتم ضبطها متلبسة بالتدخين فى غرفة الاغتسال الخاصة بالبنات، ومن المؤكد أن المدرسين يجدون صعوبة فى معرفة السبب الذى جعلنا صديقتين رغم الاختلاف الواضح فى شخصية كل منا.

* * *

اليوم تمطر السماء ثلجًا فى أثناء العودة من المدرسة إلى المنزل، رقائق الثلج الضخمة اللينة المرتبة تسقط على بشرتنا مثل فراشات باردة، ويمتلئ الهواء بأشياء خفيفة للغاية مثل الريسن، كورديليا وأنا فى حالة ابتهاج، نمشى مع إحداث جلبة وضوضاء على طول رصيف المشاة بين طيات الشفق الأحمر، بينما السيارات تنطلق متخطية إيانا فى بطء صامت بسبب سقوط الثلج، ونغنى :

تذكر اسم.....

ليديا بينكهام.....

التى أصبحت شهيرة بسبب.....

ما تقدمه من علاج للنساء.

وهذا إعلان تجارى غنائى يذاع من الراديو، ونحن لا نعرف نوعية العلاج الذى تقدمه ليديا بينكهام للنساء، ولكن أى شىء يتعلق بالنساء فإنه بكل تأكيد يتعلق بدورة الطمث الشهرية أو أى شىء أنثوى مماثل يتعذر التحدث عنه صراحة؛ ولذلك فنحن نعتقد أن هذه الأغنية هزلية ومضحكة.

ونتغنى أيضًا بأغنية :

أيها الجذام...

أنت تعذبنى ليلاً ونهارًا

إلى أن تدخل مقلة عينى

فى كأس الخمر الخاص بى

أو بأغنية :

ما آكله الآن...

هو جزء من قلبك

إنه لأمر سيئ للغاية

أن نضطر إلى الافتراق.

نتغنى بهذه الأغنيات وبباروديات **Paro dies** أخرى من الأغانى الشعبية والتى نعتقد أنها كلها ظريفة وفكاهية للغاية، ونجرى وننزلق فى حذائنا المطاطى ذى الرقبة مع جعل الجزء العلوى من الحذاء مقلوبًا رأسًا على عقب، ونصنع كرات الثلج ونلقى بها على أعمدة الإنارة وعلى حنفيات الحريق وعلى السيارات المنطلقة بسرعة، بل على الناس السائرين على رصيف المشاة؛ حيث يكون معظمهم من النساء الممسكات بحقائب الشراء أو بالكلاب، ونضطر لأن نضع كتبنا المدرسية على جانب لكى نتمكن من تصنيع كرات الثلج، وتصويبنا نحو الهدف غير دقيق وبالتالى لا ترتطم الكرات بأى شىء وإن كنا قد أصبنا امرأة من الخلف ترتدى معطفًا من الفراء بطريق الخطأ، فتستدير وتنظر إلينا فى عبوس وتجهم فنلوذ بالفرار نحو ناصية الشارع ومنها إلى شارع جانبى مع الانخراط فى الضحك الملىء بالرعب والخجل والارتباك إلى درجة كبيرة حتى لم يصبح بمقدورنا أن نقف على أقدامنا إلا بصعوبة بالغة، وتلقى كورديليا بنفسها إلى الوراء على مساحة عشبية مغطاة بالثلج، وتضحك وتقول: " العين الحسودة التى تصيب الناس بالشرور"، لسبب ما لا أحب منظرها وهى مستلقية على ظهرها فى الثلج وقد نشرت ذراعيها.

فأقول لها: " انهضى، وإلا ستتعرضين للإصابة بمرض السل".

فتقول: " أهكذا ؟ **So** "، ولكنها تنهض بالفعل تضاء أنوار الشارع رغم أن الظلام لم يخيم بعد، ونصل إلى المكان الذى تبدأ عنده الجبانة فى الظهور على الجانب الآخر من الشارع.

فتقول كورديليا: " أتتذكرين جريس سميث ؟ " فأقول: " نعم "، إننى أتذكرها بالفعل ولكن فى غير وضوح وعلى نحو غير مستمر، أتذكرها فى لقطة عندما

أقرأناكموه

تعرفت عليها لأول مرة، وبعدئذ أتذكرها وهى جالسة فى بستان التفاح وقد وضعت تاجًا من الأزهار على رأسها، وبعدئذ أتذكرها فى لقطة حديثة للغاية عندما كانت فى الصف الثامن المدرسى وعلى وشك الذهاب إلى المدرسة الثانوية، بل لا أعرف اسم المدرسة الثانوية التى التحقت بها، وأتذكر النمش الخاص بها وابتسامتها الخفيفة وتسريحة شعرها التى على شكل ذيل حصان.

وتقول كورديليا: " لقد كانوا يقتصدون فى استخدام ورق التواليت الخاص بهم، أربع قطع مربعة الشكل من الورق فى كل مرة، أكنت تعرفين ذلك ؟ ".

فأقول: " لا "، ولكن يبدو لى أننى كنت أعرف ذلك بالفعل ذات يوم.

فتقول كورديليا: " وهل تذكرين ذلك الصابون الأسود اللون الذى كان موجودًا لديهم ؟ " وتضيف: " أتذكرين ؟ والذى كان له رائحة القطران ".

أعرف ما نفعله الآن، إننا نسخر من عائلة سميث، كورديليا تتذكر أنواع الأشياء كافة: الملابس الداخلية الرمادية التى تقطر ماء على حبل الغسيل فى البدروم، وسكينة المطبخ الخاصة بالتقشير التى كانت متآكلة، ومعاطف الشتاء المشتراة من محلات إيتون كاتالوج، ولكن محلات سمبصونز هى المكان الملائم لشراء المعاطف منه وفقًا لرأى كورديليا، وذلك هو المكان الذى نذهب إليه الآن فى الفترات الصباحية من يوم الأحد دون أن نضع أى غطاء على الرأس، المحطات والتى تصل إلى قلب المدينة، وشراء الحاجيات من إيتون كاتالوج هو أسوأ بكثير من شراء الحاجيات من محلات إيتون.

وتصيح كورديليا فى الهواء الملىء بالثلوج: " العائلة المغفلة الخرقاء البليدة **the Lump - Lump Family** " هذا قول يتسم بالقسوة والصدق، نشخر فى ضحك: "ما الذى تتناوله عائلة لامب / لامب فى وجبة الغداء ؟ أطباق مليئة بالغضاريف".

والآن أصبحت هذه لعبة كاملة، ما هو لون ملابسهم الداخلية ؟ إنه لون نخير الخنازير، لماذا تضع السيدة لامب / لامب ضمادة على وجهها ؟ لأنها جرحت

نفسها أثناء قيامها بحلاقة لحيتها بالموس، أى شىء يمكن أن يقال عن هذه العائلة وأى شىء يمكن أن يلفق لهم، أفراد هذه الأسرة دون أية دفاعات، فهم يقعون تحت رحمتنا، نتخيل الأب والأم فى عائلة لامب / لامب وهما يمارسان الحب، ولكن هذا شىء لايطاق بالنسبة لنا ولا نستطيع أن نتحمله وهو شىء لا يمكن إنجازه فى هذه اللعبة الساخرة، فهو متسم أكثر من اللازم بممارسة التقيؤ **Vomit - making** وهذه كلمة جديدة من ابتكار بيردى.

" وما الذى تفعله جريس لامب / لامب من أجل التسلية ؟ تفرقع وتفجر بُثورها ودمامِلها! " وتنفجر كورديليا فى ضحكات مدوية وتنحنى وتكاد تسقط على الأرض، وتقول: " توقفى، كفى عن هذا الكلام، فأنت ستجعلينني أتبول على نفسى "، وتقول إن جريس بدأت تظهر البثور على بشرتها وهى فى الصف الثامن الدراسى، وبحلول الوقت الحالى تكون البثور قد ازدادت فى العدد، وليس هذا تأليفًا وتلفيقًا، وإنما هو حقيقة صادقة، ونتلذذ فى الاستمتاع بهذه الفكرة.

وآل سميث فى ترجمتنا لهم هم أناس دون أى سحر أو جاذبية، ومتسمون بالخجل وثقيلوا الوزن مثل العجين ومثيرون للملل والسأم مثل السمن الصناعى النباتى الأبيض اللون الذى ندعى أنهم يأكلونه كبديل عن طبق الحلوى الذى تختتم به وجبة الطعام، ونحن نسخر من ورعهم وتقواهم ومن اقتصادهم فى النفقات ومن حجم أقدامهم ومن شجيرة المطاط الخاصة بهم والتى تساعد على تكوين رأى عنهم، ونحن نتحدث عنهم فى الزمن المضارع **present tense** كما لو كنا مازلنا نعرفهم.

وهذه لعبة تدخل السرور على إلى حد كبير، ولا أعرف السبب فى ظهور هذه الوحشية والهمجية الخاصة بى، ولا أسائل نفسى عن السبب الذى يجعلنى أستمتع بهذه اللعبة للغاية؛ أو السبب الذى يجعل كورديليا تلعب هذه اللعبة وتصر عليها وتبث الحياة فيها مرة أخرى عندما تبدو وكأنها تذبل فى تلاشٍ، تنظر إلى نظرات جانبية كأنها تريد أن تعرف إلى أى درجة سأستمر فى التمادى فى هذه الخيانة

أقرأناكموه

الوضيعة التى ندرك جوانبها معًا بكل تأكيد، تتكون فى داخل ذهنى صورة متلاشية لجريس مرة أخرى وهى تختفى فى منزلها من خلال الباب الأمامى وقد ارتدت تنورتها والسويتر المتقشر الخاص بها، لقد كانت معبودة الآن، وهى من وجهة نظر كورديليا الآن فإنها لم تكن معبودة فى أى وقت من الأوقات على الإطلاق.

نجرى عبر الشارع تحت الثلج المتساقط، ونفتح البوابة الحديدية الصغيرة المزخرفة الموجودة بسور الجبانة، وندخل، لم يسبق لنا أن فعلنا ذلك من قبل على الإطلاق.

هذا هو الطرف العارى من الجبانة؛ فالأشجار ليست سوى شجيرات صغيرة، وهى دون أوراقها تبدو متسمة أكثر بالطابع المؤقت، والكثير من المساحات على الأرض لم تلمسها أقدام، ولكن توجد هناك ندبات غائرة شبيهة بعلامات مخلب عملاق، كما يوجد تنقيب وحفر فى بعض المواقع علاوة على وجود متاريس وسدود ترابية، وشواهد القبور والأضرحة قليلة وحديثة، مستطيلات جرانيتية شبيهة بكتل خشبية لها المظهر اللامع الجذاب لكنيسة شيخية بروتستانتية، والحروف محفورة في بساطة ووضع خالٍ من الزخارف مع عدم وجود أى محاولة لإضفاء الطابع الجمالى، إنها تذكرنى بمعاطف الرجال.

نمشى بين شواهد القبور هذه ونشير إلى المقابر – وخاصة تلك التى لها لون رمادى وشكل ساذج – التى يمكن أن تختارها عائلة لامب/ لامب لكى يدفنوا بعضهم البعض أسفلها، ومن هنا يمكن لنا النظر من خلال السور المتقطع الموصول بسلاسل ومشاهدة المنازل الواقعة على الجانب الآخر من الشارع، منزل جريس سميث هو أحد هذه المنازل، إنه من الغريب والممتع على نحو شاذ أن نظن أنها ربما تكون موجودة داخل ذلك المنزل فى هذه اللحظة نفسها، فى داخل ذلك الصندوق العادى المصنوع من الطوب والذى به أعمدة ثراندة بيضاء ودون أن تعرف أى شىء عن الكلام الذى كنا نقوله عنها توًّا، وربما تكون السيدة سميث موجودة هنالك ومستلقية على الكنبة الطويلة المخملية، بينما البطانية الملونة

منشورة عليها، فأنا كثيرًا ما أتذكر هذه اللقطة، وشجرة المطاط سوف تكون على بسطة السلم دون أن تكون قد نمت كثيرًا، لأن أشجار المطاط تنمو فى بطء، ولكننا أصبحنا أكبر حجمًا بينما المنزل يبدو صغيرًا.

الجبانة تمتد أمامنا على مدى فدادين وفدادين من الأراضى، والآن يقع الوادى الضيق السحيق على يسارنا بينما الكوبرى الخرسانى الجديد يبدو مرئيًّا فى وضوح، تخطر على ذهنى لمحة خاطفة عن الكوبرى القديم والجدول المائى الموجود أسفله، من المؤكد أن الناس الموتى الموجودين تحت أقدامنا يتحللون ويتحولون إلى ماء بارد وصاف ينساب نحو أسفل التل، ولكننى أنسى هذا على الفور، لا شىء يتعلق بالجبانة مثيرًا للخوف... هكذا أقول لنفسى، الجبانة تتسم بالطابع العلمى تمامًا وهى قبيحة الشكل للغاية ومرتبة للغاية، إنها تشبه فقط رف المطبخ الذى تضع عليه الأشياء بعيدًا عن متناول الأيدى.

نسير لبعض الوقت فى صمت دون أن نعرف إلى أين نحن ذاهبتان أو السبب فى ذلك، الأشجار أكثر طولاً وشواهد القبور أكثر قدمًا، توجد الآن صلبان سلتية **Celtic** والملاك المناسباتى الاحتفالى.

وتقول كورديليا وهى تضحك فى فتور: " كيف سنخرج من هنا؟"

فأقول لها: " إذا ظللنا فى السير سنلتقى بطريق "، وأضيف: " أليست تلك هى حركة المرور؟ "

وتقول كورديليا: " أريد أدخن سيجارة – **ciggie poo** "، نعثر على مقعد خشبى طويل، ونجلس عليه حتى يمكن لكورديليا أن تحرر يديها من أجل السيجارة، وتكور يدها ضد حركة الهواء وتشعل السيجارة، إنها غير مرتدية قفازًا فى يديها ولا يوجد وشاح على رأسها، وهى لديها ولاعة { قداحة } صغيرة لها لون أسود / ذهبى.

وتقول: " انظرى إلى جميع المنازل الصغيرة الخاصة بالناس الموتى".

أقرأناكموه

فأقول فى إدراك: " إنها أضرحة وقبور ".

فتقول وهى تعطى دفعة واحدة أخيرة للمزاح: " ضريح عائلة لامب / لامب ".

فأقول: " لا يمكن لهم أن يحصلوا على ضريح " وأضيف: " فالضريح فاخر للغاية ومزود بأسباب الراحة والنعيم ".

وتقرأ كورديليا " إيتون **Eaton** " وتستطرد: " من المؤكد أن هذا الضريح تابع لأصحاب المتجر، فالكلمة لها حروف الهجاء نفسها، كتالوجات إيتون مدفونة هنا ".

فأقول: " السيد والسيدة كتالوج ".

فتقول كورديليا وهى تأخذ نفسًا من السيجارة: " إننى أتساءل عما إذا كانوا مرتدين جلاليب لها مشد "كورسيه"، نحن نحاول الرجوع إلى مرحنا الصاخب ولكننا لا نفلح فى ذلك، أفكر فى إيتون وزوجته بحيث يكون كلاهما أو ربما المزيد من أفراد عائلة إيتون قد تم تغطيتهم وربطهم من أجل التخزين كما لو كانوا بمثابة معاطف فرائية أو ساعات ذهبية ووضعوا فى المقبرة الخاصة بهم، والتى تبدو أشد غرابة من المقابر الأخرى كافة لأنها تتخذ شكل المعبد اليونانى، أين يوجدون على وجه الدقة فى الداخل هناك؟ على نعوش وتوابيت ؟ وهل هم فى داخل نعوش عنكبوتية لها أغطية حجرية على النحو الوارد فى كوميديات الرعب ؟ أفكر فى الجواهر الخاصة بهم وهى تتلألأ فى الظلام – بالطبع ستكون معهم مجوهرات – وفى الشعر الجاف الطويل الخاص بهم، شعرك ينمو عقب وفاتك وكذلك تنمو أظافر أصابعك، ولا أدرى كيف عرفت هذه الحقيقة.

أقول فى بطء: " السيدة إيتون هى فى حقيقة الأمر هامة(*) **vampire** أو مصاصة للدماء " وأضيف : " فهى تخرج من القبر ليلاً، وتكون مرتدية فستان حفلة راقصة طويلاً وله لون أبيض، وينفتح ذلك الباب محدثًا صوتًا كالصرير، ثم تخرج هى من الباب".

(*) "الهامة": مصّاص الدماء ، أو جنّة يعتقد أنها تفارق القبر ليلاً لتمتص دماء النائمين.

فتقول كورديليا وهى مفعمة بالأمل بينما تطفئ سيجارتها: " لكى تشرب دماء عائلة لامب / لامب الموجودين لفترة متأخرة بالليل".

فأرفض الانخراط فى الضحك، وأقول: " لا، إننى أتكلم فى جدية ودون أى هزل"، وأضيف: " فهى تخرج من القبر بالفعل، ولقد تصادف أن رأيت ذلك بنفسى"، فتنظر كورديليا إلى فى توتر، الثلج آخذ فى التساقط والشفق الأحمر يخيم على الأماكن ولا يوجد أحد هنا سوانا، فتقول: " نعم ؟ هيا ؟ " فى انتظار أن أقول النكتة.

فأقول: " نعم، نحن أحيانًا نمشى معًا، لأننى أنا أيضًا هامة تغادر القبر لكى تمتص دماء الأحياء ".

فتنهض كورديليا واقفة وتزيح الثلج عن ملابسها، وتقول: " أنت لست هامَة "، وتبتسم فى شكوك والتباس.

فأقول: " كيف يمكن لك أن تعرفى أننى لست هامة ؟".

فتقول كورديليا: " لأنك تسيرين هنا وهناك فى النهار ".

فأقول: " تلك ليست أنا، وإنما هى التوأم الخاصة بى، أنت لم تعرفى هذه الحقيقة من قبل على الإطلاق، ولكننى إحدى شخصيتين متماثلتين تمامًا بحيث لا يمكن لك أن تعرفى الفارق بينهما من خلال النظر إليهما، وعلى كل حال فإن الشمس فقط هى التى ينبغى أن أتجنبها، وفى أيام كهذا اليوم يكون الوضع آمنا للغاية، فأنا لدى نعش ملىء بالتراب أنام فيه، وهذا النعش موجود فى الأعماق فى... " – وأبحث عن مكان ملائم – وأضيف: " فى الأعماق فى البدروم ".

فتقول كورديليا: " لا تكونى سخيفة ".

أقرأناكموه

فأنهض واقفة أيضًا ، وأقول مع خفض صوتى: " إننى أقول لك الحقيقة، وأنت صديقتى، وأنا أعتقد أن الوقت قد أصبح ملائمًا لكى أخبرك بالحقيقة، فأنا ميتة حاليًا بالفعل، وأنا قد ظللت ميتة على مدى سنوات " .

فتقول كورديليا فى حدة: " يمكن لك أن تكفى عن هذا الادعاء الكاذب "، أندهش من المتعة الكبيرة التى تعود علىَّ من وراء ذلك، أحس بالمتعة لأنها تموج بالقلق والتوتر وأبتهج كثيرًا عندما أدرك أننى لدى مثل هذا القدر الكبير من النفوذ والسلطان عليها، وأقول: " أكف عن ماذا؟ إننى لا أمزح، إننى أقول كلامًا جادًّا، ولكن لا ينبغى عليك أن تشعرى بالخوف والقلق، فأنا لن أمتص دماءك لأنك صديقتى ".

فتقول كورديليا: " لا تكونى طفلة صغيرة مزعجة "، فأقول: " فى خلال دقيقة سيتم حبسنا معًا "، ويخطر على ذهن كل منا أن هذا ربما يكون حقيقة صادقة، فنجرى معًا على طول الطريق ونلهث ونضحك ونعثر على بوابة كبيرة تكون مفتوحة لحسن الحظ، وإلى ما وراءها يوجد شارع يونج ستريت **Yonge street** الذى تتدافع عليه حركة مرور السيارات فى ساعة الذروة، وتريد كورديليا أن تلفت النظر إلى سيارات عائلة لامب / لامب، ولكننى أشعر بالسأم والملل من هذا، توجد أمامى شخصية أكثر بلاهة وغباء وأصبح لدى المزيد من الانتصار الضئيل الشرير، الطاقة قد مرت بيننا، وأنا الآن أكثر قوة.

* * *

(٤٣)

أنا فى الصف الحادى عشر المدرسى الآن، وأصبحت فى طول العديد من البنات الأخريات وهذا يعنى أننى لست طويلة للغاية، لدى تنورة رمادية / فحمية

تجعل المشى صعبًا أثناء ارتدائها، على الرغم من وجود الطيات والثنيات بها، كما يوجد لدى سويتر جناح خفاش له لون أحمر مقلم بخطوط رمادية أفقية، ولدى حزام سرج عريض وأسود ومطاطى له مشبك إبزيمى ذهبى اللون، ولدى حذاء راقصة الباليه الذى هو دون كعب، والمصنوع من المخمل القطنى والذى يبلى بسرعة وينتفخ عند الجانبين لدى المشى به لمسافات طويلة، ولدى معطف قصير لكى يتماشى مع التنورة، وهذا هو منظرى ، شبيهة بالصندوق ومتسعة تدريجيًا نحو الخارج بالجزء العلوى من جسدى مع وجود فخذين وساقين نحيلين بالجزء السفلى، ولدى فم بذىء.

لدى فم بذىء للغاية، حتى إننى أصبحت مشهورة به، وأنا لا أستخدمه إلا فى حالة قيام الآخرين بإثارة غضبى وغيظى ولكن عندئذ أفتح فمى البذىء فتخرج منه تعليقات مقتضبة ومدمرة، ونادرًا ما أضطر لأن أفكر فى تلك التعليقات وإنما هى توجد عند فمى على نحو فجائى مثل بالونات فكرية بداخلها لمبات ضوئية، بالطبع هناك إجابات تقليدية سريعة متداولة بين البنات مثل: " لا تكونى من الآلام الرديئة " أو: " من لا يعرفك يجهل طباعك الرديئة " ولكنى أتمادى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير: فأنا على استعداد لأن أقول: " أنت مثل آلام المخاض "، وإذا قالت فتاة عنى إننى لست سوى مخ **brain** { وكلمة **brain** الإنجليزية تعنى أيضًا : حيوان ليس له عمود فقرى} فأقول لها: " من الأفضل لى أن يكون لى مخ على أن أكون فتاة بلهاء وغبية ومغفلة مثلك "، أو أقول لها: " هل أنت ترضعين ؟ " إننى أعرف أين توجد نقاط الضعف ؛ فكلمة يرضع **Suck** كلمة مدمرة وساحقة للأولاد، وكثيرًا ما يقولها الأولاد لبعضهم البعض، فهى كلمة تشير إلى أصابع الإبهام وإلى الأطفال الرضع، ولم أكن أعرف آنئذ الشىء الآخر الذى يمكن مصه فى رضاعة أو الظروف التى يتم فيها ذلك.

البنات بالمدرسة يحرصن على الحذر من فمى البذىء ويحاولن تجنبه، أجتاز الردهات وأنا محاطة بهالة من الأخطار المحتملة، ويتم معاملتى فى حرص وحذر

أقرأناكموه

وهو أمر يرضينى إلى حد بعيد ومما يثير الدهشة أن بذاءة لسانى لا ينجم عنها عدد ضئيل من الصديقات، وإنما، ذلك يؤدى من الناحية الظاهرية إلى المزيد من الصديقات، البنات خائفات منى ولكنهن يعرفن أين يتوفر الأمن والأمان لهن، إنه يتوفر إلى جوارى وعلى مسافة نصف خطوة ورائى، ويقلن فى غير إيمان راسخ: " إيلين بمثابة تمرد وثورة "، بعض البنات يقمن بالفعل بجمع آنية الخزف الصينى والأدوات المنزلية وتوجد لديهن صناديق الرجاء **Hope Chests**، هذه النوعية من الأشياء أشعر نحوها بازدراء ممزوج بالتسلية، ومع ذلك يزعجنى أن أعرف أننى قد جرحت مشاعر فتاة دون قصد؛ إذ أريد لجميع حالات إيذائى لمشاعر الأخريات أن تكون متعمدة.

لا تتاح لى فرصة لاستخدام فمى البذىء مع الأولاد نظرًا لأنهم لا يقولون أشياء تثير غضبى، وذلك باستثناء ستيفن بالطبع، فى هذه الأيام نتبادل بذاءات حقيقية كلعبة من نوع ما مثل البدمنتن **badminton**، (*) ويمكن لى عادة أن أسكته بأن أقول له: " أين حصلت على قصة الشعر هذه؟ هل حصلت عليها فى المدينة التى يتم فيها استخدام آلة جز الأعشاب من أجل قص الشعر **Lawnmowerville** ؟ "، إنه حساس دائمًا لقصة الشعر الخاصة به، أو بأن أقول له عندما يكون متأنقًا وهو مرتدى البنطلون والجاكيت الرماديين الخاصين بالزى المدرسى بالمدرسة التى التحق بها: " هاى، أنت تشبه سيمبصونز ريب " والسيمبصونز ريب هم أطفال رضع يظهرون فى الكتب السنوية للمدارس الثانوية وقد ارتدوا سترات فضفاضة مع وجود شارات زخرفية على جيوبهم تعلن عن محلات سيمبصونز.

ويقول والدى: " لسانك السليط سيوقعك فى المتاعب فى يوم ما أيتها الليدى الشابة **young lady** "، وتعبير الليدى الشابة إشارة إلى أننى اقتربت كثيرًا من حافة ما، وعلى الرغم من أن هذه العبارة تسكتنى على نحو مؤقت، فإنها لا تجعلنى أقل حدة وأقل تشددًا، إذ أصبحت أستمتع بالمخاطرة.

(*) المقصود بها لعبة "تنس الريشة" .(المترجم)

الفتاة التى أستخدم معها بذاءة فمى أكثر من الأخريات هى كورديليا، بل إنها لا تضطر إلى إثارة غضبى لكى أنهال عليها بالبذاءات، فأنا استخدمها من أجل التمرين على إصابة الهدف **target practice**، نجلس على التل المطل على ملعب كرة القدم ونحن مرتديتان الجينز الذى لا يسمح بارتدائه بالمدرسة إلا فى الأيام التى تكون بها ممارسات للعبة كرة القدم، ويمشى فريق كرة القدم الهوينى فى غير إسراع، فتقول كورديليا: " ذلك الولد جريجورى، ياله من كتلة ضخمة! " فأقول: "إنه كتلة ضخمة من الجبنة"، فتنظر إلىّ كورديليا فى استياء وتقول: " أعتقد أنه وسيم وجميل"، فأقول: "إذا كنت تفضلينهم مدهونين بزيت الذرة "، وعندما تقول إنها فكرة خاطئة أن تجلس على مقاعد التواليت بالمدرسة الثانوية دون أن تمسح هذه المقاعد أولاً لأن ذلك قد يسبب مرضًا، أقول لها: " ومن قال لك ذلك ؟ والدتك **your mummie** ؟ ".

أسخر من المغنيين المفضلين لديها، أقول: " الحب، الحب، الحب، إنهم يتأوهون دائمًا فى توجع "، فلقد تكوّن لدى احتقار نحو العواطف الجياشة الفياضة ؛ ففرانك سيناترا هو نبات الخبيزة المغنى، وبيتى هوتون بمثابة مجلخة بشرية، وعلى كل حال فهؤلاء الناس قد عفا عليهم الزمن وأصبحوا غير عصريين وهم يبالغون فى التهافت فى الحب والغرام، أما المشاعر الصادقة فيمكن العثور عليها فى الروك أند رول، وفى أغنية: " قلوب مصنوعة من الحجارة ".

وفى بعض الأحيان يمكن لكورديليا أن تفكر فى الكلام الذى ترد به ولكنها فى أحيان أخرى لا تستطيع ذلك، وتقول: " ذلك متسم بالقسوة " أو تدفع بلسانها إلى جانب فمها وتغير موضوع الكلام أو تشعل سيجارة.

أجلس فى حصة التاريخ وأنهمك فى رسم عابث على جانب الصفحة، يتم تدريس الحرب العالمية لنا، المدرس يموج بالحماس، إنه يحجل ويثب فيما حوله بالجزء الأمامى من حجرة الدراسة ويلوح بيديه وبالمؤشر الخاص به، إنه رجل

أقرأناكموه

قصير القامة وله جديلة شعر جامحة، ويعانى من العرج وربما يكون قد شارك فى الحرب بنفسه أو هكذا تقول الشائعات، ولقد رسم على السبورة خريطة كبيرة لأوربا باللون الأبيض مع رسم خطوط منقطة باللون الأصفر لكى توضح الحدود بين الدول، وجيوش هتلر تغزو من خلال أسهم بالطباشير الأحمر الوردى، ويتم ضم النمسا لألمانيا النازية فى عام ١٩٣٨ **Anschluss**، وبعدئذ تسقط بولندا وبعدها تسقط فرنسا، أقوم برسم نباتات التوليب وأشجار مع رسم خط لكى يكون بمثابة الأرض أو التربة مع تضمين أنظمة الجذور فى كل حالة، وتظهر غواصات فى بحر المانش مرسومة باللون الأخضر، وأرسم صورة لوجه فتاة تجلس عبر الممر من ناحيتى، الغارات الجوية المتلاحقة **Blitz** مستمرة وتسقط القنابل من خلال الهواء مثل ملائكة فضية آثمة، ولندن تتفكك كتلة وراء كتلة ومنزلاً وراء منزل وتنهار المستوقدات والمداخن والأسرة المزدوجة ذات الأويمات المحفورة يدويًا كنوع من الزخرفة وكل الأشياء تلقى فى أتون الجحيم ويتحول التاريخ إلى أجزاء متناثرة من آنية فخارية، ويقول المدرس: " لقد كان ذلك بمثابة نهاية لحقبة زمنية" وهو يقول إنه من الصعب علينا أن نفهم وندرك جوانب الموقف، ولكن شيئًا لن يصبح أبدًا على ما كان عليه من قبل، وهو متأثر للغاية ومنفعل تمامًا، وأنخرط فى التفكير، وما هو النحو الذى كانت عليه الأشياء من قبل ؟

إننى لا أصدق أننى أنا نفسى كنت على قيد الحياة عندما كانت تحدث كل تلك الأشياء المكتوبة بالطباشير على السبورة، وكل تلك الوفيات المسجلة فى إحصائيات، كنت على قيد الحياة عندما كانت النساء يرتدين تلك الملابس السخيفة التى لها وسائد للكتف ضخمة ولها خصر نحيل مع ارتداء ببلوس أو شال على العجيزة شبيه بمريلة خلفية، أرسم امرأة لها كتفان عريضتان وعلى رأسها قبعة عريضة الحافة، ثم أقوم برسم يدى ذاتها، ورسم الأيادى صعب للغاية؛ إذ من الصعب أن تجعلها لا تبدو مثل مجموعات من السجق.

أخرج للنزهة مع أولاد، هذا ليس جزءًا من خطة واعية ومدروسة، ولكنه يحدث على نحو تلقائى، علاقاتى مع الأولاد سهلة وعفوية ومنجزة من غير جهد وهذا يعنى أننى أبذل جهودًا ضئيلة للغاية فى هذه العلاقات، أما البنات فإننى أشعر نحوهن بالارتباك، ومع البنات أشعر أنه ينبغى على أن أدافع عن نفسى فى مواجهتهن، وهذا لا يحدث مع الأولاد، أجلس فى غرفة نومى وألتقط كرات الزغب من السويتر الخاص بى المصنوع من صوف الحمل وبعدئذ يدق جرس التليفون، إنه سيكون ولداً، آخذ معى السويتر وأذهب إلى الصالة التى يوجد بها التليفون وأجلس على كرسى الصالة مع احتضان سماعة التليفون ما بين أذنى وكتفى وأستمر فى التقاط كرات الزغب، بينما محادثة طويلة تدور وتتخللها فترات مطولة من الصمت.

الأولاد بطبيعتهم يلزمهم هذه الفترات من الصمت؛ إذ لا ينبغى ترويعهم فجأة بسيل من الكلمات التى تقال بسرعة كبيرة للغاية، وما يقولونه من كلام ليس هو الشىء المهم، فالأجزاء المهمة من الكلام تتمثل فى فترات الصمت التى تتخلل الكلمات، أعرف الشىء الذى يبحث عنه كل منا، ، فكلانا يبحث عن الهروب، الأولاد يرغبون فى الهروب من اليافعين والأولاد الآخرين، وأنا أريد أن أهرب من اليافعات والمراهقات والبنات الأخريات، فنحن نبحث عن جزر صحراوية سريعة الزوال وغير حقيقية، ولكنها موجودة هنالك.

والدى يمشى الهوينى فى غرفة المعيشة مخشخشًا بمفاتيحه وبالنقود الصغيرة المعدنية الموجودة فى جيوبه، إنه يشعر بالقلق ونفاد الصبر، إنه لا يستطيع تحمل سماع هذه المقاطع من الكلمات وهذه الهمهمات وفترات الصمت، يسير خارجًا إلى الصالة ويشير لى بحركات مستخدمًا أصابعه بما يعنى أنه ينبغى على إنهاء المكالمة، فأقول: " ينبغى على أن أذهب الآن "، فيصدر الولد صوتًا شبيهًا بهواء يخرج من أنبوبة داخلية، فأفهم المعنى.

أقرأناكموه

أعرف أشياء عن الأولاد، وأعرف ما يدور فى داخل رؤوسهم عن البنات والنساء، ، وهى أشياء لا يمكن لهم الاعتراف بها لأولاد آخرين أو لأى شخص ؛ فهم يخافون من الأمور التى تتعلق بأجسادهم ويشعرون بالخجل من الكلام الذى يقولونه فى هذا الشأن ويخشون من احتمال أن يتم السخرية من كلامهم، وأنا أعرف نوعية الكلام الذى يدور بينهم لدى تسكعهم فى أرجاء الغرف الخاصة بهم ويدخنون السجائر خلسة، الكلمات التى يطلقونها على البنات هى : المرأة-المذهولة، الكلبة، ضرع البقرة، المومس، علاوة على كلمات أسوأ من ذلك، وهذه الكلمات لا تعنى بالضرورة أنهم لا يحبون البنات الحقيقيات الصادقات أو بنتًا واحدة صادقة.

ولا أعتقد أن أى كلمة من تلك الكلمات تنطبق علىَّ، فهى كلمات تنطبق على فتيات أخريات... فتيات يسرن فى صالات المدرسة الثانوية مع تطوح شعرهن وهز أردافهن كما لو كن يعتقدن أنهن مغريات للرجال مع التحدث بصوت مرتفع للغاية وفى غير اكتراث مع بعضهن البعض، أو بدلاً من ذلك يمثلن دور الفتاة الممتازة الرقيقة الساذجة البريئة.

هذا هو ما أعرفه عن الأولاد بوجه عام، ولاشىء من هذا له علاقة بالأولاد الذين أخرج معهم، فهؤلاء الأولاد يكونون عادة أكبر منى فى السن وليسوا من النوع الذى له شعر على شكل ذيل البطة وإنما هم أفضل من ذلك النوع بكثير، وعندما أخرج للنزهة معهم يفترض لى أن أعود إلى منزلى فى الوقت المحدد، فإذا لم أعد فى الوقت المحدد يعقد والدى مناقشات مطولة معى يوضح خلالها أن العودة إلى المنزل فى الوقت المحدد هو أمر يشبه الذهاب إلى محطة السكة الحديد فى الوقت المحدد من أجل السفر بالقطار، فإذا ذهبت فى موعد متأخر عن موعد القطار، فلن ألحق بالقطار، أليس كذلك ؟ فأقول: " ولكن المنزل ليس قطارًا، فهو

لن يتحرك ذاهبـاً إلى أى مكان " فيظهر السخط والاستياء على والدى ويخـشخش بمفاتيحه فى جيبه ويقول: " كلامك هذا ليس وثيق الصلة بالموضوع ".

وما تقوله أمى هـو: " نحن نشعر بالقلق "، فأقول: " القلق بشـأن مـاذا ؟ "، لا يوجد شيء ما يبعث على القلق من وجهة نظرى وبقدر ما أدرك مـن جوانـب الموقف.

* * *

والداى يشكلان عائقًا فى هذا الشأن مثلما هـو الحال فى أمور أخرى، فهمـا لا يرغبان فى شراء جهاز تليفزيون مثل ما يفعل أى شخص معتل العقل ويطلـق إشعاعًا ضارًا علاوة على بث رسائل دون مستوى الوعى، وعندما يجـيء الأولاد إلى منزلنا من أجل التقاطى واصطحابى يبزغ والدى من البدروم مرتديًا قبعة اللباد الرمادية الخاصة به وممسكًا بمطرقة أو بمنشار ويصافحهم بقوة بيده التـى تـشبه مخلب الدب، ويقوم بتقييمهم بعينيه الذكيتين اللامعتـين الـساخرتين الـصغيرتين ويخاطبهم بكلمة " سير **sir** " أو " سيدى " كما لو كانوا من تلاميذه الذين تخرجـوا من الجامعة، وتبدو والدتى لطيفة معهم ولا تقول أى كلام تقريبًا، أو تقول لى إننى أبدو جميلة وذلك أثناء وجود الأولاد.

وفى فصل الربيع يظهران عند زاوية المنزل وقد ارتديا البنطلون الفـضفاض الخاص بالعمل بالحديقة والذى تلوث بالطين، لكى يودعانى حتى الباب الخـارجى، ويجران الأولاد إلى الفناء الخلفى؛ حيث يوجد الآن كومة من بلوكات الأسمنت التى جمعها والدى من أجل مواجهة احتمال حدوث شيء ما مـستقبلاً، وهمـا يريـدان للأولاد أن يشاهدوا نباتات السوس التى قاما بزراعتها كما لو كان الأولاد سـيدات طاعنات فى السن، ويضطر الأولاد لأن يقولوا بعض التعليقات عن نباتات السوس

أقرأناكموه

رغم أنها بمثابة آخر شيء يدور فى أذهانهم ويستحوذ على أفكارهم، أو بدلاً من ذلك يحاول والدى إقحامهم فى مناقشات تتعلق بالأحداث والموضوعات المهمة الجارية، أو يسألهم عما إذا كانوا قد قرأوا هذا الكتاب أو ذاك مع جذب الكتب من الأرفف الخاصة بها بينما الأولاد ينتقلون بأقدامهم فى بطء، لكى يشاهدوا عناوين الكتب، وفيما بعد يقول الأولاد لى فى شيء من الارتباك: " والدك شخص ذكى وغريب الأطوار، ومن ثم فهو ينجح فى جذب الانتباه إليه ".

والداى مثل الإخوة والأخوات الأصغر سنًا، الأكثر فقرًا الذين تكون وجوههم قذرة ويفشون أسرارًا فى غير تفكير وتدبر لا يمكن توقعها أو السيطرة عليها، أتنهد وأبذل غاية جهدى رغم المصاعب، وأشعر أننى أكبر منهما بكثير فى السن، أشعر أننى عتيقة وقديمة وموغلة فى القدم.

* * *

لا أفعل مع الأولاد أى شيء يدعو للقلق ؛ فالأمور تسير على نحو طبيعى وسوى، نذهب إلى دور السينما؛ حيث نجلس فى القسم المخصص للمدخنين ونتعانق فى قبلات، أو نذهب إلى المسارح ونأكل الفشار ونتعانق أيضًا أثناء مشاهدتنا للعروض على المسرح، وهناك قواعد للتقبيل نحرص على الالتزام بها : الاقتراب والدفع بعيدًا ثم الاقتراب والدفع بعيدًا، ولا يوجد تمادٍ نحو التديين وممنوع الاقتراب من السوسته التى تغلق الملابس، وفم الأولاد له طعم السجائر والأملاح وبشرتهم لها رائحة لوسيون ما بعد الحلاقة الذى يسمى أولد سبايس **Old spice**، ونذهب إلى صالات الرقص وندور فيما حولنا، وبعد الانتهاء من هذا الرقص الرسمى نذهب إلى منزل أحد هؤلاء الأولاد أو نذهب إلى مطعم تشارلز، وبعدئذ نمارس التقبيل مرة أخرى، ولكن لفترة غير طويلة لأن الوقت يكون قد تسرب

عادة، ومن أجل الرقصات الرسمية أرتدى فساتين من النوع الذى قمت بحياكته بنفسى، لأننى لا أستطيع شراء فساتين الرقص الغالية الثمن.

أخى ستيفن يعامل هؤلاء الأولاد فى احتقار، ويعتقد أنهم يتسمون بالبلاهة والغباء، وأنهم غير جديرين باهتماماتى الجادة، ويسخر منهم من وراء ظهورهم كما يهزأ من أسمائهم، فأسماؤهم ليست جورج **George** وإنما جورجى _ بورجى **Georgie - porgie** وليست روجر **Roger** وإنما روفر **Rover**، ويراهن على الفترة الزمنية التى يمكن لكل واحد منهم أن يستمر عليها، فيقول عقب مشاهدة الولد لأول مرة: " هذا الولد سوف يستمر فى صداقته معك لمدة ثلاثة شهور " أو يقول: " متى ستتخلصين منه؟ "، لا أكره أخى بسبب قوله ذلك الكلام، فأنا أتوقع منه أن يقول كلامًا مثل هذا، لأنه على صواب إلى حد ما، مشاعرى نحو هؤلاء الأولاد تختلف عن المشاعر التى تحس بها البنات والتى توجد فى الكتب الكوميدية الرومانسية الصادقة، لا أجلس مسائلة نفسى : ترى متى سيتصلون بى تليفونيًا؟ إننى أشعر بالارتياح نحوهم ولكنى لا أقع فى حبهم، ولا تنطبق على الأوصاف الواردة فى مجلة " تحت سن العشرين " عن البنات اللاتى يمسحن دمعة ساقطة على خد مثل قرط من اللؤلؤ؛ ولذلك فالأولاد لا يشكلون مسألة خطيرة ومهمة بالنسبة لى إلى حد ما، ولكنهم فى الوقت نفسه يكونون كذلك.

الجزء المهم والخطير يتعلق بأجسامهم، أجلس فى الصالة مع احتضان التليفون ما بين أذنى وكتفى، وعندئذ يكون ما أسمعه هو أجسادهم، إننى لا أستمع كثيرًا للكلمات، وإنما أصغى لفترات الصمت التى تتخلل الكلمات، وفى فترات الصمت هذه تعيد هذه الأجساد تشكيل أنفسها وتتخذ شكلاً جديدًا قد خلق بمعرفتى، عندما أشعر بالوحشة نحو الأوقات، فإن أجسادهم هى التى أفتقدها، إننى أدرس أيديهم وهى ترتفع بالسجائر فى ظلام السينما والمسارح وأدرس انحدار كتف وزاوية ردف، ومع إلقاء نظرات جانبية عليهم، أقوم بتفحصهم تحت أضواء

أقرأناكموه

مختلفة، حبى لهم هو حب مرئى، ذلك هو الجزء الخاص بهم الذى أود أن أمتلكه، أنخرط فى التفكير : لا تتحرك.. عليك بالبقاء على ذلك النحو... دعنى أستوعب هذه اللقطة، النفوذ والسلطان الذى يمارسونه على يتم من خلال عينى، وعندما أشعر بالسأم منهم، فإن ذلك يكون بمثابة إرهاق فيزيقى من بعض النواحى، ولكنه أيضًا إرهاق بصرى من نواحى أخرى.

بعض من هذا فقط له علاقة بالجنس، وبعض هؤلاء الأولاد يمتلكون سيارات والبعض الآخر لا يمتلك سيارات ولذلك أستقل معهم الأتوبيسات والترام على الطريق الفرعى المفتتح حديثًا لتورونتو الذى يتسم بالنظافة وعدم كثافة حركة المرور، هؤلاء الأولاد يصطحبوننى فى رحلة العودة إلى منزلى سيرًا على الأقدام على الطريق المؤدى إلى منزلى، تنبعث من الهواء رائحة نباتات الليلج العطرة أو رائحة الحشائش المقطوعة أو رائحة أوراق الأشجار المحروقة؛ حيث يتوقف ذلك على الموسم، ونسير على كوبرى المشاة الأسمنتى الجديد بينما أشجار الصفصاف تتقوس فوق رؤوسنا وأصوات خرير المياه الجارية بالجدول المائى تترامى من تحتنا، نقف تحت الضوء المعتم الصادر عن أعمدة الإنارة على الكوبرى، ونستند على الدرابزين بينما أذرعهم تلتفّان حولى وذراعاى تلتف حولهم، ونرفع ملابس بعضنا البعض ونجرى بأيدينا على العمود الفقرى الخاص ببعضنا البعض، فأشعر أن عمودى الفقرى متوتر ومشدود وعلى وشك الانكسار، أحس بطول الجسد بأكمله وألمس الوجه وأنا مندهشة ، أوجه الأولاد تتغير كثيرًا؛ إذ تصبح لينة وضعيفة وتتفتح وتصدر آلام عنها، الجسد هو طاقة محضة وهو ضوء متجسد على هيئة مادة صلبة.

* * *

يتم العثور على فتاة مقتولة فى أسفل الوادى الصغير الضيق الشديد الانحدار، ليس فى الوادى القريب من منزلنا ولكن فى فرع له أكبر حجمًا فى اتجاه الجنوب وإلى ما وراء المبانى المشيدة بالقرميد حيث نهر الدون Don River الذى تصطف على ضفتيه أشجار الصفصاف والأشياء الخردة، وبعض القاذورات تشق طريقها فى التواء بطىء وراكد نحو البحيرة، ليس من المتوقع لمثل هذه الأمور أن تحدث فى تورونتو التى يترك الناس فيها أبوابهم الخلفية دون إغلاقها بالقفل ويرفعون المزلاج فى نوافذهم بالليل، ولكن هذه الأمور تحدث بالفعل على ما يبدو، وهذا الخبر يظهر على الصفحات الأولى بجميع الصحف والجرائد.

وهذه الفتاة من عمرنا نفسه، وتم العثور على دراجتها فى مكان قريب من جثتها، لقد خنقت علاوة على إزعاجها ومضايقتها والتحرش بها molested، نحن نعرف معنى كلمة : molested، توجد صور فوتوغرافية لها عندما كانت على قيد الحياة، وهى صور يوجد بها بالفعل ذلك الشكل الشبحى الذى تتخذه مثل هذه الصور عادة عقب مرور سنوات، ألا وهو شكل الزمن المنصرم فى تلاشٍ والذى لا يمكن استعادته أو تجديده أو ترميمه، ويوجد وصف تفصيلى لملابسها، لقد كانت ترتدى سويترًا مستوردًا من أنقرة وياقة صغيرة من الفراء بها كرات صوفية صغيرة من أجل الزينة ومن النوع الذى يساير الموضة السائدة، وأنا ليس لدى ياقة كهذه، ولكنى أتمنى أن أمتلك واحدة من هذا النوع ، ياقتها كانت بيضاء ولكن هناك ياقات من النوع نفسه مصنوعة من فرو حيوان المنك، وكانت ترتدى بروسن فوق السويتر على هيئة طائرين لهما جواهر زجاجية حمراء فى أماكن الأعين، وهى من النوع الذى يمكن أن ترتديه أى فتاة لدى الذهاب للمدرسة، كل هذه المعلومات التفصيلية عن ملابسها تصدمنى من حيث هى شىء متسم بالظلم والإجحاف، رغم أننى أقرؤها فى نهم، فمن الظلم على ما يبدو أن تخرج للنزهة ذات يوم وأنت مرتدٍ

أقرأناكموه

ملابسك العادية، ثم يتم اغتيالك على نحو فجائى، ثم يجىء كل هؤلاء الناس لكى ينظروا إليك ويتفحصوا جسدك، فالاغتيال ينبغى أن يكون متسمًا أكثر بالطابع الرسمى الشعائرى.

كنت قد طردت من ذهنى فكرة وجود أناس أشرار فى الوادى الضيق المنحدر منذ فترة طويلة، ونظرت إلى هؤلاء الناس الأشرار على أنهم بمثابة قصة عن **scare crow** " الغراب النواح " من تأليف الأمهات، ولكن يبدو أن هؤلاء الأشرار موجودون بالفعل على الرغم منى.

هذه الفتاة المقتولة تسبب لى القلق والانزعاج، عقب الصدمة الأولى لا أحد بالمدرسة يقول كلامًا كثيرًا عنها، وحتى كورديليا لا ترغب فى التحدث عنها، الأمر يبدو وكأن هذه الفتاة قد ارتكبت شيئًا ما متسمًا بالعار بنفسها من خلال تعرضها للاغتيال والموت؛ ولذلك فهى تذهب إلى ذلك المكان الذى تذهب إليه كل الأشياء التى لا يمكن ذكرها أو التحدث عنها وتأخذ معها شعرها الأشقر وسويتر أنقرة الخاص بها وأشياءها الاعتيادية الخاصة بها، وهى تحرك شيئًا ما مثل أوراق الشجر الميتة، أفكر فى دمية كنت أمتلكها ذات يوم لها فراء أبيض اللون على حاشية تنورتها، وأتذكر أننى كنت خائفة من هذه الدمية، لم أكن قد فكرت فى ذلك منذ سنوات.

* * *

أجلس أنا وكورديليا إلى منضدة الطعام من أجل إنجاز الواجب المدرسى الذى يؤدي بالمنزل، إننى أساعد كورديليا، إننى أحاول أن أشرح الذرة لها، ولكنها ترفض أن تأخذ هذا الموضوع مأخذ الجد والاهتمام، الرسم التخطيطى للذرة به نواة وتحيط الإلكترونات بالنواة، النواة تشبه كوكب زحل **Saturn** كورديليا تدفع بلسانها إلى جانب فمها وتنظر فى تجهم إلى النواة وتقول: " هذه تشبه ثمرة

الفراولة"، فأقول: " يا كورديليا، سيعقد الامتحان غدًا " الجزيئيات molecules لا تثير شغفها، ويبدو عليها أنها غير قادرة على فهم واستيعاب الجدول الدورى periodic table وهى ترفض أن تفهم الكتلة mass وترفض أن تفهم السبب الذى يجعل القنابل الذرية تنفجر، توجد صورة لقنبلة ذرية منفجرة فى كتاب الفيزياء على شكل سحابة تشبه عش الغراب، وهذه الصورة بالنسبة لها هى مجرد قنبلة أخرى، فأقول لها: " الكتلة والطاقة هما مظهران مختلفان "، وأضيف: " وذلك هو السبب فى أن الطاقة = الكتلة فى مربع سرعة الضوء E = mc 2"، وتقول: " كان الأمر سيصبح أكثر سهولة لو لم يكن بيرسى ذا برود percy the prude شخصًا بغيضًا إلى هذه الدرجة "، وبيرسى ذا برود هو مدرس الفيزياء، وهو له شعر أحمر يقف منتصبًا فوق قمة رأسه مثل شعر وودى وودبيكر بالإضافة إلى أنه يتلعثم فى الكلام بطريقة صبيانية.

ستيفن يدخل إلى الغرفة وينظر من فوق أكتافنا، ويقول فى تساهل وتسامح: "إذن فهم مازالوا يدرسون لكم الفيزياء المبسطة الخاصة بالأطفال الصغار، وهم مازالوا يرسمون الذرة لكى تبدو شبيهة بثمرة الفراولة "، وتقول كورديليا: " أترى هذا الموضوع مقبولاً أو جذابًا ؟ ".

فأشعر بالتدمير، وأقول لكورديليا: " موضوع الذرة هذا سيجىء فى الامتحان؛ لذلك يجب عليك أن تتعلميه "، ثم أقول لستيفن: " إذن على أى نحو تبدو الذرة فى حقيقة الأمر ؟ ".

فيقول ستيفن: " مساحة من المكان الشاغر، بل ولا تكاد الذرة أن تكون موجودة على الإطلاق، إنها مجرد مجموعة من الأشياء القليلة المتناهية الصغر الممسوكة فى مكان من خلال قوى، وعند المستوى الأصغر من الذرة subatomic لا يمكن مجرد القول بأن المادة موجودة، وإنما يمكن القول إن المادة تميل لأن توجد".

أقرأناكموه

فأقول: " أنت بهذا الكلام تسبب التشويش لكورديليا " وكانت كورديليا قد أشعلت سيجارة وانهمكت فى النظر إلى الخارج من خلال النافذة؛ حيث راحت بعض حيوانات السنجاب تطارد بعضها البعض فى أرجاء مساحة المروج الخضراء، إنها لا تنتبه لأى كلام يدور بينى وبين أخى.

وينظر ستيفن إلى كورديليا فى تأمل وتفكير، ثم يقول: " كورديليا لديها ميل لأن توجد".

* * *

كورديليا لا تخرج مع الأولاد بالطريقة نفسها التى أتبعها، على الرغم من أنها تخرج بالفعل مع الأولاد، ونادرًا ما أقوم بعمل ترتيبات لموعدين غراميين من خلال الولد الذى أخرج معه، ودائمًا ما يكون الموعد الغرامى لكورديليا مع ولد له أهمية منخفضة فتدرك هذه الحقيقة وترفض الموافقة على الخروج معه.

على ما يبدو لا تستطيع كورديليا أن تحدد نوعية الولد الذى ترغب حقًّا فى الموافقة على الخروج معه، فالأولاد الذين لهم قصة شعر أخى يتسمون بالإزعاج والسذاجة، والأولاد الذين لهم تسريحة ذيل البطة يلمعون بالزيوت، وإن كانت بهم جاذبية جنسية، وهى تعتقد أن الأولاد الذين أخرج معهم والذين لهم قصة شعر البحارة يتسمون بالطابع الصبيانى أكثر من اللازم مما لا يتلاءم معها، وهى قد تخلت عن أحمر الشفاه الشديد الاحمرار، وعن طلاء الأظافر وعن الياقات المقلوبة لأعلى، واهتمت بالألوان الحمراء الوردية المعتدلة علاوة على الالتزام بالحمية **diet** أو الرجيم فى الطعام.

ولكن هناك شىء ما بها يجعل الأولاد يشعرون بعدم الارتياح نحوها، الأمر يبدو وكأنها تكون منتبهة إليهم أكثر من اللازم ومؤدبة معهم للغاية ومبالغة فى كل شىء، فهى تضحك عندما تظن أنهم قالوا نكتة وتقول: " هذه نكتة ظريفة للغاية "

وهى تقول ذلك عندما لا يهدفون إلى قول نكتة، وبالتالى فإنهم لا يكونون متأكدين مما إذا كانت تسخر منهم أم لا، وبعد أن ننتهى من تناول الهامبورجر والأطعمة المشوية تلتفت نحو الأولاد وتقول لهم فى إشراق مع استخدام كلمة جديدة من ابتكارها: " هل حصلتم على ما فيه الكفاية من الطعام **sophonsified** ؟ ".

وتوجه إليهم أسئلة إيجابية **leading questions** وتحاول أن تجرهم إلى الدخول فى محادثات مثلما يفعل الناس الأكبر سنًا، ويبدو عليها أنها لا تعرف أن أفضل شىء مع هؤلاء الأولاد هو أن تدعهم يعيشون فى حالات الصمت الخاصة بهم مع النظر إليهم فقط من زاويتى عينيها، وكورديليا تحاول أن تسدد إليهم نظرات جريئة مباشرة، فتخطف حملقتها أبصارهم وتجعلهم يتجمدون فى مواقعهم مثلما تفعل الأرانب لدى تعرضها للضوء الباهر الصادر عن المصابيح الأمامية للسيارات، وهى عندما تكون فى المقعد الخلفى معهم، فإننى أدرك – من خلال الأنفاس اللاهثة والشهقات – أنها تتمادى فى ذلك الاتجاه أيضًا ، ويقول الأولاد لى: " صديقتك هذه من نوع عجيب وغريب " ولكنهم لا يذكرون لى السبب فى ذلك، وأعتقد أن السبب فى ذلك هى أنها لا يوجد لها أخ، وليس لها سوى أخوات وهى تظن أن أهم شىء لدى الأولاد هو الكلام الذى تقوله لهم، فهى لم تعرف أبدًا التعقيدات والفوارق الدقيقة للغاية التى تتعلق بالصمت الذكورى.

ولكننى أعرف أن كورديليا غير مهتمة بالفعل بأى شىء يقوله الأولاد لها لأنها تخبرنى بذلك، وهى فى معظم الأحيان تعتقد أن الأولاد يتسمون بالغموض، ومحاولاتها الرامية إلى الدخول فى مناقشات معهم هى مجرد أداء تمثيلى زائف، وضحكاتها عندما تكون مع الأولاد تكون مهذبة ومنخفضة النبرة مثل ضحكات امرأة فى الراديو اللهم إلا إذا نسيت نفسها، وعندئذ تكون ضحكاتها عالية ومدوية للغاية، إنها تقلد شيئًا ما موجود فى داخل رأسها أو تقلد دورًا ما أو صورة ما تستطيع هى فقط مشاهدتها.

* * *

أقرأناكموه

فرقة " إيرل جراى المسرحية **Earle Grey players** " تجىء إلى المدرسة الثانوية الخاصة بنا مثلما تفعل كل عام، وهى تنتقل من مدرسة ثانوية لأخرى؛ ولذلك فهى فرقة معروفة، وفى كل عام تقوم بعرض احدى مسرحيات شكسبير، ودائمًا ما تكون هى المسرحية المقررة على الصف الثالث عشر وبالتالى فهى متضمنة فى الامتحانات على مستوى الإقليم، وهى الامتحانات التى ينبغى على المرء أن ينجح فيها لكى يسمح له بالالتحاق بالجامعة، ولا توجد مسارح كثيرة فى تورونتو حيث لا يوجد سوى مسرحين فى حقيقة الأمر ؛ ولذلك يذهب أناس كثيرون لمشاهدة هذه المسرحيات، فالأولاد يذهبون لمشاهدتها لأنها مقررة فى الامتحانات، وآباء الأولاد وأمهاتهم يذهبون أيضًا لمشاهدتها، لأنه فى الغالب لاتتاح لهم الفرصة لمشاهدة مسرحيات، وفرقة " إيرل جراى المسرحية " تتألف من السيد إيرل جراى الذى يمثل دور البطل دائمًا فى المسرحيات والسيدة إيرل جراى التى تقوم بدور البطلة، بالإضافة إلى ثلاثة ممثلين آخرين يعتقد أنهم من أولاد عم السيد إيرل جراى والذين يقومون بأكثر من دور فى المسرحية، أما باقى الأدوار فيؤديها الطلبة بالمدرسة الثانوية التى تعرض بها المسرحية فى ذلك الأسبوع، وفى العام الماضى كانت المسرحية هى : " يوليوس قيصر "، وكان على كورديليا أن تكون جزءًا من الجمهور، وكان عليها أن تلطخ وجهها بالفلين المحروق الأسود اللون وتلف نفسها فى ملاءة سرير مأخوذة من منزلها وتقول: " الغوغاء، ، الرعاع **rabble rabble** " أثناء مشهد الجمهور عندما يقوم مارك أنطونيو بإلقاء خطابه الجماهيرى.

أما فى هذه السنة فالرواية هى " ماكبيث "، وتقوم كورديليا بدور امرأة تقدم الطعام والشراب على المائدة، كما تقوم بدور جندى فى المشهد الخاص بالمعركة الفاصلة، وفى هذه المرة كان عليها أن تحضر سجادة من منزلها، وبالإضافة إلى أدوارها تقوم كورديليا بدور مساعدة للمخرج، فهى مسئولة عن ترتيب الأثاث والملابس والأشياء الأخرى كافة عقب كل أداء مسرحى بحيث تعيد النظام نفسه

دائمًا حتى يمكن للممثلين الإمساك بهذه الأشياء بسرعة خلف الستارة ويواصلون عملهم على الفور.

وفى أثناء البروفة التى استغرقت ثلاثة أيام تكون كورديليا فى حالة من الإثارة البالغة، فأنا أدرك ذلك من خلال تدخينها للسجائر الواحدة تلو الأخرى أثناء عودتنا من المدرسة إلى المنزل.

* * *

الوقت يمر ويزداد عمرانا، ثم نصبح ضمن أكبر التلاميذ سنًّا؛ إذ أصبحنا فى الصف الثالث عشر الدراسى، ويمكن لنا أن ننظر شذرًا وفى ازدراء وعدم مبالاة إلى التلاميذ الجدد الملتحقين بالمدرسة، أولئك الذين مازالوا أطفالاً مثلما كنا ذات يوم، ويمكن لنا أن نبتسم لهم، أصبحنا كبارًا على نحو يسمح لنا بدراسة علم الأحياء {البيولوچيا} والذى يتم تدريسة فى معمل الكيمياء، كورديليا لا تحب البيولوچيا مثلما كانت لا تحب الفيزياء التى نجحت فيها بأعجوبة أو بشق الأنفس ولكن عليها أن تدرس شيئًا ما من المواد العلمية وعلم الأحياء يعتبر أسهل بالنسبة لذهنها من عدد من المواد العلمية الأخرى.

يتم إعطاؤنا أدوات تشريح وسكاكين شبيهة بالمبضع {المشرط} وصوانى مغلفة بطبقة من الشمع فى قاعها وعبوات من الدبابيس، وفى بادئ الأمر يكون علينا أن نقوم بتشريح دودة، وتعطى لكل واحد منا دودة، ننظر إلى الرسم التوضيحى الذى يبين الأجزاء الداخلية للدودة والموجود فى الكتاب المدرسى الذى له عنوان " علم الحيوان " : هذا هو ما يفترض لنا أن نشاهده عندما نقوم بشق الدودة، الديدان تتلوى وتتملص فى الصوانى المدهونة بالشمع وتشق طريقها بصعوبة نحو الجوانب فى محاولة للخروج من الصوانى، الديدان لها رائحة الحفر الموجودة فى الأرض.

أقرأناكموه

أثبت الدودة الخاصة بى بالدبابيس على كلا الجانبين وأشقها شقًّا عموديًّا، تتلوى الدودة، أقوم بتدبيس جلد الدودة نحو الجوانب الخارجية، أستطيع مشاهدة قلب الدودة الذى لا يشبه شكل القلب، شريانها الرئيسى يضخ الدماء وجهازها الهضمى مليء بالطين، تقول كورديليا : " أوه، كيف أمكن لك أن تفعلى ذلك "، أعتقد أن كورديليا تصبح أكثر رقة وعاطفية، إنها تصبح مثل شخص ساذج وغبى، أقوم بتشريح دودتها نيابة عنها عندما لا يكون المدرس منتبهًا، ثم أقول بعمل رسم توضيحى للدودة مع كتابة الأسماء الخاصة بالأعضاء الداخلية.

وبعد ذلك يجيء الدور على الضفدعة، الضفدعة تركل وتعتبر أصعب من الدودة، وهى أشبه ما تكون بشخص يسبح، أقوم بتخدير الضفدعة باستخدام الكلوروفورم وفقًا للتعليمات فى هذا الشأن، ثم أشرّحها وأثبت الدبابيس، وأقوم برسم الأجزاء الداخلية لجسم الضفدعة بما فى ذلك الأشياء الملتفة اللولبية والأجزاء المنتفخة والرئتين الصغيرتين وقلبها البرمائى ذى الدم البارد.

ولا تستطيع كورديليا تشريح الضفدعة أيضًا، وتقول إنها تشعر بالغثيان فى معدتها لمجرد التفكير فى وضع المشرط على جلدها، وتنظر إلى فى شحوب وقد اتسعت عيناها، رائحة الضفدعة تحدث تأثيرات سيئة عليها، أقوم بتشريح ضفدعتها نيابة عنها، إننى ماهرة فى إنجاز هذا العمل.

إننى أحفظ عن ظهر قلب أكياس الموازنة فى سمكة الأربيان وخياشيمها وأجزاء فمها، كما أستظهر جهاز الدورة الدموية للقطة، والمدرس الذى هو عادة يعمل كمدرب لفريق كرة القدم للأولاد والذى حصل مؤخرًا على دراسة صيفية فى علم الحيوان مما جعله يدرس لنا هذا العلم، يصدر أوامره بإحضار قطة ميتة من أجلنا مع ضخ عصارة نباتية وردية اللون وزرقاء اللون فى شرايينها وأوردتها، ويشعر بالإحباط لدى وصول جثة القطة، لأنها تكون متعفنة تمامًا وكريهة الرائحة للغاية، رغم وضع مادة الفورمالدهايد عليها ؛ لذلك يتقرر عدم قيامنا بتشريحها والاكتفاء باستخدام الرسم التوضيحى الموجود فى الكتاب المدرسى.

ولكن الديدان والضفادع والقطط ليست كافية بالنسبة لى ؛ فأنا أريد المزيد، أذهب إلى مبنى علم الحيوان فى فترات ما بعد الظهر من أيام السبت لكى أستخدم الميكروسكوبات فى المعامل الشاغرة، وأنظر إلى الأسليدات والشرائح الملونة وأشاهد مقاطع الديدان المسطحة التى هى على شكل ورقة نبات وأشاهد البكتيريا التى صبغت بألوان زاهية وردية وأرجوانية وزرقاء، وهذه يتم إضاءتها من أسفل وتبدو جميلة للغاية وشبيهة بالزجاج الملون للنوافذ، أقوم برسمها بالأقلام ذات الألوان المختلفة، إن كنت لا أستطيع أن أحصل على ذلك التألق الوضاء اللامع نفسه.

السيد بانيرجى الذى أصبح الآن الدكتور بانيرجى يكتشف هذه الإنجازات التى أقوم بها، فيحضر لى شرائح ملونة يعتقد أننى أود مشاهدتها ويقدمها لى فى خجل وحماس وهو يضحك ضحكات تآمرية كما لو كنا نشارك معًا فى سر لذيذ أو شيء ما دينى.

فأقول له: " شكرًا جزيلاً " ثم ينظر إلى رسوماتى ويمسك بها من الطرف بأصابعه المقضومة ويقول: "إنها رائعة للغاية وممتازة يا آنسة" ويضيف: "سرعان ما ستحصلين على الوظيفة التى أشغلها".

إن له الآن زوجة قد جاءت من الهند وله طفل صغير، أشاهدهما فى بعض الأحيان وهما ينظران من خلال مدخل المعمل، الطفل ظريف ومتردد فى شكوك والزوجة تموج بالقلق والتوتر، إنها ترتدى فى أذنيها قرطًا ذهبيًّا علاوة على ارتداء وشاح به ترتر لامع، والزى السارى الأحمر اللون يظهر تحت معطفها الكندى الشتوى البنى اللون، بينما حذاؤها العلوى يبزغ أسفل السارى.

* * *

أقرأناكموه

كورديليا تجيء إلى منزلى وأنا أساعدها فى إنجاز الواجب المدرسى لعلم الحيوان الذى يؤدى فى المنزل، وتظل باقية عندنا لكى تتناول معنا طعام العشاء، ويقول والدى الذى يوزع يخنى لحوم البقر فى الأطباق إن الجنس البشرى سوف يتعرض للانقراض ذات يوم، ويقول إننا نقوم بتسميم الأنهار وتدمير أحواض الجينات الخاصة بكوكب الكرة الأرضية، ويقول إنه عندما ينقرض نوع **species** ما يتحرك نوع ما آخر لكى يملأ البيئة الأيكولوجية، وذلك لأن الطبيعة تكره المساحات الشاغرة، ويقول إن الأشياء التى تتحرك لتملأ الفراغ هى الأعشاب الضارة العادية المألوفة والصراصير والأرانب، وسرعان ما تصبح الأزهار كافة بمثابة هندباء برية، ويقول وهو يلوح بالشوكة الخاصة به بأننا إذا واصلنا التكاثر والتزايد كجنس بشرى، سيبزغ وباء جديد من أجل أن يصلح التوازن، وكل هذا سوف يحدث لأن الناس قد أهملوا وغفلوا عن الدروس الأساسية للعلم وانخرطوا فى السياسة والدين والحروب، وسعوا للحصول على أعذار عاطفية تبرر قيامهم باغتيال بعضهم البعض، ولكن العلم يتسم بالنزاهة وعدم التحيز، وهو بذلك يعتبر بمثابة اللغة العالمية الوحيدة، واللغة هى الأرقام، وعندما نغرق فى نهاية الأمر فى الموت والقمامة سوف نتطلع عندئذ إلى العلم لكى يزيل أوساخنا.

تصغى كورديليا إلى كل هذا الكلام وهى تتكلف الابتسام ؛ فهى تعتقد أن والدى ظريف وجذاب وغريب الشأن، أعتقد أنها تقول لنفسها : "هذا ليس هو الموضوع الذى ينبغى أن يتحدث الناس عنه على مائدة العشاء".

أذهب لتناول العشاء فى منزل كورديليا، وجبات العشاء بمنزل كورديليا لها نوعان : تلك الوجبات التى تقدم عندما يكون والدها بالمنزل، وتلك الوجبات التى تقدم عندما لا يكون والدها موجوداً، وعندما لا يكون موجوداً بالمنزل تتم الأمور فى تهور وكيفما اتفق، تجيء مامى **Mummie** إلى منضدة الطعام شاردة الذهن وهى مازالت مرتدية الثوب الخارجى الفضفاض الذى ترتديه أثناء ممارسة الرسم، كما تظهر بيردى وميرى وكورديليا فى الجينز الأزرق مع ارتداء قميص رجالى بينما

شعرهن فى العقصة الدبوسية pin- curl، ويقمن بالقفز من عند المنضدة والسير إلى المطبخ من أجل الحصول على المزيد من الزبدة أو الملح الذى نسى إحضاره منذ البداية، ويقمن بالتحدث فى آن واحد بطريقة واهنة مليئة بالتسلية ويتأوهن عندما يجىء الدور عليهن لكى يقمن بتنظيف المائدة بينما مامى mummie تقول: " الآن يا بنات " دون إدانة أو اقتناع راسخ، إنها تفقد الطاقة التى تعينها على الإحساس بالإحباط.

ولكن عندما يوجد والد كورديليا يكون كل شىء مختلفًا؛ إذ توجد الأزهار والورود على المنضدة وكذلك الشموع، وتكون مامى مرتدية اللآلىء الخاصة بها، ويكون ورق السفرة موجود على المائدة، ولا ينسى الملح أو أى شىء آخر، ولا توجد العقصة الدبوسية ولا توضع المرافقع على المنضدة، وحتى العمود الفقرى يكون مشدودًا فى اعتدال.

اليوم هو أحد أيام الشمعة، يجلس والد كورديليا فى صدر المائدة بحاجبى عينيه المليئين بالصخور والأجراف المتحدرة وبنظراته الشبيهة بنظرة الذئب، ويوجه نحوى القوى الكاملة لسحره المخيف المتسم بالسخرية والضجر.

ويقول لى: " ما الذى تدرسينه فى هذه الأيام ؟ " إنه أحد أسئلته الاعتيادية، وأى رد أقوله سيدخل عليه التسلية.

فأقول: " الذرة ".

فيقول: " آه، الذرة، إننى أتذكر الذرة، وماذا على الذرة أن تقول عن نفسها فى هذه الأيام؟ ".

فأقول بينما هو يضحك: " أى نوعية من الذرة ؟ " فيقول: " حقًا، أى نوع؟ "، ويضيف: " ذلك رائع للغاية " ربما هذا هو ما يريده، نوع من الأخذ والعطاء وتجاذب أطراف الحديث، ولكن كورديليا لا تشارك أبدًا فى الكلام لأنها تشعر بالخوف الشديد منه، وهى تخاف من ألا تتمكن من إدخال السرور عليه، ومع ذلك فهو غير

أقرأناكموه

مسرور، فقد شاهدت ذلك مرات عديدة وشاهدت جهودها المتعثرة المرتجفة الرامية إلى استرضائه، ولكن أى شيء تفعله أو تقول لا يكون كافيـاً لأنها على نحو مـا بمثابة الشخص الخاطئ.

أرقب هذا، وهذا يجعلنى أشعر بالغضب، ويجعلنى أرغـب فـى أن أركلهـا بقدمى، كيف يمكن لها أن تكون ذليلة ودنيئة إلى هذا الحد ؟ ومتى ستتعلم ؟

ترسب كورديليا فى امتحان نصف السنة فى علم الحيوان، لا يبدو عليها أنهـا تّهتم برسوبها، لقد أمضت نصف الوقت المخصص للامتحان فى رسـم رسـومات كرتونية للمدرسين العديدين بالمدرسة، وترينى هذه الرسومات أثناء العـودة مـن المدرسة للمنزل وهى منفجرة فى ضحكات جنونية مبالغ فيها.

* * *

أحيانًا أحلم أحلامًا تتعلق بالأولاد، وهذه الأحلام خالية من الكلام، إنها أحـلام تتعلق بالجسد، وتستمر هذه الأحلام معى على مدى دقائق عقب استيقاظى؛ حيـث أسترسل فيها ولكنى سرعان ما أنساها، وأشاهد أحلامًا أخرى أيضًا .

أحلم أننى لا أستطيع أن أتحرك، ولا أستطيع أن أمشى بـل ولا أسـتطيع أن أتنفس، أحلم أننى فى داخل الرئة الحديدية الخاصـة بـالتنفس الاصـطناعى، وأن الحديد مطبق حول جسدى مثل جلد أسطوانى ناشف، وأن هـذا الجلـد الحديـدى الناشف هو الذى يتنفس نيـابة عنى فى شهيق وزفير، إننى كثيفة القـوام وثقيلـة ولا أشعر بأى شيء آخر سوى هذا الثقل، رأسى يبزغ إلى خارج الرئة الحديديـة الاصطناعية، إننى أنظر لأعلى نحو السقف حيث يوجد هناك ضوء مثبـت شـبيه بقطعة من الثلج الضبابية المائلة إلى اللون الأصفر.

أحلم أننى أجرب ياقة فرائية أمام المرآة الموجودة على مكتبى، يوجد شـخص ما واقف خلفى، إذا تحركت لكى أتمكن من النظر إلى داخل المرآة، فإننى سأصبح

قادرة على النظر عبر كتفى دون أن أستدير، سأكون قادرة على مشاهدة ذلك الشخص الواقف ورائى.

أحلم أننى عثرت على كيس نقود من البلاستيك أحمر اللون مخبأ فى درج أو حقيبة سفر، أعرف أنه يوجد كنز فى داخل الكيس، ولكننى لا أستطيع فتح الكيس، أبذل محاولات مضنية متكررة وأخيرًا ينفجر الكيس مثل البالون، فأجده مليئًا بالضفادع الميتة.

أحلم أنه قد أعطى لى رأس ملفوفة فى فوطة بيضاء اللون، أستطيع مشاهدة الحواف الخارجية للأنف والذقن والشفتين من خلال القماش الأبيض، وكان بمقدورى أن أفك القماش لكى أعرف رأس من هذه، ولكنى لا أرغب فى إزاحة القماش لأننى لو فعلت ذلك ستدب الحياة فى الرأس مرة أخرى.

* * *

(٤٥)

تقول كورديليا لى إنها عندما كانت أصغر فى السن قامت بكسر الترمومتر، وأكلت بعض الزئبق الموجود به من أجل أن تصاب بمرض، وذلك لكى لا تضطر للذهاب للمدرسة، أو كانت تضع إصبعها فى داخل حلقها لكى تتقيأ أو كانت تمسك بالترمومتر بالقرب من لمبة كهربائية لكى تجعل الأمر يبدو وكأنها مصابة بارتفاع فى درجة الحرارة، وقد ضبطتها أمها وهى تفعل ذلك لأنها تركت الترمومتر بجوار اللمبة لفترة أطول من اللازم مما جعل الزئبق يصعد إلى ١١٠ درجة، وبعدئذ كان من الصعب للغاية أن تنجح محاولاتها الأخرى الرامية إلى الخداع.

أقرأناكموه

أسألها: " كم كان عمرك آنئذ ؟ " فتقول لى: " أوه، لا أعرف، أنت تعرفين السن الذى تفعلين فيه مثل تلك الأشياء ".

إنه يوم الثلاثاء فى منتصف شهر مايو، نجلس فى حجرة صغيرة فى مطعم صانى صايدز **Sunny sides**، هذا المطعم به كاونتر لنافورة الصودا مرقط بلون أحمر قانى وحواف صفراء كرومية وبه صف من الكراسى الدائرية التى ليس لها ظهر والتى تدور على حامل، والقاعدة السوداء لهذه الكراسى التى ربما لا تكون مصنوعة من الجلد تصدر صوتًا خفيفًا كالضراط عندما يجلس المرء عليها؛ ولذلك فإن كورديليا وأنا وجميع البنات لا نجلس عليها ونفضل الجلوس إلى المناضد بالحجرات الصغيرة، وهذا المطعم يجىء إليه طلبة برنهام **Burnham** عقب المدرسة لكى يدخنوا السجائر ويشربوا الكوكاكولا، إذا شربت كوكاكولا بعد أن تذيب بها قرصين من الإسبرين فإن ذلك من شأنه أن يجعلك مخمورًا، ولكن كورديليا تقول إنها قد جربت ذلك، وتقول إن ذلك لا يؤدى إلى الثمل الحقيقى الناجم عن تناول الخمور.

بدلاً من الكوكاكولا نشرب اللبن المخفوق باستخدام باغة القش الأسطوانية.

وتقول كورديليا: " ما الذى قالته الكتاكيت عندما باضت الدجاجة برتقالة ؟ "، كورديليا تقول هذا لأن هناك موجة من النكات المتعلقة بالقمح والدواجن منتشرة بالمدرسة، إنها نكات الدواجن ونكات المغفلين البلهاء، " لماذا قام المغفل الأبله بإلقاء ساعة الحائط من النافذة ؟ ... لكى يشاهد الزمن وهو يطير ".

أقول فى صوت ملىء بالسأم: " انظرى إلى مربَّى البرتقال " وأضيف: "ما الذى قاله المغفل عندما شاهد الحفرات الثلاثة بالأرض؟".

فتقول كورديليا التى تجد صعوبة فى تذكر النكات: " ماذا ؟ "

فأقول: " حسنًا، حسنًا، حسنًا ".

فتقول كورديليا: " ها.. ها.. ها.. "، جزء من هذه الطقوس هو السخرية الخفيفة من نكات الناس الآخرين.

تنهمك كورديليا فى نشاط عابث على المنضدة مستخدمة ماعنا المسكوب، ثم تقول: " أتذكرين تلك الحفر التى اعتدت أن أقوم بحفرها ؟ ".

فأقول: " ما هى تلك الحفر ؟ "؛ حيث لا أتذكر أية حفر من أى نوع، " الحفر التى حفرتها فى الفناء الخلفى الخاص بى، لقد بدأت فى حفر حفرة، ولكن الأرض كانت متحجرة للغاية ومليئة بالصخور؛ لذلك قمت بحفر حفرة أخرى فى مكان آخر، وقد اعتدت أن أعمل فى ذلك الحفر يومًا وراء يوم عقب العودة من المدرسة، وقد أصبت يداى ببثوت وتقرحات بسبب استخدام الجاروف ".

فأتساءل: " ولأى شىء كنت تريدين هذه الحفرة ؟ "- " كنت أريد أن أضع كرسيًا فى هذه الحفرة وأجلس فى العمق هناك، بمفردى ".

فأضحك وأقول: " ولماذا ؟ ".

"لست أدرى، أعتقد أننى كنت أريد الحصول على مكان يخصنى بمفردى، وبحيث لا يستطيع أى شخص أن يتجسس على، وعندما كنت صغيرة اعتدت على الجلوس على كرسى فى الصالة الأمامية، واعتدت أن أعتقد أننى إذا حرصت على البقاء فى سكون شديد بعيدًا عن الناس ودون أن أقول أى كلام فإننى سأصبح فى حالة من الأمن والأمان ".

فأقول: " فىْ حالة من الأمن إزاء ماذا ؟ ".

فتقول: " مجرد حالة من الأمن، وعندما كنت صغيرة للغاية أعتقد أننى كنت أقع فى كثير من المتاعب مع والدى، عندما كان يفقد صوابه، أنت لم تشاهديه أبداً عندما كان يفقد صوابه، وكان يقول لى: "أزيلى هذه الابتسامة المصطنعة فى تكلف عن وجهك"، وقد اعتدت أن أقف تحية له عندما يمر بجوارى، وتطفئ سيجارتها

أقرأناكموه

التى كانت تدخن فى بطء فى طفاية السجائر، وتضيف: " لقد كرهت انتقالنا إلى ذلك المنزل، وكرهت الأولاد الموجودين بمدرسة كوين مارى وكرهت تلك الأشياء المملة مثل النط على الحبل، وحقيقة الأمر أننى لا يوجد لى أى صديقات حميمات هناك باستثنائك أنت ".

ويتبدد وجه كورديليا فى تفكك ثم يتشكل من جديد، أستطيع مشاهدة وجهها القديم البالغ من العمر تسع سنوات وهو يتشكل تحت وجهها الحالى، هذا يحدث فى ومضة خاطفة، يبدو الأمر وكأننى كنت واقفة بالخارج فى الظلام فتطاير ظل لأعلى فوق نافذة مضاءة مما كشف عن الحياة التى كانت تدور فى الداخل بكل وضوحها وتفاصيلها، توجد تلك الومضة الخاطفة التى أستطيع الرؤية أثناءها، وبعدئذ لا أستطيع الرؤية.

موجة من الدماء تتصاعد إلى داخل رأسى وتتقلص معدتى كما لو أن شيئًا ما خطيرًا قد أخطأ فى إصابتى، كما لو أننى قد ضبطت متلبسة بجريمة السرقة أو بقول الكذب، أو كما لو كنت قد سمعت أناسًا آخرين يتحدثون عنى ويقولون أشياء رديئة عنى من وراء ظهرى، يوجد الاحتقان نفسه المتعلق بالعار والذنب والرعب والمتعلق بالاشمئزاز الشديد من نفسى، ولكنى لا أعرف من أين جاءت هذه الأحاسيس ولا أعرف ما الذى فعلته.

ولا أريد أن أعرف، ومهما كان ذلك الأمر فهو شىء لا أحتاجه ولا أريده، إننى أريد أن أكون هنا فى يوم الثلاثاء فى شهر مايو جالسة فى الحجرة أو المقصورة ذات القمة الحمراء بمطعم صانى صايدز مع مراقبة كورديليا لدى امتصاصها آخر كمية من اللبن المخفوق من خلال أنبوبة القش، إنها لم تلحظ أى شىء.

أقول: " لدى نكتة "، وأضيف: " لماذا قام الكنكوت غير المغسول بعبور الطريق مرتين ؟ ".

فتقول كورديليا: " لماذا ؟".

فأقول: " لأنه كان قذرًا وخائنًا لرفيقته **double-crosser**، فتقلب كورديليا عينها ناظرة فى اتجاه آخر على نحو متواصل مثلما تفعل بيردى وتقول: " هـذه النكتـة مضحكة للغاية ".

أغلق عينى، فى داخل رأسى يوجد مربع من الظلام ومربع من الأزهار الأرجوانية اللون.

* * *

(٤٦)

أبدأ فى تجنب كورديليا، لا أعرف السبب فى ذلك، لم أعد أرتب مواعيد مزدوجة معها، أقول لها إن الولد الذى أخرج معه لا يوجد له أى أصدقاء ملائمين، وأقول لها إننى أضطر للبقاء بالمنزل عقب انتهاء اليوم المدرسى وهذه حقيقة، فأنا أقوم برسم وطلاء الديكورات من أجل الرقصة التالية وأشجار النخيل والبنات المرتديات التنورات الخاصة برقصة الهولا الوطنية لجزر هاواى.

فى بعض الأيام تنتظرنى كورديليا؛ لذلك أضطر لأن أعود إلى المنزل معها على كل حال، إنها تتحدث وتتحدث كما لو لم يكن هناك أى شىء خاطىء وأنا أتحدث بكلام قليل، وبعد مرور بعض الوقت فإنها تقول: " لقد تحدثت عن نفسى بكلام كثير، فماذا عنك وعن أحوالك ؟ " فأبتسم وأقول: " الأمور على ما هى عليه، ليس هناك الكثير من الأشياء الجديدة **nothing much** ".

* * *

أقرأناكموه

كورديليا ترسب فى المزيد والمزيد من الامتحانات، ويبدو أن هـذا الرسوب لا يزعجها أو على أية حال لا ترغب هى فى التحدث عن موضوع رسوبها، لم أعد أساعدها فى إنجاز الواجب المدرسى الذى يؤدى بالمنزل لأننى أدرك أنها ليست على استعداد للإصغاء لى إذا حاولت مساعدتها، إنها تجد مشقة فى تركيز ذهنها على أى شىء، وحتى عندما تتحدث أثناء العودة من المدرسة إلى المنزل، فإنها تغير موضوع الحديث فى منتصف جملة واحدة مما يجعل من الصعب تتبع الكلام الذى تقوله.

يتقرر بأنه من الأفضل لكورديليا أن تلحق بمدرسة أخرى مرة ثانية؛ ولذلك فهى تفعل ذلك، وبعدئذ تتصل بى تليفونيًا من وقت إلى آخر ولكن اتصالاتها تقل تدريجيًا، وهى تقول إننا ينبغى علينا أن نلتقى فى خلال فترة قصيرة وأنا لا أرفض ذلك على الإطلاق، ولكننى مع ذلك لا أحـدد موعدًا للالتقاء، وبعد برهة أقول: "إننى مضطرة للذهاب الآن ووضع سماعة التليفون".

وتنتقل عائلة كورديليا إلى منزل آخر أكثر اتساعًا يقع فى حى راقٍ موجود على مسافة أبعد شمالاً، ويسكن بعض الناس الهولنديين فى منزلها القديم، ويقومون بزراعة الكثير من نباتات التوليب، ويبدو ذلك وكأنه بمثابة انتهاء العلاقات مع كورديليا.

* * *

أؤدى الامتحانات النهائية للصف الثالث عشر المدرسى، مادة وراء مادة ويومًا بعد يوم وأنا جالسة فى الچيمنازيوم { مبنى مخصص للألعاب الرياضية }، أوراق الأشجار بازغة تمامًا ونباتات السوس فى حالة إزهار، وتوجد موجة من الطقس الحار، وتدب السخونة فى مبنى الچيمنزيوم مثـل الفرن، ونحن جميعًا نجلس هنالك نتصبب عرقًا وننهمك فى كتابة الإجابات على الأسئلة بينما الچيمنزيوم يبث وينفث

رائحة اللاعبين الرياضيين القدماء، ويقوم المدرسون بالسير فى بطء فى الطرقات والممرات من أجل المحافظة على النظام والأمن، ويتعرض الكثير من الفتيات لحالات من الإغماء، ويقع ولد واحد مغشيًّا عليه فى حالة إغماء ويتضح فيما بعد أنه قد شرب إبريقًا مليئًا بعصير الطماطم كان موجودًا بالثلاجة، ولكنه فى حقيقة الأمر كان مليئًا ببلادى ماريز **Bloody Marys** من أجل نادى البريدج الخاص بوالدته، وبينما كان يتم نقل الأجساد المغمى عليها إلى الخارج، فإننى لم أرفع بصرى عن الصفحة إلا فيما ندر.

وأعرف أننى سأجيب بإجابات ممتازة فى الامتحانين الخاصين بالبيولوجيا، فأنا أستطيع أن أرسم أى شىء، الجوانب الداخلية لأذنى سمكة الأربيان { جراد البحر } والعين البشرية والأعضاء التناسلية للضفادع وزهرة نبات أنف العجل **Antirrhinum majus** فى مقطع مستعرض، وأنا أعرف الفرق بين نبات الشمراخ ونبات الجذمار وأستطيع أن أشرح وأفسر التخليق الضوئى، وأستطيع أن أعرف حروف الهجاء لكلمة : **scrofulariaciae**، ولكن أثناء تأديتى للامتحان فى علم النبات يخطر على ذهنى على نحو فجائى مثل نوبة صـــرع فجائية أننى أصبح بيولوجية أو متخصصة فى علم الاحياء، وفقًا لما كنت أعتقده، وإنما أنا بصدد أن أصبح رسامة، أنظر إلى الصفحة التى تتشكل عليها الدورة الحياتية لنبات عش الغراب ابتداءً من البذرة حتى الجسم المثمر، وأدرك هذا فى يقين مطلق، لقد تغير مجرى حياتى فى صمت وفى خلال لحظة فورية واحدة، أستمر فى كتابة الشرح التفصيلى عن الدرنات وبصلات النباتات والبقوليات كأن شيئًا لم يحدث.

* * *

وذات ليلة عقب الانتهاء من الامتحانات مباشرة يدق جرس التليفون، إنها كورديليا، أدرك أننى كنت أتوقع هذا.

أقرأناكموه

تقول: " أود أن أراك " وأنا لا أرغب فى مقابلتها، ولكننى أدرك أننى سوف أقابلها، وما أسمعه ليس كلمة " أود **like** " وإنما كلمة " أحتاج **need**".

وبعد ظهر اليوم التالى أستقل مترو الأنفاق وبعدئذ أستقل الأتوبيس متجهة شمالاً عبر المدينة المتأججة بالسخونة والحرارة إلى حيث تعيش كورديليا، لم يسبق لى أن ذهبت إلى ذلك المكان من قبل، الشوارع تلف وتدور فى تمعج والمنازل كبيرة ومتسعة ولها أشكال رتيبة ومتكررة ومتسمة بالطابع الجورجى البريطانى ومزدانة بالشجيرات الكثيفة، وأشاهد أو أظن أننى أشاهد وجه كورديليا؛ إذ يبدو وجهها شاحبًا فى غير وضوح خلف النافذة الأمامية لدى اقترابى من منزلها، تفتح لى الباب قبل أن أتمكن من دق الجرس.

وتقول: " مرحبًا بك، لم أشاهدك منذ فترة طويلة للغاية "، هذا ود وحماس زائف ونحن معًا ندرك ذلك لأن كورديليا فى حالة من التحطم، شعرها خالٍ من البريق والرونق ووجهها شاحب، وازداد وزنها كثيرًا، وهى زيادة غير ناجمة عن العضلات القوية وإنما هى زيادة متسمة بالترهل، وهى قد رجعت إلى أحمر الشفاه البرتقالى / الأحمـــر الفاقع الذى يحول بشرتها إلى اللون الأصفر، وهى تقول : "إننى أدرك أننى أشبه هاجيس ماك باجيس ".

المنزل بارد من الداخل، وأرضية الصالة الأمامية بها مربعات بيضاء وسوداء، ويوجد درج مركزى رشيق وجميل، والمنزل يسوده السكون باستثناء ساعة حائط تدق فى غرفة المعيشة، يبدو أنه لا يوجد أى شخص آخر بالمنزل.

لا نذهب إلى غرفة المعيشة وإنما نذهب إلى الجزء الخلفى إلى ما وراء السلالم وعبر باب إلى المطبخ حيث تقوم كورديليا بإعداد قهوة فورية الذوبان فى الماء من أجلى، المطبخ جميل ومرتب فى نظام وهادئ الألوان وشديد الهدوء، والثلاجة والموقد لهما لون أبيض، بعض الناس حاليًا لديهم ثلاجات ملونة باللون الأخضر الفاتح أو اللون الأحمر الوردى ولكننى لا أحب هذه الألوان، وأنا مسرورة

لأن والدة كورديليا لا تحب هذه الألوان أيضًا، توجد منضدة طعام جميلة وجديدة ويروعنى أن أكتشف أننى أريد مشاهدة هذه المنضدة الجديدة أكثر من رغبتى فى مشاهدة كورديليا.

تبحث كورديليا فى الثلاجة وتستخرج عبوة مفتوحة من كعك محلى، وتقول: "لقد كنت فى انتظار عذر أو مبرر لكى أتناول باقى هذا الكعك " ولكن بمجرد أن تتناول القضمة الأولى تشعل سيجارة.

وتقول: " إذن، ما هو الشىء الذى أنت مشغولة به هذه الأيام ؟ " إنه صوتها الناصع للغاية والذى اعتادت أن تستخدمه مع الأولاد، صوتها هذا يخيفنى حاليًا.

فأقول: " أوه، مجرد الأشياء العادية، ولقد انتهيت من الامتحانات توًّا كما تعرفين "، ننظر إلى بعضنا البعض، الأمور سيئة بالنسبة لها، لا أعرف ما إذا كانت ترغب فى التطرق إلى موضوع الامتحانات أم لا.

فأقول: " وماذا عنك ؟ ".

فتقول: " لدى مدرسة، من المفـــترض لى أن أستذكر من أجل المناهج الصيفية "، ندرك معًا _ دون التطرق صراحة إلى ذلك _ أنها قد رسبت بكل تأكيد فى هذا العام رغم التحاقها بالمدرسة الجديدة، ومن المؤكد أنها رسبت رسوبًا شنيعًا، وإذا لم تنجح فى المواد التى رسبت فيها فى مجموعة الامتحانات التالية فإنها لن تتاح لها الفرصة للالتحاق بالجامعة على الإطلاق.

فتقول كورديليا: " أظن ذلك، وهى تسمى الآنسة دينجيل **Miss Dingle**، وهى ترمش بعينها طوال الوقت، وعينان دامعتان، وهى تعيش فى هذه الشقة القذرة الحقيرة، ولها ملابس نسائية داخلية تحتانية سيمونية اللون؛ حيث أشاهد هذه الملابس وهى معلقة على قضيب ستارة الدش فى غرفة الحمام القذرة الخاصة بها، ودائمًا ما يكون بمقدورى أن أجعلها تخرج عن موضوع الدراسة بأن أسألها عن صحتها ".

فأتساءل: "تخرجينها عن أى موضوع ؟ ".

فتقول كورديليا: " أوه، أى مادة دراسية.. الفيزياء أو اللغة اللاتينية أو أى مادة من تلك المواد الدراسية " يبدو عليها وكأنها تشعر بالخجل من نفسها بعض الشىء، ولكنها مع ذلك تشعر بالفخر وبالإثارة، مثلما كانت تشعر بالإثارة والافتخار لدى قيامها بسرقة الأشياء من المحلات التجارية، هذا هو إنجازها فى هذه الأيام : تضليل المدرسة، وتقول: "أمضى جميع الأيام فى الاستذكار والدراسة، فأنا أنام لفترات طويلة للغاية، أو بدلاً من ذلك أحتسى القهوة وأدخن السجائر وأستمع إلى الشرائط الموسيقية / الغنائية، بل فى بعض الأحيان أتناول جرعات صغيرة من زجاجة الويسكى الخاصة بأبى، ثم أضع بها كمية من الماء تعادل الكمية التى تناولتها من الويسكى... وهو لم يكتشف ذلك حتى الآن ".

أقول: " ولكن يا كورديليا ينبغى عليك أن تفعلى شيئًا ما ".

فتقول: " ولماذا ؟ " فى مسحة خفيفة من الروح القتالية القديمة الخاصة بها، فهى ليست فقط فى حالة من المزاح، ولا يوجد لدى سبب أقدمه لها، لا أستطيع أن أقول: " لأن كل شخص يفعل أى شىء من أجل إنقاذ نفسه، وينبغى عليك أن تكسبى رزقك بنفسك "، لأنه من الواضح أنها لا تكسب رزقها بنفسها لأنها موجودة فى هذا المنزل الكبير ولا تكسب رزقها بنفسها على الإطلاق، وبإمكانها أن تستمر فى حياتها على ذلك النحو مثل امرأة تنتمى للأزمنة الماضية ذات الطراز القديم، أو مثل عمة عذراء أو مثل فتاة عجوز معمرة لا تغادر المنزل على الإطلاق، وليس من المتوقع أن يقوم والداها بطردها من المنزل.

لذلك أقول: " لسوف تبدئين فى الشعور بالملل والسأم "، فتنفجر كورديليا فى ضحكات عالية للغاية وتقول: " وماذا سيحدث إذا استذكرت فى جد واجتهاد ؟ بالطبع عندئذ سأنجح فى الامتحانات وأذهب للجامعة، وأتخرج من الجامعة وأتحول إلى صورة أخرى من الآنسة دينجيل: "لا، شكرًا جزيلاً " .

أقول: " لا تكونى بلهاء، ومن الذى يقول إنك ستصبحين مثل الآنسة دينجيل؟".

فتقول: " ربما أكون بلهاء بالفعل "، وتضيف: " إننى لا أستطيع تركيز ذهنى فى هذه المواد الدراسية، بل لا أستطيع النظر إلى الصفحات إلا بصعوبة، فالصفحات تتحول أمام ناظرى إلى نقط سوداء صغيرة ".

فأقول: " ربما يكون بمقدورك الذهاب إلى مدرسة للسكرتارية " أشعر أننى مثل إنسانة خائنة بمجرد أن قلت تلك العبارة، فهى تعرف ما نعتقده معًا فى البنات اللائى يذهبن إلى مدرسة للسكرتارية... بحواجبهن العنكبوتية المنتوفة وببلوزاتهن النيلون الوردية الحمراء.

فتقول: " شكرًا جزيلاً " وتسود فترة صمت، ثم تضيف وقد عادت إلى صوتها الناصع: " ولكن لا داعى لأن نتكلم عن كل ذلك، وهيا بنا نتكلم عن الأمور الهزلية المضحكة، أتذكرين تلك الكرنبة التى ألقيت على المسرح على أساس أنها رأس الميت، فإذا بالكرنبة تقفز من على خشبة المســـرح وتهبط نحو الجمهور ؟ وأقول: " نعم أذكر ذلك، فأنت التى قمت بتغيير الكرمبة الفاسدة واستبدالها بكرمبة جديدة مما أدى إلى حدوث ذلك "، ثم يخطر على ذهنى أنها من الممكن أن تكون فى حالة حمل أو أنها كانت حاملاً، فمن الطبيعى أن يخطر ذلك التساؤل عن البنات اللائى يفشلن فى الدراسة، ولكننى أقول لنفسى إن ذلك أمر غير متوقع بالنسبة لكورديليا، وتقول: " أتذكرين عندما اعتدنا الذهاب إلى قلب المدينة التقطنا صورًا لنا عند محطة الاتحاد " ؟ وكنا نعتقد أننا نتسم بالمهارة العالية".

فأقول: " قبل بناء مترو الأنفاق مباشرة.

لقد اعتدنا على إلقاء كرات الثلج على السيدات العجائز، واعتدنا أن نتغنى بتلك الأغنيات السخيفة ".

فتقول: " أغنية مرض الجذام ".

- فتقول: " وأغنيـــة جزء من قلبك "، وتضيف : " إننى أشاهد حاليًا أطفالاً فى عمرنا السابق نفسه ويتصرفون بطريقتنا السابقة نفسها من حيث إلقاء كرات الثلج على الناس، وغير ذلك من أمور فأقول فى نفسى : " يا لهم من أطفال مزعجين!!".

إنها تنظر إلى تلك الفترة السابقة من عمرنا على أنها الفترة الذهبية من عمرها أو ربما أن تلك الفترة تبدو لها كذلك لأنها أفضل من الفترة الحالية بالنسبة إليها، ولكننى لا أريد لها أن تتذكر المزيد من اللقطات والأحداث الماضية؛ فأنا أريد أن أحمى نفسى من أية ذكريات أخرى أشد إظلامًا ومتعلقة بها، وأريد أن أخرج نفسى من هنا فى كياسة ولباقة قبل أن يحدث شيء ما مثير للارتباك، فهى واقفة فى توازن على حافة مرح صاخب اصطناعى يمكن أن تنقلب إلى النقيض منها فجأة وإلى دموع وإلى يأس مرير مفض إلى التهور، ولا أريد أن أراها وهى تتقوض وتنهدم على ذلك النحو، لأننى ليس لدى ما أقدمه لها على سبيل المواساة والتهدئة.

أتخذ اتجاهًا صلبًا وقاسيًا نحوها، فهى تتصرف مثل شخص غبى وأحمق، فهى ليست مضطرة لأن تظل محبوسة فى داخل هذا المكان وفى داخل هذا البؤس الممتد المليء بالحزن، فهى أمامها أنواع الاختيارات والاحتمالات كافة، والشيء الوحيد الذى يبعدها عن تلك الاختيارات هو نقص قوة الارادة، وأريد أن أقول لها: " قوى نفسك وشدى من أزرك وادفعى نفسك نحو الحيوية والنشاط "، وأريد أن أقول لها: " ارفعى جوربك المتدلى لأعلى ".

وأقول إننى ينبغى على أن أرجع لأننى سأخرج فى مشوار فيما بعد، وهذا الكلام غير صادق، وهى تشك فى كلامى هذا؛ فعلى الرغم من أنها فى حالة من اللخبطة والارتباك، فإن غريزتها المتعلقة بالاحتيال الاجتماعى قد أصبحت أكثر قوة، فتقول: " بالطبع، ذلك مفهوم تمامًا " إنه صوتها البعيد البازغ إلى حيز الوجود.

ولما كنت أسرع وأتحرك فى استعجال يخطر على ذهنى أن من بين الأسباب التى تدعونى للهرب هو أننى لا أريد أن أتقابل مع أمها لدى عودتها من الخارج، لأن أمها سوف تنظر لى فى تأنيب كما لو كنت أنا المسئولة عن تردِّى كورديليا إلى شكلها الحالى، وكما لو أننى أنا التى سببت لها الإحباط وليس كورديليا، فلماذا أعرض نفسى لمثل تلك النظرات عن شىء ما ليس هو غلطتى ؟

أقول وأنا فى الصالة الأمامية: " إلى اللقاء يا كورديليا "، وأعتصر ذراعها للحظات قصيرة، وأتراجع للوراء قبل أن تتمكن من تقبيلى على خدى؛ فالتقبيل على الخد هو عادة متأصلة فى عائلتها، أدرك أنها قد توقعت شيئًا ما من جانبى أو رابطة ما مع حياتها السابقة أو مع نفسها، وأدرك أننى فشلت فى تزويدها بذلك الشىء، إننى أشعر بالفزع والرعب من نفسى ومن قسوتى ومن عدم مبالاتى ومن نقصان الشفقة لدى، ولكنى أشعر أيضًا بالارتياح، وأقول: " سأتصل بك تليفونيًا قريبًا "، إننى أكذب ولكنها تختار ألا تعترف بهذا.

فتقول وهى تغلفنا نحن الاثنين معًا بحجاب من الأدب: " سيكون ذلك شيئًا لطيفًا من جانبك ".

أسير على الممشى الفرعى فى اتجاه الشـــارع، وأســـتدير لكى أنظر ورائى، ها هو وجهها موجود مرة أخرى... انعكاس ضبابى لقمر خلف النافذة الأمامية.

أقرأناكموه

الباب العاشر

رسم الحياة

Life Drawing

أقرأناكموه

(٤٧)

توجد هناك أمراض عديدة للذاكرة، مثل نسيان الأسماء أو نسيان الأرقام على سبيل المثال، أو توجد هناك حالات أكثر تعقيدًا لفقدان الذاكرة، فمع فقد الذاكرة يمكن لك أن تفقد ماضيك كله، وعندئذ تبدأ من جديد فى تعلم كيفية ربط شريط حذائك، وكيفية تناول الطعام بالشوكة وكيف تقرأ وتغنى، ويتم تعريفك على أقاربك وعلى أصدقائك القدامى كما لو لم تكن قد شاهدتهم من قبل على الإطلاق، وأنت بذلك تحصل على فرصة ثانية معهم أفضل من العفو، لأنك يمكن لك أن تبدأ وأنت فى حالة من البراءة التامة، ومع شكل آخر من أشكال فقدان الذاكرة، فإنك تحتفظ بالماضى البعيد ولكنك تفقد الزمن الحاضر؛ إذ لا يمكن لك أن تتذكر ما حدث منذ خمس دقائق مضت، فعندما ينهض شخص ما قد عرفته طوال حياتك واقفًا ويخرج من الغرفة، ثم يعود راجعًا إليها، فإنك تحييه فى حماس شديد كأنه قد ظل بعيدًا عنك على مدى عشرين عامًا وتنخرط فى بكاء شديد ممزوج بالبهجة والارتياح، كما لو كنت فى لقاء واتحاد جديد مع الموتى.

وفى بعض الأحيان أسائل نفسى فى تعجب : ترى أى من هذه الأمراض ستصيبنى فيما بعد، لأننى أدرك أننى سأصاب بأحدها.

على مدى سنوات كنت أرغب فى أن أصبح أكبر سنًا، وأنا الآن كبيرة فى السن بالفعل.

أجلس بين طيات السواد الشديد القاسى بمطعم كوازىquasi وأحتسى الخمور الحمراء وأحملق ناظرة إلى الخارج من خلال النافذة، على الجانب الآخر من الزجاج تمر كورديليا فى بطء، ثم تذوب، ثم تتجمع أجزاؤها من جديد متحولة إلى شخص ما آخر، هوية أخرى مدركة بطريق الخطأ.

أقرأناكموه

لماذا أطلقوا عليها ذلك الاسم ؟ إنهم يعلقون ذلك الثقل حول رقبتها، القلب النابض للقمر أو جوهرة البحر وفقًا للغة الأجنبية التى تستخدمها أنت، إنها الأخت الثالثة، إنها الأخت الوحيدة الأمينة، إنها الأخت العنيدة، إنها الأخت المرفوضة، إنها الأخت التى لم يستمع لها، لو كانت قد سميت باسم : جين **Jane** أكانت ستصبح الأمور مختلفة ؟

أمى سمتنى على اسم أفضل صديقة لها مثلما كانت تفعل النساء فى تلك الأيام، منحتنى اسم : إيلين **Elaine** الذى اعتبرته ذات يوم كئيبًا وحزينًا للغاية، كنت أريد اسمًا آخر أكثر تحديدًا ومكونًا من مقطع واحد مثل : دوت **Dot** أو بات **Pat** مثل قدم يهبط على الأرض، اسم لا يمكن لك أن تخطئ بشأنه، اسم غير متسم بالضعف أو الهزال، ولكن اسمى قد ترسخ من حولى مع مرور الوقت، وأنا أنظر إليه الآن على أنه اسم متين، ولكنه لين ومرن مثل قفاز قديم بالٍ.

توجد كمياتٍ من السواد الجديد فى هذا المكان، بعضها من الجلد وبعضها من الفينل **Vinyl** اللامع، لقد جئت فى هذه المرة وأنا فى حالة استعداد، فأنا أرتدى كنزة ذات ياقة واقفة ضيقة قطنية سوداء اللون، وأرتدى معطفى الأسود الواقى من المطر الذى له قلنسوة، ولكننى لست بمثابة النسيج الملائم فى هذا المكان، وليس لى السن المتلائم مع هذا المكان ؛ فكل شخص هنا عمره حوالى ١٢ عامًا، جون**Jon** هو الذى اقترح أن نلتقى فى هذا المكان.

إنه دائمًا ما يكون لديه ولع شديد بأن يجىء متأخرًا لكى يشير إلى أن حياته مشحونة بأشياء كثيرة أكثر أهمية منى، واليوم ليس استثناءً، ثم يجىء بعد أن تأخر ثلاثين دقيقة عن الموعد المحدد، ولكنه فى هذه المرة يعتذر، أهو قد تعلم شيئًا ما أم أن زوجته الجديدة تدير سفينته فى مزيد من الإحكام؟ من المضحك أن أزال أفكر فيها على أنها جديدة.

أقول: " ذلك على ما يرام، لقد وضعت برنامجًا لمواجهة هذا، وأنا مسرورة لأنك استطعت أن تخرج من أجل اللعب "، ركلة تمهيدية صغيرة نحو الزوجة.

فيقول مبتسمًا: " تناول وجبة طعام خفيفة معك من الصعب أن نصفها بأنها لعب ".

إنه مازال قادرًا على ذلك، ننظر فى تفحص إلى بعضنا البعض، فى خلال أربعة أعوام اكتسب المزيد من التجاعيد، كما أن سوالف شعر رأسه وشاربه ظهر بهما المزيد من الشعر الأبيض، ويقول: " لا تتحدثى عن المساحة الصلعاء ".

فأقول: " ماذا تعنى بالمساحة الصلعاء ؟ " بما يعنى أننى على استعداد للتغاضى عن عيوبه الجسمانية إذا أغفل عيوبى، وهو قادر على تنفيذ ذلك أيضًا .

ويقول لى: " أنت تبدين على نحو أفضل مما كنت عليه فى أى وقت مضى ويضيف: " من المؤكد أن تمكنك من بيع كل المخزون لديك من اللوحات يتلاءم معك تمامًا ".

فأقول: " أوه، نعم "، وأضيف: " وذلك أفضل بكثير من لعق الكفل والابتذال مع أجساد النساء فى أفلام التلوى والتقيؤ "، ذات يوم كان مثل هذا الكلام كفيلاً بإثارة الغضب فى داخله، ولكن من المؤكد أنه قد تقبل الآن قسمته ونصيبه فى الحياة، فيهز كتفه ويبتهج باذلاً كل جهده رغم المصاعب، ولكن التعب والإرهاق يظهران على وجهه.

ويقول: العيش لفترة طويلة بالقدر الكافى، وبعدئذ يصبح اللاعق **licker** ملعوقًا **lickee**"، ويضيف: " منذ مقلة العيش المتفجرة لا أستطيع أن أفعل أى خطأ، الآن أصبحت من قمة الرأس إلى أخمص القدم بمثابة لعاب".

احتمال التلميح الجنسى الصريح موجود فى تلك العبارة، ولكننى أزوغ وأتجاهل كلامه، وأقول لنفسى : نحن بمثـــابة المؤسسة الآن... على ما هى عليه،

أقرأناكموه

أو ذلك هو ما ينبغى أن نبدو عليه، ذات يوم مات الناس الذين كنت أعرفهم منتحرين أو فى تصادم موتوسيكلات أو فى أشكال أخرى من أشكال العنف، والآن يموتون بسبب الأمراض، النوبات القلبية والسرطان وتضليلات الجسد، ويتم تسيير شئون العالم حاليًا بمعرفة رجال من عمرى نفسه لهم شعر متساقط ومتاعب صحية وهذا يثير خوفى، عندما كان زعماء العالم أكبر منى سنا كان بمقدورى أن أؤمن بحكمتهم وكان باستطاعتى أن أصدق أنهم قد تخطوا مرحلة الغضب والحقد والخبث والاحتياج لأن يحبوا من جانب الآخرين، الآن أعرف الأمور على نحو أفضل، أنظر إلى الوجوه بالجرائد والمجلات، وأتساءل فى تعجب : ترى ما هى أنواع الجشع والغضب التى تسوقهم ؟

أقول فى رفق ولين مع جعله يدرك أننى مازلت آخذة الجد: " على أى نحو يسير عملك الحقيقى ؟ "

هذا السؤال يسبب له القلق والضيق، ويقول: " على ما يرام "، ويضيف: " ألم أكن قادرًا على التأثير فيه كثيرًا فى الآونة الأخيرة ".

ويسود الصمت بيننا ونغرق فى التفكير فى أخطائنا ونقائصنا السابقة إزاء بعضنا البعض، لم يتبق أمامنا الكثير من الوقت لكى نصبح على النحو الذى كنا نهدف إليه ذات يوم، جون كان لديه إمكانية **potential** كامنة، ولكن هذه كلمة لم يعد بالإمكان استخدامها فى ارتياح، فكلمة إمكانية لها حياة مهملة أو موضوعة على الرف **a shelf life**.

* * *

نتحدث عن سارة **Sarah** فى سهولة ودون تنافس كما لو كنا نحن خالتها وعمها، ونتحدث عن المعرض الخاص بى، وأقول: " أظن أنك قد شاهدت تلك الوظيفة المتواضعة فى الجريدة ".

فيقول: " أكانت تلك وظيفـــة متواضعة ؟ " فأقول محاولة انتحال صفة التوبة: " الغلطة هى غلطتى؛ إذ كنت وقحة مع المحاورة التى عقدت الحوار معى " وأضيف: " إننى بصدد أن أصبح امرأة عجوزًا مشاكسة ".

فيقول: " كنت ستخيبين ظنى فيك إذا لم تكونى مشاكسة" ويضيف: "أنت تربكين الناس وتجعلينهم يتصببون عرقًا، وهم يستحقون ذلك" وننخرط فى الضحك معًا، إنه يعرفنى جيدًا ويعرف كيف يمكن لى أن أتحول إلى إنسانة رديئة **shit** للغاية، أنظر إليه بتلك المحبة المليئة بالحنين التى يقال إن الرجال يشعرون بها نحو الحروب التى خاضوها ونحو زملائهم من المحاربين القدامى، أعتقد أننى ذات يوم ألقيت بالأشياء نحو هذا الرجل؛ إذ ألقيت طفاية سجائر زجاجية وهى رخيصة الثمن بعض الشىء لم تتكسر عقب الإلقاء بها، كما قذفته بفردة حذائه وبحقيبة يدى ودون أن أغلقها قبل الإلقاء بها، وذلك لكى أمطره بوابل معدنى من المفاتيح وقطع النقود المعدنية الصغيرة، وأسوأ شىء ألقيته عليه كان جهاز تليفزيون صغير حيث ألقيته عليه بمساعدة الزنبرك الرجوعى المرن، وإن كنت فى اللحظة التى أطلقت فيها التليفزيون قلت فى نفسى: " يا إلهى ، دعه يغطس ويتفادى الضربة ! "، ولقد اعتقدت ذات مرة أننى قادرة على اغتياله، والآن لا أشعر إلا بقدر ضئيل من الأسف لأننا لم نكن أكثر تحضرًا مع بعضنا الآخر فى ذلك الوقت، ومع ذلك فقد كانت كل تلك الانفجارات وكل ذلك الطين والتهور وذلك الحطام التكنيكلر من الأمور المذهلة للغاية... مذهلة ومؤلمة فى تعذيب شديد، بل وتكاد تكون مميتة ومهلكة.

أما وقد أصبحت الآن فى حالة من الأمن والأمان من جانبه إلى حد ما كما أصبح هو فى حالة من الأمن من ناحيتى، فإنه يمكن لى أن أتذكره فى شىء من الإعجاب، بل فى شىء من التفاصيل التى تزيد على ما يمكن أن أقوله عن آخرين عديدين، العشاق القدامى يصبحون مثل الصور الفوتوغرافية القديمة التى تتحول إلى اللون الأبيض تدريجيًا كما لو كانت تستحم فى بطء فى الانحماص(*)، أولاً الشامات والبثور، بعدئذ الفوارق الدقيقة فى الألوان أو التظليل، وبعدئذ الأوجه ذاتها

(*) انحمص الورم : سكن وانفشّ (المترجم)

أقرأناكموه

إلى أن لا يتبقى أى شىء سوى الخطوط الخارجية العامة، ما الذى سيتبقى منها عندما أبلغ من العمر سبعين عامًا ؟ لا شىء من الغبطة والنشوة الغامرة الباروكية، ولا شىء من الدوافع الشديدة الغريبة الخيالية، كلمة أو كلمتان ترفرفان فى الخواء الداخلى، ربما أصبح قدم هنا أو فتحة أنف هناك أو شارب طاف وعائم مثل حليقة من عشب بحرى موجودة بين أشياء أخرى مختلفة ضئيلة الأهمية.

وأمامى على الناحية الأخرى من المنضدة الشديدة السواد يوجد الذى مازال يتحرك ويتنفس، وإن كان قد بدأ فى التناقص والتقلص، توجد شظية من الألم وشظية من الاشتياق فى داخل كيانى: " لا تنصرف الآن، الوقت الملائم للانصراف لم يحن بعد، لا تذهب " سيكون من الغباء _ كما هو الحال دائمًا _ أن أكشف عن النزعة العاطفية الخاصة بى وعن ضعفى نحوه.

* * *

ما نأكله هو شىء تايلاندى **thai** غامض: دواجن كثيرة التوابل وممتعة وسلاطة من أوراق نبتات غريبة لها لون أحمر علاوة قطع صغيرة من أوراق أرجوانية اللون، إنه طعام ملىء بالبهرجة والألوان، هذا هو نوع الطعام الذى يأكله الناس الآن فى أماكن مثل هذا المكان، لم تعد تورونتو مشهورة بفطيرة الدواجن ويخنى لحوم الأبقار والخضراوات التى يتم غليها أكثر من اللازم، أتذكر شجرة الأفوكاته الأولى الخاصة بى عندما كنت فى سن ٢٢ عامًا، لقد كانت تشبه أول أوركسترا سيمفونى خاص بأبى، وفى انحراف وعناد أهفو إلى أطباق الحلوى التى كنت أتناولها فى فترة طفولتى والتى كانت تقدم فى فترة الحرب والتى كانت بسيطة ورخيصة الثمن وغير حريفة : عصيدة التبيوكة النشوية **tapioca** والتى بها عيون السمك الجيلاتينية الهلامية اللزجة وعصيدة الكراميل وعصيدة الجنكت الهلامية المصنوعة من حليب محلى، ومن المحتمل أن تكون بعض هذه الأصناف قد اختفت الآن.

أسأله: " كيف حال زوجتك ؟ "

فيقول وهو ينظر لأسفل:" أوه، مارى جين **Mary Jean** وأنا قد قررنا الانفصال لبعض الوقت "، ويضيف: " وحقيقة الأمر أن مارى جين هى التى تركتنى ".

فأقول: " يؤسفنى أن أسمع ذلك " وعلى الفور أشعر بالأسف من أجله بالفعل، بل وأشعر بالسخط؛ إذ كيف تسنى لها أن تفعل به ذلك؟... إنها مومس باردة ومتوحشة وعديمة الشعور وقاسية الفؤاد، أتعاطف معه على الرغم من الحقيقة التى مفادها أننى نفسى قد فعلت الشىء نفسه معه منذ سنوات.

ويقول: " وأظن أن اللوم يقع على إلى حد ما "، هذا شىء لم يكن ليعترف به أبدا فى الفترات السابقة، ويضيف: "وهى قالت إنها لم تستطع أن تشق طريقها نحوى... ولم تحقق النجاح فى التعامل معى".

وأراهن على أن ذلك ليس هو كل الكلام الذى قالته فهو قد فقد شيئًا ما... فقد بعض الوهم الذى اعتدت أن أعتبره شيئًا ضروريًا بالنسبة له، فهو قد بدأ يدرك أنه أيضًا آدمى، أو هل هذا مجرد تمثيل _ من أجل مصلحتى _ لكى يبين لى أنه إنسان عصرى ومتحضر؟ ربما كان لا ينبغى إبلاغ الرجال عن الطابع الإنسانى الخاص بهم، لأن ذلك يجعلهم غير مريحين ويجعلهم أكثر خداعًا وخبثًا ومراوغة وأكثر غموضًا مما يزيد من صعوبة فهم جوانب شخصياتهم.

وأقول: " لو لم تكن مخبولاً للغاية لكنا قد تمكنَّا من حل المشاكل وتخطى العقبات وحققنا النجاح معًا".

كلامى هذا يثير فيه النشاط والبهجة ويقول فى ابتسام مرة أخرى: "من الذى كان مخبولاً؟ ومن الذى دفع الآخر إلى المستشفى؟"

فأقول له: " إننى أغفر لك على كل حال ".

التسامح مع الرجال والغفران لهم أسهل بكثير من التسامح مع النساء والغفران لهن.

* * *

يقول عندما نخرج إلى رصيف المشاة: " سأسير معك وأصطحبك إلى المكان الذى ترغبين فى الذهاب إليه "، ورحبت بتلك الفكرة، نحن فى حالة انسجام مع بعضنا البعض، فالآن لا يوجد أى شىء محفوف بالمخاطر، أستطيع أن أدرك السبب الذى جعلنى أقع فى حبه، ولكننى ليست لدى الطاقة أو المقدرة التى تعيننى على مواجهة الحب الآن.

وأقول: " حسنًا، وهو كذلك "، لا أريد أن أعترف بأننى لا أعرف إلى أين أرغب فى الذهاب، وأضيف: " أشكرك على أنك جعلتنى أقيم فى الاستوديو، ودعنى أعرف ما إذا كنت تريد أى شىء من الاستوديو " وإن كنت أدرك أنه لن يجىء إلى الاستوديو أثناء وجودى به؛ إذ مازال الأمر متسمًا بالحرج الشديد بالنسبة لنا إذا وجدنا معًا خلف باب يمكن غلقه بالمفتاح.

فيقول: " ربما يمكن لنا أن نتناول مشروبًا فيما بعد "، فأقول: " ربما ".

* * *

بعد أن أترك جون، أسير شرقًا فى شارع كوين بجوار الباعة الجائلين الذين يبيعون قمصان حرف T المكشوفة غير المحتشمة وبجوار الأحزمة وملابس الساتان الداخلية المعروضة فى فاترينات الفرش الخاصة بالدكاكين والمحلات، إننى منهمكة فى التفكير فى صورة سبق أن رسمتها منذ سنوات، وكانت تسمى

"نساء ساقطات Falling Women "، الكثير من لوحاتى آنئذ كانت تبدأ مع تشوش ذهنى بشأن الكلمات.

لم يكن يوجد أى رجال فى هذه اللوحة، وكانت اللوحة تتعلق بالرجال، أو مع ذلك النوع من الرجال الذى يتسبب فى سقوط النساء، إننى لم أنسب أية نوايا إلى هؤلاء الرجـــال، فهم كانوا مثل أحـــوال الطقس؛ حيث لم يكن لهم نية أو رغبـــة أو وجهة نظر، وإنما هم قاموا فقط بتبليلك أو سحقك مثل البرق وواصلوا المسير مثل عاصفة ثلجية هوجاء غافلة، أو كانوا مثل صخور... صف من الصخور الزلقة الحادة التى لها حواف مثلمة وخشنة، ويمكن لك أن تسير بحذر وحرص بين هذه الصخور، وبحيث تختار مواقع أقدامك فإذا انزلقت فسوف تسقط وتتعرض للجراح ولكن لا فائدة من وراء إلقاء اللوم على الصخور.

كان ينبغى أن يكون ذلك هو المفهوم الذهنى عن النساء الساقطات، فالنساء الساقطات هن النساء اللائى تعثرن على صخور الرجال وجرحن أنفسهن، وكان يوجد بعض الإعياء عن حركة السقوط لأسفل، على الرغم من إرادة المرء وليس من إرادة أى شخص آخر، فالنساء الساقطات لسن نساء تم جذبهن لأسفل أو دفعهن بقوة للأمام، وإنما مجرد نساء ساقطات فقط، بالطبع كانت هناك حواء Eve والسقوط Fall، ولكن لم يكن هناك شىء يتعلق بالسقوط من أعلى فى تلك القصة، فالسقوط كان يتمثل فقط فى الأكل وعلى النحو الوارد فى معظم قصص الأطفال.

لوحة " النساء الساقطات " بها ثلاث نساء يسقطن من فوق كوبرى كما لو كان بطريق الصدفة وقد فتحت تنوراتهن على هيئة أجراس بسبب الرياح بينما شعرهن يتموج لأعلى، وإلى أسفل سقطن على رجال كانوا فى حالة استلقاء وغير مرئيين وملثمين ومعتمين وخاليين من الإرادة وعلى مسافة عميقة للغاية.

* * *

أقرأناكموه

(٤٨)

إننى أحملق فى امرأة عارية، لو كانت مرسومة فى لوحة لكانت تسمى صورة زيتية عارية، ولكنها ليست فى لوحة، هذه أول امرأة عارية تمامًا أشاهدها فى حياتى باستثناء مشاهدة نفسى فى المرآة، الفتيات بغرفهن الخاصة بالمدرسة الثانوية دائمًا ما يكن مرتديات ملابسهن الداخلية التى ليست هى الشىء نفسه وأيضًا النساء المرتديات مايوهًا من قطعة واحدة واللاتى يظهرن فى الإعلانات بالمجلات يكنّ مرتديات ملابس داخلية، بل حتى هذه المرأة ليست عارية تمامًا؛ حيث توجد ملاءة ملفوفة حول فخذها الأيسر وقد أدخل طرفها بين ساقيها، لا يظهر أى شعر، إنها جالسة على كرسى دون مسند بينما ردفاها منسحقان إلى الخارج فى انحراف، وظهرها القصير القوى الممتلئ منحنٍ، وساقها اليمنى موضوعة على ساقها اليسرى عند الركبة، ومرفقها الأيمن مستند على ركبتها اليمنى، وذراعها اليسرى موضوعة خلفها مع وضع اليد على الكرسى، عيناها مليئتان بالملل والسأم والضجر ورأسها يتدلى للأمام على النحو الذى ثبت عليه، يبدو عليها وكأنها مقيدة وغير مستريحة وشاعرة بالبرد؛ إذ بمقدورى مشاهدة انكماش البشرة على الأجزاء العلوية من ذراعيها، وهى لها رقبة سميكة، وشعرها مجعد وقصير وأحمر، جذور الشعر داكنة أكثر، وأظن أنها تمضغ اللبان؛ فمن وقت إلى آخر تظهر حركة جانبية بطيئة مختلسة عند فكها، ليس من المفروض لها أن تتحرك.

إننى أحاول أن أرسم هذه المرأة باستخدام قلم فحمى، إننى أحرص على الالتزام برشاقة الخط، هذه الكيفية التى أجلسها المدرس عليها، من أجل رشاقة الخط، كنت سأفضل استخدام قلم رصاص ناشف لأن القلم الفحمى يعتلى أصابعها ويلوثها، بالإضافة إلى أنه يتلف الشعر، وأيضا هذه المرأة تخيفنى، توجد كمية كبيرة من اللحوم فى داخلها وخاصة تحت خصرها، وتوجد طيات من الجلد عبر بطنها، وثدياها مترهلان وبهما حلمتان كبيرتان داكنتان، والضوء الفلورسنت

المزعج الساقط فى خط مستقيم عليها يحول محجرى عينيها إلى كهفين كبيرين ويؤكد على الخطوط النازلة من الأنف إلى الذقن، ولكن ضخامة جسدها تجعل رأسها تبدو مثل الفكرة التلوية an after thought، إنها ليست جميلة وأنا أخشى من التحول إلى ذلك.

هذا فصل ليلى، ويسمى "رسم الحياة" ، ويعقد فى أيام الثلاثاء بكلية تورونتو للفنون فى غرفة كبيرة شاغرة يوجد خلفها درج للمنفعة العامة وبعده شارع ماكول وبعده شارع كوين بما فيه من حفلات سكر وعربدة وخطوط الترام وإلى ما وراء ذلك الميدان توجد تورونتو الشبيهة بالصندوق، يوجد دستة منا بالغرفة، امرأتان أكبر سنًا وثمانية من الشباب وفتاة أخرى من سنى نفسه وأنا، وأنا لست طالبة هنا ولكن حتى أولئك الذين ليسوا من الطلبة يمكن لهم أن يتعاقدوا من أجل الحضور فى هذا الفصل وفق شروط معينة وظروف معينة، وهذه الظروف هى أنه ينبغى عليك أن تقنع المدرس بأنك جاد فى اهتماماتك، وليس من الواضح إلى متى سوف أستمر.

المدرس هو السيد هربك Mr, Hrbik إنه فى منتصف الثلاثينيات من عمره، وله شعر داكن مجعد وكثيف وله شارب وله أنف نسر وعينان يكاد يكون لونهما أرجوانيًا داكنًا مثل ثمرة التوت، ولديه عادة الحملقة فى الناس دون أن يقول أى كلام، بل ودون أن يرمش بعينيه على ما يبدو.

إنهما العينان اللتان لفتتا نظرى فى بادئ الأمر عندما ذهبت من أجل امتحان المقابلة الشخصية الذى عقده لى، كان جالسًا فى مكتبه الصغير المغطى بالورق بالكلية وكان مستندًا إلى الوراء فى كرسيه وكان يقضم فى طرف قلم رصاص، وعندما شاهدنى ترك القلم على الفور.

وقال: " ما هو سنك ؟ "

فقلت: " ١٧ سنة، وأكاد أصل إلى الثامنة عشرة ".

أقرأناكموه

فقال: " آه "، وتنهد كما لو كان هذا بمثابة خبر سيئ، وأضاف: " وما الذى فعلتيه ؟ .

فبدا الأمر وكأنه يتهمنى بارتكاب خطأ ما، وبعدئذ أدركت على الفور المعنى الذى يقصده؛ إذ كان من المفترض أن أحضر معى شيئًا ما يسمى "مستندات الأعمال الأخيرة " بما يعنى الصور التى رسمتها مؤخرًا حتى يستطيع أن يكون رأيًا عنى، ولكن لم يكن لدى الكثير من الأعمال التى أحضرها، فاتصالاتى الوحيدة مع الفن قد بدأت فى المدرسة الثانوية فى فصل التذوق الفنى عندما كنا فى الصف التاسع حيث كنا نستمع إلى سوناتا ضوء القمر ونترجمها إلى خطوط متموجة مرسومة بأقلام الشمع الملونة، أو كنا نرسم نباتًا يؤدّى إلى التوليت فى مزهرية، بل ولم يسبق آنئذ الذهاب إلى متحف للفنون، وإن كنت قد قرأت مقالاً عن بيكاسو فى مجلة "لايف **Life**".

خلال الصيف الماضى عندما حصلت على وظيفة ترتيب الأسّرة وتنظيف دورات المياه فى مصيف فى موسكوكا لكى أكسب نقودًا إضافية، فإننى اشتريت مجموعة صغيرة من أنابيب الرسم بالـــزيت من إحدى المحلات السياحية، وكانت أسماء الأنابيب الصغيرة شبيهة بكلمات السر **pass word** التى تسمح لك بالدخول إلى مسكر : أزرق كوبالت + بنى / أصفر محروق + اللون القرمزى **Crimson Lake**، وفى أوقات فراغى كنت آخذ هذه الأنابيب، وأذهب إلى الشاطئ وأجلس مسندة ظهرى إلى شجرة بينما الأوراق الإبرية الصنوبرية تنغرز فى أسفل جسدى والباعوض يتجمع من حولى، وأنظر عبر المياه المنبسطة الهادئة والتى تتحرك عليها زوارق من خشب الماهوجنى اللامع بها أعلام فوق الصوارى الخاصة بها، وفى هذه الزوارق كان يوجد فى بعض الأحيان خادمات غرف النوم اللاتى يذهبن إلى حفلات غير شرعية ويدخلن إلى غرف الناس لكى يشربن الويسكى وبيرة الزنجبيل من فناجين ورقية، واللاتى أشيع عنهن أنهن يفعلن كل ما يخطر على البال من موبقات.

لم أكن أعرف كيف أرسم أو ماذا أرسم، ولكنى كنت أدرك أنه ينبغى على أن أبدأ، وبعد مرور بعض الوقت رسمت زجاجة بيرة دون الرقعة الورقية التى تدل على محتوياتها، ثم رسمت شجرة على هيئة مقشة محطمة، ثم العديد من الصور الموصلة الألوان عن الصخور مع ظهور البحيرة الشديدة الزرقة فى الخلفية، كما رسمت أيضًا غروب الشمس فجاءت اللوحة شبيهة بشيء ما يمكن أن تسكبه على نفسك، فأخرجت هذه الصور من الملف الأسود الذى كنت ممسكة به، فتجهم السيد هربك وراح يعبث بقلمه ولم يقل أى كلام، فشعرت بالإحباط علاوة على الشعور بالخوف منه، لأن لديه نفوذًا وسلطانًا على، ولديه المقدرة على شطب اسمى، وكان بمقدوري أن أدرك أنه اعتقد أن لوحاتى رديئة، لأنها كانت رديئة بالفعل من وجهة نظرى.

وقال: " هل لديك المزيد ؟ "، وأضاف: " المزيد من اللوحات ؟ " وبسبب اليأس كنت قد أحضرت بعض رسوماتى القديمة فى علم البيولوجيا والتى رسمت بالقلم الرصاص مع وجود تظليلات لونية، وأنا أعرف عن نفسى أننى أستطيع الرسم بالقلم الرصاص على نحو أفضل من رسم اللوحات الزيتية الملونة، لأننى ظللت أرسم بالرصاص لفترة أطول، ولم يكن لدى شيء أخاف من فقدانه؛ لذلك استخرجت رسومات البيولوجيا، فقال وقد أمسك بالورقة العلوية بالمقلوب: " ما الاسم الذى تطلقينه على هذا الرسم ؟ "، فقلت: " إنها الأعضاء الداخلية لدودة "، فلم تظهر عليه الدهشة، وقال: " وهذا ؟ "، " هذه هى الدودة المستورقة المسطحة التى تشبه ورقة النبات، فى مقطع ملون"، فقال: " وهذه ؟ " .

" هذا هو الجهاز التناسلى لضفدع ذكر ".

أقرأناكموه

وأخيرًا حملق السيد هربك فى وجهى بعينيه الأرجوانيتين اللامعتين، ثم قال: "ولماذا تريدين أن تدخلى فى هذا الفصل الدراسى؟" .

فقلت: " لأنه الوحيد الذى يمكن لى أن ألتحق به " ،وعلى الفور أدركت أن هذا ردىء للغاية، فأضفت : " إنه أملى الوحيد، ولا أعرف أى شخص آخر يمكن له أن يعلمنى ".

" ولماذا تريدين أن تتعلمى ؟ " .

فقلت: " لست أدرى..... لا أعرف ؟ "

فالتقط السيد هربك قلمه الرصاص ووضع طرفه فى فمه مثل سيجارة، ثم أخرج القلم من فمه، وراح ينبس بأصابعه فى شعره، ثم قال: " أنت هاوية تمامًا " وأضاف: " ولكن هذا يكون أفضل فى بعض الأحيان.... حيث يمكن لنا أن نبدأ من الصفر "، ثم ابتسم لى لأول مرة، كانت له أسنان غير منتظمة، وقال: " سوف نرى ما يمكن أن نصنعه منك ".

* * *

السيد هربك يقطع الغرفة جيئة وذهابًا فى توتر، إنه يشعر باليأس منا جميعًا بما فى ذلك المرأة الموديل التى تثير جنونه بسبب مضغها اللبان، يقول لها وهو يشد شعره: " لا تتحركى، توقفى عن مضغ اللبان "، فترمقه الموديل بنظرة مليئة بالحقد والضغينة وتتوقف عن المضغ، يمسك بذراعيها وبرأسها ويعيد تنظيمها كما لو كانت تمثالاً لعرض ملابس فى ڤاترينة، ثم يقول: " لسوف نحاول مرة أخرى ".

ويمشى بخطوات واسعة فى الغرفة جيئة وذهابًا بيننا مع النظر من فوق كتفيه والزمجرة من وقت إلى آخر، ثم يقول لشاب: " لا، لا، هذا جسم **body** "، وينطق هذه الكلمة على هذا النحو : **bowdy**، ويضيف: " هذا ليس أتوموبيل، ينبغى عليك أن

تفكر فى الأصابع التى تلمس هذا الجسد أو فى اليد التى تلمس على هذا الجسد، هذا الرسم ينبغى أن يكون جسمًا لمسيًّا **tactile** " أحاول أن أفكر فى الطريقة التى يريد لى أن أرسم بها ولكننى أتراجع، فأنا ليس لدى الرغبة فى أن أملس بأصابعى على لحوم هذه المرأة.

ويقول لإحدى السيدتين الأكبر سنًّا: " نحن لا نريد شيئًا جميلاً، فالجسم **bowdy** ليس جميلاً مثل زهرة، ارسمى فقط ما هو موجود أمامك "، ثم يتوقف خلفى فأنكمش خوفًا وأنتظر، فيقول لى: " نحن لا نقوم بإعداد كتاب فى الطب مقرر على الطلبة، فأنت قد رسمت جثة ولم ترسمى امرأة **woman** " وينطق كلمة امرأة على هذا النحو : **voman**.

أنظر إلى ما قد رسمته، وأدرك أنه على حق، إننى حريصة ودقيقة، ولكننى قد رسمت زجاجة لها شكل شخص خالٍ من الحياة، الشجاعة التى أحضرتنى إلى هنا تتسرب منى، إننى دون موهبة، ولكن فى نهاية الدرس وبعد أن نهضت الموديل فى تخشب واقفة على قدميها ولفت الملاءة حول نفسها وذهبت لكى ترتدى ملابسها، وبينما كنت أضع القلم الفحمى الخاص بى على جانب يجىء السيد هربك لكى يقف إلى جوارى، أجذب الرسومات التى أنجزتها بهدف البدء فى كرمشتها وتمزيقها، ولكنه يضع يده بسرعة على يدى ويقول: " لا تتخلصى من هذه الرسومات".

فأقول: " لماذا ؟ فهى رسومات ليست جيدة ".

فيقول: " لسوف تنظرين إليها فيما بعد، وتدركين مدى التقدم الكبير الذى وصلت إليه، أنت بمقدورك رسم الأشـــياء بطريقة جيـــدة للغاية، ولكنك حتى الآن لا تستطيعى رسم الحياة، الله خلق الجسد أولاً من الطين وبعدئذ بث الروح فى الجسد، والطين والروح كلاهما ضروريان " ويبتسم لى ابتسامة مقتضبة ويعتصر ذراعى، ثم يقـــول: " ينبغى أن تكون هناك عاطفة **passion** ".

أقرأناكموه

أنظر إليه فى شك وريبة، فما يقوله هو تجاوز وانتهاك لحرمة الآخرين؛ فالناس لا يتحدثون عن الأجساد إلا إذا كانوا يناقشون أمراضًا ولا يتحدثون عن الأرواح إلا إذا كانوا موجودين فى كنيسة ولا يتحدثون عن العاطفة **passion** إلا إذا كانوا يقصدون الرغبة الجنسية، ولكن السيد هربك رجل أجنبى ولا يمكن أن يتوقع له أن يعرف هذا.

ويضيف قائلاً لى بصوت أكثر انخفاضًا: " أنت امرأة غير مستكملة، ولكن هنا سيتم استكمالك **but here you will be finished** " وهو لا يعرف أن استخدام كلمة **finished** فى هذه الجملة وعلى هذا النحو يعنى أننى سأموت ويتم القضاء على، إنه يهدف إلى تشجيعى.

* * *

(٤٩)

أجلس فى قاعة الاجتماعات المعتمة بالدور الأرضى بمتحف أونتاريو الملكى ملقية بظهرى إلى الوراء فى الكرسى الناشف المغطى بقماش البلس المثير للحك والهرش وأشم رائحة التراب ورائحة الهواء غير المتجدد ورائحة مواد التنجيد الرديئة علاوة على الرائحة المغثية لبودرة الوجه للطلاب الآخرين، أشعر بعينى تتحولان إلى الاستدارة أكثر تدريجيًا مع اتساع إنسان العين مثلما يحدث فى عين البومة، على مدى ساعة ظللت أنظر إلى الاسليدات الضاربة إلى اللون الأصفر وأحيانًا تكون اسليدات غير متركزة لنساء من الرخام الأبيض لهن رؤوس مفلطحة عند القمة، وهذه الرؤوس تدعم أسطحًا حجرية قائمة على أعمدة تبدو ثقيلة للغاية، ولا عجب فى أن تكون قمم رؤوسهن مفلطحة، هؤلاء النساء الزخاميات يطلق

عليهن اسم: الكرتيدات caryatides التى كانت تشير أصلاً إلى قسيسات وكاهنات الإلهة آرتيميس فى كارياى caryae، ولكنهن لم يعدن قسيسات، وإنما أصبحن وسائل زخرفية تؤدى غرضًا إضافيًا وهو تقوية الأعمدة وتدعيمها، وتوجد أيضًا اسليدات كثيرة عن الأعمدة، أنواع عديدة من الأعمدة تنتمى لفترات تاريخية مختلفة مثل الأعمدة الدورية Doric والأيونية Ionic والكورينشية Corinthian، والأعمدة الدورية هى أقوى الأعمدة وأكثر بساطة، والأعمدة الكورينشية هى أخف الأعمدة وزنًا وأكثر زخرفة حيث تكون مزدانة بصفوف من أوراق نبات الاقنثا تؤدى إلى ظهور أشكال حلزونية ولولبية جميلة، ويستقر مؤشر طويل بازغ من المساحة الخالية من الضوء إلى جوار الشاشة على الأشكال الحلزونية اللولبية فى مزيد من الشرح والتوضيح، لسوف أحتاج إلى هذه الكلمات فيما بعد عندما يكون على أن أتقيأها على ورق الامتحانات؛ ولذلك فأنا أحاول أن أكتبها فى الكشكول الخاص بى مع إحناء رأسى بالقرب من الورقة لكى أتمكن من الرؤية، إننى أقضى الآن الكثير من الوقت فى كتابة كلمات غامضة فى الظلام.

أتوقع للأمور أن تتحسن فى الشهر التالى عندما أبتعد عن الفترات الإغريقية والرومانية وأدخل إلى فترة العصور الوسطى وعصر النهضة، الفن الكلاسيكى ارتبط فى ذهنى بالأشياء المكسورة والأشياء التى تغير لونها الأصلى وأصبح يميل إلى اللون الأبيض بسبب كثرة التعرض للعوامل الجوية، ومعظم الأشياء الإغريقية والرومانية بها أجزاء جسدية مفقودة وهذا الجو العام من الأذرع المفقودة والسيقان المفقودة والأنوف المفقودة تحدث تأثيرًا غير مستحب فىّ، وأيضًا ذلك الجو العام من اللون الرمادى واللون الأبيض وإن كنت قد دهشت عندما علمت أن هذه التماثيل الرخامية كافة كانت مطلية بألوان زاهية باللون الأصفر للشعر وباللون الأزرق للعينين وبدرجات اللون المختلفة بالنسبة للبشرة، بل وكانت مرتدية ملابس حقيقية مثل الدميات.

أقرأناكموه

هذا المنهج الدراسى هو من أجل إعطاء فكرة عامة، ومن المفترض له أنه يوجهنا ويجعلنا على استعداد لتلقى مناهج أخرى أكثر تخصصًا فيما بعد، وهو جزء من كلية الفنون والآثار القديمة بجامعة تورنتو والتى هى الطريق الوحيد المعتمد الذى يؤدى إلى أى مكان قريب من الفن، وهو أيضًا الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أتحمله ، ولقد حصلت على منحة دراسية لم تكن تزيد على ما هو أتوقعه، وعادةً ما يقول لى والدى: " ينبغى عليــك استخدام الذكاء الذى منحه الله لك " وإن كنا نحن معًا ندرك ونعتقد أن هذه الموهبة قد منحت لى فى حقيقة الأمر بمعرفته.

عندما أبلغت والداى لأول مرة بأننى سأترك مجال البيولوجيا وأتجه إلى مجال الفنون ظهر عليهما الذعر، ولكن والدتى أشارت إلى أنه لا مانع من ذلك إذا كنت أريد حقًّا أن أصبح فنانة **artist**، ولكنها أبدية القلق فيما يتعلق بالكيفية التى سأكسب بها رزقى فى حياتى، فالفن لم يكن شيئًا يمكن الاعتماد عليه فى هذا الشأن وإن كان لا مانع من أن يكون بمثابة هواية مثل الأشغال التى تتعلق بالأصداف والمحارات أو الحفر على الخشب، ولكن كلية الفنون والآثار القديمة أعادت الطمأنينة إليهما؛ إذ يمكن لى أن أغير اتجاهى بحيث أتجه إلى الآثار القديمة والقيام بأعمال الحفريات التى تتسم بالمزيد من الجدية والأهمية، كما أنه يمكن لى أن أتخرج من الجامعة وأحصل على شهادة علمية ودائمًا ما يمكن للمرء الحاصل على شهادة علمية أن يمارس التدريس.

وتقول إحدى صديقات والدتى أن الفن هو شىء يمكن للمرء أن ينجزه دائمًا فى المنزل فى أوقات فراغه.

التلاميذ الآخرون بكلية الفنون والآثار القديمة كلهم من البنات باستثناء شخص واحد، مثلما أن الأساتذة كلهم من الرجال فيما عدا شخص واحد، التلميذ والأستاذة ينظر إليهما على أنهما الغرباء، التلميذ لديه مرض جلدى يؤسف له والأستاذة تعانى

من تلعثم عصبى، ولا توجد واحدة من بين الطالبات ترغب فى أن تصبح فنانة وإنما يرغبن جميعًا فى أن يصبحن مدرسات للفنون بالمدارس الثانوية أو – وهذا بالنسبة لطالبة واحدة – أمينة متحف، أو يمكن القول إنهن غامضات فيما يتعلق برغباتهن بما يعنى أنهن يرغبن فى الزواج قبل أن تصبح أى من هذه الأشياء الأخرى ضرورية.

وهن يرتدين طقم توين من الكشمير ومعطفًا من وبر الجمل وجونلة من التويد الجيد وقرط زر لؤلؤى، ويرتدين حذاء له نصف كعب وبلوزة مخيطة عند خياط أو كنزة للفتيات أو ويسكيت **weskit** مع تنورة متلائمة فى الألوان، وأنا أرتدى هذه الأشياء أيضًا أو أحاول عمل توليفة منها، وفى فترات الاستراحة التى تتخلل المحاضرات أتناول فناجين القهوة معهن وآكل الكعك المحلى وأجلس فى الغرف العمومية العديدة وفى محلات بيع المشروبات والأطعمة بالجامعة وفى المقاهى التى تقدم القهوة، وهن يتناقشن فى الملابس والموضة أو يتحدثن عن الأولاد اللائى تخرجن معهم، أو يلعقن السكر المتساقط من الكعك المحلى بالسكر على أصابعهن، اثنتان منهن مخطوبتان بالفعل، عيونهما أثناء هذه المناقشات تبدوان مليئتين بالدموع وضبابيتين ولينتين ومعرضتين للتلف بسهولة مثل عيون قطط صغيرة عمياء مولودة حديثًا، ولكنهما تبدوان أيضًا كتومتين وغارقتين فى التفكير ومليئتين بالشراهة والميل إلى الخداع.

أشعر بالاضطراب والقلق معهن... كما لو كنت أنا موجودة هنا تحت ادعاءات زائفة، السيد هربك ولمس الجسد لا يتلاءم مع كلية الفنون والآثار القديمة، محاولاتى غير المتقنة لرسم نساء عاريات يمكن أن ينظر إليها على أنها مضيعة للوقت، ما ينجز فى مجال الفن هو العمل المتعلق بإحياء الذكرى، فالمنهج الخاص برسم الحياة كله يمكن أن ينظر إليه على أنه طموح وعلى أنه أيضًا مضحك وسخيف، ولكنه بمثابة حبل السلامة والإنقاذ بالنسبة لى، فهو بمثابة حياتى الحقيقية،

أقرأناكموه

وعلى نحو متزايد أبدًا أتخلص من أى شىء لا يتلاءم مع " رسم الحياة " مخفضة بذلك نفسى تدريجيًّا، فى الفصل الأول وقعت فى غلطة ارتداء كنزة من نسيج مربع النقش وبلوزة بيضاء مع ياقة بيتربان، ولكننى سرعان ما أتعلم، فأتحول إلى ما يرتديه الأولاد والبنت الأخرى، كنزة ذات ياقة واقفة ضيقة لها لون أسود وبنطلون جينز أسود، وهذه الملابس ليست تنكرية مثل ملابس أخرى، ولكنها بمثابة إخلاص وولاء _ وفى الوقت الملائم تكون لدى الشجاعة لارتداء هذه الأشياء فى وقت النهار _ لكلية الفنون وعلم الآثار باستثناء الجينز الذى لا يرتديه أحد بالنهار، وبدلاً من الجينز أرتدى تنورات سوداء، أطلق شعر مقدمة الرأس المقصوص فوق الجبين وأدبس شعرى إلى الخلف بعيدًا عن وجهى على أمل أن أبدو متسمة بالبساطة والصرامة، الفتيات بالجامعة المرتديات الكشمير واللؤلؤ يطلقن النكات الفكاهية المتعلقة بالملابس الوجودية **beatnik** المتطفلة على الفن ويقللن من الكلام معى.

المرأتان الأكبر سنا بفصل " رسم الحياة " تلاحظان ذلك التحول أيضًا ، فتوجهان لى سؤالاً: " إذن من الذى مات ؟ " إنهما تسميان : بابز **Babs** وماجورى **Marjorie** وهما محترفتان؛ حيث تقومان برسم الصور التى تظهر الوجه بالتفصيل عادة **portraits**، إذ ترسم بابز صورًا للأطفال وترسم مارجورى صورًا لمالكى الكلاب وكلابهم، وهما ملتحقتان بفصل " رسم الحياة " من حيث هو منهج دراسى منعش للذاكرة على حد قولها، وهما لا ترتديان الكنزة ذات الياقة الواقفة الضيقة وإنما ترتديان السمق أو الثوب الخارجى الفضفاض الشبيه بثياب النساء الحوامل، وتناديان بعضهما البعض بكلمة " ولد **kid** " وتدليان بتعليقات فى صوت خشن أجش على الأعمال التى تقومان بإنجازها، وتدخنان السجائر فى غرفة الحمام كما لو كان ذلك سلوكًا فاحشًا، ولأنهما من عمر والدتى نفسه فإنه يخجلنى أن أكون فى الغرفة نفسها معهما مع وجود المرأة الموديل العارية، وفى الوقت نفسه أشعر أنهما غير

مبجلتين وغير محترمتين، ومع ذلك أشعر أنهما تذكرانى بالسيدة.فاينشتاين التى تسكن بجوار منزلنا أكثر مما تذكرانى بوالدتى.

لقد أصبحت السيدة فاينشتاين مولعة بارتداء البذلات الحمراء والقبعات الصغيرة المستديرة التى ليس لها حافة والموشاة بألوان حمراء فاتحة تتماشى مع لون البذلة، وهى تلمحنى وأنا مرتدية الزى الجديد الخاص بى فتشعر بالإحباط وخيبة الأمل وتقول لوالدتى: " إنها تشبه أرملة إيطالية "، وتضيف : " إنها تطلق العنان لنفسها، على هذا النحو المخزى، إنها ستكون رائعة للغاية إذا حرصت على اتخاذ تسريحة جيدة للشعر مع وضع القليل من الماكياج على وجهها " وتنقل والدتى هذا الكلام لى وهى تبتسم كما لو كان ذلك الكلام غريبًا وعجيبًا ومثيرًا للضحك، ولكننى أعرف أن هذه هى طريقتها فى التعبير عن الهم والقلق، إننى أنحدر إلى الحقارة والوضاعة، " وإطلاق العنان لنفسى " هى فكرة مثيرة للذعر ومنبهة للأخطار وهى رأى يقال عن النساء الأكبر سنًا اللائى يصبحن أشعثات وحقيرات ولهن رائحة كريهة وممتلئات كما يقال عن الأشياء التى تباع بثمن بخس.

بالطبع يوجد شىء ما من الصدق فى كلامها، فأنا بالفعل أطلق لنفسى العنان.

* * *

أقرأناكموه

(٥٠)

أنا موجودة فى قاعة تقدم فيها البيرة للزبائن، أشرب بيرة مسحوبة من برميل ثمنها عشرة سنتات مع طلبة آخرين منتمين لفصل " رسم الحياة "، الجرسون الردىء الطباع يجىء موازنًا صينية مستديرة على يد واحدة ويضع الأكواب التى تشبه أكواب الماء العادية ولكنها مملوءة بالبيرة، الرغاوى تفيض على الجانبين، إننى لا أحب كثيرًا مذاق البيرة، ولكنى أعرف بحلول هذا الوقت كيفية احتساء البيرة، بل وأعرف قدرًا كافيًا من المعلومات مما يجعلنى أنثر الملح على قمة كوب البيرة لكى أوقف تدفق الزبد والرغاوى.

قاعة البيرة هذه بها سجادة حمراء داكنة ومناضد سوداء من خشب البرومس وكراسى لها تنجيد من البلاستيك وبها إضاءة ضعيفة وتنبعث منها رائحة كريهة شبيهة برائحة طفايات السجائر بالسيارات، وقاعات البيرة الأخرى التى نتردد عليها لاحتساء البيرة مشابهة لهذه القاعة، وهى لها أسماء مثل : لوندى لين **Lundys Lane** ومابيل ليف تافيرن **Maple leaf Tavern**، وهى كلها تكون معتمة حتى فى فترة النهار، لأنه غير مسموح لها بأن تكون لها نوافذ مطلة على الشوارع لكى لا يتمكن الناس بالشوارع من النظر من خلال النوافذ إلى ما يدور فى داخل القاعة، والهدف من هذا هو تجنب إفساد أخلاق القصر الذين لم يبلغوا سن الرشد، وأنا نفسى لم أبلغ سن الرشد، فالسن القانونية لتناول البيرة والخمور هو ٢١ عامًا، ولكن لا أحد من الجرسونات يطلب إبراز بطاقة تحقيق الشخصية، ويقول جون **Jon** إننى أبدو صغيرة فى السن للغاية، حتى إنهم يظنون أننى لا يمكن أن تكون لدى الشجاعة التى تعيننى على الدخول إلى القاعة إلا إذا كان عمرى يتجاوز بالفعل ٢١ عامًا.

قاعات البيرة تنقسم إلى قسمين، قسم " للرجال فقط " وهو القسم الذى يتردد عليه الأشخاص المخمورون المشاكسون، وتكون على الأرضية نشارة خشب

وتفوح منها رائحة البيرة المسكوبة ورائحة البول القديم ورائحة القيء، وفى بعض الأحيان يمكن لك أن تسمع الصيحات وأصوات تحطم الأكواب الزجاجية، ثم تشاهد رجلاً يتم طرده بمعرفة اثنين من الجرسونات الأقوياء بينما أنفه تسيل بالدماء وذراعاه تلوحان هنا وهناك.

وقسم " للسيدات والمرافقين لهن " يكون أكثر نظافة وهدوءًا وأناقة وله رائحة أفضل، فإذا كنت رجلاً لا يمكن لك الدخول إلى هذا القسم دون أن تكون معك امرأة، وإذا كنت امرأة لا يمكن لك الدخول إلى القسم المكتوب عليه " للرجال فقط " وهذا النظام يقصد به منع المومسات من مضايقة الرجال، ومنع الرجال المدمنين المخمورين من مضايقة النساء، وكولين **Colin** الذى هو من إنجلترا يحدثنا عن حانات توجد بها مستوقدات ويمكن لك أن تلعب وأنت فيها لعبة رمى السهام الخفيفة، بل وتتجول وتغنى فى أرجائها، ولكن لا شيء من هذا القبيل يسمح به فى قاعات البيرة، فهى من أجل شرب البيرة فقط، وإذا انخرطت فى الضحك أكثر من اللازم يمكن أن يطلب منك مغادرة المكان.

طلبة " رسم الحياة " يفضلون الدخول إلى القسم الخاص " بالسيدات والمرافقين لهن " ولكنهم يحتاجون لأن تكون معهم امرأة لكى يسمح لهم بالدخول، وهذا هو السبب فى أنهم يوجهون الدعوة لى لكى أرافقهم، بل إنهم يسددون ثمن البيرة التى أشربها، إننى بمثابة جواز السفر الخاص بهم، وفى بعض الأحيان أكون أنا الفتاة الوحيدة المتاحة عقب انتهاء الدرس؛ وذلك لأن سوزى **Susie** وهى الفتاة التى من سنى نفسه كثيرًا ما تعتذر، كما أن مارجورى وبابز تذهبان إلى منزليهما؛ إذ لكل منهما زوجها وبالتالى لا يمكن الاعتماد عليهما فى هذا الشأن، والأولاد يطلقون عليهما اسم "السيدتان الرسامتان "، وأقول: " إذا كنتم تطلقون عليهما اسم السيدتان الرسامتان فماذا تقولون عنى ؟ ".

أقرأناكموه

فيقول جون فى مزاح: " نقول عنك : البنت الرسامة "، وكولين **Colin** الذى له أخلاق حميدة من نوع ما يشرح الوضع فيقول: " إذا كنت رديئة فأنت تكونين سيدة رسامة، وبخلاف ذلك فأنت رسامة فقط"، وهم لا يستخدمون كلمة " فنان أو فنانة **artist** "؛ فأى رسام يسمى نفسه فنانًا يكون فى رأيهم بمثابة حمار أو شخص أحمق.

لقد توقفت عن الخروج فى مواعيد مع الأولاد بالطريقة القديمة السابقة ؛ فعلى نحو ما لم أجد هذا عملاً جادًا ومهمًا أقوم به، كما أن طلبة " رسم الحياة " الذين تعرفت عليهم مؤخرًا يختلفون عن الطلبة السابقين، فهم بملابسهم الملوثة بالطلاء والرديئة النوع وبشعر وجوههم المتبرعم حديثًا يتخذون شكلاً انتقاليًا، وعلى الرغم من أنهم يتكلمون، فإنهم لا يثقون فى إمكان أن تؤدى الكلمات إلى توضيح المعنى المطلوب، وواحد منهم – وهو ريج **Reg** القادم من ساسكاتشوان – يعتبر عاجزًا للغاية عن الإفصاح عن آرائه، حتى إنه بمثابة شخص أبكم، وعدم إمكانه التعبير بالكلمات يعطيه منزلة خاصة كما لو أن الشىء المرئى قد التهم جزءًا من ذهنه وجعل منه قديسًا عبيطًا، وكولين **Colin** الرجل الإنجليزى لا يتمتع بالثقة لأنه يتحدث كثيرًا وعلى نحو جيد للغاية، فالرسامون الحقيقيون يزمجرون فقط مثل مارلون براندو.

ولكن يمكن لهم إظهار مشاعرهم، فهم يهزون الأكتاف ويتمتمون ويقولون عبارات ناقصة غير مكتملة ويستخدمون حركات الأيدى، اللكمات وجماع اليد وفتح الأصابع والتلويح بالأيدى فى الهواء، وفى بعض الأحيان تنصب لغة الإشارة هذه على رسم أناس آخرين، فيقولون مثلاً: " هذه اللوحة مثل عبث الأطفال **it Sucks** " أو كثيرًا ما يقولون : " هذه اللوحة رديئة للغاية **fan – fuckin – fastic** " فهم لا يرضون عن الكثير من اللوحات، كما أنهم يعتقدون أيضًا أن تورونتو بمثابة مقلب للزبالة أو كئيبة ويقولون: " لا يوجد شىء هنا مثير للاهتمام " والكثير من محادثاتهم تدور حول خططهم الرامية إلى الهرب من تورنتو، ويقولون إن باريس قد انتهت، بل وكولين **colin** الرجل الإنجليزى لا يرغب فى العـــودة إلى إنجلترا،

ويقــول: " إنهم هناك يرسمون باللون الأخضر المائل إلى الصفرة، مثل لون روث الإوز، وهذا شيء لعين ومثير للإحباط الشديد "، ولا شيء أفضل من نيويورك، فهناك يحدث كل شيء وهنالك يوجد الحركة والعمل.

وعندما يتناولون الكثير من أكواب البيرة قد ينجرف حديثهم إلى الكلام عن النساء، فيتحدثون عن صديقاتهم **girl friends** وعن أن بعضهن يسكن ويعشن معهم ويسمون هؤلاء الصديقات " سيدتى القديمة "، أو يلقون بالنكات المازحة عن الموديلات اللائى يجئن إلى " رسم الحياة " واللائى يتغيرن من ليلة لأخرى، ويتحدثون عن قيامهم بالاضطجاع مع الموديلات فى السرير كما لو كان هذا يتوقف على رغبتهم فى ذلك أم لا، وهم يصفون الموديلات بأوصاف مختلفة؛ إذ يقولون: "بقرة **cow**" أو "ضرع البقرة " أو " يا لها من امرأة مستهلكة ! " وأحيانًا يقولون هذا مع إلقاء نظرة على لمعرفة مدى ردود الفعل علىَّ، وعندما تدخل أوصاف الأجزاء الجسدية فى تفاصيل دقيقة مثل: " مؤخرتها تشبه ردفى الفيل " فإنهم ينبهون بعضهم البعض من أجل الالتزام بالصمت بسبب وجودى بينهم.

ولا أشعر بالاستياء من أى كلام كهذا، وبدلاً من ذلك أشعر أننى متمتعة بامتياز ما ، وبأننى استثناء من قانون لم أحدد طبيعته بعد.

أجلس فى الظلام وبين طيات دخان السجائر وأشعر بشيء من الدوخة مع الاحتفاظ بفمى مغلقًا وبعينى مفتوحتين، وأعتقد أننى أستطيع مشاهدتهم فى وضوح لأننى لا أتوقع أى شيء منهم، وفى حقيقة الأمر فإننى أتوقع الكثير منهم، أتوقع أن يتم قبولى والرضا عنى من جانبهم.

* * *

هناك شيء واحد يفعلونه لا أرضى عنه، وهو أنهم يسخرون من السيد هربك، إن اسمه الأول هو : جوزيف وهم يطلقون عليه اسم : العم جو **Uncle Joe**، وذلك

أقرأناكموه

لأنه له شارب ويتحدث بلكنة أوروبية شرقية ولأنه فاشستى فى آرائه، وهذا ظلم، نظرًا لأننى أعرف – وكلنا جميعًا أصبحنا نعرف الآن – أنه قد استبعد وطرد من أربع دول مختلفة بسبب الاضطرابات الناجمة عن الحرب، بل ووقع فى المصيدة خلف الستار الحديدى وعاش هناك على بقايا الأطعمة التى تلقى فى الزبالة، بل وكاد يهلك جوعًا، ثم هرب أثناء ثورة المجر ربما بسبب أخطار تهدد حياته، وهو لم يتحدث على الإطلاق عن هذه الظروف البالغة الصعوبة التى مر بها على وجه الدقة، بل لم يذكر أى شىء من هذا كله فى حقيقة الأمر فى الفصل، ومع ذلك فهذا كله معروف لنا.

ولكن كل هذا لا يحدث أى تأثير على الأولاد، إنهم يطلقون عليه اسم : **D. p** بمعنى الشخص المرحل **displaced person** أى الشخص الذى يرحل أو يضطر إلى الرحيل عن وطنه لأسباب عرقية أو دينية أو عقائدية، وهذه شتمة أو سب قديم أتذكره منذ أيام الدراسة بالمرحلة الثانوية؛ إذ كنا نطلق هذا السب على اللاجئين الوافدين من أوروبا، وعلى هؤلاء الناس الأغبياء والبلهاء الذين لا يتوافقون مع المجتمع والبيئة، وهم يقلدون لهجته فى النطق على نحو ساخر ويقلدون طريقته فى الكلام عن الجسد، وهم فقط يحبون "رسم الحياة " لأنه أمر " رسم الحركة **Action painting** " فهو الذى يعبر عما يحدث؛ ولهذا فأنت متأكد تمامًا أنك لست بحاجة لأن تتعلم كيف ترسم، وبصفة خاصة أنت لست بحاجة لأن تعرف كيف ترسم بقرة {امرأة} عارية، ومع ذلك فهم يجلسون فى حصة " رسم الحياة " لكى يرسموا بأقلام الفحم الأثداء والأرداف والأفخاذ والرقاب وفى بعض الأحيان لا ينجزون سوى رسم الأقدام مثلما أفعل أنا بينما يجوب السيد هربك الحجرة جيئةً وذهابًا فى عصبية مع شد شعره والتعرض لموجات متلاحقة من اليأس.

أوجه الأولاد جامدة وغير معبرة عما يدور فى داخلهم من مشاعر وأحاسيس، ولكننى أستطيع أن أدرك مشاعر الاحتقار التى تعلو وجـــوههم بينما السيد هربك لا يستطيع إدراك ذلك، أشعر بالأسف من أجله كما أشعر بالامتنان والشكر له

للسماح لى بالالتحاق بهذا الفصل، كما أشعر بالإعجاب به أيضًا ، الحرب بعيدة الآن بالقدر الكافى الذى يجعلها رومانتيكية، ولكنه قد عاش أهوالها طوال فترات احتدامها، و أسائل نفسى فى تعجب عما إذا كان بجسده أية ثقوب ناجمة عن إطلاق الرصاص عليه أو أية علامات أخرى تدل على الشرف.

فى هذه الليلة وفى الغرفة المخصصة " للسيدات والمرافقين لهن من الرجال " فى حانة " مابيل ليف **maple leaf** " لا يوجد فقط الأولاد وأنا؛ إذ توجد سوزى هنا أيضًا .

سوزى لها شعر أصفر، وهى ترتدى أيضًا الجينز والكنزة السوداء ذات الياقة الواقفة الضيقة، ولكن الجينز الخاص بها محزق وهى عادة ما يكون لديها شىء ما حول الرقبة مثل سلسلة فضية أو ميدالية كبيرة، وهى تضع خطًّا أسود ثقيلاً على جفنى عينيها مثل كيلوباترا وتضع الماسكرا السوداء وتظليل العين الأزرق الداكن المدخن حتى تبدو عيناها ذات حواف زرقاء وبها لون الكدمات كما لو أن شخصًا ما قد وجَّه إليها لكمة على وجهها، وهى تستخدم بودرة الوجه البيضاء وأحمر الشفاه ذا اللون الوردى الفاتح الذى يجعلها تبدو مثل إنسانة مريضة أو كأنها قد ظلت مستيقظة لفترة متأخرة فى كل ليلة على مدى أسابيع، وهى لها ردفان ممتلئان وثديان كبيران للغاية بالنسبة لطولها، ولها صوت ضعيف وإجفال، وحتى اسمها يشبه قطعة القطيفة الصغيرة التى تستخدم فى وضع البودرة على الوجه، إننى أعتبرها بنتًا ساذجة وبلهاء تلهو فى مدرسة للفنون، وأنها غبية للغاية مما لا يمكّنها من الالتحاق بالجامعة، وإن كنت لا أصدر أحكامًا كهذه عن الأولاد.

ويقول جون: " العم جو **Joe** يمر بحالة اهتياج فى هذه الليلة "، وجون طويل القامة وله شاربان خديان قصيران ويدان كبيرتان، وهو له جاكيت من القطن المتين، ويعدّ أكثر الناس نطقًا للكلمات فى وضوح شأنه فى ذلك شأن كولين **Colin** الإنجليزية، ويستخدم كلمات مثل " صفاء اللون **purity** " و " السطح المستوى

للصورة **picture plane** " ولكن لا يقول ذلك إلا أمام شخصين أو ثلاثة أشخاص فقط، ولا يذكر ذلك أبدًا أمام المجموعة كلها.

وتقول سوزى فى ضحكة شاهقة: " أوه، ذلك شىء وضيع لا ينبغى أن تقول عنه العم جو **Uncle Joe** ".

وهذا يثير سخطى، لأنها قالت شيئًا ما كان ينبغى على أن أقوله أنا بنفسى، ولكننى لم يكن لدى الشجاعة التى تعيننى على ذلك.

ويقول كولين لكى يجذب بعض انتباهها إليه: " إنه إنسان مغرور وعجوز وغائط **fart** ".

فتتحول سوزى بعينيها الواسعتين ذات الحواف الزرقاء نحوه وتقول له فى وقار: " إنه ليس عجوزًا، وعمره لا يزيد عن ٣٥ سنة " فينفجر الجميع فى الضحك، ولكن كيف تسنى لها أن تعرف عمره ؟ أنظر إليهما وأتعجب، أتذكر الوقت الذى ذهبت فيه مبكرة إلى الفصل، ولم تكن المرأة الموديل قد وصلت آنئذ، وكنت بالغرفة بمفردى وبعدئذ دخلت سوزى إلى الغرفة دون أن تكون مرتدية معطفها، ثم جاء السيد هربك بعدها مباشرة، فجاءت سوزى إلى المكان الذى كنت جالسة فيه وقالت: " ألا تكرهين الثلوج !! "، إنها عادة لم تكن تتكلم معى، وأنا كنت الإنسانة التى كانت بالخارج بين الثلوج، أما هى فكانت تبدو ساخنة مثل خبز محمص.

* * *

(٥١)

إنه شهر فبراير بالنهار، قاعة المتحف الرمادية تصدر بخارًا مع المعاطف المبللة ومع الثلوج شبه الذائبة التى تتساقط من أحذية الشتاء ذى الرقبة، تتصاعد حالات كثيرة من الكحة.

لقد انتهينا من فترة العصور الوسطى بما فيها من أوعية لحفظ الذخائر الدينية وقديسين ممتدين على طول الفترة وندخل بسرعة حاليًا إلى عصر النهضة متطرقين إلى النقاط الرئيسية، وعصر النهضة زاخر بكمياتٍ كبيرة من العذراء مريم، ويبدو الأمر كما لو أن مريم عذراء واحدة ضخمة هائلة كان لها مجموعة كاملة من البنات معظمهن يشبهنها بعض الشيء ولا يشبهنها على نحو كامل تمامًا، وهن قد طرحن الهالات الذهبية الورقية الخاصة بهن وفقدن الصدر المستوى الممتد الذى كان لهن فى التماثيل الحجرية والخشبية وأصبحن أكثر امتلاءً، وهن يصعدن إلى السماء فى تردد أقل من ذى قبل، وبعضهن لهن وجه مثل كعكة وقسم بالتقديس والمهابة وجالسات بجوار المستوقدات أو فى الكراسى المنتمية لعصر النهضة أو بجوار نوافذ مفتوحة مع ظهور الأشغال الهندسية للسقف فى الخلفية، وبعضهن لهن نظرة تتم على القلق، وبعضهن يظهر عليهن دلائل التغذية باللبن ولهن لون أبيض/ وردى مع وجود هالة من أسلاك رفيعة ومحاليق ذهبية جميلة من الشعر المتسرب من الحجاب علاوة على ظهور السماوات الإيطالية الصافية من على مسافة، وهن ينحنين على المهد الخاص بالمسيح المولود أو يضعن المسيح فى حجرهن.

والمسيح يبدو قلقًا مثل طفل رضيع حقيقى؛ لأن ذراعيه وساقيه طويلان ونحيلان للغاية، وحتى إذا كان يشبه بالفعل طفلاً رضيعًا إلا أنه لا يبدو أبدًا مثل طفل مولود حديثًا، فأنا سبق لى أن شاهدت أطفالاً مولودين حديثًا لهم شكل مشمشة مجففة ذابلة وهذه الأشكال الفنية للمسيح المولود ليست كذلك، إذ يبدو عليها وكأنها

أقرأناكموه

قد ولدت فى عمر سنة واحدة أو مثل أشخاص عاجزين وغير أكفاء ومعوقين، وهذه الصور توجد بها كميات كبيرة من اللون الأحمر والأزرق وحالات كثيرة من التغذية باللبن من الثدى.

الصوت الجاف الصادر عن الظلام يركز على الخصائص الرسمية للتكوينات وعلى ترتيب القماش فى طيات من أجل إبراز الاستدارية وعلى طريقة رسم الأنسجة علاوة على استخدامات المنظور فى المداخل المقنطرة وفى القرميد تحت القدم، ونقفز إلى الرضاعة من الثدى، يبزغ المؤشر من اللامكان مع عدم الوقوع بالصدفة أبدًا على هذه الأثداء العارية والتى يبدو بعضها متخذًا اللون الأخضر/الوردى غير المستحب أو مليئًا بالعروق أو به يد تعتصر الحلمة، بل وتعتصر لبناً حقيقيًا، وتظهر بعض حركات التململ بالمقاعد لدى مشاهدة هذا ؛ فلا أحد يرغب فى التفكير فى الإرضاع من الثدى ... فالأستاذ لا يرغب فى ذلك ولا حتى الفتيات يرغبن فى ذلك بكل تأكيد، وترتعش الفتيات لدى احتسائهن القهوة إنهن أنفسهن نيِّقات ويصعب إرضاؤهن وهن سيرضعن أطفالهن من الزجاجة التى تعتبر على كل حال أكثر اتسامًا بالنواحى الصحية.

أقول: " الحكمة من وراء الإرضاع من الثدى هى أن العذراء مريم متواضعة بالقدر الكافى الذى يجعلها تفعل ذلك؛ فمعظم النساء فى هذه الفترة الزمنية كن يبعثن بأطفالهن إلى مرضعات إذا كانت حالتهن المادية تسمح بذلك "، وكنت قد قرأت ذلك فى كتاب استخرجته من أعماق كومات من الكتب الموجودة بالمكتبة، ويقُلْن:" أوه يا إيلين، أنت ذكية للغاية " فأقول: " والنقطة الأخرى هى أن السيد المسيح قد جاء إلى الكرة الأرضية كإنسان، والإنسان هو من ضمن الحيوانات الثديية " وأضيف: " وإننى أسائل نفسى: ترى ما الذى فعلته مريم مع الحفاض ؟ لأن الحفاض فى هذه الحالة يعتبر من الذخائر المقدسة : الحفاض المقدس ".

" أنت شنيعة وبغيضة يا إيلين".

أبتسم، وأضع رسغ قدمى على ركبتى وأضع مرفقى على المنضدة، وأستمتع بمضايقة الفتيات بهذه الطريقة التافهة البسيطة، هذا يبين أننى لست شبيهة بهن.

* * *

هذه حياة واحدة، هذه حياتى فى أوقات النهار، أما حياتى الأخرى الحقيقية فتكون فى الليل.

كنت قد ظللت أرقب سوزى عن كثب مع الانتباه للأشياء التى تفعلها، سوزى ليست من سنى نفسه فى حقيقة الأمر، إنها أكبر منى بسنتين أو أكثر، عمرها يصل إلى ٢١ عامًا تقريبًا، وهى لا تعيش فى منزلها مع والديها وإنما تسكن فى شقة صغيرة من النوع الذى يخصص للناس غير المتزوجين فى العمارات العالية الجديدة الموجودة بشارع أفينيو رود **Avenue Road** الواقع إلى شمال سانت كلير **Sr, Clair**، وهناك اعتقاد بأن والديها يدفعان إيجار هذه الشقة، فكيف يمكن لها أن تسدد الإيجار إذا لم يقم والداها بتسديده ؟ وهذه العمارات العالية بها مصاعد كهربائية ولها ردهات واسعة بها نباتات وتسمى بأسماء مثل " مونت كارلو"، والمعيشة فى هذه العمارات هو شىء متسم بالجرأة والتحضر وإن كان الرسامون يسخرون منها لأن مجموعات من الممرضات تتألف كل مجموعة منها من ثلاث ممرضات تعيش هناك، والرسامون أنفسهم يسكنون فى شارع بلورستريت أو فى شارع كوين ستريت فوق محلات للخردوات أو محلات لبيع الحقائب بالجملة أو يسكنون فى شوارع جانبية يوجد فيها مهاجرون.

وسوزى تبقى عقب الفصل وهى تجىء مبكرة وتتسكع هنا وهناك، وأثناء الحصة ذاتها تنظر نظرات جانبية مختلسة إلى السيد هربك، وأتقابل معها لدى خروجها من مكتبه فتقفز وتبتسم فى وجهى، ثم تستدير وتقول بصوت مرتفع للغاية وعلى نحو اصطناعى: " شكرًا جزيلاً لك يا سيد هربك، إلى اللقاء فى الأسبوع

أقرأناكموه

القادم"، وتلوح بيدها تلويحة خفيفة رغم أن الباب موارب وبالتالى لا يمكن له مشاهدة تلويحها، فهذه التلويحة هى من أجلى، فيخطر على ذهنى على الفور أنها لها علاقة حب مع السيد هربك، وهى تعتقد أن أحدًا لم يكتشف هذه الحقيقـــة، وهى على خطأ فى اعتقادها هذا، فأنا أسمع مارجورى وبابز وهما تتكلمان فى الموضوع بطريقة ملتوية غير مباشرة ؛ إذ تقولان: " استمعى أيتها الطفلة **kid**، هذه هى الطريقة الوحيدة التى تعينها على النجاح فى الامتحان " وتقولان: " أتمنى أن أستطيع أن أفعل ذلك من خلال التحرك على ظهرى فقط " وتقولان: " أنت لا ترغبين فتلك الأيام قد انقضت منذ فترة طويلة، أليس كذلك ؟" ثم تضحكان معًا فى ارتياح كما لو كان ما يحدث هو شىء تافه للغاية أوشىء ما متسم بالتسلية أو اللعب الهزلى، ولا أعتقد أن علاقة الحب هذه تتسم كلها بالتسلية والهزل، وأنا أنظر إلى تعبير: علاقة حب **love affair** نظرة لغوية ؛ إذ لا يمكن فصل كلمة علاقة **affair** عن كلمة حب **love**، رغم أنه ليس من الواضح أى من الشخصين الذى يحب الأخر، وأتوصل إلى رأى وهو أن السيد هربك هو الذى يحب سوزى، أو هو لا يحبها فى حقيقة الأمر، وإنما هو مخبل ومسلوب الإرادة **besotted** بسببها، أحب هذه الكلمة: **besotted** على الرغم من أنها توحى بنقصان الحيوية والإفراط فى العاطفة الصبيانية كما توحى بالذباب المخمور فوق عصير فاكهة، وسوزى نفسها غير قادرة على مواجهة الحب الحقيقى فهى إنسانة ضحلة وسطحية للغاية، وأعتقد أنها هى الطرف المتسم بالوعى المسيطر على نفسه فى هذه العلاقة المتبادلة؛ فهى تلهو وتعبث معه بطريقة عميقة ومتقنة وعلى النحو الوارد فى ملصقات أفلام الأربعينيات ، كما أنها تتخلص من الشعور بالذنب والسيد هربك يترنح وهو مسلوب الإرادة نحوها.

وبعد أن تدرك سوزى أن الناس بالفعل بدأوا يعرفون حكايتها، نظرًا لأن كلاً من بابز ومارجورى نقلت هذه المعلومات للأخرين، فإنها تصبح أكثر جرأة وشجاعة؛ إذ تبدأ تشير فى كلامهـــا عن السيد هربك مستخدمة اسمه الأول مع إقحامه فى عبارات : جوزيف يعتقد أو جـــوزيف يقول، ودائمًا ما تظهر أنها

تعرف المكان الذى يوجد به ، فهو أحيانا فى مونتريال من أجل قضاء إجازة نهاية الأسبوع، حيث يذهبان معًا إلى مطاعم أفضل ويتناولان معًا خمورًا أكثر روعة، وهى تؤكد على حدوث كل ذلك رغم أنها لم يسبق لها الذهاب إلى مونتريال على الإطلاق، كما تدلى بمعلومات خصوصية سارة عنه، لقد كان متزوجًا فى المجر ولكن زوجته رفضت المجيء معه، ولقد تم الطلاق بينهما الآن، وهو لديه ابنتان ويحتفظ بصورهما فى حافظة نقوده، وانفصاله عن ابنتيه يسبب له اكتئابًا قاتلاً، وتقول فى هدوء بينما الدموع تترقرق فى عينيها: " وهو اكتئاب يكاد يذبحه ويقتله".

ومارجورى وبابز تلتهمان هذه المعلومات فى شغف، بدأت سوزى تفقد وضعها كفتاة فاسقة من وجهة نظرهما وبدأت تدخل إلى مشارف الحياة المنزلية العائلية، وتقومان بتشجيعها على المضى فى هذا السبيل: " استمعى إلى، إننى لا أوجه اللوم إليك ! أعتقد أنه جذاب وبارع مثل (الأكرة) التى يفتح بها الباب **button**"... ، " يمكن لى أن ألتهمه وأستهلكه تمامًا ولكن ذلك سيكون أشبه بسرقة سرير الطفل الصغير، أليس كذلك ؟ "، وفى غرفة الاغتسال تجلسان بجوار بعضها البعض فى دورتى مياه منفصلتين وتتحدثان بصوت مرتفع يعلو على صوت البول والبراز المتدفق بينما أقف أنا أمام المرآة مصغية للكلام:" آمل فقط أن يكون مدركًا لما يفعله... مع هذه الفتاة الظريفة"، وهما تقصدان بهذه العبارة أنه ينبغى عليه أن يتزوجها، أو ربما تعنيان أنه ينبغى عليه أن يتزوجها، إذا أصبحت حبلى، لأن ذلك سيكون هو التصرف اللائق.

ومن ناحية أخرى يبدأ الرسامون فى معاملتها بخشونة:" أيتها الحمقاء **Jeez** توقفى عن الكلام عن جوزيف! أنت تعتقدين أن الشمس تشرق من مؤخرته! " ولكنها لا تستطيع أن تتوقف عن الكلام عنه، وتلجأ إلى الضحكات المتسمة بالخوف والاعتذار مما يجعلهم – ويجعلنى أيضًا – يتضايقون منها أكثر.

أقرأناكموه

وأشعر أن السيد هربك بحاجة إلى الحمـــاية أو حتى بحاجة إلى الإنقـــاذ، وأنا لا أعرف حتى الآن أن رجلاً يمكن أن يكون رائعًا وباهرًا فى نواحى عديدة، ولكنه فى الوقت نفسه يكون أحمق وغبيًا فى نواحى أخرى، وأيضًا فأنا لم أعرف حتى الآن أن الفروسية والشهامة الموجودة لدى الرجال هى بمثابة بلاهة وحماقة لدى النساء؛ لأن الرجال بمقدورهم الخروج من عملية إنقاذ سالمين بسهولة أكثر بمجرد الدخول فيها.

مازلت أعيش فى المنزل مع والدى وهو أمر متسم بالذل والخزى، ولكن لماذا ينبغى على أن أسكن فى مساكن الطالبات بالجامعة وأدفع المصاريف اللازمة من أجل الإقامة فى حين أن الجامعة موجودة فى المدينة نفسها ؟ هذا هو رأى والدى، وهو رأى معقول.. ومنطقى.

ولكنى لم أعد أنام فى الغرفة التى خصصت لى أثناء مرحلة الطفولة والتى بها معدات إضاءة ونيلية بيضاء وستائر للنافذة؛ إذ تقهقرت إلى البدروم زاعمة أننى بمقدورى الاستذكار هناك على نحو أفضل، وهنالك وفى مخزن معتم مجاور للفرن أنشأت مملكة من قذارة جديدة، فمن معدات التخييم القديمة الكثيرة التى تملأ دولابًا صنعت كوخًا وحقيبة نوم ثقيلة لها لون كاكى، وأعقت بذلك خطط والدتى الرامية إلى نقل سريرى من البدروم حتى يمكن لى الحصول على مرتبة ملائمة، وعلى الحوائط قمت بتثبيت ملصقات مسرحية من الإنتاج المحلى مثل مسرحية : "انتظار جودوت" بقلم بكيت، ومسرحية: "لا خروج" No Exit بقلم سارتر، علاوة على تعليق العديد من لوحاتى الدقيقة عن الأقدام، وتعتقد أمى أن الملصقات المسرحية داكنة وكئيبة ولا تفهم لوحاتى عن الأقدام على الطلاق ؛ فالأقدام ينبغى أن يكون لها جسد، أنظر إلى أمى مع تضييق عينى لأننى أدرك الأمور أفضل منها.

أما بالنسبة لوالدى فهو يعتقد أن موهبتى فى الرسم مثيرة للإعجاب ولكنها موهبة مبددة هباءً وسدى؛ إذ كان ينبغى استغلال هذه الموهبة فى رسم المقاطع

المستعرضة لسيقان النباتات وخلايا الطحالب، وأنا من وجهة نظره فنانة فاشلة فى مجال علم النبات، وأصبحت نظرة أبى للحياة داكنة وكئيبة منذ عودة السيد بانيرجى إلى الهند، يوجد شيء من الغموض حول هذا، ولا يوجد كلام كثير حول هذا الموضوع، تقول أمى إنه كان يشعر بالحنين الشديد لوطنه مما جعله عرضة للإصابة بانهيار عصبى، ولكن الأمر لم يكن يقف عند هذا الحد؛ إذ قال والدى: " إنهم لم يكونوا على استعداد لترقيته فى وظيفته "، وهناك أكثر من خط تحت كلمة : إنهم they (وليس كلمة نحن we)، ويضيف والدى: "وهو لم يلق التقدير اللائق به" وأعتقد أننى أدرك ما تعنيه هذه العبارة، فوجهة نظر أبى عن الطبيعة البشرية كانت دائمًا كئيبة ومتشائمة، ولكنه كان يستثنى العلماء من الجنس البشرى، والآن فهم ليسوا مستثنين، ومن هنا فهو يشعر أنه تعرض لنوع من الخيانة. أقدام والدىّ تجوبان المكان جئيةً وذهابًا فوقى وأصوات شئون المنزل وأصوات الميكس ماستر Mix master والتليفون والأخبار البعيدة ترشح فى تسرب لأسفل نحوى كما لو كنت أمر بحالة من المرض، أبزغ إلى السطح رامشة بعينى من أجل تناول الوجبات مع الجلوس فى شبه صمت والنظر إلى الدواجن المطهية والبطاطس المهروسة بينما والدتى تعلق على نقصان الشهية للطعام لدىَّ، ووالدى يقول لى أشياء مفيدة ومسلية كما لو كنت مازلت صغيرة فى السن، هل أنا أدرك أن مخصبات النيتروجين تدمر الحياة السمكية من خلال تدعيم النمو المتزايد للطحالب؟ هل سمعت عن المرض الجديد الذى سيحولنا جميعًا إلى أناس مشوهين معتلِّى العقل اللهم إلا إذا أرغمت شركات صناعة الورق على التوقف عن الإلقاء بالزئبق فى مياه الأنهار ؟ وأنا لم أدرك ذلك لأننى لم أسمع.

وتقول والدتى: " هل تنـــامين بالقـــدر الكافى يا حبيبتى ؟ " فأقـــول فى كذب: " نعم".

وكان والدى قد شاهد إعلانًا فى الجريدة عن فيلم سينمائى عن حشرة عملاقة تصدر إشعاعًا ذريًّا، ويقول: " كما تعرفين، ذلك الجراد العملاق لا يمكن أن يوجد بالفعل على الإطلاق، لأنه إذا وصل إلى ذلك الحجم العملاق تتعرض الأجهزة التنفسية لديه للانهيار التام"، وأنا لا أعرف.

* * *

فى شهر أبريل وبينما أستذكر من أجل تأدية الامتحانات وقبل أن تتفتح البراعم يتم إلقاء القبض على أخى ستيفن.

ستيفن لم يكن موجودًا هنا، وكان ينبغى عليه أن يكون موجودًا لكى يساعدنى فى غسل الأطباق وتجفيفها كالمعتاد، فهو لم يوجد بالمـــنزل طوال السنة، فهو يتجول سائبًا فى جميع أرجاء العالم، وهو يدرس علم الفيزياء الفلكية فى جامعة بولاية كاليفورينا بعد أن انتهى من الحصول على الشهادة السابقة على التخرج فى خلال سنتين بدلاً من أربع سنوات، وهو يجهز الآن مشروع التخرج.

لا توجد لدى صورة ذهنية عن كاليفورنيا؛ حيث لم يسبق لى الذهاب إلى هناك، ولكنى أعتقد أنها مشمسة ودافئة على مدار السنة، وسماؤها زرقاء نيلية نابضة بالحياة وأشجارها دائمة الخضرة، وأنا أزودها برجال يتسمون بالوسامة والبشرة الضاربة إلى السمرة بسبب كثرة التعرض لأشعة الشمس، ويرتدون النظارات الشمسية والقمصان الرياضية التى عليها أشجار نخيل، وأزودها بأشجار نخيل حقيقية وبنات شقراوات طويلات السيقان لهن أيضًا بشرة ضاربة إلى اللون الأسمر بسبب كثرة التعرض لأشعة الشمس.

وبين هؤلاء الناس المرتدين للنظارات الشمسية المسايرين للموضة الحديثة يعتبر أخى بمثابة شىء شاذ، وهو بعد أن ترك مدرسة البنين الخاصة به عاد إلى

طرائقه القديمة غير المهذبة بحيث يتجول مرتديًا السويتر الذى به مرفقان باليان، بل هو لا يذهب إلى الحلاق لكى يشذب شعر رأسه إلا إذا ذكّره أحد بذلك، ومن هو الموجود هناك لكى يذكره ؟ وهو يسير بين أشجار النخيل غافلاً وشارد الذهن ومنطلقًا بالتصفير بفمه بينما رأسه ملىء بحالة من الأرقام غير المرئية، ما الذى يعتقده الأمريكان عندما يشاهدونه ؟ إنهم يعتقدون أنه أفَّاق أو إنسان متجول من أجل التسول أو السرقة.

وفى هذا اليوم بالذات يأخذ معه التلسكوب الثنائى العينين وكتابه عن الفراشات وينطلق إلى الريف راكباً دراجته من أجل البحث عن فراشات كاليفورنيا، ويصل إلى حقل ملىء بالفراشات الجميلة وينزل عن دراجته ويغلقها بالقفل، ويتقدم فيدخل الحقل الذى يكون به بالتأكيد أعشاب طويلة وبعض الشجيرات الصغيرة، ويشاهد فراشتين لهما لون غريب للغاية فيبدأ فى اقتفاء أثرهما مع التوقف من وقت لآخر للنظر إليهما من خلال التلسكوب، ولكنه فى كل مرة يقترب فيها منهما تطيران فى ابتعاد مرة أخرى.

فينطلق وراءهما إلى نهاية الحقل؛ حيث يوجد سور وتطير الفراشتان فوق السور فيضطر لأن يتسلق على السور، وعلى الجانب الأخر يوجد حقل آخر منبسط وبه نباتات أقل من الحقل السابق، ويوجد به طريق ترابى، ولكنه لا يهتم بذلك ويواصل ملاحقة الفراشتين اللتين لهما ألوان حمراء وبيضاء وسوداء على هيئة الساعة الرملية وهو شىء لم يسبق له مشاهدته من قبل، وعند الجانب الآخر من ذلك الحقل يوجد سور آخر أكثر ارتفاعًا من السور السابق فيقفز أيضًا فوق ذلك السور، وعندما تتوقف الفراشتان أخيرًا على شجيرة استوائية منخفضة لها أزهار وردية، وبينما هو راكع على ركبتيه لكى يوجه التلسكوب نحوهما، يجىء إليه ثلاثة رجال مرتدين الزى الرسمى فى سيارة جيب.

ويقولون: " ما الذى تفعله هنا ؟ ".

فيقول أخى: " هنا أين ؟ " إنه متضايق منهم؛ أزعجوا الفراشتين مما جعلهما تطيران مرة أخرى.

فيقولون:" ألم تشاهد اللافتات ؟ تلك اللافتات المكتوب عليها : (خطر، ابتعد عن هذا المكان) ؟ ".

فيقول أخي: " لا، لقد كنت أطارد تلك الفراشتين ".

فيقول أحدهم: " الفراشات ؟ " ويقوم الثانى بعمل حركة بيده حول أذنه بما يفيد الجنون ويقول: " يا إلهى " يقول الثالث: " أتتوقع منا أن نصدقك ؟ ".

فيقول أخي: " ما تعتقدونه هو شيء يخصكم " أو كلام من هذا القبيل.

فيقولون: " ولد حكيم وعاقل " لأن هذا هو ما يقوله الأمريكان فى الكتب الهزلية الكوميدية، وأنا أضيف إلى المشهد بعض السجائر الموجودة على جانب فى أفواههم وبعض المسدسات القليلة وأحذية لها رقبة.

ويتضح أنهم عسكريون وأن المنطقة هى منطقة تجارب عسكرية ويأخذون أخي ويعودون به إلى مركز القيادة الخاص بهم ويحبسونه، بل ويصادرون التلسكوب الخاص به، ولا يصدقون أنه طالب يدرس الفيزياء الفلكية ويصطاد الفراشات، ويظنون أنه جاسوس ولكنهم لا يعرفون السبب فى أنه كان يعمل على المكشوف للغاية مع أن الجاسوس عادة يلتزم بالحرص والحذر الشديدين، وروايات الجاسوسية على النحو الذى أعرفه وتعرفه الشئون العسكرية، ولكن لا يعرفه أخى زاخرة بجواسيس يدعون أنهم من المعجبين بالفراشات الجميلة غير الضارة.

وأخيرًا يسمحون له بإجراء اتصال تليفونى ويضطر الأستاذ المشرف عليه بالجامعة لأن يحضر لكى يتخذ إجراءات الإفراج عنه، وعندما يرجع لاستعادة دراجته يكتشف أنها قد سرقت **pinched**.

* * *

أحصل على هذه المعلومات من والدىّ أثناء تناول يخنى لحوم البقر، ولا أعرف ما إذا كان على أن أشعر بالتسلية أو الذعر، ولكنى لا أسمع من أخى كلامًا من هذا القبيل، بل أحصل على خطاب مرسل منه ومكتوب بقلم رصاص على صفحة مقطوعة من بلوك نوت، خطاباته تبدأ دائمًا دون تحيات وتنتهى دون توقيع كما لو كانت جزءًا من خطاب واحد ينبسط وينتشر عبر الزمن مثل بكرة ورق تواليت لانهائية.

يقول إنه يكتب هذا الخطاب من فوق قمة شجرة؛ وهو يشاهد مباراة لكرة القدم من فوق سور الاستاد الرياضى – حيث إن ذلك أرخص من شراء تذكرة – بينما يأكل ساندوتش زبدة الفول السودانى؛ حيث إن ذلك أرخص من الأكل فى مطعم، إنه لا يحب الإجراءات النقدية المالية، وتوجد بالفعل العديد من البقع الدهنية على ورقة الخطاب، ويقول إنه يسكن فى المدينة الجامعية للطلبة مع عدد من الأغشية المخاطية الذين لا يفعلون أى شىء سوى تسييل لعابهم على البنات وتناول البيرة الأمريكية بكثرة مما يجعلهم يتبولون كثيرًا، ويقول إنه فى الفترات الصباحية يأكل البيض المقلى، وبالإضافه إلى أنه يستمتع فى أوقات الفراغ، فإنه يعمل فى جد واجتهاد فى مجال " طبيعة الكون **the Universe the Nature of**" والسؤال البالغ الأهمية هو: هل الكون أشبه بمنطاد عملاق آخذ فى التوسع والتمدد على نحو مستمر ولانهائى أو هل هو ينبض و يخفف أو هل هو يتوسع وينكمش؟ إننى أموج بالحيرة والقلق والترقب الشديد ولكن سينبغى على أن أنتظر لسنوات قليلة لحين أن يتوصل أخى إلى إجابة نهائية على ذلك السؤال، ويكتب بحروف كبيرة هذه العبارات فى خطابه " استعدى لاستقبال الحلقة التالية المثيرة من مسلسل الأبحاث الرائعة التى أقوم بها " ويستمر فى الكتابة بالحروف ذات الحجم العادى : " لقد دخلت فى مجال رسم اللوحات والصور، ولقد اعتدت أن أقوم بإنجاز هذه النوعية

أقرأناكموه

من الأعمال عندما كنت أصغر سنا، آمل أن تكونى مواظبة على تناول حبوب زيت كبد الحوت والابتعاد عن المتاعب " وتلك هى نهاية الخطاب.

أفكر فى أخى الجالس على قمة شجرة فى كاليفورنيا، إنه لا يعرف حتى الآن الطبيعة الجديدة للإنسانة التى يكتب إليها خطاباته لأننى بكل تأكيد قد طرأ على تغير هائل للغاية بحيث لا يمكن له أن يدرك مداه، كما أننى لم أعرف الطبيعة الجديدة الخاصة به... فأنا أفكر فيه على أنه يظل دائمًا على الطابع نفسه دون أن يطرأ عليه تغير ولكن بالطبع لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا؛ إذ من المؤكد أنه يعرف الآن أشياء لم يعرفها من قبل، مثلما هو الحال معى تمامًا.

وأيضًا إذا كان يأكل ساندويتشًا ويكتب خطابا فى الوقت نفسه فكيف، يستمر ويواصل إنجازه دون توقف ؟ يبدو عليه أنه سعيد بالقدر الكافى بوجوده فى الأعالى فى مقعده الذى يساعده على اصطياد الفراشات، ولكن ينبغى عليه أن يكون أكثر حذرًا، ما كنت أفترضه فيه دائمًا على أنه شجاعة قد يكون مجرد جهل بالعواقب الوخيمة، إنه يظن أنه فى حالة من الأمن والأمان، ولكنه موجود فى العراء والأماكن المكشوفة ومحاط بالغرباء.

أجلس فى مطعم فرنسى مع جوزيف وأحتسى خمورًا بيضاء اللون وآكل القواقع، إنها أول قواقع أتناولها فى حياتى وهذا هو أول مطعم فرنسى أدخل فيه، إنه المطعم الفرنسى الوحيد الموجود فى تورنتو وفقًا لما يقوله جوزيف، إنه يسمى : لا شومييز **La Chaumiere** بما يعنى "الكوخ المسقوف بالقش " وفقًا لما يقوله جوزيف، ولكنه بمثابة مبنى عادى خالٍ من الذوق الرفيع شأنه فى ذلك شأن مبانى تورونتو الأخرى، والقواقع فى حد ذاتها تشبه قطعًا كبيرة داكنة من المخاط الأنفى، وتؤكل باستخدام شوكة لها شعبتان فقط، وأعتقد أنها جيدة وإن كانت شبيهة بالمطاط.

ويقول جوزيف إنها ليست قواقع طازجة وإنما مستخرجة من المعلبات المصنوعة من الصفيح، ويقول هذا الكلام فى حزن وإذعان كما لو كان هذا يعنى النهاية وإن كان من غير الواضح نهاية ماذا، وتلك هى الطريقة التى يقول بها أشياء كثيرة، لقد كانت هى الطريقة التى ذكر فيها اسمى لأول مرة على سبيل المثال، وكان ذلك فى شهر مايو خلال الأسبوع الأخير من منهج " رسم الحياة " وكان من المفترض لكل منا أن يتقابل مع السيد هربك من أجل التقييم الشخصى ومن أجل مناقشة التقدم الذى أحرزناه أثناء السنة الدراسية، وكانت كل من مارجورى وبابز فى المقدمة أمامى حيث كانتا واقفتين فى الصالة وقد أمسكتا بفنجانين من القهوة، وتقولان: "هاى أيها الولد **Kid** "، وكانت مارجورى تقص حكاية عن كيف أن رجلاً عرض نفسه عليها فى محطة الاتحاد للقطارات حيث كانت قد ذهبت إلى هناك لكى تستقبل ابنتها القادمة على القطار الذى سيصل من كنجستون، وكانت ابنتها من سنى نفسه وتذهب إلى كوينز.

وقالت مارجورى: " تصورى، إنه كان يرتدى معطف مطر".

فقالت بابز: " أوه، يا إلهى ".

لذلك حملقت فى عينيه وقلت له: "ألا يمكن لك أن تفعل أى شىء أفضل من ذلك؟" وكنت أعنى التحدث عن لقائق فرانكفورت **Weenies**، وهنا ينطلق المعتوه المسكين إلى أرجاء محطات القطار محاولاً العثور على شخص ما لكى ينظر إليه!".

" ثم ماذا حدث؟ ".

" استمعى إلى، ما يرتفع لأعلى يجب أن يهبط لأسفل، أليس كذلك؟ ".

وشخرتا مع تقيؤ قطرات صغيرة من القهوة ومع نفث الدخان فى كحة، وكالمعتاد وجدتهما حقيرتين بعض الشىء؛ حيث تسخران من أمور ليست مجالاً للهزل والسخرية.

أقرأناكموه

وخرجت سوزى من مكتب السيد هربك، وقـالت : "هاى، مرحبًا أيها الأولاد Kids " فى محاولة للمزاح، وكان تظليل العيون الخاص بها ممحوًّا على نحو ملطخ كما كانت عيناها مائلتين إلى اللون الأحمر، وأنا كنت أقرأ روايتية حديثة علاوة على قراءة روايات وليام فولكنر أيضًا؛ ولذلك كنت أعرف الشكل الذى يفترض أن يكون عليه الحب : الاستحواذ وتسلط الأفكار على الشخص على نحو غير سوى علاوة على وجود حالات خفيفة من الغثيان والدوار، وسوزى كانت فتاة من النوع الذى قد يهتم ويشارك فى هذه النوعية من الحب، فهى على استعداد لأن تكون دنيئة وخسيسة وأن تنبطح على الأرض وتتأوه وتتعلق بقدمى السيد هربك بينما شعرها ساقط مثل أعشاب بحرية شقراء على الجلد الأسود لحذائه.

ولكنى لم أكن أشعر بالأسف من أجلها، وإنما كنت أشعر بالغيرة منها والحقد عليها بعض الشىء.

وتقول بابز خلف ظهرها المتراجع: " أنت أيتها الأرنبة المسكينة ".

وتقول مارجورى: " إنهم أوروبيون، لا أصدق على الإطلاق أنه كان فى حالة طلاق فى أى وقت من الأوقات ".

" وماذا عن ابنتيه؟ ".

" أغلب الظن أنهما ابنتا أخيه أو ابنتا أخته أو شىء من هذا القبيل".

فنظرت فى عبوس وتجهم إليهما، لقد كان صوتهما عاليًا للغاية مما قد يجعل السيد هربك قادرًا على سماعها.

وبعد أن انصرفنا جاء على الدور، فدخلت إلى حجرته ووقفت بينما كان السيد هربك جالسًا يتفحص الدوسيه الخاص بأوراقى التى كانت منتشرة على مكتبه، وأعتقد أن هذا الإجراء من جانبه هو الذى جعلنى أشعر بالتوتر، وراح يتفحص الصفحات ويتفحص الأيدى والرؤوس والأزرار فى صمت بينما يقوم بقضم القلم

الرصاص الخاص به، وأخيرًا قال : " هذا جميل، لقد أحرزت تقدمًا.... ولكن هذا الخط هنا يبدو أكثر استرخاءً ".

فقلت: " أين؟ " أستند بيدى على مكتبه مع الانحناء للأمام، فأمال رأسه على جانب نحوى وهنالك كانت توجد عيناه، لم تكن عيناه أرجوانيتى اللون وإنما أصبح لهما لون بنى غامق.

وقال فى حزن: " إيلين، إيلين "، ووضع يده على يدى، فتفجرت قشعريرة فى ذراعى ووصلت إلى معدتى، فوقفت هنالك فى تجمد وقد انكشف أمرى أمام نفسى، أهذا هو ما كنت أحتال من أجل الحصول عليه مع استخدام أفكارى عن الإنقاذ؟

وهز رأسه كما لو كان قد تخلى عما يدور فى رأسه أو أنه ليس أمامه بديل أخـر، وبعـدئذ جذبنى لأسفل بين ركبتيه، ولم ينهض واقفًا ؛ لذلك أصبحت موجودة على أرضية الغرفة وراكعة على ركبتى بينما رأسى مائل للوراء، وراحت يداه تربتان وتملسان على الجزء الخلفى من رقبتى، لم يتم تقبيلى على ذلك النحو من قبل، كنت أشبه بإعلان عن عطر أجنبى وخطير ومتسم بالفسق والانحطاط، كان بمقدورى أن أنهض واقفة وأفر هاربة وأنجو بنفسى، ولكننى إذا ظللت على هذا النحو حتى ولو لمدة دقيقة واحدة أخرى، فلن يكون هناك المزيد من تلمس الطريق فى مقاعد السيارات أو مقاعد السينما، ولن تكون هناك مناوشات حول مشابك صديرية الثديين.

* * *

ذهبنا إلى شقة جوزيف فى تاكسى، بالتاكسى جلس جوزيف بعيدًا عنى، رغم أنه ظل واضعًا يده على ركبتى، لم أكن معتادة على التاكسيات آنئذ وكنت أعتقد أن السائق كان ينظر إلينا من خلال المرآة التى تكشف المنظر الخلفى.

أقرأناكموه

كانت شقة جوزيف تقع فى شارع هزلتون أفينيو Hazelton Avenue الذى لم يكن حيًّا فقيرًا مزدحمًا، وإن كان أقرب ما يكون إلى ذلك، كانت المنازل عتيقة وقريبة من بعضها البعض مع وجود حدائق أمامية صغيرة مهلهلة وأسقف مدببة وأشغال خشبية حول القراندات الأمامية، كانت توجد سيارات متراصة بجوار بعضها البعض على طول رصيف المشاة، ومعظم المنازل توأمية ومتصلة مع بعضها من جانب واحد، فى إحدى هذه المنازل التوأمية ذات السقف المدببة المتقوضة كان جوزيف يعيش؛ حيث كان قد حصل على الطابق الثانى.

وكان يوجد رجل ممتلئ وأكبر سنًّا وكان يهتزّ فى تأرجح فى الشرفة بالمنزل المجاور لمنزل جوزيف، وحملق بينما كان جوزيف يقوم بسداد أجرة التاكسى وبعدئذ بينما كنا نصعد على الممشى الأمامى، قال: "يوم جميل ".

فقلت: "أليس كذلك؟ " فلم ينتبه جوزيف لكلامى، ثم وضع يده فى رفق على مؤخرة رقبتى لدى صعودى على السلالم الداخلية الضيقة، فى كل مكان يلمسنى فيه أشعر بثقل يده.

كانت شقته تتألف من ثلاث غرف: غرفة أمامية + غرفة وسطى ملحق بها مطبخ صغير + غرفة خلفية، وكانت جميع الغرف صغيرة الحجم وبها أثاث ضئيل، وبدا الأمر وكأنه قد انتقل توًّا إلى تلك الشقة، أو كان بصدد مغادرتها إلى شقة أخرى بديلة، وكانت غرفة النوم الخاصة به مطلية باللون البنفسجى، وعلى الحوائط كانت توجد العديد من الصور المطبوعة المأخوذة عن أشكال ملونة ضبابية معتمة، ولم يكن يوجد بالغرفة سوى مرتبة موجودة على الأرضية ومغطاة ببطانية مكسيكية، فنظرت إليها وأعتقد أننى أشاهد حياة الناس البالغى سن الرشد، قام جوزيف بتقبيلى مع الوقوف ناهضًا فى هذه المرة، ولكننى شعرت بالارتباك؛ إذ كنت أخشى من احتمال أن يرانا شخص ما من خلال النافذة، كما كنت أخشى أن يطلب منى أن أخلع ثيابى، وبعدئذ يديرنى فى هذا الاتجاه وذاك الاتجاه مع النظر

إلى من على مسافة؛ إذ لا أحب أن ينظر إلى أحد من الخلف؛ إذ كان منظرًا لم يكن لدى سيطرة عليه، ولكنه إذا طلب هذا كنت سأبادر بالتنفيذ، لأن أى تردد من جانبى كان سيضعنى تحت البحث والدراسة.

استلقى هو على المرتبة ونظر لأعلى نحوى كما لو كان فى حالة انتظار، وبعد لحظة استلقيت على الأرض إلى جواره، فقام بتقبيلى مرة أخرى، وراح يفك فى رفق زرايرِ ملابسى، وكانت هناك زرايرِ فى القميص القطنى الفضفاض الذى ارتديته بدلاً من الكنزة ذات الياقة الواقفة الضيقة نظرًا لأن الجو كان دافئًا، ووضعت ذراعى حوله ورحت أفكر، لقد شهد الحرب وشارك فيها.

وقلت: " ماذا عن سوزى ؟ " وبمجرد أن قلت تلك العبارة أدركت أنها شبيهة بسؤال ينتمى لمدرسة ثانوية.

فتساءل: " سوزى ؟ " كما لو كان يحاول تذكر اسمها، وكان فمه ملتصقًا بأذنى، فجاء الاسم شبيهًا بتنهيدة مفحمة بالندم والأسف.

كانت البطانية المكسيكية واخزة ومثيرة للحك وهذا شىء لم يضايقنى؛ إذ كان من المفترض للجنس ألا يكون لطيفًا فى أول مرة، وتوقعت أيضًا أن أشم رائحة المطاط وأن أشعر بالآلام، ولكن لم تكن هناك آلام كثيرة ولا دماء كثيرة مثلما قال كل شخص عن هذا الموضوع.

لم يكن جوزيف يتوقع الألم، وتساءل عند مرحلة واحدة: " هل هذا يسبب لك آلامًا ؟ " فقلت وأنا أجفل: " لا "، وعندئذ لم يتوقف، ولم يكن يتوقع ظهور الدماء أيضًا ، وكان الأمر يتطلب منه تنظيف بطانيته فيما بعد ولكنه لم يذكر هذا؛ إذ كان مراعيًا لمشاعر الآخرين وراح يمسد على فخذى.

* * *

أقرأناكموه

واستمر جوزيف طوال فترة الصيف، وفى بعض الأحيان يصطحبنى إلى المطاعم أو إلى مشاهدة أفلام أجنبية عن السويديين واليابانيين فى دور للسينما صغيرة وغير مزدحمة، ولكن الجولة تنتهى بنا دائمًا إلى شقته بحيث نكون تحت أو فوق بطانيته المكسيكية، وممارسته للحب هو أمر لا يمكن التنبؤ به، فهو فى بعض الأحيان يكون شديد الاشتياق، وأحيانًا أخرى يكون روتينيًّا، وأحيانًا ثالثة يكون شارد الذهن كما لو كان يرسم بطريقة عابثة لا هدف من ورائها، وعدم التنبؤ هذا هو الذى يجعلنى مثبتة فى مكانى إلى حد ما، هذا بالإضافة إلى احتياجه إلىَّ والذى يبدو لى فى بعض الأحيان أنه احتياج بائس وخارج نطاق سيطرته على نفسه.

يقول لى وهو يملس بيديه على: " لا تتركينى " ودائمًا ما يقول هذا الكلام قبل الممارسة وليس بعد الممارسة، ويضيف: " لأننى لن أتحمل فراقك "، وهذه عبارة من طراز عتيق يمكن أن تُقال، ولو قالها أى رجل آخر لى لبدت متسمة بالطابع الهزلى / الكوميدى، ولكنها لا تبدو لى هزلية عندما يقولها لى جوزيف، إننى فى حالة حب مع احتياجه، والتفكير فى هذا يجعلنى أشعر أننى مخضبة وهامدة مثل الجزء الداخلى الأحمر للبطيخة؛ ولهذا السبب فإننى قد ألغيت خططى الرامية إلى العودة إلى مصيف موسكوكا لكى أعمل هناك مثلما عملت فى الصيف الماضى، وبدلاً من ذلك حصلت على وظيفة فى الشالية السويسرى **Swiss Chalet** الذى يقع فى شارع بلور ستريت، وهذا المكان لا يقدم سوى الدواجن ال **broasted** وفقًا لما هو وارد فى اللافتة: دواجن وصلصة وسلطة الكرنب المخرط وكمية من الخمور البيضاء اللون ونكهة واحدة من الآيس كريم : خمور الشيرى البورغندية التى لها ظلال أرجوانية مذهلة، أرتدى "زى رسمى" وقد كتب على الجيب اسمى بخيوط التريكو مثلما يحدث فى مدرسة ثانوية للألعاب الرياضية.

وأحيانًا يجىء جوزيف إلى فى مطعم الشاليه السويسرى ويلتقطنى عقب انتهائى من العمل، ويتمتم فى التاكسى بينما وجهه مستند على رقبتى "رائحة الدواجن تفوح منك " لقد أصبحت فاقدة كل الاحتشام أثناء وجودى فى التاكسيات

معه؛ إذ أستند عليه بينما يده ملفوفة حولى وتحت ذراعى وعلى ثديى أو أستلقى نائمة على المقعد الخلفى وقد وضعت رأسى فى حجره، كما أننى خرجت من منزل والدى، وفى الليالى التى أقضيها مع جوزيف فإنه يريد لى أن أبقى معه طوال الليل كله، فهو يريد أن يستيقظ من النوم فى الصباح ليجدنى نائمة إلى جواره، ولكن يبدأ فى ممارسة الحب معى دون أن يوقظنى، ولقد أبلغت والدى بأن هذا الوضع مستمر فى فترة الصيف فقط حتى أكون قريبة من مطعم الشاليه السويسرى، وهما يعتقدان أن تصرفى هذا متسم بالتبذير فى النقود، فهما يتجولان بالشمال فى مكان ما، وبذلك كان بمقدورى أن أستغل المنزل بمفردى، ولكن فكرتى عن نفسى وفكرة والدى عنى لم تعودا تنتميان للمكان نفسه.

وأنا أسكن حاليًا مع الفتاتين الأخريين اللتين تعملان معى فى مطعم الشاليه السويسرى، وهما طالبتان أيضًا مثلى، ونحن الثلاثة نسكن فى شقة مستطيلة الشكل كالدهليز بشارع هاربورد ستريت، وغرفة الحمام مزدانة بالجوارب الحريمى والملابس الداخلية.

أتقابل مع جوزيف مرتين أسبوعيًا، وأعرف أنه لا ينبغى على أن أحاول الاتصال به تليفونيًا أو مقابلته فى أوقات أخرى، فهو فى الأوقات الأخرى يحتمل أن يكون مع سوزى لأنه لم يتوقف عن مقابلتها نهائيًا، ولكن كان علينا ألا نخبرها بهذه المعلومات الجديدة التى تتعلق بى؛ إذ كان علينا أن نحتفظ بسرية هذه العلاقة، وهو يقول: " إنها لو عرفت ستؤذى مشاعرها لدرجة رهيبة " ولكننى أعتقد أننى أنا التى ينبغى أن تشعر أن مشاعرها قد جرحت، لأنه ينبغى عليه أن يقطع علاقاته مع سوزى بعد أن أنشأ علاقة جديدة معى، ولكننى أشعر أيضًا أننى موضع ثقته ؛ فنحن مشتركان فى هذا معًا ومشتركان فى توفير هذه الحماية لسوزى، فهذا لصالحها، وفى هذا يوجد إشباع لكل الأسرار؛ فأنا أعرف شيئًا ما لا تعرفه سوزى.

لقد اكتشفت سوزى على نحو ما أننى أعمل فى مطعم الشاليه السويسرى – وربما جوزيف هو الذى نقل إليها هذا الخبر بطريقة عارضة لأنها ربما تجىء إلى

أقرأناكموه

المطعم لتناول قدح من القهوة فى وقت متأخر من بعد الظهر عندما لا يكون عدد كبير من الناس موجودًا مما يسهل عليها رؤيتنا معًا؛ ولذلك فهو الذى نقل إليها هذا الخبر من أجل تجنب الانكشاف وتجنب الفضائح، ولقد ازداد وزن سوزى بعض الشىء، واللحم على خديها منتفخ، وباستطاعتى مشاهدة الشكل الذى ستبدو عليه بعد مرور ١٥ عامًا إذا لم تحرص على الرشاقة.

إننى أعاملها فى لطف أكثر من أى وقت مضى، كما أننى أعاملها أيضًا فى شىء من الحذر، لأنها لو اكتشفت وجود علاقة بينى وبين جوزيف ستفقد صوابها وتهاجمنى بسكين.

إنها ترغب دائمًا فى التحـــدث معى، وترغب فى أن نتوصـــل معًا إلى تفاهم أو اتفاق فى يوم ما، وهى لا تزال تقول : " جوزيف وأنا"، إنها تبدو مهجورة وبائسة.

* * *

جوزيف يتحدث معى عن سوزى كما لو كان يتناقش بشأن طفلة صعبة المراس أو مشكلة معضلة للمسئولين عنها، ويقول: " إنها ترغب فى الزواج " ويشير إلى أنها أصبحت غير عقلانية، وأنا لا أحب أن أضع نفسى فى الفئة نفسها مع سوزى بحيث أكون غـــير عقلانية مثلها؛ فأنا لا أرغب فى الزواج من جوزيف أو من أى شخص آخر؛ إذ بدأت أنظر إلى الزواج على أنه شىء مخزٍ ومشين وعلى أنه بمثابة عملية بيع كاملة وليس منحة حرة، وسأكرس حياتى للرسم، بحيث أصبح فى نهاية الأمر ذات شعر مصبوغ مع ارتداء الملابس الصحية غير المألوفة والمجوهرات الفضية الجَنَبَة، ولسوف أسافر كثيرًا فى أرجاء العالم، بل ربما أيضًا سأحتسى الخمور.

فى الأيام التى يكون لدى بها أوقات فراغ والتى لا أتقابل فيها مع جوزيف فإننى أحاول أن أرسم، وفى بعض الأحيان أرسم باستخدام الأقلام الملونة؛ حيث

أقوم برسم الأثاث الموجود فى الشقة : الأريكة المشتراة من محلات سالى آن Sally Ann والمكسوة بمفارش مستقلة، والمصباح الذى أعارته لنا والدة زميلة لى بالغرفة وكرسى المطبخ، وفى كثير من الأحيان لا تكون لدى الطاقة والحيوية التى تعيننى على الرسم مما يجعلى أقرأ قصص اغتيالات غامضة تدور فى البانيو.

* * *

جوزيف ليس لدية الرغبة فى أن يحدثنى عن الحرب وعن الكيفية التى غادر بها المجر أثناء ثورة المجر، ويقول لى إن هذه الأمور مزعجة له للغاية ويريد نسيانها، ويقول إن هناك وسائل عديدة يمكن للمرء أن يموت بها، وإن بعض هذه الوسائل أقل إمتاعا من الأخرى، ويقول عنى إننى سعيدة الحظ لأننى لن أضطر أبدًا لأن أعرف أمورًا مثل هذه، ويقول: "هذه الدولة لا يوجد بها أبطال" ويضيف: "وينبغى عليكم أن تجعلوها على هذا النحو دائمًا" ويقول لى إننى لم يلمسنى أحد ويقول لى إنه يريد لى أن أكون على هذا النحو دائمًا، وعندما يقول هذه الأشياء يمر بيديه على بشرتى كما لو كان يدلكنى فى رفق، ولكنه يحدثنى عن أحلامه، وهو مهتم للغاية بهذه الأحلام، وهى لا تشبه الأحلام التى يمكن أن أتذكرها أو أسمع عنها، توجد فى أحلامه ستائر مخملية حمراء وأرائك مخملية حمراء وحجرات مخملية حمراء، توجد بها حبال حريرية بيضاء لها شرابات عند حوافها، ويوجد اهتمام كبير بنوعية الأقمشة، كما توجد فناجين شاى متآكلة.

ويحلم بامرأة ملفوفة فى ورق السلوفان تمامًا بما فى ذلك وجهها، ويحلم بامرأة أخرى تمشى بجوار درابزين بلكونة وقد ارتدت كفنًا له لون أبيض، ويحلم بامرأة أخرى مستلقية فى بانيو بينما وجهها مغمور فى الماء، وهو عندما يحكى لى هذه الأحلام فإنه لا ينظر إلى على وجه الدقة، وإنما يبدو وكأنه ينظر إلى نقطة تقع على مسافة بوصات عديدة فى داخل رأسى، ولا أعرف الكيفية التى ينبغى أن أستجيب بها؛ لذلك أضطر لأن أبتسم فى ضعف، إننى غيورة بعض الشىء من

أقرأناكموه

هؤلاء النساء اللاتى يظهرن فى أحلامه؛ فأنا لست واحدة منهن، ويتنهد جوزيف ويربت على يدى ويقول: " أنت صغيرة فى السن للغاية ".

ولا يوجد كلام يمكن الرد به على مثل هذا القول وإن كنت أشعر أننى صغيرة فى السن، فأنا حاليًا أشعر أننى عتيقة وقديمة للغاية ومجهدة ودافئة للغاية، رائحة الدواجن المحمرة المستمرة تضعف شهيتى للطعام، الوقت فى أواخر يوليو، ورطوبة تورونتو تتعلق مثل غاز المستنقعات فوق المدينة، وجهاز تكييف الهواء بمطعم الشاليه الفرنسى قد تعطل اليوم، وظهرت بعض الشكاوى والتذمرات، وسكب شخص ما الصلصة على أرضية المطبخ مما تسبب فى حدوث زحلقات، وشتمنى رئيس الطهاة قائلاً لى إننى مومس وعاهرة وغبية.

يقول جوزيف فى حزن: " ليس لى دولة " ويلمس خدى فى رفق ويحملق فى عينى ويضيف: " وأنت الدولة الخاصة بى حاليًا ".

أتناول قوقعة أخرى غير حقيقية مستخرجة من إحدى المعلبات.

ويخطر على ذهنى على نحو فجائى أننى إنسانة تعيسة.

* * *

(٥٤)

لقد هربت كورديليا من منزلها، وهى لا تشير إلى ذلك فى صراحة على هذا النحو، وقد اقتفت أثرى من خلال والدتى، أتقابل معها لكى نتناول القهوة معًا أثناء الاستراحة لفترة ما بعد الظهر، ولا نتقابل فى مطعم الشاليه السويسرى الذى أعمل به؛ حيث كان بمقدورى الحصول على القهوة مجانًا؛ فأنا أريد أن أكون بعيدة عن الشاليه السويسرى لأطول فترة ممكنة وبعيدة عن رائحة الدواجن غير المطهية الموجودة فى غرفة خلفية فى صفوف من الدواجن العارية الشبيهة بأجسام أطفال رضع موتى، وبعيدة عن رائحة بقايا الطعام المهروس المتخلف فى أطباق الزبائن؛ ولذلك فنحن نتقابل فى مطعم موراى الموجود بالشارع نفسه والتابع لفندق بارك بلازا أوتيل، وهو مكان نظيف بعض الشىء، وعلى الرغم من عدم وجود أجهزة تكييف به، فإن به مراوح كهربائية متـــدلية من السقف، وعلى الأقل هنـــا فأنا لا أعرف ما يدور فى داخل المطبخ من أعمال.

حاليًا كورديليا نحيلة ونحيفة أكثر من ذى قبل، بل تكاد تكون هزيلة، فعظمتا الخدين فى وجهها النحيل بارزتان فى وضوح، وعيناها الرمادية/ الخضراء واسعتان وكبيرتان فى وجهها، ولقد رسم خط أخضر حول كل عين، وبشرتها تميل إلى اللون الأسمر بسبب كثرة التعرض لأشعة الشمس، وشفتاها لهما لون أحمر/ برتقالى، وذراعاها بارزتا العظام، ورقبتها جميلة ورائعة، وشعرها ممشط للوراء مثل شعر راقصة للباليه، وهى ترتدى جوربًا أسود اللون، رغم أن الوقت هو فصل الصيف، وهى تلبس صندلاً ولكن الصندل ليس من نوع الصنادل النسائية الجميلة الخاصة بفصل الصيف، كما ترتدى قميصًا قطنيًا أسود اللون يظهر جزءًا من ثدييها.. وتنورة قطنية كاملة لها حزام أسود، ويوجد فى أذنيها قرطان ثقيلان، كما

أقرأناكموه

ترتدى سوارًا من الفضة المكسيكية، وقد تقول عنها لدى رؤيتها إنها جميلة، ولكنك مع ذلك ستحملق فيها مثلما أحملق أنا الآن فيها؛ لأنها لأول مرة فى حياتها تبدو متميزة ومتفردة وذات طابع خاص بها.

لدى مشاهدة بعضنا البعض انطلقنا فى الترحيب مع مد الذراعين للأمام والاحتضان وإطلاق صيحات المتعة والدهشة التى ينبغى أن تطلقها النساء اللاتى لم يشاهدن بعضهن لبعض الوقت، وأنا جالسة الآن فى مطعم مورى فى استرخاء وأحتسى القهوة غير المركزة، بينما كورديليا تتحدث وأنا أسائل نفسى فى تعجب عن السبب الذى جعلنى قد وافقت على ذلك، فأنا فى ظروف غير ملائمة، لأننى مرتدية الزى الرسمى المكرمش المليء ببقع صلصة مرق اللحوم والخاص بطعم الشاليه السويسرى، كما أن إبطى ذراعى مليآن بالعرق، والآلام تنبض فى قدمى كما أن شعرى فى هذه الرطوبة جامح ورطب للغاية ومتجعد مثل صوف مسفوع فى شياط، كما توجد حلقات داكنة تحت عينى لأن الليلة الماضية كانت إحدى الليالى المخصصة لجوزيف.

ومن ناحية أخرى تعرض كورديليا نفسها فى تباهٍ أمامى وتريد لى أرى ما أصبحت عليه أيام الكسل والشراهة فى الطعام والفشل فى التعليم، لقد ابتدعت وابتكرت شخصية جديدة لنفسها، إنها الآن هادئة ورابطة الجأش ومليئة بالأخبار العرضية الطارئة.

إنها حاليًا تعمل فى مهرجان ستراتفورد الشكسبيرى، وتقوم بدور تمثيلى صغير، وتقول: "أقوم بأشياء صغيرة للغاية" ملوحة بأسورتها وقرطها مما يعنى أنها أدوار أصغر بكثير مما تقول، وتضيف: "أدوار مثل حمل الرمح، وإن كنت بالطبع لا أحمل رماحًا" وتضحك، وتشعل سيجارة، وأسائل نفسى فى تعجب : ترى هل سبق لكورديليا أن أكلت القواقع؟ وأعتقد أنها فى أغلب الظن تعرف القواقع، وهذه فكرة مثيرة للإحباط.

مهرجان ستراتفورد الشكسبيرى أصبح الآن مشهورًا للغاية؛ إذ ابتدأ منذ سنوات عديدة فى مدينة ستراتفورد الصغيرة التى يخترقها نهر آفون AVon River والتى يوجد بها إوز لكلا اللونين، لقد قرأت كل ذلك فى المجلات، فالناس يذهبون إلى هناك بالأتوبيسات أو القطارات أو بالسيارات ومعهم السلال الخاصة بالرحلات الخلوية، وفى بعض الأحيان يمضون هناك كل أجازة نهاية الأسبوع ويشاهدون ثلاث أو أربع مسرحيات لشكسبير، الواحدة تلو الأخرى، وفى بادئ الأمر عقد هذا المهرجان فى خيمة كبيرة مثل السيرك، ولكن يوجد الآن مبنى حقيقى غريب وحديث وله شكل دائرى.

فأقول: " وما رأى والدك فى هذا الشأن؟ " وكثيرًا ما كان يخطر هذا على ذهنى فى الآونة الأخيرة : ما رأى الوالدين.

فينغلق وجهها للحظات، ثم تقول: " إنهما مسروران لأننى أفعل شيئًا ما ".

" وماذا عن بيردى وميرى؟ ".

فقالت فى اقتضاب: " أنت تعرفين بيردى، وينبغى أن نكتفى بهذا القدر من الكلام عنى، ولكن ما رأيك فى؟ "هذه نكتة قديمة خاصة بها، وأضحك.

فتقول: " وما الشىء الذى يشغل ذهنك فى هذه الأيام؟ " إنها التى أتذكرها : النغمة المتسمة بالأدب ولكنها غير متسمة بالاهتمام الشديد، وتضيف: " منذ آخر مرة شاهدتك فيها ".

إننى أتذكر هذه المرة الأخيرة فى نوع من الشعور بالذنب، وأقول: " لا شىء يشغل ذهنى كثيرًا، فأنا أذهب إلى المدرسة كما تعرفين "، وعلى الفور يبدو الأمر وكأننى لم أفعل أى شىء له أهمية حقيقية، فما الذى فعلته حقًا طوال السنة ؟ مجرد لغو مع تاريخ الفن وتوسيخ الأيدى بأقلام الفحم، ولا يوجد شىء يمكن أن أريه لها، ويوجد أيضًا جوزيف ولكنه لا يعتبر بمثابة إنجاز فأقرر عدم ذكر اسمه.

أقرأناكموه

وتقول كورديليا: " المدرسة!" وتضيف: " أكنت أنا مسرورة لدى مشاهدة نهاية المدرسة، ياإلهى، ياله من ملل وسأم "ولكن مهرجانات ستراتفورد لا تقام إلا فى فصول الصيف فقط، وبالتالى سينبغى عليها أن تبحث عن شىء ما آخر من أجل مواجهة فترة الشتاء، وربما هى قد تنضم لفرقة إيرل جراى **Earle Grey players** المسرحية التى تقدم عروضها بالمدارس الثانوية، وربما لديها الاستعداد لذلك.

وهى قد حصلت على هذا العمل مع مهرجان ستراتفورد من خلال المساعدة التى قام بها أحد أقارب إيرل جراى الذى كان يتنكرها منذ أيام الملاءة الخاصة بها فى بيرنهام وهى تقوم بدور إحدى الأرواح المتجسدة الخاصة ببروسبيرو فى مسرحية "العاصفة " ويكون عليها أن ترتدى جوربًا جسديًّا عليه رداء شفاف قد نشر عليه أوراق أشجار جافة وترتر لامع، وتردد كلمة "فاحش وداعر وقذر **obscene** " وهى أيضًا تقوم بدور بحار فى المشهد الأول نظرًا لأنها طويلة القامة، وهى تقوم أيضًا بدور سيدة بلاط ملكى فى مسرحية "رتشارد الثالث " وهى أيضًا تقوم بدور الراهبة الرئيسية فى مسرحية " **measure for measure** " وفى هذه المسرحية تتكلم بالفعل ببعض الكلمات، وتتلو هذه السطور بصوت إنجليزى، وبعدئذ إذا تكلمت ينبغى عليك ألا تظهر وجهك، أو إذا أظهرت وجهك ينبغى عليك ألا تتكلم.

وهى تقول: " لقد وقعت فى لخبطة كثيرة أثناء تأدية البروفة"، وتضيف: " أود أن أقوم فى السنة القادمة بدور الساحرة الأولى فى مسرحية {الطرطان} {متى سنتقابل نحن الثلاثة مرة أخرى : فى الرعد أو البرق أو المطر؟} ويقول الرجل العجوز إننى ينبغى أن أكون جاهزة ومستعدة لهذه المسرحية، فهو يعتقد أنه سيكون من الرائع أن تقوم فتاة شابة بدور الساحرة الأولى".

ويتضح أن الرجل العجوز هو نيرون جوثرى المخرج وهو من إنجلترا ومشهور للغاية بحيث لا يمكن لى الادعاء بأننى لم أسمع عنه، فأقول : " هذا شىء عظيم ".

وتقول: " أتذكرين حادثة الكرنبة التى تمت فى بيرنهام، لقد شعرت بالإذلال ".

ولا أريد أن أتذكر، لقد أصبح الماضى متقطعًا مثل الحجارة التى تلقى إلى الماء ومثل البطاقات البريدية، إننى ألمح صورة لنفسى وهى صورة قاتمة وشاغرة.

هل سبق لى أن ارتديت فستانًا له كم خفاش وشبشبًا مخمليًّا؟ هل سبق لى أن ارتديت فساتين لها لون خبيزى من أجل الذهاب إلى حفلات الرقص الرسمية مع جرجرة القدمين هنا وهناك عبر الأرضية بينما فخذ شخص ما يحفر فى داخل فخذى؟ لقد تم التخلص من الكورسيهات الناشفة منذ فترة طويلة مضت، ومن المؤكد أن شهادات الدبلوم والصور الفوتوغرافية التى التقطت لتلاميذ وتلميذات الفصل الدراسى قد أُلقيت فى حجرة البدروم الخاصة بوالدتى وفى الحقيبة الضخمة مع الأدوات الفضية التى فقدت بريقها ولمعانها، ألمح تلك الصور الفوتوغرافية، إنها مليئة بصفوف وصفوف من الأطفال والطفلات اللاتى وضعن أحمر الشفاة على أفواههن والعصبة اللولبية على جباههن، إننى لست على استعداد أبدًا لأن أبتسم لدى مشاهدة تلك الصور، وإنما سأحملق فى نظرات متحجرة نحو الفضاء الممتد أمامى وإلى ما وراء مثل هذه التحويلات المراهقة.

أتذكر فمى المزعج المشاكس، وأتذكر كم كنت أعتقد فى نفسى أننى حكيمة وعاقلة، ولكننى لم أكن حكيمة فى تلك الأوقات، أما الآن فقد أصبحت حكيمة بالفعل، وتقول كورديليا: " هل تذكرين الطريقة التى كنا نلجأ إليها لكى نتمكن من سرقة pinch الأشياء؟ " وتـضيف: " تلك السرقات كانت هى الشىء الوحيد الذى أحببته طول تلك الفترة بأكملها ".

فأقول: " وما السبب فى ذلك ؟ " لأننى لم أحب هذه السرقات كثيرًا، حيث كنت أخشى دائمًا أن يتم ضبطنا متلبسين بالسرقة.

أقرأناكموه

فتقول: " لقد كان ذلك بمثابة شيء ما يمكن لى الحصول عليه " وأنا غير متأكدة تمامًا من المعنى الذى تقصده من وراء تلك العبارات.

تستخرج كورديليا نظارة الشمس الخاصة بها من حقيبة كتفها وتضعها على عينيها، إننى منعكسة هناك على زجاج نظارتها فى نسخة طبق الأصل منى أحادية اللون وأصغر للغاية عن الحجم الحقيقى لى.

* * *

تحضر كورديليا تذكرة مجانية لى للدخول إلى مسرح ستراتفورد حتى يمكن لى مشاهدتها تؤدى دورها التمثيلى فى المسرحية، أستقل الأتوبيس إلى هناك، إنه عرض مسرحى يقدم بالنهار فى فترة ما بعد الظهر، ويمكن لى الذهاب إلى هناك ومشاهدة العرض المسرحى، ثم أعود بالأتوبيس فى الوقت الملائم من أجل النوباتجية المسائية فى مطعم الشاليه السويسرى، والمسرحية هى (العاصفة)، وأبحث عن كورديليا عندما تدخل إلى المسرح الخادمات التابعات لبروسبيرو مع تعاظم الموسيقى والتأثيرات الضوئية والموسيقية وأحملق بشدة فى محاولة لمعرفتها من بين الأخريات المتنكرات وراء الزى، ولكن لا أفلح فى ذلك.

* * *

(٥٥)

جوزيف يدخل تعديلات على شكلى، ويقول: " ينبغى أن يكون شعرك سائباً " بينما يقوم بفك دبابيس كعكة الشعر الخاصة بى وتمرير يديه فى الشعر لكى يجعله

منفوشًا، ويضيف: " أنت تشبهين فتاة غجرية رائعة " ويضغط بفمه على عظمة الترقوة الخاصة بى ويفك ملاءة السرير التى كان قد لفنى بها.

أقف ساكنة دون أى حركة وأدعه يفعل كل هذا، أدعه يفعل ما يحلو له، الوقت هو أغسطس، والجو حار للغاية بحيث يتعذر على المرء أن يتحرك، السديم الضبابى يتعلق فوق المدينة مثل دخان مبلل، وهو يغطى بشرتى بطبقة رقيقة زيتية ويتسرب إلى داخل بشـــرتى، إننى أتحرك عبر أوقات النهار مثل زومبية **Zombie** تنتقل من زمن إلى آخر دون توجيه، لقد توقفت عن رسم الأثاث الموجود بالشقة، أملأ البانيو بالمياه الباردة وأستلقى فيه، ولكننى لم أعد أقرأ فى غرفة الحمام، سرعان ما سيحين الوقت الذى نرجع فيه إلى المدرسة، إننى نادرًا ما أفكر فى ذلك.

يقول جوزيف: " ينبغى عليك أن ترتدى فساتين أرجوانية اللون، فهى من شأنها أن تدخل التحسينات عليك " ويضعنى فى مواجهة الشفق الأحمر للنافذة، ويديرنى، ويقف إلى الوراء قليلاً ويجرى بيده صعوداً وهبوطًا على جانبى، لم يعد يهمنى ما إذا كان هناك شخص ما يستطيع رؤيتى من خلال النافذة المفتوحة، أشعر بركبتى وهما تبدآن فى الاستسلام للاتصال الجنسى وأشعر بفمى وهو يتدلى فى ارتخاء، عندما نكون منفردين معًا لا يقطع الغرفة دينةٌ وذهابًا ولا يقوم بشد شعره، وإنما يتحرك فى بطء وفى رفق وفى تفكير هادئ واحتراس شديد.

* * *

يصطحبنى جوزيف إلى حديقة السطح بفندق بارك بلازا بينما أنا مرتدية ثوبى الأرجوانى الجديد، الفستان له جزء علوى محكم ومحزق وله رقبة منخفضة وتنورة كاملة، وهو يتلامس مع ساقى العاريتين أثناء سيرى، وشعرى سائب ورطب، وأعتقد أنه يشبه الممسحة التى تنظف بها أرضيات الغرف، وألمح نفسى

أقرأناكموه

على نحو فجائى منعكسة على المرآة المعتمة بالدخان فى داخل الأسانسير لدى صعودنا إلى الدور العلوى الأخير، فأشاهد على الفور ما يشاهده جوزيف : امرأة رشيقة لها شعر قاتم وعينان حزينتان فى وجه نحيل أبيض اللون، أتعرف على الطراز، إنه طراز يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر فى الفترة السابقة على الرفئيليةPre – Raphaelite ، كان ينبغى أن أكون ممسكة بنبات الخشخاش.

نجلس فى الفناء المكشوف المليء بالهواء الطلق ونتناول مشروب المانهاتانز وننظر من فوق الدرابزين الحجرى، لقد اكتشف جوزيف مؤخرًا أن مذاق مشروب المانهاتانز رائع، هذا من أطول العمارات فى المنطقة، وتحتنا تعانى تورونتو من حرارة السماء بينما الأشجار تنتشر مثل طحالب ممزقة والبحيرة تبدو مثل الزنك من على مسافة.

يقول لى جوزيف إنه أطلق النار على رأس رجل ذات يوم، وما أزعجه هو السهولة التى يمكن تنفيذ بها مثل هذا العمل، ويقول إنه يكره فصل " رسم الحياة " وإنه لن يستمر فى تسيير شئون هذا الفصل للأبد ولن يستمر محبوسًا فى هذه المياه الراكدة الأقليمية ومنهمكًا فى تعليم مبادئ الرسم للناس الأغبيـــاء المغفلين، ويقول: " إننى أجيء من دولة لم يعد لها وجود، وأنت تنتمين لدولة لم توجد بعد "، ذات يوم كنت أنظر إلى هذا الكلام على أنه متسم بالعمق، أما الآن فإننى أسائل نفسى فى تعجب : ترى ما الذى يعنيه بهذا الكلام؟

أما عن تورونتو فهو يقول عنها إنها دون مباهج أو روح، وعلى كل حال فالرسم فى حد ذاته هو عادة بغيضة مختلفة عن الماضى الأوروبى، ويقول: "الرسم لم تعد له أهمية " ملوحًا بيده فى إبعاد وإقصاء للرسم، إنه يرغب فى الدخول فى مجال الفن السينمائى، إنه يرغب فى أن يصبح مخرجًا للأفلام فى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يذهب إلى أمريكا بمجرد أن ينتهى من إعداد الترتيبات اللازمة لذلك، فهو لديه اتصالات قوية؛ حيث توجد شبكة كاملة من المجرمين على سبيل المثال، مخرجين وبولنديين وتشيك هناك بأمريكا توجد المزيد من الفرص فى

مجال العمل فى الأفلام السينمائية، بينما لا توجد فى كندا سوى الأفلام التسجيلية القصيرة، والناس المجريون الآخرون الذين يعرفهم يشقون طريقهم بنجاح عظيم داخل أمريكا، وهم سوف يدخلونه إلى عالم السينما.

أقوم بالإمساك بيد جوزيف، ممارسته للحب فى هذه الأيام تتسم بالتأمل وشرود الذهن كما لو كان يفكر فى شيء ما آخر، وأكتشف أننى مخمورة بعض الشيء، كما أكتشف أيضًا أننى خائفة من الارتفاعات العالية؛ إذ لم يسبق لى أن كنت فى مثل هذا الارتفاع فى الهواء من قبل، أفكر فى الوقوف بجوار الدرابزين الحجرى وأتشقلب فى بطء من فوق الدرابزين، من هذا المكان يمكن لك مشاهدة الولايات المتحدة الأمريكية التى تبدو مثل زغب خفيف فوق الأفق، ولا يتحدث جوزيف عن ذهابى معه إلى أمريكا، وأنا لا أطلب منه أن يحقق لى شيئًا من هذا القبيل.

وبدلاً من ذلك يقول: " أنت ملتزمة بالصمت للغاية "، ويضع يده فى تلامس مع خدى، ويضيف قائلاً: " أنت غامضة "، وأنا لا أشعر أننى غامضة وإنما شاغرة وخالية من أية تعبيرات.

ويقول: " أأنت على استعداد لأن تفعلى أى شيء من أجلى ؟ " وهو يحملق فى عينى بشدة، أتطوح نحوه فى ابتعاد عن الأرض، وكان بإمكانى أن أقول فى سهولة كبيرة : " نعم ".

ولكنى أقول: " لا "، وهذه مفاجأة بالنسبة لى، لا أعرف من أين جاءت هذه الكلمة غير المتوقعة المتسمة بالصدق، وتبدو عقب انطلاقها بأنها متسمة بالوقاحة.

فيقول فى حزن: " لم أكن أتوقع ذلك ".

* * *

أقرأناكموه

يظهر جون **Jon** فى فترة ما بعد الظهر ذات يوم فى مطعم الشاليه السويسرى، لا أتعرف عليه فى بادئ الأمر لأننى لا أنظر إليه، فأنا أقوم بمسح المنضدة بقطعة من القماش، بينما كل حركة أقوم بها تشكل مجهوداً كبيرًا؛ فذراعى ثقيلة بسبب شعورى بالرغبة الشديدة فى النعاس، فالليلة الماضية أمضيتها مع جوزيف، ولكن فى هذه الليلة لن أكون معه لأنها ليست ليلتى وإنما هى ليلة سوزى، وفى هذه الأيام نادرًا ما يتحدث جوزيف عن سوزى، واذا تحدث عنها يكون كلامه متسمًا بالحنين للماضى **nostalgia** كما لو أنها أصبحت بمثابة شىء مُنْتمٍ للماضى أو شىء ميت على نحو رائع مثل شخص ما مذكور فى قصيدة من الشعر، ولكن ربما تكون هذه هى طريقته الوحيدة فى التكلم، وربما هما يمضيان أمسيات منزلية مملة معًا؛ حيث ينخرط هو فى قراءة الجريدة بينما هى تقدم الطعام فى كسرولة، وعلى الرغم من ادعائه بأننى بمثابة سر مغلق، فإنهما ربما يتحدثان عنى بالطريقة نفسها التى أتحدث بها مع جوزيف عن سوزى، وهذه الفكرة ليست مريحة.

أفضل أن أفكر فى سوزى كامرأة محبوسة فى داخل برج هنالك فى مونت كارلو بطريق أفينيو رود **Avenue Road** مع البكاء فى ضعف أثناء انتظارها مجىء جوزيف إليها، ولا أستطيع أن أتخيل أن يكون لها حياة أخرى بخلاف ذلك؛ إذ لا أستطيع أن أتخيلها وهى تغسل ملابسها التحتانية على سبيل المثال، وتعتصر هذه الملابس وتعلقها على قضيب الستارة بغرفة الحمام على النحو الذى أفعله، ولا أستطيع أن أتخيلها وهى تأكل، فهى منهكة ودون إرادة وضعيفة ولا فقارية **Spineless** من خلال الحب تمامًا مثلى أنا.

يقول جون **Jon**: "لم نتقابل منذ فترة طويلة"، ويقفز إلى البؤرة خلف ذراعى القائم بأعمال المسح ويبتسم فى وجهى بينما أسنانه بيضاء فى وجه أكثر سمرة مما كان عليه فى أى وقت مضى وفقًا لما أتذكره، إنه مستند على المنضدة التى أقوم بمسحها، وهو يرتدى قميص حرف **T** رمادى اللون علاوة على جينز قديم على

هيئة شورت فوق الركبتين وفى قدميه حذاء خاص بسباق الجرى ودون جورب، يبدو أنه يتمتع بالصحة على نحو يفوق ما كان عليه فى الشتاء، لم يسبق لى أن شاهدته فى وقت النهار من قبل.

إننى مدركة للحالة التى أنا عليها ومدركة أننى مرتدية للزى الرسمى المليء بالبقع المتسخة، هل تنبعث رائحة العرق من إبطى وهل الرائحة تشبه رائحة دهون الدواجن؟ أقول له: " كيف دخلت إلى هنا ؟ ".

فيقول: " جئت سيرًا على الأقدام "، ويتساءل: " ما رأيك فى فنجان قهوة؟"

إنه لديه وظيفة صيفية مع مصلحة الأشغال العامة؛ حيث يقوم بملء الأخاديد والحفر الموجودة بالطريق، ويضع القطران على الشقوق الناجمة عن جيشان الصقيع، وتعلق بجسده رائحة قطران خفيفة، وهو ليس من النوع الذى يمكن أن تعتبره نظيفًا، ويقول: " وماذا عن تناول البيرة فيما بعد ؟ " هذا شيء سبق أن قاله كثيرًا من قبل؛ فهو يريد تصريح المرور الذى يسمح له بالجلوس فى القسم المخصص "للسيدات ومرافقيهن " كالمعتاد، وهذا لا يتطلب منى أى مجهود؛ لذلك أقول: " ولم لا ؟ ولكن ينبغى على أن أغير ملابسى ".

عقب انتهاء العمل آخـــذ دشًا، ثم أرتدى فستانى الأرجوانى، وأتقابل معه عند " مابيل ليف **Maple Leaf** " وندخـــل معًا إلى قسم " السيدات والمرافقين لهن "، ونجلس هنالك فى المكان المظلم والذى هو بارد ومنعش على الأقل، ونتناول البيرة المسحوبة من برميل، أشعر بالارتباك لدى الجلوس معه على انفراد؛ فيما سبق كانت توجد دائمًا مجموعة من الناس، ويسألنى جون عن الأمور التى شغلتنى فى الآونة الأخيرة، فأقول إنه لا يوجد شيء يشغل ذهنى كثيرًا، ويسألنى عما إذا كنت قد شاهدت العم جو **Uncle Joe** فى أى مكان قريب من هنا، فأردّ قائلة : " لا ".

فيقول: " ربما يكون قد اختفى فى داخل السروال التحتانى الخاص بسوزى **knickers** "، ويضيف: " إنه روث **shit** سعيد الحظ "، إنه مازال يعتبرنى ولدًا على

أقرأناكموه

سبيل التشريف an honorary boy ومازال يقول أمامى أشياء غير مهذبة عن النساء، إننى مندهشة من كلمة " Knickers " التى تعنى السروال الداخلى أو التحتانى، من المؤكد أنه قد التقط هذه الكلمة من كولين Colin الرجل الإنجليزى، وأسائل نفسى فى تعجب عما إذا كان يعرف معلومات عنى أيضًا، وعما إذا كان يدلى بتعليقات على سروالى الداخلى أيضًا من وراء ظهرى، ولكن كيف له أن يعرف معلومات عنى ؟.

وهو يقول إن مصلحة الأشغال العمومية تعطى أجورًا مرتفعة، ولكنه لا يقول للأولاد الأخرين العاملين معه إنه رسام، ولا يقول ذلك للعمال النظاميين المحترفين القدامى بصفة خاصة، ويقول: " لأنهم قد يظنون أننى مضطرب العقل أو أى شىء من هذا القبيل ".

أتناول البيرة بكميات أكثر من اللازم وبعدئذ تتغامز الأنوار فى اشتعال وانطفاء بما يفيد أن الوقت قد حان لإغلاق المحل، ونخرج إلى الشارع الصيفى الساخن ليلاً، ولا أرغب فى العودة إلى منزلى بمفردى.

ويقول جون: " أيمكن لك أن ترجعى إلى مسكنك بمفردك دون التعرض لأية متاعب ؟ "، فلا أرد على سؤاله، فيقول: " هيا بنا، لسوف أصطحبك "، ويضع يده على كتفى فأشم رائحة القطران الخاصة به علاوة على رائحة التراب ورائحة البشرة المتعرضة كثيرًا لأشعة الشمس، وأبدأ فى البكاء، وأقف فى الشارع بينما الناس السكارى يترنحون خارجين من الباب المكتوب عليه "للرجال فقط " وقد ضغطت بيدى على فمى فى بكاء وشعور بالحماقة.

ويشعر جون بالانزعاج ويقول: " هدئى من روعك أيتها الصديقة Pal" ويربت على فى ارتباك ويقول: " ما الأمور الخاطئة التى حدثت ؟ ".

فأقول: " لا شىء "، ولأنه يناديني بكلمة Pal وهى بمعنى صديق، فإن ذلك يجعلنى أبكى أكثر، إننى أشعر كأننى جورب مبلل بالماء، وأشعر أننى قبيحة الشكل

وآمل أن يعتقد أننى قد أسرفت للغاية فى تناول البيرة مما أدى إلى ظهور هذا البكاء.

يضع ذراعه حولى ويعتصرنى ويقول: " هيا بنا سنذهب معًا لتناول القهوة ".

أتوقف عن البكاء لدى السير معًا على الطريق، ونصل إلى باب بجوار متجر لبيع حقائب السفر بالجملة، ثم يستخرج مفتاحًا من جيبه، ثم نصعد معًا على السلالم فى الظلام، ويقبلنى لدى دخولنا من الباب بالدور العلوى بفمه الذى تنبعث منه رائحة البيرة والقطران، لا توجد أنوار مضاءة، أضع يدى حول وسطه وأتوقف كما لو كنت أغوص فى الطين وهو يرفعنى على ذلك النحو ويحملنى ويسير بى عبر الغرفة المظلمة مع الاصطدام بالحوائط والارتطام بالأثاث ونقع معًا على الأرض.

* * *

أقرأناكموه

الباب الحادى عشر

نساء ساقطات

Falling Women

أقرأناكموه

أستمر فى السير شرقًا بشارع كوين ستريت، وأنا مازلت أشعر بالدوار، بعض الشيء الناجم عن تناول الخمور، هذا الشعور الخفيف بالدوار كان يطلق عليه ذات يوم كلمة : مترنح **tipsy**، الكحول هو عقار يخفض النشاط والحيوية، إنه سوف يخفض من روحى المعنوية فيما بعد ، ولكننى الآن مرحة وأدندن لنفسى مع فتح فمى قليلاً.

توجد هنا مجموعة من التماثيل الخضراء/ النحاسية مع وجود تلطخات سوداء تجرى لأسفل مثل دماء معدنية، امرأة جالسة ممسكة بصولجان وثلاثة جنود شبان يسيرون فى مشية عسكرية، وفى تجمع حولها، وقد التفت حول سيقانهم لفائف الساق الشبيهة بالضمادة؛ حيث يقومون بالدفاع عن الإمبراطورية وقد ظهر على وجوههم الحماس والقدرية والتجمد فى الزمن، وفوقهم وعلى لوحة حجرية تقف امرأة أخرى وهى فى هذه المرة موجودة مع أجنحة ملائكية . الانتصار أو الموت أو ربما كلاهما، وهذا النصب التذكارى هو افتخار وتكريم لحرب جنوب أفريقيا التى جرت أحداثها منذ حوالى تسعين عامًا، وأسائل نفسى فى تعجب عما إذا كان هناك أى شخص يتذكر تلك الحرب أو ما إذا كان هناك فرد موجود فى تلك السيارات التى تمر يهتم بإلقاء مجرد نظرة عابرة على ذلك النصب التذكارى.

أتجه شمالاً على " طريق الجامعة " وأمر بجوار التعقيم الخاص بالمستشفيات، وعلى طول الطريق القديم الخاص بالموكب الاستعراضى لسانتا كلاوس، أما مبنى علم الحيوان **Zoology** فقد تم هدمه، ومن المؤكد أن ذلك قد حدث منذ سنوات عديدة مضت، وحافة النافذة التى كنت أرقب من خلالها ذات يوم الجنيات المشبعات بالماء ورقائق الثلج وأتنفس فيها رائحة الثعابين والفئران والمواد المطهرة أصبحت الآن

أقرأناكموه

هواءً شاغرًا، فمن هو الشخص الآخر الذى يتذكر أن هذا المكان كان يوجد به ذات يوم مبنى علم الحيوان ؟

توجد نافورات فى أرجاء متفرقة على هذا الطريق كما توجد أزهار وتماثيل غريبة جديدة، أتتبع المنحنى حول مبنى البرلمان بما فيه من شكل لأرملة نبيلة فيكتورية جالسة القرفصاء، وأمام هذا المبنى يرفرف العلم الذى لم أستطع رسمه على الإطلاق والذى توجد فى أعلاه الراية البريطانية **Jack union** بينما يرفرف العلم الوطنى الجديد هناك أيضًا والذى به شريطان لهما لون أحمر وورقة نبات القيقب الحمراء المنتشرة على مساحة لها لون أبيض، والذى يشبه علامة تجارية لمجلة من النوع الرخيص أو يشبه قتل بومة فى الثلج، ومازلت أنظر إلى هذا العلم على أنه العلم الجديد، رغم أنهم قد غيروه منذ فترة طويلة مضت.

* * *

أعرف الآن معلومات عن جوزيف تزيد كثيراً عما كنت أعرفه عنه آنئذ، وأنا أعرف هذه المعلومات لأننى أصبحت أكبر سنًّا، فأنا لدى معلومات عن المنخوليا والاكتئاب الشديد الخاص به وعن طموحاته وعن قنوطه ويأسه وعن زوايا الخواء الموجودة فى داخله والتى ينبغى أن تملأ، وأعرف المخاطر والأخطار، فما الذى كان يفعله- على سبيل المثال – مع فتاتين أصغر منه فى السن بحوالى ١٥ سنة؟ لو أن إحدى ابنتى وقعت فى حب رجل كهذا، فإننى كنت سأصبح مسعورة وشديدة الاهتياج.

* * *

بينما أحدق النظر نحو فاترينة عرض زجاجية بها أوشحة حريرية إيطالية لها ألوان غامضة، أزرق/ رمادى، وأخضر/ بحرى، أشعر بلمسة على ذراعى وقفزة من قلبى مليئة بالقشعريرة.

أقول بينما أستدير : " كورديليا ".

ولكنها ليست كورديليا وليست أى شخص أعرفه، إنها امرأة، أو هى فتاة فى حقيقة الأمر من نوع ما تنتمى لمنطقة الشرق الأوسط، تنورة طويلة تصل إلى رسغ القدم مصنوعة من القطن المطبوع وحذاء كندى ذو رقبة وچاكيت قصير مغلق بالزرار ومنديل مطوى عبر الجبين مع وجود ثنية فى القماش على كلا الجانبين مثل خمار الراهبة، واليد التى تلمسنى تكون ثقيلة فى قفازها الشمالى وبشرة المعصم ما بين القفاز وأسورة الچاكيت لها لون بنى بعض الشىء مثل لون القهوة بالكريمة المزدوجة، وعيناها واسعتان مثل عينى طفل متشرد مرسوم فى لوحة، وتقول : " لو سمحت "، وتضيف : " إنهم يقتلون أناسًا كثيرين "، ولا تذكر المكان الذى يتم فية القتل، من الممكن أن تكون هنـــاك أماكن كثيرة يتم فيها القتل أو ربما يتم القتل فى مواقع تقع بين الأماكن، حتى إن التشرد **homelessness** أصبح جنسية **nationality** الآن، فعلى نحو ما لم تنته الحرب على الإطلاق، وإنما تناثرت إلى شظايا متبعثرة وأصبحت موجودة فى كل مكان، بحيث لا يمكن لك أن تمنعها من قتل الضحايا، فعملية القتل مستمرة بشكل لانهائى الآن، إنها صناعة، هناك أرباح هائلة وأموال هائلة من وراء القتل، فأقول : " نعم "، فهذه هى الحرب التى قتلت ستيفن.

" بعض الحروب موجودة هنا، وبعض الناس هنا ليس لديهم أى شىء، وهم سيعرضون للقتل... " .

فأقول : " نعم، أدرك ذلك "، وهذا هو السبب فى أننى أفضل كثيرًا السير على الأقدام، ففى داخل سيارة أكون أكثر انعزالاً، وكيف لى أن أعرف أنها على النحو الذى تدعيه ؟ فهى قد تكون مدمنة على تناول المخدرات.

" لدى أسرة مكونة من أربعة أشخاص من بينهم طفلان، إنهم يعشيون معى وأنا مسئولة عنهم، ، أشعر بالمسئولية **responsibility** نحوهم "، وتتلعثم قليلاً مع نطق كلمة " مسئولية " ولكنها تنطق بها فى نهاية الأمر، إنها خجولة من نفسها، إنها لا تحب ما تقوم به، ولا تحب هذا الإمساك بالناس فى الشارع.

" نعم ؟ ".

" إننى مضطرة للتسول رغم أنفى "، ننظر إلى بعضنا البعض، إنها مضطرة للتسول، وتضيف : " ٢٥ دولارًا يمكن أن تطعم أسرة مكونة من أربعة أفراد لمدة شهر واحد ".

وما الذى يمكن أن يأكلوه وفق هذا المبلغ الضئيل ؟ هل يأكلون الخبز القديم الذى تغير طعمه ؟ هل يأكلون الفطائر التى تركها الناس بسبب طعمها الردىء، وهل هى تقصد أن ذلك المبلغ يكفى لتغطية نفقات أسبوع؟ إذا كانت هى تعتقد فى هذا ، فإنها تستحق أن أتصدق عليها من نقودى، أنتزع قفاز يدى وأبحث فى كيس نقودى، وأستخرج أوراقًا نقدية وردية وزرقاء وأرجوانية، إنه من الفحش أن يكون لدى المرء مثل هذا النفوذ وهذه القوة، وأيضًا من الفحش أن يشعر شخص بمثل هذا العجز الشديد والخلو من القوة والنفوذ، ولربما هى تكرهنى.

أقول : " ها هى النقود اللازمة لك ".

فتومئ برأسها، إنها ليست ممتنة وليست شاكرة، وإنما ظنونها قد تأكدت من حيث رأيها فى، أو رأيها عن نفسها، تخلع قفاز يدها الناعمة التى لها أظافر مثل أقمار شاحبة اللون، وإلى يدى ذات البشرة الميتة المتصلبة الممزقة، وتقوم بإدخال الأوراق المالية فى طية بين زراير چاكيتتها، ومن المؤكد أن لديها حافظة نقود

هنـــالك بعيدًا عن الأيدى الراغبة فى السرقة، ثم ترتدى القفاز الخاص بها وتقول : " لسوف يبارك الله God فيك " .

ولم تستخدم لفظة Allah، وإن كانت قد صدقت أن الله سوف يباركنى.

أسير مبتعدة عنها وأنا أرتدى القفاز الخاص بى، فى كل يوم يوجد المزيد من هذا، المزيد من هذا النحيب والشكوى الصامتة والمزيد من الأيدى الممتدة المتعرضة للموت جوعًا المرتلة : "نحن بحاجة للمساعدات وعلى نحو لانهائى" .

* * *

(٥٧)

فى شهر سبتمبر أترك العمل فى مطعم الشاليه السويسرى وأعود إلى المدرسة، كما أرجع أيضًا إلى البدروم بمنزل والدىّ لأننى لا أستطيع أن أتحمل عدم العودة إليه، كلا هذين المكانين محفوف بالمخاطر، وحياتى الآن متعددة العناصر والأجزاء، بل أصبحت على هيئة شرائح، ولكننى لم أعد كسولة وسباتية ومتسمة باللامبالاة، فعلى العكس من ذلك أصبحت متيقظة ومحترسة من الأخطار ومليئة بالإدرينالين على الرغم من حرارة الجو فى أواخر الصيف، إنه الغدر والخيانة الذى يسبب لى هذا ويجعلنى أقف على قمة الخداعات الخاصة بى، فأنا بحاجة لأن أخفى جوزيف عن والدى وإخفاء جون عن جميع الناس، إننى أتسلل فيما حولى فى رعب؛ حيث أخشى من انكشاف أمرى، أتجنب البقاء بالخارج إلى فترة متأخرة من الليل وأدافع وأتملص وأمشى فى حذر على أطراف أصابعى،

أقرأناكموه

ومن العجيب أن هذا يجعلنى أشعر أننى أصبحت فى حالة من الأمن أكثر من ذى قبل.

رجلان أفضل من رجل واحد، أو على الأقل هما يجعلانى أشعر أننى فى حالة أفضل، إننى أقول لنفسى إننى واقعة فى حبهما معًا فى آن واحد، وإن امتلاكى لاثنين يعنى أننى لست بحاجة لاتخاذ قرار يتعلق باختيار واحد فقط منهما، جوزيف يقدم لى ما كان يقدمه لى دائمًا بالإضافة إلى تقديم الخوف لى، إنه يقول بطريقة عرضية لى وبالطريقة نفسها التى حدثنى بها عن قيامه بإطلاق الرصاص على رأس رجل، إنه فى معظم الدول باستثناء هذه الدولة { كندا } تكون امرأة واحدة منتمية لرجل واحد، فإذا عثر رجل على امرأته مع رجل أخر فإنه يبادر إلى قتلهما معًا ولا يلقى أحد من الناس اللوم عليه، ولا يقول أى كلام عما تفعله امرأة فى حالة وجود امرأة أخرى، ويقول لى هذا الكلام أثناء التمليس بيده على ذراعى وعلى كتفى وعبر رقبتى، فأسائل نفسى فى تعجب : ترى ما هى الأمور التى يشك فيها، لقد اعتاد أن يطلب منى الكلام، وإلا فإنه يضع يده على فمى، أغلق عينى وأشعر به من حيث هو مصدر للقوة وغامض ومراوغ وداهية، وأظن أنه قد تظهر به صفة ما سخيفة إذا أمكن لى النظر إليه نظرة موضوعية، ولكنى لا أستطيع النظر إليه بطريقة موضوعية.

* * *

أما بالنسبة لجون **Jon** فأنا أعرف ما يقدمه لى، إنه يقدم لى الهروب والابتعاد عن بيئة الناس الكبار، إنه يقدم لى المرح والفوضى واللخبطة، إنه يقدم لى الأعمال المزعجة والمثيرة.

أفكر فى أن أحدثه عن جوزيف لكى أرى ما يمكن أن يحدث، ولكن قد يكون الخطر الكامن فى هذا من نوع مختلف، فهو ربما سيسخر منى ويهزأ بى لأننى أنام

مع جوزيف الذى يعتبره إنسانًا عجوزًا وسخيفًا، وبالطبع لن يفهم الكيفية التى يمكن أن أنظر بها إلى رجل كهذا وبحيث آخذه مأخذ الجد، وهو لن يفهم أو يدرك ذلك الدافع الذى لا يقاوم والذى يدفعنى نحو جوزيف، وبالتالى فسينظر إلى نظرة أقل من ذى قبل.

شقة جون الموجودة فوق محلات بيع الحقائب شقة مستطيلة وضيقة وتنبعث منها رائحة الأكريل ورائحة الجوارب القديمة المستعملة، ولا يوجد بها سوى غرفتين بالإضافة إلى غرفة الحمام، وغرفة الحمام لها لون أرجوانى مع وجود طبعات أقدام حمراء على الحائط وعبر السقف وهبوطًا على الحائط المقابل، والغرفة الأمامية مطلية باللون الأبيض الناصع، أما الغرفة الأخرى والتى تعتبر غرفة النوم ، فإنها مصقولة بلون داكن لامع.

فى بعض الأحيان يعيش جون بمفرده فى هذه الشقة، وأحيانًا يوجد شخص ما آخر أو اثنان ينامان فى حقيبتى النوم الخاصتين بهما فوق أرضية الغرفة، هؤلاء الرسامون الآخرون يلوذون بالفرار من أصحاب الشقق المائجين بالغضب، وعندما أقوم بدق جرس الباب بالدور الأرضى، فإننى لا أعرف أبدًا من الذى سيفتح الباب أو ماذا سيحدث . نساء مختلفات يمررن إلى جوارى على السلالم صاعدات أو هابطات، أو يعثر عليهن فى حالة تسكع عند الطرف البعيد للغرفة البيضاء حيث يوجد مطبخ مرتجل يتكون من موقد كهربائى وإبريق للشاى كهربائى، وليس من الواضح أبدًا مع من تتصادق هؤلاء النساء، فهن من وقت إلى آخر بمثابة طالبات أخريات فى مجال الفنون يجئن إلى هذه الشقة لمجرد الدخول فى نقاش يتعلق بالفن، وهن لا يتحـــدثن كثيرًا مع بعضهن البعض، فهن إما أن يتحدثن مع الرجال أو أن يلتزمن الصمت.

* * *

أقرأناكموه

صور جون تكون معلقة فى الغرفة البيضاء أو مركونة على الحوائط، وهذه الصور تكاد تتغير أسبوعيًّا، لأن جون غزير الإنتاج؛ فهو يرسم بسرعة هائلة فى أكريليات **acrylics** عنيفة حارقة للعين وتركيزه على الألوان الحمراء **reds** والورديات **pinks** والأرجوانيات **purples**، وعلى هيئة أنشوطات ودوامات محمومة، وأشعر أنه ينبغى على أن أعجب بهذه اللوحات، لأننى شخصيًّا غير قادرة على الرسم بتلك الطريقة، وأنا أعجب بها بالفعل فى الأشكال الأحادية المقطع، ولكننى فى الخفاء وبينى وبين نفسى لا أحب هذه اللوحات كثيرًا؛ فقد سبق لى مشاهدة أشياء كهذه بجوار الطريق البرى السريع عندما تكون السيارات قد دهمت شيئًا ما.

ولكن هذه اللوحات لا يفترض لها أن تكون صور أى شىء يمكن لك التعرف عليه، وإنما هى بمثابة لحظة إبداع وقعت فى الأسر فى داخل مساحة من القماش، فهى بمثابة رسم محض.

جون يهتم بالنقاء للغاية ولكن فى مجال الفن فقط؛ إذ لا ينطبق هذا على شئون منزله الذى يعتبر بمثابة احتجاج شديد على كل الأمهات وأمه بصفة خاصة، فهو يغسل الأطباق فى البانيو مما يجعل أشياء تتسرب إلى البالوعة مثل فتات الخبز وحبوب معلبات القمح، كما أن أرضية غرفة المعيشة الخاصة نهاية الأسبوع، وغرفة الحمام الخاصة به تشبه غرف الحمام فى محطات البنزين بالطريق المؤدى إلى الشمال؛ حيث توجد حلقة بنية اللون حول سلطانية التواليت التى تحتوى على أعقاب سجائر طافية .

ممارسة الحب مع جون صعبة مثل تخويض الكلاب فى الطين، أما ممارسة الحب مع جوزيف فهى تتسم بالتروى والغبطة الممزوجة بالتعذيب، وجون لا ينظر إلى النساء على أنهن زهرات عاجزات أو أشكال يعاد ترتيبها والتأمل فيها مثلما يعتقد جوزيف، فجون يصنف النساء إلى فئتين فقط ، فهن إما جميلات أو سخيفات، ويقول لى: " استمعى إلى، أنت أكثر ذكاءً من معظم الفتيات الأخريات "، وهذا

الكلام يدخل السرور على، ولكنه يجعلنى أيضًا ضمن الفتيات غير الجميلات، يمكن لى الاعتناء بنفسى.

* * *

يبدأ جوزيف يسألنى : " أين كنت ؟ وماذا كنت تفعلين ؟ إننى متسمة بالطابع التلقائى وكتومة وخبيثة، فأنا أمسك بجون فى مواجهته مثل ورقة الآص ace فى لعبة الكوتشينة ، فإذا أمكن له أن يصبح محبًّا لفتاتين فى آن واحد، فإنه يمكن لى أن أحب رجلين فى وقت واحد، ولكنه لم يعد يحدثنى عن سوزى.

آخر مرة شاهدت فيها سوزى كان فى أواخر أغسطس وقبل أن أغادر مطعم الشاليه السويسرى مباشرة؛ إذ جاءت إلى هذا المطعم وتناولت الطعام بمفردها، حيث أكلت نصف دجاجة علاوة على الأيس كريم، وكان شعرها فى حالة من الإهمال وكان جسدها أكثر امتلاءً ووجهها كان مستديرًا، وتناولت طعامها بطريقة آلية كما لو كان الطعام بمثابة عمل روتينى تؤديه، ولكنها تناولت كل الكميات الموجودة فى أطباقها ولم تترك أى شىء، وربما كانت تأكل من أجل المواساة والسلوان بسبب جوزيف؛ فمهما كانت الظروف، فإنه لن يتزوجها على الإطلاق وكان ينبغى عليها أن تدرك تلك الحقيقة، ولقد افترضت أنها قد جاءت إلى هذا المطعم لكى تتحدث معى عن جوزيف ، ولكننى تخلصت منها واكتفيت بالابتسام لها ابتسامة باهتة، ومن حسن حظى أن المنضدة التى جلست عليها لم تكن ضمن المناضد التابعة لى، ولكنها قبل أن تغادر المطعم جاءت نحوى مباشرة، وسألتنى: " هل شاهدت جوزيف ؟ " وقد احمر وجهى بسبب الارتباك والخجل، وأضفت: " لم أشاهده، ولماذا يكون على أن أقابله ؟ ".

أقرأناكموه

فقالت : " لقد اعتقدت فقط أنك قد تعرفين المكان الذى يوجد فيه "، ولم يكن صوتها متسمًا بالتأنيب وإنما كان مليئًا باليأس والقنوط، ثم خرجت من المطعم وهى تمشى فى استرخاء وترهل مثل امرأة فى منتصف العمر، وخطر على ذهنى أن جوزيف ربما بدأ يبتعد عنها بسبب حماقتها أو بسبب امتلاء جسدها، وصحيح أنه لم يكن يحب النساء الهزيلات العجفاوات، ولكن كانت هناك حدود فى الاتجاه الآخر أيضًا، وكانت سوزى تسمح لجسدها بالدخول فى مرحلة الامتلاء والترهل.

* * *

ومع ذلك فإنها تتصل بى تليفونيًا فى أواخر فترة ما بعد الظهر، وأنا أستذكر دروسى فى البدروم فتنادى أمى على لكى أرد على التليفون.

صوت سوزى على التليفون مثل نحيب هادئ ملىء باليأس، وتقول: " يا إيلين، أرجوك أن تجيئى إلىَّ، " فأقول: "ماذا فى الأمر ؟ ".

" لا أستطيع أن أقول لك ما أريده عبر التليفون، عليك فقط بالمجىء إلى " .

فأقول لنفسى : ربما هى مصابة بالأرق وفى حاجة إلى الدردشة معى حتى يكون ذلك بديلاً عن ابتلاعها للأقراص المنومة، ولربما يكون ذلك هو أسلوبها، ولماذا تتصل بى أنا بالذات؟ ولماذا لم تتصل بجوزيف تليفونيًا ؟ أشعر كأنى أريد أن أصفعها على وجهها.

وأقول لها : " أأنت على ما يرام ؟ " .

فتقول وقد تصاعدت نبرة صوتها : " لا، أنا لست على ما يرام، فهناك شىء ما خاطئ قد حدث "، ولا يخطر على ذهنى أن أستدعى تاكسيًا، فأنا أستخدم التاكسيات من أجل الذهاب إلى جوزيف فقط، وأنا معتادة على الذهاب إلى الأماكن المختلفة من خلال استخدام الأتوبيسات أو الترام علاوة على استخدام مترو الأنفاق،

سوف أحتاج إلى حوالى ساعة زمنية لكى أصل إلى مونت كارلو، لم تذكر سوزى لى رقم شقتها وأنا نسيت أن أسألها؛ لذلك ألجأ إلى البواب، وعندما أطرق على الباب لا يجيب أحد فألجأ إلى البواب مرة أخرى، ويقول وهو غير راغب فى أن يفتح لى الباب بالمفتاح الاحتياطى الموجود معه : " إننى أعرف أنها موجودة داخل الشقة، فهى قد اتصلت بى، وهى لديها حالة طوارئ " .

وعندما أدخل إلى شقتها فى نهاية الأمر أجد أن الظلام سائد بها وأن الستائر مسدلة والنوافذ مغلقة علاوة على وجود رائحة غريبة، والملابس مبعثرة هنا وهناك. جينز + حذاء شتوى له رقبة + شال أسود سبق أن شاهدت سوزى مرتدية إياه، ويبدو على الأثاث وكأنه قد اختير بمعرفة والديها، كنبة لها لون أخضر فاتح + سجادة لها لون القمح + منضدة للقهوة + ٢ أباجورة ما زالتا فى مكانهما مغلفتين بورق السلوفان، ولا شىء من هذه الأشياء يتلاءم مع سوزى وفقًا لتصوراتى عنها.

وعلى السجادة يوجد انطباع قدم داكن، وسوزى موجودة خلف الستارة التى تفصل منطقة النوم عن باقى الشقة، إنها مستلقية على السرير فى قميص نومها النيلون القصير الأحمر الوردى وقد أصبح لونها شاحبًا مثل دجاجة غير مطبوخة بينما عيناها مغلقتان، والأغطية العلوية للسرير والملاءة الوردية ملقاة على أرضية المكان، ويوجد تحتها وعبر الملاءة بقعة هائلة من الدماء الحمراء الطازجة فى حالة انتشار مثل جناحين أحمرين ناصعين على كلا جانبيها، تهجم علىّ مشاعر الحزن والكآبة والعزلة، وأشعر لسبب ما غير وجيه أن الناس قد هجرونى وتخلوا عنى، وبعدئذ أشعر بالدوار والغثيان، فأجرى نحو الحمام وأتقيأ، الموقف أكثر سوءًا لأن سلطانية التواليت قد اكتسبت لونًا أحمر غامقًا بسبب وجود دماء، وتوجد انطباعات أقدام من الدماء على الأرضية البيضاء / السوداء، كما توجد بصمات أصابع على الحوض، كما أن سلة المهملات محشوة بفوط صحية مشبعة بالسوائل.

أقرأناكموه

أمسح فمى على الفوطة الزرقاء الخاصة بسوزى وأغسل يدى فى الحوض المبقع بالدماء، ولا أعرف ما ينبغى علىَّ أن أفعله بعد ذلك، إننى لا أريد أن أكون متورطة فى هذا الموضوع، ويخطر على ذهنى فكرة سخيفة، وهى أنها إذا كانت قد ماتت فإننى سوف أتهم بارتكاب جريمة الاغتيال والقتل، أفكر فى التسلل خارجة فى هدوء من الشقة مع غلق الباب ورائى ومع محاولة إخفاء آثار أقدامى.

وبدلاً من ذلك أرجع إلى السرير وأجس نبض سوزى، أعرف أن هذا هو ما ينبغى على المرء أن يفعله، سوزى مازالت على قيد الحياة، أعثر على البواب، ويقوم البواب باستدعاء سيارة إسعاف، وأنا أيضًا أتصل تليفونيًّا بجوزيف ولكنه غير موجود هناك، أستقل سيارة الإسعاف مع سوزى بالجزء الخلفى من السيارة، إنها الآن شبه واعية ومدركة بعض الشىء، أمسك بيدها الصغيرة الباردة، وتهمس لى قائلة : " لا تخبرى جوزيف بما حدث " قميص النوم الأحمر اللون الوردى يوضح لى الأمور، إنها ليست على النحو الذى ظننتها عليه، ولم تكن كذلك فى أى وقت من الأوقات على الإطلاق، فهى مجرد فتاة لطيفة تحاول أن تبدو فى صورة معينة، ولكن ما فعلته قد مزق جسدها، ما فعلته ينتمى إلى الجزء السفلى المغمور من الأشياء التى لا تقال أبدًا والتى تقع تحت مستوى الكلام العادى مثل تلال تقع تحت الماء، كل فتاة من سنى نفسه تعرف ذلك الشىء، ولا أحد يتناقش فى هذا الموضوع، الشائعات موجودة وكذلك مناضد المطبخ علاوة على تبادل النقود فى السر، وكذلك النساء العجائز الشريرات، والأطباء غير القانونيين، والخزى والعار والجزارة وسفك الدماء، وهناك بالجزء الأسفل يوجد الرعب.

المرافقان لسيارة الإسعاف تبدو عليهما اللامبالاة والسخرية والازدراء، لقد سبق لهما أن شاهدا مثل هذا المنظر مرات عديدة من قبل.

ويقول أحدهما : " ما الذى استخدمته ؟ هل استخدمت إبرة خياطة؟" وتتسم نغمة صوته بالاتهام، ربما هو يظن أننى كنت أساعدها على إنجاز هذا العمل.

فأقول : " ليس لدى أدنى فكرة، بل إننى لا أكاد أعرفها " فأنا لا أرغب فى التورط فى هذا الموضوع.

فيقول : " هــذا هــو الكلام نفسه الذى يقال عــادة، أنتن فتيات غبيات، أنتن لا تعتقدن أنهم لديهم المزيد من الحكمة والإدراك السليم " .

وأتفق معه فى الرأى من حيث إنها كانت غبية، وفى الوقت نفسه أدرك أننى كنت سأصبح غبية مثلها إذا وضعت فى مكانها، وكنت سأفعل الشىء نفسه الذى فعلته هى لحظة وراء لحظة وخطوة وراء خطوة، ومثلها كنت سأصاب بالذعر الشديد، ومثلها كنت سأحجم عن إخبار جوزيف، ومثلها كنت سأصاب بالارتباك الشديد بحيث لا أعرف إلى أين أذهب، فكل شىء قد حدث لها كان بالإمكان أن يحدث لى على وجه الدقة.

ولكن يوجد هناك صوت آخر، صوت صغير ووضيع وقديم ومعتد بنفسه ومترامٍ من مكان ما فى أعماق رأسى : إنها تستحق كل ما حدث لها، **It serves her right.**

* * *

وعندما يعرف جــوزيف أخيرًا بما حــدث يشعر بالتدمير والانهيار ويقول : " الفتاة المسكينة، الطفلة المسكينة، لماذا لم تقل لى ؟ لماذا لم تخبرنى ؟ " .

فأقول فى هدوء: " لقد ظننت أنك ستغضب منها غضبًا شديدًا تمامًا مثل والديها، لقد اعتقدت أنك ستطردها من حياتك لأنها أصبحت حبلى " .

كل منا يعرف أن هذا أمر محتمل، ويقول جوزيف فى غير يقين : " لا، لا، كنت سأبادر إلى توفير الرعاية لها " وهذه العبارة يمكن أن تعنى أشياء عديدة.

ويتصل جوزيف بالمستشفى تليفونيًا، ولكن سوزى ترفض أن تتقابل معه، فهناك شيء ما فى داخلها قد تغير وأصبح متسمًا بالتحجر والقسوة والصلابة، وتقول له إنها ربما لن تتمكن مستقبلاً من الحمل بالأطفال مرة أخرى على الإطلاق، وتقول له إنها لا تحبه، وإنها لا ترغب فى مشاهدته مرة أخرى على الإطلاق، والآن يتخبط جوزيف فى تعثر ويقـول فى أنين وهـو يشد شعره فى توتر : " ما الذى فعلته أنا معها ؟ " .

وتزداد حالة المنخوليا والاكتئاب الأسود لديه عن ذى قبل، ولا يرغب فى الخروج من أجل تناول طعام العشاء، ولا يرغب فى ممارسة الحب، وإنما يظل باقيًا داخل شقته التى لم تعد أنيقة وشاغرة وإنما أصبحت ملئية بأجزاء من حياته غير متسمة بالنظام : علب الجبنة الصينى الملقاة فى إهمال، والملاءات المبعثرة غير المغسولة، وهو يقول إنه لن يتمكن أبدًا من التغلب على هذه الصدمة والتغلب على الإحساس بأنه قد فعل شيئًا ما فى سوزى، وهذه هى الكيفية التى يفكر بها، إنه قد فعل شيئًا ما من شأنه أن يلحق الضرر بسوزى وبجسدها الخامل البرىء، وهو فى الوقت نفسه يشعر أنها قد جرحت مشاعره : كيف يمكن لها أن تعامله على هذا النحو وتطرده من حياتها ؟

يتوقع منى أن أواسيه على الذنب الذى ارتكبه وعلى الدمار الذى أصابه، ولكننى لا أفعل هذا، فأنا قد بدأت أشعر نحوه بالكراهية.

ويقول : " لقد كان طفلى أنا "، فأتساءل : "أكنت على استعداد لأن تتزوجها ؟ " منظر معاناته لا يجعل منى إنسانة رحيمة وشفوقة، وإنما يجعلنى قاسية ومتحجرة الفؤاد.

ويقول جوزيف: " أنت قاسية على "، وكان هذا شيئًا ما قد اعتاد أن يقوله من قبل من قبيل المداعبة الجنسية، أما الآن فهو يقصد المعنى الحقيقى، وهو الآن على حق فى قوله وصادق فى قوله.

* * *

ودون وجود سوزى فإن كل ما كان يحفظنا فى توازن قد انقضى، ويتركز الثقل الكامل لجوزيف على وهو ثقيل للغاية بالنسبة لى، ولا أستطيع أن أجعله يشعر بالسعادة، وأشعر باستياء بسبب فشلى فى هذا الشأن؛ فأنا لست كافية بالنسبة لتلبية رغباته، وأراه الآن من حيث هو إنسان ضعيف وملتصق ومتشبث بى ومستخرج الأحشاء مثل سمكة، ولا أستطيع أن أحترم رجلاً يمكن أن يسمح لنفسه بأن يخفض إلى قطع من الحجارة المكسورة على أيدى النساء، أنظر إلى عينيه الحزينتين وأشعر نحوه بالاحتقار والازدراء.

أتعلل وأعتذر له عبر التليفون، وأقول له إننى مشغولة للغاية، وذات مساء أواجهه فى جرأة وأقاومه وأشعر بالامتنان الشديد من نفسى وأقاومه مرة أخرى، وهو يتعقبنى ويبحث عنى فى الجامعة وقد تجعد وجهه وطالت لحيته وأصبح عجوزًا للغاية على نحو فجائى، ويتوسل إلى فى تضرع بينما أسير بين الفصول، أشعر بالغضب من هذا التداخل والتشابك بين العوالم.

وتقول البنات المرتديات للبذلة التوين **twin** الكشميرية: " من كان ذلك الرجل؟ " فأقول فى استخفاف ولا مبالاة " : مجرد شخص اعتدت أن أعرفه " .

جوزيف يكمن لى خارج المتحف، ويعلن أننى قد دفعته إلى اليأس والقنوط ؛ فبسبب الطريقة التى عاملته بها فإنه بصدد مغادرة تورونتو للأبد، وهو لا يخدعنى ، فهو كان يخطط لذلك على كل حال، فيقول لسانى السليط نيابة عنى : " هذا شيء حسن ".

أقرأناكموه

فيلقى علىَّ نظرة مليئة بالآلام والتأنيب، ثم يتخذ الوقفة الفخورة المسرحية التى يتسم بها الماتدور { مصارع الثيران } أسير مبتعدة عنه، وهذا السير فى ابتعاد من جانبى يدخل علىَّ غبطة هائلة، ويبدو الأمر وكأن بمقدورى أن أجعل الناس يظهرون ويختفون فى الوقت الذى أريده.

* * *

لا أشاهد أحلامًا تتعلق بجوزيف، وبدلاً من ذلك أرى أحلامًا عن سوزى وهى مرتدية كنزتها السوداء ذات الياقة الواقفة الضيقة ومرتدية الچينز ولكنها أقصر قامة مما هى عليه فى الحياة الواقعية، وقد اتخذ شعرها تسريحة بيجبوى **pageboy**، إنها واقفة فى شارع أعرفه، ولكنى لا أتعرف عليه بين كومات من أوراق الخريف التى تحترق فى دخان دون أن يصدر عنها لهيب، وقد أمسكت بحبل للنط ملفوف مع لعق نصف واحد من مصَّاصة برتقالية.

إنها لا تبدو مفزعة ومستنزفة وخالية من العظام على النحو الذى شاهدته عليها فى آخر مرة، وبدلاً من ذلك فهى لها عينان خبيثتان ومليئتان بالدهاء والحذر، وتقول لى فى حقد وضغينة : " ألا تعرفين معنى البذلة التوين أو الطقم التوين **twin set** ؟ " ، ثم تستمر فى لعق المصاصة الخاصة بها، وأدرك أننى قد فعلت شيئًا ما خاطئًا .

* * *

(٥٨)

الوقت يمر وتذبل سوزى فى تلاشٍ، ولا يظهر جوزيف مرة أخرى.

وهذا يجعلنى أتبقى مع جون Jon، لدىَّ شعور بأنه غير مكتمل بمفرده مثل مسند واحـــد من مسندى الكتب، ولكنى أشعر أننى فاضلة أخلاقيًا وطاهرة، لأننى لم أعد أخفى عنه أى شىء، ولكن هذا يجعل الأمر سيان بالنسبة له؛ حيث لا يوجد أى فارق نظرًا لأنه لم يكن يعرف أننى أخفى أى شىء عنه فى بادئ الأمر، وهو لا يعرف السبب الذى يجعلنى أهتم أكثر من ذى قبل بما يفعله خلال الفترات المتبقية من الأوقات الخاصة به، وأعتقد أننى فى حالة حب معه، وإن كنت ملتزمة بالحذر الشديد بحيث لا أقول ذلك صراحة ؛ فهو قد يعترض على المفردات اللغوية أو يظن أنه يتم تدريبه وتثبيته فى وضع معين.

أنا مازلت أذهب إلى شقته المستطيلة البيضاء/ السوداء وينتهى بى المطاف فوق قمة حقيبة النوم الخاصة به، وإن كان ذلك يتم على نحو عشوائى، فجون غير بارع فى وضع الخطط مقدمًا وليس بارعًا فى تذكر المواعيد، وفى بعض الأحيان عندما أصل إلى الباب السفلى الخاص به لا يظهر رد على الطرق على الباب، أو قد تقطع الحرارة عن تليفونه، لأنه لم يقم بتسديد الفاتورة، نحن شخصان مترابطان على نحو ما رغم أنه لا يوجد شىء ما محدد المعالم فى وضوح بيننا.

توجد حفلات مظلمة وضبابية ومليئة بالدخان مع إطفاء الأنوار الكهربائية والاكتفاء بالشموع الموقدة فى رفرفة فى داخل زجاجات، الرسامون الآخرون موجودون هناك، كما توجد نساء متجانسات مرتديات كنزة ذات ياقة واقفة ضيقة؛ حيث قد بدأن يظهرن فى شعر طويل مستقيم مفروق فى المنتصف، والكل يجلس فى مجموعات على الأرضية فى الظلام مع الإصغاء لأغانى فلكلورية عن نساء

أقرأناكموه

يتم طعنهن بالخناجر، وتدخين السجائر المليئة بالمارجوانا وهو ما يفعله الناس فى نيويورك، وهم يشيرون إلى هذه الأعمال على أنها بمثابة "مخدر **dope** " أو "شراب سكر **pot** "، ويزعمون أنها تطلق وتحرر الفن الخاص بك.

السجائر من أى نوع تجعلنى أشعر بالاختناق؛ ولذلك فأنا لا أدخن السجائر على الإطلاق، فى بعض الليالى ينتهى بى المطاف فى الصالة الخلفية مع شخص ما من الرسامين لأننى أفضل عدم مشاهدة ما يمكن أن يفعله جون مع البنات ذى الشعر غير المجعد، ومهما كانت نوعية علاقته بهن فإننى أرغب له أن يفعل ذلك فى سرية وكتمان، ولكنه لا يشعر بأنه بحاجة لأن يخفى أى شىء، فالامتلاك الجنسى هو أمر متسم بالبرجوازية وهو عبارة عن آثار متخلفة عن أفكار تتعلق بقدسية الملكية الخاصة، فلا أحد يمتلك أى شخص، وهو لا يقول كل هذا الكلام، وكل ما يقوله هو : " هاى، أنت لا تملكيننى "، فى بعض الأحيان يكون الرسامون الآخرون فى حالة من الجمود والتحجر أو فى حالة من السكر، ولكن فى أحيان أخرى يرغبون فى أن يقصوا على مشاكلهم، وهم يفعلون ذلك فى تلعثم وفى بدايات وتوقفات وفى عبارات مقتضبة، ومعظم مشاكلهم تتعلق بصديقاتهم **girlfriends**، وهم سرعان ما سيحضرون لى جواربهم لكى أرتقها لهم، وزرايرهم لكى أحيكها لهم، إنهم يجعلونى أشعر كأنى بمثابة عمة أو خالة بالنسبة لهم، هذا هو ما أفعله بدلاً من الحقد والغيرة التى لا يوجد لها مستقبل، أو هكذا أعتقد.

* * *

لقد تخلى جون عن رسم الدوامات والدوائر والأحشاء والأجزاء الداخلية **innards**، فهو يقول عنها إنها رومانتيكية أكثر من اللازم وعاطفية للغاية وصبيانية للغاية وواجدانية أكثر من اللازم، وهو الآن يرسم صورًا تكون كافة الأشكال بها

إما على هيئة خطوط مستقيمة أو دوائر مستكملة، وهو يستخدم شريط القناع masking tape لكى يجعل الخطوط مستقيمة، ويعمل فى بلوكات من اللون المطفأ غير اللامع مع عدم إظهار الطلاء بالصبغ الكثيف فى التصوير الزيتى.

وهو يطلق على لوحاته الزيتية أسماء مثل : اللغز : أزرق وأحمر : Enigma Blue & Red أو التنوع : الأسود والأبيض Variation : Black & White أو القطعة رقم ٣٦ Opus 36، وهى تجعل الآلام تتسرب إلى عينيك إذا نظرت إليها، وجون يقول إن هذه هى النقطة الأساسية أو الميزة الخاصة بها .

* * *

فى وقت النهار أذهب إلى المدرسة، كلية الفنون والآثار أكثر إظلامًا وأكثر مخملية عما كانت عليه فى السنة الماضية، ومليئة بالأصباغ الكثيفة فى فن التصوير الزيتى ومليئة بطريقة توزيع الضوء والظل فى الصورة chiaroscuro، ومازالت توجد لوحات عديدة لمريم العذراء Madonnas، ولكن أجسادهن قد فقدت خاصيتها السابقة للضوء الغامر المنتشر وأصبحت أقرب إلى أن تشاهد ليلاً، ومازالت توجد لوحات للقديسين وإن كانوا قد أصبحوا لا يجلسون فى حجرات هادئة أو صحارى مع وجود جماجمهم المذكّرة بالموت، ومع وجود أسودهم الشبيهة بالكلاب القابعة عند أقدامهم، وبدلاً من ذلك فإنهم يتلوون فى أوضاع متضورة بالآلام وقد انغرست السهام فى أجسادهم أو تم شدهم إلى خازوق، الموضوعات الإنجيلية تميل إلى العنف، والمرأة اليهودية جوديث Judith التى تقطع رأس الجنرال الأشورى هولوفيرنيس Holofernes أصبحت الآن شائعة ومألوفة، كما يوجد المزيد من الآلهة الكلاسيكيين والإلاهات الكلاسيكيات، كما توجد حروب ومشاجرات وأعمال ذبح كما كان موجودًا من قبل، ولكن فى مزيد من اللخبطة والارتباك وفى كثير من التداخل بين الأذرع والسيقان، ومازالت توجد صور

أقرأناكموه

بورتريه **portraits** للناس الأغنياء وإن كانوا فى ملابس غامقة وداكنة أكثر من ذى قبل، لدى إلقاء نظرة عابرة على القرون تظهر أشياء جديدة، سفن بمفردها وحيوانات بمفردها مثل الكلاب والخيول وفلاحون ومزارعون بمفردهم، ومناظر طبيعية بها منازل أو خالية من المنازل، وأزهار بمفردها، وأطباق مليئة بالفاكهة وقطع من اللحوم ومعها جراد البحر أو دون وجود جراد البحر، وهذا الجراد من الأشياء المفضلة وذلك بسبب اللون ونساء عاريات.

يوجد قدر كبير من التخطى والتدخل، آلهة عارية ملفوفة فى إكليل من الأزهار مع وجود كلبين فى مكان قريب، وأناس كتابيون مرتدون ملابس أو عراة مع وجود أو عدم وجود حيوانات وأشجار وسفن، وأناس أغنياء يدعون أنهم بمثابة آلهة وإلاهات، والفاكهة والمذابح غير مرتبطين عادة وكذلك الحال بالنسبة للآلهة والفلاحين، والنساء العاريات يقدمن بالطريقة نفسها التى تقدم بها أطباق اللحوم وأطباق جراد البحر الميت، مع وجود الاهتمام نفسه بتلاعب أنوار الشموع على البشرة المزخرفة المنمقة نفسها والتفاصيل الحسية نفسها الملموسة الغنية والمتعة نفسها التى يشعر بها الرسام فى النواحى الحسية الملموسة.

وأنا لا أحب هذه الصور الغامضة المظللة الضارة أخلاقيًا، فأنا أفضل الصور الأكثر قدمًا المتسمة بطابع وضوح النهار وبالحركات الهادئة المكبوحة الجماح، ولقد تخليت أيضًا عن اللوحات الزيتية؛ إذ بدأت أكره كثافتها وغلظتها وإلغاء الخط الخاص بها ومنظر الشفاة الملعوقة الخاص بها والطريقة التى تثير بها انتباه المشاهد من خلال ضربات فرشاة الرسام، كما أننى غير قادرة على فهم معناها، وما أريده بدلاً منها هو الصور التى تبدو وكأنها توجد من تلقاء نفسها، أريد أشياء تتنفس ضوءًا، أريد ألوانًا مطفأة ولكنها مضيئة ومنيرة فى الوقت نفسه.

أرسم من خلال استخدام الأقلام الملونة، كما أرسم من خلال استخدام ألوان ممزوجة بالبيض : **egg tempera** وهى الطريقة نفسها التى تستخدمها الراهبات،

لم يعد يوجد أحد يقوم بتدريس ذلك؛ لذلك أبحث فى الكتب الفنية بالمكتبة بغية معرفة النواحى والإرشادات المتعلقة بها، والرسم بالألوان الممزوجة بالبيض يعتبر صعبًا ومتسمًا بالاتساخ والقذارة، علاوة على بذل الجهد فى مثابرة لأنه فى بادئ الأمر يكون مثيرًا للحزن، إننى أستخدم كميات كبيرة من صفار البيض، وفى حرص وعناية أقوم بفصل الجزء الأبيض عن صفار البيضة وأعطى بياض البيض إلى والدتى لكى تصنع منه كعكة المرنغ .

أمارس الرسم بجوار النافذة فى غرفة المعيشة بالدور العلوى عندما لا يكون هناك أحد موجود بالمنزل، أو أرسم تحت ضوء النهار الصادر عن نافذة البدروم، بالليل أستخدم لمبتين كبيرتين كهربائيتين ومع ذلك لا يكون الضوء كافيًا، ولكن هذا هو كل ما أستطيع تدبيره، وأعتقد أننى فيما بعد سيكون لدى استوديو كبير للرسم مزود بمنور فى سقف الغرفة وإن كان ما سأرسمه به أبعد ما يكون عن الوضوح، وأى شىء أرسمه سيظهر فيما بعد فى لوحات ملونة وفى كتب ملونة تمامًا كما هو الحال بالنسبة لأعمال ليوناردو دافينشى التى أتأمل فيها وأدرسها وخاصةً أعماله التى تتعلق بالأيدى والأقدام والشعر والناس الموتى.

وأصبح منبهرة ومعجبة للغاية بالتأثيرات الناجمة عن الزجاج وغيره من الأسطح الاخرى العاكسة للضوء، وأقوم بدراسة لوحات ورسومات عن لآلئ وبلورات ومرايا وأسطح من النحاس الاصفر اللامعة، وأمضى وقتًا طويلاً فى التأمل فى لوحة " الزواج الأرنولفينى **Arnolfini marriage** " للفنان فان آيك **Van Eyck** مع استخدام عدستى المكبرة لكى أتمكن من مشاهدة الطبعة الملونة لها غير الواضحة الواردة فى الكتاب المدرسى الخاص بى، وما يبهرنى فى هذه اللوحة ليس هو الهيكلان الرقيقان الشاحبان الخاليان من الأكتاف الممسكان بالأيدى، وإنما هو المرآة الحائطية الواقعة على الحائط بينهما والتى تعكس على سطحها الحدب ليس فقط ظهرهما، ولكن أيضًا الشخصين الآخرين اللذين غير موجودين بالصورة الرئيسية على الإطلاق، وهذه الأشكال المنعكسة فى المرآة منحرفة بعض الشىء

أقرأناكموه

كما لو كان يوجد فى داخلها قانون للجاذبية أو ترتيبات مكانية مختلفة، وهذه المرآة المستديرة تشبه عيناً واحدة تشاهد أكثر مما يمكن أن تشاهده أى عين أخرى ناظرة، وعلى هذه المرآة كتبت عبارة : " جوهانز دى آيك، أُنتج عام ١٤٣٤ " .

لا توجد مرآة حائطية فى منزلنا بحيث يمكن لى أن أتدرب عليها؛ لذلك أقوم بدلاً من ذلك برسم زجاجات بيرة الزنجبيل وكؤوس الخمور والمكعبات الثلجية المأخوذة من الثلاجة وأبريق الشاى والقرط اللؤلؤى الزائف الخاص بوالدتى، كما أرسم الأخشاب اللامعة والمعادن اللامعة، طاسة تحمير لها قاع من النحاس الأحمر تشاهد من القاع وغلاى مزدوج من الألومنيوم، وأهتم بالتفاصيل وأنحنى على صورى ولوحاتى، وأضرب برفق على البقع الأشد إشراقًا فى اللوحة الزيتية باستخدام الفرشاة الصغيرة.

إننى أدرك أن أذواقى ليست متمشية مع الموضة الحديثة؛ ولذلك فأنا أتبع أذواقى فى السر، وجون **Jon** على سبيل المثال يطلق على هذا اسم : تصوير **illustration** وأى صورة **picture** تكون بمثابة صورة لشىء ما يمكن التعرف عليه تعتبر تصويرًا **illustration** من وجهة نظره، فهو يقول إنه لا توجد طاقة تلقائية فى مثل هذه النوعية من الإنتاج الفنى، ولا توجد معالجة **process**، فأنا قد أكون بمثابة مصورة فوتوغرافية أو نورمان روكويل **Rockwell Norman**، وفى بعض الأيام أتفق معه فى الرأى، ، لأن ما هو الشىء الذى قمت بإنجازه ؟ لاشىء لا يشبه عينة عشوائية مأخوذة عن قسم الأدوات المنزلية بكاتالوج أيتون، ولكنى أواصل الانطلاق فى هذا المجال.

* * *

فى مساء يوم الأربعاء من كل أسبوع أتلقى مقررًا تعليميًّا **course** آخر، وهو ليس المقرر الخاص بـــ "رسم الحياة" الذى يدرسه هذا العام رجل يوغوسلافى

سريع الاهتياج وإنما هو المقرر الخاص بالفن الإعلانى Advertising Art، الطلبة مختلفون كثيرًا عن مجموعة طلبة " رسم الحياة"، فمعظمهم ينتمون للقسم التجارى لكلية الفنون وليس الفنون الجميلة، وهم أيضًا معظمهم من الأولاد، وبعضهم لديه طموحات فنية خطيرة، ولكنهم لا يحتسون الكميات الهائلة نفسها، من البيرة نفسها، وهم أكثر نظافة وأكثر جدية واهتمامًا، ويريدون شغل وظائف تدر عليهم أموالاً كثيرة عقب تخرجهم، وأنا أريد ذلك أيضًا .

المدرس رجل عجوز ونحيل وله شكل إنسان مهزوم ومنسحق، وهو يعتقد أنه قد فشل فى الحياة الواقعية، رغم أنه قد ابتكر ذات يوم رسمًا مشهورًا من أجل معلبات البقول ولحوم الخنزير التى أذكرها منذ أيام طفولتى، فنحن قد أكلنا كميات كبيرة من لحوم الخنزير والبقوليات المعلبة أثناء فترة الحرب.

جون يضايقنى فى مشاكسة صبيانية فيما يتعلق بهذا المقرر التعليمى الليلى، ويطلق على المدرس اسم : السيد بينى وينى Mr Beanie Weenie ويستمر فى استخدام ذلك الاسم.

* * *

(٥٩)

أتخرج من الجامعة وأكتشف أننى لا أستطيع أن أفعل الكثير من خلال شهادتى الجامعية، أو أكتشف أننى لا أريد أن أفعل أى شىء على كل حال؛ فأنا لا أريد الدخول فى الدراسات العليا التى تلى درجة البكالوريوس، كما لا أريد التدريس فى المدارس الثانوية، ولا أريد أن أكون مساعدة لأمين متحف، وأخيرًا

أقرأناكموه

أحصل على وظيفة حقيرة تتعلق بعمل نماذج بالحجم الطبيعى للأشياء، كما أحصل على شقة مفروشة مكونة من غرفتى نوم ومطبخ صغير وصالة مستقلة بمنزل ضخم آيل للسقوط فى منطقة أنيكس **Annex** الواقعة إلى شمال بلور **Bloor**، وأستخدم غرفة النوم الثانية من أجل الرسم مع غلق الباب المؤدى إليها.

وهذه الشقة بها سرير حقيقى وحوض مطبخ حقيقى، ويجىء إلىَّ جون **Jon** من أجل تناول طعام العشاء، ويضايقنى فى مداعبة فيما يتعلق بالفوط التى اشتريتها والأطباق التى تتحمل حرارة الفرن وكذلك فيما يتعلق بستارة الحمام، وكذلك فيما يتعلق بالسرير، ولكنه يحب النوم عليه، وهو حاليًا يجىء إلى الشقة التى أقيم بها أكثر مما أذهب أنا إليه بالشقة الخاصة به.

* * *

يقوم والداى ببيع منزلهما ويتجهان إلى الشمال، ولقد ترك والدى الجامعة ورجع إلى البحوث، وهو الآن رئيس معمل حشرات الغابات بمنطقة سولت القديسة مارى، وهو يقول إن تورونتو أصبحت مزدحمة بالسكان أكثر من اللازم كما أصبحت شديدة التلوث، ويقول إن البحيرات العظمى السفلية هى أكبر بالوعة للمجارى فى العالم، وإننا إذا عرفنا ما يحدث لمياه الشرب من تلوث، فإننا جميعًا سنصبح من المدمنين على تناول الكحوليات، أما بالنسبة للهواء فإنه ملىء للغاية بالكيماويات لدرجة أنه ينبغى علينا أن نرتدى الأقنعة الواقعية من الغازات السامة، أما فى الأعالى بالشمال، فإنه مازال بمقدورك أن تتنفس.

لا أفتقد والداى، ليس بعد، أو بالأحرى لا أرغب فى العيش معهما؛ فأنا يسعدنى أن أترك بمفردى لكى أمارس الابتكارات الخاصة بى أو اللخبطات الخاصة بى، ويمكن لى الآن أن أتناول الطعام بطريقة عشوائية؛ حيث أتناول الساندويتشات السريعة الخفيفة مع عدم الاهتمام بالوجبات المتوازنة، وأذهب للنوم

فى السرير كلما أردت ذلك ودون التقيد بمواعيد محددة، وأترك ملابسى المتسخة التى ينبغى غسلها دون غسيل وأهمل غسل أطباق الطعام المتسخة.

أحصل على ترقية فى عملى، فبعد مرور بعض الوقت أنتقل إلى الإدارة الفنية لإحدى دور النشر؛ حيث أقوم بوضع تصميمات لأغلفة الكتب، وفى الليل عندما لا يكون جون موجودًا هناك أمضى وقتى فى الرسم، وأحيانًا أنسى الذهاب للنوم فى السرير وأكتشف أن تباشير الفجر قد لاحت، وبالتالى ينبغى على أن أستبدل ملابسى وأرتدى الملابس الخاصة بالعمل وأذهب إلى عملى، وأكون مترنحة فى تلك الأيام، بل وأجد مشقة فى سماع الكلام الذى يقال لى، ولكن يبدو أن أحدًا لا يلاحظ ذلك.

* * *

أحصل على بطاقات بريدية وعلى خطابات قصيرة من وقت إلى آخر من والدتى مرسلة من أماكن مثل دولوث **Duluth** وكبوسكاسينج **Kapuskasing**، وهى تقول إن الشوارع والطرق آخذة فى التعرض للازدحام الشديد، وتقول: " عدد كبير للغاية من اللوريات التى لها مقطورة "، وأرد عليها بخطابات أتحدث فيها عن وظيفتى وشقتى والطقس، ولا أشير بأى كلام إلى جون **Jon**، لأن الكلام عنه لا يعتبر أخبارًا مهمة، ولا توجد أخبار مهمة عنه إلا إذا تقدم لخطبتى، وأخى ستيفن يظهر من وقت إلى آخر على فترات غير منتظمة، بل لقد أصبح أكثر اتسامًا بالصمت وقلة الكلام، وهو الآن أيضًا يتصل بى من خلال إرسال البطاقات البريدية إلىّ؛ إذ تجىء بطاقة بريدية من ألمانيا عليها صورة رجل يرتدى بنطلونًا جلديًّا قصيرًا وعبارة : عصب الذرة العظيم، وتجىء بطاقة أخرى من نيفادا عليها صورة نبات الصبار وعبارة: أشكال الحياة الممتعة، ويذهب إلى بوليفيا لقضاء إجازة هناك على ما أعتقد، ويرسل بطاقة بها عبارة : فراشات ممتازة، آمل أن تكونى على ما يرام، وفى إحدى المراحل يتزوج ويعلن ذلك من خلال بطاقة بريدية مرسلة من سان

أقرأناكموه

فرنسيسكو عليها صورة كوبرى البوابة الذهبية مع منظر غروب الشمس الساقط عليها وعبارة : لقد تزوجت، آنيت **Annette** تبعث بتحياتها إليك "، وهذا هو كل ما أعرفه عن ذلك الزواج على مدى سنين عديدة تالية إلى أن يرسل لى بطاقة بريدية أخرى عليها صورة تمثال الحرية ومرسلة من نيويورك ومكتوب عليها عبارة : لقد تم الطلاق بينى وبين زوجتى، وأعتقد أن هذين الحدثين قد سببا له الحيرة الشديدة كأنهما ليسا بمثابة شيء ما قد فعله بنفسه عامدًا متعمدًا، وإنما الأمور هى التى حدثت له بطريقة الصدفة مثلما يحدث انسحاق لإصبع قدمك.

ويصل فجأة إلى تورونتو لكى يلقى محاضرة فى مؤتمر، ويبلغنى بذلك مقدمًا وقبل مجيئه من خلال إرسال بطاقة بريدية إلىّ من بوستون بها تمثال لبول ريفر ومكتوب بها عبارة : سوف أصل يوم الأحد الموافق ١٢ من الشهر الحالى، ولسوف ألقى المحاضرة فى يوم الاثنين، يسعدنى أن أقابلك فى المؤتمر ".

وأذهب للاستماع إلى المحاضرة تحت عنوان " ثوانى البيكو **picoseconds** الأولى والاحتياج لنظرية المجال المتحد **Unified field theory** : بعض التأملات الصغيرة" ، ليس لأننى مهتمة بموضوع المحاضرة، ولكن نظرًا لأن الذى سيلقى المحاضرة هو أخى، أجلس منخرطة فى قضم أصابعى لدى امتلاء القاعة الجامعية بالمشاهدين الذين معظمهم من الرجال.

وبعدئذ يدخل أخى إلى القاعة ومعه الرجُل الذى سيقوم بتقديمه للجمهور، لم أكن قد شاهدت أخى منذ سنوات عديدة، إنه الآن أكثر نحافة وشعر رأسه آخذ فى الانحسار والتراجع إلى الوراء، إنه بحاجة لنظارة لكى يقرأ نص المحاضرة التى سيلقيها، بمقدورى مشاهدة نظارته البازغة من جيبه الموجود على صدره، أخى يرتدى بذلة ورباط عنق، هذه التغيرات لا تَجعله يبدو طبيعيًّا أكثر، وإنما تجعله غير طبيعى ومثل كائن قادم من كوكب أجنبى ومتنكر فى ملابس آدمية، يبدو عليه الذكاء المذهل الشديد للغاية، بل يبدو رأسه وكأنه سيضيء فى أية لحظة ويصبح

شفافًا ويكشف عن مخ ضخم مشرق الألوان فى داخله، وفى الوقت نفسه يبدو عليه أنه مجعد وأشعث ومليء بالحيرة والارتباك كما لو كان قد أوقظ توًّا من حلم جميل ليجد نفسه محاطًا بالمنشكينز **Munchkins** .

والشخص الذى يقوم بتعريف أخى على الجمهور يشير إلى قائمة بالأبحاث العديدة التى كتبها أخى والجوائز التى حصل عليها والإسهامات التى قام بها، ويصدر تصفيق حاد من جمهور الحاضرين، ويذهب أخى إلى المنصة، ويقف أمام شاشة عرض بيضاء ويسلك صوته، ثم يضع نظارته على عينيه، وهو الآن يشبه شخصًا ما سيظهر فيما بعد على طابع بريد، إنه يموج بالقلق والاضطراب ويتمتم فى غمغمة، ولكنه ما إن يبدأ حتى يصبح على مايرام، ويقول : " عندما نحملق فى السماء الليلية فإننا ننظر إلى شظايا من الماضى، ليس فقط بمعنى أن النجوم لدى مشاهدتنا لها تكون أصداء لأحداث حدثت منذ سنوات ضوئية بعيدة فى الزمان والمكان ؛ فكل شيء فى الأعالى هناك وفى الواقع كل شيء بالأماكن السفلية هنا عبارة عن أصفور **fossil** متخلف عن ثوانى البيكو الأولى فى عملية الخلق عندما تبلور الكون عن البلازما الأولى المتجانسة، ففى خلال ثانية البيكو الأولى كان من الصعب تخيل الأوضاع، فإذا أمكن لنا أن نسافر فى آلة الزمن إلى الوراء نحو هذه اللحظة الانفجارية، فإننا سنجد انفسنا فى عالم ملىء بطاقات لا نستطيع فهمها، وكلما أوغلنا فى العمق إلى الوراء أصبحت هذه الطاقات أكثر تطرفًا، والتسهيلات التجريبية السائدة لا تستطيع نقلنا إلا على مسافة قصيرة على طول هذا الطريق، وإلى ما وراء تلك النقطة فإن النظرية تكون هى المرشد الوحيد لنا "، وبعد هذا يستمر أخى مستخدمًا لغة تشبه من حيث الأصوات اللغة الإنجليزية، ولكنها ليست اللغة الإنجليزية لأننى لا أستطيع فهم كلمة واحدة منها.

ومن حسن الحظ أنه يوجد شيء ما يمكن النظر إليه؛ إذ يسود الظلام فى القاعة وتسطع الشاشة بالأضواء، وهنالك يوجد العالم أو الكون أو توجد أجزاء منه.

أقرأناكموه

الفراغ الشاعر الأسود اللون المزود بعلامات من خلال المجرات والنجوم الشديدة الاتقاد المكتسبة اللون الأبيض أو الأزرق أو الأحمر، ويجرى سهم بينها على الشاشة للبحث والعثور، وبعدئذ توجد رسوم بيانية وتخطيطية وخيوط من الأرقام وإشارات إلى أشياء يبدو على كل شخص أنه يتعرف عليها باستثنائى أنا، وعلى ما يبدو توجد هناك أبعاد **dimension** تزيد كثيرًا عن الأبعاد الأربعة المألوفة.

التمتمات المعبرة عن الاهتمام الشديد والاستمتاع بالمحاضرة تنتشر فى أرجاء القاعة، ولاحت أصوات مهمة وحفيف أوراق، وفى نهاية الامر عندما أُضيئت الأنوار مرة اخرى يعود أخى إلى اللغة فيقول : " ولكن ماذا عن اللحظة التى هى إلى ما وراء **ie yond** اللحظة الأولى ؟ ولكن هل هناك أى معنى إذا استخدمنا كلمة: قبل **before** نظرًا لأن الزمن لا يمكن أن يوجد دون المكان كما أن المكان / الزمانى لا يمكن أن يوجد دون أحداث، والأحداث لا يمكن أن يوجد دون المادة/ الطاقة ؟ ولكن هناك شىء ما قد وجد ومازال موجودا من قبل **before** على نحو أكيد، وذلك الشىء هو الإطار النظرى **theoretical framework** أو هو الخصائص المقياسية **parameters** التى تعمل بمقتضاها قوانين الطاقة، وإذا حكمنا من الدلائل غير الكافية حاليًا – وإن كانت هى دلائل آخذه فى التصاعد والتزايد _ والمتاحة لنا اليوم بشأن ما إذا كان الكون قد خلق من خلال الأمر بالإضاءة **flat lux** فإنه من المؤكد أن ذلك الأمر بالإضاءة لم يتم التعبير عنه من خلال اللغة اللاتينية وإنما من خلال اللغة الوحيدة العالمية ألا وهى لغة الرياضيات "، وبدا لى هذا الكلام شبيهًا بالميتافيزيقا إلى حد كبير، ولكن يبدو أن الناس بالقاعة يفهمون كلامه دون مشقة كبيرة؛ إذ تدوى القاعة بالتصفيق الحاد.

وأذهب بعدئذ إلى صالة الاستقبال التى تقدم الطعام الجامعى الاعتيادى : مشروب الشيرى الردىء + الشاى الثقيل + الفطائر المستخرجة من عبوات، الناس يتمتمون مع بعضهم البعض فى مجموعات ويتصافحون بالأيدى، أبدو أثناء وجودى بينهم أننى غير منتمية لهذا الجو العلمى الخاص بهم، وبين الزحام أحدد

مكان أخى وأذهب إليه وأقول له: " كان ذلك رائعًا للغاية "، فيقول لى فى شىء من السخرية: " يسرنى أنك حصلت على بعض المعلومات المفيدة من هذا المحاضرات"، فأقول: "حسنًا، الرياضيات لم تكن بمثابة الاهتمام الرئيسى لدىَّ فى أى وقت "، فيبتسم لى فى رقة وعذوبة، ونتبادل الأخبار عن والدينا اللذين كانا فى كينورا **Kenora** ويتجهان غربًا وفقًا لآخر أخبار وصلتنى عنهما، ويقول أخى: "أظن أنهما مازالا يقومان بعدّ وإحصاء الديدان واليرقات"، وأتذكر كيف أنه كان معتادًا على التقيؤ بجوار الطريق وأتذكر رائحته التى تشبه رائحة أقلام الرصاص المصنوعة من خشب الأرز، وأتذكر رائحة الخشب المقطوع ورائحة الجازولين والأعشاب المنسحقة والجزنخة الكريهة وأتذكر الطريقة التى كنا ننسل بها خفية فيما حولنا تحت جنح الظلام، وأتذكر مجموعة الكتب الهزلية الخاصة به، وأتذكره وهو يجثم فى الأرض السبخة وينادى بصوت مرتفع : " عليك بالاستلقاء على الأرض، فأنت قد أصبحت ميتة "، وأتذكره وهو يقذف بالقنابل منقضًّا على الأطباق ومستخدمًا الشوك، كل صورى الذهنية المبكرة عنه مازالت شديدة الوضوح وتكنيكلر : بنطلونه القصير الفضفاض + قميصه الذى له حرف **T** + شعره الأشعث بسبب كثرة التعرض لأشعة الشمس + بنطلونه الشتوى + قبعته الجلدية، وبعدئذ توجد فجوة وبعدها يظهر مرة أخرى عند الجانب الآخر للفجوة وقد أصبح أكبر فى السن بعامين.

أقول: " أتذكر تلك الأغنية التى اعتدت أن تتغنى بها أثناء فترة الحرب؟ وأحيانًا كنت تصفر بفمك على النغمة... وهى أغنية {سأجىء على جناح واحد وفى صلوات } ؟ "، فتظهر عليه الحيرة والارتباك ويتجهم قليلاً، ثم يقول : " لا أتذكر ذلك " .

" لقد اعتدت أن ترسم تلك الانفجارات كافة، ولقد استعرت منى القلم الأحمر الخاص بى، لأنك قد استهلكت جميع أقلامك الحمراء " .

أقرأناكموه

فينظر إلى ليس كأنه لا يتذكر هذه الأشياء بنفسه، ولكن كأنه مندهش منى، وحائر لأننى أتذكر هذه الأشياء، ويقول : " لم تكونى كبيرة فى السن للغاية آنئذ " .

وأقول له : " أتذكر ذلك البرطمان المليء بقطع الرخام والذى قمت بدفنه تحت الكوبرى ؟ "، وأضيف: " أنت لم تذكر لى أبدًا السبب الذى جعلك تفعل ذلك " فأفضل القطع وهى البيورى الحمراء والزرقاء وعيون القطة قد وضعت فى باطن الأرض بعيدًا عن متناول الأيدى، ومن المؤكد أنه ضرب الأرض بأخمص قدمه فوق البرطمان ونثر أوراق الأشجار الجافة على هذا المكان .

فيقول : " أظن أننى أذكر ذلك " كما لو أنه لا يرغب تمامًا فى أن يذكره أحد بحياته عندما كان أصغر سنًا.

وأقول : " ربما البرطمان مازال موجودًا فى مكانه تحت التراب هناك، وإننى لأتساءل فى تعجب عما إذا كان أحد العمال قد عثر عليه أثناء عملية بناء الكوبرى الجديد، وأنت قد دفنت الخريطة أيضًا".

فيقول : " نعم، لقد دفنت الخريطة "، ويبتسم بطريقتة القديمة السرية المخبلة، إنه لايزال غير راغب فى إفشاء السر، فأقول لنفسى: إنه على الرغم من أن طرازه وواجهته الخارجية قد تغيرت، وعلى الرغم من شعره الآخذ فى التراجع إلى الخلف، وعلى الرغم من بذلته ذات الطابع المؤقت، فهو مازال الشخص نفسه فى حقيقة الأمر، وبعد أن عاد إلى المكان الذى سينطلق منه فى رحلته التالية أفكر فى إطلاق اسمه على أحد النجوم فى مناسبة عيد ميلاده؛ إذ شاهدت إعلانات من أجل هذه الأشياء : عليك بإرسال نقودك وعندئذ تحصل على شهادة بها خريطة نجم بينما البرج الخاص بك مبين على الخريطة، وربما هو يجد هذا شيئًا مسليًا، ولكنى لست متاكدة من أن كلمة " عيد الميلاد " بالنسبة له مازالت تحمل أى معنى.

* * *

توقف جون Jon عن رسم الأشكال الهندسية المدمرة للعين، وبدأ يرسم الآن صورًا تشبه الصور التجارية : صور لمصاصات ضخمة + صور عملاقة لزجاجة الملح والفلفل + صور للخوخ الموجود فى شراب + أطباق ورقية مليئة باللحوم المحمرة الفرنسية، لم يعد يتحدث عن النقاء، وإنما أصبح يتحدث عن الحاجة إلى استخدام أنظمة إشارة ثقافية مشتركة لكى تعكس الأمور العادية الأيقونية للأوقاف الخاصة بنا، وأعتقد أن بمقدورى أن أقدم له بعض الأفكار الجديدة المفيدة النابعة من الخبرة الاحترافية الخاصة بى؛ إذ يمكن للخوخ أن يكون أكثر صقلاً ولمعانًا على سبيل المثال، ولكنى لا أقول له هذا.

وعلى نحو متزايد يرسم جون هذه الأشياء فى غرفة المعيشة الخاصة بى، وكان يبذل نشاطًا تدريجيًّا متزايدًا فى إنجاز هذه الأشياء مع البداية بأعمال الدهان والطلاء وتجهيز القماشة التى ترسم عليها اللوحة الزيتية، وهو يقول إنه لا يستطيع ممارسة الرسم فى المكان الخاص بنا؛ حيث إنه يوجد به أناس كثيرون للغاية وهذا قول صادق ؛ فالغرفة الأمامية عنده تكون مليئة بالأفاقين الأمريكان الذين هم جميعًا أصدقاء أصدقائه، ويضطر جون لأن يدوس عليهم بأقدامه، حتى يتمكن من الوصول إلى الحوائط لأنهم ينامون بمحاذاة الجدران فى داخل حقائب النوم الخاصة بهم فى بؤس وهجران وحرمان مع تدخين المخدرات، والتساؤل عما ينبغى عليهم أن يفعلوه بعد ذلك، وهم فى حالة من الإحباط والاكتئاب لأن تورونتو ليست هى الولايات المتحدة الامريكية الخالية من الحروب، وعلى النحو الذى كانوا يظنونه، وإنما هى بمثابة سجن من نوع ما، دخلوا إليه بطريق الصدفة ولا يستطيعون الهرب منه، فتورنتو هى اللامكان؛ وبالتالى لا يحدث فيها أى شىء له أهمية.

* * *

أقرأناكموه

ويظل جون مقيمًا لديَّ على مـدى ثلاث أو أربع ليالٍ متصـلة أسبوعيًّا، ولا أسأله عما يفعله خلال الليالى الأخرى المتبقية من كل أسبوع، فى كل يوم من أيام الأحد ننام فى وقت متأخر ونمارس الحب ونذهب للنزهة وقد تشابكت أيدينا.

وذات يوم أكتشف أننى حامل، أول رد فعل لدى هو عدم التصديق، أقوم بالعد والإحصاء وأنتظر يومًا آخر ثم يومًا آخر مع الإصغاء إلى الجزء الداخلى بجسدى فى اهتمام كما لو كنت أصغى لمباراة كرة قدم تذاع بالراديو، وأخيرًا أذهب إلى الصيدلية مع أخذ كمية من البول فى زجاجة بينما أشعر أننى مثل إنسانة مجرمة، فالمرأة المتزوجة تذهب فى مثل هذه الحالات إلى الطبيب الخاص بها، أما النساء غير المتزوجات فيفعلن هذا الإجراء.

الكيميائى بالصيدلية يقـول لى إن النتائج إيجـابية ويضيف فى سخرية: "مبروك، أجمل التهانى" .

أخاف من نقل هذا الخبر إلى جون، إنه سيتوقع لى أن أذهب إلى مكان ما لكى يتم إجهاضى واستخراج ذلك الشىء it مثل اقتلاع سنة أو ضرس، ولسوف يتحدث عن الجنين مشيرًا إليه بكلمة : هو أو هى لغير العاقل it، أو لسوف يريد لى إن أجلس القرفصاء فى البانيو بينما يقوم هو بصب الماء المغلى فى البانيو، ولسوف يريد لى أن أحتسى مشروب الجن **gin**، وإلا فإنه سوف يختفى من حياتى للأبد، وقد سبق أن قال لى مرارًا وتكرارًا إن الفنان لا يستطيع أن يعيش مثلما يعيش الناس الآخرون، وحيث يكون ملتزمًا بمطالب أسرته وتوفير الممتلكات المادية الباهظة التكاليف.

وأفكر فى أشياء سبق أن سمعت عنها : تناول كميات كبيرة من خمور الجن **gin** + إبرة الخياطة + الشماعة الخاصة بالمعطف، ولكننى أفكر أيضًا فى سوزى وفى أجنحة الدماء الحمراء الخاصة بها، وأرفض أن أنتهى على النحو الذى انتهت سوزى عليه، أرجع إلى شقتى، وأستلقى على الأرض، جسدى فاقد الحس وكسول

ودون إحساس، لا أستطيع التحرك إلا بصعوبة كبيرة، بل أتنفس فى صعوبة، بل أشعر كأننى فى وسط اللاشىء أو فى وسط مربع أسود اللون غير شاغر تمامًا، وأشعر أننى أتفجر فى بطء نحو الخـــارج وإلى داخل الفـــراغ المكانى المحترق فى فتور.

وعندما أستفيظ يكون الوقت قد أصبح فى منتصف الليل، لا أعرف فى بادئ الأمر المكان الذى أوجد فيه، وأظن بطريق الخطأ أننى قد عدت إلى غرفتى القديمة بمنزل والدىّ وأننى مستلقية على الأرضية لأننى قد وقعت من السرير مثلما اعتدت أن أقع عندما كان لدينا أسرة الجيش النقالى، ولكننى أدرك أن منزلنا قد تم بيعه وأن والدىّ لم يعودا يسكنان هناك، وأنهما على نحو ما قد تركانى متخلفة وراءهما.

هذه هى فقط نهاية حلم، أنهض واقفة وأضىء الأنوار الكهربائية وأعد لنفسى بعض اللبن الساخن، وأجلس إلى منضدة المطبخ فى ارتعاد مع البرد .

* * *

حتى الآن لقد كنت أرسم دائمًا أشياء كانت موجودة بالفعل هناك أمامى، والآن أشرع فى رسم أشياء غير موجودة هناك.

أرسم محمصة خبز كهربائية مصنوعة من الفضة ومن النوع القديم الذى به أكرات وأبواب، وأجعل أحد الأبواب مواربًا بحيث يكشف عن الشواء التوهج باللون الأحمر بالداخل، وأرسم راووق القهوة الزجاجى؛ وهو الجهاز الذى يمكن للمياه التى تغلى من أن تتخلل البن تدريجيًّا مع التركيز على الفقاعات التى تتجمع فى المياه النقية بينما نقطة واحدة من البن الغامق قد سقطت وبدأت فى الانتشار، وأرسم الغسالة الكهربائية الأتوماتيكية الكاملة والتى كانت بمثابة أسطوانة من المينا البيضاء بينما آلة العصر الخاصة بها لها لون وردى، وأعرف أن هذه الأشياء

أقرأناكموه

تعتبر من الذكريات بكل تأكيد، ولكنها لا توجد بها خصائص الذكريات، فهى ليست سديمية ضبابية عند الحواف، وإنما هى حادة وواضحة المعالم، فهى تصل منعزلة عن أية سيئة خاصة بها؛ فهى هنالك بكل بساطة فى حالة عزلة مثل شيء ما تلمحه بالشارع يكون هنالك.

ليس لدى صورة عن نفسى تتعلق بهذه الاشياء، إنها مغمورة بالقلق ولكنه ليس القلق الخاص بى، فالقلق موجود فى الأشياء فى حد ذاتها.

أرسم ثلاث أرائك، إحداهما لها قماش شيت مطبوع به ورود قذرة، وأخرى لها قماش مخملى ذو لون أحمر داكن ولها مناديل ورقية، والأريكة الموجودة فى المنتصف لها لون أخضر / تفاحى، وعلى الوسادة الوسطى للأريكة الوسطى يوجد كأس البيضة **egg _ cup** متخذًا خمسة أضعاف حجمه الطبيعى مع وجود قشرة بيضة مكسورة فى داخله.

أرسم برطمانًا زجاجيًا به مجموعة من نبات البلادونة المميت متصاعدة لأعلى منه مثل الدخان أو مثل السواد الصادر عن زجاجة عفريت من الجن، سيقان النبات تتلوى وتتداخل والأغصان تتعنقد بالتوت الأحمر والأزهار الأرجوانية، للأوراق اللامعة يوجد عيون القطط.

* * *

فى فترة النهار أذهب إلى العمل وأعود من العمل وأتكلم وآكل الطعام، ويجيء جون من مكان بعيد ويأكل وينام ثم ينصرف مبتعدًا، أرقبه فى انعزال، وهو لا يلاحظ أى شيء، كل حركة أقوم بها مخضلة ومليئة بالزيف والبهتان والاصطناع الكاذب، عندما لا يكون هناك أحد موجود بالقرب منى أقضم أصابعى، أحتاج لأن أشعر بالآم فيزيقية جسدية، ولأنى أربط نفسى بالحياة اليومية، جسدى

هو شيء منفصل ومنعزل، جسدى تصدر عنه تكتكة شبيهة بصوت ساعة الحائط، الزمن موجود فى داخل كيانى، الجسد قد خاننى وأنا مشمئزة منه.

أرسم السيدة سميث، إنها تطفو على السطح على نحو فجائى ودون سابق إنذار، مثل سمكة ميتة تتجسد على كنبة أقــوم برسمها، فى بادئ الأمر ساقاها ذات الشعر الخفيف والبشرة البيضاء ودون رسغى القدمين، وبعدئذ خصرها السميك ووجهها الشبيه بثمرة البطاطس، ثم عيناها فى الإطار الصلب الخاص بها، والبطانية الملونة متجعدة عبر ردفيها بينما شجرة المطاط تبزغ فى تصاعد خلفها مثل مروحة، وعلى رأسها توجد القبعة اللباد التى اعتادت أن ترتديها فى أيام الأحد من كل أسبوع، إنها تنظر إلى الخارج نحوى من داخل السطح المنبسط للطلاء، وتبدو لى الآن متكونة من ثلاثة أبعاد وتبتسم لى بابتسامتها شــبه المغلقة فى شيء ما حدث لى هو بمثابة الخطأ الخاص بى والذى هو الخطأ المتعلق بما هو خاطئ فى داخلى.

الســيدة سميث تعرف ذلك الشيء الخــاطئ الموجــود فى داخــلى، ولكنها لا تتحدث عنه.

* * *

صورة واحدة للسيدة سميث تؤدى إلى صورة أخرى، إنها تتكاثر على الجدران والحوائط مثل البكتيريا، واقفة وجالسة وطائرة فى ملابس ودون ملابس مع النظر إلى وتتبعنى بنظراتها هنا وهناك بعيونها العديدة تمامًا مثل تلك البطاقات البريدية للسيد المسيح التى يمكن لك الحصول عليها من المحلات العادية الموجودة على الناصية، فى بعض الأحيان أدير وجه السيدة سميث نحو الحائط.

* * *

أقرأناكموه

(٦١)

أدفع سارة الموجودة فى عربة الأطفال الصغيرة الخاصة بها على طول الشارع مع تجنب كومات الثلج شبه الذائب، وعلى الرغم من أن عمرها يزيد على السنتين، فإنها لا تزال غير قادرة على المشى بالسرعة الكافية فى حذائها الكاوتش الأحمر ذى الرقبة التى تجعلها لا تتخلف عنا أثناء ذهابنا للتسوق وشراء الحاجيات، كما أن عربة الأطفال تساعدنى أيضًا؛ حيث أعلق حقائب مواد البقالة فى مقبض عربة الأطفال، أو أضعها فى داخل العربة بالأماكن الشاغرة حول سارة.

نحن الثلاثة نعيش الآن فى مكان أكثر اتساعًا، فى الطابقين العلويين لمنزل من الطوب الأحمر شبه منفصل عن المنازل الأخرى وبه فراندة تسندها أعمدة خشبية مرتخية والمنزل يقع فى شارع جانبى غرب منطقة بلور **Bloor**، ويوجد فى هذا المكان عدد كبير من الإيطاليين، والنساءِ الأكبر سنًّا والنساء المتزوجات والأرامل يرتدين ملابس سوداء اللون ولا يستخدمن المكياج على النحو الذى اعتدت عليه، وعندما كنت فى الشهور الأخيرة من الحمل كن يبتسمن لى كما لو كنت واحدة منهن والآن يبتسمن لسارة أولاً.

وأنا نفسى أرتدى تنورات قصيرة ذات ألوان أساسية وتحتها رداء ضيق محكم وحذاء له رقبة، علاوة على ارتداء معطف طويل يصل إلى رسغ القدم، إننى لست راضية تمامًا عن هذه النوعية من الملابس، فمن الصعب على الجلوس أثنـــاء ارتداء هذه الملابس، هذا بالإضافة إلى أن وزنى قد ازداد بعض الشىء عقب ولادة سارة، فهذه التنورات الضئيلة والصديريات الصغيرة قد صممت من أجل نساء أكثر نحافة منى وأصغر فى السن، فأنا لم أعد شابة صغيرة؛ إذ اكتشفت وجود شعر أبيض خلف أذنى اليسرى، فى خلال سنتين سأصل إلى سن الثلاثين، أى سأصل إلى قمة التل وبعدئذ يبدأ خط الانحدار.

أقود عربة سارة على رصيف المشاة وأفك الأربطة التى تربطها بالعربة، وأضعها عند بداية السلالم المؤدية إلى الشرفة المسقوفة وأستخرج حقائب مواد البقالة من العربة، وأساعد سارة على الصعود على السلالم إلى أن تصل إلى الباب الأمامى؛ لأن هذه السلالم يمكن أن تكون زلقة، وأرجع إلى حقائب البقالة وعربة سارة وأصعد بهما على السلالم وأبحث فى حافظة نقودى عن المفتاح وأفتح الباب، وأحمل سارة إلى الداخل، ثم أنقل الحقائب والعربة إلى الداخل، ثم أغلق الباب بالمفتاح، وأساعد سارة على الصعود على السلالم الداخلية وأفتح الباب الداخلى وأضع سارة فى الداخل ثم أنزل لكى أحضر الحقائب . بيض + ورق تواليت + تفاح + موز + جزر + سجق + كعك محلى بالسكر، وأشعر بالقلق إزاء تقديمى الكثير من السجق، لأننى سمعت أنه ربما يؤدى للإصابة بمرض شلل الأطفال.

سارة جائعة؛ لذلك أتوقف عن استخراج عبوات حقائب البقالة من أجل أن أحضر لها كوبًا من اللبن، إننى أحبها حبًّا جنونيًّا؛ ولذلك فأنا كثيرًا ما أشعر بالقلق عليها.

على مدى العام الأول كنت أشعر بالتعب طوال الوقت، وكنت مشوشة بسبب كثرة الهرمونات، ولكننى أفيق من هذه الحالة الآن، إننى أنظر فيما حولى.

* * *

يجىء جون **Jon**، ويمسك بسارة ويرفعها لأعلى ويقبلها ويدغدغ وجهها بلحيته وينقل صراخها الحاد إلى غرفة المعيشة، ويقول لها: " هيا بنا نختبئ بعيدًا عن ماما **mummy** "، إنه يحرص على تكوين معسكر يضمه هو وسارة ضدى مما يضايقنى أكثر مما ينبغى، وأيضًا أنا لا أشعر بالارتياح عندما يسمينى: مامى **mummy**، فأنا لست أمه هو وإنما أنا أم سارة، ولكنه يحبها أيضًا، وهذه كانت مفاجأة، فأنا حتى الآن لا أنظر إلى سارة على أنها بمثابة هدية قدمتها إليه، وإنما

أقرأناكموه

بمثابة هدية منحنى إياها، فهى السبب فى أننا قد تزوجنا، وجون Jon الذى هو بروتستانتى لوثرى مرتد، والذى هو من منطقة شلالات نياجرا رأى أنه ينبغى علينا الذهاب إلى هناك لكى نقضى شهر العسل، وقطع كلامه لدى النطق بكلمة : شهر العسل honeymoon؛ إذ اعتقد أن ذلك سيكون بمثابة نكتة فكاهية من نوع ما، ابتذال وسخافة مَتسمة بالخجل مثل رسم زجاجة كوكا عملاقة، وقال: " مناظر خلابة مذهلة"، أراد أن يصطحبنى إلى متحف الشمع الذى يعرض التماثيل الشمعية وإلى ساعة الأزهار، وكان يريد لنا أن نرتدى القمصان الساتان التى كتبت على جيوبها أسماؤنا بطريقة التطريز وعلى ظهرها عبارة : شلالات نياجرا، ولكننى كنت أشعر فى صمت بالاستياء من هذا الزواج الخاص بنا؛ إذ مع مرور الأسابيع كان بطنى يزداد انتفاخا مثل البالون وبالتالى كانت فكرة قضاء شهر العسل مع وجود هذا البطن المنتفخ بمثابة نكتة، وبذلك فضلنا عدم الذهاب إلى شلالات نياجرا لقضاء شهر العسل هناك.

* * *

عقب زواجنا مباشرة انحدرت إلى كسل شهوانى، كان جسدى مثل سرير من الريش وكان دافئًا وخاليًا من العظام ومريحًا للغاية، وربما كان السبب فى ذلك هو الحبل الذى يمتص الأدرينالين، أو ربما كان السبب فى ذلك هو الشعور بالارتياح النفسى، كان جون يتوهج أمامى آنئذ مثل شىء رائع وممتاز تحت أشعة الشمس وقد أصبح غنيًّا بالألوان وكاملاً من حيث القالب أو الشكل form، كنت أستلقى فى السرير إلى جواره، أو أجلس إلى منضدة المطبخ وأنا أجرى بعينى عليه وكأننى أتلمسه بيدى، كانت عبادتى له متسمة بالطابع الفيزيقى الجسدى ومتسمة بالصمت الخالى من الكلام تمامًا، كنت أحيانًا أقول كلمة : آه Ah ولاشىء أكثر من ذلك، مثل نفس يطلق فى زفير، أو كنت أقول لنفسى – مثل طفلة – إنه ملكى أنا Mine مع الإدراك فى الوقت نفسه أن هذه ليست حقيقة، أو كنت أقول له فى سرى:

لاتتحرك والتزم بالبقاء على هذا الوضع **Stay that way**، ولكنه لم يكن بمقدوره أن يظل على ذلك الوضع دون إبداء أى حركة.

* * *

بدأت المشاجرات تدب بينى وبين جون، مشاجراتنا هى من النوع السرى الخفى التى تتم ليلاً عندما تكون سارة نائمة، شجار يتم بصوت منخفض، نبعد شجارنا عنها، لأن هذه المشاجرات كانت مخيفة بالنسبة لسارة، ونحن نتنافس – على سبيل المثال – على من منا يكون فى حالة أشد سوءًا، فإذا أصبت أنا بالصداع فإنه يقول إنه مصاب بالصداع النصفى، وإذا شعر هو بآلام فى الظهر أقول إننى أعانى من آلام قاتلة فى رقبتى، وبالتالى لا يرغب أحدنا فى تقديم المساعدات للآخر، فنحن نقاتل من أجل الحفاظ على حقنا فى أن نظل أطفالاً.

فى بادئ الأمر لا أنتصر فى هذه المشاجرات وذلك بسبب الحب، أو هكذا أقول لنفسى؛ فإذا ما قُدر لى أن أنتصر فى هذه المشاجرات، فإن نظام العالم سيتغير وأنا لست على استعداد لذلك؛ لذلك فأنا أخسر فى جولات المشاجرات وأبرع فى الفنون المختلفة؛ إذ أهز كتفى فى لامبالاة وأزم شفتى فى توبيخ صامت وأدير له ظهرى فى السرير ولا أرد على اسئلته واستفساراته، وأقول له : " افعل ذلك عـلى النحـو الذى يروق لك " وأثير غضـبه الملىء بالكآبة والحـزن، إنه لا يرغب فقط فى الحصول على استسلامى، وإنما يريد أيضًا انتزاع إعجابى به وحماسى له ولآرائه وأفكاره، وعندما لا يحصل على كل ذلك يشعر أنه قد تعرض للغش والخداع والاحتيال.

* * *

جون يشغل وظيفة الآن؛ حيث يقوم بعمل إشرافى لنصف الوقت فى استوديو تعاونى لفن الرسم البيانى، وأنا أعمل لنصف الوقت أيضًا، ومن خلال مرتباتنا المشتركة نستطيع تسديد إيجار المسكن.

جون لم يعد يرسم على القماش أو على أى شىء آخر مسطح، وحقيقة الأمر أنه لم يرسم على الإطلاق، وهو يطلق على الأسطح المنبسطة التى عليها طلاء ورسم اسم : " الفن على الحائط **art – on – the – wall** "، ولايوجد سبب يدعو لأن يتم الرسم على حائط، ولا يوجد سبب يدعو لأن يكون هنـــاك إطار حول الحائط أو رسم على الحائط، وهو بدلاً من ذلك يقوم بتصنيع بنيات تركيبية من خلال استخدام أشياء يجمعها من كومات الخردة المتناثرة هنا وهناك، فيصنع صناديق خشبية بها أجزاء مستقلة بحيث يحتوى كل جزء على مادة مختلفة، وهو يقوم بتصنيع لعب أطفال من أجل سارة ويدعها تلعب ببقايا قطع الخشب وببعض الآلات غير الخطيرة التى يستخدمها فى تصنيع الأشياء أثناء إنجازه لأعماله، وذلك عندما يكون موجودا بالمنزل، وهو لا يوجد بالمنزل فى معظم الأوقات.

* * *

على مدى السنة الأولى عقب ولادة سارة لم أمارس الرسم على الإطلاق، وكنت آنئذ أعمل أعمالاً حرة **freelance**، وأنجز أعمالى بالمنزل، وكان إنجاز ارتباطاتى بالرسم على أغلفة الكتب يعتبر مجهودًا كبيرًا، وكنت أشعر بأننى معوقة وكأننى أسبح أثناء ارتداء ملابسى، والآن فأنا أعمل لنصف الوقت فقط، وهذا أفضل.

* * *

إننى جالسة على كرسى خشبى من النوع الذى ينطوى على خشبة المسرح، الستائر مفتوحة وأستطيع مشاهدة قاعة الاستماع التى هى صغيرة ومتداعية وشاغرة، وعلى خشبة المسرح توجد أيضًا معدات مسرح لم يتم تفكيكها بعد، رغم أنها تخص مسرحية قد انتهى عرضها توًّا، فهى معدات بصدد أن تستخدم مرة أخرى، ولكنها ستشتمل على عدد كبير من الأعمدة الأسطوانية السوداء والعديد من السلالم البسيطة الخالية من الزخرفة.

توجد ١٧ امرأة جالسات فى ترتيب حول الأعمدة على كراسى خشبية أخرى وعلى السلالم المتناثرة هنا وهناك، وكل واحدة منهن هى فنانة أو شىء من هذا القبيل، وتوجد العديد من الممثلات وراقصتان وثلاث رسامات بالاضافة إلىّ، كما توجد كاتبة واحدة فى مجلة ومحررة تعمل فى دار النشر الخاصة بى، وكذلك امرأة واحدة تعمل مذيعة فى الراديو { الموسيقى الكلاسيكية فى فترة النهار } وامرأة تقدم عروض مسرح العرائس للأطفال، وامرأة تعمل كمهرجة محترفة، وامرأة تعمل فى مجال الإعداد المسرحى الذى هو السبب فى مجيئنا إلى هنا؛ فهى التى وفرت لنا هذا المكان الملائم الذى نعقد فيه هذا الاجتماع، إنه ليس أول اجتماع من هذا النوع أحضر إليه، ولكنى مع ذلك أجده مروعًا، لسبب واحد وهو أنه لا يضم سوى النساء، وهذا فى حد ذاته شىء غير عادى وبه جو من السرية والقذارة الجذابة، آخر اجتماع حضرته لا يضم سوى النساء فقط قد عقد فى غرفة الصحة **Health Class** بالمدرسة الثانوية حيث تم عزل البنات عن الأولاد، حتى يمكن أن يقال لهن كلامًا عن اللعنة **Curse**، ولم تكن كلمة اللعنة هى التى استخدمت وإنما قيلت عبارة رسمية مقبولة : " تلك الأيام **Those days** "، وفى هذا الاجتماع تم شرح وتوضيح الأمور، وقيل إنه على الرغم من أن السدادات القطنية التى يحشى بها الجرح من أجل إيقاف النزيف **tampons** لا يوصى بأن تستخدمها الفتيات الشابات – وكنا نعرف أن عبارة الفتيات الشابات يقصد بها الفتيات العذراوات – فإنها لا يمكن لها أن تضيع فى داخل جسد الفتاة وينتهى بها المطاف إلى الوصول إلى الرئة،

أقرأناكموه

فتفجرت الضحكات المكتومة بين الفتيات، وعندما قامت المدرسة بتهجى كلمة الدماء **BLOOD** تعرضت بنت واحـــدة للإغمـــاء، ولكن اليـــوم لا توجد ضحكات أو حالات إغماء، فهذا الاجتماع يدور حول الغضب.

أشياء تقال لم يسبق لى أن فكرت فيها بوعى على الإطلاق، أشياء يتم الإطاحة بها؛ فلماذا ننتف شعر سيقاننا على سبيل المثال ؟ ولماذا نضع أحمر الشفاه على أفواهنا ؟ ولماذا نرتدى ملابس انسلالية ؟ ولماذا ندخل تغيرات على أشكالنا ؟ وما هى الأمور الخاطئة فينا على النحو الذى نحن عليه ؟ .

إنها جودى **Jody** التى تسأل هذه الأسئلة، وهى إحدى الرسامات الأخريات، إنها لا ترتدى أجمل الثياب الرسمية أو تغير فى شكلها، وهى تلبس حذاءً عاديًا له رقبة وترينا ساقيها المليئتين بالشعر، أفكر فى ساقى المنتوفتين فى جبن وأشعر أنه قد تم عمل غسيل مخ لى.

ويقال كلام كثير عن الرجال فى هذا المؤتمر، فاثنتان من النساء الحاضرات فى هذا المؤتمر قد اغتصبن على سبيل المثال، وإحداهن قد ضربت ضربًا مبرحًا، وأخريات قد عوملن معاملة غير عادلة ومتسمة بالتعصب أثناء العمل؛ حيث تم التغاضى عنهن والاستخفاف بمطالبهن، أو تم الاستخفاف والسخرية من إنتاجهن الفنى أو رفض إنتاجهن الفنى ووصف بأنه أنثوى أكثر من اللازم، وأخريات بدأن يعقدن مقارنة بين مرتباتهن ومرتبات الرجال واكتشفن أن مرتباتهن أقل كثيرًا من مرتبات الرجال.

وليس لدى شك فى أن كل هذه الأشياء صادقة وحقيقية، فالمغتصبون موجودون وكذلك أولئك الذين يتحرشون بالأطفال ويخنقون البنات، إنهم يوجدون بين طيات الظلال مثل الرجال الأشرار الذين يختبئون فى كمون فى الوديان العميقة السحيقة والذين لم أشاهد أى واحد منهم على الإطلاق، إنهم أناس يمارسون

العنف ويشنون الحروب ويرتكبون جرائم القتل والاغتيال، إنهم ينجزون أعمالاً قليلة ويكسبون المزيد من النقود، إنهم يلقون بأعباء الأعمال المنزلية على كاهل النساء، إنهم غير مراعين لمشاعر الآخرين، إنهم يرفضون مواجهة العواطف الخاصة بهم، إنه من السهل أن يتم خداعهم ويرغبون فى أن يخدعوا؛ فمن خلال شهقات قليلة والتنفس بجهد مع إحداث صوت كالصفير يمكن خداعهم وجعلهم يعتقدون أنهم رجال من نوع السوبرمان الجنسى، وتوجد قهقهات تدل على الاعتراف والتسليم بكل ذلك، أبدأ أسائل نفسى فى تعجب عما إذا كنت أتظاهر بالوصول إلى النشوة العظمى **orgasm** دون أن أدرك ذلك.

ولكننى أقف على أرض مهتزة ومتقلقلة فى هذا المؤتمر الموجه ضد الرجال لأننى أعيش بالفعل مع رجل، والنساء من أمثالى ممن لهن زوج وطفل يشار إليهن فى نوع من الاحتقار على أنهن " نيوكات **nukes** " نسبة للأسرة النووية **nuclear family**، وفجأة تصبح كلمة" المنبطح على الأرض **pronatalist** " من الكلمات الرديئة، وفى هذه المجموعة النسائية الموجودة فى الاجتماع توجد نيوكات أخريات مثلى ولكنهن لا يشكلن أغلبية ولا يقلن أى كلام دفاعًا عن أنفسهن، ويبدو أنه من الأفضل أن تعيش امرأة مع طفل على أن تعيش مع رجل، فإذا عاشت امرأة مع رجل مهما كانت المشاكل التى تواجهها فى الحياة، فإنها تكون بذلك قد ارتكبت خطأ فادحًا، ولا شىء من هذا يقال فى حقيقة الأمر، فهذه الاجتماعات يفترض فيها أنها تجعلنى أشعر بالمزيد من القوة، وهى على نحو ما تجعلنى أشعر بذلك، الغضب الشديد يمكن له أن يحرك الجبال، وعلاوة على ذلك فإن هذه الاجتماعات تذهلنى، إنه من المذهل والمثير حقًا أن تسمع مثل هذه الأشياء وهى تبزغ من أفواه وابدأ أعتقد أن فكرتى عن النساء من حيث كونهنّ متسمات بالغباء كانت خاطئة

لأنهن ربما كن يخفين أشياء وقدرات على النحو الموجود لدى، إلا أن هذه الاجتماعات تجعلنى أموج بالقلق والتوتر، ولا أعرف السبب فى ذلك، وأنا لا أقول كلامًا كثيرًا، فأنا غير لبقة ومرتبكة وغير واثقة تمامًا من نفسى، وبالتالى فأنا أخشى أن يجىء أى كلام أقوله متسمًا بالأخطاء، كما أننى لم أقاس كثيرًا ولم أسدد الرسوم الخاصة بى وبالتالى فأنا ليس لى الحق فى أن أتكلم كثيرًا فى الاجتماع، أشعر كأننى واقفة خارج باب مغلق بينما المناقشات تدور فى الداخل مع إصدار أحكام ضدى، وأنا فى الوقت نفسه أريد استرضاءهن وإدخال السرور عليهن.

الأختية **sisterhood** هى مفهوم ذهنى صعب بالنسبة لى، هكذا أقول لنفسى، السبب فى ذلك أننى لم يسبق لى أن كان لى أخت على الإطلاق، أما الأخوة **brotherhood** فهى ليست صعبة الفهم بالنسبة لى.

* * *

أعمل فى الليل عندما تكون سارة نائمة أو أعمل فى الصباح الباكر، أقوم حاليًا برسم مريم العذراء، أرسمها باللون الأزرق مع الخمار الأبيض الاعتيادى ، ولكن مع جعل رأسها رأس لبؤة، والسيد المسيح مستلق فى حجرها على هيئة شبل، فإذا كان السيد المسيح أسدًا وفقًا لما هو وارد فى **iconography** التلقيدية، فلماذا لاتصبح العذراء مريم لبؤة ؟ والعذراء مريم التى أرسمها برية ومتوحشة ومتيقظة ومنتبهة للأخطار، وهى تحملق فى رزانة نحو المشاهد بعينيها الصفراوين اللتين هما عينا لبؤة، وتوجد عند قدميها عظمة مقضومة.

أرسم العذراء مريم أثناء نزولها من السماء إلى الأرض التى هى مغطاة بالثلوج المتجمدة والثلوج شبه الذائبة، إنها ترتدى معطفًا شتويًا فوق ردائها الأزرق اللون وقد وضعت الكيس الخاص بها على كتفها، وهى تحمل حقيبتين من الورق

لهما لون بنى ومليئتين بمواد البقالة، ولقد سقطت أشياء كثيرة من الحقيبتين : بيضة واحدة + بصلة واحدة + تفاحة واحدة، يبدو عليها التعب والإرهاق.

أسمى هذه اللوحة باسم : سيدتنا للمساعدات الدائمة

Our Lady of Perpetual Help

جون لا يحب لى أن أرسم بالليل، أقول له: " ومتى إذن أستطيع أن أرسم ؟ " وأضيف: " عليك أن تحدد لى الوقت الملائم للرسم "، ولا توجد سوى إجابة واحدة يمكنه أن يقولها لى وهى : "لا ترسمى على الإطلاق"، ولكنه لا يقول هذه الإجابة.

ولا يقول رأيه فى لوحاتى، ولكننى أعرف رأيه على كل حال، إنه ينتقد أن لوحاتى غير متصلة بالموضوع، وما أرسمه يكون متكومًا **lumped** فى داخل ذهنه مع النساء اللاتى يرسمن الأزهار، وكلمة **lumped** هنا هى بمثابة الصياغة الكلامية، والزمن المضارع منها هو التحرك للأمام مع نبذ مفهوم ذهنى بفيض وراء مفهوم ذهنى بفيض آخر، بينما أنا بعيدة على جانب فى مكان ما أعبث مع طريقة الرسم بألوان ممزوجة بصفار البيض**tempera egg** ومع الأسطح المنبسطة كما لو أن القرن العشرين لم يبزغ إلى الوجود.

* * *

توجد حرية فى هذا ، لأنه لا يهم ما أفعله ، فأنا بمقدورى أن أفعل ما يروق لى.

* * *

بدأنا نصفق الأبواب ونغلقها فى عنف، وبدأنا نقذف بالأشياء، ألقى بكيس النقود الخاص بى وبطفاية سجائر وبعبوة من رقائق الشيكولاتة التى تتكسر وتتناثر لدى

الاصطدام، ونظل نلتقط شظايا الرقائق المتناثرة على مدى أيام، ويلقى جون بكوب من اللبن؛ أقصد : يلقى باللبن وليس بالكوب نفسه، وهو يلقى بصندوق شيريو **cheerio** غير مفتوح.

الأشياء التى ألقى بها تخطئ هدفها، على الرغم من أنها أشياء أشد سوءًا، والأشياء التى يلقى بها تصيب هدفها، ولكنها عديمة الضرر.

أبدأ أرى كيف يمكن عبور الخط الفاصل ما بين الأشياء المسرحية الاصطناعية المتكلفة وبين الاغتيال.

جون يحطم الأشياء، ثم يغرى الشظايا والقطع المكسورة بحيث يعيدها بما يتماشى مع نمط الكسر، أستطيع أن أرى المناشدة.

* * *

يجلس جون فى غرفة المعيشة محتسيًا البيرة مع أحد الرسامين، وأنا موجودة بالمطبخ ومنهمكة فى دفع الآنية هنا وهناك فى عنف.

فيقول الرسام : " ماذا دهاها ؟ " .

فيقول جون : " إنها مجنونة لأنها امرأة "، وهذا كلام لم أسمعه على مدى سنوات وليس منذ المدرسة الثانوية، ذات يوم كانت هذه العبارات بمثابة شىء مخزٍ يقال، وبمثابة شىء ساحق يقال عنك بمعرفة رجل، فهى عبارة تشمل على الشذوذ والتشوه والعجز عن الأداء الجنسى بالطريقة السوية المألوفة **sexual malfunction**.

أذهب إلى باب غرفة المعيشة، وأقول: " إننى لست مجنونة لأننى امرأة، ولكنى مجـــنونة لأنك بمثابة فتحة الشرج الخاصة بحمار صغير ".

* * *

بعض النساء المنتميات للاجتماعات سالفة الذكر يقمن بالإعداد لعمل معرض جماعى للوحات لا يضم سوى إنتاج النساء فقط، وهذا عمل محفوف بالمخاطر، ونحن ندرك هذه الحقيقة، و جودى **Jody** تقول إنه يمكن النظر إلينا على أننا نفاية وهراء من جانب مؤسسة الفن الذكورى، فالاتجاه الخاص بهم فى هذه الأيام هو أن الفن العظيم يتخطى الجنس من حيث الذكورة والأنوثة **gender**، واتجاه جودى هو أن الفن كان فى معظم الأحيان بمثابة رجال يبدو إعجابهم بإنتاج بعضهم البعض وأن المرأة الفنانة يمكن أن تلقى الإعجاب من الرجال من حيث هى فقط بمثابة خط جانبى أو نشاط فرعى أو نوع من الاستثناء الشاذ أو الفلتة غير الطبيعية، وتقول جودى: " أعاجيب غير شرعية ".

كما يمكن لنا أن نلقى الإهمال من جانب النساء أيضًا بسبب تمييز أنفسنا فى تفرد عن الأخريات ووضع أنفسنا فى المقدمة أمام الأخريات؛ حيث يمكن لهن أن يطلقن علينا اسم : المؤمنات بالصفوة المختارة **elitists**، فهناك العديد من المخاطر والمآزق.

نحن أربع رسامات مشتركات فى هذا المعرض، كارولين التى لها وجه ملائكى قمرى فى إطار ملامح هولندية مع وجود شعر داكن فى مقدمة رأسها مقصوص فوق الجبين تسمى نفسها فنانة نسيج وأقمشة، وبعض إنتاجها عبارة عن ألحفة مرقعة مكونة من قطع من قماش مختلفة الألوان والأشكال تخاط لتصبح لحافًا وفق تصميمات ابتكارية، فأحد هذه الألحفة به حروف هجائية لعبارة : " ماهو الحب **what is love** "، وهناك لحاف آخر مليء بالأزهار والنباتات مع وجود رسالة زخرفية :

UP YOUR MAN

أو بدلاً من ذلك تصنع معلقات جدارية من خلال استخدام ورق تواليت ملوى مثل الحبل ومضفر ومنسوج مع بكرات أقلام البنات القديمة التى هى من ذلك النوع الذى كان يسمى عادة "أقلام الفن"، وتقول فى ابتهاج : " هذه أشياء قديمة مستهلكة، فلماذا لا نعيد استخدامها مرة أخرى **recycle** ؟ " .

و جودى تقوم بتصنيع المانيكانات التى توجد فى فاترينات العرض بالمحلات والدكاكين.

وزيلاه **Zillah** هى امرأة شقراء وهزيلة مضت، وهى تطلق على الضعيفات المنتميات لسنوات قليلة مضت، وتطلق على إنتاجها الفنى اسم: الأردية الخارجية النسالية الكتانية **Lintscapes** وهى تنتج ذلك وفق تصميمات فنية جميلة.

و جودى التى هى المسئولة عن ذلك المعرض أكثر من أى شخص آخر قد تفحصت لوحاتى واختارت من بينها اللوحات التى ستنقل إلى المعرض، وهى قد اختارت اللوحات التالية : العصارة **wringer** + محمصة الخبز **toaster** + نبات البلادونة المميت **Deadly Nightshade** + الساحرات الثلاثة **three witches**، والساحرات الثلاثة هى إحدى الكنيات الثلاثة المختلفة.

كما توجد فى المعرض أيضًا جميع لوحاتى عن مريم العذراء وكل رسوماتى عن السيدة.

* * *

يقام المعرض فى سوبر ماركت صغير ومميت فى المنطقة الغربية بشارع بلور ستريت، ومن المقرر لهذا السوبر ماركت أن يتحول إلى فردوس هامبورجر خلال فترة زمنية قصيرة، وبالتالى فهو شاغر حاليًا، ولقد تمكنت إحدى النساء التى

تعرف ابن عم زوجة الرجل الذى يمتلك هذا السوبر ماركت من إقناعه بأن يسمح لهن باستخدامه لمدة أسبوعين، وقالت له إن معظم الدوقات المشهورين فى عصر النهضة قد اشتهروا برعايتهم للفنون، فراقت هذه الفكرة له، وهو لا يعرف أن المعرض سيكون مخصصًا للنساء فقط حيث اكتفت بأن قالت له إن المعرض سيضم لوحات فنية، فقال إنه ليس لديه مانع على الإطلاق ما دمنا لا نتسبب فى نشر القذارة فى المكان.

وتقول كارولين بينما نحن ننظر فيما حولنا: " كيف يخاف على هذا المكان من القذارة بينما هو ملىء بالقذارة بالفعل ؟ "، وهى على حق، فهو ملىء بالقاذورات بما فيه الكفاية.

* * *

نعمل فى نشاط على مدى ثلاثة أيام ونقوم بالتنظيم ونعيد التنظيم مرة أخرى، وبعد أن نضع المعروضات الفنية فى الأماكن المخصصة لها، فإننا نضع المناضد المستأجرة فى البار ونشترى المشروبات **Hooch** والمأكولات **eats** على حد تعبير جودى، ونحضر خمورًا كندية فى أباريق ونحضر فناجين من أجل صب الخمور فيها، علاوة على إحضار شرائح البطاطس المقلية والجبنة الشيدر الملفوفة فى أوراق بلاستيك.

* * *

قبل الافتتاح أحضر إلى المعرض فى وقت مبكر، أتناول بعض الخمور الشنيعة، ثم أتناول المزيد وأشعر بالتحسن، رغم أننى أدرك أننى فيما بعد سأكون فى حالة أسوأ .

أقف مستندة على الحائط بجوار الباب مع الإمساك بفنجان الخمر، إننى واقفة هنا لأنه باب الخروج، ولأنه أيضًا باب الدخول؛ فالناس يجيئون وبعدئذ يتوافد المزيد منهم.

أناس كثيرون ومعظمهم من النساء، توجد نوعيات النساء كافة، ولهن شعر طويل وتنورات طويلة وجينز وأفرولات وحلقان وطواقى تشبه الطواقى التى يرتديها عمال البناء وشيلان لها لون أرجوانى شاحب، بعضهن من الرسامات الأخريات وبعضهن يشبهن فقط الرسامات، وكارولين وجودى وزيلاه موجودات هنا الآن، وتترامى التحيات واعتصار الذراع والقبلات على الخدود وصرخات المتعة والبهجة.

يبدو عليهن جميعًا أن لهن أصدقاء وصديقات أكثر مما لدىّ، ولهن المزيد من الصديقات الحميمات، هذا الغياب من جانبى لم أفكر فيه أبداً من قبل، فقد افترضت أن النساء الأخريات يشبهننى، لقد كن يشبهننى ذات يوم، ولكنهن الآن لا يشبهننى.

فهناك كورديليا بالطبع، ولكننى لم أشاهدها منذ سنوات.

جون لم يصل إلى هنا حتى الآن، لقد أحضرنا جليسة للطفلة حتى يتمكن هو من المجيء إلى المعرض، أظن أننى ربما أتغازل مع شخص ما غير متلائم معى لمجرد أن أرى ما يمكن أن يحدث بعد ذلك، ولكن لا توجد فرص كثيرة نظرًا لأنه لا يوجد عدد كبير من الرجال، أشق طريقى بين الجمهور ومعى فنجان خمر آخر محاولة أن أبدو غير مهجورة.

* * *

وتقول جودى: " يا إيلين، أريد لك أن تتقابلى مع أمى "، وتضيف: " مام **Mam**، إيلين هى التى رسمت لوحة الزهور التى أعجبتك " .

إنها تقصد لوحة " نبات البلادونة المميت "، وتقول أم جودى : " أوه، نعم " وتبتسم فى دهاء، وتضيف : " أنتن جميعًا أيتها البنات موهوبات للغاية، وأنا أحب تلك اللوحة؛ فالألوان محببة للنفس وجميلة".

أحضر لنفسى كوبًا آخر من الخمر وبسكوتة رقيقة هشة عليها بعض الجبنة وأحملق فى الجماهير باحثة عن جون، ولكن ما أشاهده فوق الرؤوس هى : السيدة سميث.

السيدة سميث ترقبنى، إنها مستلقية على الأريكة، وقد ارتدت قبعة يوم الأحد الشبيهة بالعمامة ولفَّت البطانية الملونة حولها، وأنا قد أطلقت على هذه اللوحة اسم: تورونتو داليسك : الولاء تجريس: **Toronto dalis que Homage to gngres** ، وذلك بسبب الوضعية الفنية الخاصة بالاستلقاء وبسبب شجرة المطاط التى تبدو مثل مروحة خلفها، وهى تجلس أمام مرآة بينما نصف وجهها متقشر مثل وجه الشخص الوغد الوارد فى قصة هزلية كنت قد قرأتها ذات مرة، وهذه اللوحة تسمى: مرض الجذام **Leporsy**.

وهى تقف أمام الحوض الخاص بها وقد أمسكت بسكينتها فى يد وبثمرة بطاطس نصف مقشورة فى يدها الأخرى، وهذه اللوحة تسمى: العين بالعين **An-Eye For An-Eye**.

وبعد هذا توجد لوحة الهدية البيضاء **White Gift** والتى تتألف من أربع لوحات، فى اللوحة الأولى تكون السيدة سميث ملفوفة فى ورق رقيق شبه شفاف بينما لا يظهر منها سوى وجهها وابتسامتها المزمومة المغلقة على وجهها، وفى اللوحات الثلاثة التالية تكون غير ملفوفة، وتكون مرتدية فستانها الأحمر الوردى ومريلة الصدر الخاصة بها، وتكون مرتدية جلبابها، وأخيرًا تكون مرتدية بنطلونها

أقرأناكموه

التحتانى القطنى المرتخى الساقين، بينما ثديها الأوحد الكبير قد قطع لكى يظهر قلبها، وقلبها هو قلب سلحفاة تعانى من سكرات الموت؛ فهو قلب زواحفى وله لون أحمر قاتم ومريض وسقيم، وعبر أسفل هذه اللوحة كتبت عبارة : مملكة الرب توجد فى داخلك **The Kingdom of God is Within You** .

لماذا أكرهها وأبغضها إلى درجة كبيرة، هذا لا يزال سرًّا غامضًا غير معروف لى.

أبتعد ببصرى عن السيدة سميث فتوجد هناك سيدة سميث أخرى، ولكنها فى هذه المرة تتحرك وتدب فيها الحياة، إنها قد دخلت من فتحة الباب توًّا وتشق طريقها نحوى، إنها تبدو فى العمر نفسه الذى كانت عليه، بدت وكأنها قد نزلت من اللوحات المعروضة على الحوائط؛ فهى لها الوجه نفسه المستدير الشبيه بثمرة البطاطس، والهيكل العظمى نفسه الضخم والنظارة اللامعة نفسها ودبوس الشعر نفسه الذى على شكل تاج، أحشائى تتقلص فى خوف وبعدئذ تتصاعد داخلى تلك الكراهية ذات الرائحة الكريهة وفى وميض إلى قمة رأسى فى لحظة واحدة.

ولكن هذه المرأة لا يمكن أن تكون هى السيدة سميث بالطبع، لأن السيدة سميث ستكون عجوزة للغاية حاليًا، وهى ليست بالفعل السيدة سميث، فدبوس الشعر الذى هو على هيئة تاج كان بمثابة خداع بصرى؛ إذ لا يوجد سوى شعر رمادى ومقصوص ليكون قصيراً، إنها جريس سميث التى هى ابنة السيدة سميث.

أدقق النظر مرة أخرى، وأقول : " أهى جريس ؟ " وكان العديد من الناس الواقفين بالقرب منى قد توقفوا عن الكلام فجأة، هذه ليست امرأة من النوع الذى يحضر عادة فى افتتاح المعارض.

جريس تواصل سيرها للأمام فى تثاقل وجلبة وقسوة، وجهها أكثر امتلاءً مما كان عليه من قبل، إننى خائفة منها، إننى لست خائفة مما يمكن أن تفعله معى وإنما خائفة من حكمها على وتقييمها لى، وتصل بالفعل أمامى.

وتقول : " أنت إنسانة مثيرة للقرف والاشمئزاز، أنت تتخذين اسم الرب عبثًا، لماذا ترغبين فى إصابة الناس بالأذى ؟ "

ما هو الموجود هناك لكى أقوله ؟ يمكن لى أن أدعى أن السيدة سميث الموجودة فى اللوحات ليست هى أم جريس وإنما هى مجرد تأليف ابتكارى، ويمكن لى أن أذكر القيم الرسمية والاستخدام الدقيق للألوان، ولكن الهذية البيضاء لا تعتبر تأليفًا ابتكاريًا وإنما هى مجموعة صور غير مهذبة للسيدة سميث.

جريس تحملق إلى ما ورائى نحو الحائط، لا توجد مجرد صورة واحدة شنيعة أو صورتان على نحو مروع وإنما توجد العديد من الصور الشنيعة، فالسيدة سميث فى حالة من المسخ من إطار إلى إطار وعارية ومكشوفة ومدنسة مع الكنبة المخملية، ومع شجرة المطاط المقدسة ومع ملائكة الرب، لقد تماديت أكثر من اللازم.

تطبق جريس يديها فى إحكام، ويرتعش اللغد أسفل ذقنها وتحمر عيناها وتمتلئان بالدموع مثل عينى أرنب فى معمل للتجارب، هل تلك بمثابة دمعة ؟ إننى مذعورة ومشدودة وراضية عن نفسى تمامًا، إنها تضع نفسها فى موضع السخرية أخيرًا بينما أنا فى حالة من ضبط النفس.

ولكننى أدقق النظر مرة أخرى، هذه المرأة ليست هى جريس، بل إنها لا تشبه جريس، فجريس من عمرى نفسه، بينما هذه المرأة عجوز وكل ما هنالك أنه يوجد تشابه عام جنسى، هذه المرأة غريبة ولا أعرفها من قبل.

* * *

وتقول المرأة التى هى ليست جريس : " كان ينبغى أن تخجلى من نفسك "، وتضيق عيناها خلف نظارتها، وترفع قبضة يدها وتسقط كأس الخمور من يدى، ويطرطش اللون الأحمر على الحائط والأرضية.

أقرأناكموه

إنها ممسكة فى قبضة يدها بزجاجة حبر، وفى يد مهتزة تفتح غطاء الزجاجة فأكتم أنفاسى رعبًا وخوفًا وفى حب استطلاع أيضًا، هل هى ستقذف بالحبر على ؟ حيث من الواضح تمامًا أنها تنوى الإلقاء بالحبر، توجد شهقات حولنا، الأحداث تتلاحق بسرعة وكارولين وجودى تشقان طريقهما نحوى.

المرأة التى هى ليست جريس تقذف بالحبر مع القذف بزجاجة الحبر ذاتها أيضًا نحو لوحة " الهدية البيضاء " مباشرة، الزجاجة تميل على جانب وتسقط فى صوت مكتوم على السجادة، بينما الحبر يتدفق لأسفل على اللوحة مغطيًا السيدة سميث باللون الأزرق ماركة " باركر " الذى يمكن غسله وإزالته، أضع يداى على فمى كما لو كنت بصدد الصراخ، فتضمنى كارولين وتحتضننى، وتنبعث منها رائحة الأم، وتقول: " لسوف أستدعى الشرطة ".

فأقول : " لا "، وأضيف : " سرعان ما سيزول الحبر ويختفى تمامًا "، وربما سيزول بالفعل لأن لوحة " الهدية البيضاء " مرسومة على خشب ومصقولة بالورنيش، وربما لن تتبقى أية آثار بسيطة على الإطلاق.

النساء يتجمعن فيما حولى من أجل تهدئتى والتربيت على ومواساتى كما لو كنت أنا فى حالة من الصدمة العصبية، ربما تكون مشاعرهن صادقة نحوى بالفعل وربما هن يحببننى رغم كل شىء، من الصعب على أن أعرف جوانب الموقف على وجه الدقة عندما يكون الأمر متعلقًا بالنساء.

ويتساءلن : " من كانت تلك المرأة ؟ " فتقول جودى: " إنها امرأة ما مهووسة ومخبولة ومتعصبة دينيًا "، وتضيف : " إنها إنسانة رجعية ".

لسوف ينظر إلى الآن فى احترام؛ فاللوحات التى تجعل زجاجات الحبر تقذف عليها والتى تثير مثل هذا العنف المليء بالغضب الشديد وتثير مثل هذه الضجة يوجد بها بكل تأكيد قوى ثورية غير عادية، ولسوف أبدو أمام الناس ابتكارية وجريئة وشجاعة، لقد أضيف إلىّ بعد **dimension** جديد وهو البطولة.

الريش يتطاير فى معركة أنثوية، هذا هو عنوان الموضوع الذى نشر بالجريدة، وتوجد صورة لى بالجريدة وقد وضعت يدى على فمى، بينما السيدة سميث تبدو عارية تمامًا وتقطر حبرًا فى خلفية الصورة، وهذه هى الكيفية التى أتعلم منها أن مشاجرة النساء تعتبر خبرًا مهمًا، إنها شىء أشبه ما تكون بمصارعة الدجاج.

وبعدئذ يجىء عدد هائل من الزوار إلى المعرض.

* * *

(٦٣)

إننى منتظرة فى غرفة الانتظار، توجد بغرفة الانتظار العديد من الكراسى الخشبية الشقراء الغريبة الشكل التى يصعب وصفها والتى لها مقعدات منجدة لها لون أخضر زيتونى علاوة على وجود ثلاث مناضد صغيرة، وهذا الأثاث هو تقليد للأثاث الاسكندنافى المبكر الذى يرجع إلى ١٥ عامًا مضت والذى يعتبر الآن بعيدًا تمامًا عن الطراز الحديث، على إحدى المناضد توجد بعض نسخ من مجلة ريدرز دايجست ومجلة ماكلين **Maclean**، وعلى منضدة أخرى توجد طفاية سجائر بيضاء اللون مزركشة ببراعم وردية، والسجادة لها لون أخضر/ برتقالى والحوائط لها لون أصفر فاتح، وتوجد صورة واحدة مطبوعة بطريقة الأوفست لطفلين خجولين ومتجهمين وفى زى فلاحى زائف أسترالى على نحو غامض ويستخدمان نبات عش الغراب كمظلة.

أقرأناكموه

وتنبعث من الغرفة رائحة سجائر غريبة ورائحة مطاط قديم ورائحة القماش المليء بالعرق، وفوق كل ذلك رائحة غسول مطهر للأرضية متسللة وقادمة من الأروقة والدهاليز الواقعة إلى ما وراء الغرفة، وتوجد نافذتان، الغرفة تسبب لى الانفعال والتوتر والعصبية مثل غرفة الانتظار الخاصة بطبيب الأسنان أو الغرفة التى تنتظر فيها قبل عقد مقابلة شخصية لك من أجل أن تحصل على وظيفة لا ترغب فيها أصلاً.

هذا صندوق خاص معتوه وكتوم، إنه استراحة تسمى : استراحة دورثى ليندويك **Dorothy Lyndwick Rest House**، إنه ذلك النوع من المكان الذى يستخدمه الناس الأغنياء لإيداع أولئك الأفراد من عائلاتهم الذين لا يعتبرون ملائمين للتعامل مع جماهير الناس فيها وذلك حتى يمكن الحيلولة دون إرسالهم إلى " مستشفى الملكة ٩٩٩ للمجانين.

إننى فى انتظار كورديليا، أو أظن أنها ستكون كورديليا؛ فصوتها عبر التليفون لم يكن شبيهًا بصوت كورديليا وإنما كان أكثر بطئًا ومحطمًا على نحو ما، وما قالته هو عبارة " لقد شاهدتك " كما لو كنا منخرطين فى التحدث معًا منذ خمس دقائق فقط، ولكننا قد افترقنا فى حقيقة الأمر منذ سبع سنوات أو ثمانى أو تسع سنوات، أى منذ الصيف الذى عملت فيه فى مهرجان ستراتفورد الشكسبيرى المسرحى أو منذ الصيف الخاص، بجوزيف، وأضافت: " فى الجريدة "، ثم توقفت فى صمت عن الكلام كما لو كان هذا بمثابة سؤال.

فقلت : " هذا صحيح " ، ثم أضفت : " ولماذا لا نتقابل معًا ؟ "، لأننى كنت أدرك أنه ينبغى على أن أقول لها ذلك.

فقالت كورديليا بالصوت البطىء نفسه: " إننى لا أستطيع الخروج من المكان الذى أوجد فيه "، وأضافت : " لسوف يكون عليك أن تحضرى إلى هنا "، وهذا هو السبب فى أننى موجودة هنا الآن.

تجيء كورديليا من خلال باب موجود عند الطرف البعيد بالغرفة مع السير فى حرص وحذر كما لو كانت عرجاء أو تحاول الحفاظ على توازنها لكى لا تسقط على الأرض، ولكنها ليست عرجاء، وخلفها توجد امرأة أخرى تضع على وجهها الابتسامة الزائفة المتفائلة الكاشفة عن الأسنان التى تتسم بها مرافقة أو خادمة مدفوعة الأجر.

لا أستطيع التعرف على كورديليا إلا بعد مرور لحظات طويلة لأنها مختلفة عن ذى قبل تمامًا، أو بالأحرى لأنها لا تشبه الشكل الذى كانت عليه عندما شاهدتها فى آخر مرة عندما كانت مرتدية تنورتها القطنية الفضفاضة وسوارها البربرى وكانت رشيقة وواثقة من نفسها، وقد ازداد وزنها؛ إذ أضيفت اللحوم إلى جسدها، ولكن هذه اللحوم الإضافية قد انزلقت لأسفل ونحو الجزء الأوسط من جسدها مثلما ينزلق الطين على جانبى التل، فالعظام الطويلة قد تصاعدت إلى سطح وجهها، أستطيع أن أتخيل الشكل الذى ستبدو عليه عندما تصبح طاعنة فى السن.

شخص ما قد صفف لها شعرها، وليست هى التى قامت بذلك، فهى لا يمكن أن تمشط شعرها فى تموجات صغيرة على هذا النحو.

كورديليا تقف فى تردد يخلو من الثقة بالنفس وتحدق بعينين شبه مغمضتين مع مد رأسها للأمام والترنح من جانب إلى آخر، مثلما يفعل الفيل أو حيوان ما بطىء واقع فى ارتباك وحيرة، وأقول وأنا أنهض: " كورديليا".

وتقول المرأة المرافقة لها وهى تبتسم فى قسوة : " ها هى صديقتك "، وتمسك كورديليا من ذراعها وتدفعها قليلاً لكى توجهها نحو الاتجاه الصحيح، وأقول لها وأنا أقع فى مصيدة مخاطبتها مثل طفلة: " ها أنت موجودة يا كورديليا "، وأتجه إلى الأمام نحوها وأقبلها فى ارتباك، وأكتشف لدهشتى أننى مسرورة لمشاهدتها.

أقرأناكموه

وتقول كورديليا بالصوت نفسه البطىء الذى سمعته عبر التليفون: " تقابلنا فى وقت متأخر أفضل من عدم تقابلنا على الإطلاق "، وتوجهها المرأة لكى تجلس على الكرسى الذى يقع فى مواجهة الكرسى الخاص بى وتدفعها إلى الجلوس بدفعة صغيرة كما لو أن كورديليا عجوزة أو عنيدة.

وعلى نحو فجائى أشعر بالغضب الشديد، فليس من حق أحد أن يعامل كورديليا بهذه الطريقة، أنظر شذرًا إلى المرأة التى تقول لى : " كم لطيف منك أن تجيئى ! فكورديليا تستمتع بزيارة صديقاتها لها، أليس كذلك يا كورديليا ؟ " .

وتقول كورديليا : " يمكن لك أن تصطحبنى إلى الخارج "، وتنظر لأعلى نحو المرأة لكى تحصل على موافقتها.

فتقول المرأة : " نعم، لا مانع من ذلك، من أجل أن تتناولا الشاى معًا أو أى شىء آخر، بشرط أن تقدمى لى وعدًا بإرجاعها مرة أخرى إلى هنا "، وتطلق ضحكة مليئة بالمرح والبهجة كما لو كان هذا بمثابة نكتة.

* * *

أصطحب كورديليا إلى الخارج، استراحة دورثى ليندويك موجودة فى منطقة هاى بارك، وهى منطقة لم يسبق لى المجىء إليها، وبالتالى لا أعرف شوارعها وأماكنها، ولكن يوجد مقهى على الناصية على مسافة مجموعة من الأبنية القليلة، وكورديليا تعرف هذا المقهى وتعرف كيف تشـــق طريقها إلى هناك، ولا أعرف ما إذا كان ينبغى على أن أمسك بذراعها أم لا؛ ولذلك لا أمسك بذراعها، أسير بجوارها مع الحذر عند تقاطعات الطرق ومع الإبطاء من خطوتى بحيث تتلاءم مع مشيها البطىء.

تقول كورديليا : " ليس معى أية نقود، إنهم لا يسمحون لى بأن يكون لدى أية نقود، بل هم الذين يشترون لى السجائر التى أريدها ".

فأقول : " ذلك على ما يرام " .

نجلس إلى مائدة تضم مقعدين ونطلب قهوة وطعامًا معدًّا بخبز محمص، وأنا التى أطلب هذه الطلبات، لأننى لا أرغب للجرسونة أن تحملق فيها، وتفتش كورديليا فى جيوبها ثم تستخرج سيجارة، وتشعلها وتهتز يدها فى ارتعاش أثناء الإشعال، وتقول وهى تبذل مجهودًا مع مقاطع الكلمات: " بحق السيد المسيح إنه من الممتع أن أخرج من هناك "، وتضحك فى ضعف وأشاركها الضحكات وأنا أشعر أن اللوم يقع على وأننى متهمة .

ينبغى أن أوجه إليها بعض الأسئلة : ما الذى كانت تفعله طوال هذه السنوات التى شهدت افتراقنا عن بعضنا البعض ؟ وماذا عن اشتراكها فى أعمال التمثيل ، وما الذى نجم عن ذلك ؟ وهل تزوجت وأنجبت أطفالاً ؟ وما الذى كان يحدث على وجه الدقة بحيث انتهى بها الأمر إلى المجىء إلى هذه الاستراحة ؟ ولكننى لا أسأل هذه الأسئلة لأنها من وجهة نظرى تعتبر خارج نطاق النقطة الرئيسية، فالشىء البالغ الأهمية هو كورديليا والحقيقة التى هى عليها الآن.. ووضعها الراهن.

فأقول : " ما العلاج الذى يقدمونه لك بحق الجحيم ؟ " .

فتقول : " إنهم يقدمون لى نوعًا من المهدئات، وأنا أكره هذه المهدئات، فهى تجعلنى أهذى وأقول كلامًا لا معنى له " .

أقول : " ولأى شىء كل هذا ؟ وكيف انتهى بك الأمر إلى هذا الوضع على كل حال ؟ فأنت لست أكثر خبلاً وجنونًا منى " .

فنظرت كورديليا إلى وهى تنفث دخان سيجارتها، وتقول بعد لحظات : " لم تكن الأمور تسير على ما يرام "، فأقول : " ثم ماذا حدث ؟ "، فتقول: " ولذلك لجأت إلى تناول الحبوب والأقراص "، أقول: " أوه، يا كورديليا، ولماذا تفعلين ذلك ؟ " فتقول : " لست أدرى، لقد انخرطت فى تناول الحبوب، وكنت أشعر بالتعب والملل" .

أقرأناكموه

لا جدوى من وراء القــول لها بأنه ما كان ينبغى عليها أن تفعل ذلك، أفعل ما يمكن لى أن أفعله وأنا فى مرحلة الدراسة الثانوية، أنشد معرفة التفاصيل، فأتساءل: " ولذلك تعطلت عجلة الحياة الخاصة بك مثلما يتعطل الموتور فجأة ؟ " .

فقالت: " نعم ".

وتصدر عنها أشبه ما يكون بضحكة خفيفة فيما عدا أن وجهها صارم للغاية، أشعر بالرغبة فى البكاء من أجلها، وفى الوقت نفسه أشعر أننى غاضبة منها وإن كنت لا أعرف السبب فى ذلك، الأمر يبدو وكأن كورديليا قد وضعت نفسها فى مكان بعيد لا أستطيع الوصول إليه بحيث لا يمكن لى الاتصال بها، وكأنها قد فقدت وضاعت منى.

وتقول : " يا إيلين، أخرجينى " .

فأقول : " ماذا تقولين ؟ "

" ساعدينى لكى أخرج من هناك، أنت لا تعرفين مدى البشاعة الموجودة هناك، فهناك لا توجد خصوصية " .

فأقول : " وكيف لى أن أساعدك ؟ "

فتقول " تعالى لزيارتى غدًا، ثم ننطلق معًا فى تاكسى "، فتشاهد التردد على وجهى، فتضيف: " أو يمكن لك فقط أن تعطينى نقودًا على سبيل القرض، وهذا هو كل ما تفعلينه، وأنا يمكن لى إخفاء الأقراص فى الصباح وأمتنع عن تناولها، وبعدئذ سأصبح على ما يرام، وأنا أدرك أن تلك الحبوب والأقراص هى التى تجعلنى أبدو دائمًا على هذا النحو، كل ما أحتاجه هو مبلغ ٢٥ دولارًا فقط " .

وأقول : " لا يوجد معى مبلغ كبير كهذا "، وهذا قول صادق من جانبى ولكنه متســم أيضًا بالتملص والمراوغــة، وأضــيف : " وهم أيضًا قد يكتشــفون أنك لا تتناولين الحبوب ثم يبلغون المسئولين عن الاستراحة" .

فتقول كورديليا فى مسحة من خداعاتها القديمة : " يمكن لى أن أخدعهم"، لأنها ممثلة أو كانت ممثلة، فهى يمكن لها أن تتظاهر بأى شىء، وتضيف كورديليا : "وعلى كل حال فأولئك الأطباء مغفلون وأغبياء، إنهم يسألون كل هذه الأسئلة ويصدقون أى شىء أقوله لهم ويقومون بتسجيل وكتابة كل الكلام الذى أقوله لهم ".

إذن يوجد أطباء، يوجد أكثر من طبيب واحد، وأقول : " يا كورديليا، كيف يمكن لى أن أتحمل المسئولية، بل ولم يسبق لى التحدث مع أى واحد من هؤلاء الأطباء ".

فتقول : " إنهم جميعًا أغبياء ومغفلون، فأنا على ما يرام ولا أعانى من مرض معين، وأنت قد قلت ذلك بنفسك"، توجد هنالك فى داخل كيانها طفلة مسعورة متوارية خلف وجهها المغلق المرتخى المتدلى، تتكون فى ذهنى فكرة عن قيامى باختطاف كورديليا بطريقة خفية وإنقاذها من المصيدة التى وقعت فيها، يمكن لى أن أفعل ذلك أو أى شىء من هذا القبيل، ولكن بعد النجاح فى اختطافها فإلى أين سأذهب بها ؟ أيمكن لها أن تختفى فى شقتنا وتنام على سرير متواضع مثل إنسانة لاجئة أو مرحلة، ثم يتساءل جون عن هوية هذه الإنسانة وعن السبب فى مجيئها إلى الشقة، كما أننى لست واثقة ولست متأكدة تمامًا من أننى أستطيع أن أعيل كورديليا وأنفق عليها.

كما ينبغى التفكير فى موقف سارة أيضًا، فهل سارة ستنسجم وتتوافق مع الخالة كورديليا ؟ وما درجة استعداد كورديليا للتعامل مع الأطفال الصغار ؟ أو ما درجة خطورة المرض العقلى الذى تعانى منه كورديليا ؟ وكم ينقضى من الوقت قبل أن أرجع إلى المنزل لأجد كورديليا ملقاة على أرضية الحمام أو فى حالة أسوأ من ذلك ؟ .

فأقول فى رفق : " لا أستطيع يا كورديليا "، ولكنى لا أشعر برقة القلب نحوها، فأنا أموج بالغضب منها على نحو لا يمكن لى تفسيره أو التعبير عنه، كيف

تكون لديك الجرأة لأن تطلبى ذلك ؟ أريد أن ألوى ذراعها وأمسح وجهها فى الثلوج.

تحضر الجرسونة فاتورة الحساب، وأقول لكورديليا فى شىء من المزاح الخفيف وكنوع من تغيير موضوع الحديث: " هل تشعرين بالشبع بما فيه الكفاية **sophonsified** ؟ " ولكن كورديليا لم تكن أبدًا غبية فى أى وقت من الأوقات.

فتقول : " إذن فأنت لا تريدين إنقاذى "، ثم تضيف فى يأس وبؤس: " أظن أنك كنت ومازلت تكرهيننى دائمًا ".

فأقول : " لا "، وأضيف : " ولماذا أكرهك ؟ إننى لا أكرهك "، وأشعر بالصدمة، لماذا تقول هى كلامًا كهذا ؟ فأنا لا أذكر أننى كنت أكرهها.

فتقول : " لسوف أتمكن من الخروج من ذلك المكان على كل حال "، صوتها الآن ثقيل أو متسم بالتردد والحيرة، إن لها تلك النظرة العنيدة المليئة بالتحدى وهى النظرة التى أتذكرها منذ سنوات عديدة مضت، أهكذا؟

وأرجع بها إلى الاستراحة وأودعها هناك، وأقول لها :" لسوف أجىء لزيارتك" وأنا أنوى أن أزورها بالفعل، ولكنى أدرك فى الوقت نفسه أن الفرص ضئيلة، وأقول لنفسى : إنها ستصبح على ما يرام، إنها كانت على هذا النحو فى نهاية المرحلة الثانوية، ثم تحسنت الأمور بعد ذلك، ويمكن للأمور أن تتحسن مرة أخرى.

أستقل مترو الانفاق فى طريق عودتى، وأقرأ الإعلانات : إعلانات عن البيرة وعن قضبان الشيكولاته، أفتعل الشعور بالارتياح وأشعر أننى متحررة فى انطلاق وأننى عديمة الوزن.

* * *

ولكننى لست متحررة من كورديليا،

أحلم أن كورديليا تسقط من فوق صخرة شاهقة أو كوبرى بينما خلفية من الشفق الأحمر تبـــدو خلفها، وقد نشـــرت ذراعيها وفتحت تنـــورتها مثل جرس مما جعلها تبدو مثل ملاك ثلجى فى الهواء الشاغر، وهى لا ترتطم أبدًا ولا ترسو أبدًا على الأرض، وإنما تســـقط باستمرار، ثم أستيقظ مع ضربات قلبى التى تدق فى عنف.

وأحلم أنها واقفة فى فناء مدرسة كوين مارى القديم، والمدرسة قد أزيلت واختفت من الوجود، ولا يوجد سوى حقل مع وجود تل خلف الحقل مليء بأشجار دائمة الخضرة، وهى ترتدى چاكيت الثلج الخاص بها، ولكنها ليست طفلة وإنما هى فى العمر نفسه الذى هى عليه الآن، وهى تدرك أننى قد هجرتها وتخليت عنها وهى غاضبة للغاية منى.

* * *

بعد شهر أو اثنين أو ثلاثة شهور أكتب رسالة لكورديليا على ورقة مزدانة بالكثير من الورود والأزهار، بحيث لا تترك مساحة كبيرة للكلمات، وأضع الرسالة فى مظروف، وأقول فى رسالتى بأننى بصدد القيام بزيارتها مرة أخرى، تعيد مصلحة البريد الخطاب إلى وقد كتب على المظروف عبارة: " عنوانها غير معروف " بخط مكتوب فى خربشة وتسرع، أتفحص الخط من جميع الزوايا محاولة أن أكتشف ما إذا كان ذلك الخط هو خط يد كورديليا، فإذا لم يكن هو خطها وإذا كانت قد غادرت هذه الاستراحة بالفعل فإلى أين ذهبت ؟ إنها يمكن لها أن تدق جرس بابى فى أى لحظة أو تتصل بى تليفونيًا، إنها يمكن أن تكون فى أى مكان قريب.

* * *

أحلم بمشاهدة تمثال مانيكان يشبه التماثيل الخاصة بجودى والتى عرضت فى المعرض، التمثال لا يرتدى أى شىء سوى زى من الشاش مغطى بالترتر اللامع، وينتهى التمثال عند الرقبة، وتحت ذراع التمثال توجد رأس كورديليا ملفوفة فى قماش أبيض.

* * *

الباب الثانى عشر

جناح واحد

One Wing

أقرأناكموه

(٦٤)

أجتاز الشارع وأصل إلى الناصية، الشارع التالى هو الشارع الذى يقيم فيه جوزيف، وأحصى المنازل وأعدّها، من المؤكد أن هذا هو منزله، الواجهة قد أصبحت زجاجية والمساحة الخضراء أصبحت رصيفًا للشارع .

أسائل نفسى فى تعجب: ترى ما الذى حدث لجوزيف فى نهاية الأمر، لو أنه ما زال على قيد الحياة سيكون عمره قد وصل إلى ٦٥ عامًا أو أكثر، فإذا كان رجلاً عجوزًا قذرًا خلال تلك السنوات الماضية، فإلى أى مدى وصلت قذارته الآن؟

لقد أخرج فيلمًا سينمائيًّا بالفعل، وأعتقد أنه هو الذى أخرج الفيلم، وعلى كل حال فإن اسم مخرج الفيلم هو الاسم الكامل نفسه لجوزيف، لقد شاهدت ذلك الفيلم بطريق الصدفة فى مهرجان سينمائى، وقد تم ذلك فى وقت لاحق عندما كنت أعيش فى فانكوفر.

يتناول الفيلم امرأتين لهما شخصيتان غامضتان ضبابيتان، ولهما شعر غامق وقاتم وغير لامع، وشرعتا فى التجول عبر الحقول بينما الرياح تطوح بفستانيهما الخفيفين وتلصقهما على فخديهما، وتحملقان فى غموض، ثم تقوم إحداهما بتفكيك أجزاء راديو وتسقطها فى جدول مائى، ثم تأكل فراشة وتقطع رقبة قطة لأنها كانت مخبلة ومشوشة الذهن، وهذه الأعمال لم تكن ستلقى الإعجاب من جانب المشاهدين إذا كانت هذه المرأة قبيحة الشكل بدلاً من كونها شقراء وبالغة الرقة، والمرأة الأخرى قامت بشق بشرة فخذها فى تشريطات عديدة صغيرة مستخدمة موس حلاقة من طراز قديم كان يخص جدها، وقبل النهاية بقليل قفزت من على جسر يعلو السكة الحديد إلى النهر بينما فستانها يرفرف مثل ستارة نافذة، وفيما عدا لونى شعرهما كان من الصعب التمييز بينهما.

أقرأناكموه

والرجل الموجود بالفيلم كان يحب المرأتين فى آن واحد، ولم يستطع اتخاذ قرار نهائى بشأن التفضيل بينهما والاكتفاء بحب امرأة واحدة منهما، ومن هنا جاء التخبل والتشويش الذهنى الذى أصابهما، وهذا هو الذى أقنعنى بأن جوزيف هو الذى أخرج ذلك الفيلم بكل تأكيد .

ولم تكن الدماء التى عرضت بالفيلم دماء حقيقية؛ فالنساء لم يشكلن شيئًا حقيقيًّا بالنسبة لجوزيف، وهو مع النساء لم يكن أكثر صدقًا مما كان معى، وهذا هو السبب فى أننى كان بمقدورى أن أتعامل مع معاناته بمثل هذا الاحتقار واللامبالاة ؛ فهو لم يكن صادقاً معى، والسبب فى أننى لم أشاهده أبداً فى أحلامى هو أنه كان ينتمى بالفعل لعالم الأحلام؛ فهو غير متواصل وغير مترابط ولا عقلانى واستحواذى، وأنا كنت غير منصفة ومخادعة له بالطبع، ولكن إلى أين كنت سأذهب فى حالة عدم اللجوء للخداع ؟ كنت سأذهب إلى العبودية وروتين الحياة اليومية، فالفتيات الصغيرات بحاجة للجوء للخداع الذى يعتبر أحد وسائل الدفاع القليلة الخاصة بهن، الفتاتان بالفيلم تسيران فى الظلام على طول حواف المنحدرات الصخرية الشاهقة وهما تترنمان فى همهمة لنفسيهما؛ حيث تظنان أنهما منيعتان ومحصنتان بحيث يتعذر إلحاق الضرر بهما.

* * *

لا أستطيع توجيه اللوم لجوزيف على هذا الفيلم، فهو كان مؤهلاً للترجمات والشعوذات والصور الذهنية الخاصة به مثلما كنت أنا كذلك، وربما أكون أنا قد حققت له أهدافه ولكنه حقق لى أهدافى أيضاً.

فعلى سبيل المثال توجد لوحة " رسم الحياة " المعلقة الآن على الحائط بالمعرض والتى يظهر فيها جوزيف فى حالة هلامية، إنه موجود فى الجانب

الأيسر من الصورة وهو عارٍ تمامًا ولكنه ملوى على جانب فى شبه ابتعاد عن المشاهد، حتى إنه لا يستطيع رؤية سوى بروفيل مؤخرته والجذع الخاص به، وعلى الجانب الأيمن من الصورة يوجد جون **Jon** فى الوضع نفسه، جسداهما يتخذان الأوصاف المثالية بعض الشيء، أقل شعرًا مما كانا عليه فى حقيقة الأمر والعضلات محددة فى مزيد من الوضوح والبشرة مشرقة.

وكل منهما يقوم برسم صورة، وكل صورة موجودة على حامل، والصورة التى يرسمها جوزيف لامرأة شهوانية، ولكنها غير ممتلئة أكثر من اللازم وجالسة على كرسى دون مسند مع وجود ملاءة بين ساقيها ونتوء ثدييها ووجهها راجع إلى فترة ما قبل الرفائيلية ومستغرق فى التفكير العميق ومليء بالغموض، أما الصورة التى يرسمها جون فهى بمثابة سلسلة من الدوامات القوية ذات اللون الأحمر الوردى واللون الأرجوانى الفاتح واللون الأرجوانى الغامق.

والموديل جالسة على كرسى بينهما وقد جعلت وجهها فى مواجهتهما ووضعت قدميها العاريتن على الأرض، إنها متدثرة بملاءة سرير بيضاء ملفوفة حولها تحت الثديين، ويداها مطويتان في إتقان فى حجرها، ورأسها كرة زجاجية تميل إلى اللون الأزرق.

أجلس مع جون إلى منضدة فى البار الموجود بسطح فندق بارك بلازا، ونحتسى الخمور البيضاء، وكان ذلك بناء على اقتراح منى؛ فأنا أريد مشاهدة هذا المكان مرة أخرى، لقد تغير خط السماء بالخارج ؛ إذ لم يعد فندق بارك بلازا هو أطول مبنى بالمنطقة، وإنما أصبح قزمًا بسبب ظهور الأبراج الزجاجية الشاهقة الارتفاع اللامعه المحدقة بالمكان، ففى الاتجاه الجنوبى مباشرة يوجد برج "سى إن" **CN** المتصاعد مثل كتلة جليدية ضخمة مدلاة فى الهواء، هذا هو نوع المعمار الذى اعتدت أن أراه فى كتب الخيال العلمى الفكاهية، وعندما أشاهده ملتصقًا على صفحة السماء أشعر أننى قد اتخذت خطوة ليس إلى الأمام زمنيًا وإنما على جانب نحو عالم له بعدان **dimensions** فقط.

أقرأناكموه

ولكن فى داخل البار لم يطرأ تغير كبير، فالمكان لا يزال يبدو مثل بيت للدعارة من النوع الملوكى الفاخر، وحتى النادلون الذين يقومون على خدمة الزبائن لهم الشكل القديم نفسه وربما هم الاشخاص السابقون نفسهم، وقد اعتادت الإدارة الاحتفاظ بأربطة عنق لديها فى غرفة المعاطف؛ وذلك من أجل أى جنتلمان يكون قد نسى ارتداء رباط العنق الخاص به، وكلمة نسى **forgotten** هى المستخدمة على وجه التحديد؛ حيث إنه من المؤكد أنه لا يوجد جنتلمان يتعمد الذهاب إلى مكان كهذا دون ارتداء رباط العنق.

لم أكن معتادة على المجىء إلى هذا البار مع جون، لأنه كان يسخر آنئذ من الكراسى المنجدة والستائر المعقودة بالأنشوطات، ومن الرجال والنساء الذين يشبهون الأشخاص الواردين فى إعلانات الويسكى اللامعة الجميلة المنظر، وإنما جوزيف هو الذى اعتدت على المجىء معه إلى هذا المكان، جوزيف الذى تلامست يدى مع يده عبر سطح المنضدة وليست يد جون كما أفعل الآن.

إنها فقط نهايات الأصابع وفى خفة شديدة، فى هذه المرة لا نقول كلامًا كثيرًا: توجد مفردات لغوية مشتركة بيننا تتكون من كلمات لها مقطع واحد كما يوجد الصمت، فنحن ننظر إلى المرآة الضبابية التى تشغل حائط الأسانسير كله وأشاهد وجهى فى المرآة، وأدرك أنه أصبح غامضًا ومشوشًا بفعل الزمن، نستقبل تاكسيًا عائدين إلى مستودع البضائع، بينما يدانا فى حالة استلقاء مع بعضها البعض على المقعد، نصعد على السلالم إلى الاستوديو فى بطء لكى لا نلهث وتتقطع أنفاسنا : فلا أحد منا يريد للآخر أن يراه وهو يلهث لهثات منتصف العمر المتقطعة، يد جون موضوعة على خصرى، إنها معتادة على الوجود هناك ، الأمر أشبه بمعرفة مكان مفتاح النور الكهربائى فى منزل سبق أن عشت فيه ذات يوم، ولكنك لم تعد إليه منذ سنوات، نصل إلى الباب، وقبل أن ندخل يربت على كتفى كحركة تشجيعية.

أقول: " لا تضىء الأنوار ".

ويلف جون ذراعيه حولى بينما وجهه فى زاوية رقبتى، إنها حركة تدل على التعب أكثر مما تدل على الرغبة.

الاستوديو له اللون الرمادى / الأرجوانى الشبيه بلون غسق الخريف، القوالب البلاستيك للأذرع والأرجل تلمع فى لون أبيض مثل تماثيل مكسورة فى مكان ألمَّ به الدمار، وهناك ملابس خاصة بى مبعثرة فى الركن، كما توجد فناجين شاغرة هنا وهناك وعلى كاونتر العمل وبجوار النافذة مما يوضح خط السير اليومى الخاص بى، الغرفة تبدو الآن مثل غرفتى، وكما لو كنت قد عشت هنا طوال حياتى بغض النظر عن الأماكن الأخرى التى ذهبت إليها، وبغض النظر عن الأعمال الأخرى التى كنت أقوم بها، إنه جون الذى كان موجودا فى مكان بعيد ثم عاد فى نهاية الأمر.

نقوم بخلع ملابس بعضنا البعض على النحو الذى اعتدنا عليه فى بادئ الأمر وإن كان فى مزيد من الخجل، أنا لا أريد أن أبدو مرتبكة، وأشعر بالارتياح لأن الجو تسوده ظلمة الغسق؛ فأنا أشعر بالقلق فيما يتعلق بالأجزاء الخلفية لردفى وبالتجاعيد الموجودة فى ركبتى والطية اللينة الموجودة عبر بطنى، الشعر على صدره أصبح مائلاً إلى اللون الأبيض، وهذه صدفة، أتجنب النظر إلى الكرش الصغير الذى تكون فى بطنه بسبب كثرة تناول البيرة، رغم أننى أدرك وجوده ووجود التغيرات كافة التى طرأت على جسده مثلما أنه يدرك بكل تأكيد ما طرأ على جسدى من تغيرات.

ننخرط فى قبلة ونتم فى وقار وثقل لم نشهده من قبل، فيما سبق كنا نتسم بالشوق الشديد والشراهة والأنانية.

نمارس الحب كنوع من العزاء والسلوان، إننى أتعرف عليه بسهولة، أستطيع التعرف علية تحت جنح الظلام الدامس فكل رجل له الإيقاع الخاص به الذى يظل على ما هو عليه دون تغير، وفى هذا يوجد الارتياح الخاص بالتحية.

أقرأناكموه

لا أشعر أننى بذلك أكون خائنة لبين **Ben**، وإنما أشعر أننى مخلصة لشىء ما آخر يسبق بين **Ben** زمنيًا وليس له أية علاقة ببين، إنه علاقة قديمة فى حياتى.

وأيضًا فأنا أدرك أن هذا شىء ما لن أفعله مرة أخرى فى حياتى على الإطلاق، فهذا بمثابة النظرة الأخيرة أو نظرة الوداع قبل الابتعاد عن مكان سبق أن زرته ذات مرة، مع الإدراك فى الوقت نفسه أنك لن تستطيع العودة إليه مرة أخرى، مشهد طبيعى لشلالات نياجرا فى الليل.

نستلقى معًا تحت الدوفتين المخملى الناعم وقد التفت أذرعنا حول بعضها البعض، من الصعب أن نتذكر الأشياء التى كنا نتشاجر بشأنها، لقد تلاشى الغضب السابق وتلاشى معه ذلك الشبق الحاد الملىء بالغيرة الذى اعتدنا أن نشعر به إزاء بعضنا البعض، وما تبقى هو الحنان والإعزاز والأسف والندم، التنزل أو التناقص فى ارتفاع الصوت **diminuendo** .

أقول: " هل ستحضر فى حفل افتتاح المعرض ؟ ".

وأضيف: " أود أن تحضر ".

فيقول: " لا، لا أرغب فى الحضور ".

– " ولم لا ؟ ".

فيقول: " لأننى عندئذ سأشعر أننى لست على ما يرام ".

ويضيف: " وأنا لا أريد أن أراك على ذلك النحو ".

أقول: " أى نحو ؟ ".

" مع أولئك كافة الناس الذين يسيل لعابهم عليك وبدون إعجابهم الشديد بك ".

ما يقصده هو أنه لا يرغب فى أن يكون مجرد مشاهد أو متفرج وأنه لا يوجد متسع له فى كل ذلك، وهو على حق فى رأيه، فهو لا يريد أن يكون مجرد زوجى

السابق، لأنه سيكون مطرودًا ومستبعدًا من جانبى ومن جـــانب نفسه، وأدرك أننى لا أرغب فى مجيئه أيضًا؛ فأنا فى حقيقة الأمر لا أريد له المجىء إلى المعرض.

أستدير، وأستند على مرفقى، وأقبله مرة أخرى على خده فى هذه المرة، الشعر الموجود خلف أذنيه آخذ فى التحول بالفعل إلى اللون الأبيض، أعتقد أننا قد مارسنا هذا اللقاء الجسدى فى الوقت الملائم قبل فوات الأوان؛ إذ كاد الوقت أن يصل إلى مرحلة : "سبق السيف العزل".

* * *

(٦٥)

الأمر مع جون أشبه ما يكون بالسقوط على السلالم، حتى الآن كانت توجد هناك حالات من التعثرات الأولية مع العودة إلى الوضع السوى ومحاولات التشبث بالإمساك بالأيدى، أما الآن فإن توازننا كله مفقود، فنغوص نحن الاثنين لأسفل فى اندفاع صامت خالٍ من الرشاقة مع حشد القوى الدافعة والكاشطة أثناء سقوطنا.

أذهب للنوم وأنا أموج بالغضب وأخشى من الاستيقاظ، وعندما أستفيظ بالفعل أستلقى بجوار الجسد النائم لجون فى سريرنا مصغية لإيقاع تنفسه مع الشعور بالاستياء منه بسبب استمراره فى معاملتى بإهمال.

* * *

لقد ظل على مدى أسابيع أكثر صمتًا من المعتاد وأقل وجودًا بالمنزل وخاصة عندما أكون أنا موجودة بالمنزل، أما فى الفترات التى أذهب فيها للعمل مبتعدة عن المنزل، فإنه يكون موجودا بالمنزل، بل ويحرص على الوجود بالمنزل فى الفترات

أقرأناكموه

التى تذهب فيها سارة إلى روضة الأطفال، لقد بدأت أعثر على دلائل وبراهين عبارة عن مفاتيح صغيرة متروكة فى طريقى مثل فتات خبز أسقط على ممر ، وسيجارة عليها أحمر شفاه وكأسين متسخين موجودين فى الحوض ودبوس شعر لا يخصنى موجود تحت وسادتى، فأقوم بتنظيف كل شىء ولا أقول أى كلام مع ادخار كل هذه الأشياء من أجل التحدث عنها فى الوقت الملائم.

* * *

أقول له: " فتاة تسمى مونيكا اتصلت بك تلفونيًا "، إنها فترة الصباح ومازال يوجد يوم كامل أمامنا، يوم من الخداع والمراوغة والغضب المكبوت والهدوء الزائف، مازلنا حتى الآن فى المرحلة السابقة على مرحلة الإلقاء والقذف بالأشياء.

إنه يقرأ الجريدة، يقول: " أوه ؟ ما الذى كانت تريده ؟ ".

أقول: " إنها قالت أن أبلغك أن مونيكا اتصلت تلفونيًا ".

* * *

يجىء متأخرًا فى الليل وأنا موجودة فى السرير متظاهرة بالنوم بينما رأسى يموج فى اهتياج عنيف، أفكر فى الحيل والذرائع، تفحص قمصانه بحثًا عن العطور، وتعقبه على طول الشارع، والتخفى والقفز نحوه فجأة وضبطه متلبسًا، وأفكر فى أشياء أخرى يمكن لى أن أفعلها، أفكر فى أن أغادر منزلى وأذهب إلى مكان ما غير محدد مع سارة، أو يمكن لى أن أطلب منه التناقش فى هذا الموضوع صراحة أو يمكن لى التظاهر بأنه لا يحدث أى شىء والاستمرار فى العيش معًا

كالمعتاد، وهذا يمكن أن يكون هو النصيحة التى تقدم فى المجلات النسائية منذ عشر سنوات : التحلى بالصبر والانتظار لحين معرفة ما تسفر عنه الأمور.

أشاهد الأمور كسيناريوهات يمكن أن تنفذ أو تطرح جانبًا فى آن واحد، ولا شىء منها يجعل الأشياء الأخرى مستحيلة.

وفى الحياة الواقعية تمر الأيام كالمعتاد قاتمة كالشتاء وثقيلة بالأشياء التى لا يتم التحدث بشأنها.

* * *

يقول جون بطريقة عرضية: " كان هناك شىء ما بينك وبين العم جو **Uncle Joe**، أليس كذلك ؟ ".

اليوم يوم السبت، ونحن نبذل محاولة تهدف إلى خلق جو عادى وطبيعى من خلال اصطحاب سارة إلى حديقة جرانج لكى تلعب فى الثلج.

أقول: " من ؟ ".

" أنت تعرفين، إنه الرجل الذى يسمى جوزيف، ذلك الرجل العجوز البغيض".

أقول : " أوه، أنت تقصد ذلك الرجل "، سارة موجودة عند المراجيح مع بعض الأطفال الصغار الآخرين، ونحن جالسان على مقعد خشبى طويل بعد أن أزحنا الثلج عنه، يخطر على ذهنى أنه ينبغى على أن أصنع إنسانا ثلجيًا أو عمل أى شىء آخر جيد من النوع الذى يفترض أن تفعله الأمهات، ولكننى أشعر بالإرهاق الشديد.

ويقول جون: " أنت أقمت علاقة معه، أليس كذلك "، ويضيف: " فى الوقت نفسه الذى أقمت فيه علاقة معى ".

أقرأناكموه

أقول: " من أين حصلت على تلك الفكرة "، إننى أعرف ما أفعله عندما يتم توجيه الاتهامات لى، أراجع الذخيرة الخاصة بى : دبابيس الشعر وأحمر الشفاه والمكالمات التليفونية وكؤوس الخمر الموجودة فى الحوض.

" إننى لست مغفلاً غبيًّا، وأنت تعرفين ذلك، لقد أدركت الأمور "، إنه لديه الغيرة الخاصة به ولديه الجراح الخاصة به التى ينبغى عليه أن يلعقها، أشياء أنزلها عليه كعقوبة، ينبغى على أن أكذب وأنكر كل شىء، ولكنى لا أرغب فى اللجوء للكذب؛ فجوزيف فى هذه اللحظة يقدم شيئًا من الاعتداد بالنفس.

أقول: " لقد حدث ذلك منذ سنوات طويلة مضت ".

وأضيف: "منذ آلاف السنين، ولم يكن لذلك الشىء أهمية ".

فيقول: " لا أهمية له مثل الغائط والبراز "، لقد اعتقدت ذات يوم أنه سيسخر منى ويهزأ بى إذا اكتشف حكاية جوزيف معى، والمفاجأة أنه يأخذ جوزيف مأخذ الجد والاهتمام.

* * *

فى تلك الليلة نمارس الحب وإن كان تعبير ممارسة الحب لا ينطبق هنا على وجه الدقة، فالحب فى هذه المرة غير متخذ شكل الحب وليس متسمًا بألوان الحب وإنما هو ممارسة خشنة قاسية وقتالية الألوان ومعدنية ورنانة.

وفى الصباح يقول: " ومن هم الآخرون الذين وصلوا إليك ؟ وكيف لى أن أعرف أنك لم تعقدى علاقة مع كل رجل عجوز فى هذا المكان ؟ ".

أتنهد وأقول: " يا جون، عليك بالالتزام بالعقل والحكمة "، فيواصل كلامه : "وماذا عن السيد بينى وينى **Beenie Weenie** ؟".

أقول: " أوه، أنت لم تكن ملاكًا، والمكان الخاص بك كان يزخر بكل تلك الفتيات الرشيقات ".

سارة ما زالت نائمة فى سريرها، نحن فى حالة من الأمن ويمكن لنا أن نواصل التحدث عن الحقائق الرديئة التى ليست صادقة تمامًا، وما إن يبدأ المرء فى الانفجار يصعب عليه أن يتوقف، بل ويوجد نوع من الاستمتاع فى تبادل هذه الاتهامات.

ويقول: " أنا على الأقل كنت صريحا بشأن هذه الأمور، فأنا لم أتسلل فى تخفٍ هنا وهناك، ولم أتظاهر بأننى نقى ومخلص على النحو الذى تتظاهرين به ".

أقول : " ربما أحببتك **May be I loved you** " ويتلاحظ لى أننى استخدمت الزمن الماضى، ويدرك هو ذلك أيضًا، ويقول: " أنت لن تعرفى الحب إذا وقعت فى الحب".

أقول : " لست مثل مونيكا ؟ أنت غير ملتزم بالصراحة والصدق الآن، ولقد عثرت على دبابيس الشعر تلك فى السرير الخاص بى، بل كان أمامك من باب الذوق واللياقة أن تفعل ذلك مع مونيكا فى مكان آخر ".

ويقول : " وماذا عنك ؟ أنت تخرجين من المنزل دائمًا وتذهبين إلى أماكن مختلفة ".

أقول: " أنا ؟ إننى ليس لدى الوقت الكافى الذى يعيننى على ذلك، ليس لدى الوقت لكى أفكر فى هذه الأمور، بل ليس لدى الوقت اللازم من أجل أن أرسم، بل لا أكاد أجد الوقت من أجل التبرز، وأنا مشغولة للغاية من أجل توفير الأموال اللازمة لتسديد إيجار المسكن ".

لقد قلت الكلام الخاطئ، لقد تماديت أكثر من اللازم، يستخرج جاكيتته، ويتجه نحو الباب.

أقول: " أذاهب أنت إلى مونيكا ؟ "، فى حقد وضغينة شديدين للغاية وأكره ذلك الشجار الشبيه بالشجار الذى يتم فى فناء مدرسة، أريد أحضانًا ودموعًا وغفرانًا، أريد لهذه الأمور أن تصل من تلقاء نفسها دون أى مجهود من جانبى مثل أقواس قزح.

ويقول: " تريشا **Trisha** "، ويضيف : " مونيكا مجرد صديقة ".

* * *

الوقت هو فصل الشتاء، الحرارة تتبدد وتجىء مرة أخرى، ثم تتبدد على نحو عشوائى، سارة مصابة بالبرد، إنها تكح فى الليل وأنا أستيقظ وأنهض من أجلها وأعطيها جرعات من شراب الكحة وأحضر لها أكوابًا من الماء، وفى فترة النهار نكون نحن الاثنين فى حالة من التعب والإرهاق.

أنا نفسى أتعرض للمرض كثيرًا فى الشتاء، آخذ عدوى منها وأصاب بالبرد والأنفلونزا وأنام فى السرير خلال الفترات الصباحية من إجازة نهاية الأسبوع وأنظر لأعلى نحو السقف بينما رأسى ثقيلة ومعوقة وشبيهة بالقطن، أريد أكوابًا من بيرة الزنجبيل وعصير البرتقال وسماع أصوات مترامية من الراديوهات من بعيد، ولكن هذه الأشياء قد ذهبت للأبد، ولا شىء يصل على صينية، فإذا كنت أريد بيرة الزنجبيل يكون على أن أذهب للدكان أو إلى المطبخ وأشتريها وأصبها لنفسى، بالغرفة الرئيسية تشاهد سارة أفلام الكرتون.

لم أعد أرسم على الإطلاق، ولا أستطيع التفكير فى الرسم، وعلى الرغم من حصولى على منحة صغيرة من برنامج حكومى للفنون، فإننى لا أستطيع تهيئة نفسى من أجل الإمساك بالريشة، أدفع نفسى عبر الزمن إلى العمل وإلى الذهاب للبنك لسحب نقود وإلى السوبر ماركت لشراء الأطعمة، أشاهد أوبرا الصابون

النهارية فى التليفزيون؛ حيث بها المزيد من الأزمات والملابس الجميلة على نحو يفوق ما هو موجود فى الحياة الواقعية، إننى أرعى سارة وأعتنى بها.

ولا أفعل أى شىء آخر، لم أعد أذهب إلى اجتماعات النساء لأننى أشعر بحالتى تزداد سوءًا كلما ذهبت إلى هذه الاجتماعات، جودى تتصل بى تلفونيًّا وتقول إنه ينبغى علينا أن نتقابل ولكننى أؤجل لقائى معها، إننى لا أريد مشاهدة أى شخص، أستلقى فى غرفة النوم مع إسدال الستائر بينما العدم يترقرق فوقى مثل موجة راكدة، أى شىء يحدث لى فهو ناجم عن الغلطة الخاصة بى، لقد فعلت شيئًا ما خاطئًا، وضخمًا للغاية حتى إننى لا أستطيع مشاهدته، شيئًا ما يغرقنى، إننى غير ملائمة وغبية وغير ذات قيمة، وربما أكون أيضًا ميتة.

* * *

ذات ليلة لا يرجع جون، هذا شىء غير عادى، هذا ليس اتفاقنا الصامت غير المعلن، حتى عندما يظل بالخارج إلى فترة متأخرة بالليل، فإنه يرجع دائمًا بحلول منتصف الليل، لم نتشاجر فى هذا اليوم بل لم نتكلم بأى كلام إلا فيما ندر، وهو لم يتصل تليفونيًّا لكى يبلغنى عن المكان الذى يوجد فيه، إن ما يهدف إليه هو شىء واضح، لقد هجرنى وتركنى وحيدة فى البرد. *مكتبة الرمحي أحمد*

أجثم قابعة فى غرفة النوم ومتدثرة فى داخل حقيبة النوم القديمة الخاصة بجون ومصغية لصوت تنفسات سارة الملىء بالصفير، ولهمس الأمطار الجليدية التى ترتطم بالنافذة، الحب يشوش الرؤية لديك، ولكن عندما ينحسر الحب فى تراجع يمكن لك أن تشاهد الأمور فى مزيد من الوضوح، الأمر أشبه بموجه تنحسر مخلفة الأشياء التى تلقى على الشاطئ؛ زجاجات مكسورة + قفازات قديمة + علب صفيح صدئة + أجساد سمكية مقضومة + عظام، هذا هو نوع الشىء الذى

أقرأناكموه

تراه إذا جلست فى الظلام بعينين مفتوحتين ودون أن تعرف المستقبل، الدمار الذى أحدثته وتسببت فيه.

جسدى هامد وخامل وخالٍ من الإرادة، أظن أنه ينبغى على أن أظل فى حالة من الحركة لكى أنشط الدورة الدموية لدى مثلما ينبغى عليك أن تفعل فى حالة هبوب عاصفة ثلجية من أجل أن تمنع نفسك من التجمد حتى الموت، أرغم نفسى على النهوض واقفة، لسوف أذهب إلى المطبخ وأقوم بإعداد الشاى.

فى خارج المنزل تنزلق سيارة عبر الثلج الطرى فى اندفاع مكتوم، الغرفة الرئيسية مظلمة باستثناء الضوء المتسرب إلى داخلها من أعمدة الإنارة بالشارع من خلال النافذة، الأشياء الموجودة على منضدة الشغل الخاصة بجون تلمع تحت هذا الضوء الخافت. نصل الأزميل ورأس المطرقة، بمقدورى الشعور بجذب الكرة الأرضية لى، والجذب الخاص بالمنحنى الداكن للجاذبية الأرضية، والشعور بالفراغات الواقعية ما بين الذرات والتى يمكن لك أن تسقط من خلالها بكل سهولة.

هذا عندما أسمع الصوت الذى لا يترامى من داخل رأسى على الإطلاق وإنما يترامى من داخل الغرفة فى وضوح شديد : افعلى ذلك، ، هيا، افعلى ذلك، وهذا الصوت لا يقدم اختبارًا، وإنما له قوة إصدار الأوامر، إنه الفارق ما بين القفز من خلال الإرادة الحرة وبين تعرض المرء للدفع.

سكين الإكزاكتو **Exacto** هى ما أستخدمه من أجل شق جرح، ولا يؤدى هذا إلى الإحساس بأى ألم، لأنه عقب ذلك مباشرة يوجد صوت هامس ويغلف الظلام المكان، وأصبح ملقاة على الأرض، ويعثر على جون وأنا على هذا النحو، الدماء تكون سوداء فى الظلام ولا تسترعى انتباه المشاهد؛ ولذلك فهو لا يرى أى شىء إلى أن يضىء الأنوار.

* * *

أقول للناس الموجودين فى مركز الطوارئ، إن هذا الذى حدث لى جاء نتيجة لحادثة، وأقول لهم إننى رسامة، وإننى كنت أقطع قطعة من القماش عندما انزلقت يدى، الجرح فى معصم يدى اليسرى؛ ولذلك فإن كلامى معقول وجدير بالتصديق، إننى خائفة، أريد إخفاء الحقيقة ؛ فأنا لا أرغب فى إيداعى فى الاستراحة رقم ٩٩٩ بشارع كوين ستريت الآن أو فى أى وقت مستقبلاً.

يسأل الطبيب: " أنت تعملين فى الرسم فى منتصـــف الليل ؟ " فأقول: " غالبًا ما أعمل ليلاً ".

ويؤيد جون أقوالى، إنه فى حالة من الخوف والرعب مثلى تمامًا، لقد ربط معصم يدى مستخدمًا فوطة الشاى وقاد بى السيارة إلى المستشفى، وارتشحت دمائى من الفوطة وسالت على المقعد الأمامى للسيارة.

تذكرت سارة فقلت: " سارة ".

فقال جون: " إنها بالدور الأرضى "، وهذا يعنى أنها مع صاحبة المنزل وهى أرملة إيطالية فى منتصف العمر.

تساءلت: " ما الذى قلته لها ؟ " .

فقال جون: " قلت لها إن الأمر يتعلق بالزائدة الدودية appendix الخاصة بك " فضحكت قليلاً.

فقال: " ماذا دهاك بحق الجحيم ؟ ".

فقلت: " لست أدرى "، وأضفت: " لسوف تضطر إلى تنظيف هذه السيارة "، شعرت أننى شاحبة ومستنزفة الدماء ومعتتى بى، وهادئة وخالية من الاضطرابات النفسية.

* * *

يقــول الطبيب الذى يعمــل فى مركز الطــوارئ: " أأنت متــأكدة من أنك لا ترغبين فى التحدث مع شخص ما ؟ ".

فأقول: " إننى على ما يرام الآن "، آخر شىء أريد أن أفعله هو التكلم، إننى أعرف ما يقصده بكلمة : شخص ما **some one**، إنه يقصد أن يرانى شخص ما فينكمش ذعرًا لدى رؤيتى ويقول لى إننى مخبلة ومشوشة الذهن، وأنا أعرف نوعية الناس الذين يسمعون أصواتًا، إنهم الناس الذين يحتسون كميات كبيرة من الخمور والذين يقومون بقلى وشواء مخهم من خلال كثرة تناول المخدرات والذين ينزلقون من فوق الحواجز، إننى أشعر بالثبات تمامًا، بل إننى لم أعد أشعر بالقلق على الإطلاق، لقد اتخذت قرارًا بالفعل بشأن ما سأفعله فيما بعد غدًا، سأرفع يدى فى عصابة مدلاة من العنق وأقول إن معصمى قد كسر؛ وذلك حتى لا أضطر لأن أقول له أو لجون أو لأى شخص آخر كلامًا عن ذلك الصوت الذى سمعته.

أدرك أن ذلك الصوت لم يكن موجودًا بالفعل هناك، ولكنى أعرف وأدرك أيضًا أننى سمعته، لم يكن صوتًا مخيفًا فى حد ذاته، بل لم يكن متسمًا بالتهديد وإنما كان مليئًا بالإثارة كما لو كان يقترح علىَّ اللجوء إلى الفرار أو الإقدام على مغادرة طائشة أو الدخول فى مزاح هزلى أو الارتماء فى نوع ما، كما لو كان يقترح شيئًا متسمًا بالإعزاز والسرية، إنه صوت طفلة تبلغ من العمر تسع سنوات.

* * *

(٦٦)

لقد ذابت الثلوج مخلفة وراءها بقعيبات تخريمية قذرة والرياح تهب حول الحبيبات الرملية الخشنة المخلَّفة عن الشتاء، ونباتات الزعفران تشق طريقها عبر طين المروج الخضراء المقفرة المنسحقة، لو ظللت باقية هنا سأموت.

أعتقد أن المدينة هى التى أحتاج لأن أغادرها بقدر ما يحتاج جون إلى مغادرتها، المدينة هى التى تقتلنى.

إنها سوف تقتلنى على نحو فجائى، سأكون فى حالة مشى فى أمان الله بالشارع دون أن أنخرط فى التفكير فى شىء ما محدد، ثم أنحرف مائلة على نحو فجائى على جانب وأسقط فى ابتعاد عن الحاجز الحجرى الخاص برصيف المشاة وعندئذ تسحقنى سيارة منطلقة بسرعة كبيرة، ولسوف أسقط فى تعثر أمام قطار، ولسوف أقع من فوق حافة كوبرى دون قصد، وكل ما سأسمعه سيكون ذلك الصوت الخفيف الجذاب التآمرى المرح الذى يستحثنى، وأنا أعرف أننى قادرة على تنفيذ مثل هذه الأمور.

الأسوأ من ذلك، على الرغم من أننى خائفة من هــذه الفكرة وشاعرة بالخجل منها، وعلى الرغم من أننى فى فترة النهار أجدها فكرة ميلودرامية ومضحكة ومثيرة للسخرية مما يجعلنى لا أؤمن بها، فإننى مع ذلك أرحب بها، وأتعلق بها وأبقيها فى داخل ذهنى، إنها تشبه الزجاجة السرية المخبأة بمعرفة المدمنين على تناول الكحوليات ؛ فأنا ربما لا تكون لدى الرغبة فى الاحتساء منها حاليًا ولكنى أشعر بالمزيد من الأمن والأمان لأننى أدرك أنها موجودة هنالك، إنها شىء احتياطى، إنها رذيلة، إنها مخرج، وهى سلاح.

* * *

أقرأناكموه

فى الليل أجلس إلى جوار سرير سارة وأرقب رفرفة جفنى عينيها أثناء انخراطها فى الأحلام وأصغى لأنفاسها، إنها سوف تترك بمفردها، أوليس بمفردها لأنها ستكون مع جون، فاقدة للأم، هذا أمر لا يمكن أن يصدقة العقل.

أضىء الأنوار فى غرفة المعيشة، أعرف أنه ينبغى علىَّ أن أبدأ فى تعبئة حاجياتى وحزم أمتعتى، ولكن لا أعرف ما ينبغى علىَّ أن آخذه معى من أشياء، يبدو الأمر صعبًا للغاية، أذهب للنوم فى السرير، جون موجود بالسرير بالفعل وقد أدار وجهه نحو الحائط، لقد اجتزنا مرحلة من الهدنة الزائفة وبدأنا نتجه إلى طريق مسدود. لم أوقظه.

وفى الصباح وبعد أن يغادر المنزل، أضع سارة فى عربة الأطفال الخاصة بها وأسحب بعض نقود المنحة من البنك، ثم لا أعرف إلى أين أذهب، كل ما يمكن لى أن أفكر فيه هو ترك المنزل، أشترى تذاكر سفر من أجل الذهاب إلى فانكوفر التى تتميز بأنها دافئة أو هكذا أعتقد، أحشو حاجياتنا فى حقائب الدفيل ذات النسيج الصوفى الثقيل والتى اشتريتها من محلات " مخلفات الجيش **Army Surplus** ".

أتمنى لو عاد جون إلى المنزل فجأه لكى يوقفنى ويمنعنى من مغادرة المنزل لأننى ما إن شرعت فى اتخاذ الترتيبات اللازمة، حتى شعرت أننى لا أستطيع أن أصدق أننى أهرب بالفعل، ولكنه لا يرجع إلى المنزل.

أترك رسالة، وأقوم بإعداد ساندويتشًا من زبدة الفول السودانى، وأقطع الساندويتش إلى نصفين وأعطى نصفه لسارة كما أعطيها كوب لبن، أستدعى تاكسيًا عن طريق التليفون، ونجلس إلى منضدة المطبخ وقد ارتدينا معطفينا، وننهمك فى تناول الساندوتش وشرب اللبن، وننتظر، وهنا يجىء جون، أستمر فى مضغ الطعام، يقول لى: " إلى أين أنت ذاهبة بحق الجحيم ؟ ".

أقول: " إلى فانكوفر ".

فيجلس إلى المنضدة ويحملق فى وجهى، ويبدو عليه وكأنه لم يستطع النوم على مدى أسابيع على الرغم من أنه قد نام نومًا عميقًا لفترة كافية، ويقول: " لا أستطيع أن أوقفك وأمنعك "، إنها عبارة صادقة وليست مجرد مناورة؛ إذ سيسمح لنا بالذهاب دون الدخول فى شجار، لأنه فى حالة من التعب والإرهاق الشديد.

أقول: " أعتقد أن التاكسى قد وصل بالفعل "، وأضيف: " لسوف أبعث إليك برسائل ".

إننى بارعة فى المغادرة، الخدعة هى أن تغلق نفسك تمامًا بحيث لا تسمع ولا ترى ولا تنظر خلفك.

* * *

لا نحجز فى عربة النوم بالقطار لأننى بحاجة لتوفير النقود، أظل مستيقظة طوال الليل بينما سارة موجودة فى حجرى، لقد انخرطت فى شىء من البكاء ولكنها صغيرة للغاية، بحيث لا تدرك ما أقدمت عليه ولا تعرف ما نفعله، المسافرون الآخرون يمددون أنفسهم فى الطرقات، والأمتعة والحقائب تنتشر وتمتد والدخان ينجرف إلى الهواء ذى الرائحة الكريهة وأغلفة الأطعمة ملقاة فى إعاقة داخل دورات المياه، تدور لعبة الكوتشينة فى الجزء الأمامى من العربة مع الانخراط فى احتساء البيرة.

القطار منطلق فى الاتجاه الشمالى الغربى مخترقًا مئات الأميال من الغابات الوعرة والنتوءات الصخرية الجرانيتية ومئات من البحيرات الصغيرة الزرقاء المجهولة الاسم، أحملق من خلال زجاج نافذة القطار المخطط فى تقليمات بفعل الأمطار والتراب فأشاهد المناظر الطبيعة الخاصة بطفولتى المبكرة التى تبدو لى

أقرأناكموه

الآن ضبابية وملطخة وعديمة الرائحة وواقعة بعيدًا عن متناول اليد ومتحركة إلى الوراء.

وعلى فترات طويلة يعبر القطار على طريق ممهد بالحصى أو مرصوف مع وجود خط أبيض فى المنتصف، هذا يشبه الخواء والصمت ولكنه بالنسبة لى ليس شاغرًا وليس صامتًا، فهو بدلاً من ذلك ملىء بالأصداء.

أقول لنفسى فى تفكير: الوطن **Home**، ولكنه لا يشكل مكانًا يمكن لى الرجوع إليه.

* * *

هذا أسوأ مما ظننت أنه سيكون عليه وهو أيضًا أفضل، فى بعض الأيام أعتقد أننى مخبولة ومجنونة لأننى قد اتخذت هذا الإجراء، ولكننى أعتقد فى أوقات أخرى أن هذا هو أكثر القرارات التى اتخذتها فى حياتى اتسامًا بالعقل والحكمة فى خلال سنوات.

الأسعار أرخص فى فانكوفر، بعد قضاء فترة قصيرة فى أحد الفنادق التى تحمل اسم : هوليداى إن **Holday In** أعثر على منزل يمكن لى استئجاره على الربوة الموجودة خلف بلاج كتسيلانو وهو أحد تلك المنازل الصغيرة التى تبدو من الداخل أكبر مما هى عليه، وهو منزل يطل على الخليج وعلى الجبال المحدقة به، وهو ملىء بضوء لا نهائى فى الصيف، كما أعثر على مدرسة ملائمة لسارة، وأعيش لبعض الوقت على نقود المنحة وأقوم بأعمال حرة **free lance** لبعض الوقت، ثم أحصل على وظيفة لنصف الوقت **part-time** عبارة عن إعطاء سطح جديد للأثاث من أجل تاجر يعمل فى مجال الأثاث القديم، وأحب هذه الوظيفة لأنها لا تحتاج مهارة وذكاء، علاوة على أن الأثاث لا يتكلم، فأنا متعطشة للصمت.

* * *

أنام على الأرضية، وأبكى فى الليــل، إننى خائفة من احتمال سماع أصوات أو صوت، فأنا قد وصلت إلى الحافة الخاصة بالمنحدر الصخرى الشاهق، ويمكن أن أدفع من فوق الحافة نحو الهاوية.

أعتقد أنه ربما ينبغى علىَّ الذهاب إلى عرَّاف **shrink** ، لأن ذلك هو الشىء المقبول بالنسبة للناس الذين ليسوا فى حالة توازن وأنا لست فاقدة التوازن، وأخيرًا أذهب إلى العراف بالفعل، وهو رجل لطيف، إنه يريد لى أن أتحدث عن كل شىء قد حدث لى قبل أن يصل عمرى إلى سن السادسة، ولا يريد أن يعرف أى شىء حدث بعد هذه السن، ويقول إن الإنسان إذا وصل إلى سن السادسة يتم صبه فى قالب من البرونز، وما يجىء بعد ذلك ليس له أية أهمية.

لدىَّ ذاكرة جيدة، فأحدثه عن فترة الحرب، ثم أحكى له عن سكّين الإكزاكتو ومعصمى، ولكنى لا أتكلم عن موضوع الصوت الخافت الذى أسمعه، فأنا لا أريد له أن يعتقد أننى مخبولة ومجنونة، أريد له أن يأخذ فكرة حسنة عنى.

ويسألنى عما إذا كنت أصل إلى الغبطة الجنسية العظمى **orgasm**، فأقول له إن تلك الغبطة ليست هى المشكلة.

فيعتقد أننى أخفى الأمور عنه ولا أتحدث معه صراحة، وبعد فترة قصيرة أتوقف عن الذهاب إليه.

* * *

أرجع تدريجيًّا إلى يدى، أعتاد على الاستيقاظ من النوم مبكرًا فى الصباح وقبل أن تنهض سارة لكى أرسم، وأكتشف أننى قد أصبحت مشهورة بعض الشىء عقب اشتراكى فى المعرض فى تورونتو، وبذلك يتم توجيه الدعوات لى للحضور فى الحفلات، وفى بادئ الأمر يكون هنــاك شىء من الامتعــاض لأننى أنتمى

أقرأناكموه

لمـــا هو معروف باسم : الشرق الخلفى **back east**، ولكن الأمور تسير على ما يرام بعد ذلك.

كما توجه لى الدعوة أيضًا للاشتراك فى العديد من العروض الجماعية التى تتم معظمها بمعرفة النساء، وكانوا قد سمعوا عن إلقاء الحبر على لوحتى وقرأوا المقالات التى تقف فى صفى وتؤيدنى، وتوجد هنا نساء فنانات من أنواع عديدة فى حالة من الثورة والاهتياج، إنهن يغلين بالطاقة المضغوطة للقوى الانفجارية المحصورة فى مكان صغير ويغلين بحماسة الحركات الدينية كافة فى مراحلها الأولى النقية؛ إذ لا يكفى تقديم التملق والولاء الكلامى الكاذب ولا يكفى الإيمان بالمساواة فى الأجـــور؛ إذ ينبغى أن يكون هنـــاك تحول صـــادق نابع من القلب، أو هكذا يقلن.

الاعتراف شائع وهو ليس اعترافًا بأخطائك وعيوبك، وإنما هو اعتراف بمعاناتك على أيدى الرجال، الألم شىء مهم ولكنه أنواع معينة فقط من الألم ، إنه الألم الذى تكابده النساء وليس الألم الذى يكابده الرجال، التحدث عن آلامك يسمى مشاطرة **sharing**، أنا لا أريد أن أشاطر بهذه الطريقة، كما أننى أيضًا غير متسمة بالكفاءة من حيث عدد الندبات الغائرة الموجودة فى جسدى، فأنا قد عشت حياة متسمة بالامتيازات؛ إذ لم يسبق لى أن ضربت أو اغتصبت أو تعرضت للجوع على الإطلاق فى حياتى، وهناك مسألة النقود بالطبع ولكن جون كان فى فقرى نفسه.

يوجد جون، ولكننى لا أشعر أنه يتفوق على ويهزمنى، فهو إذا أخطأ معى أرد له الصاع صاعين، إنه يتلوى الآن لأنه يفتقد سارة، إنه يتصل بى تليفونيًّا عن طريق المخابرات التليفونية بعيدة المدى ويجىء صوته خافتًا ومتموجًا ومليئًا بالحشرجة مثل صوت المذياع فى وقت الحرب، ويجىء صوته حزينًا وكئيبًا مع انهزامه أمامى.

وتقول النساء : " لا ترحميه "، إننى لست رحيمة ولست رؤوفة، ولكننى أشعر بالأسف وأرثى لحاله.

* * *

عدد من هؤلاء النساء سحاقيات **lesbians**، ووفقًا لرأى بعض النساء، فإن السحاق هى العلاقة المتساوية الممكنة الوحيدة بالنسبة للنساء، وبخلاف ذلك فأنت لا تكونين حقيقية وأصيلة وصادقة.

أشعر بالخجل من الإحجام الخاص بى وعدم رغبتى فى ممارسة السحاق، ولكننى فى حقيقة الأمر أشعر بالرعب والذعر من فكرة اضطجاعى فى السرير مع امرأة، النساء يقمن باجترار الأحزان والتشبث بالضغائن ويطلقن أحكامًا شرعية قاسية، وذلك بعكس التخمينات العمياء المتبلدة التى يطلقها الرجال والتى تكون متسمة بطابع الرومانسية والجهل والانحياز والمحاباة والأمنية والرغبة، والنساء يعرفن الكثير للغاية ولا يمكن ممارسة الخداع عليهن أو الوثوق فيهن، أستطيع أن أعرف السبب الذى يجعل الرجال يخافون منهن؛ حيث إن كثيرًا ما يتهم الرجال بالخوف من النساء.

فى أثناء الحفلات تبدأ النساء فى توجيه أسئلة إيحائية أو مصوغة بألفاظ توحى بالجواب ولها طابع محكمة التفتيش الكاثوليكية، وهن مهتمات بالأوضاع الخاصة بى وبالعقائد الخاصة بى، وأنا شاعرة بالذنب نظرًا لأننى لدى القليل للغاية من الأفكار والعقائد والآراء، إننى أعرف أننى أرثوذكسية وأننى مشتهية للمغاير **hetero sexual** أى مشتهية للرجال وأننى أم وأننى خائنة لوطنى، وقلبى هو شىء مشكوك فيه فى أحسن الأحوال وملطخ وخائن وغدار، مازلت أنتف شعر ساقى.

أتجنب اجتماعات هؤلاء النساء وأمشى على هذا المنوال وأنا خائفة من احتمال قيامهن بجذبى إلى تيارهن وإلا يقمن بحرقى بالشد إلى خازوق، وأعتقد أنهن يتكلمن عنى من وراء ظهرى، وهن يجعلننى متوترة للغاية وعلى نحو لم

أقرأناكموه

أشهده من قبل لأنهن يرغبن فى إدخالى فى طريقهن وأنا لا أرغب فى ذلك، إنهن يرغبن فى تطهيرى وإدخال التحسينات على، فى بعض الأحيان أشعر بالتحدى والجرأة : كيف يكون لهن الحق فى أن يقلن لى الأمور التى ينبغى أن أفكر فيها؟ إننى لست نسائية التفكير **I am not Woman**، وأنا ملعونة وهالكة إذا تم دفعى إلى تيارهن، أقول فى تفكير لنفسى : يا مومسات، لا تصدرن الأوامر والتعليمات لى، ولكنى فى الوقت نفسه أجدهن على إيمانهن الراسخ بقضيتهن وعلى تفاؤلهن وعلى عدم المبالاة الخاصة بهن وعلى عدم خوفهن من الرجال وعلى الصداقة الحميمة المنتشرة بينهن، إننى أشبه شخصًا ما يقرب من الخطوط الجانبية ويلوح بمنديل وضيع بينما ينطلق الجنود فى حماس صبيانى إلى الحرب وهم ينشدون أناشيد الشجاعة والتحدى.

* * *

لدى العديد من النساء الصديقات، وهن لسن صديقات حميمات للغاية، إنهن أمهات يعشن على انفراد دون أزواج مثلى، أتقابل معهن فى روضة الأطفال، نبعث بأطفالنا إلى بيوت بعضنا البعض فى حالة الذهاب للسهرة بالخارج، ونحن ندمدم فى غير ضرر مع بعضنا البعض، ونتجنب الجروح العميقة الخاصة بنا، نحن نشبه بابز **Babs** ومارجورى اللتين كانتا معى فى فصل " رسم الحياة " القديم مع وجود روح الفكاهة نفسها ذات المسحة الحزينة، إنه نموذج للنساء الكبيرات فى السن بعض الشىء، ولكننا بحلول هذا الوقت أصبحنا كبيرات إلى حد ما فى السن أيضًا.

يجىء جون لزيارتى كحركة منه نحـو التصـالح الذى أريده أنا أيضًا على ما أعتقد، ولكننا لا ننجح فى إعادة الصلح بيننا، ثم نحصل على الطلاق فى نهاية الأمر.

يجىء والداى لزيارتى أيضًا، إنهما يفتقدان سارة على ما أعتقد أكثر مما هما يفتقدانى، ولقد اعتذرت عن السفر شرقًا من أجل الكريسماس، إنهما يبعثان

بالرسائل إلى، وهما يشعران بالحزن من أجلى ومن أجل منزلى المحطم ولا يعرفان ما يقولانه فى هذا الصدد، وعندما يجىء والداى لزيارتى مرة أخرى أصطحبهما إلى حديقة ستانلى؛ حيث توجد الأشجار الضخمة الهائلة، وأريهما المحيط الذى يحرك فى عنف الأعشاب والطحالب البحرية هنا وهناك، وأريهما إحدى البزاقات العريانة **slug** الضخمة العملاقة.

* * *

أخى ستيفن يبعث لى ببطاقات بريدية، ويرسل ديناصوراً محشوًّا من أجل سارة، كما يرسل مسدسًا مائيًّا، ويرسل كتابًا إحصائيًّا عن نملة ونحلة، كما يرسل هيكلاً للمنظومة الشمسية على هيئة شكل متحرك من البلاستيك ونجوم يمكن لك أن تلصقها على السقف الذى يضىء ليلاً.

* * *

أنجح فى بيع المزيد من لوحاتى وبسعر أعلى، وتعرض لوحاتى فى معرضين الآن : أحدهما بالشرق والآخر بالغرب، وأسافر فى رحلة قصيرة إلى نيويورك تاركة سارة مع إحدى صديقاتى الأمهات من أجل مشاهدة أحد المعارض التى شيدتها الحكومة الكندية هناك والتى يحضرها العديد من الناس الذين يعملون مع البعثة التجارية، أرتدى ملابس سوداء وأسير فى شوارع نيويورك وأنا أشعر أننى إنسانة وقورة وعاقلة بالمقارنة مع الناس الآخرين الموجودين هناك والذين يدون جميعًا وكأنهم يكلمون أنفسهم، ثم أعود تاركة نيويورك.

* * *

بعد مرور المزيد من الوقت أتقابل مع بين **Ben** الذى يلتقطنى بطريقة عادية للغاية فى السوبر ماركت؛ إذ يسألنى عما إذا كان يمكن له أن يحمل بالنيابة عنى

أقرأناكموه

حقائب التسويق الخاصة بى والتى تبدو ثقيلة للغاية فأدعه يفعل ذلك وأنا أنظر فيما حولى أولاً لكى أتأكد من أن إحدى النساء اللاتى أعرفهن لا تراقبنى.

وبعد ذلك يجىء إلى لكى يصلح القرائدة الخلفية الخاصة بى باستخدام منشاره ومطرقته مثلما يحدث فى المجلات النسائية منذ سنوات طويلة مضت، ثم يتناول البيرة معى بعد ذلك فوق مساحة المروج الخضراء مثلما يحدث فى الإعلانات عن البيرة، ويقص على نكاتًا فكاهية لم أسمع مثلها منذ أن كنت بالمدرسة الثانوية، ويدخل السرور على.

ويصطحبنى معه إلى المكسيك مثلما يحدث فى الروايات الرومانسية، وكان قد اشترى توًّا شركة سياحية صغيرة كنوع من الهواية قبل كل شىء ، فهو قد سبق له أن استثمر أمواله فى العقارات والأملاك الثابتة، ولكنه يرغب فى التقاط الصور الفوتوغرافية والجلوس تحت أشعة الشمس، بحيث يفعل ما يحلو له ويكسب نقودا فى الوقت نفسه ويستمر على ذلك النحو طوال الفترات المتبقية من حياته، إنه خجول فى السرير وسرعان ما يصل إلى ذروة المتعة، ونعيش معًا فى منزل أكبر حجمًا، ثم نتزوج بعد فترة قصيرة، ولا يوجد شىء درامى يتعلق بهذا الزواج، ويبدو له هذا الزواج أمراً ملائمًا ويبدو هذا الزواج لى متسمًا بغرابة الأطوار.

إنه أكبر منى بعشر سنوات، وهو مطلق وله ابن، وتصبح ابنتى سارة هى الابنة التى يريدها وسرعان ما ننجب المولودة آن **Anne**، وآن أقل من سارة من حيث الاستغراق فى التفكير الحزين وأكثر عنادًا من سارة، فسارة تعرف الآن بالفعل أنها لا يمكن لها أن تحصل على كل ما تريد.

بين **Ben** يعتقد أننى إنسانة ممتازة وأنا لا أريد أن أتسبب فى زعزعة إيمانه هذا، وهو ينظر إلى أيضًا على أننى إنسانه ضعيفة وهشة لأننى فنانة، ويعتقد أننى بحاجة لأن يتم تقديم الرعاية لى مثل نبات صغير موجود فى إناء من الفخار، وأننى سأكون على ما يرام من خلال أعمال التشذيب والرى بالماء واقتلاع

الأعشاب الضارة، ويقوم بتأليف مجموعة من الكتب عن لوحاتى بهدف تنشيط مبيعاتها.

وهو ينظر إلى لوحاتى فى إعجاب ودهشة وفى فهم أيضًا وعلى النحو الذى ينظر به طفل صغير نحو شمعة، وهو يتعجب كثيرًا من الكيفية التى أرسم بها الأيدى، ويعرف أن رسم الأيدى صعب للغاية، ويقول لى إنه أراد ذات يوم أن يصبح رسامًا، ولكنه لم يدخل فى هذه التجربة الصعبة لأنه كان عليه أن يكسب رزقه فى الحياة.

إنه يذهب فى أسفار تتعلق بعمله فى فترات ملائمة مما يتيح لى الفرصة لأن أفتقده.

* * *

أجلس أمام المستوقد بينما ذراعه الملتفة حولى ناشفة مثل ظهر الكرسى، أمشى على طول حواجز ومصدات الأمواج تحت رذاذ أمطار فانكوفر المريحة المهدئة للنفس، وأمامى يوجد الباسفيك الذى يبعث بغروب شمس وراء غروب شمس مجاناً، وخلف ظهرى توجد الجبال التى لا يتخيلها العقل، ووراء الجبال توجد حواجز من الأراضى الهائلة.

تورونتو واقعة إلى ما وراء تلك الأراضى على مسافة بعيدة للغاية ومشتعلة فى تفكير مثل عاموراه **Gomorrah**، ولا أجرؤ على النظر إليها؟

الفصل الثالث عشر

ثوانى البيكو

Picoseconds

أقرأناكموه

(٦٧)

أستيقظ من النوم فى وقت متأخر، أتناول برتقالة وبعض الخبز المحمص وبيضة وأحتسى كوبًا من الشاى، وأرتدى الأفرول وأمارس بعض التمرينات الرياضية على الأرض فى شقة جون، إنها شقة جون مرة أخرى وليست شقتى أنا، أشعر أننى قد أعدت له شقته مع ما بها من شظايا الحياة الخاصة به أو الخاصة بحياتنا معًا والتى ظللت أحتفظ بها حتى الآن.

أنزل لكى أحصل على جريدة الصباح، وأتصفح الجريدة دون أن أقرأ كثيرًا، أدرك أننى أقتل الوقت، لقد نسيت تقريبًا الأشياء التى يفترض لى أن أعملها هنا، وأنا غير متلهفة على العودة إلى الساحل الغربى والعودة إلى الحزام الزمنى **time zone** الذى أعيش حياتى فى داخله الآن، ولكننى لا أفعل ذلك حتى الآن، إننى معلقة وفى حالة من التعطيل المؤقت مثلما يحدث فى المطارات أو فى غرف الانتظار لعيادات أطباء الأسنان، بل فى حالة توقع لفترة فاصلة أخرى ستكون دون جوهر ودون صفات مميزة وغير مثيرة للرغبة مثل الدواء القاتل للآلام **painkiller** أو مثل الجلوس فى الطائرات لفترة زمنية قبل إقلاعها، على هذا النحو أفكر فى الليلة القادمة التى هى ليلة افتتاح المعرض، شىء ما يتم اجتيازه وإنجازه دون وقوع كارثة.

* * *

ينبغى على الذهاب إلى صالة العرض لكى أتأكد من أن كل شىء فى حالة من الترتيب والنظام؛ إذ ينبغى على أن أقوم على الأقل بهذا الحد الأدنى من المجاملة، ولكنى بدلاً من ذلك أستقبل مترو الإنفاق، وأنزل بالقرب من البوابة الرئيسية

أقرأناكموه

للجبانة وأتجول جنوبًا وشرقًا وأمشى فى تثاقل على الأوراق الساقطة وأتفحص فى دقة المزاريب والبالوعات والقنوات الضيقة مع النظر لأسفل نحو رصيف المشاة بحثًا عن ورق فضى وقطع من النقود المعدنية وأشياء أخرى تطرحها الرياح وتعتبر كسبًا كبيرًا غير متوقع، مازلت أعتقد أن مثل هذه الأشياء توجد وأنه يمكن لى العثور عليها.

مع دفعة خفيفة ومع انزلاق على حافة ما غير ظاهرة فى وضوح يمكن لى أن أتحول إلى سيدة بشعة قذرة، إنها الغريزة نفسها، البحث والتفتيش فى دقة فى أكوام الخردة والقمامة والنبش بالأظافر بين الأشياء المطروحة المستغنى عنها، والبحث عن شىء قد تم الإلقاء به بعيدًا، لأنه عديم الفائدة ولكن مازال بالإمكان التقاطه وإصلاحه وإعادة تشغيله، مجموعة الشظايا والقطع الصغيرة للمكان فى صندوقها بينما الزمن فى صندوقى.

* * *

هذا هو الطريق القديم الخاص بى الممتد من المنزل للمدرسة، اعتدت أن أسير على رصيف المشاه هذا خلف البنات الأخريات أو أمامهم، وما بين أعمدة الإنارة هذه كان ظلى الساقط على صفحة الثلج البيضاء الشتوية يمتد أمامى متضاعفًا، ثم منكمشًا ثم متلاشيًا بينما المصابيح تلقى بهالاتها حول الأعمدة مثل قمر فى سديم ضبابى، ها هى مساحة المروج الخضراء التى سقطت عليها كورديليا على ظهرها متخذة شكل ملاك ثلجى، وها هو المكان الذى انطلقت تجرى عليه.

المنازل هى المنازل نفسها وإن كانت لم تعد مزدانة ومزركشة فى ألوان مقشورة ولم تعد رثة ومهلهلة ولم تعد منازل ما بعد الحرب، أجهزة استخدام السفع الرملى كانت موجودة هنا، أستطيع أن أرى فى داخل ذهنى الشكل الذى كانت عليه

هذه المنازل من الداخل، وأن أشاهد الألوان التى كانت تغطى الحوائط، عادة اللون الوردى / الترابى + اللون الأخضر الطينى + لون نبات عش الغراب، وأن أرى الستائر المصنوعة من القماش القطنى المطبع والتى لم تعد موجودة هناك، إلى أى زمن تنتمى هذه الأشياء فى حقيقة الأمر ؟ هل تنتمى إلى الزمن الخاص بهم أو إلى الزمن الخاص بى ؟

* * *

أسير على طول الشارع فى صعود خفيف نحو التل فى مواجهة أعداد مبعثرة من الأطفال الذاهبين للمنزل من أجل تناول وجبة الغداء، وعلى الرغم من أن البنات يرتدين الجينز بما يدل على الاستمتاع بالحرية، فإنهن لسن فى حالة من الصخب على النحو الذى اعتدن أن يكن عليه، فهن غير متحركات فى الترنم بالأغنيات أو الصياح فى استهجان؛ إذ يمشين فى إرهاق وتثاقل أو هكذا يبدو الأمر لى، ربما السبب فى ذلك أننى لم أعد فى مثل طولهن؛ فأنا الآن أطول منهن وبالتالى فإن أصواتهن تصل إلى فى الأعالى بعد أن تكون قد ترشحت وتصفت وتغربلت، أو ربما الأمر يرجع إلىَّ وإلى وجود شخص ما بينهن يعتبرنه كبيرًا ومتمتعًا بالسلطان والنفوذ.

عدد قليل منهن يحملق فى والكثيرات لا يحملق، وما الذى يمكن لهن رؤيته ؟ امرأة فى منتصف العمر قد وضعت يديها فى جيبى معطفها بينما ساقا بنطلونها تتقافزان على حذائها ذى الرقبة ولا يوجد شىء غريب يختلف عما تكون عليه معظم النساء.

* * *

أقرأناكموه

أخى ستيفن مات منذ خمس سنوات، لا ينبغى أن أقول عنه إنه قد مات : فهو قتل، أحاول ألا أفكر فى الأمر على أنه اغتيال على الرغم من أنه كان اغتيالاً ولكن كحادثة من نوع ما مثل انفجار قطار، أو مثل كارثة طبيعية كانهيار صخرى أو هبوط فجائى فى القشرة الأرضية، ما يسمونه قضاءً وقدرًا أو فعلاً من أفعال الله من أجل أغراض التأمين المتعلقة بشركات التأمين المختلفة.

لقد مات بسبب الانتقام العادل أو بسبب مبدأ العين بالعين أو هذه هى فكرة شخص ما عما حدث، إنه قد مات بسبب توفير العدالة أكثر من اللازم.

* * *

كان جالسًا فى طائرة، وكان يجلس فى مقعد بجوار النافذة، وهذا معروف كثيرًا.

فى الجيب النيلون الشبكى الموجود أمامه كانت توجد مجلة خاصة برحلة الطيران، وكان بها مقالة عن الإبل والجمال فقام بقراءتها، وبها مقالة أخرى عن رفع درجة ملابس العمل الخاصة به فلم يقرأها، كما كانت توجد مجموعة من سماعات الأذن وحقيبة للتقيؤ.

وتحت المقعد الموجود أمامه وإلى ما وراء قدميه العاريتين _ إذ كان قد خلع حذاءه وجوربه _ توجد محفظته الجلدية المسطحة، وفى هذه المحفظة توجد مقالة كتبها بنفسه عن موضوع البنية المحتملة للكون؛ إذ كان يعتقد ذات يوم أن الكون ربما يتكون من قطع لانهائية من الخيط تشتمل على ٣٢ لونًا مختلفًا، وقطع الخيط هذه متناهية فى الصغر للغاية؛ حتى إن " الألوان" ليست سوى أسلوب فى

التكلم والتعبير والشرح، ولكنه الآن تساوره الشكوك؛ إذ هناك احتمالات أخرى من الناحية النظرية، ولقد أشار إلى احتمالين اثنين منهما فى المقالة التى كتبها، فالكون من الصعب تثبيته فى موضع ما، لأنه يتغير عندما تنظر إليه كما لو أنه يقاوم إدراكه بمعرفة الإنسان.

وكان من المقرر أن يسلم مقالته هذه فى اليوم قبل الأمس فى فرانكفورت، وكان من المفترض له أن يكون قد استمع إلى مقالات أخرى عن الموضوع نفسه وانتهى من دراستها وتفحصها، وإلى جوار محفظته الجلدية المسطحة حشرت تحت المقعد جاكتته التى هى واحدة من الثلاث جاكيتات التى يمتلكها، وهو قد شمر ذراعى قميصه ولكن ذلك لا يحل المشكلة ، فجهاز تكييف الهواء معطل والهواء فى داخل الطائرة ساخن للغاية، هذا علاوة على أن الهواء له رائحة كريهة، فعلى الأقل واحد من التواليتات معطل، كما أن الناس يكثرون من الضراط والفساء أثناء وجودهم فى الطائرات على النحو الذى لاحظه أخى من قبل بعد أن أتيحت له الفرصة للسفر كثيرًا بالطائرات، وهذا الوضع متضاعف ومتزايد كثيرًا الآن بسبب الهلع الذى يعتبر ضارًّا بعملية هضم الطعام، وعلى مسافة مقعدين يشخر رجل بدين أصلع الرأس، مع فتح فمه وإطلاق سحابة غير مرئية من الأنفاس الكريهة الرائحة.

الستائر على النوافذ مسدلة، أخى يدرك أنه إذا أصبح بمقدوره أن يرفع ستارته، فإنه سيرى ممرًا يتلألأ مع شدة الحرارة، وإلى ما وراء الممر سيرى منظرا طبيعيًّا قاتمًا وغريبًا مثل القمر مع وجود بحر يخطف بالأبصار فى الخلفية وبعض مبانى مستطيلة بنية لها أسقف مسطحة وهى التى سيصدر عنها إرجاء تنفيذ حكم الإعدام أولاً، لقد شاهد كل هذا قبل إسدال الستائر، وهو لا يعرف اسم الدولة التى توجد بها هذه المبانى.

إنه لم يتناول أى طعام منذ هذا الصباح، الساندوتشات وصلت من الخارج، خبز حبيبى غريب والزبدة عليه فى حالة سيولة مع وجود نوع ما من معجون

أقرأناكموه

اللحوم التى لها لون الصوف الطبيعى والتى تذكر الإنسان بمادة التومين Ptomaine السامة علاوة على قطعة من الجبنة المعسولة الشاحبة الملفوفة فى ورقة من البلاستيك، فأكل هذه الجبنة والساندوتش، وتفوح الآن من يديه رائحة الطعام الذى يؤكل فى الرحلات الخلوية ورائحة وجبات الساندوتشات التى تؤكل على قارعة الطريق فى وقت الحرب.

آخر جرعة من الماء قد قدمت فى تقطير منذ أربع ساعات، إنه لديه شريط من أقراص روح النعناع، وهو دائما ما يأخذ معه هذه الأقراص فى أسفاره بالطائرات لكى يتناول بعضها فى حالة حدوث مطبات هوائية كثيرة، وأعطى قرصا للمرأة التى هى فى منتصف العمر وترتدى نظارة كبيرة والتى كانت جالسة إلى جواره، إنه يشعر بالارتياح بعض الشىء لأنها قد غادرت ؛ فبكاؤها الصامت الشاحب المستمر على وتيرة واحدة الملىء بالتشمم بالأنف كان قد بدأ يسبب له الضيق والتوتر، لقد سمح لجميع النساء والأطفال بمغادرة الطائرة ولكنه ليس امرأة أو طفلاً، وكل الذين تركوا فى داخل الطائرة من الرجال.

وكانوا قد أبعدوا عن بعضهم البعض بحيث يجلس كل اثنين مع بعضهما مع ترك مقعد شاغر بين كل مجموعة وأخرى، وكان قد تم جمع جوازات السفر الخاصة بهم، وأولئك الذين قاموا بجمع الجوازات يقفون على مسافات فى المماشى الموجودة بين الكراسى، وهم ستة أشخاص، ثلاثة منهم مزودون بالمدافع الرشاشة الصغيرة والثلاثة الآخرون معهم قنابل يدوية، وهم جميعًا يرتدون أكياس مخدات الطائرة على رؤوسهم مع فتح ثقوب من أجل العيون والأفواه، مما يجعلها تبدو فى الضوء الخافت مثل ومضات بيضاء اللون ومثل تلألؤات وردية، وتحت أكياس المخدات هذه التى لها لون أحمر تبدو ملابسهم عادية.

وهم قد صعدوا بالطبع إلى متن الطائرة تحت ستار أنهم من المسافرين وإن كان لا أحد يعرف كيف تمكنوا من المرور بأسلحتهم عبر بوابات الأمن، ومن المؤكد أنهم قد حصلوا على المساعدة من جانب شخص ما يعمل فى المطار بحيث

أمكن لهم أن يقفزوا وهم فى داخل الطائرة بالطريقة التى فعلوها أثناء عبور بحر المانش، وأن يصيحوا مصدرين الأوامر وملوحين بالأسلحة الموجودة معهم، إما أن الأمر كان على هذا النحو، أو أن الأسلحة كانت مخبأة منذ بادئ الأمر فى أماكن سرية بالطائرة نظرًا لأنه لا يمكن لأى شىء معدنى أن يجتاز أشعة إكس فى هذه الأيام.

يوجد رجلان أو ربما ثلاثة رجال أخرين فى كابينة الطيار يقومون بالتفاوض مع برج المراقبة عبر جهاز اللاسلكى، إنهم حتى الآن لم يبلغوا المسافرين بأى شىء ولم يكشفوا عن هويتهم أو مطالبهم، كل ما قالوه بلهجة إنجليزية ثقيلة وإن كانت واضحة ومفهومة هو أن كل شخص على متن الطائرة سيعيش مع الآخرين أو يموت مع الآخرين، أما باقى الكلام فكان بمثابة كلمات ذات مقطع واحد مع الإشارة بالأيدى : أنت.. هنا، ومن الصعب معرفة العدد الإجمالى لهم وذلك بسبب الشكل المتماثل لأكياس المخدات. إنهم يشبهون تلك الشخصيات الواردة فى الكتب الهزلية الكوميدية القديمة وهى الشخصيات التى لها هويتان متماثلتان.

لا أعرف ما إذا كان هذا أم لا هو الذى فكر فيه أخى، ولكن هذا هو ما أعتقده نيابة عنه الآن.

ولا يستطيع أخى الخلود إلى النوم على عكس الرجل المفتوح الفم الجالس إلى جواره؛ لذلك فهو يشغل نفسه فى التفكير فى بعض الحيل والخدع النظرية ، ما الذى يمكن له أن يفعله لو كان هو فى الوضع نفسه لهؤلاء الناس الذين يرتدون المخدات فى رؤوسهم ؟ إنه التوتر الخاص بهم والإثارة المتعلقة بوضع اليد على الزناد الخاصة بهم والأدرينالين المسدود الخاص بهم هو الذى يملأ الطائرة على الرغم من الأجساد المرتخية للمسافرين وتعبهم واستسلامهم.

أقرأناكموه

لو كان هو الذى يقوم بالدور الذى يقومون به لكان بالطبع على استعداد لأن يموت.. ودون هذا الافتراض فإن العملية تكون بغير هدف وحمقاء وغير معقولة، ولكن أموت من أجل ماذا ؟ ربما يكون هناك دافع دينى وإن كان يوجد أيضًا شىء ما أكثر إلحاحًا وأهمية، النقود أو إطلاق أشخاص آخرين موجودين فى السجن بسبب ارتكاب نفس العمل الذى يفعله هؤلاء الناس الآن أو بسبب تفجير شىء ما أو التهديد بتفجير شىء ما، أو بسبب إطلاق الرصاص على شخص ما.

كل هذا شىء مألوف على نحو ما، الأمر يبدو وكأنه عاش مثل هذه اللحظات الرهيبة من قبل منذ فترة طويلة مضت، وعلى الرغم من أن الموقف متسم بالبغض والكراهية والتوتر والسأم والخوف، فإنه لديه شعور معين بالمشاركة الجماعية، إنه يأمل أن يتمكن هؤلاء الناس من التحلّى بضبط النفس والثبات ويعيشون الموت بين الجميع، فهو يأمل ألا يكون هناك بكاء يسيل المخاط من الأنف والتبول فى البنطلون بين المسافرين، وألا يكون هناك سعار واهتياج شديد مع الانفجار فى الصراخ وتفجير مذبحة مليئة بالنرفزة الشديدة، ما يريده لهم هو يد باردة وعين ثابتة.

لقد دخل رجل قادم من مقدمة الطائرة ويتحدث مع اثنين من الآخرين. الأمر يبدو وكأنه جدل ومناقشة، توجد حركات بالأيدى وكلمة عالية، الرجال الواقفون الآخرون مشدودون فى توتر بينما رؤوسهم المربعة الحمراء تتفحص المسافرين مثل رادارات غربية، أخى يدرك أنه ينبغى عليه عدم تلاقى عينيه مع أحد فيواصل تنكيس رأسه، وينظر إلى الجيب الشبكى النيلون الموجود أمامه، وفى اختلاس يقوم بتقشير الغلاف عن حبة من حبات روح النعناع لكى يتناولها.

الرجل الجديد الذى ظهر مؤخرًا يبدأ فى السير فى الطرقة بين المقاعد التى يجلس عليها المسافرون بينما رأسه المستطيلة ذات الثلاثة ثقوب تستدير من جانب إلى آخر، ويسير رجل آخر خلفه، وفى خفاء تتسرب موسيقى عبر نظام الاتصال البينى intercom، الموسيقى عذبة وموحية بالنعاس والتحذير، ويتوقف

الرجل بينما رأسه الكبير يتحرك فى ثقل نحو اليسار مثل رأس وحش ما قصير النظر وبطىء وغبى، ويمد ذراعًا ويشير بيده : انهض **Up**، إنه أخى الذى يشير إليه لكى ينهض.

***

وهنا أتوقف عن الكلام الملفّق، لقد تكلمت مع شهود العيان المتبقين على قيد الحياة؛ ولذلك أعرف أن أخى يقف ويحرر نفسه مارًّا بجوار الرجل الموجود فى مقعد الطرقة قائلا له: " لو سمحت ". التعبير على وجهه هو تعبير حب استطلاع الملىء بالذهول؛ فهؤلاء الناس من المتعذر فهمهم وسبر أغوارهم، ربما قد اعتقدوا بطريق الخطأ أنه شخص ما آخر، أو ربما يريدون منه أن يساعد فى عملية التفاوض، لأنهم يسيرون به فى اتجاه كابينة القيادة الموجودة بالجزء الأمامى من الطائرة؛ حيث يقف هناك شخص آخر فى حالة انتظار وقد ارتدى كيس المخدة على رأسه.

إنه الشخص الذى يفتح له الباب مثل بواب فندق مهذب مما أدى إلى اندلاع الوهج الكامل للنهار، فعقب شبه الظلام يصبح الجو وضاء للغاية مما يجعل أخى يقف وينظر بعينين طارفتين شبه مفتوحتين نحو الصورة الرائعة للرمال والبحر التى تبدت له، بطاقة بريدية لإجازة سعيدة، وبعدئذ يسقط بسرعة تفوق سرعة الضوء.

هذه هى الكيفية التى يدخل بها أخى إلى الماضى.

* * *

أقرأناكموه

لقد سافرت بالطائرات وكنت فى المطارات على مدى ١٥ ساعة لكى أصل إلى هنا، وشاهدت المبانى بعد ذلك كما شاهدت البحر والامتداد الخاص بمدرجة هبوط الطائرات وإقلاعها أما الطائرة نفسها فقد أقلعت، فكل ما حصلوا عليه فى نهاية الأمر هو حق مواصلة الانطلاق بالطائرة فى أمن وأمان safe conduct.

لم أرغب فى التعرف على الجثة أو مشاهدتها على الإطلاق، إذا لم تشاهد الجثة يكون من السهل عليك أكثر أن تعتقد أنه لا يوجد هناك شخص ما ميت، ولكنى كنت أرغب بالفعل فى أن أعرف ما إذا كانوا قد أطلقوا عليه النيران قبل الإلقاء به أو بعد ذلك، حتى يمكن له أن يكون قد شهد تلك اللحظة الخاطفة المتعلقة بالهرب وضوء الشمس والطيران المزعوم.

لم أظل مستيقظة طوال الليل فى تلك الرحلة؛ إذ لم أرغب فى النظر إلى النجوم.

الجسد له الدفاعات الخاصة به وله طريقته فى اعتراض سبيل الأمور. الناس الحكوميون قالوا إننى كنت مدهشة ورائعة بما يعنى أنهم اعتقدوا أننى لست إنسانة مزعجة وبغيضة، لم أصب بالانهيار ولم أجعل من نفسى موضوعًا للفضول أو السخرية، وتكلمت مع مراسلى الصحف ووسائل الإعلام وقمت بالتوقيع على الاستمارات والأوراق واتخذت القرارات، كانت هناك أمور كثيرة لم أشاهدها أو أفكر فيها إلا بعد مرور فترة زمنية طويلة، ما فكرت فيه آنئذ كان يتعلق بتوأم الفضاء... space twin وهو ذلك الشخص الذى انطلق فى رحلة بين الكواكب، ثم عاد بعد أسبوع ليجد أخاه التوأم أكبر منه فى السن بعشر سنوات.

قلت لنفسى فى تفكير: إننى الأن سأصبح أكبر سنًّا، بينما هو لن يصبح كذلك.

* * *

(٦٩)

لم يفهم والداى أبدًا مسألة موت ستيفن، لأن ذلك الموت قد تم دون سبب، أو دون سبب كان له علاقة به، ولم يستطيعا أبدًا الإفاقة من هذه الكارثة، قبل حدوث الكارثة كانا متسمين بالنشاط والتيقظ والقوة، وبعد الكارثة ظهر عليهما الشحوب والذبول.

وقالت أمى: " لا يهم كم يبلغون من العمر، فهم دائمًا أطفالك "، تقول لى هذا كشىء سأحتاج لأن أعرفه فيما بعد.

أصبح والدى أكثر قصرًا ونحافة وأكثر ذبولاً وتغضنا وأصبح يجلس على مدى فترات طويلة دون أن يعمل شىء، وذلك على عكس نشاطه السابق، وهذا هو ما قالته أمى عبر التليفون فى مخابرة تليفونية بعيدة المدى.

الأبناء لا ينبغى أن يموتوا قبل آبائهم، فهذا وضع غير طبيعى، إنه النظام الخاطئ، لأنه من الذى سيواصل شق طريقه فى الحياة وتدبير الأمور ؟

* * *

والداى قد ماتا بالطريقة العادية بسبب الأشياء التى تتسبب فى وفاة الناس الكبار فى السن والتى ستتسبب فى وفاتى شخصيًا بأسرع مما أظن؛ إذ مات والدى بسرعة ثم ماتت والدتى عقب وفاة والدى بسنة بسبب الإصابة بمرض أكثر بطئًا وأشد ألمًا، وقالت والدتى: " إنه لشىء حسن أن والدك قد مات بالسرعة التى مات عليها، فإنه كان سيكره أن يصاب بمرض بالآلام الشديدة "، وهى لم تقل أبداً أى كلام عن كرهها لمرضها البطىء المؤلم الذى تعانى منه.

أقرأناكموه

ابنتاى جاءتا لقضاء أسبوع فى نهاية الصيف عندما كانت أمى مازالت فى منزلها فى منطقة سو soo، وكان بمقدورنا جميعًا أن نتظاهر بأن هذا كان مجرد زيارة أخرى، ظللت باقية مع أمى عقب رجوع ابنتى؛ حيث قمت بأعمال الحفر واقتلاع الأعشاب الضارة من الحديقة، علاوة على المساعدة فى غسل الأطباق لأنها لم يكن عندها أبدًا غسّالة للأطباق، كما قمت بغسل الملابس فى الغسالة الأتوماتيكية، ولكن مع نشر الغسيل على الحبال لأن أمى كانت تعتقد أن تجفيف الملابس من خلال الغسالة يستهلك الكثير من الطاقة الكهربائية، علاوة على إعداد الفطائر الرقيقة المسطحة المدورة، تمثيل دور طفلة.

* * *

والدتى مرهقة ولكنها تموج بالقلق، إنها لا تغفو فى سنة من النوم فى فترة ما بعد الظهر وتصر على السير إلى المتجر الموجود عند ناصية الشارع، وتقول: " أستطيع أن أتدبر أمورى "، ولا تريد لى أن أطبخ لها، وتقول لى: " لن تجدى أى شىء فى هذا المطبخ "، بما يعنى أنها تعتقد أنها لن تعثر على أى شىء بنفسها إذا ما بدأت أنا فى إفساد ترتيب الأشياء الموجودة بالمطبخ، أحضر لها طعامًا وأستحثها على تناوله، وأقول لها إن الطعام سيلقى فى سلة المهملات إذا لم تتناوله، التبذير مازال مصدر قلق وذعر بالنسبة لها، أصطحبها إلى السينما مع التأكد أولاً من أن الفيلم لا يحتوى على عنف أو جنس أو موت، كما أصطحبها إلى مطعم صينى بالشمال، فى الأيام القديمة كانت المطاعم الصينية هى الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها.

إنها تتناول أقراص قتل الآلام painkillers وبعدئذ تتناول أقراصًا أشد قوة من أجل قتل الآلام، إنها تستلقى فى السرير على مدى فترات أطول من ذى قبل، وتقول: " إننى مسرورة لأننى لست مضطرة لأن تجرى لى عملية جراحية فى

المستشفى " وتضيف: " إننى لم أدخل إلى المستشفى إلا فى حالة الولادة، ومع ولادة ستيفن أعطونى الأثير المخدر، فغبت عن الوعى فى لمح البصر، وعندما أفقت وجدته إلى جوارى فى السرير " .

إنها تتحدث كثيرًا عن ستيفن: " أتذكرين تلك الروائح الكريهة الكيماوية التى كان يطلقها ؟ وكان ذلك فى اليوم الذى دعوت فيه الناس لحضور حفلة بريدج عندنا، ولكننا اضطررنا لأن نفتح الأبواب والنوافذ رغم البرد الشديد فى عز الشتاء" أو تقول: " أتذكرين تلك الكتب الكوميدية التى كان يخزنها تحت سريره ؟ لقد كان لديه عدد كبير للغاية من هذه الكتب، ولقد تخلصت من هذه الكتب عقب تركه لنا؛ حيث اعتقدت أنه لا توجد فائدة من وراء هذه الكتب، ولكننى سمعت أن الناس قد قاموا بجمع هذه الكتب والاحتفاظ بها ومن المؤكد أنها تشكل ثروة كبيرة الآن. لقد كنا ننظر دائمًا إلى هذه الكتب على أنها نفايات "، وتقول هذا على أنه كان بمثابة حماقة من جانبها، وهى عندما تتحدث عن ستيفن فإنه لا يزيد عمره أبدًا عن ١٢ عامًا، فهو بعد هذه السن أصبح فى غير متناول يديها، وأبدأ أدرك أنها كانت – أو مازالت – تخشاه وتشعر بالرهبة أمامه وتخاف منه بعض الشىء، لم تكن تنوى أن تلد شخصًا كهذا.

* * *

تقول أمى لى ذات يوم: " أولئك البنات قد تسببن فى إدخالك فى أوقات عصيبة ورديئة للغاية " لقد أعددت فنجانين من الشاى لنا _ فهى مسموح لها بتناول الشاى _ ونجلس إلى مائدة المطبخ نحتسى الشاى، إنها مازالت مندهشة لأنها ضبطتنى متلبسة بشرب الشاى وسألتنى مرات عديدة عما إذا كنت لا أفضل اللبن.

أقول: " أى بنات ؟ " أصابعى فى حالة حطام، أمزق أصابعى فى هدوء بعيدا عن الرؤية تحت سطح المنضدة مثلما أفعل لدى مواجهة أوقات عصيبة وهى عادة رديئة قديمة لا أستطيع التخلص منها.

أقرأناكموه

تنظر إلى فى شىء من الخبث والمكر كما لو كانت تختبرنى، وتقول: " أولئك البنات : كورديليا وجريس والبنت الأخرى، التى تسمى كارول كامبيل "

أقول: " كارول ؟ " وأتذكر فتاة قصيرة وبدينة تطوح بحبل لعبة " نط الحبل" .

تقول: " بالطبع كورديليا كانت أفضل صديقة لك فى المدرسة الثانوية، ولم أعتقد على الإطلاق أنها هى التى دبرت ذلك الموضوع، وإنما التى دبرت وتآمرت هى جريس وليست كورديليا، وأنا دائمًا ما اعتقدت أن جريس هى التى شجعت كورديليا على تنفيذ ذلك الموضوع، ترى ما الذى حل بها وماذا حدث لها ؟ "

أقول: " ليس لدى فكرة "، إننى لا أريد أن أتحدث عن كورديليا، مازلت أشعر بالذنب تجاهها بسبب ابتعادى عنها وعدم تقديمى لها يد العون والمساعدة.

وتقول: " لم أعرف ماذا ينبغى على أن أفعله، لقد جئن إلى فى ذلك اليوم وقلن إنه قد تم احتجازك فى المدرسة لأنك كنت وقحة مع المدرسة، إنها كارول التى قالت ذلك الكلام، فلم أصدق أنهن يقلن الحقيقة ". إنها تتجنب استخدام كلمة : يكذب lie بقدر المستطاع.

أقول فى حذر: " عن أى يوم تتحدثين ؟ " إننى لا أعرف ذلك اليوم الذى تعنينه، فهى قد بدأت تخلط ما بين الأشياء فى داخل ذهنها بسبب الأدوية والعقاقير التى تتعاطاها.

" ذلك اليوم الذى كنت على وشك أن تتجمدى فيه من البرد الشديد، لو كنت قد صدقتهن لما ذهبت للبحث عنك، سرت على الطريق وإلى الجبانة ولكنك لم تكونى موجودة هناك. " وتنظر إلى فى قلق كما لو كانت تسائل نفسها فى تعجب عما يمكن لى أن أقوله من الكلام.

أقول: " أوه، نعم " مدعية أننى أعرف الموضوع الذى تتحدث هى عنه، فأنا لا أريد أن أسبب لها التشويش والارتباك الذهنى، إلا أننى نفسى بدأت أشعر بالتشويش يتصاعد إلى داخل ذهنى، إن ذاكرتى مرتجفة ومهزوزة، للحظات خاطفة أشاهد كورديليا وجريس وكارول وهن يسرن نحوى عبر اللون الأبيض المذهل للثلج بينما وجوههن واقعة فى الظلال.

وتقول أمى: " كنت أموج بالقلق الشديد " ما تريده منى هو العفو والصفح ولكن الصفح عن ماذا ؟

* * *

فى بعض الأيام تبدو أكثر قوة مع إعطاء الإيحاء بأنها تتحسن صحيًا. اليوم تريد منى أن أساعدها فى تصنيف وترتيب الأشياء الموجودة فى البدروم. وتقول فى رقة : " لكى لا تضطرى لأن تتعاملى مع الكثير من هذه الأشياء الخردة القديمة فيما بعد " إنها لا تريد أن تذكر كلمة : الموت **death**. إنها تريد أن ترحم مشاعرى.

أنا لا أحب البدرومات، وهذا البدروم غير مستكمل : أسمنت رمادى اللون وعارضات خشبية فى سقف مائل، أحرص على التأكد من ترك الباب المؤدى إلى الدور العلوى مفتوحًا، وأقول: " ينبغى عليك أن تعملى على تركيب درابزين لهذه السلالم بمعرفة العمال، فهذه السلالم ضيقة ولا يمكن الاعتماد عليها".

تقول أمى: " يمكن لى أن أركب الدرابزين بنفسى "، إنها تحاول الرجوع إلى تلك الأيام التى شهدت قدراتها على تنفيذ مثل تلك الأعمال.

ونقوم بتُفحص وترتيب المجلات القديمة والصناديق المختلفة المصنوعة من الورق المقوى وأرفف البرطمانات النظيفة، وتخلصت من كميات منها، فأنقل

أقرأناكموه

الأشياء المستغنى عنها إلى الجراج، هنالك بالجراج تبدو وكأنها أشياء مستغنى عنها.

يوجد رف كامل يخص الأحذية والأحذية التى لها رقبة الخاصة بوالدى ، أحذية مدنية لها جلد مثقب وأحذية علوية وأحذية مطاطية كاوتشية لها رقبة وأحذية لبادية لها رقبة من أجل صيد الأسماك وأحذية لها رقبة ونعل ثقيل من أجل المشى فى الغابات ولها أربطة جلدية، بعض هذه الأحذية تبلغ من العمر ٥٠ عامًا أو أكثر، أدرك أن والدتى لن تتخلص من هذه الأحذية، ولكنها لا تعلن موقفها منها، باستطاعتى أن أحس بما تتوقعه منى فى مجال ضبط النفس، لقد تفجعت كثيرًا على وفاة والدى أثناء الجنازة، إنها ليست بحاجة لأن تتعامل مع طفلة باكية، ليس الآن.

أتذكر مبنى الحيوانات القديم الذى اعتدنا الذهاب إليه فى يوم السبت من كل أسبوع، وأتذكر دهاليزه المليئة بالسخونة الشديدة وبالأصوات التى تشبه الصرير، وأتذكر زجاجات مقلاة العيون وروائح مادة الفورمالديهايد والفئران، وأتذكر الجلوس إلى مائدة الطعام مع كورديليا بينما تحذيرات والدى تغمرنا فوق رؤوسنا، وأتذكر الماء الذى أصابه التلوث والأشجار التى أصابها التسمم والأنواع المتلاحقة من الكائنات التى ماتت نوعًا وراء نوع مثل النمل الذى يتم سحقه تحت الأقدام، لم نعتقد آنئذ أن مثل هذه الأمور كانت بمثابة نبوءات، كنا ننظر إليها على أنها مثيرة للملل وأنها بمثابة دردشة يقولها الناس الكبار ولا شأن لنا بها ولا تخصنا، وكل ما قاله قد تحقق الآن.. بل تحقق على نحو أشد سوءًا، إننى أعيش فى الكابوس الخاص به ليس أقل صدقًا لكونه غير مرئى، مازال بمقدورك أن تتنفس الهواء ولكن إلى متى ؟

وفى مواجهة تنبؤاته الكئيبة توجد ابتهاجات والدتى التى تستعيد الأحداث الماضية وتتأمل فيها على نحو مرغوب فيه للغاية.

* * *

نبدأ البحث فى صندوق المبخرة، إنه الصندوق الذى أتذكره منذ أن كنا فى منزلنا بتورونتو، مازلت أنظر إليه على أنه صندوق غامض وعلى أنه مستودع لكنز، وأمى أيضًا تنظر إلى هذا على أنه بمثابة مغامرة أو تجربة مثيرة ، تقول إنها لم تنظر إلى الأشياء الموجودة فى هذا الصندوق منذ سنوات طويلة، وإنها ليس لديها فكرة عن الأشياء الموجودة فى داخله.

أفتح الصندوق، فتتصاعد لأعلى رائحة كرات النفتالين، وتبزغ ملابس الطفل الرضيع مطوية فى ورق رقيق شبه شفاف، له لون فضى وردى وأسود/ أصفر، فتقول: " احتفظى بهذه من أجل البنات، أنت تأخذين هذه الملابس "، ثم يظهر فستان الزفاف وصور الزفاف التى تضم الأقارب التى لها لون بنى داكن، ثم عبوة من الريش، ثم بعض الرقعات الخاصة بلعبة البريدج مع وجود بعض الشرابات عليها، ثم اثنان من قفازات الأطفال البيضاء اللون، وتقول والداتى: " كان والدك راقصًا بارعًا وذلك قبل أن نتزوج "، لم يسبق لى أن عرفت هذه المعلومة من قبل.

نتوغل لأسفل بين الطبقات مع إزاحة النقاب عن الاكتشافات : صورى الخاصة بالمدرسة الثانوية، فمى المزدان بأحمر الشفاه غير مبتسم ، شعر شخص ما موجود فى مظروف ، فردة جورب واحدة لطفل رضيع مشغولة بالتريكو، كما يوجد قفاز قديم ومريلة واحدة، بعض هذه الأشياء سيتم الاحتفاظ بها والبعض الآخر سيتم التخلص منه، ولسوف آخذ بعض هذه الأشياء معى، لدينا العديد من الكومات.

أمى فى حالة من البهجة والإثارة، وينتقل جزء من هذه الإثارة إلىَّ بطريق العدوى، وإن كانت ليست بهجة خالصة.

عبوات ستيفن من البطاقات التجارية للطائرات مربوطة مع بعضها البعض بشرائط من البلاستيك يعلوها الصدأ، وسجل القصاصات الورقية الخاص به

أقرأناكموه

ورسوماته عن الانفجارات، وبطاقات التقارير القديمة الخاصة به، وهذه الأشياء تضعها أمي على جانب.

الرسومات الخاصة بي وسجل القصاصات الورقية الخاص بي، توجد صور لبنات صغيرات أتذكرهن الآن، ثم أجد في دفاتر القصاصات بعض الصور غير المألوفة المقصوصة من مجلات، أجساد نساء مرتديات ملابس ترجع إلى الأربعينيات ملصقة مع رؤوس نساء أخريات.

تقول أمي: " أنت كنت تحبين تلك المجلات، لقد اعتدت على الاستغراق في قراءتها على مدى ساعات طويلة عندما كنت مريضة في السرير ".

تحت دفاتر القصاصات الورقية الخاصة بي يوجد ألبوم الصور القديم الخاص بي؛ حيث الصفحات السوداء مربوطة مع بعضها برباط يشبه رباط الحذاء، الآن أستطيع أن أتذكر قيامي بوضع هذا الألبوم في الصندوق قبل التحاقي بالمدرسة الثانوية.

تقول أمي: " نحن قدمنا لك هذا الألبوم هدية في عيد الكريسماس لكي تتلاءم مع الكاميرا الخاصة بك "، في داخل الألبوم توجد صورة لأخي وهو ممسك بكرة ثلجية كما توجد صورة لجريس سميث وهي مرتدية تاجًا من الزهور، كما توجد صورة لي وأنا مرتدية جاكيت له كمان قصيران للغاية وواقفة عند باب كابينة في موتيل، والباب مكتوب عليه رقم ٩ .

وتقول أمي: " إنني لا أعرف على وجه الدقة ما حدث لتلك الكاميرا " وتضيف: " من المؤكد أنني تخلصت منها بإعطائها لشخص ما بعد أن لاحظت أنك فقدت الاهتمام بها " .

أدرك وجود حاجز بيننا، ذلك الحاجز ظل موجودًا بيننا على مدى فترة طويلة للغاية، إنه شيء ما شعرت بالاستياء منه، أرغب في لف ذراعي حولها في احتضان، ولكنني أتراجع.

تقول أمى: " ما هذا ؟ "

فأقول: " هذا هو كيس نقودى القديم، لقد اعتدت أن آخذه معى لدى ذهابى للكنيسة "، كنت أفعل ذلك، الآن أستطيع رؤية الكنيسة ومشاهدة البصلة الموجودة على برجها ومقصوراتها ومقاعدها الخشبية الطويلة ونوافذها ذات الزجاج الملون " مملكة الرب فى داخل كيانك _ "THE KING DOM OF God IS Within You وتقول والدتى فى ضحكة خفيفة: " إننى لا أعرف السبب الذى جعلنى أحتفظ بكيس النقود هذا "، وتضيف: " ضعيه مع كومة الأشياء التى سيتم التخلص منها ". إنه مهروس فى تسطح وتجعد بينما البلاستيك الأحمر مشقق عند الجوانب فى الأماكن التى توجد بها الخياطة، ألتقطه وأضغط عليه فى محاولة لإرجاعه إلى شكله الأصلى، وفى داخله يخشخش شىء ما، أفتحه وأستخرج منه عين القطة الزرقاء الخاصة بى.

تقول والدتى فى بهجة طفولية: " قطعة من الرخام "، وتضيف: " أتذكرين تلك القطع من الرخام التى اعتاد ستيفن على جمعها ؟ "، فأقول: " نعم "، ولكن هذه القطعة كانت ملكى أنا، أنظر إلى عين القطة الزرقاء فأشاهد حياتى كلها أمامى.

* * *

(٧٠)

على مسافة فى هذا الشارع كان يوجد دكان، وكنا نشترى منه حلوى العرقسوس واللبان وشراب البرتقال والحلوى المستديرة الناشفة السوداء اللون.

أقرأناكموه

وكان الثمن فى حدود بنس واحد به رأس الملك وعبارة : جورج السادس بنعمة من الله وفضله Georg ius vi Dei Gratia .

لم يخطر على بالى أبدًا أن الملكة يمكن أن تكبر فى السن وتصبح عجوزًا شمطاء، وكلما أشاهد رأسها المقطوع على النقود أتخيلها كفتاة تبلغ من العمر ١٤ عامًا وترتدى زى البنات المرشدات ولها ظهر معتدل فى استقامة مثلما ينبغى أن تكون عليه ظهورنا، وناظرة لأسفل نحوى من قصصات الجرائد التى لها لون مائل إلى الصفرة والمثبتة على سبورة الصف الرابع الخاصة بالسيدة لاملى وواقفة أمام ميكروفون الراديو ومتجهة فى اهتمام وفى خوف مكبوت ومستحثة للقوات أثناء سقوط القنابل على لندن بينما كنا نتغنى بأنشودة " لسوف تكون هناك دائمًا دولة تسمى إنجلترا "، مع تلويحات المؤشر الخشبى للسيدة لاملى فى انعطاف زمنى عقب مرور ثمانى سنوات.

أصبح للملكة منذ ذلك الحين أحفاد وآلاف من القبعات المستغنى عنها، كما أصبح لها خدّان كبيران ولغد، ولا شيء من كل هذا يضللنى، فالانطباع القديم عنها وهى صغيرة فى السن مازال موجودًا فى داخل ذهنى.

* * *

أواصل السير على مدى المبانى التالية وأستدير على الناصية متوقعة مشاهدة الشكل المستطيل الداكن للمدرسة المشيدة بطوب له لون أحمر شبيه بلون الكبد المجفف ومشاهدة فناء المدرسة الملىء بالرماد ورؤية النوافذ الطويلة الضيقة...

إلا أن المدرسة قد اختفت من على ظهر الأرض، وفى مكانها بزغت مدرسة جديدة على الفور مثل سراب وهمى، ألوانها فاتحة وعلى شكل مبنى ضخم لامع وحديث.

أشعر بصفعة فى فم معدتى، لقد أزيلت المدرسة القديمة ومسحت من الوجود، وبدا الأمر وكأنها لم توجد من قبل على الإطلاق، أستند على عامود تليفون فى حيرة وذهول كما لو أن شيئًا قد اقتطع من مخى، وعلى نحو فجائى أشعر بالتعب الشديد حتى النخاع، أشعر أننى أرغب فى الذهاب للنوم.

وبعد برهة قصيرة أصل إلى المدرسة الجديدة، وأتجه نحوها من خلال البوابة وأسير فى بطء حولها، من الواضح تمامًا أنهم قد ألغوا اللافتات المكتوب عليها : " الأولاد " و " البنات "، وإن كان لا يزال يوجد سور شبيه بالسلاسل، وفناء المدرسة به مراجيح متناثرة هنا وهناك وبها قضبان للتسلق عليها علاوة على وجود أدوات انزلاق... فى ألوان أولية ناصعة، وكان عدد قليل من الأطفال قد عادوا مبكرين عقب تناول طعام الغداء فراحوا يتجولون ويتسلقون فى جهد وإعياء. من المؤكد أن خلف هذه الأبواب الزجاجية البيضاء لم تعد توجد المؤشرات الخشبية الطويلة أو الشريط المطاطى الأسود أو المكاتب الخشبية الناشفة أو المحبرات، ولم تعد توجد ضحكات مكتومة تتعلق بالملابس الداخلية ولا نساء طاعنات فى السن لهن شوارب خفيفة ولاذعات وقاسيات، ولم تعد توجد أسرار قاسية؛ فكل مثل هذه الأشياء قد ذهبت إلى غير رجعة.

ذهبت إلى الجزء الخلفى من المدرسة، يوجد هناك التل المتآكل مع أشجاره القليلة المتناثرة؛ إذن هذا الجزء لا يزال على ما كان عليه إلى حد كبير.

لا أحد يوجد فوق التل.

أصعد على السلالم الخشبية وأقف فى المكان الذى اعتدت أن أقف عليه. فى المكان الذى مازلت عليه أشعر أننى لم أبتعد عنه من قبل على الإطلاق. أصوات الأطفال المترامية من الفناء السفلى يمكن أن تكون أصوات أطفال منتمية لأى فترة زمنية. الأضواء تحت الأشجار تتكاثف فى احتشاد وتصبح مليئة بالحقد والضغينة، البغض والحقد **will ! ! !** يحدق بى. من الصعب على أن أتنفس، كأننى

أدفع شيئًا ما وأدفع ضغطًا جاثمًا علىَّ مثل فتح باب مغلـــق تدفعـــه مـــن الخـــارج عاصفة ثلجية.

أخرجينى من هذا المكان يا كورديليا، فأنا محبوسة فى داخله.

لا أريد أن أكون فى سن التاسعة للأبد.

الهواء عليل وخريفى، والشمس تسطع، إننى واقفة فى هدوء دون إبداء أى حركة، ومع ذلك أسير منكسة الرأس نحو الرياح غير المتحركة.

الباب الرابع عشر

نظرية المجال المتحد

Unified Field Theory

أقرأناكموه

(٧١)

أرتدى فستانى الجديد بعد أن أقطع البطاقة المكتوب عليها السعر باستخدام أداة قطع الأسلاك الخاصة بجون، على الرغم من كل شىء، أنتهى بارتداء اللون الأسود مرة أخرى، ثم أذهب الى غرفة الحمام لكى أتفحص نفسى فى المرآة الضبابية غير الملائمة، بعد أن ارتديت هذا الفستان الجديد، فإنه يبدو شبيهًا للغاية بكل الفساتين السوداء الأخرى التى سبق أن امتلكتها. أبحث فى الفستان لكى أرى ما إذا كان يوجد به نسالة، ثم أضع أحمر الشفاه على شفتى، وبعدئذ يبدو منظرى جميلاً من وجهة نظرى، أبدو جميلة وتافهة وجديرة بالإهمال.

كان يمكن لى أن أنعش نفسى على نحو ما، كان ينبغى أن أرتدى قرطًا متدليًا من نوع ما وبعض الأساور ورباط رقبة فضيًا فراشى الشكل على سلسلة صغيرة ووشاحًا كبيرًا ماركة إيزادورا دونكان، وبروشًا به ماسة زائفة زجاجية من النوع الذى يرجع إلى الثلاثينيات، ولكننى لا أرتدى أى شىء من هذه الأشياء، ولم يعد هناك متسع من الوقت لكى أخرج وأشترى أى شىء منها، لقد اعتادوا أن يقيموا الحفلات التى يذهب إليها المرء وهو مرتدى الملابس نفسها التى اعتاد أن يرتديها **come as – you – are parties**، وأنا سأذهب إلى هذه الحفلة مرتدية الملابس التى اعتدت ارتداءها.

* * *

إننى موجودة فى المعرض فى وقت مبكر بحوالى ساعة، شارنا **charna** ليست موجودة هنا أو الأخريات، ربما يكن قد خرجن من أجل تناول الطعام أو من أجل تغيير ملابسهن وهو الاحتمال الأرجح، ولكن كل شىء معد وجاهز : كؤوس

أقرأناكموه

الخمر ذات السيقان السمكية المستأجرة وزجاجات الخمر المتوسطة الجودة وزجاجات المياه المعدنية التى هى من أجل الممتنعين تمامًا عن تناول الخمور، لأنه من الذى سيقدم الكلور الصرف من الحنفية ؟ الجبنة ناشفة عند أطرافها، والعنب المنقوع فى الكبريت الحلو المذاق والذكى الرائحة واللامع مثل الشمع الملىء بالدماء قادم من مزارع كاليفورنيا، ولا فائدة من وراء معرفة الكثير من هذه الأشياء؛ ففى نهاية الأمر لا يوجد شىء يمكن أن تضعه فى فمك دون أن تتذوق طعم الموت فيه.

الساقية فى البار امرأة شابة لها عينان قاسيتان وشعر هلامى وظهر غير مشيد تقوم بتلميع الأكواب خلف المنضدة الطويلة التى تحل محل البار، أنتزع منها كأسا من الخمر، إنها تؤدى عملها كساقية من أجل الحصول على النقود ورباطة جأشها تدل على ذلك؛ فطموحاتها الحقيقية توجد فى مكان ما آخر، تزم شفتيها أثناء صب الخمر لى فى تقتير وبخل ، إنها راضية عنى، ربما تريد أن تصبح رسامة، وتظن أننى قبلت بتسوية مذلة وعرضت مبادئى للشبهات وأننى اعتدت على أن أسلك سلوك الفاجين بنفسى.

أسير فى بطء فى أرجاء الصالة مع الارتشاف من كأس الخمر الخاص بى والسماح لنفسى بالنظر إلى المعرض فى تفحص لأول مرة، لكى أحدد الأشياء الموجودة والأشياء الأخرى غير الموجودة، يوجد كتالوج من إعداد شارنا **charna** ومطبوع بالكمبيوتر، أتذكر الكتالوج الذى أعد من أجل المعرض الأول والذى طبع على ماكينة نسخ والذى كان ملطخًا وغير مقروء والذى كان فقره يدل على أصالته، وأتذكر صوت الأسطوانة وهى تدور وآثار الحبر وأتذكر الألم المتفجر فى ذراعى.

* * *

طريقة الكرونولوجيا أو تقسيم الزمن إلى فترات هى التى انتصرت على الرغم من كل شىء، الأشياء المبكرة معروضة على الحائط الشرقية والأشياء المنتمية لما تسميه شارنا بالفترة الوسطى معروضة على حائط النهاية، أما على الحائط الغربية فتوجد لوحات خمسة من إنتاجى لم أعرضها من قبل على الإطلاق، وهى كل ما أنتجته خلال السنة الماضية؛ فأنا أعمل فى مزيد من البطء فى هذه الأيام.

توجد هنا اللوحات المعبرة عن الحياة الثابتة المنزلية، وتقول شارنا: "غزوات مبكرة بريشة ريسلى **Risley** فى مملكة الرمزية الأنثوية والطبيعية الجذابة للأشياء المنزلية "، وهى بكلمات أخرى اللوحات التالية : محمصة الخبز الكهربائية + جهاز راووق القهوة + الغسالة العصارة الخاصة بوالدتى + الأرائك الثلاثة + الورق المعدنى الفضى اللون.

وعلى مسافة منى يوجد كل من جون وجوزيف، أنظر إليهما فى شىء من الإعجاب وأنظر إلى عضلاتهما وإلى أفكارهما السديمية الضبابية عن النساء، شبابهما مثير للرعب، كيف أمكن لى أن أضع نفسى فى أيدى مثل هذه الغرارة وعدم التجربة ؟

وبعدهما توجد السيدة سميث.. بل يوجد العديد من الصور لها : السيدة سميث الجالسة والواقفة والمستلقية مع شجرة المطاط المقدسة الخاصة بها، السيدة سميث الطائرة فى تحليق، بينما السيد سميث ملتصق فى مؤخرتها فى لولبة مثل خنفساء، والسيدة سميث وهى مرتدية السروال الفضفاض المزموم عند الركبتين الأزرق الداكن الخاص بالآنسة لاملى التى تشارك على نحو ما معها فى تعاين تكافلى مخيف **symbio sis**، والسيدة سميث التى تنزع عنها لفائفها الورقية شبه الشفافة طبقة وراء طبقة، والسيدة سميث التى تفوق الحياة ضخامة وعلى نحو أكبر مما كانت عليه من قبل.

أقرأناكموه

أضع قدرًا كبيرًا من الجهد والعمل فى ذلك الجسد الذى أتخيله فى لون أبيض مثل جذور نبات الأرقطيون الشائك وأتخيله مترهلاً مثل دهون الخنزير ومليئًا بالشعر مثل الأجزاء الداخلية فى الأذن، وأنا أدرك الآن أننى قد تناولت ذلك الجسد بقدر كبير من الخبث وتعمد الأذى، إلا أن هذه الصور ليست فقط مليئة بالاستهزاء والسخرية والتدنيس؛ لأننى قد وضعت فيها أيضًا نورًا باطنيًّا؛ فكل ساق شاحبة وكل عين ذات إطار من الصلب تكون موجودة هنالك على النحو الذى كانت عليه وفى صدق شبيه بصدق خبز القربان، لقد قلت: " انظر **Look** " ولقد قلت: " إنى أرى **I see** ".

إنها الأعين التى أركز النظر عليها الآن، لقد اعتدت أن أعتقد أن هذه الأعين كانت عيونًا تعتقد أنها أقوم أخلاقًا من الناس الآخرين، وأنها عيون خنزيرية الشكل ومعتزة بنفسها فى الإطارات السلوكية الخاصة بها وهى بالفعل على ذلك النحو، ولكنها أيضًا عيون منهزمة وقلقة ومنخولية، ومثقلة بواجب غير محبب. عينا شخص ما كان القدر بالنسبة له بمثابة رجل عجوز سادى النزعة، عينا آداب سلوك مبتذلة لمدينة صغيرة. كانت السيدة سميث بمثابة نبات مزروع ومنقول إلى المدينة من مكان ما أصغر حجماً، كانت إنسانة مرحلة عن وطنها مثلما كنت أنا مرحلة.

الآن أستطيع مشاهدة نفسى من خلال هذه الأعين المرسومة للسيدة سميث : إننى صعلوكة متهرئة الرأس قادمة من مكان ما لا يعلمه إلا الله، إننى غجرية من الناحية العملية لها أب وثنى همجى ولها أم غير بارعة كانت تتسكع فيما حولها مرتدية بنطلونًا فضفاضًا وتقوم باقتلاع الأعشاب الضارة، وأنا لم يتم تعميدى وأنا وكر للشياطين والأرواح الشريرة، كيف أمكن لها أن تعرف أن جراثيم الكفر وعدم الإيمان تتكاثر فى تعاظم فى داخل كيانى ؟ ومع ذلك فهى قد قامت باستقبالى فى بيتها.

من المؤكد أن شيئًا من هذا صحيح، إننى لم أنصفها ولم أقدرها حق قدرها، بل لم أكن رحيمة بها؛ فأنا بدلاً من ذلك حاولت الانتقام منها ومهاجمتها.

مبدأ : العين بالعين لا يؤدى إلا إلى المزيد من العمى.

* * *

أنتقل إلى الحائط الغربية التى توجد بها اللوحات الجديدة، إنها أكبر من الحجم الاعتيادى وتتلاءم تمامًا مع مساحة الحائط.

اللوحة الأولى تسمى " ثوانى البيكو Picoseconds "، وتقول شارنا عن هذه اللوحة إنها بمثابة " لعبة للروح jeu d esrit ، تتخذ شكل مجموعة السبعة وتعيد تشييد رؤياها للمنظر الطبيعى فى ضوء التجربة المعاصرة وفى ضوء معارضة ما بعد التحديث "Pastiche .

وهى فى حقيقة الأمر لوحة لمنظر طبيعى رائع مرسومة بالزيت مع توضيح المياه الزرقاء والرسم التحتى الأرجوانى والصخور المليئة بالأجراف الشديدة الانحدار والأشجار الممزقة التى اجتاحتها الرياح والألوان والأصباغ الثقيلة للعشرينيات والثلاثينيات، وهذا المنظر الطبيعى يشغل مساحة كبيرة من اللوحة، وفى الركن السفلى الأيمن باللوحة يوجد والداى اللذان يقومان بإعداد وجبة طعام الغذاء حيث يعملان على مواصلة اشتعال النيران بينما الغلاى معلق فوقها، وتبدو أمى المرتدية الجاكيت ذا النسيج المربع النقش الخاص بها فى حالة انحناء؛ حيث تقوم بعملية التحريك والتقليب بينما والدى يضيف قطعة من الخشب للنيران، وتبدو سيارتنا ماركة ستوديو بيكر واقفة فى خلفية اللوحة.

وهذه اللوحات مرسومة بأسلوب آخر، أسلوب سلس ومعدل على نحو جميل وواقعى مثل لقطة فوتوغرافية؛ إذ يبدو الأمر وكأن ضوءًا مختلفًا يسقط

أقرأناكموه

عليها، أو كأنها تشاهد من خلال نافذة قد فتحت فى المنظر الطبيعى ذاته من أجل أن تظهر الخطوط الواقعة خلفها أو فى داخلها.

وتحت هذه اللوحات يوجد رصيف تحتانى يدعم اللوحات، ويوجد صف من الرموز الأيقونية الشكل المرسومة بالأسلوب المسطح للتصوير الجصى لمقابر قدماء المصريين بحيث يكون كل رمز مطوقًا فى مجال أبيض اللون، وردة حمراء + رورقة نبات القيقب لها لون برتقالى + محارة، وهى كلها فى حقيقة الأمر اللوجوس logos المأخوذ عن مضخات البنزين القديمة المنتمية للأربعينيات، ومن خلال اصطناعيتها الزائفة فإنها تشكك فى صدق المنظر الطبيعى وفى الأشكال على حد سواء.

* * *

واللوحة الثانية تسمى " الموزيات الثلاثة Three Muses (*)"، وقد وجدت شارنا بعض المتاعب مع هذه اللوحة، تقول ريسلى Risley: " تستمر فى هدمها للنوع gender المدرك وعلاقاته بالقوى المدركة وخاصة فيما يتعلق بالأيقونات الروحية المقدسة ". إذا كتمت أنفاسى ونظرت فى تفحص أستطيع أن أعرف من أين حصلت هى على ذلك؛ فكل الميوزات muses يفترض فيها أنها أنثويات ولكن واحدة منهن ليست أنثى، ربما كان ينبغى أن أطلق على اللوحة اسم " الراقصون الثلاثة three dancers " بدلاً من " الموزيات الثلاثة "، وبالتالى أخرج شارنا من حالة الحيرة والبؤس التى ألمت بها، ولكن الموزيات لسن راقصات.

إلى اليمين توجد امرأة قصيرة ترتدى معطف منزل مليئًا بأشكال للزهور كما ترتدى خفًا به فراء حقيقى، وفى يدها توجد قبعة حمراء مستديرة صغيرة لا حافة لها علاوة على بعض حبات الكرز، وهى لها شعر أسود وقرط ذهبى كبير.

(*) الموزية : إحدى الإلهات التسع الشقيقات اللواتى يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم فى الميثولوجيا الإغريقية.(المترجم)

وتحمل شيئًا ما مستديرًا فى الحجم نفسه لكرة البلاج والذى هو فى حقيقة الأمر عبارة عن برتقالة، وإلى اليسار توجد امرأة أكبر سنًا ولها شعر رمادى/ أزرق ومرتدية قميص نوم طويلاً فضفاضًا حريريًا، وفى كمها يوجد منديل، وعلى أنفها وفمها يوجد قناع ممرضة شاشى النسيج، ومن فوق القناع تنظر عيناها الزرقاوان اللامعتان المتغضنتان عند الحواف الحادتان مثل المسمار، وتحمل فى يديها الكرة الأرضية، وفى الوسط يوجد رجل نحيل له بشرة بنية اللون بعض الشىء وله أسنان بيضاء ويبتسم فى ابتسامة غامضة ملتبسة، وهو يرتدى زيًا شرقيًا أحمر وذهبيًا ويذكرنا بشخصية بالتهازار فى رواية " عبادة ماجى " بقلم جان جوسا إيرت Jan Gossaert، وإن كان دون التاج ودون الوشاح، وهو أيضًا يحمل شيئًا ما مستديرًا : إنه شىء مسطح مثل قرص يبدو وكأنه مصنوع من زجاج ملون أرجوانى، وعلى سطحه توجد أشياء عديدة وردية اللون ومرتبة على نحو عشوائى على ما يبدو، وهى أشياء تشبه تلك التى يعثر عليها فى اللوحات التجرَيدية، وهى فى حقيقة الأمر عبارة عن بيض ديدان، إلا إذا كان متخصصًا فى علوم البيذولوجيا.

وترتيب هذه الأشكال يذكرنا بإلاهات الحسن والجمال الشقيقات الثلاثة الإغريقيات الكلاسيكيات، أو يذكرنا بالأطفال الكثيرين المتعددى الألوان الملتفين حول السيد المسيح على واجهة كتاب مدرسة الأحد القديمة، أو واقف خارج نطاق اللوحة.

إنهم بمثابة : السيدة فاينشتاين + الآنسة ستيورات التى كانت مدرسة بالمدرسة + السيد بانيرجى، ليس على النحو الذى كانوا عليه من وجهة نظرهم. فالله وحده هو الذى يعرف ما شاهدوه حقًا فى حياتهم، أو ما كانوا يفكرون فيه أثناء حياتهم، فمن يعرف رماد أى معسكر اعتقال كان يهب يوميًا من خلال رأس السيدة

أقرأناكموه

فاينشتاين فى تلك السنوات التى أعقبت انتهاء الحرب ؟ وربما السيد بـانيرجى لـم يكن بمقدوره السير فى شارع هنا دون أن يخاف من قيام أحد بدفعـه أو التحـرش به، أو يخاف من كلام يُهمس به أو يقال فى صياح فى وجهه، والآنسة سـتيورات كانت منفية ومستبعدة من اسكتلندا الآخذة فى التدهور الواقعة على مـسافة ثلاثـة آلاف ميل، أنا بالنسبة لهم كنت بمثابة شىء اتفاقى تصادفى كما كانت شفقتهم على ضئيلة وعرضية، فأنا متأكدة أنهم لم يهتموا كثيرًا بتلك الشفقة أو لم يكن لديهم أدنى فكرة عما تعنيه تلك الشفقة، ولكن لماذا لا ينبغى على أن أكافئهم إذا كنـت أشـعر أننى أريد مكافأتهم، إننى أقوم بدور خلاق، إننى أحولهم إلى المجد والخلود فى حياة ما بعد الرسم **ofter life of paint**. وهذا أيضًا لن يعرفونه على الإطلاق؛ فهم الآن قد أصبحوا موتى أو طاعنين فى السن أو موجودين فى أى مكان آخر.

* * *

اللوحة الثالثة تسمى " جناح واحد **One Wing** "، ولقد رسمتها من أجل أخى عقب وفاته، وهى تتألف من ثلاثة أجزاء، لوحتين أو جزءين أصغر حجمًـا، فـى إحداهما توجد طائرة منتمية للحرب العالمية الثانية بأسلوب بطاقة سـجائر، وفـى الأخرى توجد فراشة كبيرة لها لون أخضر باهت.

أما اللوحة الأكبر حجمًا وهى اللوحة الرئيسية فيوجد بها رجل ساقط مـن السماء، ويعرف من وضعه المقلوب رأسًا على عقب أنه فى حالة سقوط وليس فى حالة طيران؛ حيث كان فى وضع مائل نحو بعض السحب القليلة، ولكنه مع ذلـك يبدو هادئًا، وهو يرتدى الزى الرسمى لسلاح الطيران الملكى الكندى **RCAF**، وهو غير مزود بالبراشوت، ويمسك فى يده سيفًا خشبيًا شبيهًا بسيوف الأطفال.

هذه هى نوعية الأشياء التى نفعلها لكى نهدئ الآلام، وتظن شارنا أن هذه اللوحة بمثابة كشف حساب عن الرجال والطبيعة الصبيانية للحرب.

* * *

والرسم الرابع يسمى " عين القطة ".. وهو صورة ذاتية self _ portrait رديئة النوع، رأس موجودة فى مقدمة الصورة من جهة اليمين، وإن كانت تعرض فقط من منتصف الأنف فصاعدًا لأعلى: مجرد النصف العلوى من الأنف، بينما العينان تنظران نحو الخارج وتوجد الجبهه والطبقة العلوية للشعر، وأظهرت التجاعيد الأولية وقدمى الدجاجة الصغيرتين عند زوايا جفنى العينين، وأظهرت القليل من الشعر الرمادى، وهذا نوع من التزييف؛ إذ إننى فى حقيقة الأمر أقتلع الشعر الرمادى.

وخلف نصف رأسى وفى وسط الصورة وفى السماء الشاغرة تتدلى مرآة حائطية فى وضع معكوس ومحاطة بإطار مزخرف، وفى داخل هذه المرآة يظهر قطاع من الجزء الخلفى من رأسى، ولكن الشعر هنا يبدو مختلفًا وأكثر شبابًا وعلى مسافة وعلى نحو مكثف، من خلال الفراغ المنحنى للمرآة توجد ثلاثة هياكل صغيرة لفتيات صغيرات مرتديات ملابس شتوية ومنتميات لفترة زمنية ترجع إلى ٤٠ عامًا مضت، إنهن يسرن للأمام وقد تظللت وجوههن فى مواجهة حقل من الثلوج.

* * *

والصورة الأخيرة تسمى " نظرية المجال المتحد " وهى عبارة عن مستطيل عمودى أكبر من الصور الأخرى، ويوجد فى ثلثها العلوى كوبرى خشبى، وعلى جانبى الكوبرى توجد قمم أشجار عارية وخالية من الأوراق مع وجود طبقة من الثلوج عليها مثلما يحدث عقب تساقط جليد ثقيل دامع، وهذا الجليد موجود أيضًا على درابزين الكوبرى ودعاماته.

وفوق قمة درابزين الكوبرى – ولكن دون أن تتلامس أقدامها تمامًا مع الدرابزين – توجد امرأة مرتدية ثوبًا أسود اللون مع وجود قلنسوة أو حجاب أسود

أقرأناكموه

على شعرها، ويوجد على عباءتها أو فستانها الأسود نقاط من الضوء المتناثرة هنا وهناك، والسماء خلفها لها شكل السماء عقب غروب الشمس، وفى قمة السماء يوجد النصف السفلى للقمر، ووجهها واقع تحت الظلام بعض الشيء. إنها عذراء الأشياء المفقودة، وبين يديها وعند مستوى قلبها تمسك بشيء زجاجى، رخامة عين القطة ذات حجم كبير بها جزء مركزى له لون أزرق.

وتحت الكوبرى توجد السماء الليلية كما ترى من خلال تليسكوب، نجوم متناثرة حمراء وزرقاء وصفراء وبيضاء، وسديم وراء سديم فى حالة دوران ومجرة وراء مجرة ، الكون فى توهجه الحرارى وظلامه، أو هكذا تعتقد عندما تشاهد اللوحة، ولكن توجد هناك أيضًا فى أسفل اللوحة أحجار وخنافس وجذور صغيرة؛ لأن هذا هو الجانب السفلى للأرض.

وعند الجانب السفلى للوحة ينقشع الظلام بعض الشيء تدريجيًّا، ويدخل إلى الدرجات الفاتحة للون فيظهر اللون الأزرق الصافى للماء، لأن الجدول المائى الصغير ينساب هناك أسفل الأرض وأسفل الكوبرى ونابعًا من عند الجبانة، أرض الناس الموتى.

* * *

أذهب إلى البار وأطلب كأسًا أخرى من الخمر، الخمور من نوعية أفضل من تلك الخمر التى اعتدنا على شرائها من أجل مثل هذه الشئون التجارية والفنية.

أجتاز الحجرة وأنا محاطة بالزمن الذى صنعته والذى هو ليس مكانًا والذى هو ليس سوى لطخة ضبابية غير واضحة وبمثابة الحافة المتحركة التى نعيش فيها، والذى هو فى حالة سيولة، والذى ينقلب على ذاته مثل موجة، ربما اعتقدت أننى كنت أحتفظ بشيء ما من الزمن وأنقذ شيئًا ما من الزمن مثل أولئك الرسامين كافة المنتمين لقرون مضت والذين ظنوا أنهم ينزلون السماء **Heaven** إلى

الأرض وينزلون وحى الله وتجلياته وينزلون النجوم السرمدية، فإذا بألواحهم المصنوعة من الخشب والجص تتعرض للسرقات وتوضع فى أماكن غير لائقة وتحرَق وتحطَّم إلى أجزاء متناثرة وتتدمر من خلال التعرض للعفن والصدأ والعفن الفطرى.

سقف راشح بالماء وعود ثقاب وبعض الكيروسين يمكن أن يقضى تمامًا على كل هذا، لماذا تقدم هذه الفكرة نفسها إلى ليس من باب الخوف وإنما كإغراء ؟

لأننى لم أعد أسيطر على هذه اللوحات أو أخبرها بما تعنى، كل طاقة متضمنة فى هذه اللوحات قد خرجت من كيانى، وأنا النفاية المتبقية.

* * *

(٧٢)

الآن تشق شارنا طريقها نحوى وهى مرتدية رداء من الجلد له لون بنفسجى ومخشخشة بالذهب الاصطناعى، إنها تدفعنى فى رقة لكى أذهب الى المكتب الخلفى، إنها لا تريد لى أن أتسكع فى أرجاء المعرض الشاغر من الناس فى انطلاق وحرية بينما بوادر الناس المهتمين بالفنون يفدون إلى المعرض تدريجيًا، إنها لا تريد لى أن أبدو خائفة من الفشل ومتلهفة أكثر من اللازم. إنها ستبزغ أمام الجمهور معى لأول مرة فيما بعد عندما تصبح الضوضاء عالية بالقدر الكافى.

وتقول لى: " يمكن لك الاسترخاء هنا "، مع أن الاسترخاء وعدم التوتر أمر غير وارد فى هذا الجو المليء بالتوتر، وفى مكتبها أحتسى كأسى الثانى مع

أقرأناكموه

السير جيئة وذهابًا فى الغرفة الشاغرة، هذا الوضع يشبه حفلات عيد الميلاد التى تجهز فيها المبخرات والبالونات، بينما السجق فى حالة انتظار فى المطبخ ولكن ماذا لو لم يحضر أى شخص ؟ وما هو الأسوأ، إذا لم يجيئوا أم إذا جاءوا ؟ سرعان ما سيفتح الباب ويتدفق إلى الداخل حشد من البنات الصغيرات المخادعات الخائنات اللاتى ينخرطن فى همس مع الإشارة بالأيدى وعندئذ سأصبح مستسلمة فى عبودية وممتنة وشاكرة.

يبدأ العرق يتسرب إلى يدى، أظن أن تناولى لكأس أخرى من الخمر سيهدئ من روعى وهذا فى حد ذاته يعتبر علامة سيئة، ولسوف أخرج إلى هناك وأحاول أن أغازل شخصًا ما لمجرد التجربة ولكنى أرى ما إذا كان لا يزال بمقدورى أن أجذب اهتمام أى شخص، ولكن ربما لن أجد هناك أى شخص أتغازل معه، وفى هذه الحالة سأنخرط فى تناول المزيد من الخمور وأصبح ثملة، وربما سأتعرض للتقيؤ فى التواليت سواء مع الإفراط فى تناول الكحوليات أو دونه.

إننى لا أبدو متدهورة على هذا النحو الشنيع فى أماكن أخرى، ما كان ينبغى على الرجوع إلى هنا وإلى هذه المدينة التى تضمر الأذى لى، ظننت أنه بمقدورى أن أحملها على التردد والإذعان من خلال التحديق فى وجهها، ولكنها مازالت تتمتع بالنفوذ والسلطة مثل مرآة لا تظهر لك سوى النصف المشوه من وجهك.

أفكر فى الهروب من الباب الخلفى، ويمكن لى أن أرسل برقية فيما بعد زاعمة فيها إصابتى بمرض فجائى.

ولكن شارنا تبزغ مرة أخرى من فتحة الباب فى الوقت المناسب وقد احمر وجهها من شدة الإثارة، وتقول لى: " يوجد الآن بالفعل أعداد كبيرة من الناس، وهم فى أشد الشوق للتقابل معك، ونحن جميعًا فخورون بك " هذا يشبه كثيرًا ما يمكن أن تقوله أسرة أو أم أو خالة بشأن عدم تيقظى لكل هجوم قد يشن

على، من هى هذه العائلة وعائلة من تكون هى ؟ لقد تم وضعى فى إطار معين : الطفلة المتمردة أمام حفلة بصدد تقديمها عن عزف منفرد على البيانو، أو جواد الحرب المليء بندبات غائرة ناجمة عن الإصابة بطلقات نارية، أو المحارب القديم المشارك فى معارك قديمة لا يكاد يذكرها أحد والذى على وشك أن يتم تقديمه مع ساعة ذهبية ومصافحة بالأيدى وقرار بالشكر صادر من القلب، هالة متلاشية من الحبر الأزرق تتعلق بما حولى.

وعلى نحو فجائى تجيء شارنا إلى وتعانقنى فى احتضان سريع ورنان. ربما يكون ذلك الدفء حقيقيًا وأصيلاً، وربما ينبغى على أن أخجل من أفكارى القاسية المتسمة بالسخرية والشكوك، وربما هى تحبنى حبًا حقيقيًا وتتمنى لى كل الخير، أكاد أن أصدق ذلك.

* * *

أقف فى صالة العرض الرئيسية وأنا مرتدية السواد ابتداءً من رقبتى حتى أخمص قدمى وقد أمسكت بكأسى الثالثة من الخمر، لقد انطلقت شارنا الآن وراحت تبحث بين الجمهور عن الناس الذين يتحرقون شوقًا لمقابلتى، إننى أضع نفسى تحت تصرفها، أمد رقبتى وأحملق بين الجمهور الذى حجب اللوحات فلم يعد يظهر منها سوى بعض قمم الرؤوس وبعض السماوات والخلفيات والسحب، أظل فى حالة توقع وترقب، أو فى حالة خوف من أن الناس الذين ينبغى أن أعرفهم أو سبق لى التعرف عليهم سيظهرون أمامى وعندئذ لن أتمكن من التعرف عليهم إلا بصعوبة بهم سوف يسيرون بخطوات واسعة نحوى وقد مدوا أيديهم، بنات من المدرسة الثانوية قد أصبحن مترهلات أو متضائلات فى الحجم مع ظهور التجاعيد على بشرتهن، وأصدقاء boy friends منتمون لثلاثين عامًا مضت أصبح لهم رؤوس صلعاء أو شوارب نامية أو أجسام ذابلة متجعدة ومتضائلة .

أقرأناكموه

" يا إيلين ! سبحان الله ! what a heck إنه لشيء عظيم أن نراك ". ولسوف يكون من السهل عليهم التعرف علىَّ وعلى نحو يفوق مقدرتى على التعرف عليهم، لأن صورتى موجودة على الملصقات الحائطية، ولسوف تكون ابتسامتى مليئة بالترحيب، ولسوف يكون ذهنى محمومًا بينما أسبر أغوار الماضى فى محاولة لتذكر أسمائهم.

فى حقيقة الأمر فإنها كورديليا التى أتوقع مشاهدتها أو إنها كورديليا التى أرغب فى مشاهدتها؛ فأنا بحاجة لأن أسألها عن بعض الأمور، لا أريد أن أسألها عن أشياء حدثت فى الماضى وفى الزمن الذى فقدته لأننى أعرف الآن تلك الأحداث، وإنما أنا بحاجة لأن أسألها عن السبب.

إذا كانت تتذكر، فربما تكون هى قد نسيت الأشياء الردئية التى قالتها لى أو فعلتها فى، أو ربما تتذكر تلك الأفعال والأقوال كافة ولكن على نحو ضئيل كما لو كانت تتذكر مباراة أو نكتة واحدة أو سرًّا تافها واحدًا من نوع الأمور التى تقولها البنات ثم تنساها بعدئذ.

ولسوف تكون لها الرؤية أو الترجمة version الخاصة بها، فأنا لست الجزء المركزى الخاص بقصتها، لأنها هى فى حد ذاتها بمثابة الجزء المركزى الخاص بها، ولكن بمقدورى أن أعطيها شيئًا ما لا يمكن لك الحصول عليه إلا من خلال شخص آخر : ما تبدو عليه من الخارج، انعكاس، هذا هو ذلك الجزء من ذاتها الذى يمكن لى أن أعيده إليها.

نحن نشبه التوأمين twins فى القصص الخرافية القديمة الذى يعطى لكل منهما نصف مفتاح.

* * *

كورديليا سوف تسير متجهة نحوى وتشق طريقها بين جمهور الافتتاح، ولسوف تكون امرأة لها عمر متأرجح، ولسوف تكون مرتدية فستانًا من القماش

التويد الأيرلندى الأخضر الباهت وقرطًا من اللؤلؤ المحاط بالذهب وحذاءً جميلاً، ولسوف تكون مهندمة أو أنيقة soigne'e كما اعتادوا أن يقولوا، ولسوف تكون معتنية بنفسها مثلما أعتنى بنفسى، ولسوف يكون شعرها خشنًا بعض الشىء وتكون ابتسامتها ساخرة، ولن أعرف من تكون هى.

* * *

يوجد عدد كبير من النساء فى هذه الغرفة والعديد من الرسامات وبعض الناس الأغنياء، تشارنا تحرص على اجتذاب الناس الأغنياء فى المقام الأول. أصافح الناس بالأيدى وأشاهد أفواههم وهى تتحرك، فى أى مكان آخر يكون لدى المزيد من القدرة على احتمال هذه الأمور، واحتمال الحركات المتعلقة باستعراض الذات؛ حيث يمكن لى مواجهتهم فى تحدٍ ووقاحة، ولكننى هنا أشعر أننى عارية ومكشوطة وأننى أشق طريقى بصعوبة.

من خلال الثغرة الموجودة بين الناس تشق فتاة صغيرة طريقها نحوى، إنها رسامة ما فى ذلك شك، ولكنها تقول لى صراحة إنها رسامة، إنها ترتدى تنورة قصيرة للغاية وشعرها مقصوص من الخلف على الطريقة التى اعتادتها أمى والتى كانت منتشرة فى أواخر الأربعينيات والتى تسمى " تسريحة الولد "، وهى إلى ما بعد Post أى شىء، فهى التى ستجىء عقب ما بعد Post، إنها بمثابة ما ستجىء بعدى.

تقول: " لقد أعجبت بإنتاجك القديم "، وتضيف: " حيث أعجبت بلوحة { نساء ساقطات }.... فهذه اللوحة تلخص لنا فترة زمنية بأكملها، أليس كذلك ؟ " إنها لا تهدف لأن تكون قاسية، وهى دون أن تدرى خفضت من قيمتى وأحالتنى إلى كومة التراب مع تليفونات الترنك ومشدات وكورسيهات عظم فك الحوت، فى الأيام السالفة كنت سأقول لها كلامًا ماحقًا وبعض التعليقات الوضيعة الحقيرة اللاذعة

أقرأناكموه

ولكننى الآن لا أستطيع أن أفكر فى أى شىء يخرج عن نطاق المرح، وأكتم غيظى وأقول: " إننى مسرورة للتعرف عليك "، عندما تساورك الشكوك اكذب من خلال أسنانك، إننى سعيدة الحظ حيث ما زال لدى أسنان لكى أكذب من خلالها.

إننى واقفة ومتجهة بظهرى نحو الحائط وقد أمسكت بكأس جديدة مليئة بالخمر، أمد رقبتى وأحملق بين الجماهير وفوق الرؤوس المصففة الشعر على نحو جيد، لقد حان الوقت لكى تبزغ كورديليا فى الأفق، ولكنها لم تظهر حتى الآن، الإحباط آخذ فى التصاعد والتزايد فى داخل كيانى، ثم يجىء نفاد الصبر وأخيرا يتجلى القلق الشديد، من المؤكد أنها شرعت فى المجىء فى اتجاه المعرض ومن المؤكد أن شيئًا ما حدث لها أثناء المجىء.

هذا يدور فى داخل رأسى بينما أقوم بمصافحة المزيد من الأيدى والتحدث بالمزيد من الكلام، ثم يتلاشى الزحام من الغرفة تدريجيا.

تقول شارنا فى تنهيدة من الارتياح على ما أعتقد: " الأمور سارت على ما يرام، وأنت كنت إنسانة رائعة ". إنها سعيدة لأننى لم أقم بلدغ وعض أى شخص ولم أسكب خمورى على سيقان الناس أو لأننى كنت أتصرف كفنانة، وتسألنى: "ماذا عن تناولك الطعام معنا جميعًا ؟"

أقول: " لا، لا، شكرا جزيلاً، إننى مرهقة حتى النخاع **I am bone tired** وأعتقد أننى سأرجع الآن "، أنظر فيما حولى مرة أخرى، كورديليا ليست موجودة هنا.

تعبير (مرهقة حتى النخاع) هو عبارة قديمة كانت تستخدمها والدتى دائمًا. رغم أن العظام **bones** لا تعانى من التعب عادة لأنها بحكم تركيبها قوية ومتينة ولها قدرة كبيرة على الاحتمال، بل إن العظام تستمر محتفظة بكيانها على مدى سنوات وسنوات عقب انتقال الجسد إلى رحمة الله.

إننى أخطو نحو مستقبل سأجلس فيه فى توكؤ فى كرسى المقعدين العاجزين وقد تساقط شعرى وسال لعاب فمى، بينما يقوم شخص ما غير قريب لى بوضع الطعام المهروس فى فمى باستخدام ملعقة.. ونحو مستقبل أقف فيه تحت الثلج وتحت الكوبرى وأظل مستمرة فى الوقوف بينما كورديليا تختفى وتتوارى.

أخرج إلى غسق رصيف المشاة... إلى خارج المعرض، أريد أن أستقل تاكسيًا، ولكنى لا أستطيع رفع يدى إلا بصعوبة بالغة.

لقد كنت مستعدة لمواجهة أى شىء تقريبًا، ولكن باستثناء الغياب وباستثناء الصمت.

* * *

(٧٣)

أستقل تاكسيًا، وأرجع إلى الاستوديو، وأصعد على سلالم الطوابق الأربعة المعتمة الإضاءة كأنها فى عمق الليل مع الاستراحة على منبسط الدرج فى كل طابق، أصغى لدقات قلبى التى تدق بسرعة بين ضلوعى وتحت طيات ملابسى. إنه قلب متهالك وفى حالة من الاضمحلال، ما كان ينبغى على أن أتناول كل هذه الكميات الهائلة من الخمور، الجو بارد هنا، لقد كانوا يحاولون الاقتصاد فى استهلاك الطاقة الكهربائية، صوت أنفاسى يترامى إلى على شكل شهقات متحررة من الجسد كما لو كان هناك شخص ما آخر يتنفس.

" كورديليا لديها ميل لأن توجد"

أقرأناكموه

أضع المفتاح فى ثقب المفتاح، أتحسس طريقى باحثة عن مفتاح الإضاءة الكهربائية، ثم أشق طريقى نحو المطبخ الصغير متفادية قطع الغيار الجسدية الزائفة المتناثرة هنا وهناك مع المشى فى تثاقل بعض الشىء ومع الاستمرار فى ارتداء معطفى بسبب البرد.

القهوة هى ما أحتاج إليه، أعد القهوة وألف يدى حول الفنجان الساخن وأتجه به إلى منضدة الشغل وأفسح مكانًا لمرفقى بين الأسلاك والأدوات التى لها حواف حادة، غدًا سأغادر هذه المدينة ولا توجد أى لحظة تعتبر قريبة للغاية. يوجد قدر هائل من الوقت القديم هنا.

أتناول قهوتى وأنا ممسكة بالفنجان المرتعش بينما السائل ينساب على ذقنى. إنه لشىء حسن أننى غير موجودة الآن فى مطعم، ليس من الملائم بالنسبة للسيدات أن يصبحن ثملات ومخمورات، دائمًا ما يُلتمس العذر للرجال المخمورين أكثر من التماسه بالنسبة للنساء، ولكن لماذا ؟ من المؤكد أن الناس يعتقدون أن الرجال لديهم أسباب أفضل تدعوهم لتناول كميات كبيرة من الخمور تؤدى بهم إلى الوقوع فى السكر والثمل.

أمسح ذراعى بوضع كم معطفى على وجهى المبلل بالدموع لأننى فى حالة انخراط فى البكاء، هذا شىء ينبغى أن أنتبه إليه وأحذر منه : البكاء دون سبب وجعل نفسى مثيرة للفضول والسخرية، أشعر أن منظرى أثناء البكاء مثير للفضول والسخرية، رغم أنه لا يوجد من يرقبنى فى داخل الاستوديو.

أنت ميتة يا كورديليا

لا، أنا لست ميتة

نعم أنت ميتة، أنت ميتة.

أستلقى على الأرض.

الباب الخامس عشر

الكوبرى

Bridge

أقرأناكموه

(٧٤)

إننى مصابة بدوار كما لو كنت مريضة تتمائل للشفاء، لقد نمت متكـــورة فى الدفتين المخملى الناعم وأنا مازلت مرتدية فستانى الأسود اللون؛ حيث لم تكـــن لدى القوة التى تعيننىَ على خلعه، استقيظت من النوم بعد الظهر، بينما رأسى يموج بالآثار البغيضة المختلفة عن الإسراف فى تناول الخمور لأكتشف أن الطائرة التى حجزت للسفر عليها قد أقلعت بالفعل، إننى لم أتناول مثل هذه الكميات الكبيرة مـــن الخمور منذ فترة طويلة مضت، ينبغى أن أكون على دراية أفـضل بـــالكثير مـــن الأمور.

الوقت الآن هو الفترة المتأخرة من بعد الظهر، السماء غير مائجة ورمادية ومنخفضة ورطبة وضبابية مثل ورق النشاف المبلل، اليوم يبدو شاغرًا وكأن كـــل شخص قد تحرك خارجًا منه وكأنه يحدث أى شىء آخر.

* * *

أمشى على رصيف المشاة مبتعدة عن المدرسة التى تم تسريح تلاميـــذها وتلميذاتها، إنه اتجاهى القديم الذى أسير فيه ومازال بمقدورى أن أسير فيـــه وأنـــا معصوبة العينين، وكما هو الحال دائمًا فى الشوارع أشعر أننى مكروهة.

بالأماكن السفلية تحتى يوجد الكوبرى، الكوبرى من هذا المكان يبدو خاليًا من الألوان، أقف فوق قمة التل وآخذ نفسًا، ثم أبدأ فى النزول.

أندهش كثيرًا لأنه لم تطرأ سوى تغيرات بسيطة وقليلة، فالمنازل على كلا الجانبين هى المنازل نفسها وإن كان الطريق الترابى الموصل قد اختفى؛ حيث حل

أقرأناكموه

محله طريق أسمنتى أنيق له درابزين، رائحة الأوراق الساقطة على الأرض مازالت موجودة هنا؛ حيث تنبعث من الأوراق الرائحة المحترقة الناجمة عن تعفنها البطىء، ولكن كرمات نباتات البلادونة ذات الأزهار الأرجوانية وذات التوت الأحمر وكذلك الأعشاب الضارة والأنقاض العشوائية قد أزيلت تمامًا وأصبحت الأشجار كافة مقلمة ومشذبة، وأصبح كل شيء متخذًا طابع المدينة أكثر من اتخاذ الطابع الريفى.

ومع ذلك توجد أصوات خشخشة وحفيف وأصوات منخفضة صادرة عن قطط تقوم بالاصطياد ومطاردة أشياء أخرى، رغم وجود جو عام مخادع من الأناقة والترتيب، كما يوجد منظر طبيعى أكثر توحشًا وتشابكًا ومتصاعد لأعلى من تحت سطح هذا المنظر.

نحن نتذكر من خلال شم الروائح مثلما تفعل الكلاب.

أشجار الصفصاف المتدلية على الطريق هى الأشجار نفسها، وإن كانت قد نمت مثلما نمَوت أنا أيضًا، وبالتالى فإن المسافة بيننا تظل ثابته. الكوبرى نفسه مختلف بالطبع، فقد أصبح مصنوعًا من الخرسانة المسلحة وأصبح مضاءً بالليل ولم يعد كوبريًّا خشبيًّا متداعيًا ومليئًا بروائح الصدأ والتآكل، ومع ذلك فيمكن القول إن الكوبرى هو الكوبرى نفسه.

برطمان ستيفن مدفون هنالك فى مكان ما، الصمت منتشر ولا توجد أصوات أطفال، ولا شيء سوى صياح غراب وإلى ما وراء هذا الصياح يترامى صوت حركة المرور البعيدة الشبيهة بصوت البحر، أستند بذراعى على السور الأسمنتى وأنظر لأسفل من خلال الأغصان الخالية من الأوراق والتى تشبه الشعب المرجانية الجافة، لقد اعتدت أن أعتقد أننى إذا قفزت من فوق الكوبرى لن يكون الأمر شبيهًا بالسقوط وإنما سيكون أشبه بالغطس، وأننى إذا مت بهذه الطريقة فإن موتى سيكون مريحاً وسلساً تمامًا مثل الغرق فى الماء، وإن كان على مسافة بعيدة

أسفلى توجد يقطينة ملقاة على الأرض ومفتوحة فى تهشم وتبدو على نحو بغيض مثل رأس مهشمة.

الوادى الصغير الضيق الشديد الانحدار ملىء بالأشجار والشجيرات على نحو يفوق ما كان يوجد به عادة، ويترقرق بين الأشجار جدول مائى صغير تتدفق به مياه غير آمنة وغير صالحة للشرب، لقد أزالوا الخردة وأجزاء السيارات الصدئة وإطارات السيارات المستغنى عنها، فهذا لم يعد طريقًا تلقى فيه الزبالة والنفايات وإنما أصبح طريقًا يمشى فيه الناس الهوينى من أجل النزهة والتريض. والطريق المفروش بالحصباء الموجود أسفلى يتجه صاعداً نحو التل ومنه إلى الطريق البعيد وإلى الجبانة؛ حيث ينتظر الناس الموتى وينسون أنفسهم ذرة وراء ذرة مع الانصهار والذوبان مثل كتل جليدية مدلاة والتدفق لأسفل، فى انحدار مع التل نحو الجدول المائى الصغير.

ذلك هو المكان الذى سقطت فيه فى الماء، وتلك هى ضفة الجدول المائى التى زحفت عليها فى التصاق لأعلى، وذلك هو المكان الذى وقفت فيه بينما الثلج يتساقط على ويغمرنى إلى أن أصبحت غير قادرة على استجماع إرادتى التى تعيننى على المشى والتحرك، وذلك هو المكان الذى سمعت فيه الصوت.

لم يكن يوجد هناك أى صوت، ولا أحد جاء ماشيًا على الهواء نحوى وقادمًا من الكوبرى، ولم تكن توجد هناك سيدة مرتدية عباءة سوداء تنحنى فوقى، وعلى الرغم من أنها قد رجعت إلى الآن فى وضوح مطلق وكامل من حيث كل التفاصيل المتعلقة بها، فإننى أدرك أن الخطوط الخارجية لشكلها المرتدى قلنسوة فى مواجهة الأنوار المترامية من الكوبرى واحمرار قلبها المترامى من تحت عباءتها وهذه كافة الأمور لم تحدث؛ إذ لم يكن يوجد سوى الظلام والصمت، ولا أحد ولا أى شىء على الإطلاق.

* * *

أقرأناكموه

يوجد صوت ، إنه حذاء يدب على صخرة سائبة، لقد حان الوقت لكى أعود، أبتعد عن الجدار الأسمنتى، والسماء تتحرك من جانب لآخر.

أدرك أننى إذا استدرت الآن ونظرت أمامى على الطريق سأشاهد شخصًا ما واقفًا هناك، فى بادئ الأمر أعتقد أن ذلك الشخص سيكون أنا نفسى المرتدية جاكيتى القديمة وقبعتى الزرقاء المشغولة بالتريكو، ولكن بعد لحظات أدرك أن ذلك الشخص هو كورديليا، إنها واقفة فى منتصف الطريق الصاعد نحو التل ومحملقة إلى الوراء عبر كتفها ومرتدية جاكيت الثلج الرمادى الخاص بها، ولكن قلنسوتها مدفوعة إلى الخلف ورأسها عارٍ، وهى مرتدية جورب الركبة الصوفى الأخضر نفسه الذى تزحلق وهبط حول رسغى قدميها. الحذاء المدرسى البنى اللون البالى نفسه من عند أصابع القدمين والذى قطع أحد أربطته وعُقِدَ، ولها الشعر البنى / الأصفر نفسه مع الخصلة الساقطة على عينيها اللتين لهما لون أخضر / رمادى.

الجو بارد، بل أصبح أكثر برودًا، بمقدورى سماع صفيف الطبقات الجليدية الرقيقة التى تتكون على الأشجار وخرير الماء المتحرك تحت الثلج.

أدرك أنها تنظر إلى بينما فمها المائل على جانب يبتسم قليلاً ووجهها مغلق فى تحدٍّ، ويوجد إدراكى نفسه للخطأ والضعف والارتباك الخاص بى الرغبة نفسها فى أن يحبنى الآخرون، والشعور بالوحدة والاكتئاب نفسه، والشعور نفسه بالخوف، ولكن هذه العواطف والأحاسيس لم تعد هى أحاسيسى على الإطلاق، وإنما هى أحاسيس كورديليا وعلى النحو الذى كانت عليه دائمًا.

إننى الأكبر سنًّا الآن، إننى الأكثر قوة الآن، لو ظلت هى هنا لفترة أطول فإنها سوف تتجمد حتى الموت، لن أصطحبها معى وسأخلفها ورائى وأتركها فى الزمن الخاطئ، يكاد الأمر يصل إلى مرحلة : سبق السيف العزل .

أمد يدى نحوها وأنحنى لأسفل مع فتح راحتى يدى لكى أظهر أننى غير ممسكة بسلاح، وأقول لها: " الأمور الآن أصبحت على ما يرام، يمكن لك أن تذهبى إلى منزلك الآن "، الثلج فى داخل عينى ينسحب مثل الدخان.

* * *

وعندما أستدير فى نهاية الأمر تصبح كورديليا غير موجودة هنالك، ولا توجد سوى امرأة فى منتصف العمر لها خدان ورديان وعارية الرأس؛ حيث كانت تمشى هابطة على التل ومتجهة نحوى وقد ارتدت بلوفرًا أبيض صوفيًا ثقيلاً وأمسكت بمقود أخضر اللون يوجد فى نهايته كلب صغير من كلاب الصيد التى تسمى التريز **terrier**، تمر بجوارى وتبتسم لى ابتسامة محايدة ومهذبة .

ولا يوجد شىء آخر يمكن لى أن أراه، الكوبرى ليس سوى كوبرى والنهر ليس سوى نهر والسماء ليست سوى سماء، وهذا المنظر الطبيعى شاغر الآن. إنه مكان يصلح للعدائين المتسابقين فى يوم الأحد، أو هو مكان غير شاغر، فهو ملىء بكل شىء قائم بذاته عندما لا أكون ناظرة إليه.

* * *

(٧٥)

إننى موجودة على متن الطائرة محلقة أو يحلق بى فى اتجاه الغرب نحو الساحل الملىء بالرطوبة ونحو جبال البطاقات البريدية، وأمامى ومن خلال النافذة

أقرأناكموه

تغوص الشمس فى استعراض ملىء بالألوان الحمـــراء والأرجوانيـــة والبرتقاليـــة القاتلة الخشنة الرائعة التى يتعذر رسمها فى لوحة فنية، ووراءى ينتشر الليل العادى مسدلاً طياته، وفى الأماكن السفلية تحتى على الأرض تتكـــشف المـــروج وتبـــدو شاسعة ودنيوية / أرضية ومقبولة ظاهريًا مثل هلوسات وهذيانات وقـــد أصـــبحت مغبرة بالفعل بالثلوج ومخربشة بالأنهار المتمعجة الملتوية.

أجلس بالمقعد المجاور للنافذة، وعلى المقعـــدين المجـــاورين لـــى توجـــد امرأتان عجوزان وقد ارتدت كل منهما سترة صوفية محبوكة من النوع المـــشغول بالتريكو، ولكل منها شعر أبيض / أصفر ونظارة لها عدستان سميكتان وبها سلسلة حول الرقبة، ولكل منهما فم مدهون بأحمر الشفاه ذى اللون الأحمر الفاقع، وهما قد أنزلا صينيتهما وتحتسيان الشاى وتلعبان لعبة الكوتشينة وتمسكان فى غيـــر إتقـــان بأوراق الكوتشينة الناعمة الانزلاقية وتضحكان بصـــوت يشبه صـــوت الـــسيارات التى تنطلق على الحصباء عندما تقعان فى أخطاء أو تلجآن للغش أثنـــاء اللعـــب، ومن وقت إلى آخر تنهضان وتمشيان فى تثاقل نحو مؤخرة الطائرة لكى تقومـــان بتدخين السجائر والوقوف فى الطابور من أجل الدخول إلى دورة المياه، وعنـــدما تعودان تطلقان نكات الحمام وتمزحان بشأن تبليل الملابس الداخلية بـــالبول وعـــدم توفر ورق التواليت مع النظر إلىّ فى مكر أثناء قولهما ذلك الكلام، أسائل نفـــسى فى تعجب: ترى ما هو عمرهما من وجهة نظرهما تحت هـــذا التنكـــر الخـــاص بجسديهما أو ما هو عمرى من وجهة نظرهما ؟ ربما أبدو من وجهة نظرهما فـــى مثل عمر أمهما.

تبدوان لى متحررتين من الهم والقلق على نحو مذهل، إنهما قـــد وفرتـــا الأموال واقتصدتا فى النفقات من أجل تدبير المبالغ اللازمة لهذه الرحلة وها همـــا ذاهبتان من أجل الاستمتاع على الرغم من إصابة إحديهما بالتهاب فـــى الـــشرايين ومعاناة الأخرى من أورام فى الساقين، إنهما صعبتا المـــراس، إنهمـــا ممتلئتـــان بالنشاط وفى أحسن الأحوال، إنهما عنيدتان وعنيفتان مثل طفلة فى الثالثة عـــشرة

من عمرها، إنهما بريئتان وقذرتان ولا تشعران بأى تبرم من حياتهما، المسئوليات قد أزيلت عن كاهلهما وكذلك الالتزامات والأحقاد القديمة والأحزان، والآن وعلى مدى فترة زمنية قصيرة يمكن لهما اللعب مرة أخرى مثل أطفال، ولكن فى هذه المرة دون آلام.

* * *

هذا هو ما أفتقده، إننى أفتقد كورديليا ليس من حيث هى شىء ما قد ولى وانصرم، ولكن من حيث هى شىء ما لن يتكرر حدوثه مرة أخرى، امرأتان عجوزتان تضحكان فى قهقهة أثناء تناولهما الشاى الخاص بهما.

* * *

الوقت الآن فى عمق الليل والسماء صافية وخالية من القمر ومليئة بالنجوم التى ليست أبدية وخالدة كما كان يعتقد فى يوم ما... والتى ليست موجودة بالمكان الذى نظن أنها موجودة فيه، فهى إذا كانت بمثابة أصوات فقد أصبحت بذلك أصداء لشىء ما قد حدث منذ ملايين السنين، كلمة تتألف من أرقام، أصداء لضوء يسطع من منتصف اللاشىء.

إنه ضوء قديم، ولا يوجد الكثير منه، ولكنه يكفى للرؤية من خلاله .

أقرأناكموه
telegram @ktabpdf

المؤلفة فى سطور :

مارجريت آتوود

ولدت فى ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ ، أوتاوا، أونتاريو، كندا.

تلقت تعليمها فى جامعة تورنتو، ١٩٦١، كما التحقت بجامعة هارفارد بكمبريدج، ٦٢ - ١٩٦٣، ٦٥ - ١٩٦٧.

تنقلت فى عدة مدن بكندا، والولايات المتحدة، وإنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا ، وهى حاليًا تعيش فى تورنتو منذ ١٩٩٢ .

عملت محاضرة للغة الإنجليزية فى عدد من الجامعات داخل كندا وخارجها، واستضافتها بعض الجامعات ككاتبة مثل : جامعة تورنتو ، جامعة ألاباما، جامعة نيويورك، جامعة ماكوارى بأستراليا، جامعة سان أنطونيو، بتكساس .

رئيسة اتحاد كتاب كندا من مايو ١٩٨١ إلى مايو ١٩٨٢، وأيضًا رئيسة المركز الكندى لنادى القلم الدولى ، فى الفترة من ١٩٨٤ - ١٩٨٦ .

متزوجة من الكاتب الكندى جرايم جيبسون Graeme Gibson، ولديهما ثلاثة أبناء.

بالإضافة إلى حصول عدد من كتبها على المركز الأول فى أفضل الكتب مبيعًا ؛ فقد حصلت على العديد من الجوائز الأدبية، ومنها جائزة بوكر عام ٢٠٠٠، عن روايتها The Blind Assassin، جائزة جيللر عام ١٩٩٦، عن المذنبة Alias Grace، جائزة رواية العام من مؤسسة المؤلفين الكنديين عام ١٩٩٣ عن روايتها The Robber Bride، وغير ذلك من الجوائز، بالإضافة إلى درجات الشرف من عدد من الجامعات الكندية والأمريكية.

في هذا الكتاب، تحكى لنا مارجريت آتوود قصة إلين رايزل، وهى رسَّامة طليعية تعود بعد زمن طويل إلى مدينتها الأم في تورنتو لحضور معرض فنى لاستعادة الذكريات. عندئذ، تجد إلين نفسها "هنا والآن" في هذا المعرض وهى ترى بعين حادَّة الرؤية أشبه بعين قطة جميع أحداث طفولتها القديمة المشاغبة. لقد مرَّت أعوام كثيرة وكثيرة منذ أن وطأت قدما إلين أرض كندا، حيث نشأت وتنقلت من مكان إلى آخر، وحيث تدين بموهبتها الإبداعية لمهنة أبيها الذى كان متخصِّصًا فى علم الحشرات. وفى هذا الكتاب أيضًا، تحكى لنا آتوود هذه القصة الشائقة عبر استرجاعات وارتدادات زمنية كثيرة، كما أن قصة حياة إلين الحالية - كرسَّامة أو فنَّانة تشكيلية تزوَّجت للمرة الثانية - يتناولها السرد ضمن تداعيات الطفولة العنيفة. وهكذا، تُقدِّم لنا الحبكتان وهما تجريان بشكل متواز كنهرين يلتقيان عند المصب حتى نبلغ نهاية الحكاية عندما يتصادم ماضى إلين مع حاضرها.

أقرأناكموه
telegram @ktabpdf

تصميم الغلاف: نسرين كشك

أقرأناكموه